جنكيز تشاندار
CENGİZ ÇANDAR

قطار الرافدين السريع

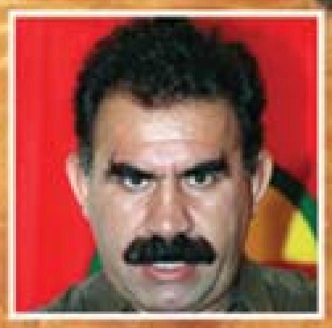
رحلة في التاريخ

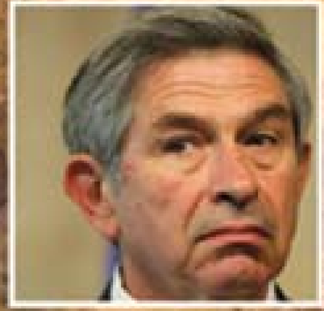
(تركيا - الكورد - الشرق الأوسط - الغرب)

Mezopotamya Ekspresi

Bir Tarih Yolculuğu

(Türkiye-Kürtler-Ortadoğu-Batı)







الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

قطار الرافدين السريع

رحلة في التاريخ

(تركيا - الكورد - الشرق الأوسط - الغرب)

Mezopotamya Ekspresi

Bir Tarih Yolculuğu

(Türkiye-Kürtler-Ortadoğu-Batı)

جنكيز تشاندار

CENGİZ ÇANDAR

ترجمة

عبد القادر عبد اللي

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة


الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. s.a.l

بسم الله الرحمن الرحيم

يتضمن هذا الكتاب ترجمة النسخة التركية من كتاب

Mezopotamya Ekspresi

Bir Tarih Yolculuğu

تأليف Cengiz Çandar

Published by arrangement with Iletişim Yayınlari, Sokak Iletişim Han No. 7 Cağaloğlu 34122 İstanbul

نشر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة والسياحة في الجمهورية التركية ضمن مشروع

Translation is sponsered by TEDA

T.C. Kultur ve Turizm Bakanligi

Kutuphaneler ve Yayimlar Genel Mudurlugu

Fevzi Paşa Mahallesi Cumhuriyet Bulvarı No:4 (Eski Sayıştay Binası)

06030 Ulus/ANKARA/TURKEY

e-mail: teda@kulturturizm.gov.tr - Web: www.tedaproject.com

الطبعة الأولى: 1435 هـ - 2014 م

ISBN: 978-614-02-2257-1



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: (+961-1) 785107 - 785108 - 786233

ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان

فاكس: (+961-1) 786230 - البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611+)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

لا يُكتب الكتاب من دون أن يجلس الكاتب

لم يُعط الإنسان الكلمات من أجل أن يخفي أفكاره.
خوسيه ساراماغو

لفت الروائي البرتغالي الشهير خوسيه ساراماغو، والحاصل على جائزة نوبل للآداب لعام 1998 انتباهي، وذلك في أثناء ذهابي من واشنطن إلى مطار دالاس، حيث عرفت من جريدة واشنطن بوست التي وقعت بين يدي أن خوسيه ساراماغو قد توفي، وقرأت ملخّصاً عن قصة حياته. تاريخ المقال كان 19 حزيران 2010، ولكي تلخّص الجريدة سيرة حياة ساراماغو الممتدة على مدى 87 عاماً في كلمات قليلة اختارت عنواناً هو: "بدأ بكتابة الرواية في العقد الخامس من عمره، ومزج بين التاريخ والحقيقة والخيال".

حين رفعت رأسي أثناء عبوري جسر (كوسيوسكو) وقعت عيناي على زرقة نهر بوتوماك وسط الخضرة، فقلت لنفسي إن لدي متسعاً من الوقت من أجل تأليف الكتب، وكأنني ضمنت العيش 87 عاماً. كان هذا الكتاب الذي خططت لكتابته قبل سنين طويلة يشغل بالي. إنه كتاب لم أستطع كتابته، وفي الوقت نفسه أكتبه منذ سنين، وقد تجاوز الزمن الكثير من أحداثه، وتغيّر مضمونه تماماً مع المتغيّرات العالمية بسبب تأخري بكتابته.

تابعت قراءة سيرة حياة ساراماغو، وقد لفتت انتباهي أسطر تتحدث عن رؤاه السياسية الحادة التي هُوجم بسببها؛ بالرغم من شهرته باعتباره كاتب رواية. ما هي رؤاه السياسية الحادة؟ يشير المقال إلى أحد أقواله التي يعتبرها حادة: "نحن نرى أن احتلال إسرائيل للضفة الغربية في المستوى نفسه لما جرى في معسكرات أوشفيتز وبوشنوالد النازية".

تنامى في داخلي احترام لخوسيه ساراماغو، حيث إنّ بعض رواياته أغضبت الفاتيكان بشدة، حيث صدر عن الفاتيكان عند فوز الكاتب بجائزة نوبل عام 1998: "جائزة مُنحت لأسباب سياسية". من جهة أخرى، لم يحظَ ساراماغو برعاية الحكومة البرتغالية على الرغم من أنه البرتغالي الوحيد الفائز بجائزة نوبل، وقد أقام في جزر الكناري التابعة لإسبانيا القريبة من ساحل أفريقيا الغربي، وبقي هناك حتى وفاته؛ مع أنه حافظ على بيته في لشبونة.

خطر ببالي الوضع الذي وُضع فيه ابن بلدي أورهان باموق؛ الكاتب التركي الوحيد الحائز على جائزة نوبل عام 2006، فالهجوم على أورهان باموق وتهديده – وخاصة بعد فوزه بجائزة نوبل – جعله يعيش في

اسطنبول متخفياً. وعند النظر إلى أورهان باموق الذي أعرفه جيداً، وخوسيه ساراماغو الذي بدأتُ أتعرف إليه في اليوم التالي لوفاته، بدأت تلح عليّ فكرة أن هذا الأمر ليس استثناءً، فالكتّاب المبدعون يتعرضون لتجارب متشابهة غالباً.

لا جدال في أن خوسيه ساراماغو كان استثنائياً، فقد أثّرت رؤيته حول سر الكتابة بي ودفعتني إلى تأليف هذا الكتاب. فعندما قرأتُ السطر الأخير من مقال واشنطن بوست حوله قلت لنفسي: "حسناً، لقد فككت لغز عدم كتابتي لهذا الكتاب طوال تلك السنين".

قال ساراماغو عام 1999 إنه لا يعتقد بالإلهام في الكتابة: "لا أعتقد بالإلهام. ولا أعرف ما هو الإلهام... أول شروط الكتابة هو الجلوس، فنحن نكتب بعد أن نجلس".

هذا كل شيء.

إذا لم تجلسوا فلن تكتبوا.

خططت لتأليف هذا الكتاب عام 1991، وكنت قد أخذت على عاتقي مهمة لعب دور بكسر إحدى أهم كتل جليد الجمهورية التركية؛ فقد أمّنت أول تواصل بين قادة المعارضة الكوردية في العراق، وعلى رأسهم جلال طالباني من جهة، ورئيس الجمهورية تورغوت أوزال بصفتي مستشاراً له من جهة أخرى. لقد كان لي دور مهم في التواصل بين المسؤولين في تركيا وكورد العراق، وبلورة السياسة التي ستنتج في ما بعد. وكما هو معروف، إنّ جلال طالباني أصبح في ما بعد أول كوردي منتخب كرئيس لجمهورية العراق.

كان العام 1992 مسرحاً لتطورات أكثر غرابة، وبدأت تتجمع مواد أكثر من أجل الكتاب؛ حيث أعلن حزب العمال الكوردستاني أول هدنة عام 1993، وتحديداً في 16 آذار. التقيت عبد الله أوجلان في بلدة بر الياس البقاعية في لبنان حيث أُعْلِنَتْ الهدنة، وقد حدث اللقاء بعد دقائق من إعلانها؛ وهي التي اعتبرت هدنة تاريخية. وفي منتصف الليل بعد يومين، التقيت على انفراد رئيس الجمهورية تورغوت أوزال في القصر الرئاسي، وقد عرضت عليه انطباعاتي حول عبد الله أوجلان، وتبادلنا الحديث حول ما يجب أن نفعله من أجل حل (القضية الكوردية) في تركيا، كما تحدّثتُ معه بعد شهر، أثناء عودته من أذربيجان - آخر محطة في جولة طويلة له على الجمهوريات التركية في آسيا الوسطى - وأبلغني أننا سنلتقي في اسطنبول بعد يومين، ونتابع الحديث.

لم يستطع تورغوت أوزال أن يأتي في يوم السبت ذاك المصادف 17 نيسان 1993 إلى اسطنبول، حيث غادر الحياة فجأة وبشكل غير متوقع.

تغيّرت أمور كثيرة منذ ذلك اليوم.

توفرت لي كل الأسباب عام 1993 من أجل تأليف الكتاب، ولكنني لم أستطع الجلوس بأي شكل كما قال ساراماغو: "عليك أن تجلس أولاً لكي تكتب كتاباً".

في ذلك العام والأعوام التي تلته، كنتُ أعيش حالة هي الأشد شغفاً في حياتي: البوسنة! كأن نارَ جذوري التي تمتد إلى منطقة روملي (البلقان) قد تأججت، وانخرطتُ في قضية البوسنة. كان عليّ أن أفعل شيئاً من أجل البوسنة، وقد كنت والسيد تورغوت كثيراً ما نجري عصفاً ذهنياً حول قضية البوسنة، ونقضي غالبية وقتنا حين نكون معاً بالحديث عن تلك القضية. كنتُ أنام وأنا أفكر بالبوسنة، وأستيقظ وأنا أفكر فيها.

أمضيت عامي 1993-1994 مشغولاً في قضية البوسنة، ولم أكن أقرأ سوى حول البلقان والبوسنة تقريباً، وقد صرت أُلَقّبُ في تركيا "مستر بوسنة".

بفضل البوسنة التقيت طيب أردوغان أول مرة. كنت قد أنهيت كلمتي في أمسية تضامنية مع البوسنة أقيمت في اسطنبول بعبارة: (نحن البوسنة، والبوسنة نحن)، هكذا أتت العبارة على لساني وأنا أنهي كلمتي، وقد غدت عبارتي تلك شعاراً تردد على نطاق واسع لفترة. عند عودتي إلى طاولتي وسط التصفيق الحاد، تلقيتُ تهنئة من شاب أخذ مكاني على المنبر. لفتت نظري بلاغته في الخطابة. وحين سألتُ عنه، قالوا لي إنه رجب طيب أردوغان رئيس فرع حزب الرفاه في اسطنبول. هنأته لاحقاً على كلمته، وأمضيت ما تبقى من الأمسية بالحديث معه.

في العام 1995 والذي وُصف بأنّه عام الذروة بالنسبة إلى الأحداث الجارية في البوسنة؛ قمت بزيارتها خمس مراتٍ، وبدأت أفكر في تأليف كتاب عن البوسنة. فبالإضافة إلى اهتمامي الكبير بالموضوع، توفرت لدي معلومات وأبحاث كافية عنه.

تجاوزتني سرعة التاريخ كما يحدث دائماً، فقد وَجَدتْ قضيةُ البوسنة حلاً – وإن كان مؤقتاً – وسقطت من التداول قبل أن أبدأ بتأليف الكتاب، وشهدت تركيا في تلك المرحلة أشد الأحداث دموية في ما يتعلق بالقضية الكوردية، لذا عدتُ للاهتمام بالقضية الكوردية عن قرب.

عاودني أرق تأليف كتاب حول تركيا والكورد والعراق إضافة إلى

رغبتي بالكتابة عن البوسنة، ولكنني في تلك الفترة كنت هدفاً لمؤامرة أُعدت في رئاسة الأركان العامة التركية عام 1998، والتي أُطلق عليها اسم (المذكرة)، فقد عايشتُ مرحلة تدخل عسكري عرفت باسم "مرحلة 28 شباط"، وعُرفت بين الناس باسم "انقلاب ما بعد الحداثة"، وقد زُج باسمي فيها. لهذا تشكّلت ظروف خارجية لا تُمكّن من نشر مضمون الكتاب الذي خططتُ لتأليفه.

أمضيتُ عامي 1999-2000 في مركز أبحاث أكاديمي، ومركز دراسات استراتيجية في الولايات المتحدة الأمريكية في واشنطن. وكان العراق لا يغيب عن جدول أعمالي، كما استمرت علاقاتي مع الشخصيات الأمريكية المتابعة للعراق ومع العراقيين المعارضين لنظامهم، ولم يكن لدي أدنى شك بأن الحرب على العراق ستندلع عام 2003. لذلك لم أفاجأ نهائياً بحرب العراق – أو على الأصح احتلال العراق – بسبب متابعتي لخلفية التطورات المتعلقة بالعراق عن قرب شديد.

وبفضل معرفتي وصداقتي مع مؤسسي العراق الجديد على مدى سنوات طويلة، ذهبتُ مرات عديدة إلى بغداد وكوردستان العراق بدءاً من سنة 2003، وشهدتُ على ولادة العراق الجديد، وتَشكُل العناصر التي بدأت تؤسس لمستقبل البلاد...

غدت عملية تأليف الكتاب ضرورة لا يمكن تأجيلها، لذا فقد بدأتُ الكتابة عام 2004، وما إن كتبت 140 صفحة حتى تعرض بيتي في اسطنبول للسرقة وذلك في آذار عام 2005، وقد سُرِقتْ حقيبتي التي تضم حاسوبي ونُسخَ كتابي الاحتياطية؛ وهكذا تبخّر الكتاب وطار.

احتل خبر سرقة بيتي حيزاً واسعاً من أخبار الصحافة والتلفزيونات. وقد أوحت الأخبار أن هدفَ السرقةِ سياسي، وتفوح منها رائحة مؤامرة، ولكنني بِنِيّة صافية اعتقدتُ أنها سرقة عادية، حتى إنني وجّهتُ نداءً عبر القنوات التلفزيونية قلت فيه: "السيد اللص، ليس ثمة ما يفيدك في حاسوبي. أرجوك أعده". لا جدوى. فقد أرسل لي القوميون الحانقون عليّ – بسبب معرفتهم بعلاقتي الوثيقة مع الكورد – رسائل إلكترونية مضمونها: "ما حدث حسن، دافع عن الكورد، ولكن السارق كوردي بالتأكيد". وفي الحقيقة، تبيّن أن اللص كوردي، إنه شاب من برفاريلي في مطلع العقد الثاني من عمره. وهو صاحب سوابق، اقتُلع من بيته في جنوب شرق الأناضول، ورمته الأقدار في اسطنبول، وحاول كسب معيشته من خلال علاقته مع عصابات الجريمة المنظّمة. كما أنّه معروف الاسم والشهرة، ولم

يُلقَ القبضُ عليه على الرغم من إلقاء القبض على أعضاء العصابة الآخرين جميعاً، ولم يَعُدْ إليَّ حاسوبي وكتابي.

وجدتُ لنفسي سلواناً بالقول: "هكذا أفضل؛ لم يكن جيداً جداً. سأكتبه من جديد". ومنذ ذلك اليوم إلى الآن، تغيّرت تركيا والعراق، والأوساط الكوردية في تركيا والشرق الأوسط والعالم بشكل كبير. بقي الكتاب يُكتب في عقلي بشكل مستمر ومتغيّر، ولكنه لم يتخذ شكل الكتابة الفعلية؛ لأنه لا يمكن الكتابة من دون جلوس.

فَقَدَتْ زوجتي أملها بأن أؤلف هذا الكتاب، وهي أكثر من رغب بأن أكتبه، وشجعتني على تأليفه على مدى سنين. فَقَدَت الأمل لأنها اكتشفت سبب عدم كتابتي له. قالت: "أنت تعيش الأحداث، لذلك لا تجد الوقت الكافي للتفرغ لكتابتها".

كانت تقول الحقيقة. لم يكن لديّ وقت كافٍ وسط انخراطي بالحياة، وركضي من هنا إلى هناك، واتخاذي مكاناً وسط الأحداث، وربط الشخصيات التي تصنع التاريخ في ما بينها؛ لذا كان من المستحيل الكتابة في ظل تلك الظروف. ولكن من جهة أخرى، إنّ من امتهن الكتابة ويعيش هذا الأسلوب من الحياة وما يجلبه من تجربة، يشعر بدافع لا يقاوم من أجل الكتابة.

لهذا لَعِبَ خوسيه ساراماغو دوراً مهماً في حياتي، فهو من كشف لي سر الكتابة، وبيّن لي أن الشرط الأول للكتابة هو الجلوس؛ إذ لا يمكن أن نكتب من دون أن نجلس.

لقد ألّفت هذا الكتاب عندما استطعت أن أجلس، وأنهيته في العام 2012.

I - من تورغوت أوزال إلى طيب أردوغان



مع رجب طيب أردوغان، 28 تشرين الأول 2005 (أرشيف جنكيز تشاندار)

حل القضايا الكبرى أسهل من حل القضايا الصغرى.

لاري بيج (مؤسس غوغل)

قلت: "هذه هي القضية الكوردية تماماً".

لحظة قولي هذه العبارة، لاحظت نظرة رئيس الحكومة طيب أردوغان الجالس قبالتي إلى الطاولة في الجناح الخاص من طائرته الخاصة. كان ينظر إليّ نظرة حادة متسائلة وخاوية نتيجة عدم تمكنه من استنتاج معنى من عبارتي.

التاريخ 28 تشرين أول 2005. كنا على متن الطائرة المتجهة من لندن إلى تركيا؛ عائدين من رحلة طويلة بدأت بالكويت وانتهت بإنكلترا مروراً باليمن. وافقت على السفر مع رئيس الحكومة لكي أحدّثه عن القضية الكوردية فقط؛ فحين أبلغتُ الناطق باسم رئاسة الحكومة عاكف بكي برغبتي في لقاء رئيس الحكومة للحديث حول القضية الكوردية بشكل خاص، رد عليّ: "لنفعل هذا خلال رحلة خارجية طويلة لنتمكن من إيجاد وقت مناسب". وأفسحت رحلة الكويت - اليمن - إنكلترا المجال الأنسب لذلك الحديث.

كنت أود أن أسلمه باليد التقرير الموسوم "كيف لا تُحل القضية الكوردية؟ اقتراح حل متكامل"، وقد أرسله إلي المرحوم عدنان قهوجي المعروف أنه من أكثر السياسيين صدقاً واحتراماً في تاريخ تركيا القريب، وذلك بتاريخ 26 أيار 1992 لكي أسلمه لرئيس الجمهورية تورغوت أوزال حين كنت مستشاره. وقد ورد في كتب عديدة أن تورغوت أوزال كلّف عدنان قهوجي بإعداد ذلك التقرير، ولكن هذا ليس صحيحاً. لم يقرأ تورغوت أوزال ذلك التقرير، ولم يعلم به قط.

فوضويتي هي السبب الوحيد لهذا؛ فقد نسيتُ أين وضعتُ التقرير، كما نسيت أن عدنان قهوجي أرسل إلي تقريراً كذاك. صُعقنا بخبر فقدان عدنان قهوجي حياته في حادث سير فظيع عندما كنا – تورغوت أوزال وأنا – في هيوستن في الولايات المتحدة في كانون الثاني عام 1993، وبعد ثلاثة أشهر مات تورغوت أوزال أيضاً. تذكرتُ تقرير قهوجي حين وقع بيدي مصادفة أثناء انتقالي من بيتي عام 2004. وبعد عام، ذهب رئيس الحكومة طيب أردوغان إلى ديار بكر في 12 آب، ولم يكتفِ بذكر القضية الكوردية، بل تجاوز هذا بقوله: "يجب أن تعتذر الدولة للشعب الكوردي".

وقد قال في ديار بكر: "تجاوزت تركيا كدولة كبيرة وقوية مصاعب كثيرة. ولا يليق بالدول الكبرى أن تتجاهل الأخطاء المرتكبة في الماضي. فالدولة الكبيرة والأمة القوية تمتلكان ثقة بالنفس تمكنهما من مواجهة الذات، وطرح الأخطاء على بساط البحث، والسير نحو المستقبل. أنا أقف أمامكم بصفتي رئيس حكومة يثق أعضاؤها بقوة هذه الأمة، ويثقون بالوعي الجغرافي والتاريخي الذي تمتلكه".

لا شك أن القضية الكوردية هي قضية تركيا الأولى. وعلى الرغم من ذكر طيّب أردوغان لمصطلح القضية الكوردية بشكل ضبابي، إلا أنه بعث الحياة بالأمل في إيجاد الحل:

"لا ضرورة لتسمية كل القضايا. القضايا قضايانا كلنا. وإذا أصررتم على تسميتها، فإن القضية الكوردية ليست قضية جزء من هذه الأمة فقط، بل هي قضية الأمة كلها. لهذا السبب، أقول لمن يسأل عما ستؤول إليه القضية الكوردية إنني وبصفتي رئيس حكومة هذا البلد أعتبر هذه القضية قضيتي قبل أن تكون قضية شخص آخر. دولتنا دولة كبرى، وسنحلّ كل المشاكل بمزيد من الديمقراطية، وحقوق المواطنة، والإيجابية؛ سنحلها انطلاقاً من هذا المفهوم".

كان رئيس الحكومة قد التقى في أنقرة عدداً من الصحفيين والمثقفين

الذين حددوا له اسم المشكلة قبيل توجّهه إلى ديار بكر حيث أطلق هذه العبارات. وقد ألقى هذه الكلمة أمام جمع قليل العدد في ديار بكر؛ لأنه لم يحاور الحركة السياسية الكوردية المنضوية تحت نفوذ حزب العمال الكوردستاني، ولم ينسق الأمر مع بلدية ديار بكر التي تُعتبر قلعة الحركة السياسية الكوردية. على الرغم من هذا، إنّ كلماته التي أطلقها أحدثت موجة حماسة لدى فئات البلد كلها؛ وعلى رأسها الشعب الكوردي في تركيا.

تُرى، هل هناك أمل بحل القضية الأكثر أهمية في تاريخ الجمهورية؛ القضية التي أزهقت أرواح عشرات الآلاف، ولا يُعرف كم ستُزهق أيضاً؛ أي القضية الكوردية؟

لم يكن طيب أردوغان أول مسؤول في الدولة يتناول القضية الكوردية. ولكن، لا أحد غيره شعر بضرورة تقديم نقد ذاتي باسم الدولة، وتعريفها بأنها قضيته.

تحمست لخطاب أردوغان باعتباري أمضيت عمري مهتماً بهذه القضية، وعشتها بمختلف أبعادها؛ حتى إنّني لعبتُ دوراً فيها قبل فترة قريبة. وبفضله بُعث لدي الأمل من جديد، ولكن تجربتي في هذه القضية تجعلني أعرف أن الآمال الكبرى تجلب خيبات كبرى.

المرّة الوحيدة التي بدا فيها حل القضية الكوردية قريباً هي الأيام الأخيرة من حياة أوزال. تلك الفترة هي آذار ونيسان من عام 1993. لقد أعلن عبد الله أوجلان أمام حشد كبير من الصحفيين في بلدة بر الياس البقاعية اللبنانية هدنة من طرف واحد لمدة شهر، وقد اجتمعتُ بعبد الله أوجلان بعد المؤتمر الصحفي لأربعين دقيقة؛ فمن الممكن أن تكون لديه وجهات نظر لم يقلها في المؤتمر الصحفي، ولكنه يريد أن يوصلها إلى رئيس الجمهورية تورغوت أوزال بشكل خاص. سأكوّن انطباعاً عن الوضع وأنقله إلى تورغوت أوزال.

أنا من عرض اللقاء مع أوجلان. حين بُحْتُ لأوزال بنيتي هذه، لم يقل شيئاً سلبياً أو إيجابياً يمكن أن يُلْزِمه، بل اكتفى بالقول: "اذهب وعد ثم سنتكلم ونرى".

اعتبرتُ الأمرَ ضوءاً أخضرَ أناره رئيس الجمهورية على الرغم من أنه لم يكلّفني بلقاء أوجلان مباشرة. أبلغتُ جلال طالباني قائد الاتحاد الوطني الكوردستاني العراقي بسفري، والذي كان مقيماً حينها في دمشق، ولعبَ دوراً حاسماً بإعلان الهدنة.

التقيتُ عبد الله أوجلان بعد المؤتمر الصحفي في بر الياس، وبعد

اللقاء ذهبتُ إلى بيروت. وأول عمل قمت به هو الاتصال بتورغوت أوزال الذي كان غاضباً من تصريح أوجلان لكاميران قرة داغي المنشور في جريدة الحياة اللندنية، حيث أعلن عن (عودة قريبة إلى تركيا). أبلغتُه أن تصريح أوجلان للحياة كان قبل يوم من الهدنة، وهو عبارة عن أمنية، وأضفت: "التقينا وحدنا، وهناك ما لم يقله أمام الصحفيين. سأحكي لكم عندما نلتقي". واقترحت عليه ألا يولي اهتماماً للحوار الذي حصل مع جريدة الحياة.

قال أوزال: "حسناً، لن أصرح بأي شيء قبل أن تأتي. متى ستعود؟".

عدتُ صباح اليوم التالي. عندما عدت، دعاني تورغوت أوزال إلى إفطار أقامه لرؤساء البعثات الدبلوماسية في القصر الرئاسي. كنت أنوي أن أذهب إلى جناح إقامة رئيس الجمهورية في القصر بعد الإفطار، وأنقل له انطباعي حول قائد حزب العمال الكوردستاني، وأشرح له ما لم يقله للصحافة. وهذا ما فعلته.

عندما خرجتُ من القصر عند الساعة الخامسة صباحاً، كان الصحفيون والمصورون التلفزيونيون المحتشدون أمام الباب قد فقدوا أملهم بتحصيل شيء مني، ولم يبق أحدٌ منهم على الرصيف. لعل تورغوت أوزال أخّرني إلى السحور تحسباً للأمر، وقد استمع لانطباعاتي عن أوجلان إلى مائدة السحور. كان مجلس الأمن القومي سيجتمع بعد ساعات؛ في العاشرة، ولم يكن على جدول أعمال اجتماع مجلس الأمن القومي التركي في ذلك اليوم سوى مادة واحدة تقريباً؛ هي "هدنة حزب العمال الكوردستاني من طرف واحد"، والموقف الذي سيُتخذ منها. كان ذلك قبل يومين من النيروز، وبدء تنفيذ وعد عبد الله أوجلان بعدم وقوع أي حدث خلال النيروز لو توقفت العمليات العسكرية. كانت أرواحٌ كثيرةٌ تُزهقُ في أيام النيروز في السنوات الأخيرة، وكان مشهد جنوب شرق الأناضول يشبه مشهد الانتفاضة في الأراضي الفلسطينية. لذا، إنّ عدم وقوع مشاكل في النيروز سيكون مقياساً لقوة أوجلان وحزب العمال الكوردستاني وتأثيرهما على الجماهير الكوردية، وفي الوقت نفسه مؤشراً على جدية الهدنة.

هُزِمْتُ أمام فضولي أثناء خروجي من القصر، وسألت تورغوت أوزال عن التصريح الذي سيصدره مجلس الأمن القومي، فقال أوزال: "ردُ مجلس الأمن القومي على إعلان حزب العمال الكوردستاني الهدنة، يعني مساواة بين الدولة وهذا الحزب". ثم أضاف: "أنا أترأس الاجتماع، وسأقول: "لا ضرورة لتقديم ردة فعل فورية، فغداً عيد. ليفكّر الجميع بهدنة حزب العمال

الكوردستاني في عطلة العيد. ليمر النيروز، وبعدئذ سنناقش ما سنفعله، ونقرّر". المشكلة هنا ألا ندع المبادرة تفلت من يدنا. علينا أن نتسلم زمام المبادرة خلال مدة الشهر التي أمامنا".

لم يكن حل القضية الكوردية الصعب على الجميع سهلاً على تورغوت أوزال. لم تكن ثمة إرادة مشتركة لحل القضية الكوردية لدى رأس الدولة. دعكم من الإرادة السياسية، ليست ثمة جرأة سياسية لدى الحكومة الائتلافية المكونة من حزب الطريق الصحيح والحزب الاشتراكي الديمقراطي الشعبي – أي سليمان دميريل وإردال إينونو – من أجل إدراك طبيعة هذه القضية وحلها. والأهم من هذا، كان هناك تنافر شديد بين أوزال ودميريل. فإذا قال أوزال أبيض كان دميريل يقول أسود، وكان دميريل يعمل على تقليص صلاحيات رئيس الجمهورية، وإسقاطه إن استطاع. أما دنيز بايقال الأمين العام للحزب الذي يشارك دميريل بالحكم فقد كان يُطلق شعارات من قبيل: "ليخرج أوزال من القصر بطريقة مهينة". دعكم من جرأة الحكومة على "حل القضية الكوردية"، وأن تكون لديها إرادة سياسية لهذا الأمر، فمن المشكوك به ما إذا كانت قد فكرت يوماً بحل هذه القضية، ومن المؤكد أنها ستعارض الحل إذا جاء من أوزال.

إذا تركنا هذا الصدع الخطير في الحكومة جانباً، فإن العسكر الذين يعتبرون أنفسهم أصحاب هذه القضية والطرف الحقيقي فيها منذ عشرات السنين يُضْعِفون السلطة المدنية كثيراً، ولا يُبدون أي مؤشر على رغبتهم بإيجاد حل سياسي للقضية الكوردية، ويُسْتَشْعَرُ بأن موقف غالبيتهم ضد الهدنة، ويعتبرونها مناورة تكتيكية لحزب العمال الكوردستاني من أجل استجماع القوة.

من المفترض أن تدفع أجواء الهدنة للبحث عن حل للمشكلة خارج الصراع العسكري، لذا كان العسكريون منزعجين جداً من هذا الأمر. وظلّ يُقال إنه حتى لو توفرت إرادة سياسية لتحقق توافقاً بين الحكومة ورئاسة الجمهورية، وكان الموضوع إيجاد حل سياسي للقضية الكوردية، وطَرَحَ الحلَّ أشخاص راديكاليون قادرون على فرض ما يريدونه، فليست ثمة ضرورة أن يكون الإنسان قارئ غيب ليتوقع أن الجيش سيعارض هذا الأمر؛ ولم تكن هناك إرادة سياسية لأمر كهذا أصلاً.

أكثر من اشتغل على حل القضية الكوردية بين رجال الدولة هو تورغوت أوزال. فقد كان أوزال رأس الدولة، وأكثر رجال الدولة عزلة في الوقت نفسه.

قاطعني قبل أن أُسهب بعرض انطباعاتي حول عبد الله أوجلان: "هل تعرف ما أفكر فيه؟". من الواضح أن ثمة حلاً يدور في ذهنه. تابع قائلاً: "يجب إصدار عفو؛ عفو يستفيد منه كل الذين صعدوا إلى الجبال ولم يثبت تورطهم بالأدلة، ويعيد لهم حقوقهم السياسية. لا يمكنك أن تشمل بهذا العفو الكوادر القيادية، أي (آبو/أوجلان) وعدة أشخاص معه. ولكن عفواً لا يشملهم يمكن أن يعيقهم، ويكون العفو على مراحل، حيث يشملهم بعد خمس سنوات إذا لم يرتكبوا جرماً".

بالطبع قلت له متسائلاً: "هذا يتطلب قانوناً. هل يمكن للبرلمان الحالي أن يُصدر قانونَ عفوٍ كهذا؟".

أجابني أوزال من دون تردد: "لا يمكن أن يصدره".

في هذه الحال؟

قال: "سنرى، علينا أن نجد مخرجاً".

صمدت هدنة الشهر بطريقة ما. ولكن، من جهة أخرى لم يحدث تطورٌ ذو معنى في تلك الفترة. أوشكت مدة الهدنة على الانتهاء، عندما بدأ أوزال برحلة طويلة على الجمهوريات التركية التي حصلت على استقلالها نتيجة تفكك الاتحاد السوفييتي. مَرَضُ والدي المفاجئ حال دون ذهابي في تلك الرحلة، ولكن بقائي في اسطنبول مكّنني من إجراء اتصالات مكثفة مع جلال طالباني الذي كان مقيماً في دمشق. كان لديّ فضول لمعرفة ما إذا كان عبد الله أوجلان سيمدد الهدنة أم لا. انطلق إلى لبنان عددٌ من الصحفيين؛ أكبر بكثير من العدد الذي حضر مؤتمر 16 آذار 1993 الصحفي الذي أعلن فيه أوجلان عن الهدنة. قبل أن يخرج أوزال في جولته التقى هيئة من نواب حزب العمل الشعبي، وكانت تلك الهيئة التي على رأسها أحمد تورك وخطيب دجلة وأورهان ضوغان على وشك السفر للقاء أوجلان. وكان كمال بوقاي قائد الحزب الاشتراكي الكوردستاني المناهض لحزب العمال الكوردستاني والمقيم في السويد منفياً منذ سنوات طويلة، قد وقَّعَ مذكرة تفاهم مع حزب العمال الكوردستاني، وذهب إلى دمشق.

نقلتُ لجلال طالباني وضع تورغوت أوزال الحَرِج، وقلت له إن رئيس الجمهورية بحاجة إلى تمديد الهدنة لإعطائه مساحة أفضل للمناورة، وأضفتُ: "ولكن ثقافة الدولة التركية لا تحتمل مفاهيم فرض الشروط وتحديد المهل. إذا كان سيمدد الهدنة، فعليه ألا يضع شروطاً ويحدد مهلة. في هذه الحال، يمكن أن يقوى وضع أوزال من أجل تقديم مبادرة للحل".

في الحقيقة، لم تكن لديّ معلومات أو تجربة حول ما يمكن أن

تتقبله "ثقافة الدولة التركية" وما لا تتقبله، ولم يكن لي هدف سوى إكساب تورغوت أوزال وقتاً من أجل أن يتمكن من تقديم مبادرة للحل في مواجهة سليمان دميريل والعسكر.

اتصل طالباني بعد فترة قصيرة، وقال: "بإمكانك أن تخبر رئيس الجمهورية بأن ما يريده سيتحقق. لن تُحدّد فترة، ولن تطرح شروط". ولكنه لم يتوانَ عن القول: "ولكن، لا يُعرف ما الذي يمكن أن يفعله، أبلغ الخال أنني لا أضمنه".

كان طالباني يلقب تورغوت أوزال "الخال" تعبيراً عن حبه واحترامه له.

انطلقتُ من أجل إيصال المعلومة التي نقلها لي طالباني، معتبراً كلامه عن أوجلان بمثابة تعهد؛ على الرغم من أنه قال إنه لا يضمنه. وصلتُ إلى تركمانستان، والتقيت تورغوت أوزال في حفل العشاء الذي أقامه على شرفه رئيس الدولة صابر مراد تركمان باشي (نيازوف) في عشق أباد عاصمة تركمانستان. قابلني معاتباً: "أين أنت؟". همست له برسالة أوجلان التي تلقيتها عن طريق طالباني، فقال: "لنتكلم الليلة. قل لجماعتنا أن يرتبوا لنا اجتماعاً بعد العشاء".

التبس الأمر على مستشاره جان بولاق، أو هكذا أراد، فحوّل الأمر إلى اجتماع حضره الصحافيون المرافقون لرئيس الجمهورية، لذلك لم نستطع أن نتحدث في عشق أباد. ولكن، أثناء خروجنا من الاجتماع، مال أوزال على أذني، وقال: "غداً نتحدث في باكو".

لم تسنح لنا فرصة اللقاء على انفراد في باكو بسبب زحمة اللقاءات، فقد أُنْزِل السيد تورغوت في قصر ضيافة رئيس الجمهورية الأذربيجاني أبو الفضل ألجي بيه، ونَزلتُ مع بقية أعضاء الوفد في فندق أذربيجان؛ أي لم نستطع أن نتحدث في باكو.

انتهت جولة رئيس الجمهورية الطويلة إلى آسيا الوسطى وأذربيجان صباح يوم الخميس في 15 نيسان 1993. كنا عائدين إلى تركيا، وبعد إقلاع الطائرة بنصف ساعة، أتى وزير الخارجية حكمت تشتين إلى جواري، وقال لي: "رئيس الجمهورية يريدك. سأبقى هنا وأتحدث مع الأصدقاء". وبقي هناك. انتقلت إلى مقدّمة الطائرة، وجلستُ بجوار أوزال على المقعد الذي كان يشغله حكمت تشتين. قال أوزال: "احك لي".

سردت له تفاصيل المعلومة التي همستُها له في عشق أباد، فبدأ حديثه قائلاً: "هؤلاء الأغبياء يهدرون الوقت".

- أي أغبياء يا سيدي؟

كنت أعرف أن أوزال يصف قادة حزبه الذي تركه – حزب الوطن الأم – بالأغبياء.

قال: "الحكومة يا هذا. اسمع ما يقوله عصمت (وزير الداخلية عصمت سزغين). أعلن الرجل هدنة، لكنهم أهدروا شهراً؛ أهدروا الوقت بأقوال مثل (تعالوا وسلموا أنفسكم للعدالة التركية). لا علم له بما يُسمى ثقافة. القول للكوردي تعال وسلم نفسك أسوأ من أن تشتم أمه. أَهدروا الوقت على كلام من هذا النوع. هل تعرف ممَ أخاف؟ إذا عاد الإرهاب، فسيعود بشكل مضاعف. سيصل الدم إلى الركب...".

- بماذا تفكرون؟

- هناك خطة العفو التي حدثتك عنها قبل فترة. بحثت في الأمر، هناك إمكانية لاستصداره بقرار حكومي من دون اللجوء إلى البرلمان؛ حيث يُغلق الطريق أمام مجلس الدولة، ولكن إذا جاء مقترح الحل مني فسيعارضه سليمان (دميريل) بالتأكيد، فهو لا يريد أن يمنحني شرف حل القضية. ولكنني سأنتظر فترة، ثم سأعلن مقترح الحل مهما كلف الأمر. هذا دينُ شعبي الأخير عليّ، وواجبي الأخير. سنبقى كما نحن إذا لم تُحلّ هذه القضية. حلُّ هذه القضية دين برقبتي بصفتي رئيساً للجمهورية.

وجهتُ لتورغوت أوزال سؤالاً جوابه واضح: "هل يخاف السيد سليمان من العسكر؟". تبلور في عقلي ما سأقوله لو أجابني بنعم.

- إن الأمر قد تجاوز الخوف ووصل إلى حدود الهلع. انظر، الخوف ليس مشكلة، بل إنه صفة إنسانية. مشكلته ليست خوفه، بل إظهاره الخوف بشكل شديد الوضوح. العسكر يلعبون معه لعبة القط والفأر، وقد أظهر خوفاً مشابهاً في الخلاف الأرميني الأذربيجاني، فعند احتلال كلبجر، قلت: لو يُنفذ الجيش مناورة قرب الحدود مع أرمينيا، وتسقط عدة قذائف مدفعية بالخطأ داخل الأراضي الأرمينية. حينها قامت القيامة. وضعني كرئيس للجمهورية في موقف حرج. لم تبق لنا هيبة رادعة. أظهرني في أذربيجان بمظهر الرئيس المختلف مع رئيس حكومته. إنّه يخاف من روسيا. يخاف من الجيش الأحمر غير الموجود. يخاف من كل شيء.

- سبب سؤالي المتعلق بالسيد سليمان مختلف. بداية، كيف علاقتكم بالعسكر؟ أجيبوني عن هذا لأقول لكم ما أفكر فيه...

- ضوغان غورِش (رئيس هيئة الأركان) يحسب لتمديد فترته. لهذا السبب، هو بحاجة إلى توقيعي. يمكنني القول إن علاقتنا جيدة. لماذا تطرح هذا السؤال؟

- إذا كان السيد سليمان يخاف العسكر، وسيفعل عكس ما تقترحونه، في هذه الحال، اطلبوا من ضوغان غورِش أن يتبنى المقترح، ويقدمه للسيد سليمان باعتباره مقترحَ الجيش. أنا لا أعرف قادة جيشنا نهائياً، ولكنني أعرف من تجربة البرتغال أن العسكر يمكن أن يكونوا أكثر رغبة بإنهاء هذه الحرب – وإن لم يعلنوا هذا – لأنهم هم الذين يحاربون على الجبهة. الضباط البرتغاليون الذين حاربوا في أنغولا والموزمبيق هم الذين خطوا الخطوات الأولى لإنهاء نظام سلازار. وهم الذين أنهوا حرب المستعمرات...

أيّد تورغوت أوزال تخميني بأن العسكر لديهم رغبة بإنهاء الحرب أكثر من السياسيين المدنيين في أنقرة بقوله: "بلا أدنى شك!".

تحدثنا قليلاً حول استصدار قرار عفوٍ عن عناصر حزب العمال الكوردستاني يعيد لعبد الله أوجلان حقوقه السياسية كلها بشكل متدرج في فترة تمتد إلى خمس سنوات؛ دون اللجوء إلى تشريع قانون. كان أوجلان سيعلن بعد يومين هدنة مفتوحة دون شروط، ولكن عامل الزمن مهم جداً. متى تُخطى تلك الخطوات؟ وكيف؟

انزلقت من لسان رئيس الجمهورية أوزال عبارة: "انتظر لنرى... سأكلم سليمان عندما نصل إلى أنقرة".

بدأت الطائرة بالهبوط في أنقرة، وعاد وزير الخارجية حكمت تشين إلى مكانه. وأثناء نهوضي ووداعي لرئيس الجمهورية، قال لي: "سأذهب إلى اسطنبول يوم السبت. تعال إلي في حربية بعد الظهر، لنتحدث".

اتفقنا على اللقاء يوم السبت في 17 نيسان 1993 لنبحث عن حل للقضية الكوردية، ولكنني لم أكن أعلم أن هذا سيكون آخر حوار لنا معاً. نظرتُ من نافذة الطائرة، إذ بقيت فيها لأنني سأسافر إلى اسطنبول. مُدت السجادة الحمراء، وبدأ تورغوت أوزال يسير مستعرضاً حرس الشرف. لم أكن أعرف أن تلك ستكون رؤيتي الأخيرة له.

استيقظنا في 17 نيسان 1993 على خبر إعلان عبد الله أوجلان تمديده الهدنة لمدة غير محددة ومن دون شروط في مؤتمر صحفي من بلدة بر الياس في لبنان.

في اليوم نفسه، صُعقت تركيا بخبر إصابة رئيس الجمهورية بنوبة قلبية ونقله إلى المستشفى، وجاء خبر موته في ساعة موعدنا.

ذهبتُ إلى أنقرة فوراً، وعندما وصلتُ إلى القصر الرئاسي بعد الظهر؛ عرفتُ أن قلب رئيس الجمهورية قد توقف قبل الإفطار، وكان قد توفي

حين نُقل إلى المستشفى، وقد روت لي زوجته السيدة سمرا أوزال ما حصل لحظة وفاته بعد عدة أيام، وبحسب ما روته سمرا أوزال فإن السيد تورغوت وقع بعد أن نهضت من جانبه لإعداد الإفطار بعدة ثوانٍ، وتوفي.

ما انتشر بين الناس ونشرته الجرائد من شائعات حول عدم وجود الأجهزة الطبية اللازمة في القصر، وعدم مجيء الطبيب في الوقت المناسب غير صحيح. كانت الأجهزة اللازمة موجودة، ووصل الطبيب بموعده، ولكن السيدة سمرا قالت لي: "لم يكن بالإمكان عمل شيء". عندما وقع المقّدر لم يعد بالإمكان عمل شيء، وأسلم السيد تورغوت روحه في تلك اللحظة.

بعد ثلاثة أيام، وقفتُ وقفة الحداد عند نعش تورغوت أوزال المُسجى أمام مجلس البرلمان، ودخلت إلى المجلس، وأمام المصعد قابلت مجموعة نواب حزب العمل الشعبي التي ذهبت لمقابلة عبد الله أوجلان، وقد فرحتُ برؤيتهم، وهم كتبوا أجمل الكلمات على سجل التعزية الذي فُتِحَ في القصر بمناسبة وفاة تورغوت أوزال. حين قابلتُ خطيب دِجلة قال: "حسن أنني رأيتكم، فقد كنا سنتصل بكم. تلقينا خبر الوفاة ونحن عند السيد عبد الله، وهو يعتقد أن هذه عملية اغتيال، وقال اسألوا السيد جنكيز، فهو أفضل من يعرف هذا. هل كانت عملية اغتيال؟".

تظاهرتُ بعدم الفهم، وسألت: "السيد عبد الله من؟".

- عبد الله أوجلان!

- حسب معرفتي ليس هناك شيء كهذا. توقف قلبه بشكل مفاجئ، يسمونها سكتة قلبية. مات فوراً، ومن المؤسف أنه لم يكن من الممكن عمل شيء...

- ولكن أوجلان يقول...

- أنا أقول ما أعرفه. ويمكن أن يكون السؤال الحقيقي! كيف عاش السيد تورغوت كل هذا العمر؟ أنتم تعرفون أنه مريض قلب، وخضع لعملية قسطرة، وفوق هذا أصيب بسرطان البروستات، وبالضغط في السنوات الأخيرة، كما أنّ برنامج عمله وزياراته كانت مكثفة جداً في الآونة الأخيرة. فعندما رأيته في تركمانستان بعد انقطاع طويل كان وجهه شديد الشحوب. وعند وصولي إلى عشق أباد قال لي الزملاء: "السيد تورغوت متعب إلى درجة الإنهاك، وصحته ليست جيدة". وفعلاً هكذا كان...

- ولكن عبد الله أوجلان...

كان تورغوت أوزال مسجى على مقربة منا، لذا بدا لي أنه لا ضرورة لإطالة النقاش، ولا معنى له. فما سأقوله لنواب حزب العمل الشعبي ليس

مهماً، بل إنّ قناعة السيد عبد الله هي المهمة.

يمكن أن تكون لقناعته بمقتل تورغوت أوزال لحظة أراد حل القضية الكوردية خصوصية وظيفية؛ فالناس على الأغلب يصدقون ما يريدونه أكثر من تصديقهم الحقيقة. ومن المعروف أن تورغوت أوزال بذل جهداً من أجل حل القضية الكوردية، وهناك قناعة منتشرة على نطاق واسع بوجود قوى لا تريد الحل. ويبدو احتمال أن تتخلص تلك القوى من تورغوت أوزال من أجل إعاقة الحل أنه يحمل معنى ومبرراً منطقياً لكثير من الناس.

كان صوت الادعاء بأن تورغوت أوزال مات اغتيالاً ضعيفاً في البداية، ولكنه اكتسب قوة مع الزمن، وخاصة عندما ذُكِرَ على لسان بعض أفراد العائلة، وصار الادعاء بأن وفاته طبيعية بعد سنوات يعني عدم الجدية بتناول الأمر. ولكن، بحسب ما قاله لي طبيب أوزال الخاص وكاتم سره الدكتور جنكيز أصلان فإن وضع السيد تورغوت الصحي لم يكن جيداً، وبدأ جسمه يعطي إشارات سيئة في الفترة الأخيرة. ومع ذلك، إن ترجيح كفة القتل على الموت الطبيعي كان يلائم بعض السياسيين... هكذا يجب أن يكتب في التاريخ.

لم يمت تورغوت أوزال، وقتل حين كان على وشك حل القضية الكوردية.

لعل الحقيقة لن تُعرَف في أي وقت. ولكن، قبل أن ينتهي أربعينه، جاء مقتل 33 جندياً غير مسلح في كمين على طريق بنغول في 24 أيار 1993 نهاية للهدنة. تحقق آخر ما قاله لي أوزال أثناء حديثنا معاً؛ لقد عاد الإرهاب مضاعفاً.

ومنذ انتهاء الهدنة في أيار 1993 وحتى إلقاء القبض على عبد الله أوجلان في كينيا، وجلبه إلى تركيا في شباط عام 1999 وصل الدم في تركيا إلى الركب، وخاصة في جنوب شرق الأناضول. فقد أُزْهقت أرواح حوالى أربعين ألف إنسان، وراح آلاف الضحايا في جرائم مجهولة الفاعلين، وكلها ترتبط بالقضية الكوردية. كما تشوهت سمعة الكثير من المؤسسات التركية، وعلى رأسها المؤسسة الأكثر احتراماً؛ وهي مؤسسة القوات المسلحة، وأَنْتَجت الدولة تحولات مافيوية وعصابات، ووُصمت تركيا في التسعينيات بوصمة الحرب القذرة.

هذا هو الميراث الذي استمرّ إلى مرحلة ما بعد عام 1999؛ مع أفول القرن العشرين.

مع طيب أردوغان بُعث أملُ حل القضية الكوردية بعد ضياع عشر سنوات إثر وفاة تورغوت أوزال. تناول طيب أردوغان للموضوع في آب عام 2005 وخطابه في ديار بكر أجّجا توقعات حل القضية على يده.

ولكن شعوراً بالخوف سيطَرَ عليّ نتيجة عدم فعل شيء بعد مبادرة ديار بكر في 12 آب 2005؛ باعتباري شخصاً رأى كيف تؤدي الآمال الكبرى إلى خيبات أكبر، وكيف تتحول الخيبات الكبرى تلك إلى حمام دم، وعاش ذلك. ولهذا، أردت أن ألتقي طيب أردوغان بشكل خاص.

في طريق العودة من لندن إلى أنقرة، تبادلت الحديث مع طيب أردوغان في القسم الخاص من الطائرة، وحضر لقاءنا الناطق الخاص باسمه عاكف بَكي، ومدير جريدة يني شفق مصطفى قرة علي أوغلو.

بداية، قدمتُ له تقرير المرحوم عدنان قهوجي، وبدأت الحديث معه على النحو التالي: "من المعروف كم كان المرحوم نظيف اليد ومحترماً. وهو من منطقة البحر الأسود مثلكم. الأهم من هذا أنه سياسي مبدع. وقد حضّر هذا التقرير للسيد تورغوت. وبما أن حضرتكم سياسي، لعلكم تستفيدون من لغته ومعالجته. بعد كلمتكم في ديار بكر صار تسليمه لكم ديناً برقبتي". ثم شرحت له سبب حاجتي للحديث معه:

"الكلمة التي ألقيتموها في ديار بكر، والصفحة التي فتحتموها مهمتان جداً. نحن قدماء جداً في هذا الوسط، وقد أفنينا أعمارنا بمتابعة هذا الموضوع. بتعبير آخر، أود أن أقول لكم أهلاً وسهلاً بكم بيننا، ولكن هناك ما يخيف في الأمر. لقد رفعتم سقف الآمال والتوقعات بمبادرتكم في ديار بكر، فإذا لم يُتابع الأمر – ولم يحدث شيء منذ آب وحتى الآن – فستتحول تلك الآمال والتوقعات إلى خيبات كبرى، وسترتدّ عكسياً، وتصيبكم. وهذا سيكون سيئاً جداً عليكم وعلى تركيا. أردتُ أن ألفت نظركم إلى هذا القلق، وأن أقول إنه ينبغي عمل شيء قبل فوات الأوان. لا يحتمل هذا الأمر التأجيل. خاصة بعد أن قدمتم هذه المبادرة في ديار بكر... بما أنكم قد أقدمتم عليها ينبغي أن تُتابع؛ لأن كلمتكم تلك حرّكت بعض القوى. هذه هي طبيعة القضية...".

استمع طيب أردوغان إلى ما قلته بانتباه شديد، وبدأ كلامه بجرأة وصراحة: "ارتكبنا خطأ هناك. وقد رأيت من خلال ردود الفعل أن استخدامي اصطلاح القضية الكوردية أحدث بعض الانزعاج. كان علي أن أجد تعبيراً آخر. لا أدري، مثلاً، القضايا الاقتصادية والاجتماعية للمواطنين ذوي الأصول الكوردية...".

لم أحتمل وقاطعته: "سيدي رئيس الحكومة، هذه هي القضية الكوردية تماماً".

نظر طيب أردوغان إليّ نظرة مليئة بالاستفسار، وقال: "كيف؟". قلت: "هناك إشكاليات كثيرة في وصف القضية الكوردية وتعريفها، وأهم هذه الإشكاليات عدم تسمية القضية، وعدم القدرة على استعمال مصطلح (القضية الكوردية)".

لم أستطع كبح نفسي فتابعت: "حين نقول القضايا الاقتصادية والاجتماعية للمواطنين ذوي الأصول الكوردية فهذا يعني أننا نتحدث عن قضايا مشتركة بين مواطنين يسكنون تكرضاغ ودنيزلي وتشانقري وغيرصون، وعن مشاكل الكتب المدرسية، ومشاكل المستوصفات، لا أدري يمكن أن تكون مشاكل الصرف الصحي مشتركة أو مشكلة كل منطقة بشكل مستقل... هذه قضايا الإنسان في كل زاوية من زوايا بلدنا مهما كانت جذوره. أما القضية الكوردية فهي قضية خاصة تمس الناس نتيجة انتمائهم الكوردي. المشكلة تكمن بعدم تسميتها القضية الكوردية، وقد فعلتم الصواب بإطلاقكم التسمية...".

قلقت من شعور رئيس الحكومة بالندم من استخدامه عبارة (القضية الكوردية)، وقلقت من أننا سنعود إلى المربع الأول. ولم أكن أتوقع قطّ أن أثبت له أنّ ما قاله في ديار بكر كان صحيحاً، فقد كنت أنوي أن نتكلم عمّا يمكن أن نفعله بعد ديار بكر.

مع هذا، لم يُصر السيد رئيس الحكومة على تعبير "القضايا الاقتصادية والاجتماعية للمواطنين ذوي الأصول الكوردية". ولا يمكن القول إنه وافق على ما قلته بالضبط. لا بد أنه يفكر بقاعدة حزبه، وبقطاعات الناخبين القوميين، وبتلقي المناطق التركية المختلفة للأمر. إنه رجل سياسة، وعقله يعمل بشكل مغاير لطريقة عمل عقولنا، فهو يجري حسابات لا تخطر لنا أبداً. ومن الطبيعي أن يكون بيننا فرق بطرق التفكير. أي إنه حاول إيجاد طريق وسطي بقوله: "يجب أن يوجد طريق وسطي".

أثناء حوارنا فكّرت على النحو التالي: إذا كان الهدف حل القضية الكوردية فيجب ألا تُعلّق آمال على طيب أردوغان بمستوى تورغوت أوزال. ويجب ألا يسيطر اليأس أيضاً، ولكن الاحتياط واجب.

كان يجب أن ننتظر أربع سنوات لكي تُبعث آمالنا وتتأجج من جديد، ففي نهاية تموز وبداية آب عام 2009 بدأ "الانفتاح الكوردي". كان اسمه واضحاً "الانفتاح الكوردي".

ولكن، عندما قام رئيس الحكومة منذ البداية بتغيير المصطلح واستخدام "الانفتاح الديمقراطي" بدلاً عنه، تذكرت حوارنا في الطائرة أثناء عودتنا من لندن إلى أنقرة في 28 تشرين الأول 2005. لقد بدأ طيب أردوغان بالتراجع، ويبدو أننا سنفقد زمناً آخر غالياً ومن دون جدوى.

وكان السبب الرئيس لهذا التراجع هو الموقف المتشدد الذي اتخذه حزبا المعارضة الأساسيان منذ البداية؛ وهما حزب الشعب الجمهوري وحزب الحركة القومية، والسخط العارم الذي قابلا به هذه المبادرة، وقد واجه أردوغان التهم ذاتها التي واجهها من قبل تورغوت أوزال؛ كخيانة الوطن وتقسيم البلاد، كما تم تهديده والتلويح بمثوله أمام المحكمة العليا.

لم يعش طويلاً تعبير طيب أردوغان "الانفتاح الديمقراطي" بعد أن نُسي "الانفتاح الكوردي" تماماً، وحل محله تعبير "مشروع الأخوّة والتضامن والتعاضد القومي". من يستطيع الاعتراض على "الأخوّة" وعلى "التضامن والتعاضد القومي"، وتحت أيّ ذريعة؟

عندما أُطلق على المبادرة "مشروع الأخوّة والتضامن والتعاضد القومي" قلت في سرّي: "فلنأمل أن تُحل القضية الكوردية على المدى القريب". في الحقيقة، ثمة شك بوجود مشروع حل، وذلك لأن مشروع الحل يتطلب خطة شاملة وجدولاً زمنياً للتطبيق، وهذا يعني أفقاً واسعاً وإرادة، والأهم أنه يعني جرأة سياسية.

ثمة عوامل قليلة تفرض الحل، وعوامل كثيرة تُبعده.

لا يستطيع قادة تركيا لفظ عبارة القضية الكوردية بأي شكل، ويجدون ألف ذريعة وذريعة كي لا يلفظوها. في 17 تشرين الأول 2008 استدعاني رئيس هيئة الأركان من أجل الحديث في هذا الموضوع سراً. وعلى الرغم من حديثنا بشكل منفرد لساعتين ونصف الساعة، فهو لم يلفظ كلمة "الكوردي"، وأبدى حرصاً على عدم ذكرها.

فقد كان الجنرال باشبوغ عند حديثه عن حكومة كوردستان العراق يستخدم عبارة "الإدارة المحلية في شمال العراق"، وعند الحديث عن كورد تركيا كان يقول عنهم "مواطنونا في المنطقة الشرقية".

إنّ عبارة الإدارة المحلية تُطلق في تركيا على البلديات، وقد خطر ببالي عدة مرات أن أقول له إن مسعود برزاني ليس رئيس بلدية أربيل. نعم، كورد تركيا "مواطنونا"، ولكنْ لماذا لا نذكرهم بأسمائهم؟

جذر القضية الكوردية هو إنكار هذه الهوية، وإن كانت الهوية لم تعد تُرفض الآن، وكان لا بد من الانتظار إلى نهاية العقد الأول من القرن

الحادي والعشرين من أجل لفظ كلمة "كورد" من دون إضافات سابقة أو لاحقة لتخفيفها أو تخفيض قيمتها.

يكمن جوهر الخلاف في القضية الكوردية من جهة في عدم تسميتها بشكل صريح باسم (القضية الكوردية)، ومن جهة أخرى في الخلاف الناتج من ذكر اسمها صراحة.

II - الحديث في القضية الكوردية في الأركان العامة



بول ولفويتز وإلكر باشبوع، 20 تشرين الثاني 2003 (أرشيف وزارة الدفاع الأمريكية)

بيدنا إمكانية تأمين أنفسنا في مواجهة الهزيمة. ولكن إمكانية هزيمة العدو بيد العدو.

سون تزو (400 ق. م. جنرال واستراتيجي عسكري)

سر الانتصارات كلها افتراض ما لم يُفترض.

ماركوس أوريليوس

استقبلني الفريق أول إلكر باشبوغ رئيس هيئة الأركان العامة عند باب مكتبه. كان الموعد محدّداً بدقة عند الثالثة من بعد الظهر؛ تماماً بالثانية. اضطررت للانتظار دقيقتين في الغرفة المجاورة لمكتب رئيس هيئة الأركان لأنني وصلت إلى مكان الموعد قبل دقيقتين.

تعرّفت هوس العسكر في الالتزام بالدقة عام 1992. فبعد جولة مع رئيس الجمهورية تورغوت أوزال إثر هجومٍ دامٍ لحزب العمال الكوردستاني على مخفر حدودي في ناحية تشوقورجة التابعة لمحافظة هكاري، ذهبتُ إلى مطار (وان) من أجل العودة إلى أنقرة على متن طائرة الخطوط الجوية

التركية فوجدت أنني فوّت موعد الطائرة.

تأخرت المروحيات التي أقلتنا من هكاري على حدود شمال العراق إلى وان. توجه رئيس الجمهورية إلى طائرته الخاصة، وتوجهت أنا مع مجموعة من الزملاء الصحفيين إلى الطائرة العادية، ولكن الطائرة كانت قد أقلعت، والطائرة العسكرية التي ستقل القادة العسكريين إلى أنقرة تنتظر على المدرج. وباعتباري الأكبر سناً، والأرفع مركزاً وقعتْ على عاتقي مهمة سؤال الجنرالات عمّا إذا كانت لديهم مقاعد شاغرة، وإن كان بإمكانهم أن يقلّونا معهم. أقلّونا. وبعد إقلاع الطائرة بقليل، وبسبب عمري ومركزي أيضاً دعوني إلى الأمام للجلوس بجوار الفريق أول محي الدين فيسون أوغلو قائد القوى البرية، والفريق أول أشرف بتلس القائد العام للدرك. وقد عُلقت في القسم الأمامي المخصص للقادة ساعتان دائريتان ضخمتان، إحداهما تشير إلى وقت الإقلاع والأخرى إلى وقت الهبوط بالثانية. أشار فيسون أوغلو نحو الساعتين، وقال بتباهٍ: "يمكنكم أن تضبطوا ساعتكم، انظروا إلى ساعة الهبوط، لن تختلف بثانية".

في الحقيقة، لم تختلف. لم يقتصر حديثي مع فيسون أوغلو بين وان وأنقرة على هذا الأمر. كما تحدثت على الأغلب إلى أشرف بتلس الذي توفي في حادث طائرة مشبوه بعد رحلتنا تلك بعدة أشهر. وناقشنا – الجنرال بتلس وأنا – قضية حزب العمال الكوردستاني الذي يعتبر من نتاج القضية الكوردية طوال الطريق، حتى الثانية التي تشير إليها الساعة المقابلة لنا على أنها موعد ملامسة عجلات الطائرة لمدرج المطار.

بعد ستة عشر عاماً، دعاني رئيس هيئة الأركان العامة للحديث في الموضوع نفسه. فوق هذا، إنه رئيس الأركان الجديد الذي يُشاع أنه من "الصقور" في المواضيع العسكرية والسياسية المتعلقة بالقضية الكوردية، وحسب ما وصلني، إنه لا يرتاح لي.

تشكلت قناعة عامة لدى الرأي العام بأن اسمي يسبب "حساسية" للقوات التركية المسلحة. وليس سراً على أحد أن السبب هو ارتباطي بالقضية الكوردية، ومطالبتي بحل هذه القضية. الأهمّ من هذا أنني كنت عام 1998 هدفاً لقضية جاسوسية ملفقة شبيهة بقضية دريفوس تم التحضير لها في قيادة هيئة الأركان. ادُّعِيَ أنني أقبض من حزب العمال الكوردستاني، وكان هذا افتراء سافلاً. ومع دخول عام 2000، تبيّن أن تلك العملية كانت "حركة نفسية" لمؤامرة أعدّت في مبنى هيئة الأركان العامة. وقد تعرض في تلك الفترة رئيس جمعية حقوق الإنسان أقن بيرضال

لظروف واتهامات مماثلة، فهاجمته عصابة عسكرية فاشية مرتزقة مسلحة، وقد أُخرِجت من جسمه ثلاث عشرة رصاصة. وإذا كان لم يعد إلى بنيته الجسدية السابقة، فقد نفد من الموت بأعجوبة.

أنا كنت أكثر حظاً، فقد لعب أقن بيرضال دورَ مانع الصواعق، وجَذَبَ الرصاصات التي كانت موجهة نحوي. إضافة إلى تعرضي لهجوم من أقوى مؤسسات بلدي، فقد أَطْبَق الصمت القاهر على زملائي، وطأطأوا رؤوسهم، وخسرت مصداقيتي بزج اسمي في انقلاب عسكري أعدّ بمهارة، ويتمّ التحكم به عن بعد. مُنِعت من نشر مقالاتي لفترة. ذاك التقييد على حريتي في الكتابة دفعني إلى التفكير بأن الوقت قد حان لمشروع فكرت فيه لمدة طويلة: الذهاب إلى أمريكا لفترة، والعمل في أحد مراكز الدراسات الاستراتيجية، ومراقبة بلدي والعالم من الخارج.

وهذا ما فعلته. ابتعدتُ مدة سنة ونصف السنة عن بلدي؛ على الرغم من أنني زرته أحياناً. عندما عدت، كانت المؤامرة التي أعدت ضدي في الأركان العامة قد كُشفت. وعندما كدت أضعُ تاج النصر على رأسي، مددتني إدارة الجريدة التي تريد أن تتقرب من هيئة الأركان على حجر المذبح للتضحية بي. فقدتُ عملي في الجريدة التي عملتُ فيها عشر سنوات، والتي كنت أعتقد أنني سأتقاعد منها.

بعد خلفية كهذه، أتت دعوة رئيس هيئة الأركان العامة إلكر باشبوغ لي ليبحث معي "القضية الكوردية" - على الأصح، ليبحث الموضوع الذي يحتل ذروة طموحاتي وهو التقارب بين تركيا وكوردستان العراق - وفي مبنى الأركان نوعاً من "السريالية"، أو حسب وصف بعض زملاء الكتابة "ثورة".

بالتأكيد، إنّ الأمر على هذا النحو بالنسبة إليّ أيضاً. وبالنسبة للإعلام التركي أيضاً... فعندما عُرف خبر لقائي باشبوغ لاحقوني كثيراً، ولكنني ضيَّعت أثري لفترة بذهابي في تلك الأثناء إلى أفغانستان، وانتقالي من هناك إلى الولايات المتحدة لتغطية انتخاب باراك أوباما رئيساً. تعاقبُ الأحداث بشكل مدوّخ في تركيا بدّد الفضول نحو الموضوع كما توقعت، وزال الاهتمام به.

من الحوار مع مستشار المخابرات التركية السابق جواد أُونَش المنشور في جريدة "طرف" بتاريخ 10 آب 2010 فهمت أن لقائي الفريق أول إلكر باشبوغ في 17 تشرين الأول 2008 مرتبطٌ بموافقة القوات المسلحة التركية على تناول مختلف لما أسمته "قضية الإرهاب".

قسَّم جواد أونَش لقاءات مؤسسات الدولة مع عبد الله أوجلان قائد

حزب العمال الكوردستاني منذ اعتقاله وجلبه إلى تركيا عام 1999، وتحديداً إلى جزيرة إيمرالي، إلى ثلاث مراحل على النحو الآتي:

"1- لقاءات تحت الرقابة العسكرية خارج توجيه المخابرات والشرطة في المرحلة التي تلت إلقاء القبض على أوجلان عام 1999 وجلبه. 2- لقاءات قليلة جداً مع بدء تدخل السياسيين المدنيين اعتباراً من عام 2006. 3- لقاءات محتملة اعتباراً من سنة 2008 قبيل مشروع الانفتاح الديمقراطي؛ ولقد كانت مرحلة ما بعد 2008 هي المرحلة التي وافقت فيها القوات المسلحة على أن حل القضية ليس عسكرياً فقط، بل يجب أن يقترن بحلول اقتصادية وسياسية ونفسية ودبلوماسية، إلخ...".

يبدو أن القوات المسلحة التركية قد وصلت إلى النقطة التي ندافع عنها منذ سنين طويلة في سنة 2008، وقد وصلت إليها بشكل خجول.

دخلت مبنى الأركان العامة حيث افتُري عليّ قبل عشرة أعوام وقيل إنني "أقبض من حزب العمال الكوردستاني". وكان الهدف تدمير سمعتي من خلال "حرب نفسية" عبر الإعلام. ولكنني الآن موجود من أجل مناقشة "كيف نحلّ هذا الأمر؟" و"أخذ رأيي"، وها أنا أدخل إلى غرفة "الضيوف المحترمين للرئيس الأول" حسب تعبير الأركان العامة.

عند الساعة الثالثة تماماً من بعد ظهر يوم الجمعة ذاك في 17 تشرين الأول 2008 وقفتُ أمام كبير القادة العسكريين من دون أن أطأطئ وأنحني، وأنا أشعر بالارتياح لثباتي على موقفي السياسي. وقد انتبهتُ فوراً إلى طول الفريق أول باشبوغ الفارع وحيويته وبنيته الجسدية الرياضية ولباقته الشديدة على الرغم من تقدمه بالسن.

تصافحنا بنفسية خالية من التوتر. وأشار نحو مجموعة من الأرائك في طرف غرفة مكتب الرئاسة الواسعة. جلستُ على حافة الأريكة الواسعة، وجَلَسَ على الأريكة المقابلة. أدرك أنني كنت حينها في مكان يراه كثيرون أهم من مكتب رئيس الجمهورية في القصر، أو مكتب رئيس الحكومة. كان الأمر على هذا النحو حتى ذلك الوقت؛ إذ إن نظام الوصاية العسكري كان لا يزال مستمراً. في فترة رئاسة إلكر باشبوغ للأركان كانت قد بدأت مرحلة نفوذ العسكر بالانحسار لصالح السلطة المدنية. على الرغم من هذا، لا يمكن لمن يجلس في تلك الغرفة عام 2008 إلا أن يشعر بأنه جالس في غرفة القرارات الأكثر أهمية وسرية؛ وخاصة إذا كان الموضوع هو القضية الكوردية.

قمنا بعملية إحماء قبل الدخول بالموضوع الأساسي، حيث تبادلنا

الأسئلة - الفريق أول باشبوغ وأنا - حول عمرينا، وأين قضينا سنواتنا الجامعية. كان يعتقد أننا قرينان، وكنت أعتقد أنه يكبرني بعدة سنوات، وقد صدق توقعي. مقابل هذا، اكتشفنا أننا عشنا في أمكنة متقاربة جداً، كما اكتشفنا ميولاً مشتركة أيام الشباب.

يبدو أننا بقدر ما كنا نقوم بإحماء، كنا نبحث عن نقاط مشتركة أيام شبابنا من أجل زيادة ما يمكن أن نتفق عليه.

دخل باشبوغ صلب الموضوع بواقعية، وبطريقة مباشرة لم أتوقعها منه: "أخطأنا في موضوع حزب العمال الكوردستاني. قلنا سنسحقه، سننهيه وولّدنا آمالاً لا ضرورة لها لدى المواطنين. ولكن المنظمات من هذا النوع لا يمكن أن تنتهي. المهم هو أن ننـزل حزب العمال الكوردستاني إلى المستوى الذي يمكننا أن نقبله".

- مثل؟

- مثل جبهة التحرر الشعبي الثوري. أليست جبهة التحرر الشعبي الثوري موجودة؟ إنها موجودة. وهل تقوم بأعمال إرهابية؟ نعم. ولكن جبهة التحرير الشعبي الثوري لم تعد تشكل خطراً جدياً.

طرح هذه الفكرة عدة مرات أثناء حديثنا الذي استمر ساعتين ونصف الساعة، كما قدّم استنتاجاً لافتاً، وقال إنها "حركة فلاحين" استمدت قوتها من طبيعة المنطقة الريفية والعمليات التي نفذتها هناك. ذكرني استنتاجه هذا بما قاله صديقي (من هكاري) محسن قزل قايا أحد رموز الثقافة الكوردية في تركيا. حين التقيتُ محسن بمناسبة عزاء عديله محمد أوزون، قال لي عن حزب العمال الكوردستاني على الرغم من عدم تقّبله له في أي وقت: "يمتلك طاقة هائلة. وتنبع هذه الطاقة من حنق القرى الكوردية على أغواتها وبكواتها الذين سحقوها لسنين طويلة. تراكمت طاقة الفلاحين الهائلة هذه التي يمثلها حزب العمال الكوردستاني ضد المسيطرين هناك أكثر مما تراكمت ضد الدولة التركية".

قبل خروج إلكر باشبوغ من رئاسة الأركان بفترة أقل من شهرين، ورداً على سؤال إحدى المحطات التلفزيونية: "لماذا لم تستطع تركيا القضاء على الإرهاب خلال 26 سنة؟". أجاب بالتالي:

"منذ 1984 إلى 2010 مرّت 26 سنة على العملية الأمنية. ماذا حدث؟ أحياناً نحن بحاجة إلى تقديم الأرقام والإحصائيات. أخرجنا من حيز الفاعلية 30 ألف إرهابي خلال 26 سنة. وهناك 10 آلاف استسلموا جرحى. المجموع 40 ألفاً. كوادر المنظمة في الجبل تتغير مع السنين، ولكن متوسط عددهم

هو 6 آلاف. أمّا أكبر رقم وصلت إليه فهو 10 آلاف. وفي هذه الأثناء، هم حوالى 4 آلاف. إذا قلنا إن المتوسط 6 آلاف، قسّموا 30.000 على 6، الناتج 5 آلاف. من وجهة نظر حسابية، إن قوى الأمن أنهت منظمة حزب العمال الكوردستاني الإرهابية خمس مرات. هذه حقيقة.

في اللقاء التلفزيوني ذاته تحدث باشبوغ عن استنتاج لم يذكره لي في لقائنا:

"في هذه الحال هناك سؤال: لماذا لا يزال حزب العمال الكوردستاني مستمراً؟ لننظر إلى الأحداث منذ عام 1984 إلى الآن. حربا العراق الأولى والثانية، ومأساة حلبجة... حزب العمال الكوردستاني منظمة محظوظة. ففي اللحظة التي يصل فيها إلى حافة الانهيار، تتحول الظروف لصالحه. هذه هي النقطة الهامة الأولى. الاستنتاج الهام الثاني هو: عندما تخف العمليات الإرهابية أو تتوقف، فإننا نعتبر أن المنظمة قد انتهت وتفككت؛ وهذا فهم خاطئ لمجريات الأمور. في الحقيقة، إن كوادر الجبل باقية، ولكن عدد العمليات انخفض. لو أننا أدركنا الأمر بالشكل الصحيح، لكنا قد اتخذنا إجراءات صحيحة. هذه نقطة مهمة"

(مليّيت، 6 تموز 2010).

ما يؤكد هذه الحقيقة أن أولى عمليات حزب العمال الكوردستاني المسلحة كانت ضد شيوخ عشائر بوجاق في سِيفَرَك. لقد استهدف هذا الحزب كسر ارتباط المجتمع الكوردي بعموده الرئيس؛ وهو العشيرة، ويجب اعتباره "حداثياً" من هذه الزاوية. وتحليل رئيس هيئة الأركان بأن حزب العمال الكوردستاني "حركة فلاحين أساساً" صحيح.

ينبع قلق إلكر باشبوغ من هذه النقطة، حيث يرى رئيس هيئة الأركان أن تركيا يمكن أن تتعرض لخطر التفكك لو انتقلت المنظمة من الريف إلى المدينة وبدأت العمليات فيها. استشعرت مرماه، وقلتُ مستخدماً المصطلح الإنكليزي: "تقصدون أن الصراع يتحول إلى (Inter-communal) إذا لم أكن مخطئاً؟". ووافقني الرأي.

لم تتحول "القضية الكوردية" إلى صراع تركي- كوردي على الرغم من كل شيء. ولكنها يمكن أن تتحول إلى صراع، ويجب اعتبار تمزق النسيج الاجتماعي بشكل غير قابل للرتق من أكبر المخاطر. توقف الفريق أول باشبوغ – اعتماداً على استنتاجه – عند أهمية الحيلولة دون بناء التنظيم في المدن، ووجَّه سؤالاً مفاجئاً من أجل التأكيد على وجهة نظره ودعمها "برأيك، هل نجح حزب العمال الكوردستاني؟".

قلتُ ممازحاً: "نحن نتكلم في ما بيننا أليس كذلك؟ شرط أن تكون المسجلة مطفأة". ثم أجبت: "برأيي، نعم". قال باشبوغ: "وأنا أيضاً أراه ناجحاً". ولكن هناك ما يثبت عكس ذلك، وقد شرح الأمر من خلال بعض الإحصاءات.

"مات حوالى أربعين ألف إنسان في خمس وعشرين سنة تقريباً. وهناك حوالى خمسة آلاف شهيد بين جندي وشرطي وحارس قرى. وهناك خمسة آلاف مواطن، وحوالى ثلاثين ألفاً من الطرف الآخر بين قتيل أو مقبوض عليه أو مستسلم أو مغيّر لجبهته. ممّا يعني أنه أُخرج من الطرف الآخر ثلاثون ألفاً. ما الذي يعنيه هذا؟ يخرج من الصراع ألف شخص في السنة. هذا نجاح عظيم بالنسبة إلى جيش نُظِّم لخوض حرب تقليدية. نجاح القوات المسلحة التركية يستحق التدريس في الأكاديميات العسكرية العالمية. ففي فترة ذروة التنظيم، كان عدد عناصر المنظمة المسلحين في الجبال حوالى 6500 عنصر، والآن هذا عددهم. إنها تحافظ على قوتها العسكرية على الرغم من هذا النجاح العسكري".

- حين تقولون حوالى 6500 فهل تقصدون أولئك الموجودين في قنديل؟ أم إنكم تضيفون إليهم الذين في الجبال ضمن حدودنا؟

- المجموع؛ في الداخل والخارج.

المعلومة الإحصائية التي أعطاني إياها رئيس هيئة الأركان العامة في تشرين الثاني من عام 2008 حول قوة حزب العمال الكوردستاني توافقت تقريباً مع معلومة مراد قرة يِلان الرجل الأول في التنظيم المسلح لحزب العمال الكوردستاني في تشرين الثاني من عام 2010.

ففي نهاية لقاء طويل دام ست ساعات ونصف الساعة مع مراد قرة يِلان في جبل قنديل بتاريخ 11 تشرين الثاني 2010، سألته مستمداً الشجاعة من الجو العفوي السائد: "إذا لم يكن الأمر سراً، كم يبلغ عدد القوات المسلحة لحزب العمال الكوردستاني؟". وأضفت من دون أن أنتظر الجواب: "ليس لدي فضول لمعرفة أسراركم، ولكنني طرحت هذا السؤال كمدخل لسؤال آخر. وإذا لم تُجيبوني عن سؤالي، فإنّ هذا لن يمنعني من طرح السؤال التالي".

إثر سؤالي المفاجئ والجريء، تردد مراد قرة يِلان وابتسم، ثم التفت نحو بوظان تكين وروناهي سِرهات، وسألهما: "هل هذا سر؟".

القرار الأخير له بالطبع. ظهر على وجهَي مساعديه بعض التقلصات. وبعد توقف قصير، أعلن مراد قرة يِلان "السر": "حوالى سبعة آلاف!".

- أهم الذين هنا في الجبل؟ وهل من ضمن العدد أولئك الموجودون في جبال تركيا؟

- في الداخل والخارج. المجموع كله. ولكن عناصر الصحة والطباخين والسائقين يدخلون ضمن هذا الرقم. عناصر القوى العسكرية 4500 تقريباً...

لم تكن الأرقام التي أعطاها مراد قرة يِلان في قنديل بعيدة كثيراً عن الأرقام التي أعطاها الفريق أول إلكر باشبوغ.

من جهة أخرى، هناك قضية كان على باشبوغ أن يفسّرها للرأي العام؛ وهي كيف تكون القوات المسلحة لحزب العمال الكوردستاني في أواسط التسعينيات – عندما كانت قوته في الذروة – مساوية لقوته عام 2008.

هذا ما أراد باشبوغ أن يشرحه لي. "طلبتُ إجراء بحث. ظهر أن الانضمام إلى كوادر الجبال في المنظمة يأتي من المدن. توقعوا المدينة التي تأتي بالدرجة الأولى؟".

ترددت، وألقيت توقعاً عبثياً: "طونجلي؟".

تابع الفريق أول باشبوغ: "أقول مدينة يا سيدي. 20% من اسطنبول و37% من ديار بكر. أي إن نصف الملتحقين حديثاً من مدينتي اسطنبول وديار بكر. وبحسب معطيات بحثي أيضاً، إنّ المنضمين من اسطنبول ليسوا من مواليدها. إنهم أبناء العائلات التي هاجرت من المنطقة، وكانت أعمارهم بين 3-4 سنوات عند الهجرة...".

قاطعته: "أي من الذين لم نستطع تذويبهم قومياً!".

رأيت على وجهه ردة فعل جدية تدل على عدم تهاونه بالمزاح حين قال: "نحن لا نستخدم هذا الاصطلاح يا سيدي، بل نقول دمج. لا بد أنكم قرأتم كتاب متين هَبَرْ..". تابع قائلاً: "من أجل فتح طريق من مراكز المدن إلى الجبل يجب أن يكون في هذه المدن من ينظم هذا الأمر. لذا، إنّ هناك ما يسمى تنظيم المدن داخل الحزب، ومهمته رفد الحزب بالعناصر الجديدة، وهذا يقودنا إلى أهمية المخابرات لحل هذه القضية. يجب أن تكشف المخابرات تنظيم المدن، وأن يُكسر ظهره ليُحال دون رفد المنظمة بالعناصر الجدد".

على الرغم من أن رئيس هيئة الأركان ليس من النوع الذي يعتبر أن القضية تُحل "بالإجراءات الأمنية" فقط، ويُعنى بإبراز أنها ذات "جوانب متعددة" – وفي هذا الإطار، هناك جوانب نفسية واجتماعية واقتصادية وثقافية وسياسية – ويتحدث مستشهداً بمختلف الكتب، ولكنه بحسب كلامه

يخفّض مستوى القضية إلى المستوى الأمني. أثناء استماعي إليه كنت أذكّر نفسي بأنني جالس مقابل رجل عسكري، ولهذا السبب تعتبر نظرته إلى الأمور على هذا النحو طبيعية.

أثناء النقاش، حَوَّل الحديث نحو موضوع "الهوية الثقافية"، و"اللغة الأم".

- أصبحت الكوردية مسموحة. إنهم يتكلمون الكوردية. هذه ليست مشكلة.

- الكورد دائماً يتكلمون الكوردية. إنهم يتكلمون بها في بيوتهم، وفي ما بينهم منذ قرون. ولكنها لا تزال مشكلة...

- كحق فردي نعم، ولكن لا للحق الجماعي.

- سمعت منكم هذا التعبير بانتباه حين كنتم قائداً للقوات البرية، وقرأته. يومذاك أيضاً لم أفهمه كثيراً. كيف تفسرون الحق الفردي والحق الجماعي؟

- اللغة الرسمية هي التركية!

- لا مشكلة في هذا. يمكن أن تكون اللغة التركية رسمية، ويُسمح باللغة الأم كحق جماعي...

لم يطل الفريق أول باشبوغ هذا الحوار. قفزنا إلى موضوع آخر.

عرّج على أهمية بث تلفزيون الدولة بالكوردية، وانحنى نحوي، وأخفض صوته وكأن هناك جهاز تنصت في الغرفة، وهناك من يتنصت علينا، وقال: "أنا نصحتُ الحكومة بأن يبث التلفزيون الرسمي بالكوردية. ليستمعوا إلي بدل أن يستمعوا لتلفزيون روج!".

البث التلفزيوني بالكوردية مقابل بث تلفزيون حزب العمال الكوردستاني أمرٌ ليس مألوفاً من رئيس هيئة أركان تركي. ولكن، لو كانت هذه الخطوة قد حصلت منذ زمن باكر أما كانت أكثر تأثيراً؟

تمتمت موافقاً على كلامه: " too little، too late/ قليل جداً، ومتأخر جداً".

في حفل الاستقبال بمناسبة انتهاء مدة خدمة إلكر باشبوغ كرئيس لهيئة الأركان العامة وتسلم الرئيس الجديد مساء 27 آب 2010، قدم ما يمكن اعتباره نقداً ذاتياً لعدم اتخاذه التدابير اللازمة حين انخفضت حدة الصراع أو وصلت إلى نقطة التوقف تقريباً. ورداً على تساؤل الصحفي: "التلفزيون الكوردي؟". قال: "هذا على سبيل المثال، إذا حقق ثلاثة تأثيرات أو أربعة، فقد كان سيحقق عشرين تأثيراً لو تم في ذلك الوقت". من

الواضح أنه يعي خطورة "تأخر" بعض الخطوات و"قلتها"، أو قد وعى هذا مؤخراً.

بعد شهرين ونصف الشهر من حواري مع الفريق أول باشبوغ حول التلفزيون الكوردي بدأت قناة " TRT-6 " أو كما رسخ بلغة الناس "ت. ر. ت. شيش" بالبث اعتباراً من 1 كانون ثاني 2009.

عرض رئيس هيئة الأركان العامة رؤيته الشخصية للقضية الكوردية، وقدّم رؤوس خيوط من خلال عدة أحاديث تبين كيفية تناولها عندما كان قائداً للقوات البرية. ولأنني متابع لتلك الأحاديث بدقة، أعرف أنه لا ينظر إلى القضية باعتبارها قضية إرهاب أو قضية أمنية فقط.

يرى إلكر باشبوغ القضية الكوردية بأنها ذات بعد اقتصادي إضافة إلى كونها قضية إرهاب. وبالتالي، هي قضية أمنية. وبحسب تعبيره، لا بد للوضع الاقتصادي الاجتماعي أن يُستخدم في الدعاية من أجل البعد المسلح، إضافة إلى البعد الدولي. هذا البعد مرتبط بالكورد خارج تركيا؛ وخاصة في شمال العراق.

وإذا كان إلكر باشبوغ يتهرب من لفظ التسمية بقوله "إدارة محلية"، فإدارة إقليم كوردستان في شمال العراق واردة في الدستور العراقي ومتبلورة في شبه استقلال.

في لقائي بالفريق أول باشبوغ حرصت على عدم استخدام تعبير كوردستان لكي لا أزعجه من أجل لا شيء. أنا أول من استخدم اسم كوردستان في الإعلام التركي المكتوب والمرئي، وسأستمر على هذا النهج. ولكن، أثناء حديثي مع رئيس هيئة الأركان العامة في مكتبه الرسمي اخترتُ استخدام مصطلح شمال العراق والإدارة الكوردية، ولاحظت أن رئيس هيئة الأركان العامة لم يحد عن لفظ "الإدارة المحلية" نهائياً. يُطلق تعبير "الإدارة المحلية" في تركيا على البلديات، ولا يمكن ألا يكون إلكر باشبوغ مدركاً لهذا. وقد لفت نظري تجنب رئيس هيئة الأركان ذكر كلمة "كورد"، كما تجنب استخدام عبارة "شمال العراق" أيضاً بشكل خاص.

يبدو أن حساسية العسكر من استخدام الكلمات تمتد من مفردة كوردستان وصولاً إلى تعبير شمال العراق. لم يعد تعبير "شمال العراق" يأتي على ألسنتهم. ويقولون "شمالي العراق". وهم يستخدمون هذا التعبير لكي لا يعطوا انطباعاً بأنهم يعتبرون كوردستان العراق حكومة مختلفة عن الحكومة المركزية في بغداد. ووصل هذا التعبير إلى أعضاء حكومة طيب أردوغان الذين يختلفون بطريقة تفكيرهم عن الجيش في ما يتعلق بالقضية

الكوردية، فقد لفت نظري وزير الخارجية علي باباجان وهو يستخدم مصطلح شمالي العراق في برنامج تلفزيوني عام 2009، وذكّرته أن هذه لغة العسكر، فابتسم، ووافق بابتسامة، ولكنه لم يغيرها.

(خلال حديثي مع صديقي القديم السفير التركي مراد أوزتشليك في مقر إقامة السفير في حي الوزيرية البغدادي في شباط 2011، عرفت أن لدى العسكر حساسية من بعض الكلمات والصفات. فقبل أن يتسلّم مراد أوزتشليك مهمة السفير في بغداد، كان المنسق الخاص للشؤون العراقية في تركيا. وحين أخبرته بلقائي مع باشبوغ، ضحك وقال: "تركوا عبارة شمالي العراق، وباتوا يقولون "شمال العراق". فهم يعتقدون أن هذا تغيير مهم، وذلك لكي لا يستخدموا تعبير كوردستان! العسكر يهدرون طاقتهم على عُقَد من هذا النوع).

وبما أن رئيس هيئة الأركان العامة كان يتجنب استخدام مصطلحي كوردستان وشمال العراق، فيجب ألا يُستغرب استخدامه تعبير "الإدارة المحلية في شمالي العراق". السبب الأساسي لدعوته لي إلى مكتبه الرسمي هو الحديث في هذا الموضوع؛ أي العلاقة مع كورد العراق. وكان على قناعة بأن تركيا يجب أن تقيم تعاوناً استراتيجياً مع كورد العراق، ويريد مناقشتي في هذا الموضوع.

ما أدهشني أنه مال نحوي ذات مرة، وقال: "نحن نقول الحكومة المركزية في بغداد، ولكن علينا ألا نخدع أنفسنا، إذا لم نُقِم تعاوناً مع الإدارة المحلية في شمالي العراق – أي مع البرزاني – فلا يمكن أن تُحل هذه المشكلة". ما قصده بكلمة المشكلة هو مكافحة حزب العمال الكوردستاني أو مواجهة الإرهاب باللغة الرسمية.

تنطلق رؤية رئيس هيئة الأركان العامة للتعاون بين تركيا وكوردستان العراق من أنّ هذا التعاون سيفيد عملياً على صعيد مكافحة الإرهاب؛ وذلك لأنّ لكوردستان العراق مصالح تحققها من التعاون الاستراتيجي مع تركيا. وقد أراد أن يطلعني على رأيه في هذا الموضوع، ويأخذ رأيي فيه.

اللافت للنظر هو توقيت إطلاعي على رؤيته. كان باشبوغ منتبهاً إلى أن أمريكا أوباما مصرة على الانسحاب من العراق، فقد تقرر انسحاب القوات الأمريكية من العراق بموجب اتفاقية " SOFA " التي وقعتها إدارة جورج دبليو بوش مع الحكومة العراقية. ومن المحتمل أن تُجذب القوات العراقية إلى محاور مختلفة مع إفراغ الولايات المتحدة الأمريكية العراق عسكرياً.

هناك روابط طبيعية بين إيران وشيعة العراق، وبين العالم العربي وسنة العراق. وفي هذه الحال، أكبر مصلحة للكورد هي انفتاحهم على تركيا. من هذا المنطلق، هناك فرصة تاريخية للعلاقات بين تركيا والإدارة الكوردية في العراق (حرص دائماً على ألا يلفظها بهذا الشكل). هذا ما يفكر فيه الفريق أول باشبوغ.

ما يقوله صحيح. ولكنني لم أكن أعتقد أنني سأسمع وجهة نظر صائبة وبهذه الصراحة من رئيس هيئة الأركان العامة. فعلى الرغم من تهرّبه من الصفات والأسماء، فإن الطرح الذي قدمه الجنرال باشبوغ الحائز على موافقة هيئة الأركان العامة غريب ومهم. خطر ببالي أنني يجب ألا أعطي أهمية كبيرة جداً حالياً للقائي معه في هذه النقطة من دون أن أحيد عن مبادئي وما أعتبره صحيحاً. قضيتُ مرحلةً طويلةً من عمري بالدفاع عن حل سياسي للقضية الكوردية؛ أي هذه الحقيقة التي يبدو رئيس هيئة الأركان قد قبلها، وكثيراً ما كتبتُ عنها وتحدّثت فيها؛ ونتيجة هذا أثرت غضب أوساط عديدة بما فيها القوات المسلحة. وها أنذا في وقت لم أكن أتوقعه أجتمعُ برئيس المؤسسة التي تلعب دوراً أساسياً معوقاً في القضية الكوردية والعلاقات مع كورد العراق، وأتحدث معه حديثاً فيه تطابق بوجهات النظر.

في بداية حديثنا، قال الفريق أول باشبوغ: "بداية، لأشرح لكم كيف بدأ اهتمامي بهذا الموضوع". احتك بالقضية الكوردية أول مرة عند تعيينه قائداً للفرقة التي تنضوي تحت جناحها أمنيّاً ثلاث عشرة محافظة ومركزها في ديار بكر عام 1993. خطط لعمليات على أراضي كوردستان العراق، ووطئت قدماه تلك الأرض. وقد دفعه الفضول للقراءة في هذا الموضوع بما يتجاوز عمله الاحترافي، وهو يضع نفسه على رأس "الراغبين بحل هذا الموضوع" بين المسؤولين. كنت أراقب خطوط وجهه وهو يؤكد رغبته "بالحل". ولم أستطع التقاط أيّ إشارة إلى أنه غير صادق.

وعندما بدأ يشرح لي بالقول: "انظروا من أين احتككت بهذه القضية" وبدأ الحديث من تاريخ 1992، كنت أفكّر كيف سأبدو فيما لو قلت له: "انظروا من أين جاءني الاهتمام بهذه القضية؟".

III - محطات بلاد الشام



يمكن للإنسان أن يحتمل أي شيء عدا عيش أيام تكرر نفسها. فالتكرار يقود الحياة إلى الهاوية.

غوتة

كان حيّ الأزبكية يُعد من أحياء دمشق المركزية والمنتظمة في سبعينيات القرن العشرين. بالمقابل، يشبه شارع بغداد الدمشقي سميّه الواقع في الجزء الأناضولي من اسطنبول، ولكنه أحد شرايين العاصمة السورية النابضة بالحياة.

يقع كلٌّ من مقر الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، ومقر منظمة التحرير الفلسطينية - التي لم تكن عام 1971 قد أسمعت العالم بقوتها وشهرتها بعد، وستحقق هذا بعد عدة سنوات - في الأزبكية في شارع بغداد.

غادرنا بلدنا بعد أن لوحقنا إثر انقلاب 1971 العسكري في اليوم الأخير من حزيران. لجأ قسم من اليساريين إلى أوروبا الغربية، ولكنني بفضل قهوجي طرسوسي كوردي أعرفه من أيام الدراسة انطلقتُ في طريقي إلى سورية؛ وذلك بمساعدة قريب له مهرب من ناحية آقتشا قلعة التابعة لأورفة. وبواسطة هوية مزورة أعدها رفيق لنا سيغدو في ما بعد واحداً

من أهم الصحفيين في تركيا، انطلقنا من أنقرة ووصلنا إلى تلك الناحية الصغيرة على الحدود السورية، وهناك تأبطنا ذراع المهرب الذي كان ينتظرنا. بعد أن سرنا على خط مقوّس في سهل حرّان مع المهرب الكوردي الذي يفرض عليه عمله أن يعبر الحدود كل يوم، ووصلنا إلى مخفر الدرك المتفق معه، ودفع لرئيسه رشوة كبيرة، عَبَرْنا إلى سورية قرب تل أبيض المقابلة لآقتشا قلعة.

عندما وصلنا إلى بيت يستخدمه المهربون الذين يعبرون الحدود من الطرفين حاملين البضائع، أدركتُ أن صفحة جديدة قد فُتحت في حياتي، ولا أعرف كم ستطول، وأين ستنتهي.

لم نقضِ وقتاً طويلاً في ذلك البيت، فبعد مساومة قصيرة أمنّا سيارة الأجرة الوحيدة في القرية، وانطلقنا في منتصف الليل. توقفنا لاستراحة قصيرة في ظلمة ليل الرقة، ووصلنا إلى حلب في الصباح الباكر. وجدنا مقر الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، وانتظرنا حتى تمّ إصدار هوياتنا الفلسطينية المؤقتة من أجل التفتيش على الطريق بين حلب ودمشق، ثم انطلقنا من جديد ظهراً، ووصلنا مساء اليوم نفسه إلى دمشق.

لم يكن هدفنا اللجوء لسورية أو عيش حياة منفى طوعي فيها، بل كنا نريد الانضمام إلى النضال التحرري الفلسطيني. كانت المقاومة الفلسطينية - بحسب تسميتها في تلك الأيام - المندلعة بجوارنا إثر الحرب العربية الإسرائيلية عام 1967 أسطورة تجذب اليسار التركي المسمى جيل عام 68. وقد انطلقنا إلى سورية لنتواصل مع المنظمات الفلسطينية هناك، ونعود إلى تركيا بعد تلقي التدريب العسكري اللازم، ونشكّل أولى الوحدات العسكرية اليسارية. بعد وصولنا إلى دمشق، حققنا التواصل الذي أردناه.

عرفنا أننا سنُرسل إلى معسكر قريب من معلولا التي تبعد حوالى 80 كلم عن دمشق، والتي تشبه أورغوب - غورمة، ويسكنها مسيحيون يتحدثون الآرامية. هناك عرفت لأول مرة بوجود لغة آرامية وأنها لغة السيد المسيح، وبعد سنوات طويلة سأعلم أن الآرامية هي لغة مواطنينا السريان والأقلية الآشورية في العراق والتي تعود جذورها إلى أراضي هكاري.

أثناء انتظارنا للذهاب إلى معلولا، وفي الأيام الأولى من تموز 1971 كنا نتسكع على أرصفة شارع بغداد من أجل تمضية الوقت، ومعرفة المحيط الذي دخلناه، والانسجام مع ذلك المحيط. لفتت نظري لوحة طبيب أسنان قرب مكتب منظمة التحرير باسم زكريا. وبسبب تلك اللوحة، خطر ببالي أن آخذ اسمَ زكريا الحركي، وعندما كنتُ أملي معلومات من أجل هوية

منظمة التحرير الفلسطينية أمليت اسمي "زكريا إحسان". إحسان هو اسم والدي. وصرت أستخدم اسم زكريا للتخفي عن وحدات المخابرات التركية التي ستبحث عني في العالم العربي.

الجبهة الديمقراطية هي التنظيم الأشد يسارية في بنية منظمة التحرير الفلسطينية، ومعها أجرت المجموعة التي أنتمي إليها أول اتصال. كنت مكلفاً بتأسيس مكتب العلاقات الخارجية في الشرق الأوسط لتنظيمي اليساري الذي اضطر لبدء العمل السري بعد انقلاب 12 آذار العسكري. أبلغتُ بهذا الأمر أبا محمد مسؤول العلاقات الخارجية للجبهة الديمقراطية الذي يتحدث بإنكليزية مكسّرة. تحمّس مسؤول الجبهة الديمقراطية، من أجل تأمين التواصل بيني وبين الكثير من المنظمات التي يقيم معها علاقات.

لأننا من تركيا، يبدو أنهم اعتبروا أنّ الأنسب أن يكون أول تلك التنظيمات هو الكوردية. بينما كنتُ جالساً من دون عمل في المكتب، اقترب مني، وخطا الخطوة الأولى قائلاً: "رفيق زكريا، أريد أن أعرفك على منظمة كوردية. سيأتي بعض أعضائها إلى هنا ويصطحبونك إلى مكان. بعد اللقاء، سيقلّونك إلى هنا ثانية. هل هذا مناسب لك؟". ما الذي سيكون جاذباً أكثر من هذا لثائر رومانسي في الثانية والعشرين من عمره اضطر لترك بلده في أوائل السبعينيات؟

عند أول تماس لي مع القضية الكوردية، لم يكن حزب العمال الكوردستاني الذي سيطبع حياتي بطابعه قد تأسس بعد، ولم يكن هناك أي مؤشر على أنه سيتأسس. أنا وعبد الله أوجلان من الجيل نفسه، ولعلنا من العمر نفسه، ولكنه لم يكن قد ظهر على الساحة بعد. لم يكن خارج السياسة فقط، بل لم يكن له أي نشاط في أي ميدان من ميادين النضال السياسي الكوردي. لم نكن نعرفه، وعرفت منه بعد سنين طويلة أثناء لقاءاتي معه أنه كان يعرفنا، وحدثني كيف دخل مجال السياسة لأول مرة.

كنتُ كواحد من قادة حركة شباب جيل 68 واعياً للحركة الكوردية التي بدأت تتبرعم في النصف الثاني من ستينيات القرن الماضي، واتخذت مكانها بقوة في التوازنات السياسية التركية منذ مطلع السبعينيات، واهتممت بهذه الحركة. عدد كبير من العناصر المؤسسين لملتقيات الثقافة الشرقية الثورية من أبناء المناطق الشرقية والشرقية الجنوبية من رفاقنا، وكنا نعرفهم عن قرب؛ إما من النشاطات الشبابية أو من الحركة الثورية. وعلى الرغم من شعورنا بالامتعاض لأنهم تركونا وكثفوا فعالياتهم في ملتقيات الثقافة الشرقية الثورية، فقد كنا الأكثر اهتماماً بالقضية بين شرائح المجتمع التركي

بعد أن أصبحت هذه القضية مركز جذب إجباري لليسار التركي. لقد برزت ملتقيات الثقافة الشرقية الثورية بحشدها الجماهيري بعد عام 1970 بشكل خاص لتأكيد الهوية الكوردية. كان يتناهى إلى آذاننا أن تعذيباً جماعياً ينفذ في نواحي منطقة جنوب شرق الأناضول وقراها. وكان لا بد لليسار أن يحترم الشعب الكوردي بسبب موقفه التلقائي في وقوفه إلى جانب المظلوم. من جهة أخرى، كنا نناقش حلّ القضية الكوردية بحرارة التزاماً بطراز تلك الحقبة. فقد كانت بوصلتنا مبدأ حق الشعوب بتقرير مصيرها للينين، ومسندنا كتاب ستالين "القضية القومية".

هل كان لدى الكورد في تركيا حق تقرير المصير؟

لا يمكن التفكير بحرمانهم من هذا الحق. حسنٌ، ولكن، هل يتضمن هذا الحق حق الانفصال باعتباره مبدأ لينينياً لا يمكن التراجع عنه؟

أثناء مناقشة القضية الكوردية في اجتماعات الأوساط اليسارية الطويلة، كان حق الكورد بتقرير مصيرهم - وبالطبع بما في ذك حق الانفصال - يناقش بمنتهى الحيوية. وفي وسط التحدي السياسي والتقوقع التدريجي للفكر اليساري، كنا نجد أنه من الضروري الدفاع عن حق تقرير المصير للكورد، بما في ذلك حق الانفصال باعتباره مبدأ لينينياً؛ على الرغم من عدم ارتياحنا له تماماً، ولا نريده أن يتحقق. لقد كانت الكلمات التي تخرج على ألسنتنا وتنسكب من أقلامنا تحمل تناقضاً بين عالمنا الداخلي وفكرنا المقولب في أغلب الأحيان.

في الجو السياسي الذي غيّره انقلاب 12 آذار 1971 العسكري حُكم عليّ بالسجن لتسع سنوات، وبالنفي لسنتين ونصف السنة. سيأتي المزيد، أعرف. بدأت حملة ملاحقتي، ولهذا بدأت أتخفى. كما بدأت حياة الهرب ورحلة المنفى التي دفعتني لترك الوطن. بعد فترة قصيرة من انقلاب 12 آذار 1971 العسكري، وقبل بدئي حياتي متخفياً ومنفياً، ذهبت للمرة الأولى في حياتي إلى المنطقة الكوردية في شرق تركيا وجنوب شرقها. بين 12 آذار تاريخ إعلان الأحكام العرفية في إحدى عشرة محافظة و26 نيسان بدء مرحلة حياتي وأنا متخفٍّ، عملنا على عقد مؤتمر على مستوى القطر في أنقرة. كانت مهمتي الذهاب إلى (وان)، والتعريج في طريق العودة على ديار بكر وغازي عنتاب وملاطيا لإقناع المرتبطين بالتنظيم بالمجيء إلى أنقرة.

في مطلع عام 1970 كان شرق تركيا وجنوب شرقها بعيدين جداً عن مركزها على الأصعدة كافة. في الشهر الثالث من عام 1971، انطلقتُ على متن حافلة من أنقرة إلى وان لأول مرة في حياتي. بدّلت الحافلة في ملاطيا

قاصداً إلداغِ، ومنها إلى بنغول وموش وصولاً إلى تطوان. أي إنني اجتزت المنطقة الكوردية من أولها إلى آخرها، وأخذت فكرة عن الجغرافيا الشرقية. كنت أعرف الطريق إلى ملاطيا لأنني ذهبت إلى هناك من قبل، ولكن الجديد والغريب والمثير لفضولي وانفعالي هو ما بعد ملاطيا.

قطعتُ الطريق بين ملاطيا وإلداغِ من دون أي شيء غير اعتيادي. لم يكن هناك ما يشعرني بالغربة بين ركاب أنقرة – ملاطيا، وملاطيا – إلداغِ. ولكن، من لحظة ركوبي الحافلة المتوجهة إلى بنغول وموش عشتُ صدمةً حضارية لم أعشها في أي مكان من تركيا من قبل. بعد مرور وقت قصير جداً على انطلاق الحافلة من إلداغِ بدأتُ أحسّ بشعور الرجل الأبيض الذي تقله الحافلة بين بلدات المكسيك. انتبهتُ إلى أنني لا أشبه الناس الراكبين في الحافلة من الناحية الجسدية ولا من ناحية الهندام. إضافة إلى هذا، لم أكن أفهم أي كلمة مما كان يُحكى. كان ركاب الحافلة يحرصون على مجاملتي بلطف يشعرني بأنني غريب عنهم، وهذا يشبه الحفاوة بأجنبي. من جهة أخرى، كنت أرى من خلال نافذة الحافلة جغرافية وطبيعة لا تشبه أي مكان آخر رأيته في تركيا. كنتُ أعرف اسم كل شبر من الأرض وتاريخه لأن لدي شغفاً بالخرائط. لذا، كنت أستمتع بربط معلوماتي النظرية بتجربتي البصرية.

كانت رحلة لا تُنسى. وصلتُ إلى وان في منتصف الليل، بعد انطلاقي من أنقرة بيوم ونصف اليوم تقريباً. ومن طريق آخر ذهبت إلى ديار بكر، ومن هناك إلى أورفة وعينتاب، ومن عينتاب عدّتُ إلى ملاطيا عبر بازارجِك. شكّلت تلك الرحلة علاقتي الأولى المباشرة بالجغرافية الكوردية ومجتمعها وحياتها. استمعتُ لأول مرة من الشهود الناضجين في سيلوان وسيفرَك إلى قصص جمع الجنود لأهالي البلدة أو القرية بعد تظاهرات منتديات الثقافة الشرقية الثورية، وإهانة الشباب منهم.

وعندما كنت على وشك أن أغط في النوم منهكاً بعد وصولي في منتصف الليل إلى وان، قرع بابَ الغرفة بانفعال صديقي وصاحب البيت جميل فاضل، والذي كان يعمل حينها ميكانيكياً، وأيقظني من أجل أن يقول لي إنه وجد دليلاً على "أنني كوردي" في الكتاب الموسوم "شرف نامة" والمكتوب في القرن الرابع عشر، والذي يتضمن معلومات يعتبرها لا تقدر بثمن حول تاريخ الكورد القديم، ويريد أن يبلغني بها. يقول كاتب شرف نامة شريف خان إن خليل قرة تشاندارلي جد أبي الأكبر كان كبير قضاة السلطان العثماني الثاني الغازي أورخان (والصدر الأعظم لدى مراد

الأول في ما بعد)، ويتحدث عن (الصدر الأعظم خير الدين باشا تشاندارلي). أراد جميل فاضل أن يطلعني على هذه المعلومة التي توصل إليها وهو يقرأ ذلك الجزء من الكتاب بانفعال، ولكني لم أكن أصغي إليه وأنا ممدد على الأرض ومتعب بعد سفر مُنهك. لدي معلومات حول جذوري، ووعي لهويتي منذ الطفولة. فأنا أنتسب من طرف أبي إلى إحدى العائلات المؤسسة للدولة العثمانية، والتي ينتسب إليها خمسة رجال احتلّوا منصب الصدر الأعظم بدءاً من عهد مراد الأول، ووصولاً إلى عهد بيازيد الثاني على مدى القرنين الرابع عشر والخامس عشر. كانت زياراتي وأنا طفل مع كبار رجال العائلة لجوامع تشاندارلي وقبور رجال العائلة في إزنيك، تمنحني قوة تجذر تاريخي عميقاً جداً. كان كبار أفراد عائلة أبي متدينين جداً. أما عائلة أمي فهي عائلة سالونيكية لسبعة أجيال؛ جاءت بعملية التبادل (عملية التبادل حصلت عام 1923 بين اليونان وتركيا إثر الحرب بين البلدين). كان جدي لأمي يذكر أنه يعرف أتاتورك لأنهما من الحي نفسه، ويقول عنه "الأخ مصطو" أو "الغازي". كان هذا الطرف من عائلتي يتباهى كثيراً بأنه من بلد أتاتورك. عائلة والدتي تختلف جذرياً عن عائلة والدي، فأقرباء والدتي كلهم تقريباً متحضرون ويسكنون نيشان طاشِ في اسطنبول، وكان جدي وجدتي يتكلمان عدة لغات، وليست لهم أي علاقة بالتقاليد الدينية. أعرف أن القائد العسكري رفعت باشا (بِلَةَ) الذي جاء في حرب التحرير القومية إلى اسطنبول مخلِّصاً قريبٌ لجدتي. ومنذ طفولتي، أعلم أن جدي لأمي من فيليبة - فارنا، وهو حفيد شقيق الماريشال فوزي تشقمق. هذا كله جعلني أشعر بفضول نحو السياسة والتاريخ أكثر من شعوري بالانتماء إلى جيل النخبة الجمهوري الثاني. كنت شخصاً يعيش في عاصمة الجمهورية، وينام أجداده بين مؤسسي الدولة العثمانية في إزنيك، وينتمي أقرباؤه من طرف أمه إلى روملي (البلقان)، وقد سكنوا اسطنبول. شعوري بالانتماء إلى روملي قوي دائماً، ولكن ليس في عائلتنا أي فرد تمتد جذوره نحو الشرق.

سأعلم بعد سنين طويلة أن خليل قرة تشاندارلي عديل الشيخ أدب عالي، والذي كان حما مؤسس الإمبراطورية العثمانية الغازي عثمان، قد تزوّج من ابنة رجل الدين الهام في عصره الشيخ تاج الدين الكوردي. عندما نقلتُ هذه المعلومة لجلال طالباني أثناء زيارته لتركيا عام 1991 رأيتُ على وجهه الفرح الذي رأيته على وجه جميل فاضل في وان قبل عشرين سنة. قال لي: "من الواضح أصلاً أن لك جذوراً كوردية". وبالطبع، لن يفيد

شرحي له عدم وجود أي ارتباط على مدى ستة قرون غير الزواج من ابنة تاج الدين الكوردي، وأنني روملي للعظم من طرفي العائلة وخاصة من طرف أمي السالونيكية منذ سبعة أجيال. لقد شعر طالباني بالسعادة من وجود رابط دم بيني وبين الكورد؛ وإن كان ضعيفاً جداً ويعود إلى ستة قرون مضت.

في الحقيقة، لم يكن لدي أي ارتباط بالكورد سوى صداقتي معهم. ليس لدي رابط دم يجمعني بهم. ولكنني أثناء حياة المنفى في دمشق عام 1971 أصبحت واحداً من أكثر الذين لديهم معلومات حول القضية الكوردية والكورد وتاريخهم وجغرافيتهم بين اليساريين الأتراك. والأهم من هذا كله تعاطفي مع قضيتهم.

منذ الأيام الأولى لحياتي في المنفى الدمشقي أدركت مدى شحّ معلوماتي التي حصلت عليها في تركيا حول هذا الموضوع، لذلك يعتبر تعرفي على كورد سورية في دمشق بواسطة الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين نقطة تحول في علاقتي مع هذه القضية على مدى أربعين عاماً.

في ليلة حارّة من ليالي تموز، التقيت ثلاثة من الكورد في مكتب الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، وانطلقنا نحو حي الكورد كان أحدهم قريب صاحب البيت الذي سيعقد فيه اللقاء، وسيوصلنا إليه. ولاحقاً، التقيت الاثنين الآخرين كثيراً، وخاطبتُ أحدهما باسم الرفيق عبد الحميد، والثاني المحامي عزيز [1] .

لا يخاطب عناصر الجبهة الديمقراطية الذين عرفوني إليهما بعضهم بعضاً بلقب الأخ كما يفعل أعضاء فتح؛ أقوى المنظمات الفلسطينية وأكثرها تمثيلاً والتي سأنتسب إليها في ما بعد، بل يستخدمون كلمة رفيق. وقالوا عن عبد الحميد وعزيز "رفيقان كورديان سوريان".

عرفت أن الرفيق عبد الحميد هو قائد الحزب الديمقراطي الكوردي السوري، وأنه يعيش في القامشلي المجاورة لنصيبين في الجانب التركي. أما المحامي عزيز فهو ممثل الحزب الديمقراطي الكوردي السوري في حلب. وجاء كلاهما إلى دمشق في زيارة لعدة أيام. كان الحزب الديمقراطي الكوردي السوري شبه علني؛ إذ إنّ نظام البعث القومي العربي الأمني ذا التوجه الاشتراكي ينهج سياسة إنكار لوجود الكورد تشبه سياسة تركيا، ولا يعتبر الحزب الديمقراطي الكوردي السوري قانونياً. ولكن، من جهة أخرى، على الرغم من أن الجميع معروفون، فلا يُعتقل أعضاء هذا الحزب ويُخفون.

كان الحزب في تلك السنوات هو المنظمة الأقوى في القامشلي ذات الغالبية الكوردية. وكان هناك غض طرف عن وجوده في دمشق وحلب حيث يعيش الكثير من الكورد؛ شرط أن لا يخرب هذا الوجود النظام العام.

الكورد أحد حيين يتكئان على سفح جبل قاسيون الأجرد الأغبر. لا ندري مدى صحة هذه المعلومة، ولكن الصحيح أن المكان الذي سكنه المهاجرون إلى هناك إثر هزيمة العثمانيين في البلقان في القرن التاسع عشر سمي "المهاجرين" وحي الكورد. إنهما حيّان كبيران يتكئان على سفح جبل قاسيون.

وإذا كان اسم المهاجرين مستخدماً، فإنكم لا تجدون اسم الكورد على خريطة دمشق، أو حافلة نقل داخلي، أو سيارة خدمة. فقد كان الاسم الرسمي للحي "ركن الدين". ولكنكم إذا سألتم أحداً في الشارع: كيف نذهب إلى ركن الدين؟ فإنه لن يعرف عما تتكلمون حينئذ، أما إذا سألتم عن حي الكورد، فالجميع يعرفونه. موقف سورية الرسمي من الكورد ونظرتها إلى القضية الكوردية يشبهان الموقف التركي ببعض جوانبه.

عندما كنت أنظر إلى جبل قاسيون حيث حي الكورد من سهل دمشق، كنت أشبهه بمحيط قلعة أنقرة وجبل آلطن. إنهما بالارتفاع نفسه تقريباً، وباللون الأغبر نفسه، كما أنهما منطقتا مخالفات متشابهتان. وبدا لي حي الكورد من بعيد حياً فقيراً، أو على الأقل حياً متواضعاً من أحياء دمشق. بدا لي جبل قاسيون وحي الكورد مألوفين باعتباري عشت في أنقرة قبل أن أصل إلى دمشق حيث كانت المحطة الأولى في رحلتي في المنفى.

عندما ركبنا سيارة خاصة - الرفيق عبد الحميد والمحامي عزيز وأنا - وانطلقنا في الطريق، لم أكن أعرف أننا ذاهبون إلى حي الكورد. وحين وصلنا إلى هناك بعد سلوك منعطفات كثيرة وعبر أزقة ضيقة تشبه المتاهة لم أكن أعرف لماذا قصدنا هذا المكان من أجل اللقاء. وكأن ذهابنا إلى حي الكورد للّقاء - بين هارب سياسي غادر تركيا ويقيم في سورية بشكل غير قانوني، وقادة منظمات أقلية قومية ليست قانونية في بلدها - يجب أن يحمل مسحة من الغموض.

عندما عرفاني إلى صاحب البيت الذي تم فيه اللقاء اعتقدت أنني سمعت الاسم خطأ. دققت النظر بالرجل في غرفة الجلوس، وقبل مرور زمن طويل أدركتُ أن الاسم الذي سمعته صحيح. إنه الشاعر الكوردي الكبير الذي سمعت باسمه في أنشطة تركيا السياسية "ناظم حكمت الكورد"

جكر خوين. كنت ضيف جكر خوين.

في ما بعد ستتكرر زياراتي إلى بيت جكر خوين. حتى إنني كلما ذهبت إلى دمشق أثناء إقامتي في بيروت كنتُ أبيتُ عنده. كنت أستمتع بالحديث معه حول تاريخ النضال السياسي الكوردي في تركيا، وأوساط كورد العراق وكورد المنطقة عموماً، وأعتقد أنني تعلمت منه الكثير. كان جكر خوين في السبعين من عمره عندما تعرفت إليه، وكان يعتبر رجلاً حكيماً بالنسبة لثائر رومانسي في الثانية والعشرين أو الثالثة والعشرين من عمره. لقد كان هناك الكثير مما سألته إياه وعرفته منه.

غداً بيت جكر خوين مكاناً نادراً يمنحني دفء الحياة الأسرية التي افتقدتها. كنت أمازح حفيدته الصغيرة المحببة التي أسماها ميديا وألاعبها، وأعلم أن الكورد يعتبرون الميديين أجدادهم. وتسمية حفيدة جكر خوين باسم ميديا يشير إلى قوة الوعي القومي في البيت. من النادر مصادفة اسم ميديا في الوسط العربي السوري. كان والد ميديا ابن جكر خوين مجنداً في جبهة الجولان، وصادف أنني كنت التقيته عندما كان يأتي في إجازات إلى البيت. كنا نتبادل أحاديث حارة حول بنية الجيش السوري، ووضع الكورد في هذا الجيش، والحرب ضد إسرائيل، والخدمة في مرتفعات الجولان. كنت أعرف المنطقة وجغرافيتها بسبب وجودي في قاعدة فلسطينية في الجولان لفترة معينة. لهذا السبب، كان حديثنا يتدفق بانسياب لوجود أمور مشتركة بيننا.

كان جكر خوين تاريخاً حياً لا يُقدر بثمن. في العقد الثاني من عمره، شارك بانتفاضة الشيخ سعيد عام 1925 التي قامت أثناء تشكّل بنية النظام في تركيا. تبلورت هذه الحادثة التي تعتبر أول انتفاضة كوردية كبرى بعد إعلان الجمهورية في أذهاننا نحن الأتراك على أنها حركة دينية رجعية وقف وراءها الإنكليز، وكان هدف الإنكليز إضعاف الجمهورية الفتية التي هزمتهم وأخرجتهم في حرب الاستقلال الوطني وتقسيمها. هذا ما علمونا إياه.

ولكن جكر خوين لا علاقة له بالفكر الديني نهائياً. حتى إنه كان يعتبر نفسه يسارياً، فقد كان أحد مؤسسي خويبون [2] بصفته يسارياً. اسمه الحقيقي شيخموس، وقد ولد قرب ميدياد وترعرع هناك. بسبب مشاركته في تمرد الشيخ سعيد، ثم نشاطه في منظمة خويبون السرية، لم يعد يستطيع العيش في تركيا، وهرب إلى سورية. ومنذ عام 1930 وعلى مدى أربعين سنة تقريباً لم تطأ قدمه تركيا، وشارك بالحركة الكوردية في

كل من العراق وسورية. وقد كان جكر خوين تاريخاً حياً للحركة الكوردية المنتشرة في عدة دول، إضافة إلى كونه شاعراً.

كان جكر خوين من يساريي القرن العشرين التقليديين المتفائلين. ذهبتُ من بيروت إلى دمشق قبل مغادرتي الشرق الأوسط إلى أوروبا في مطلع عام 1973 من أجل أن أودعه. أثناء الوداع، قلت له بتفاؤل مصطنع إننا سنعود جميعاً ذات يوم إلى تركيا، وعليه ألا يفقد الأمل، وآمل أن نلتقي في المرة القادمة في تركيا. كأن ثقل لحظة الوداع لم ينتقل إليه. فقد قال إنّ اللقاء يمكن أن يتم ليس فقط في اسطنبول أو أنقرة، بل من الممكن أن يكون في بغداد أو طهران أيضاً. وكان متفائلاً بالذهاب إلى تلك الأمكنة على الرغم من أنه طاعن بالسن. بدا واثقاً من أنه سيذهب بسهولة إلى الدول كلها التي يعيش فيها الكورد؛ بدءاً من العراق التي يحكمها البعث إلى إيران تحت حكم الشاه، وتركيا التي تعيش تحت تأثير العسكر، وهذا يعني أن الكورد سيحصلون على حقوقهم في تلك الأمكنة. وعلى الرغم من سنّه، جعلني كلامه أعتقد أنه سيرى تلك الأيام، وقد كان ذاك الكلام عاملاً على حقني بجرعة من التفاؤل.

عند انفصالنا أهداني ديوانه المؤلف من مجلدين. وقد أخذت المجلدين بفخر واعتزاز على أمل أن أقرأهما ذات يوم بالكوردية، ولكن الأهم من هذا هو شعوري بأنني حظيت بامتياز عظيم لم يحظ به الكثير من الكورد في العالم. ولم ألتق جكر خوين أو أهاتفه ثانية. علمت في ما بعد أنه سكن في السويد بعد لقائنا الأخير ذاك بست سنوات، ومات في ستوكهولم وهو في الحادية والثمانين من عمره.

أذكر أن أحاديثي معه كانت تثير التعقيد في ذهني أكثر من تعلمي أشياء جديدة، وتثير أسئلة أكثر من الإجابات.

على رأس تلك الأسئلة كانت تلك المتعلقة بانتقادات جكر خوين والمحامي عزيز الذي زرته في حلب عدة مرات واستضافني في بيته، والرفيق عبد الحميد الذي كثيراً ما التقيته أثناء منفاي الأطول في بيروت، للملا مصطفى برزاني. يتهم قادة الحزب الديمقراطي الكوردي السوري والشاعر الكوردي الكبير جكر خوين الملا مصطفى برزاني بأنه سحق الحزب الديمقراطي الكوردستاني في تركيا.

كان مصطفى برزاني في تلك الأثناء شخصية أسطورية تحتل صدارة الحركة الوطنية الكوردية من خلال نضاله في جبال كوردستان ضد النظام القومي العربي في بغداد. لم يكن عقلي يتقبل انتقاد أي كوردي له، وخاصة

قيادات حزب يحمل اسم الحزب الديمقراطي الكوردي. فوق هذا، كانت الانتقادات تتعلق بالموقف من الحزب الديمقراطي الكوردستاني، فقد كان الحزب الديمقراطي الكوردي السوري يعتبر الحزب الديمقراطي الكوردستاني في تركيا حزباً شقيقاً.

بحسب ما رَوَوه لي، إنّ سعيد ألتشي قائد الحزب الديمقراطي الكوردستاني في تركيا هرب من نظام 12 آذار العسكري، ولجأ إلى كوردستان العراق، وقد قُتل هناك على يد كوردي آخر من تركيا اسمه الحركي الدكتور شيفان؛ وهو الدكتور سعيد قرمزي طوبرق. إثر هذا، أمر الملا برزاني باعتقال الدكتور شيفان، وحكم عليه بالإعدام.

سأعرف في ما بعد أن هناك ما يسمى "حادثة السعيدين"، وقد وضع الكورد السوريون تشخيصاً للقضية على الرغم من عدم فك لغزها وبقائها في طور التوقعات: وقف الملا مصطفى برزاني وراء مقتل سعيد ألتشي. وبعد أن صفّى الملا برزاني سعيد ألتشي، حمّل التهمة للدكتور سعيد قرمزي طوبرق، وتخلّص منه. وكان هدفه من وراء كل هذا هو إبقاء الحركة الكوردية في تركيا من دون رأس وقائد، وبهذا يحول دون منافسة كورد تركيا الأكثر عدداً له.

لم يقنعني هذا التفسير نهائياً، بل شوّش عقلي أكثر. كنت أعرف السعيدين، وإن كنت لم أتعرف على سعيد ألتشي شخصياً، فقد كان عضواً في حزب العمال في تركيا. وقد صادفته في اجتماعات حزب العمال. ولكنني لم أكن أعرف أنه في الوقت نفسه رئيس الحزب الديمقراطي الكوردستاني في تركيا. وسأعلم في ما بعد أن الدكتور سعيد قرمزي طوبرق علوي من ديرسم وشخصية كوردية بقيت مؤثرة حتى ظهور حزب العمال الكوردستاني على الساحة، وهو أول من تبنى فكرة النضال المسلح. وكان أعضاء روابط الثقافة الشرقية الثورية يعرفون باسم "الشيفانيون". لهذا السبب يُعتبر ألتشي القائد المعنوي لروابط الثقافة الشرقية الثورية التي تشكلت بعد مقتل الدكتور سعيد قرمزي طوبرق بقليل.

لم تكن لدى قادة الكورد السوريين تفسيرات مقنعة حول تاريخ الحركة الكوردية الغامض في تركيا، والعلاقات بين الكورد في تركيا والعراق وسورية، ولكن مساهمتهم الأكثر أهمية بالنسبة لي كانت بجعلي أدرك القضية الكوردية بشكل عملي أكثر من الشكل النظري. كان للرفيق عبد الحميد ابن أخ يسكن في بيت خلف فندق ستراند الشهير حينئذ في أحد الشوارع الفرعية المؤدية إلى شارع الحمرا مركز مدينة بيروت. كان ينـزل

عنده عندما يزور بيروت، وقد قُدِّم إليّ ذلك الرجل بصفة ممثل الحزب الديمقراطي الكوردي السوري. كنت أعرّج عليه عندما أنزل أحياناً من مخيم برج البراجنة للاجئين الفلسطينيين إلى مركز المدينة، وأعرف منه موعد مجيء الرفيق عبد الحميد إلى بيروت.

في الربع الأول من عام 1973، وأثناء عزمي على مغادرة لبنان والذهاب إلى أوروبا، ومحاولاتي ترتيب هذا الأمر التقيت الرفيق عبد الحميد مرة أخرى، وسألني فجأة عما إذا كنت أرغب بلقاء جلال طالباني. كان جلال طالباني في بيروت، وقد حكوا له عني، وقال إننا يمكن أن نتناول الفطور معاً يوم الأحد إذا أردت أن أقابله.

سأعترف أنني انفعلت كثيراً لدى سماعي هذا الاقتراح. كان جلال طالباني الاسم الثاني بعد الملا مصطفى برزاني في التمرد الكوردي، وهو معروف برؤاه الاشتراكية وتحديداً الماوية، وقد عرفتُ اسمه ليس من كونه الاسم الثاني بعد الملا مصطفى برزاني، بل من الصحافة التركية التي كانت تنقل أخبار الحرب الكوردية ضيقة النطاق التي خاضها ضد برزاني عام 1964، ثم عام 1966 في العراق. لذا، تحمست للتعرف على شخصية معروفة عالمياً وتناول الفطور معها.

عندما وطئت قدماي تلك الأرض قبل سنتين كنتُ أحوم في ذروة الثورية الرومانسية. كنت أحد أفراد اليسار التركي المتفائلين بالمستقبل؛ على الرغم من انسحابه إلى العمل السري، كما أنني كنت أشعر بالاعتزاز بانضمامي إلى المقاومة الفلسطينية؛ معتبراً نفسي أحد المقاتلين من أجل حرية العالم. ولكنني عندما تلقيت اقتراح التعرف إلى جلال طالباني كنت عنصراً منتمياً إلى حركة سحقت في تركيا وبقي خارجها وحيداً لا يمارس أي فعاليات تنظيمية تقريباً. كنتُ فرداً يعمل على فتح شراع نحو أفق جديد في الحياة، ولا أمثّل أي جهة سياسية.

أُعدم صديقي دنيز غزمش الذي كان على رأس تنظيم الاحتجاجات الطلابية التي انطلقت من جامعة اسطنبول عام 1968، واشتهر بصفته رمزاً خالداً لما سمي "جيل 68" مع رفيقيه حسين إنان ويوسف أصلان اللذين شاركتُهما في احتجاجات جامعة الشرق الأوسط التقنية في أنقرة. سُحقت الحركة الثورية في تركيا، وزُج أصدقائي هناك جميعهم تقريباً في السجون. ويريد جلال طالباني أن يلتقيني بصفتي ممثلاً للحركة الثورية التركية وقادتها. كنّا سنجتمع من أجل العمل على مشروع وحدة الثوريين في الشرق الأوسط ضد الإمبريالية. ولكنني لم أكن أمثل أحداً.

التقيتُ الرفيق عبد الحميد يوم الأحد في أوائل شهر نيسان من العام 1973 في البيت الذي ينـزل فيه. وبعد مسير قصير في شارع الحمرا، انعطفنا إلى زقاق مألوف جداً باتجاه شارع السادات. قرعنا باب بيت، ففتح الباب رجل ربع القامة بدا لي انفعاله مبالغاً فيه. وعندما أدخلنا سألني بالإنكليزية عن كيفية تفضيلي للبيض. كنت أتحدث العربية التي تطورت كثيراً وأصبحت طلقة لدي، وكان هو يصر على التحدث بالإنكليزية.

عندما عبرت عتبة باب الغرفة، وقعت عيناي على رجل طويل القامة مهيب المظهر عريض الشاربين الأسودين. كان جالساً بصمت ووقار شديد. قلت لنفسي: هكذا يجب أن يكون البشمركة صقر الجبال الأسطوري. وقلت لنفسي إن جلال طالباني يستحق الشهرة التي وصل إليها. وقد شعرت بالضيق من الرجل الذي يسألني عن كيفية تفضيلي للبيض على عكس القائد المهيب الجالس على الأريكة. كانت لدي رغبة شديدة بالتعرف على القائد الجالس على الأريكة. ولكي أتخلص من الخادم أجبته كيف أريد البيض، فذهب بسرعة إلى المطبخ.

مددت يدي للجالس على الأريكة، وخاطبته بالعربية، ولكنه لم يبالِ وكأن أحداً لم يكلمه. ولم يكلف نفسه عناء مد يده ليصافح يدي الممدودة له؛ وحتى إنه لم يجبني. نظرتُ بطرف عيني إلى الرفيق عبد الحميد وأنا أفكر في ما إذا كنت قد خرقتُ إحدى عادات الكورد، وقلت لنفسي إن قائد بشمركة عظيماً لا يمكن أن يدخل بعلاقة حميمة مع شخص لا يعرفه فوراً، وأرحت نفسي من عدم اهتمام القائد وعدم تحركه عن الأريكة التي يجلس عليها باختراع هذه الذريعة.

جاء بيضي، ودُعيت إلى المائدة، ولكن القائد الجالس على الأريكة لم يتحرك، ولم يأتِ إلى المائدة. إذا كنت سأتناول الفطور مع جلال طالباني، فلماذا لا يأتي إلى المائدة؟ أخيراً، عرفت أن الشخص الذي يقدّم لي الطعام إلى المائدة ويُصر على الحديث بالإنكليزية هو جلال طالباني. ولكن، بعد وقت طويل جداً.

حسنٌ، من ذاك الجالس على الأريكة إذاً؟

إنه حارس جلال طالباني الذي لا يتكلم العربية ولا الإنكليزية ولا يفهم سوى الكوردية.

ذكَّرت جلال طالباني بتلك القصة حول لقائنا الأول بعد سنوات، وغدت طرفة يرويها لضيوفه في ولائمه الفخمة.

ركّز جلال طالباني أثناء حديثه معي في ذلك اليوم حول الحركات

الثورية في مختلف دول الشرق الأوسط، والتواصل في ما بينها. كان الوضع غريباً من زاويتي، فقد كنت أمثّل حركة ثورية سُحقت وأُودِع أعضاؤها الأهم في السجون التركية. وكلّما سنحت لي الفرصة، كنت أحتار حيال كيفية إخباره بالحقيقة، وبأن الحركة الثورية في تركيا لم يعد لها وجود كما في السابق، ولكن لو أبديت تواضعاً ضرورياً حينها، وأبلغت جلال طالباني أنني لا أمثل سوى نفسي فلن يبقى لكلامي أي معنى، لذلك لم أفعل هذا. استمر حديثنا حتى الظهر تقريباً. بعدها، اقترح طالباني تناول الغداء في الخارج. سرنا مسافة قصيرة إلى منطقة الروشة في بيروت الممتدة داخل البحر المتوسط بشكل مثلث وتحوي سلسلة مطاعم.

دخلنا أحد المطاعم التي كنت أنظر إليها كلما جئت إلى الروشة ولا أفكر بأن أعتبها نظراً إلى النقود التي في جيبي، أو على الأصح بجيبي الخاوي من النقود. كنت كلما مررت من أمام ذلك المطعم المطل على البحر يتأجج فضولي نتيجة اسمه التركي الذي يعني "النجوم" لأن صاحبه أنطاكي، وقد تبين لي أن جلال طالباني قد اصطحبني إلى مطعم اسمه تركي كنوع من المجاملة لي، وسأكتشف لاحقاً أنه رجل المجاملات.

وسأعرف في ذلك اليوم أيضاً - ويتأكد لي هذا خلال السنوات اللاحقة - أن جلال طالباني يستمتع كثيراً بالجلوس إلى مائدة الطعام، ويروي الكثير من الطرائف. خرج الموضوع عن حديثنا الذي بدأناه في البيت. تحدّث جلال طالباني عن الملا مصطفى برزاني قائد النضال الكوردي في العراق خلال تلك الفترة، والشخصية الأولى لكورد العالم كله بشكل ساخر.

غذى حديثه بعدد من الطرائف التي تدلّ على جهل الملا مصطفى الذي لا يمكن تصديقه. لن أدعي أنني تأثرت بما سمعته من طالباني أثناء غدائنا ذاك، ولكنني شعرت بأنني عرفت الكثير عن بنية الحركة الكوردية وخصوصيات سياسة الشرق الأوسط الخدّاعة، وذلك لأن طالباني له صفة رسمية، فهو كان ممثلاً للملا مصطفى برزاني في لبنان، أو بتعبير آخر، كان ممثلاً للحزب الديمقراطي الكوردستاني في العراق.

بعد سنوات، سأعلم أن جلال طالباني كان في فترة لقائنا تلك يعمل على تأسيس علاقة قوية مع المقاومة الفلسطينية؛ وخاصة مع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ذات الطرح الماركسي بقيادة جورج حبش. فقد كان من المفترض أن يحظى التقارب اليساري الأيديولوجي بالأولوية على التقارب الأقلوي القومي بالنسبة إلى طالباني. ولكن الحركة الشيوعية العالمية في فترة

تعارفنا كانت منقسمة بشكل رهيب بين السوفييت والصين، وكان طالباني أقرب إلى رؤية الزعيم الصيني ماو تسي تونغ.

ثمة نقطة مشتركة تعود إلى تلك الأيام؛ وهي أننا كلما التقينا كان يخاطبني "تونتشة". وحين يعرّف بي لمن حوله يقول "تونتشة"؛ وهذه الكلمة تعني بالصينية "الرفيق"، ولا يهمل القول إنّ تعارفنا يعود لعام 1973، وقد شكّل لقاؤنا الأول ذاك في شارع الحمرا أوائل عام 1973 مستنداً لاستمرار العلاقة وعمقها.

مع قراءتي لتاريخ الحركة الوطنية وخلفياتها والاستماع إلى الأحاديث الجارية حولها، وبحثي فيها، عرفت جذور الاختلاف بين طالباني وبرزاني وأبعاده. ومهما كنتُ على علم بالفروقات بينهما، فلو كنت أعرف حينها الخصوصية التي تفصل بينهما في أيام بيروت تلك، لما دُهشت ولو بمقدار ذرة ممّا رواه لي طالباني حول الملا مصطفى برزاني.

جلال طالباني من مواليد 1933. وتعود جذوره إلى عائلة كبيرة أسست قبل ثلاثة قرون التكية الطالبانية في كركوك، وهي التكية القادرية، وقد خرج منها الكثير من رجال الأدب والفقه المهمين. بدأت حياته السياسية منذ أن كان في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمره؛ أي قبل نهاية أربعينيات القرن الماضي، وتعرّضت مكانته السياسية لصعود وهبوط مذهليْن. تمكّنه من الوقوف على أرضية السياسة شرق الأوسطية المزحلقة، ودخوله التاريخ كأول رئيس منتخب للجمهورية العراقية أعجوبة.

فوق هذا، يعتبر إنجازه هذا كممثل لشعب مُحيَ من الخريطة السياسية، دليلاً قبل كل شيء على مرونته السياسية وموهبته. التوصيفات السلبية التي يستخدمها خصومه السياسيون وحلفاؤه أحياناً تعكس بجانب من جوانبها "الخلطة السحرية" التي جعلته يبقى واقفاً، وأوصلته إلى النجاح الشخصي، ونجاح شعبه أيضاً.

انتسب طالباني إلى الحزب الديمقراطي الكوردستاني في العراق في سن يعد فيها ولداً، وذلك بعد تأسيس هذا الحزب بعام، أي عام 1947. ظهر الحزب الديمقراطي الكوردستاني في العراق عام 1946 كفرع للحزب الديمقراطي الكوردستاني الإيراني الذي تأسس عام 1945. لم يكن الحزب مستقلاً، بل كان فرعاً للحزب الديمقراطي الكوردستاني الإيراني، وممثله هو إبراهيم أحمد الذي سيكون في ما بعد حما جلال طالباني المقيم في السليمانية المركز السياسي والثقافي للكورد العراقيين.

بعد الحرب العالمية الثانية، تأسست جمهورية مهاباد الكوردية على

الأراضي الإيرانية. ففي 22 كانون الثاني 1946، أعلن قاضي محمد من ساحة تشارتشرا في مدينة مهاباد الكوردية في إيران تأسيس الجمهورية الكوردية، ودخلت التاريخ باعتبارها أول دولة كوردية في التاريخ الحديث. كانت القوات المسلحة لجمهورية مهاباد الكوردية عبارة عن عدة آلاف من المقاتلين الكورد بقيادة الملا مصطفى برزاني انتقلوا إلى كوردستان إيران بعد سحق تمردهم في العراق. مُنح مصطفى برزاني رتبة "جنرال"، وعُيّن رئيس هيئة أركان جمهورية مهاباد الكوردية. أما عمود الدولة السياسي فهو الحزب الديمقراطي الكوردستاني في إيران الذي تأسس عام 1945.

تأسست جمهورية مهاباد الكوردية بعد الحرب على الأراضي الإيرانية تحت حماية الاتحاد السوفييتي الذي وضع جنوداً فيها. ولكن بعد انسحاب الجنود السوفييت من إيران إبان الحرب بفترة قصيرة، انهارت الإدارة الذاتية لجمهورية أذربيجان الديمقراطية التي أُعلنت بالتزامن مع جمهورية مهاباد الكوردية. وبعد انهيارها، انهارت جمهورية مهاباد الكوردية في 17 كانون الأول 1946. اتخذ قاضي محمد قراراً بالاستسلام من دون مقاومة ليحول دون ارتكاب شاه إيران مجزرة في كوردستان. إثر هذا، عادت قوات الجنرال برزاني إلى العراق. وعندما لم تستطع البقاء هناك، دخلت منطقة هكاري التركية، ومنها عبرت إلى إيران من جديد، وتقدمت عبر الحدود المشتركة مع تركيا نحو الشمال، وعبرت النهر الذي يرسم الحدود بين إيران والاتحاد السوفييتي، ولجأت إلى الاتحاد السوفييتي. أُعدم قاضي محمد مع مجموعة من زملائه في مهاباد في آذار 1947. وبدأ مصطفى برزاني حياة منفى في الاتحاد السوفييتي قضى معظمها في أوزبكستان، وغاب عن الأعين.

بدأت حياة جلال طالباني في هذه الفترة بالضبط. بعد مدة قصيرة من دخوله حزب الاتحاد الديمقراطي الكوردستاني العراقي غدا مسؤول التنظيم الشبابي لهذا الحزب. وبعد سنوات دراسته الأولى في كويصنجق وأربيل تابع دراسة الحقوق في جامعة بغداد. شارك بمؤتمر الشباب العالمي المنعقد في وارسو عام 1955، وله مكانة هامة في تاريخ الحركة الشيوعية العالمية. في عام 1958 ذهب إلى موسكو والصين، وتعرف إلى القادة الصينيين، كما أنّه أثناء وجوده في موسكو التقى الملا مصطفى برزاني الذي يعيش في المنفى منذ أحد عشر عاماً.

يُعتبر لقاء الملا مصطفى برزاني بجلال طالباني أول تماس لبرزاني بالحركة الكوردية بعد تركه كوردستان. كان برزاني في ذلك الوقت في الخامسة والخمسين من عمره، وطالباني في الخامسة والعشرين من عمره. في

ذلك العام، قُضي على الملكية في العراق بانقلاب دموي، وقد سمح العقيد عبد الكريم قاسم لبرزاني بالعودة إلى العراق بعد وصوله إلى السلطة. ولكن لم يطل شهر العسل العربي – الكوردي في العراق. ففي عام 1961 اندلعت الانتفاضة الكوردية المسلحة بقيادة مصطفى برزاني.

إثر هذا، انتقل جلال طالباني إلى الشمال، وخلال فترة قصيرة بدأ بتنظيم البشمركة، وقد لمع في الحرب باعتباره قائداً أسطورياً. استمعت من المحاربين القدامى – رفاقه بالسلاح الذين حاربوا تحت أمرته – لقصص بطولاته، وكيف كانت الوحدات التي يقودها تحارب في الصفوف الأمامية.

ما رفع من قيمة جلال طالباني في الحركة الكوردية هو تميّزه بالدور الدبلوماسي أكثر من دوره العسكري. حيث إنّه ذهب إلى القاهرة عام 1963 ممثلاً للحركة الكوردية، والتقى قائد مصر جمال عبد الناصر الذي كان يعتبر حينها الشخصية السياسية المهمة الوحيدة في العالم العربي، وكسب دعمه حينئذ للمطالب الكوردية.

كان هذا أول نموذج لافت لإمكانية تحوّل نجاحات طالباني إلى أعباء سياسية؛ مثلها مثل نقاط ضعفه. تقدمه السريع في الحزب الديمقراطي الكوردستاني، إضافة إلى نجاحاته العسكرية، والتأثير الذي حققه لدى عبد الناصر بصفته "الناطق باسم الكورد" أدّت مجتمعة إلى نمو بذور الفرقة التي كانت موجودة بينه وبين الملا مصطفى برزاني أصلاً، والذي كان يقول في زمن ما إنه يحبه كابنه.

برز خطان مختلفان في الحركة الكوردية بين الملا مصطفى برزاني وإبراهيم أحمد منذ أواسط أربعينيات القرن الماضي. كان الملا مصطفى برزاني يمثل البنية التقليدية المحافظة، ويستمد دعمه الاجتماعي من صفوف العشائر وملاكي الأراضي الكبار. أما إبراهيم أحمد فقد كان يسارياً مدنياً ومثقفاً مهماً، وقد كان يخاطب الذين يشبهونه من أبناء المدن الكوردية المتعلمين، والنخبة التي بدأت تظهر حديثاً. ومنذ أن خطا جلال طالباني خطوته السياسية الأولى، كان قريباً جداً من إبراهيم أحمد، وهذا القرب سيجعله صهراً له.

في الفترة الممتدة ما بين عامي 1947-1958 حين كان الملا مصطفى برزاني في الاتحاد السوفييتي منقطعاً تماماً عن الحركة الكوردية اجتمع السياسيون الكورد العراقيون من الحزبين الديمقراطي الكوردستاني والشيوعي. كان إبراهيم أحمد الأمين العام للحزب الديمقراطي الكوردستاني يعتبر مصطفى برزاني "يمينياً، رجعياً، إقطاعياً"، وقد استمر الشرخ بين الملا مصطفى

برزاني والحزب الديمقراطي الكوردستاني بعد الانتفاضة التي اندلعت عام 1961؛ على الرغم من استمرار الملا مصطفى برزاني رئيساً للحزب، ورسم هذا الشرخ ملامح الحركة الكوردية العراقية.

لم تغب التجاذبات الحزبية والانقسامات عن الحركة الوطنية الكوردية في الدول التي يتوزعون عليها كلها. فمع صعود اسم جلال طالباني في الحركة الكوردية الوطنية بشكل مذهل، بدأ الحزب الديمقراطي الكوردستاني يُسمّى فريق إبراهيم أحمد - جلال طالباني منذ أواخر الخمسينيات. لم يبرز فرق شكلي بين برزاني من جهة وإبراهيم أحمد وجلال طالباني من جهة أخرى أثناء الانتفاضة التي أشعلها الملا مصطفى برزاني بعد عودته إلى العراق عام 1961، كما لم يكن هناك فرق بالنهج أيضاً. ولكن عند توقف انتفاضة عام 1961 إثر إسقاط عبد الكريم قاسم بانقلاب عسكري قام به تحالف البعثيين والناصريين عام 1963 برز اختلاف النهج في الحركة الكوردية بشكل أوضح.

بفضل الانتفاضة، فرض الملا مصطفى برزاني اسمه على كورد المنطقة جميعاً باعتباره "قائداً قومياً"، وقد وصل وضع إبراهيم أحمد وجلال طالباني إلى حال لم يستطيعا معه التمكن من البقاء في الحزب. بدأا التواصل مع بغداد من دون مراجعة قيادة الحزب نتيجة القوة التي حصلا عليها، وهذا ما جلب القطيعة تماماً بين فريق إبراهيم أحمد وجلال طالباني وبين الحزب. شكّل برزاني لجنة مركزية لحزبه. وقد وصل الحزب الذي غدا برأسين إلى درجة الصراع المسلح الذي كسبه برزاني، ولجأ إبراهيم أحمد وجلال طالباني إلى إيران.

ونتيجة رؤية إيران مصلحتها بالاقتراب من برزاني ضد نظام بغداد، أصلحت الشرخ الناجم بين جناحي الحركة الكوردية ظاهرياً عام 1965، وعاد الثنائي إبراهيم أحمد وجلال طالباني إلى كوردستان العراق شرط إقامتهما تحت المراقبة في المكان الذي يحدده برزاني.

اندلع الصراع بين الطرفين بعد سنة على نطاق أوسع؛ حيث انعكس الاستقطاب الدولي والإقليمي على الحركة الوطنية الكوردية. فعندما أقام شاه إيران المدعوم من الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل علاقات قوية مع برزاني "اليميني المحافظ"، دخل الثنائي إبراهيم أحمد وجلال طالباني اللذان يشكلان محوراً أيديولوجياً "يسارياً" داخل الحركة الكوردية بعلاقة مع نظام بغداد الذي يعتبر نفسه اشتراكياً بدعم من الاتحاد السوفييتي. تغيّرت التوازنات عام 1963. وعند انفجار الصراع المسلح بين قوات برزاني وقوات

طالباني عام 1966 خسر طالباني الذي يُعدّ ضعيفاً مقارنة مع برزاني مرة أخرى، وانسحب إلى بغداد.

هذا التطور وضع بيد برزاني ورقة هائلة القوة. وألصق بطالباني ومن معه تهمة " CahŞ " التي تعني "خائن"، وبدأ أنصار برزاني ينادونهم " CahŞ 66 " أو "جلاليين" مع نبرة استخفاف.

استمر محور برزاني – طهران ضد محور طالباني – بغداد حتى عام 1970، ولكن المعاهدة التاريخية التي وُقِّعت بين الملا مصطفى برزاني وصدام عام 1970 فتحت الباب أمام جلال طالباني للعودة ثانية إلى الأرض الكوردية وحركتها بقيادة برزاني.

صادف تعرفي إلى جلال طالباني ولقائي به في بيروت هذه المرحلة. يبدو جلال طالباني متصالحاً مع الملا مصطفى برزاني منذ ثلاثة أعوام، ويحمل صفة الممثل الرسمي له. وسأعرف من محيط طالباني القريب – بعد سنوات طويلة – أن سبب اختياره المجيء إلى بيروت هو الابتعاد عن رقابة الملا مصطفى، والتخلص من احتمال تعرّضه لمحاولة اغتيال يمكن أن ينظمها ضده.

سقوط اتفاق صدام – برزاني لعام 1970 بسبب كركوك، دفع الكورد إلى التمرد المسلح ثانية عام 1974. وهنا، عاد محور أمريكا – إيران – برزاني للتشكل ثانية بقوة، لقد كانت الانتفاضة الكوردية بجانب من جوانبها حرباً بين قوتي طرفي الخليج عُضوَي منظمة الأوبك التي تعاظم دورها إثر الحرب العربية – الإسرائيلية عام 1973.

في هذه النقطة، تتدخل الجزائر العضو الآخر في منظمة الأوبك، والتي تعد من قيادات العالم الثالث ودول عدم الانحياز. ومن خلال صلح وافق عليه هنري كيسنجر مايسترو السياسة الخارجية الأمريكية حُلت قضية شط العرب بين إيران والعراق باتفاقية وُقعت في الجزائر.

كان ثمة ثمن واحد طلبته بغداد من طهران مقابل تقديم تنازلات في شط العرب: قطع طهران دعمها للانتفاضة الكوردية في شمال العراق.

قُطع ذلك الدعم. وعندما أغلقت إيران حدودها مع كوردستان العراق، تعرضت الانتفاضة إلى هزيمة ساحقة هي الأكثر مأساوية في التاريخ الكوردي. سحقت الحركة السياسية الكوردية، وانتهت حياة الملا مصطفى برزاني – الذي كان الأول في الحركة الوطنية الكوردية على مدى نصف قرن – بهزيمة أليمة.

نتجت من تفكك الحركة السياسية الكوردية بنيتان رئيستان. قاد

إحداهما جلال طالباني من دون الشعور بضرورة حمله عبء ذنوب الملا مصطفى برزاني، ومستمداً الشرعية من الهزيمة الكبرى. والثانية هي الحزب الديمقراطي الكوردستاني الذي أعيد تشكيله من الملتفين حول ابني الملا مصطفى إدريس ومسعود. وغدا مسعود برزاني القائد الوحيد للحزب الديمقراطي الكوردستاني في العراق بعد وفاة أخيه إدريس غير الشقيق الذي يكبره بثلاث سنوات بشكل مفاجئ.

بعد فترة قصيرة جداً من هزيمة 1975، أسس جلال طالباني من دمشق الاتحاد الوطني الكوردستاني. واعتباراً من أواسط السبعينيات غادر بيروت وأقام في دمشق. ومنذ تأسيس الاتحاد الوطني الكوردستاني عام 1975 إلى اليوم لم يبق أحد في العالم لم يسمع بجلال طالباني.

لم ألتق جلال طالباني في أي مكان بعد تعرفي عليه في بيروت على مدى ثمانية عشر عاماً. ولم يحدث بيننا أي اتصال بأي شكل من الأشكال. ولكنه بعد ثمانية عشر عاماً من تعارفنا في بيروت ساهم بكسر أكبر المحرمات في تركيا؛ هذا البلد الذي يضم أكبر عدد من الكورد، والذي يُقمع فيه هؤلاء أكثر من أي مكان آخر.

أنا أقمتُ أول ارتباط بين رئيس الجمهورية التركية تورغوت أوزال وجلال طالباني.

وقد كسرت العلاقة بين تورغوت أوزال وجلال طالباني جليداً عمره ثمانية وستون عاماً من تاريخ الجمهورية التركية...

IV - منعطف القصر الجمهوري



لا يمكن حل المشاكل باستخدام الأفكار التي أوجدتها.
ألبرت أينشتاين

لم أدخل في حياتي قصر تشانقايا مقر رئيس الجمهورية التركية. كانت المرة الأولى يوم الأربعاء في 6 شباط 1991. وكان تورغوت أوزال بانتظاري عند الساعة الثانية عشرة.

اتصلتُ به قبل يومين في منتصف الليل، وأبلغته أنني سأسافر للقاء قادة المعارضة العراقية، وأريد مقابلته قبل ذهابي. استمع إليّ بانتباه، ومن دون انتظار، قال لي إنه سيحدد تاريخ اللقاء وساعته، وسيبلغني به. فعلاً، ما إن مرت نصف ساعة حتى تلقيت اتصالاً من القصر يبلغني أن رئيس الجمهورية سيكون بانتظاري في مكتبه عند الساعة 12 ظهراً بعد يومين.

لم أكن أعلم حينئذ أنني وصلت في تلك اللحظة إلى واحدة من أهم محطات حياتي، ولم أكن مبالياً. دخلت في الساعة المحددة من باب القصر.

من المؤكد أنه لم يخطر ببالي أن ذلك اللقاء سيفتح الطريق أمامي لأكون مستشاراً خاصاً لرئيس الجمهورية التركية. فمن غير الممكن لشخص

ذي خلفية سياسية مثل خلفيتي أن يخطر بباله شيء من هذا القبيل إذا كان اسم رئيس الجمهورية التركية تورغوت أوزال.

سمعنا – نحن الناشطين الماركسيين الشباب – باسم تورغوت أوزال في النصف الثاني من ستينيات القرن الماضي ومطلع السبعينيات باعتباره بيروقراطياً شغل منصب مستشار هيئة تخطيط الدولة بين عامي 1967-1971. كانت الصحافة المعارضة لحكومة حزب العدالة برئاسة سليمان دميريل تعتبره مع شقيقه كوركوت "الأخوين السياسيين الدينيين". كان المقصود بهذا التعبير الاستخفاف بالأخوين أوزال من خلال إبراز توجههما السياسي الإسلامي. فقد كان اليسار في تركيا عام 1970 بعيداً جداً عن ذوي التوجهات الإسلامية، ومعادياً لهم.

غادر تورغوت أوزال إلى البنك الدولي عام 1971، وعند عودته ذاع اسمه كمدير عام لشركة صبانجي التي تمتلكها إحدى أكبر عائلتين رأسماليتين في تركيا، ورئيسٍ لنقابة صناعيي المواد المعدنية في أواسط السبعينيات.

أضيف إلى صفته الإسلامية تمثيله للرأسمالية. بعد ذلك، وصل إلى ذروة بيروقراطية الدولة بشغله منصب مستشار في هيئة تخطيط الدولة مرة أخرى، ومستشار لرئيس الوزراء في عهد حكومة سليمان دميريل، وكان مرشح حزب الإنقاذ القومي الذي يرأسه نجم الدين أربكان عن إزمير في انتخابات عام 1977. حافظ على موقعه في حكومة انقلاب 12 أيلول 1980 العسكري، إلى جانب منصب نائب رئيس الحكومة للشؤون الاقتصادية فيها. هذا ما جعلني لا أجد أدنى سبب لاهتمامي بتورغوت أوزال أو تقرّبي منه.

قابلتُ أوزال للمرة الأولى عام 1983؛ عندما أسس حزب الوطن الأم وسُمح له بخوض الانتخابات، وتواصل المرشحون السياسيون مع الجرائد من أجل كسب الدعم. أذكر أنّ اسم تورغوت أوزال لم يترك عندي أي أثر وذلك لعدم اهتمامي به. قابلته للمرة الثانية إلى مائدة إفطار دعا إليها حزبه المؤسس حديثاً. جاء، وجلس إلى طاولتنا، ولكن أكثر من أتذكره من تلك الأمسية هو مسعود يلماظ. كان مسعود يلماظ زميلي في الجامعة في صف أدنى، وكنا زميلين في العسكرية. دُهشتُ كثيراً عندما رأيته هناك، ودهشت أكثر حين أجابني أنه أحد مؤسسي الحزب رداً عن سؤالي: "ماذا تفعل هنا؟". لم يبق في تلك الليلة أي سبب يجعلني آخذ حزب تورغوت أوزال حزب الوطن الأم مأخذَ الجد.

لم يلفت نظري نجاح حزب الوطن الأم عام 1983 في الانتخابات، وتطبيق تورغوت أوزال إصلاحات متتالية غيّرت وجه تركيا. إذ أمضيتُ جزءاً

مهماً من عمري بمتابعة الثورة الإسلامية في إيران التي حدثت عام 1979، ودخولها في حرب لا هوادة فيها مع العراق عام 1980، إضافة إلى الشرق الأوسط ولبنان باعتباره مركزَ منظمة التحرير الفلسطينية. شغلت الحرب الإيرانية – العراقية، والصراع الفلسطيني – الإسرائيلي، والحرب الأهلية اللبنانية ذهني بشكل كامل، واستهلكت طاقتي كلها. لذا، لم يكن لدي وقت أخصصه لتورغوت أوزال الذي كنت أراه نتيجة موقف مسبق امتداداً لمحور الولايات المتحدة – السعودية.

بدأ تورغوت أوزال يخرب القالب المتشكل في عقلي عنه نتيجة موقفي المسبق منه. فقد لعب دوراً في الحرب الإيرانية العراقية؛ إذ لم يكن هناك رجل دولة غيره على مسافة واحدة في العلاقات مع الدولتين. غير هذا، عمل على تطوير علاقة تركيا بإيران؛ هذه العلاقة التي كان الكثيرون يعتبرونها عبئاً. بالإضافة إلى ذلك، هو من بدأ الزيارات الخارجية مستقلاً طائرة إيرباص ضخمة مليئة برجال الأعمال، ووضع السياسة خلف الاقتصاد وانفتح بشكل مستمر على الخارج. وحظيت إيران بأكبر عدد من تلك الزيارات. ما قام به لا يتوافق مع القالب الذي كوّنته في عقلي عنه بأنه امتداد لمحور الولايات المتحدة – السعودية.

من هو تورغوت أوزال؟ لم أجد جواباً عن هذا السؤال.

ما هزّ قناعاتي حول تورغوت أوزال هو لقاؤنا الثالث؛ حيث تمكّنا من الحديث لمدة ساعة خلال إحدى الرحلات. تم هذا في أول زيارة لأول رئيس حكومة تركية إلى سورية في 15 تموز 1987.

شاركتُ في الزيارة التي قام بها تورغوت أوزال بصفتي مندوباً لجريدة الجمهورية الأشد معارضة له. كان يرافقه في زياراته الخارجية عموماً إما مدير التحرير حسن جمال أو مندوب أنقرة يالتشن ضوغان. تقررت مشاركتي برحلة تحمل مغامرة كهذه لأن المكان الذي سيذهب إليه هو دمشق، والموضوع هو حزب العمال الكوردستاني وعبد الله أوجلان. وبدافع صحفي، رجوت زميلي في الدراسة جم ضونا مستشار أوزال للشؤون الدبلوماسية الخارجية بأن يخصص لي لقاءً قبيل الزيارة لنشره في الجريدة. جاءني الجواب من تورغوت أوزال بأنني يمكن أن أجري اللقاء مع مستشاره في حزب الوطن الأم غونِش طانِر. ولكنني رفضت لأن "غونِش طانر ليس تورغوت أوزال، ولا يحمل صفة رئيس الحكومة التركية". كان جَمْ مستمراً بالعمل على تأمين اللقاء. في الليلة الأخيرة قبل الزيارة، التقيت جم ضونا وغونِش طانر وغوناري جِوا أوغلو في أنقرة على العشاء. غادر غوناري جِوا

أوغلو باكراً، وقد حافظت على أملي بلقاء أوزال حتى قرابة منتصف الليل. كنا ننتظر انتهاء اجتماع مجلس الوزراء؛ حيث كان نظام الطوارئ سيفرض من أجل التصدي لعمليات حزب العمال العسكرية المتصاعدة، ويُعيّن خيري قوظاقتشي أوغلو محافظاً لديار بكر؛ المنطقة التي سيفرض عليها نظام الطوارئ. تقرر أن عمليات حزب العمال الكوردستاني قد وصلت إلى درجة لم تعد تُحتمل. والهدف الأساسي من زيارة تورغوت أوزال إلى دمشق هو التركيز على موضوع هذا الحزب؛ فقد كان كوادر هذا الحزب يتلقّون التدريب في وادي البقاع الذي تسيطر عليه سورية، ويُقيمُ قائده في دمشق.

قرابة منتصف الليل، اعتذر تورغوت أوزال عن عدم إمكانية اللقاء لتأخر الوقت، ولأنه سيسافر في اليوم التالي باكراً، ولذلك سيجريه في وقت لاحق بالتأكيد. وكنت حتى وقت مجيء الخبر قد ذكرت أموراً كثيرة تتعلق بسورية وبنية نظامها ومفهومه السياسي. بعد أن استمع إلي جم ضونا، قال: "احكِ هذا لرئيس الحكومة". لم أسأله كيف سأحكيه له وأين.

عندما أقلعت الطائرة التي تقلّ تورغوت أوزال والوفد المرافق له في اليوم التالي بتاريخ 15 تموز 1987، خيم الانفعال على الصحفيين في الطائرة. فقد كانت تلك هي المرّة الأولى التي يشارك فيها معاون مستشار هيئة المخابرات القومية هيرام عباس باسمه وشهرته المخيفة في السياسة الداخلية التركية في بعثة رسمية، ويتخذ مكانه في الطائرة، ويُدرج اسمه على اللائحة الخاصة برئاسة الحكومة، والتي تحدد اسم كل شخص وصفته، والفندق والغرفة التي سيقيم فيها. لقد أقدم تورغوت أوزال على سابقة في السياسة التركية حين قطع الطريق على وصول قائد القوات البرية الفريق أول نجدت أوزطورون، وعمل على تعيين فريق أول آخر هو نجيب طورومطاي باعتباره "خيار السلطة المدنية". كان يُشاع أن هيرام عباس سيخلّص هيئة المخابرات القومية من التأثير العسكري، ويجعلها مدنية. والمعروف أن مرشح تورغوت أوزال لرئاسة المخابرات هو هيرام عباس. فَهِمَ الرأي العام نشر اسم هيرام عباس في الجريدة الرسمية على هذا النحو أنه إصرار من قِبل أوزال على تخليص تركيا من المظهر العسكري. كان الصحفيون كلهم يبذلون جهودهم لمعرفة أي من الجالسين في المقاعد الأمامية هو هيرام عباس، ويتهامسون في ما بينهم.

في تلك الأثناء، أتى جم ضونا من الأمام، وأشار إليّ بأن أقترب. لم تكن الأنوار الخاصة بالأحزمة قد أُطفئت بعد، والطائرة ما زالت ترتفع. لم أصدّق، ولكنني تناولت المسجلة، وانسللت من بين زملائي نحو مقدّمة

الطائرة. تُرِكَ المقعد الأمامي الواسع إلى اليسار بجانب رئيس الحكومة فارغاً، ووُضعت أمامه طاولة.

أشار إليّ تورغوت أوزال أن أجلس بجواره. فور جلوسي، بدأتُ قائلاً: "بما أن اللقاء سيُنشر فلا مانع من استخدام المسجلة، أليس كذلك يا سيدي رئيس الحكومة؟". رد عليّ: "أنا سأسأل وأنت ستجيب. أريد أن أسألك عن سورية".

دُهِشت. يبدو أن جم ضونا قد نقل لتورغوت أوزال حديثنا عن سورية الذي دار في الليلة الماضية، واهتم أوزال بما نُقل إليه.

أشرتُ نحو وزير الخارجية (واحد خلف أوغلو) الجالس خلفي إلى جهة اليمين، وخلفه بمقعدين مساعد مستشار هيئة المخابرات التركية هيرام عباس، وقلت محاولاً تحويل اعتراضي إلى دهشة: "حضرتكم رئيس حكومة. وهنا أهم مسؤولي الدولة من الخارجية إلى المخابرات. ما أهمية ملاحظاتي المتواضعة كصحفي؟".

قدَّم تورغوت أوزال رداً غير متوقع: "الخِبرة خبرة. أنتم تعرفون المنطقة جيداً. وكيف سنعرف أن مؤسسات الدولة قد نقلت إليّ معلومات صحيحة؟".

قول هذه العبارة لصحفي يمثل جريدة معارضة بشدة، وسيجلب له بلايا كبرى على مدى أيام إن نشر. لا يمكن القول إنه يعرفني، فكيف يتكلم معي بهذه الطريقة؟

عندما عرفتُ تورغوت أوزال عن قرب في السنوات التالية، وجدتُ تفسيراً لعبارته تلك التي أدهشتني: إنه يحوّل ما يفكر فيه إلى كلمات فوراً، وهذا ما يثير الانطباع حوله بأنه فظ. ولكن هذه الصفة هي التي جعلت تورغوت أوزال "كاسراً للمحرمات" على ما يبدو، فهو يقول ما لم نعتد على قوله، وما هو غير متوقع، وما يخطر بباله فوراً.

ولكن خصوصية تورغوت أوزال المدهشة أكثر والتي سأعرفها في ما بعد هي ثقته المفرطة بنفسه.

بعد ردة فعله المدهشة تلك، وجّه إليّ أول أسئلته بشكل مباشر: "من هو الرجل الثاني في سورية؟ عبد الحليم خدام؟ خدام سنّي أليس كذلك؟".

دُهِشت مرة أخرى. إنها المرة الأولى التي أصادف فيها سياسياً ورجلَ دولة يتكلم بمصطلحات الشرق الأوسط، ويعي تلك المصطلحات. أجبته مباشرة:

"لا يوجد في سورية رجل ثانٍ، وحتى ليس فيها رجل ثالث ورابع

وخامس وسادس. يمكن الحديث عن عدة أشخاص في المرتبة السابعة. نعم، نائب رئيس الجمهورية عبد الحليم خدام سنّي، ولكن هذا ليس مهماً جداً. إذ ليست هناك أزمة أصحاب ألقاب من السّنة في النظام. وزير الدفاع مصطفى طلاس، ورئيس هيئة الأركان العامة حكمت الشهابي أيضاً سنّيان. ولكن هؤلاء لا يغيّرون الشخصية العلوية - للنظام. أجهزة المخابرات هي المهمة في سورية. وعلى رأس تلك الأجهزة علويون. ثم إن خدام بانياسي، أي من سنّة الأطراف. ولكن نخبة إدارة النظام من اللاذقية. تعرفون نظرية الدولة والعصبية لابن خلدون. لا يمكن فهم دولة مثل سورية بمفاهيم علم السياسة الغربي. يقدّم لنا ابن خلدون منهجاً أفضل. قادة الدولة يمثلون عصبية الشريط الساحلي، ولكن المركزين السياسيين والتجاريين والثقافيين التقليديين في سورية هما دمشق وحلب. وهذان مركزان سنّيان. العصبية السنّية الدمشقية والحلبية - ولنسمها البورجوازية التجارية - غير ممثلة كفاية في آلية اتخاذ القرار في سورية. وهذه هي المشكلة...".

كنتُ واثقاً تماماً أن تورغوت أوزال لا علم له بابن خلدون. ولكنني حدثته عن ابن خلدون ونظرية العصبية من أجل التأثير عليه، وقد تأثر. اهتم بشكل خاص بكون "البورجوازية التجارية السورية" حلبية ودمشقية. وبعد أن جعلني أؤكد هذه الظاهرة، نادى أحد أعضاء الوفد الجالسين في الخلف، وأعطاه توجيهاً بتضمين كلمته التي سيدلي بها في دمشق رسالة للتجار السنّة في حلب ودمشق".

اكتسب حوارنا منذ البداية بعداً وظيفياً؛ متجاوزاً الحديث بين رئيس حكومة وصحفي. وقد أحسست براحة كبيرة إلى درجة أنني تماديت متجاوزاً حدودي بالقول: "بالمناسبة، إذا التقيتم حافظ الأسد احذروا أن تطلبوا منه تسليم آبو (أوجلان)!". حملق تورغوت أوزال من خلف نظارته ذات العدستين السميكتين بشكل واضح، وسأل: "لماذا؟".

- لأن حضرتكم رئيس الحكومة التركية؛ أي في موقع السلطان العثماني أو الصدر الأعظم بالنسبة إلى السوريين. سورية هي ولاية الشام التابعة لنا سابقاً. ورئيس الدولة السورية بالنسبة إليكم هو سيد سادة أو والٍ. لا يمكن لحاكم عثماني أن يطلب من والٍ أو سيد سادة طلباً لا يمكن تحقيقه. حافظ الأسد لا يمكن أن يسلم (آبو)؛ لأن هذا النظام نظام أقلية. ويعتبر شرطَ وجوده واستمراره إقامةُ علاقات مع الأقليات، والإمساك بكل منها "كورقة ضغط". تسليم "ورقة آبو" يتناقض مع وجوده، وبالتالي مع سياسته. إذا استطعتم سحب "ورقة حزب العمال الكوردستاني أو آبو" من

الطاولة، وإيداعها في جيبه، وأمنتم إبقاءها هناك فستحقّقون نجاحاً دبلوماسياً عظيماً. لا تطلبوا تسليمه لأنه لن يسلمه. وبصفتكم رئيس الحكومة التركية يجدر بكم عدم طلب ما لا يمكنكم الحصول عليه.

لم يرد تورغوت أوزال على كلامي هذا. ولكن، بعد فترة نقل إلي أحد زملائي إثر مرافقته في جولة داخلية: "اكتشفنا في دمشق أن ما قاله ذلك الشاب في الطريق كان صحيحاً تماماً".

نتيجة ضغط تركيا السياسي والعسكري أخرج حافظ الأسد عبد الله أوجلان في خريف عام 1998، وتخلى عن "ورقة حزب العمال الكوردستاني". نظر البعض إلى النتيجة، وقالوا إنّ هذا هو ما كان يجب أن يحصل قبل زمن طويل. ولكنه لم يكن ممكناً.

في عام 1999، كانت قد مضت على نهاية الحرب الباردة حوالى عشر سنوات، وبدأت نتائج انتهائها تفرض نفسها. فَقَدَ حافظ الأسد حماية الاتحاد السوفييتي الأمنية له، وبدأ يشعر بالضعف أمام إسرائيل في عالم احتلت فيه الولايات المتحدة مركز النظام العالمي الجديد بصفتها قوة عظمى وحيدة. غير هذا، فقد شارك بالتحالف الدولي الذي قادته أمريكا في حرب الخليج عام 1991 ضد احتلال العراق للكويت. تغيّرت الظروف بشكل جذري، وفقدت "ورقة حزب العمال الكوردستاني" قيمتها السابقة من زاوية حافظ الأسد. ويمكن القول إنها تحوّلت من سهم رابح إلى عبء. تخلي حافظ الأسد عن أوجلان عام 1998 جاء نتيجة قراءة صحيحة للوضع العالمي المتشكل إبان الحرب الباردة. فبهذا جنّب حافظ الأسد سورية بليّة كتلك التي حلّت بصدام حسين لعدم تمكنه من قراءة المتغيرات بشكل صحيح.

ولكن، لم يكن بإمكان حافظ الأسد أن يتخلى عن عبد الله أوجلان ويترك حزب العمال الكوردستاني عام 1987.

وفي الحقيقة، لم يتخلَ عنه ولم يتركه... حتى إنه أنكر وجود عبد الله أوجلان في سورية، وتصرّف وكأنه يسمع هذا الاسم لأول مرة.

كنا نقيم في فندق ميريديان، ودُهشنا حين رأينا في مطعم الفندق وزير الداخلية يلضرم آقبولوط والمدير العام للأمن صفّت أرِقان بَدُك ومعاون مستشار هيئة المخابرات القومية هيرام عباس ومن الخارجية صوملماظ أونآيضن يتناولون الغداء. ألا يجب أن يكونوا مجتمعين الآن مع نظرائهم السوريين؟ وإذ بالاجتماع كان قصيراً جداً. حين ذهبنا إلى جوار يلضرم آقبولوط وجلسنا، أشار نحو هيرام عباس، وقال: "ليحكِ لكم ما جرى". لم

يتم الحديث حول أي شيء في اجتماع اللجنة الأمنية الذي كان من المتوقع أن يكون أكثر نشاطات الزيارة "غموضاً" وأسراراً. بحسب ما رواه هيرام عباس، عندما ذُكر عبد الله أوجلان، رفض السوريون الحديث في هذا الموضوع، وأنكروا وجوده في سورية، وأنكروا الأدلة على وجوده تحت الحماية السورية، بل انتقلوا إلى الهجوم متذرعين بأن الأخوان المسلمين يمارسون نشاطهم داخل الحدود التركية.

في تلك الأثناء، تحدّث هيرام عباس عن الحائط المسدود الذي وصلوا إليه في موضوع حزب العمال الكوردستاني: "حاولنا أن نضع الملف الذي يتضمن العناوين التي يقيم فيها عبد الله أوجلان قائلين: راجعوه إذا سنحت لكم الفرصة. لم يمدوا إليه أيديهم".

أثناء الغداء، أخبرني هيرام عباس أن غازي كنعان [3] قائد القوات السورية في لبنان صديقه. وقال: "كنا معاً قبل فترة في تركيا". لم أكن أعلم أن المؤسسات الأمنية قريبة من بعضها بعضاً إلى هذه الدرجة. استغرب هيرام عباس عدم معرفتي الشخصية بالجنرال غازي كنعان الذي أعرف اسمه بشكل جيد جيداً. "كيف يمكنني باعتباري خبيراً في شؤون الشرق الأوسط ألا ألتقي غازي كنعان؟". ذكّرت هيرام عباس بعلاقته الوثيقة بمسؤولي المخابرات الإسرائيلية موساد إضافة إلى قربه من المسؤولين الأمنيين السوريين؛ مستغرباً من وضع تركيا في المنطقة، فرد عليّ رداً أدهشني أيضاً: "إسرائيل دولة صعبة جداً في مجال التعاون المخابراتي. فالإسرائيليون لا يعطون أدنى شيء". كنا دائماً نعتقد عكس هذا. كان هذا أول وآخر حوار بيني وبين هيرام عباس. فقد قُتِلَ هيرام عباس مرشّح تورغوت أوزال لتحويل هيئة المخابرات القومية إلى هيئة مدنية عام 1990 في اسطنبول في عملية اغتيال لن تكشف خيوطها في أي وقت.

شهدتُ بنفسي في ما بعد حالة مشابهة لما رواه هيرام عباس، وكانت تحمل شيئاً من السخرية حول نكران المسؤولين السوريين وجود قيادات حزب العمال الكوردستاني في سوريا؛ وقد كان موقفاً يصعب تصديقه أمام يلضرم آقبولوط والمسؤولين الأتراك الآخرين ومجموعة من الصحفيين. فقد شاركتُ بزيارة رئيس الحكومة سليمان دميريل إلى دمشق في كانون الثاني من عام 1993، وعندما طال اجتماع الأسد ودميريل، أصرّ الأسد على إقامة وليمة على شرفه يحضرها أعضاء الوفد جميعاً. نُقِلنا نحن الذين كنا ننتظر رئيس الحكومة دميريل في الطائرة من أجل المغادرة إلى تركيا، على عجل إلى القصر الرئاسي الجديد الفخم في المزة.

صافَحَنا حافظ الأسد كلنا بوجه بشوش لم أشاهده من قبل، على الرغم من معرفتي صوره على مدى ربع قرن. جلسنا مع حسن جمال على بعد عدة أمتار من طاولة حافظ الأسد وسليمان دميريل. كان هناك عدة وزراء سوريين أيضاً جالسين إلى طاولتنا. ذات لحظة، أخرج سليمان دميريل من جيبه ورقة وعرضها على حافظ الأسد. ارتسم على وجه حافظ الأسد تعبير الاستغراب، وبقي ينظر حوالى نصف دقيقة إلى الورقة التي قدمها له سليمان دميريل، ثم رفع رأسه وطلب رئيس حكومته، وأقرأه الورقة. بدا من تعابير وجهه وحركاته أنه أصدر تعليمات بمعنى "قوموا بما يلزم". وهذا ما حدث، وقد علمنا في تلك الليلة أثناء عودتنا إلى تركيا أن الورقة التي أعطاها سليمان دميريل لحافظ الأسد وثيقة تتضمن عناوين عبد الله أوجلان.

والطريف في الأمر أنّ سائق السفير التركي الذي عاش تلك الأيام أيضاً، قام بجولة معي في دمشق في شباط من عام 2010، فأشار نحو البناء الذي كان عبد الله أوجلان يقيم فيه، ولم أستطع أن أمنع نفسي عن الابتسام. هذا يعني أن أوجلان كان مقيماً في مكان يبعد مسير خمس دقائق عن مكان إقامتي مع الوفد الرسمي التركي عندما زرنا دمشق. من المؤكد أن الوحدات الأمنية التركية ونظيرتها السورية كانت تعرف مكان إقامته دائماً، ولكنها لم تكن تتحدث في الأمر بأي شكل من الأشكال.

أدرك تورغوت أوزال أول رئيس حكومة تركي يزور دمشق أنه لن يحصل على نتيجة في موضوع تسليم عبد الله أوجلان وإيقاف الدعم السوري لحزب العمال الكوردستاني، فأراد أن يقدّم رسالة غير مباشرة في هذا الموضوع، وتوقف عند قوة تركيا الاقتصادية النامية والمعنى الاستراتيجي لهذا النمو.

ينبغي تقييم علاقة سورية بتركيا بحسب المنظور الذي وضعه تورغوت أوزال، ورؤية علاقتها بحزب العمال الكوردستاني من ذلك المنظور، وقد وقّع أوزال حينها اتفاقية مياه أراحت دمشق، وفتحت أبواب التعاون المستقبلي معها قبل أن يعود إلى تركيا.

أما في موضوع أوجلان وحزب العمال الكوردستاني، فقد عدنا بما كنا نحمله في ذهابنا، أي خاليي الوفاض.

عندما بدأت الطائرة التي تحمل رئيس الحكومة التركية والوفد الكبير المرافق له بالانخفاض استعداداً للهبوط في دمشق ظهر 15 تموز 1987 نهضتُ من جوار تورغوت أوزال. بدا جم ضونا سعيداً جداً من "حسن

عرضي" أمام رئيس الحكومة.

أنا أيضاً كنتُ سعيداً في ذلك الحديث بين أنقرة ودمشق، فقد شعرتُ بأن هناك رجل سياسة تركيًّا يشاركني النظرة المستمدة من خبرتي شرق الأوسطية التي أمضيت حياتي عليها. هناك التقطتُ حدة ذكاء تورغوت أوزال وموقفه الذي سيحكى عنه في ما بعد كثيراً.

استمرت هذه العلاقة التي أسستها مع رئيس الحكومة تورغوت أوزال أثناء زيارته سورية عام 1988؛ فقد رافقته عند توقيعه الاتفاقية التاريخية مع أندرياس باباندريو رئيس الحكومة اليونانية في دافوس، وزيارتيه اللتين قام بهما إلى طهران وبغداد في الربع الأول من العام نفسه وبفاصل شهر، وزيارته إلى اليونان قبيل محاولة اغتياله مباشرة. شاركتُ بزيارات أوزال الهامة كلها تقريباً في تلك الفترة.

ولكن طريقينا لم يتقاطعا نهائياً منذ النصف الثاني لعام 1988 وحتى 2 آب 1990 حين اندلعت حرب الخليج إثر احتلال العراق للكويت.

انفجار أزمة الخليج وضع تركيا على مفترق طرق. فقد وقعت الأزمة بين أمريكا حليفتها في الناتو من جهة، والعراق جارها وثاني أكبر شريك تجاري لها من جهة أخرى. واعتماداً على مبدأ عصمت إينونو بالحياد في السياسة الخارجية والذي نجح بتجنب خوض الحرب العالمية الثانية، كان المتوقع ألا تتدخل تركيا، وأن تكون "محايدة" مهما كانت الظروف، وتبتعد عن ملامسة النار. وقد بُرمجت مؤسسات الدولة فيها كلها وفق هذا المفهوم.

ولكن، لم يتوقع أحد أنّ رئيس الجمهورية تورغوت أوزال لديه استعداد لكسر هذا الجمود.

كان يلدرم آقبولوط يجلس على مقعد رئاسة الحكومة، ويعتبره الجميع مؤقتاً وغير فاعلٍ سياسياً. وعلى الرغم من ذلك، لم تشهد مرحلة التعددية الحزبية في تركيا أن تجاوز رئيس الجمهورية رئيس الحكومة في خيارات السياسة الخارجية الأكثر أهمية. وحدث الأمر الذي لم يُشهد، ونزل تورغوت أوزال إلى ساحة السياسة الخارجية، وأمسك بالخيوط بطريقة يسميها الأمريكيون " single-handed " (وحده)، وأدخل تركيا في مسار سياسي لم تشهده من قبل، وقد اعتبره كثيرون خطيراً.

منذ اليوم الأول لأزمة الخليج، كنت من أكثر المدافعين في الإعلام التركي عن سياسة تورغوت أوزال، وأنفعل لكل تصريح من تصريحاته، وكل موقف سياسي من مواقفه، وكل خطوة يخطوها. وذلك على الرغم من أنّ

سياسة أوزال في أزمة الخليج والتي دعمتُها بقوة لم تكن تحظى بتأييد في تركيا، وكانت تُقابل بريبة وحتى رفض داخل الدولة ولدى الرأي العام.

عندما احتل العراق الكويت في شهر آب عام 1990، قابل أوزال مستشاره السابق وسفير تركيا لدى الأمم المتحدة في جنيف جم ضونا أثناء افتتاحه فندق شيراتون في أنطاليا. وعندما سأله جم عن أحواله، رد عليه: "أنا متضايق جداً يا جم. لا أحد يفهم ما أريد أن أفعله. هناك شخص واحد يفهمني، وهو صحفي؛ كأنه يقرأ ما في عقلي. حتى إنه ينتقد عدم قيامي بالخطوة التي أخطط لخطوها بعد أسبوع. فوق هذا، ليس له أي تواصل معي. ولم ألتقه نهائياً. أنا مندهش من قراءته لأفكاري وكتابته هذه الأمور".

عندما سأله جم طونا: "من هو؟". أجابه: "جنكيز تشاندار. إنّه يكتب في غونِش. لا أعرف أين هو، ولا ماذا يفعل".

إثر هذا، قال له جم ضونا: "إنكم تعرفونه. إنه صديقي الذي تحدثتم إليه أثناء ذهابكم إلى دمشق. أنا عرّفتكم إليه". تذكّر تورغوت أوزال فوراً، وقال: "ها، إنه ذاك! أين هو؟". إثر هذا، أخبره جم أنني أعيش في أمريكا بسبب تهديد لحياتي.

في الحقيقة، تلقيت تهديدين بالقتل أثناء أزمة الخليج، فقد أبلغتني مديرية أمن اسطنبول هاتفياً بالتهديد، وطلبت مني أن أتخذ احتياطاتي. ولم أستطع تحديد ماهية الاحتياط الذي سأتخذه، وكان أول إجراء خطر ببالي هو مغادرة البلاد، فذهبت إلى قبرص. أبلغني أصيل نادر صاحب الجريدة التي أعمل فيها أن أذهب إلى قبرص وأنتظره هناك. لم تبد لي قبرص الشمالية التي يترأسها رؤوف دنكطاش والتي لي فيها علاقات قوية آمنة. في الحقيقة، إنّ أصيل نادر لم يذهب إلى قبرص، ولكنه قال لي عبر الهاتف: "أنا رجل أعمال، وحدسي قوي، وأشعر أن هناك حرباً ستندلع، وستكون أمريكا أحد طرفي الحرب. اذهب إلى أمريكا، واعمل مراسلاً من هناك في هذه الأيام المتجهة نحو الحرب". عدتُ من قبرص إلى تركيا، وذهبتُ إلى واشنطن من دون أن أهدر أي وقت.

جاء تورغوت أوزال إلى واشنطن في مطلع أيلول من عام 1990. كانت تلك هي الزيارة الأولى لرئيس دولة حليفة في المنطقة إلى واشنطن منذ بداية الأزمة. وكان الأمريكيون يعطون أهمية كبرى للزيارة. فقد كانت واشنطن تتأرجح كالبندول بين تشديد العقوبات على العراق والخيار العسكري. كان يُنتظر من زيارة تورغوت أوزال أن تؤثر كثيراً على تردد

أمريكا، وكان الطرف الأمريكي يعطي أهمية بالغة للطرف التركي الذي لم يكن يدرك هذه الأهمية.

كنا مجموعة صحفيين مصطفين على طرفي مدخل فندق ماديسون ننتظر دخول رئيس الجمهورية إلى الفندق. جاء أوزال مع مرافقيه. وأثناء دخوله من باب الفندق رآني لأوّل مرة منذ سنتين، ومال نحو أذني حين تصافحنا، وقال: "أشكرك على دعمك لي". أذكر أنني تمتمت بأمور لا معنى لها. وعرفتُ خلفية هذا "الشكر" بعد فترة قصيرة من جم ضونا.

انتقلنا من واشنطن إلى نيويورك؛ حيث سيشارك تورغوت أوزال في اجتماع للأمم المتحدة. كان مقيماً في فندق قريب، وكنتُ أعرّج على فندق بنينسولا الذي يقيم فيه. في أحد تلك الأيام، رآني سفير تركيا في واشنطن نزهت قاندمير في لوبي الفندق، وقال لي بنبرة تأنيب: "أين أنت؟ رئيس الجمهورية يبحث عنك منذ الصباح. يريد أن يقابلك". لماذا يريدني يا ترى؟ كانت أعماله إلى فوق رأسه، فهو سيستقبل في ذلك اليوم عدداً من رؤساء الدول. دسوا لي موعداً بين موعدي الرئيسين البلغاري والروماني، وأدخلوني على عجل إلى غرفته.

جلست مع رئيس الجمهورية التركية على انفراد. وأثناء شربنا الشاي سألني عن مشكلة تهديدي. قال لي إنه عرف بهذا من جم ضونا.

"هل لديك توقع عمن يقف وراء هذا التهديد؟".

أجل لدي.

قلت لرئيس الدولة إنني أشك بالدولة، ولا يمكنني أن أبوح بهذا لغيره.

وعندما سألني بنظرة فضول: "لماذا؟". أجبته: "لأنكم أولاً لستم رئيسَ دولةٍ تقليدياً. وثانياً، ستتفهمون الوضع لأنكم تعرضتم لعملية اغتيال. وإذا قلت لأي مسؤول في الدولة إنني أشك بالدولة فسأجلب بلية لنفسي، ولكنني أثق بأنني أستطيع إخباركم".

تحدثنا لفترة في مواضيع تخص الدولة بعمق، ثم قال إنه سيهتم شخصياً بالموضوع عند عودته إلى تركيا، ولمّح إلى أننا سنكون على تواصل. رئيس الجمهورية التركية بعظمته يخصص لي وقتاً وسط زحمة الزيارات السياسية تلك، ويهتم بأمني الشخصي. انفعلت، وانتبهت إلى أنني بدأت أحب تورغوت أوزال الذي كنت قد بدأت أحترمه منذ عدة سنوات.

عدتُ إلى تركيا في تشرين الأول 1990 بعد أن قضيت شهرين في واشنطن. كنت مستمراً بدعم سياسة أوزال تجاه العراق بقوة من خلال

كتاباتي. في تلك الأثناء، بدأت أتلقى اتصالات من تورغوت أوزال في منتصف الليل. كانت ابنتي في الخامسة عشرة من عمرها وغير معتادة على اتصال القصر الرئاسي. ذات مرة، قدمت لي السماعة وقالت لي: "يطلبك شخص يدعي أنه رئيس الجمهورية". كنا نتحدث طويلاً حول مادتي المنشورة في ذلك اليوم أو الأخبار المنشورة في تلك الفترة.

كان أوزال يرى أن الحرب واقعة، وحتى إنها ضرورية من أجل إبعاد صدام عن رئاسة العراق، ويرى أيضاً قبل الأزمة التي بدأت باحتلال الكويت - وبالتالي قبل الولايات المتحدة بوقت طويل - أن صدام خطرٌ على المنطقة وعلى تركيا والنظام العالمي. أثناء زيارته لأمريكا في شهر كانون الثاني من عام 1990، سأله جورج بوش الذي التقاه في 18 كانون الثاني في البيت الأبيض حول ليبيا - كانت ليبيا على رأس اهتمامات أمريكا في ذلك الوقت - فلم يجب بشكل مباشر، ونقل الحديث إلى العراق، وقال: "صدام حسين هو الرجل الأخطر". تسرّب لقاء أوزال - بوش إلى الصحافة، ونشرته جريدة غونِش. لذلك رفع أوزال دعوى على أولاتش غورقان رئيس تحرير غونِش بسبب "إفشاء سر دولة"، ولكنه اتصل بغورقان وشكره على عدم عرضه بالتحديد لما أكتبه في الجريدة. على الرغم من أنني أعمل في غونِش لم أعلم أن مصادر الخارجية هي التي سرّبت المعلومات حول لقاء أوزال - بوش إلى مكتب الجريدة في أنقرة.

عندما تصدت الولايات المتحدة الأمريكية لاحتلال العراق للكويت بعد أشهر، كان تأثير أوزال على القرار الأمريكي قد أثبت فاعليته من خلال ثبوت صوابيته. تحدث وزير الخارجية الأمريكي لتلك الفترة جيمس بيكر عن إصرار أوزال على إسقاط صدام مرات عديدة في مذكراته المعنونة: " Politics of Diplomacy " (سياسة الدبلوماسية).

كتب عن تورغوت أوزال في الصفحة 282 وتحت العنوان الفرعي: "الوصلة التركية":

"في ساعة متأخرة من هذا اليوم، أصدر مجلس الأمن الدولي القرار رقم 661 الذي تضمن فرض عقوبات اقتصادية مشددة على العراق. فقد أقر القرار بالفعل فرض حظر شامل على التعاملات التجارية كافة مع صدام وحكومته الدمية في الكويت. وكانت هذه أولى خطوات استراتيجيتنا التي لا تقضي بعزل العراق دبلوماسياً فقط، بل بوضع اقتصاده تحت الوصاية أيضاً. أحد الأسباب التي جعلت صدام يحتل الكويت هو رغبته في ملء خزانته الخاوية من عائدات البترول الكويتية الضخمة. ولحرمانه من هذه الثروة

وتحقيق العقوبات جدواها، كان من الضروري إغلاق خط أنابيب البترول التي تضخ النفط العراقي إلى البحر المتوسط عبر تركيا. وبعد ثلاثة أيام من تصويت الأمم المتحدة على القرار، سافرت إلى أنقرة لتكون محطتي الأولى في سلسلة زيارات أقوم بها على مدى فترة الأزمة لعقد اجتماع مع رئيس الجمهورية التركية تورغوت أوزال.

وكنت أعرف أوزال منذ سنوات عملي في وزارة المالية. فقد تولى وهو الاقتصادي البارع تمثيل بلاده في البنك وصندوق النقد الدوليين، وهو يتحدث الإنكليزية بطلاقة، كما أنه رجل ودود سرعان ما تعلو الابتسامة شفتيه. اعتمد على حدسه الفطري باتخاذ الكثير من القرارات القوية الحازمة، وليس على البيروقراطية الحكومية. أمرُ أوزال بإغلاق خط الأنابيب في اليوم السابق لوصولي لأتقدم إليه بهذا الطلب كان تصرفاً منسجماً تماماً مع شخصيته. وأبلغني أنه يعرف أن القرار لن يحظى بالتأييد في بلده، ولكن هذا هو الصواب، وأنه لن يسمح بمرور قطرة واحدة من النفط. وقال أيضاً إنه يعتقد أن صدام رجل مجنون، وأنه إذا نشبت الحرب فإن الجيش العراقي لن يقاتل. وصف أوزال الجيش العراقي بأنه "جيش أجوف"... وقبيل انتهاء الاجتماع، أكد أوزال مجدداً الفكرة التي طالما كررها؛ وهي أن صدام أكثر الطغاة خطورة في العالم. وقال أوزال: "ينبغي – كحد أدنى – تدمير ما بحوزته من صواريخ سكود ومنشآت كيماوية، ويجب طرده من الكويت بقوة السلاح لو اقتضى الأمر". ولكنه أكد أن التهديد غير كافٍ لجعله يرضخ.

وصل أوزال إلى النقطة الأكثر خطورة، وسأل: "هل سنتخلص من صدام حسين؟". أجبت: "سيدي الرئيس، قوانيننا تمنعنا من القيام بعمليات تهدف إلى قتل مسؤولين أجانب. علينا أن نركز على خنقه من خلال العقوبات السياسية والاقتصادية". لم يبد القلق على أوزال، وقال: "علينا أن نقضي عليه. الدول كلها معرضة للخطر إذا استمر وجود صدام حسين. إننا سنكون في خطر حقيقي. رجاء، أبلغوا الرئيس بوش بضرورة التخلص من صدام".

عند لقائنا تورغوت أوزال في واشنطن، وبعد هذا اللقاء بفترة قصيرة كان يحاول الضغط بقدر المستطاع على الإدارة الأمريكية التي تتأرجح بين العقوبات وخيار الحرب لتتوجه إلى الخيار الثاني. عرفتُ من سفير الولايات المتحدة الأمريكية في أنقرة مورتون أبرامويتز الذي حضر اللقاءات في البيت الأبيض بوجود نهجين مختلفين في ما سيطرح في الاجتماعات، وأن الطرف الأمريكي ينتظر نتيجة الاجتماعات بفضول شديد. كان الفريق الأمريكي ممثلاً

بأرفع الشخصيات مثل الرئيس بوش، والجنرال برنت سكوكروف كبير مستشاري الأمن القومي، ووزير الخارجية جيمس بيكر، ووزير الدفاع ديك تشيني، والسفير مورتون أبراموتيز. أما الجانب التركي فقد كان ضعيفاً جداً، إضافة إلى أنه عاش فضيحة كبرى لم تنقلها الصحافة في ذلك اليوم.

سأسمع من أوزال شخصياً، ومن قايا طوب ِإرِ الناطق باسم الرئاسة ما سمعته من أبراموتيز. فقد قال أوزال متباهياً أمام الجانب الأمريكي: "أنا أمامكم هنا بصحبة خبيرين. الناطق باسمي قايا توبر كان سفيراً في الكويت، ونزهت قاندمير سفيرنا هنا في واشنطن كان سابقاً في بغداد. لذلك، نحن نعرف العراق وقوتها من النبع". والتفت نحو نزهت، وقال: "تكلم يا نزهت!". وأفسح المجال لنـزهت ليتحدث حول العراق. ولكن نزهت قاندمير بدأ يكلّم الأمريكان عن قوة الجيش العراقي وشعبية صدام.

في ذلك اليوم، انتهى نزهت قاندمير بنظر تورغوت أوزال. ذات مرة قال لمجموعة كنت بينها وهو يقصد قاندمير بقوله: "لا ضرورة لأن تعيد العراق أواصر علاقاتها بأمريكا. لدى العراق سفيرٌ في واشنطن، وفوق هذا نحن ندفع راتبه".

المبالغة بوصف قوة العراق، والوقوف ضد نوايا أمريكا لم يكن تصرفاً خاصاً بنزهت قاندمير، بل كان تصرفَ الأغلبية في نظام الدولة التركية. وضع تورغوت أوزال يده على الوضع عند احتلال العراق للكويت في 2 آب 1990، ودعا الحكومة لاجتماع عاجل. قال لي إن ألسن بعض أعضاء الحكومة ارتبطت عندما تحدث عن احتمال الحرب. أضاف: "بدا وزير الخارجية البروفيسور علي بوظِر كأنه تبخر. رأيت بعيني البروفيسور العظيم المحترم الذي يحمل صفة وزير خارجية كيف شحب وجهه وكأنه تبخر".

لم يكن وضع العسكر مختلفاً عن وضع البيروقراطية المدنية. روى لي أوزال بأسلوب ساخر أنه كان من المفترض بحكم موقعه أن يذهب إلى مراسم تسليم الراية في شرناق واستلامها، فلفت نظره كبار الضباط إلى قرب شرناق من الحدود العراقية، وإمكانية أن يعتبر صدام المراسم نوعاً من الاستفزاز، ورجوه كي لا يذهب إلى هناك. وقد اتخذ الجنود موقفاً مشابهاً باعتراضهم على إرسال تركيا وحدة رمزية إلى السعودية لتشارك قوى التحالف الدولي بهدف الضغط على الجيش العراقي الموجود في الكويت، لإظهار أنها مشاركة مع هذه القوى.

أمام مقاومة شديدة في الدولة على هذا النحو يعتبر من الخيال فتح "جبهة ثانية" من تركيا في حال نشوب حرب.

أما في الوسط الدبلوماسي، فقد كان الدبلوماسيون الأتراك يدافعون عن صدام أكثر مما يدافعون عن التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة.

كان أوزال واثقاً أن الطرق كلها ستؤدي في النهاية إلى الحرب بسبب الاتصالات التي يجريها بشكل دائم، والتي تغدو يومية في كثير من الأحيان مع الرئيس الأمريكي جورج بوش، وذلك على الرغم من تأرجح الوضع الأمريكي بين العقوبات والحرب. وذات منتصف ليلة من كانون الثاني 1991 عبّر لي عن غضبه الشديد من محمد علي بيراند الذي كان يتكلم على الشاشة بكلام بعيد عن الواقع قائلاً: "لن تندلع الحرب بالتأكيد، ليهيئ الذين يريدون أن يسافروا إلى بغداد أنفسهم على هذا الأساس، وليذهبوا". وحين سأل: "من أين يستنتج هذا الرجل أن الحرب لن تندلع؟". قلت له: "لعله تلقى خبراً من الفرنسيين". كان الفرنسيون والروس يبذلون آخر جهودهم لمنع نشوب الحرب. فقال: "ليصدق الفرنسيين إذاً. لا تَحِدْ أنت عن نهجك بالكتابة. أنت تكتب الصواب. ستنشب الحرب بالتأكيد".

نشبت الحرب بعد هذه المكالمة الهاتفية بعدة أيام في 17 كانون الثاني 1991.

عندما خطوت أول خطوة داخلاً إلى مكتب رئاسة الجمهورية في القصر لأول مرة في حياتي بتاريخ السادس من شباط؛ بعد حوالى ثلاثة أسابيع من اندلاع الحرب وترنّح نظام صدام في بغداد، كان لدينا – تورغوت أوزال وأنا – تفاهم متبادل حول الوضع في العراق ومستقبل تركيا، إضافة إلى ثقة متبادلة. وعندما علم أنني "سأقابل المعارضة العراقية" و"أريد أن آخذ رأيه في هذا الموضوع"، اعتبر أوزال أن هذه فرصة. فالتواصل مع المعارضة العراقية يعني لعب دور مباشر بإسقاط صدام، والتحضير لعراق ما بعد صدام.

كان طلبي لقاء تورغوت أوزال بدافع المكر الصحفي من جهة؛ ولإثبات صحة حدسي نحو المستقبل من جهة أخرى. كان أصيل نادر صاحب الجريدة التي أعمل فيها على شفا الإفلاس بسبب انهيار بورصة لندن. لذا، كان ينبغي زيادة مبيعات الجريدة من أجل استمرارها والتمكن من دفع رواتب الموظفين. ذات يوم، قلت لمدير التحرير دنيز صوما: "سلسلة مقالات بعنوان خلفاء صدام ستزيد مبيعات الجريدة وتجذب إعلانات جيدة. فبجميع الأحوال، إنّ صدام سيخسر في نهاية هذه الحرب. لذلك يجب أن نقدّم للناس أخباراً تتعلق بالمستقبل بدلاً من أخبار الحرب التي تبثها التلفزيونات كل يوم". ثم أضفت: "الذين سيحلون محل صدام

هم المعارضون العرب. وما سيكون غريباً جداً من زاوية رؤية تركيا هو موقع مسعود برزاني وجلال طالباني المعارضان الكورديان...".

بعد يومين، في أول يوم أحد من شباط اتصل بي رئيس التحرير أولاتش غورقان وخاطبني بأسلوبه الكلاسيكي: "معلم! هل أنت جاد في ما قلته قبل يومين لدنيز؟ هل تقوم بهذا العمل؟".

قلت: "أولاتش، القيام بهذا العمل يعني الذهاب إلى لندن ودمشق وطهران، والبحث عن الأشخاص. هذه هي مراكز المعارضة العراقية. عدد كبير منهم يعيشون هناك متخفين. لكن الجريدة على شفا الإفلاس ولا تستطيع تغطية النفقات لكي أقوم بهذا...".

أولاتش غورقان زميلي في الإعدادية والثانوية والجامعة (ومعارض شديد لأوزال، وانتخب نائباً في البرلمان في التسعينيات من القرن المنصرم، وشغل منصب نائب رئيس مجلس الأمة التركي الكبير)، قال لي: "حسنٌ، أنا سأتدبر أمر هذه النقود". وأنهى الاتصال. في اليوم التالي، أي يوم الاثنين، دخل الأمر مدخلاً جدياً. فقد تدبر أولاتش النقود من أجل هذا المشروع الذي يعتبر محاولة أخيرة لإنقاذ الجريدة.

بداية، اتصلت بصديق لبناني يعمل في جريدة الحياة العربية التي تصدر في لندن. اجتزنا معاً مصاعب كثيرة في طهران وبيروت أيام الحصار الإسرائيلي بشكل خاص. وثمة علاقة خاصة بيننا. سألته: "إذا أتيت إلى لندن، فهل تستطيع أن تجمعني بالمعارضة العراقية؟". أجابني: "تعال، وسنتدبر الأمر".

"والقادة الكورد؟ طالباني وبرزاني مثلاً؟".

قال بصراحة تامة: "لا أعرفهما. يمكن أن تقتفي أثرهما من خلال المعارضين العرب هنا".

كان هذا رأس خيط كافياً من أجل ذهابي إلى لندن. اتصلت من البيت برئيس الجمهورية تورغوت أوزال ليلاً. سبب اتصالي به كان ثقتي بأن صدام حسين سيسقط في نهاية الحرب، وشعوري بأن سياسة تركيا مع الكورد ستشهد تغييراً جذرياً. كما كانت هناك أخبار تدور حول محاولته إلغاء حظر الحديث باللغة الكوردية. لدى رئيس الجمهورية التركية رؤية مختلفة لموضوع الكورد، ومن المحتمل أن تكون لديه رؤية مختلفة وغريبة لمستقبل العراق. ويمكن لهذه الرؤية أن تحقق فائدة للقائي بالمعارضين العراقيين بمن فيهم الكورد.

والتفصيل الذي مر أثناء حديث تورغوت أوزال مساء 9 كانون الثاني

على شاشة تلفزيون " TRT " قوى حدسي. إذ سيجتمع في جنيف 1991 وزير الخارجية العراقي طارق عزيز بوزير الخارجية الأمريكي جيمس بيكر لأول مرة منذ انفجار الأزمة الناجمة عن احتلال الكويت في 2 آب 1990. اعتُبر لقاء جنيف هذا آخر فرصة على طريق الحيلولة دون نشوب حرب واسعة النطاق. توجهت أنظار العالم إلى لقاء بيكر – عزيز. لم ينجم عن ذاك اللقاء ما يحول دون الحرب، وظهر تورغوت أوزال في تلك الليلة على شاشة " TRT " فجأة.

تحدث بطريقة تشي بوعيه عدم إمكانية الحيلولة دون الحرب، محذراً رئيس الدولة العراقية صدام حسين لآخر مرة بصفته رئيس دولة جارة. سمعته حين تفوّه بعبارة "شعوب العراق" في مكان ما من بداية كلمته. طنت الكلمة في أذني، ومرت باعتبارها "زلة لسان". لقد كان مصطلح شعوب من أدبيات اليسار في الستينيات والسبعينيات للقرن الماضي، ولا يمكن أن يكون له مكان في الخلفية الأيديولوجية لأوزال. الأهم من هذا أنّ حديثه عن "شعوب العراق" يعني أن العراق فيه عناصر قومية غير العنصر العربي، وهذا يعني قبل كل شيء الشعب الكوردي. لا يمكن التفكير بأن رئيس دولة اعتمدت سياستها الرسمية منذ تأسيس الجمهورية على إنكار الكورد يشير بشكل ما إلى "الشعب الكوردي". لهذا السبب قلت لنفسي إنها: "زلة لسان". ولكن تورغوت أوزال في مكان آخر من كلمته استخدم أيضاً عبارة "شعوب العراق". عندها، لم يعد من الممكن تفسير الحالة على أنها زلّة لسان. شعرتُ بأن تصوراً حول عراق ما بعد صدام قد تشكّل في عقل تورغوت أوزال، وأن للكورد مكاناً في هذا التصور. إذا كان الأمر على هذا النحو فإن هناك نتائج مهمة بالنسبة لتركيا في المستقبل؛ وهذه إشارة إلى أننا نسير نحو منعطف سياسي حاد.

أردتُ أن أعرف من تورغوت أوزال تصوره للمستقبل بالتفصيل، وكيف سيكون وضع الكورد في إطار هذا المستقبل قبل أن أنطلق في الطريق للبحث عن جلال طالباني ومسعود برزاني. وهكذا سأكون أكثر جاهزية لدى لقائي بهما.

دخلتُ القصر الرئاسي بهذه المشاعر. وفور ولوجي من باب القصر خرج السفير قايا توب إرِ الناطق باسم الرئاسة من أول غرفة إلى اليسار، واقترب مني، وقال: "سأقول لك شيئاً مهماً جداً. عليك أن تنقله إلى رئيس الجمهورية بالتأكيد". ولكن، قبل أن يخبرني به، أُدخِلت إلى مكتب رئيس الجمهورية. لم يكن تورغوت أوزال جالساً خلف مكتبه المواجه للباب، بل

كان ينتظرني بجوار طاولة دائرية صغيرة. التفت إلى قايا توبر المعتاد على مرافقة الصحفيين عند مقابلتهم تورغوت أوزال بصفته المدير العام للصحافة والنشر، إضافة إلى كونه الناطق باسم رئاسة الجمهورية، وقال له: "أريد أن أقابل جنكيز وحدي". فخجلت عندما خرج قايا توبر من الغرفة وتركنا وحدنا. لم أعد أتمكن من النظر إلى وجه قايا توبر الذي أتعامل معه كأخ أكبر، وصرت أخفض نظري إلى الأرض عند لقائنا.

دخل تورغوت أوزال الموضوع مباشرة، من دون الشعور بالحاجة إلى مقدمات، وسألني: "كم عدد التركمان في العراق؟". أجبته: "لا يُعترف بالتركمان في العراق. ولا ترد أسماؤهم في سجلات النفوس على أنهم تركمان. لهذا السبب، تُطرح أعداد لا علاقة بينها وبين الواقع نهائياً. الأفضل أن تسألوا المنتديات التركية، وتقسّموا الرقم على ثلاثة".

سأل تورغوت أوزال وقد علت وجهه تعابير الاستغراب: "لماذا؟".

- لكل موضوع من يهتم به. يهتم هؤلاء كثيراً بالمجتمعات التركية خارج تركيا. ولكنهم يبالغون كثيراً بأعدادها. أعتقد أن ثلث الرقم الذي يعطونه سيكون واقعياً.

لم يُطل تورغوت أوزال الحوار حول عدد تركمان العراق، ودخل صلب الموضوع الذي يريد أن يناقشه بسرعة. سأل: "هل تكفي قوة التركمان من أجل نشر نفوذنا في العراق؟". وتابع وكأن الجواب يتضمن السؤال: "إيران وراء الشيعة، والعالم العربي وراء السنّة. هل تكفي ورقة التركمان لإرساء نفوذنا في بغداد عند عملية إعادة البناء بعد صدام؟".

قلت: "لا تكفي يا سيدي".

عقّب قائلاً: "هذا غير ممكن من دون الكورد، أليس كذلك؟".

- أجل، غير ممكن!

أثناء حديثنا ضغط على زر الجرس، ودخل حسين آقصوي سكرتيره الخاص غير الرسمي، وطلب منه أن يجلب له خريطة للعراق، ودله على مكانها في المكتبة، ووثيقة من مكتبه في جناح إقامته.

فتح الخريطة بعد جلبِها، وبدأ يدقق النظر بمناطق التركمان والكورد من خلف نظارته. جلسنا إلى تلك الطاولة وتلك الخريطة أمامنا مرات عديدة. ذات مرة، فتح سبابته وإصبعه الوسطى على شكل " v "، ووجّههما نحو السعودية، وقال: "انظر، إذا تمكنت تركيا من نشر نفوذها إلى هناك فستغدو واحدة من أهم دول العالم".

انحنيت فوق الخريطة، وسألته عما قصده بالضبط. فقال بنبرة تحمل

حدّة: "ألا ترى؟". وشرح أن تركيا ستكون بعد تخلص العراق من صدام لاعبة مهمة على الساحة الدولية، وفوق هذا، ستضمن المستقبل إذا امتد نفوذها على المنطقة الجغرافية السياسية بين قناة السويس والخليج.

لم يكن تورغوت أوزال يقصد "التوسع العسكري" بقوله عبارة "نشر النفوذ"؛ كما اعتقد كثيرون في مرحلة حرب الخليج وبعدها، ووجهوا إليه سهام النقد. من الضروري لتركيا أن يكون لها "نفوذ سياسي" على النظام الجديد الذي سيؤسس في بغداد، ولا بد من الورقة الكوردية من أجل تحقيق هذا. الورقة التركمانية ورقة يمكن لتركيا أن تلعبها بسهولة، ولكنها غير كافية. أما الورقة الكوردية فلا بد منها من أجل مرحلة ما بعد صدام.

كان حدس تورغوت أوزال غريباً حول نتائج الحرب بين العراق وقوات التحالف الدولي بقيادة الولايات المتحدة، والذي شاركت فيه سورية عام 1991. كان أوزال يرى – كما ذكرت سابقاً – أن نظام بغداد لن يصمد في الحرب. ومع انهيار صدام، لن تتمكن النخبة العربية السنّية من إحياء النظام الذي شكلته عام 1921 في العراق.

كان أوزال على قناعة بأن الشيعة الذين يشكلون الغالبية هم أقوى المرشحين لملء الفراغ الذي سينجم عن الحرب، وهؤلاء يرتبطون تاريخياً بإيران. ولم يكن أوزال يفكر بهذا فقط، بل يقلق منه.

تنطلق قناعة أوزال هذه من وعي تاريخي قوي. فقد كان واعياً أن العراق بقي ساحة صراع بين العثمانيين والصفويين على مدى قرون. إضافة إلى البعد المتمثل بالخلاف الشيعي – السنّي، كان واعياً للتنافس بين تركيا وإيران على العراق بشكل خاص، من خلال قوانين الجغرافية السياسية.

ما الذي يمكن أن تفعله تركيا التي أدارت ظهرها للشرق الأوسط منذ تأسيس الجمهورية؟ وأي اللاعبين يمكن أن تستخدم لتكون صاحبة كلمة لدى من سيملأ فراغ السلطة الذي سينجم في بغداد، والذي يبدو قدراً محتوماً؟

لم يتبادر إلى ذهن تورغوت أوزال في هذه الحالة سوى كورد العراق. لم يكن من الممكن لتركيا بذهنية "دولة الأمة التركية" أن تدخل إلى التوازنات العراقية عبر تركمان العراق الذين تعتبرهم "أخوة بالانتماء القومي". ولن يستطيع التركمان لعب دور كهذا من أجل تركيا بسبب توزعهم السياسي والجغرافي، والسبب الأهم هو ضعفهم السياسي. لا بد للكورد أن يلعبوا دوراً في هذا التوازن.

لم يكن من الممكن لتركيا التي نهجت سياسة إنكار تجاه الكورد منذ

نشأة الجمهورية أن تعمل على كسب ورقة كورد العراق من دون تغيير جذري - وحتى ثوري - في سياستها.

لا بد أن يجلب انفتاح تركيا على كورد العراق انفتاحها على مواجهة مشكلتها الكوردية وتخريب المفاهيم الرسمية المتعلقة بكوردها.

رؤية تورغوت أوزال هذه متأثرة بنظرته المتعلقة بنهاية الحرب الباردة.

يرى أوزال أن ظهور جمهوريات مستقلة ذات هوية تركية في الساحة الممتدة من القوقاز إلى آسيا الوسطى بتفكك الاتحاد السوفييتي إبان الحرب الباردة، وتغيير أنظمة منطقة البلقان التي تعتبر معقل العثمانيين وفق المصطلحات الجغرافية السياسية؛ فرصة بالنسبة لتركيا. وعبّر عن تقييمه لهذا الوضع بعبارة: "فتحت أبواب السماء التي لا تفتح إلا مرة في القرن أمام تركيا". كانت أزمة الخليج التي انفجرت باحتلال العراق للكويت بمثابة فتح أبواب السماء أمام تركيا بعد انتهاء الحرب الباردة.

بانسحاب الاتحاد السوفييتي من الساحة، تحوّل النظام العالمي ثنائي القطب إلى أحادي القطب، وهذا القطب هو الولايات المتحدة الأمريكية. بقيت الولايات المتحدة قوة عظمى وحيدة. أطلق أوزال على هذا الوضع النادر في تاريخ العالم، والذي أراه أنا "غير طبيعي"، وصفاً استمده من الهندسة؛ وهو "التوازن غير المستقر".

يريد أوزال - انطلاقاً من زاوية الرؤية هذه - أن يستغل الأزمة العالمية التي انفجرت باحتلال العراق للكويت كفرصة من أجل التملص من "سياسة الحياد" التي ورثتها تركيا من الحرب العالمية الثانية. اتخاذه موقفاً من عدوانية صدام، ووقوفه إلى جانب الولايات المتحدة، وحتى لعبه دوراً فعالاً في التحالف الدولي المشكل، كلّها معاً ستؤمّن لتركيا موقعاً سامياً من التسلسل التراتبي العالمي الذي سيتشكل بعد الحرب الباردة.

نتيجة رؤيته الثاقبة هذه كان أوزال واعياً لما سيفعله عند انفجار أزمة الخليج عام 1990. فقد أمسك بخيوط الحكومة التي لم تعرف ما ستفعله إزاء الأزمة. وقف الرأي العام التركي ضد العراق، على عكس ما اعتاد عليه من مبدأ سياسي خارجي يقضي بعدم التدخل في الأزمات الدولية والمنطقة؛ وخاصة أزمات الشرق الأوسط. وقد تقدّم هذا الموقف على موقف الكثير من الدول. حين أقنع الرئيس الأمريكي جورج بوش مجلس الأمن بإصدار القرار أجبر السعودية على التحرك لتعويض إغلاق خط أنابيب النفط بين كركوك ويومورطالك، وكان ذلك أكثر الجوانب دراماتيكية في تحديد وجهة أزمة الخليج.

كان تورغوت أوزال واثقاً بوجود رابط بين أمن تركيا وتراتبية النظام الدولي الجديد الذي سيتأسس بعد الحرب الباردة. لذلك، سيقدّم الدور الذي ستلعبه تركيا في حرب الخليج أهم ضمانة للمكانة الخاصة التي ستتبوّأها في النظام العالمي لما بعد الحرب الباردة.

ويشغل كورد العراق أهم إحداثيات فكره الاستراتيجي هذا. لا يمكن لتركيا أن تكون صاحبة كلمة في مستقبل العراق، وأن يصل نفوذها إلى الخليج من دون أن تُقيم علاقة تشبه علاقة العظم باللحم مع كورد العراق.

بالتوازي مع فكر أوزال هذا، لا يمكن لتركيا أن تكون "مركز قوة" في المستقبل من دون حل قضية كوردها.

استماعي لرؤى تورغوت أوزال شخصياً جعلني أصل إلى نقاط تقاطع مدهشة بينها وبين رؤاي التي شكلتُها من تجربتي الشخصية.

حين ولجتُ القصر الرئاسي يوم الأربعاء في 6 شباط 1991، وسرت نحو مكتب تورغوت أوزال لم أكن أعرف بعد أنني أسير نحو مشاركته بلعب دور في صنع التاريخ. ولكن، عند مغادرتي القصر بعد حديث على انفراد دام لمدة ثلاث ساعات كنت أشعر بأن تركيا سيكون لها أثر على المستقبل القريب.

كنت متفقاً مع رؤية تورغوت أوزال حول احتلال العراق للكويت بنقاطها وفواصلها كلها. لكل منا أسلوب تربية وأيديولوجيا وتجربة تختلف عن الآخر. وعلى الرغم من هذا، فقد التقينا على "مفترق العراق والكورد" في عامي 1990-1991، وسرنا معاً من دون افتراق حتى موته عام 1993.

V - كاسر المحرمات في القصر



"بث الأخبار باللغة الأم الكوردية يعقّد الأمر تماماً. لن يتغير شيء حتى لو مُنحوا حقوقاً سياسية وثقافية. سيطلبون أكثر؛ تعليماً بالكوردية، إذاعةً وتلفزيوناً كورديين، وحزباً كوردياً... وهذا كله غير ممكن.

جنكيز تشاندار هو من أدخل هذه الأمور في عقل أوزال".

مسعود يلماظ، رئيس حكومة (1991، 1996، 1997)

(حسن جمال، الكورد، ص 309، منشورات ضوغان، اسطنبول 2003)

وجد تورغوت أوزال ما كان يبحث عنه بين الوثائق التي أمر بجلبها إلى مكتبه الرئاسي. قدمه لي، وقال: "اقرأ لنرى!". كان مقالاً من مجلة "ناشيونال ريفيو" المفضلة لدى اليمين الأمريكي المحافظ مؤرخة بتاريخ 17 أيلول 1990 وتحمل توقيع " J. B. Kelly " بعنوان " Let's Talk Turkey /دعونا نكلم تركيا". أرسل المقال زميلي في الجامعة حقي أوجال الذي كان يعمل في إذاعة صوت أمريكا، وعمل لفترة في جريدة حرّيت، ورئيساً لتحرير جريدة ترجمان.

لم تكن لدي أي معلومات حول مجلة "ناشيونال ريفيو" حين مد لي

تورغوت أوزال المقال وطلب مني قراءته. قرأتُ المقال بسرعة. إذا وصلتْ أزمة الخليج إلى نقطة الحرب وانهار نظام صدام حسين وتفكك العراق، يمكن لتركيا أن تطالب بحقها في ولايتها السابقة الموصل. وإذا طلبت تركيا حقاً كهذا فعلى الولايات المتحدة أن تدعمها بطلبها. ويسند المقال حق تركيا القانوني بولاية الموصل إلى وثيقة من وثائق الأمم المتحدة تعود إلى عام 1925. الوثيقة هي تقرير لجنة الأمم المتحدة حول مستقبل الموصل الذي أُعد بسبب اختلاف تركيا وإنكلترا عليها، وبقائها خارج القرار في لوزان. تعدد اللجنة في ذلك التقرير بعض الحقائق، وتقترح ضم ولاية الموصل إلى العراق، ولكنها تقضي بعودتها إلى تركيا في حال عدم إيفاء الحكومة العراقية ببعض الشروط؛ تلك الشروط تتعلق بالحقوق الكوردية.

يشير مقال " J. B. Kelly " إلى أن العراق لم يفِ بالشروط الواردة في تقرير الأمم المتحدة لعام 1925 بعد استقلاله عام 1932، وسيعود هذا الحق لتركيا مجدداً في حال سقوط نظام صدام وتفكك العراق.

سأسمع من جلال طالباني مرة أخرى عن حقوق تركيا في شمال العراق وعلى الكورد بموجب تقرير الأمم المتحدة المذكور في مقال مجلة "ناشونال ريفيو" لعددها المؤرخ 17 أيلول 1990. في فترة غموض مستقبل العراق التي تلت الحرب، كان جلال طالباني يسعى لتذكير تركيا بحقوقها على كورد العراق. كما كان يأمل بلقاء رئيس الجمهورية تورغوت أوزال عندما زار اسطنبول في حزيران عام 1991 للمشاركة في اجتماع مؤتمر الاشتراكية الدولية. حينها، لم يعطه أوزال موعداً، وطلب قايا توبر مني ومن حسين تشَلَم من وزارة الخارجية لقاءه. اعترض جلال طالباني على حضور حسين تشلم الدبلوماسي التقليدي في الخارجية لأنه من غير الممكن أن نتكلم بحرية، ولكن أوزال أصر على حضور تشلم اللقاء لأن لديه حساباته الخاصة. المهم أن تَشَلَم وَجَدَ مرافقة الزعيم الدرزي اللبناني وليد جنبلاط على العشاء أكثر جاذبية عشية افتتاح مؤتمر الاشتراكية الدولية. ناسبني تماماً تجاهل تشلم رغبة رئيس الجمهورية. أقللت طالباني بسيارة أقودها أنا من مرأب فندق هيلتون في الطابق الأسفل مع برهم صالح وسرجل قزاز بشكل خفي عن الصحافة إلى غرفة قايا توبر في فندق مرمرة. كان طالباني الذي لم يجذب اهتمام حسين تشلم أهم ضيوف اسطنبول بنظر الصحافة. فقد ترك الصحفيون الأتراك نجوم السياسة الدولية أمثال ويلي برانت، وبرونو كرايسكي، وشمعون بيريز ولاحقوا جلال طالباني.

استمر لقاؤنا مع هيئة الاتحاد الوطني الكوردستاني في غرفة قايا توبر

أكثر من ساعة. كان طالباني يشرح للناطق باسم رئاسة الجمهورية ضرورة لقائه تورغوت أوزال وأهميته. ذات لحظة من الاجتماع، أخرج كل من طالباني وبرهم صالح من حقيبتيهما تقرير الأمم المتحدة لعام 1925، وعرّجا على موضوع حقوق تركيا في شمال العراق. دُهش قايا توبر بشدة. وهنا تدخّلتُ للمرة الأولى، وقلتُ: "رئيس الجمهورية على علم بهذه الوثيقة وهي موجودة لديه".

قال طالباني تعليقاً على تقرير الأمم المتحدة الذي يعطي تركيا حقاً في شمال العراق: "إذا دعمتمونا فسنتخذ موقفاً متوافقاً مع نهجكم".

كان هذا اللقاء في فندق مرمرة عند منتصف الليل بتاريخ 9 حزيران 1991 بعد ثلاثة أشهر من زيارته السرية إلى تركيا أثناء مرحلة حرب الخليج، وكانت هذه الزيارة إلى اسطنبول وليست إلى أنقرة، وهي علنية وليست سرية كالمرة السابقة. لم يلتق رئيس الجمهورية في زيارته الأولى. لاحقاً، اتصل بي مرات عديدة، وضغط عليّ من أجل أن يلتقي رئيس الجمهورية.

اتصلت بأوزال لنقل رغبة الزعيم الكوردي طالباني بلقائه قبل مجيء الأخير إلى اسطنبول بأيام عديدة. وأبلغني أوزال أنه سيأتي في اليوم التالي إلى اسطنبول، وسينتظرني عند الساعة الثانية عشرة ظهراً في فندق تشراغان حيث يقيم. عندما ذهبت إلى الفندق في الساعة التي حددها لي، وجدت أنه قد نسي موعدي، وكان مجتمعاً مع مدير البنك المركزي رشدو سَرَاتش أوغلو.

قال: "عدم المؤاخذة، لقد نَسيتُ. ماذا سنفعل الآن؟".

ما الذي يمكنني قوله؟ رفعتُ يديّ في الهواء، وأطرقت برأسي.

سألني سؤالاً لم أكن أتوقعه: "هل تعرف كيف تصلي؟".

- أعرف يا سيدي.

- هل أنت متوضئ؟

- لا.

- اذهب إلى الغرفة المجاورة، وليعطك موسى (مدير حراسته) منشفة، وقل له إنك ستذهب معي إلى صلاة الجمعة. توضأ، وكن في الأسفل عند باب الفندق بعد خمس دقائق. وسنتكلم في الطريق، وبهذا نحلّ مشكلة نسياني الموعد.

فعلتُ ما قاله. جلستُ على الطرف الأيسر من المقعد الخلفي لسيارة تحمل هيبة رئاسة الجمهورية. إنها المرة الأولى التي أركب فيها سيارة رئيس

جمهورية. خرج الموكب من الباب الخلفي لحديقة يلدز، ووصل إلى لوند، ثم عَبَرَ موقع حرس الأكاديمية الحربية. فُتِحت الأبواب، وظهر أمامنا جنرالان قاما بأداء التحية لرئيس الجمهورية بوقفة كالقلم، وحياهما هو أيضاً بالطريقة نفسها. بعد أن ارتبكت في مكاني من دون أن أعرف ما سأفعله انتقلنا إلى سيارة أخرى لا تحمل هيبة رئاسة الجمهورية. لم أستطع تفسير ما يجري، وسألت: "هل يوجد في الأكاديمية الحربية جامعٌ؟ هل سنصلي صلاة الجمعة هنا؟". قال أوزال: "لا. دخلنا إلى هنا من أجل التملص من زملائك. فهم مجتمعون عند مخفر الحراسة. يوجد هنا مخرج آخر. سنخرج منه، ثم سنعبر الجسر الثاني ونذهب إلى بايكوز لأداء صلاة الجمعة. لقد اخترتُ طريقاً طويلاً من أجل أن نكسب زمناً في الذهاب والإياب ونتكلم براحتنا".

ثم دخل صلب الموضوع مباشرة بسؤاله: "ما الذي كنت تريد أن تقوله؟". قبل أن أنهي جملة: "اتصل طالباني..." ضغط بيده اليسرى على ذراعي اليمنى، وقال: "نتكلم بهذا في ما بعد". وما إن قلت: "لا ضرورة لإطالة الحديث. سيأتي إلى تركيا قريباً للمشاركة في اجتماع مؤتمر الاشتراكية الدولية...". عصر ذراعي بقوة أكبر، وأشار نحو مرافقه الجالس على المقعد الأمامي، وقال من جديد: "نتكلم بهذا في ما بعد". مصراً على عدم السماح لي بالكلام.

كان مرافق رئيس الجمهورية الذي يحمل رتبة مقدم جالساً أمامه. فقد بقي قائد الحرس العقيد ركن أصلان غونِر في الفندق. استغربت؛ إذ إنّ رئيس الجمهورية التركية، رجل الدولة، واللاعب الدولي أثناء حرب الخليج، والمتمكن من إقامة علاقة وثيقة مع الرئيس الأمريكي حيث يخاطب أحدهما الآخر باسمه الأول، و"القائد العام" يخشى من الدخول بحديث يُذكر فيه اسم زعيم كوردي حيث يوجد مرافق برتبة مقدم. كان تورغوت أوزال اسماً قوياً جداً، ولكن وضع العسكر وموقفهم يجعلان حتى رئيس جمهورية مثله لا يستطيع الكلام في موضوع بسيط يتعلق "بالقضية الكوردية".

لم أستطع أن أنقل إليه طلب جلال طالباني ورغبته في لقائه على طريق تشرغان - بايقوظ وبايقوظ - تشرغان الطويل. وعندما اتصلت به لأبلّغه أن طالباني وصل إلى اسطنبول في 9 حزيران وطلب لقاءه، قال: "بما أنه قادم إلى مؤتمر الاشتراكية الدولية فإن السيد إردال (إينونو) مضيفه. ليلتقِ السيد إردال، وبعدئذ نقيّم الوضع". كان إردال إينونو نائب رئيس

الحكومة. وقد رفع رئيس الجمهورية دعوى عليه وعلى رئيس الحكومة سليمان دميريل لأنهما أفشيا للصحافة سر اللقاء السابق لرئيس الجمهورية تورغوت أوزال بطالباني. وقد استخدم دميريل لهجة حادة بوصم أوزال بالخيانة العظمى. ورفع أوزال دعوى إهانة على رئيس الحكومة. يريد أوزال أن يلتقي إينونو طالباني، وبهذه الطريقة سيجرّد الحكومة من سلاحها في مواجهته عندما يلتقيه هو.

وحدث ما حسبه. تناول إردال إينونو الفطور مع جلال طالباني صباح الاثنين في 10 حزيران 1991؛ تاريخ انعقاد مؤتمر الاشتراكية الدولية. وفي ساعات الظهيرة من اليوم نفسه، جاءني تنبيه على جهاز النداء لكي اتصل برئيس الجمهورية. وعندما اتصلت. أبلغني تورغوت أوزال أنه سيستقبل طالباني والوفد الكوردي المرافق له يوم الخميس في القصر الجمهوري.

وهكذا كُسِر أكبر المحرمات في تاريخ الجمهورية. ولم يكن هذا ممكناً من دون وجود رئيس جمهورية كاسر للمحرمات في القصر.

دخل على الخط أحمد قورتجبة ألبتموتشين وزير الخارجية الذي لا يخرج عن كلمة أوزال، واشتهر بوصفه أضعف شخصية بين وزراء خارجية تركيا. أصرّ ألبتموتشين على مقابلة أوزال لكي يعيق استقبال أوزال لطالباني، فأصدر أوزال توجيهاته بأن يرافق ألبتموتشين الوفد، وبهذا أعطي استقبال رئيس الجمهورية التركية لقائد كوردي لأول مرة في التاريخ مكانة أرفع.

استقبال رئيس الجمهورية التركية زعيماً كوردياً في القصر الرئاسي لأول مرة في التاريخ تم يوم الجمعة في 14 حزيران 1991.

سافر جلال طالباني وبرهم صالح وسرجل قزاز من اسطنبول إلى أنقرة عند الساعة 8 من يوم الجمعة في 14 حزيران، ودخلوا المدينة بحراسة خاصة، وأُنزلوا في فندق هيلتون بانتظار لقاء تورغوت أوزال. عند الساعة الواحدة إلا ثلثاً ذهبوا إلى وزير الخارجية أحمد قورتجبة ألبتموتشين، وذهبوا بصحبته إلى القصر الجمهوري.

أنا أيضاً ذهبت صباحاً إلى أنقرة على متن طائرة أخرى، ونزلت في فندق الهيلتون. كان مكتب أنقرة لجريدة الصباح التي عملت فيها خلال تلك الفترة مقابل فندق هيلتون مباشرة. اتصل بي طالباني أثناء وجودي في المكتب، وأصرّ على لقائي قبل ذهابه إلى القصر. التقينا في لوبي الفندق. كان منفعلاً جداً كطفل تقريباً، ويكرر بالعربية بشكل دائم: "يوم تاريخي". لم أحتمل، فقلت: "(مام) جلال، هذه ليست المرة الأولى التي تقابل فيها رئيس دولة أو شخصية تاريخية في حياتك، فقد قابلت ماو وعبد الناصر

وتشي غيفارا وحافظ الأسد ورفسنجاني. وقبل فترة قصيرة جلست في مباحثات مباشرة مع صدام في بغداد. ماذا جرى لك؟ ما هذا الانفعال؟".

قال طالباني باندفاع: "هذا لا يُشبه أي لقاء. لا يمكن لغير الكوردي أن يفهم مغزى لقاء رئيس الجمهورية التركية كوردياً بموقعي!".

سألني عن الطريقة التي ينبغي له اعتمادها أثناء التحدث إلى تورغوت أوزال، فعددت له بعض الأمور التي خطرت ببالي حينئذ: "للسيد تورغوت خصوصيتان مهمتان. إنه لا يحب العبارات الطويلة، فعقله عملي ويعمل بسرعة. ادخل إلى الموضوع من دون لف ودوران بجمل بروتوكولية. تحدّث بأمور مشتركة وواضحة وكأنك تكلّم شريكك في العمل. غير هذا، إنه خارق الذكاء، ولا تنطلي عليه الألاعيب. يكفيك أن تكون صادقاً وصريحاً. إذا فعلت هذا فسيسير اللقاء في مجراه الطبيعي".

عادوا مساء من القصر وكأنهم يطيرون في الهواء. وكأن الثلاثة يطيرون. "فُتِحت صفحة جديدة!".

هذا ما كان على ألسنتهم: "فتحت صفحة جديدة بين تركيا والكورد". قبل كل شيء، بدأوا بإرسال الرسائل إلى شمال العراق. في هذه الأثناء، جاء اتصال من الأمين العام للحزب الوطني التركماني العراقي الدكتور مظفر أرسلان. فقد أراد الدكتور مظفر أن يقيم وليمة احتفالية بهذه المناسبة لجلال طالباني ورفاقه في مطعم يحيى المشهور في غازي عثمان باشا. اتفقنا على اللقاء في المطعم عند الساعة التاسعة.

لحظة قبول دعوة الدكتور مظفر، وصلت إلى طالباني برقية من مسعود برزاني الذي كان يلتقي صدام في بغداد. سُرّ طالباني بشكل خاص من برقية برزاني. كان مسعود برزاني قد أرسل له رسالة قبيل مجيئه إلى تركيا يبلغه فيها بدعم الاتفاق الكوردي في إطار "الجبهة الكوردستانية" لمحادثاته التي سيُجريها مع رئيس الجمهورية التركية. كان طالباني يستطيع أن يقول لبرزاني إنه قام بما يلزم في إطار هذا الدعم.

كان سرور طالباني واضحاً تماماً على العشاء، وكان يروي الطرائف المتتالية التي تسخر من الكورد والعرب - نعم تسخر من الكورد - ويطلق القهقهات.

انحنى ذات مرة نحو الدكتور مظفر، وقال: "أثبتت الجمهورية التركية أبوتها لنا كما في المرحلة العثمانية!".

فقد أبلغه تورغوت أوزال أنه لا يفصل بين كورد العراق وأتراك قبرص وتراكيا الغربية وبلغاريا. كان مضمون هذه الرسالة كافياً لجعل

طالباني يطير فرحاً. لقد طلب طبيباً قبل يوم نتيجة توتره حين تأكد لقاؤه بتورغوت أوزال. بقي طالباني حتى المساء يكرّر بصوت عالٍ ما سيقوله لتورغوت أوزال.

في تلك الأمسية – أي الأمسية التي سبقت مجيئه إلى أنقرة – ذهبنا إلى مطعم سمك يدعى أورجان في صارِير للاحتفال بذكرى ميلاد زوجته هيرو. كان يجلس إلى الطاولة الكبيرة المخصصة لسبعة عشر شخصاً برلمانيان إنكليزيان من لوبي الظل لحزب العمال البريطاني – الداعم الدائم للكورد – أحدهما كلود غالي آن، بالإضافة إلى مجموعة من قادة الاتحاد الوطني الكوردستاني وبينهم قائد بشمركة طالباني كوسرات رسول (صار نائب رئيس إدارة كوردستان العراق عام 2006). قدمت زوجتي طوبا لهيرو بمناسبة ذكرى ميلادها قطعة حلي فضية عثمانية ترمز إلى النقطة التي وصلت إليها العلاقات بين الكورد وتركيا، وقالت لها: "مع أمنياتي بأن يعيش الأتراك والكورد معاً كإخوة كما كانوا في المرحلة العثمانية". شرب الكورد القادمون من أوروبا، والقادمون من العراق الشراب إلى مائدة العشاء التي نزل إليها سمك حبار وأخطبوط وفريدي وطربوت. لم يحتسِ طالباني الشراب. وأثناء ممازحته النُدل أشعل سيجاراً للمتعة، فقلت له: "تدخين السيجار علامة فارقة للزعامة في الشرق الأوسط. من الواضح أنك تعلمت هذه العادة من الفلسطينيين". اعترض طالباني فوراً: "لا، من تشي مباشرة. تشي غيفارا عودني على السيجار عندما التقيته في القاهرة وقضينا زمناً معاً". وركّز نظره لفترة على البوسفور. كنت جالساً مقابله بالضبط، فقلت له: "مام جلال، لقد تركتنا. لست معنا. إلى أين ذهبت؟". أجابني: "أتعرف بماذا كنتُ أفكر؟ لو ولدت شمال مكان مولدي بمائة كيلو لكنت كوردياً من تركيا. لو كنتُ هكذا، ربما حينا لم أكن سأمضي حياتي محارباً في جبال كوردستان وما كنت سأذهب إلى بغداد لحوار دكتاتور مثل صدام، وكنت سأصبح كوردياً عادياً من دون اسم ومنصب، يأتي إلى البوسفور كثيراً لتناول السمك. ترى، أيهما أفضل؟ ما أغرب خط قدر الإنسان! هذا ما كنت أفكر فيه...".

حين عدنا إلى فندق هيلتون بعد عشاء مطعم يحيى على شرف فتح صفحة جديدة في العلاقة بين الكورد وتركيا بعد لقائه تورغوت أوزال في أنقرة مساء اليوم التالي، أي مساء الجمعة في 14 حزيران 1991، وفور نزوله من سيارة الكاديلاك هتف أنصار يلضرم آقبولوط (كان رئيساً للحكومة، ورئيس حزب الوطن الأم) الذين يملأون الفندق بمناسبة المؤتمر العام لحزب الوطن الأم بشعار يمزج بين التركية والكوردية بما معناه

"الحرية للشعب". عانق مندوبو حزب الوطن الأم - وقد كان غالبيتهم من الجنوب وجنوب الشرق - طالباني. ومنهم من مازح طالباني قائلاً: "ترشح عن دائرة ديار بكر". ضحك طالباني، وقال: "لا". وأشار إلى الدكتور مظفر الذي كان بجانبه: "نرشح نفسينا - الدكتور وأنا - عن دائرة كركوك".

بعد زيارة جلال طالباني لرئيس الجمهورية التركية تورغوت أوزال تلك بخمس عشرة سنة تقريباً، أصبح أول رئيس منتخب للعراق - أي لبلاد الرافدين التي يعود تاريخها إلى 5000 سنة - وعيّن الدكتور مظفر أرسلان مستشاراً مسؤولاً عن شؤون التركمان.

بالتأكيد، لم يكن يخطر ببالنا شيء كهذا؛ بمن فينا طالباني والدكتور مظفر أرسلان مساء 14 حزيران 1991 عند ولوجنا باب فندق هيلتون. يجوب طالباني الآن شوارع تركيا وخلفه جيش من الصحفيين، ويقابل بالتصفيق بعد زيارته السرية التي انفجرت كالقنبلة قبل ثلاثة أشهر.

á á á

شهدت فترة الأشهر الثلاثة ما بين زيارة طالباني الأولى السرية إلى أنقرة في 9-10 آذار، والثانية إلى اسطنبول في 9 حزيران تطورات غير عادية ستترك آثارها وستظهر نتائجها بعد سنوات طويلة. عندما أتى طالباني سراً إلى أنقرة كان التمرد الشيعي قد اندلع في البصرة جنوباً، وانتشر إلى المراكز الشيعية جنوب بغداد كلها وعلى رأسها النجف وكربلاء والناصرية. بعدها، اندلعت الانتفاضة الكوردية، وسقطت مدن الشمال كلها بما فيها كركوك بيد الكورد. قَمَعَ صدام الانتفاضتين بعنف شديد على مرأى من القوات الأمريكية. وحدثت كارثة لجوء كبرى. مليون كوردي في ظروف الشتاء القاسية لجأوا إلى إيران وتركيا بشكل خاص هرباً من المجزرة الكبرى التي ارتكبها صدام في الحملة التي سُميت الأنفال. دخلت مَشاهد نصف مليون لاجئ إلى كل بيت عبر محطة CNN .

إلى جانب هذا، احتضنت تركيا مئات آلاف الكورد الذين دخلوا إلى منطقتها الكوردية، لذلك لم يعد بإمكانها العيش مع صدام حسين كجار. أبلغ تورغوت أوزال الأمريكيين بأن تركيا ستدخل شمال العراق من أجل إعادة الكورد إلى بيوتهم إذا لم يجدوا حلاً للقضية. وطرح رئيس الحكومة البريطانية اقتراح "منطقة آمنة". إثر هذا، تحرك الأمريكان، وأصدر مجلس الأمن قرارَ حظر طيران على نظام صدام شمالي خط العرض 36. وتموضعت قوات التحالف الدولي في شمال العراق ضمن مثلث زاخو - دهوك - عمادية، وبدأت الطائرات التي تقلع من إنجيرليك في تركيا بمراقبة أجواء

شمال العراق؛ حيث بدأ اللاجئون الكورد وقسم من التركمان بالعودة إلى بيوتهم تدريجياً.

تشكلت ظاهرة غريبة نتيجة تراخي هيمنة صدام على شمال العراق وتطبيق ما سمي " Comfort Provide Operation ". فقد استمر وجود قوات صدام في أكبر مدينتين كورديتين السليمانية وأربيل، أما الموصل التي تسكنها غالبية عربية سنّية فقد كانت ضمن منطقة الحظر الجوي لأنها شمال خط العرض 36. بقيت هذه الظاهرة الغريبة حتى موعد سحب صدام لقواته عام 1991 من أجل التضييق على الكورد اقتصادياً. في ذلك التاريخ، سيطر الكورد على أربيل والسليمانية وأخرجوهما تماماً من تحت حكم صدام.

شهد نيسان من عام 1991 هذه التطورات المدهشة، وبدا وضع الكورد ميؤوساً منه. اقترب ملايين الناس من خط الجوع، ووصلت المشكلة الأمنية إلى الذروة. كما وصلت مشاهد عناق جلال طالباني مع صدام إلى تلفزيونات العالم عبر تلفزيون بغداد في نهاية شهر نيسان.

صُدم الجميع لدى مشاهدتهم الزعيم الكوردي وهو يعانق صدام الذي لم يجف دم الكورد عن يديه، وذلك بعد أن كان قبل عدة أسابيع يلقي خطابات من المدن المحررة قائلاً إنه سيزحف إلى بغداد ويطرد صدام.

جن جنون تورغوت أوزال. وفي منتصف ليل 20 نيسان استطاع أن يعرف أنني أقيم في بيت صديق لا يعرفه أحد في قبرص أثناء قضاء عطلة العيد عنده. كان صراخه يعلو من سماعة الهاتف: "ما الذي يفعله هذا؟!". بدا طالباني الذي جاء إلى تركيا قبل شهر من دون أن يقابل تورغوت أوزال وكأنه يفجّر العلاقات بين الكورد وتركيا في مرحلة انتعاش هذه العلاقات. قلت له: "سأستفسر عن الأمر". واتصلتُ بصديقي كاميران قرة داغي الكوردي العراقي الذي يعمل في جريدة الحياة العربية اللندنية خبيراً في الشؤون الكوردية من أجل الحصول على معلومات. هو أيضاً لم يكن لديه المزيد من المعلومات. قال إنه سيوصل لي معلومات أكثر تفصيلاً في الغد. عدت إلى العاصمة أنقرة على عجل. كانت الخطوط الجوية التركية مضربة، لذا قدتُ سيارتي إلى أنقرة. وصلت إلى القصر الجمهوري في 22 نيسان. أبلغني كاميران بأن الكورد اضطروا إلى إجراء لقاء مع بغداد نتيجة الوضع الصعب الذي يعانون منه. ولكن، حسبما عرف وشرح لي، إن جلال طالباني ينهج تكتيك "تمرير الوقت"، وهو يريد المحافظة على آفاق العلاقات مع تركيا. نقلت المعلومات التي تلقيتها إلى تورغوت أوزال.

لقد حدث ما لم نكن نتوقعه قطّ، فقد بدأ كورد العراق بالتفاوض مع صدام.

عندما التقينا طالباني في غرفة قايا توبر في فندق مرمرة في اسطنبول بتاريخ 9 حزيران 1991 حيث كان يتمرن على لقاء تورغوت أوزال، فتح موضوع المباحثات مع صدام. في تلك الأثناء، كان دور اللقاء على مسعود برزاني، وكان برزاني في بغداد.

ذكّر طالباني أن صدام أخذ 182 ألفَ أسير كوردي عام 1988، وشرح الظروف الحياتية غير المحتملة في كوردستان العراق، وأكّد أنه لم يحد عن الهدف الأساسي، وقال: "لا يمكن أن تكون هناك ديمقراطية مع صدام". وتابع قائلاً: "نحن لسنا حركة انفصالية. نلتقي مع أي حكومة من أجل حكم ذاتي. نحن قابلنا صدام الآن من أجل نظام تعددي حزبي. حين ذهبتُ إلى بغداد وافقوا على كل ما قلته. طلبوا منا تقديم مشروع دستور ومقترح جديد من أجل منطقة الحكم الذاتي. بعدئذ قالوا: لا يمكن أن نقبل بدخول كركوك في منطقة الحكم الذاتي لأن هذا يعني الاستقلال.

استبعدوا دخول خط سنجان – خانقين – مندلي [4] ؛ منطقة الحكم الذاتي أيضاً بسبب المخاوف الأمنية. إنهم يطلبون منا بالسر أموراً خطيرة. يطالبنا صدام بالتعاون ضد إيران التي يصفها بالعدو الأزلي، وضد تركيا التي يصفها بالعدو التاريخي، وضد سورية التي يصفها بالعدو الإقليمي. وهو يدعم حزب العمال الكوردستاني منذ سنتين. أبو زياد (طارق عزيز) سيأتي غداً إلى أنقرة، وسيطالب بتعاون ضد الكورد. إنهم يستخدموننا نحن الكورد كورقة لعب. ولكننا لا نريد التدخل بشؤون جيراننا الداخلية. وقد قلت لطارق عزيز في بغداد: أعطني ديمقراطية كالتي في تركيا لأتخلى عن مطلبي بالحكم الذاتي...".

كان طالباني يقفز من غصن إلى غصن: "حكيت لخيري قوظاقتشي (والي منطقة الطوارئ في ديار بكر) عن حزب العمال الكوردستاني. قلت لآبو في آخر لقاء لنا في دمشق: لو كنتُ مكانك لدخلت بحوار مع تركيا، وأوقفت الصراع المسلح. احتج على لقائنا صدام. ولكنني قلت له خذ درساً من تجربتنا. عندما اعترف تورغوت أوزال بوجود الكورد لفظاً، انقسم حزب العمال الكوردستاني، وخرج أربعة أعضاء من المكتب السياسي مع مئات العناصر وانفصلوا عن الحزب. يبدو أن ما قلته قد دخل عقل (آبو) ولكنه ليس موضع ثقة، وسيغير رأيه في ما بعد. تطور الوضع مع حزب العمال الكوردستاني مرتبط بكم إلى حد ما. يجب أن تفعّل مرحلة التحول

الديمقراطي".

ومن ثم انتقل إلى حوار بغداد بعد تقديمه هذه المعلومات، وقال إنه فتح موضوع التركمان أمام وزير الخارجية طارق عزيز ونائب رئيس مجلس قيادة الثورة عزت إبراهيم. "طرحنا قضية الأقليات القومية. وسأل طارق عزيز: من؟ قلنا: التركمان والآشوريون، فاعترض طارق عزيز: مستحيل. يوجد في العراق عرب وكورد. الآشوريون عرب؛ عرب مسيحيون. أما التركمان فهم ضيوف. يمكنهم أن يذهبوا إلى تركيا".

قال طالباني إنه لا يأمل أن تُسفر مباحثات بغداد عن اتفاق، وتابع شارحاً الظروف التي أجبرته على دخول المباحثات مع بغداد:

"لدينا مشاكل في كوردستان. فنحن ليس لدينا أصدقاء حقيقيون. انتظرتُ سبعة أيام في دمشق وثلاثة أيام في القامشلي من أجل الدخول إلى كوردستان؛ من أجل زورق أعبر فيه إلى الضفة الأخرى من دجلة! نطلب دواءً من إيران وننتظر سنة، وعندما يصل يكون سيئاً. لا يوجد سلاح وذخيرة. خُربت كل الأمكنة. المواد الغذائية غير متوفرة، وأسعارها في ارتفاع جنوني. إيران تمنع وصول المواد الغذائية. المنفذ الوحيد هو تركيا.

هذه هي متاعب برزاني أيضاً. فهو لا يثق بالإيرانيين أيضاً. وهو يخشى أن يسقطوا صدام ويضعوا مكانه نظاماً شيعياً. من جهة أخرى، إذا رفض لقاء بغداد، فيمكن للنظام أن يشن علينا حرباً لا تُعرف نتيجتها. أما سورية فتريد استبدال النظام بآخر موالٍ لها. ليس لنا أمل أو مخرج. لقد فكّرنا بالتفاهم مع صدام بسبب حرماننا من الدعم الدولي. لا يرغب الكورد بأن يكون بديل نظام صدام نظاماً يعمل لمحور إيران - دمشق. ثمة طريقان أمام العراق. الأول ديكتاتوري؛ وهذا يعني نبذ الكورد. والثاني ديمقراطي تعددي. يمكن أن يكون المخاض مؤلماً، ولكن ليس ثمة طريق آخر".

أنهى طالباني عرضه بعبارة: "إذا دعمتمونا، فسيكون توجهنا بالتوازي معكم". إثر هذا، قال له قايا توبر: "كان يجب أن تخبرونا قبل لقائكم صدام، وأن تتواصلوا معنا". رد عليه جلال طالباني: "عدم المؤاخذة، هذا ممكن في حال وجود مركز تماس دائم هنا". ثم تابع قائلاً: "نريد نصحكم. يقدم وزيرا الخارجية الأمريكي والإنكليزي لنا النصح بشكل دائم، فلماذا لا نحظى بنصحكم؟ أنتم إخوتنا وجيراننا".

أعيد هذا الطرح في القصر، مما أدى إلى التمهيد لفتح مكتبين دائمين للحزب الديمقراطي الكوردستاني، والاتحاد الوطني الكوردستاني العراقيين في

أنقرة.

استمر اللقاء بتقديم طالباني معلومات حول أجهزة الرادار واللاسلكي التي حصلوا عليها من النظام، وبعرض قايا توبر المخاطر التي يغامر بها تورغوت أوزال بسبب اللقاء. كما تخللت اللقاء الطرائف التي يزين بها طالباني الجلسة على عادته، واستمرت الجلسة إلى ما بعد منتصف الليل.

كانت ثمة رسالة يريد جلال طالباني أن يوصلها إلى رئيس الجمهورية: "تبنوا حلاً يتضمن حقوق شعوب شمال العراق، وليكن في بغداد صدام أو غيره".

قصده من قول "شعوب شمال العراق" هو التركمان والكورد. كما عرّج من جديد على الخلاف حول التركمان أثناء عرضه المباحثات التي جرت بينه وبين المسؤولين العراقيين، وعرّف كركوك بأنها "مدينة كوردية يسكنها التركمان والكورد".

تجاوز عملية تقديم الرسالة في القصر الجمهوري، وعدد مقترحاته لرئيس الجمهورية، والتي تنص على "تعاون كامل في أي آلية تؤسس مستقبلاً. يجب أن يشمل التعاون الكامل المجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية والتجارية. وفي هذه الأثناء، يجب أن يُفتح ممر إنساني للمساعدات القادمة من الدول الغربية. إلى جانب هذا، يجب أن يُقدم تدريب عسكري على استخدام الأسلحة. نحن بحاجة لعسكريين مدربين جيداً. ويجب أن يحظى التركمان بقوة عسكرية أيضاً، وأن يتخذوا مكاناً يتمتعون فيه بحق النقض في الهيئة التي ستحدد مستقبل العراق".

وقال إنه قدّم هذه المقترحات ليعود إلى بلده حاملاً بعض الأمور المادية. ونبّه إلى أنه في النهاية يمكن أن يوقّع اتفاقية مع صدام من خلال المفاوضات التي يخوضها بالتناوب مع حليفه مسعود برزاني في حال عودته من دون الحصول على أمور ملموسة. نقل قول برزاني: "إذا فتحت لنا تركيا ممراً فلن نذهب إلى بغداد". وحدد الممر: "زاخو – خابور – اسكندرون".

انتهت الحرب، وإذا كانت قوة صدام قد قُلِّمت كثيراً فقد بقي محافظاً على سلطته في بغداد، أما الكورد فيعيشون ظروفاً اقتصادية في غاية الصعوبة. وقد اقترح برهم صالح تشكيل "هيئة عمل" من أجل تنفيذ هذه الأمور.

قبيل خروجه من الغرفة، قال طالباني: "سأقدّم تحذيراً أخوياً. إذا عدت خاوي الوفاض، يمكن لمسعود برزاني أن يوقع اتفاقية مع صدام".

شعر بأن هذه الورقة أكثر ما يمكن أن يحرّض تورغوت أوزال.

بعد مغادرة طالباني وبرهم صالح وسرجل قزاز الغرفة بقيتُ مع قايا توبر على انفراد. قال أخي الأكبر قايا (هكذا كنت أخاطبه): "برأيي، هذا لقاء تاريخي. ألم يكن كذلك برأيك؟ فكر بما بحثناه. علينا أن نخبر رئيس الجمهورية". والتقط الهاتف. كان الوقت بعد منتصف الليل بكثير". قلت: "أخي الكبير، هل الاتصال به في هذه الساعة مناسب؟". رد عليّ: "هذا لقاء مهم جداً. دعك من الوقت. ينبغي أن نبلغه". ولكن تورغوت أوزال الذي يكون مستيقظاً عادة في مثل هذه الساعة كان قد خلد للنوم.

أخبرت قايا توبر مرة أخرى بأن وثيقة الأمم المتحدة التي تحدث عنها طالباني موجودة لدى السيد تورغوت، وهو على علم بمضمونها.

بما أن تورغوت أوزال على علم بتقرير هيئة الأمم لعام 1925، وكان يعتقد أن صدام سينهار، والعراق سيتفكّك إثر حرب الخليج، فهل كان يخطط للمطالبة بحقوق تركيا على ولاية الموصل؟

يختلف ما شرحه لي أوزال في لقائنا الأول تماماً عما هو شائع حول قضية الموصل. لم يكن لرئيس الجمهورية أدنى حساب توسعي. وكان على قناعة تامة بأن البترول بلية على عكس ما يُعتقد. قال لي معبراً عن رؤيته: "انظر، كل الدول المنتجة للبترول لديها مشاكل كثيرة، أما الدول المستهلكة له فهي غنية. لا ضرورة لامتلاك البترول من أجل النهضة والتطور. يمكن أن يكون الأفضل عدم امتلاكه. لا يمكن أن يكون بترول كركوك قضيتنا. المشكلة ليست هنا".

(خلال حديث لنا في القصر الرئاسي الصيفي في أوقلوق قويو عام 1992 قال: "توسيع الأرض ليس فكرتي؛ فإذا وسّعتَ الأرض كبرت مشاكلك. ولم يعد البترول مهماً إلى تلك الدرجة". وقد دونت حديثه حرفياً على دفتر ملاحظاتي).

كان تورغوت أوزال يتوقع أن صدام لن يتمكن من الثبات في نهاية الحرب. كانت لديه رؤية تفصيلية حول مستقبل العراق تتجاوز هذا التوقع. قال: "العراق دولة تأسست حول مركز قوي جداً. ويحكم البلد نظام مركزي أقلوي دكتاتوري قوي. هذه الحرب ستخرب ما يدعى العراق والمركزية التي تشكلت في بغداد. ونتيجة لهذا، سيظهر عراق جديد. يمكن للعراق الجديد أن يتخذ أحد شكلين:

1. لا يمكن أن يكون نظام العراق الجديد قوياً ومركزه بغداد. ستشكلُ الأجزاء المكونة للعراق مركزاً جديداً. وهذا ما سيقوي الشيعة

والكورد في المركز. وإذا حافظ العراق على وحدة أراضيه فستكون البنية الجديدة ضعيفة مقارنة بالسابقة، ومن المحتمل أن تُشكّل فيدرالية حول مركز بغداد الضعيف. للعراق أولوية باهتماماتنا - في تركيا - من الناحية الأمنية. يجب أن نكون حاضرين في عملية إعادة بناء العراق، وجالسين إلى طاولة تشكيل العراق. لهذا السبب، يجب أن نلعب دوراً فعالاً في التحالف الدولي؛ لأن الشيعة والكورد سيكونون في المركز الجديد، وبما أن الشيعة سيكونون حاملي النفوذ الإيراني بشكل طبيعي، فعلينا أن نأخذ دوراً ليكون لنا تأثير في الورقة الكوردية.

2. يجب أن نطرح قضية حقوقنا التاريخية في الموصل إذا لم يكن هناك مفرّ من تقسيم العراق وتفكّكه في نهاية الحرب. السياسة كالفيزياء؛ لا تسمح بالفراغ. لا بد من ملئه. لا بد لقوة معادية أو منافسة أن تملأ فراغ شمال العراق الذي من المحتمل أن ينجم عن تفكك العراق إذا لم نملأه نحن. لهذا السبب، يجب أن تكون لنا كلمة للحيلولة دون هذا، أو على الأقل ردع هذا".

كان رئيس الجمهورية يتوقع الخيار الأول، ولكنه يرى ضرورة اتخاذنا الاحتياطات من أجل الخيار الثاني.

أضاف تورغوت أوزال على رؤيته هذه أنه في حال عدم ملء تركيا الفراغ الذي سينجم في الجغرافية السياسية العراقية، فستملأه إيران.

لهذه الأسباب مجتمعة، كان يثق بأنه من الضروري أن تقيم تركيا علاقات مع الكورد العراقيين. من هنا فهمت سبب دعوته لي إلى القصر الرئاسي على عجل إثر معرفته أنني أخطط للقاء الزعماء الكورد العراقيين.

استمعت لتورغوت أوزال بانتباه شديد، وحرصتُ على عدم تفويت أي كلمة مما قاله. أعتقد أنه لم يفتح ثنايا عقله بسخاء إلى هذه الدرجة في قضية العراق وتركيا من قبل. ولم أقرأ في أي مكان، ولم أسمع من أحد أنه قال هذا.

انطلاقاً من رؤى تورغوت أوزال القريبة من الجزم، كان مصمماً على تأسيس علاقات مع الزعماء الكورد العراقيين، وعلى البدء بسياسة التقارب معهم. وطبيعة هذه الخطوة تتناقض مع مبادئ تأسيس الجمهورية. تأسست تركيا مع إعلان الجمهورية باعتبارها "دولة الأمة التركية". وفي هذه الحالة ليس ثمة مكان للكورد في "دولة الأمة التركية". كان الكورد هدفاً للتذويب القومي، وأُنكر وجودهم في الجمهورية التركية منذ عشرينيات القرن الماضي. ستكسر العلاقات مع كورد العراق - وخاصة أنها ستؤسس على مستوى

القصر الرئاسي – واحدة من أهم محرمات الجمهورية التركية. ولكن، كيف سيتمكن تورغوت أوزال من فعل هذا؟

بعد أن شرح تورغوت أوزال السيناريوين حول مستقبل العراق عبَّر عن ضيقه على النحو التالي: "أريد أن أخطو هذه الخطوة، ولكنْ كيف أستطيع شرحها للداخل التركي؟ هذه هي المشكلة".

أعتقدُ أن ما يشبه سد الصين ينتصب بين القضية الكوردية في تركيا، ووضع الشعب الذي على الطرف الآخر من الحدود ويُدعى "كورد العراق". أعرف أن الحدود بين تركيا والعراق ليست حدوداً فاصلة بين العرب والكورد، بل حدوداً تفصل بين الكورد أنفسهم. لذلك، إنّ أي تقارب مع كورد العراق سيؤثر بشكل طبيعي ومباشر على كورد تركيا. كنتُ مدركاً لهذه الحقيقة أيضاً. بقي القول إن الدولة التي تنكر وجود الكورد منذ عشرات السنين، تتهرب أيضاً من تسمية كورد العراق كورداً. كان اسمهم "بشمركة" مع تحميل الاسم شيئاً من التحقير. مع أن "بشمركة" تعني "فدائي"، وتحمل احتراماً كبيراً لدى الكورد؛ لأنهم خاضوا نضالاً مسلحاً طويلاً ضد نظام بغداد. ولكن صور اللاجئين الكورد بألبستهم التقليدية بعد مجزرة حلبجة عام 1988، وتقديمهم على أنهم "بشمركة" لعبت معاً دوراً وظيفياً لتثبيت نظرة استعلائية تجاههم، واعتبار كورد العراق كلهم على هذا النحو. وبما أنه ليس لدينا في تركيا "بشمركة"، باتت هذه التسمية تطلق على كورد العراق لتسهيل عدم استخدام كلمة كوردي في تركيا.

لحظة تعبير تورغوت أوزال عن همه في هذه النقطة، تواردت المعلومات والملاحظات التي أحفظها في ذاكرتي بسرعة الضوء، وبجرأة استمددتها من صراحة رئيس الجمهورية وصدقه طرحت عليه سؤالاً بسيطاً من الناحية اللغوية، ومعقداً جداً من ناحية المضمون: "إذا وجدنا جواباً عن هذا السؤال، يمكن حل القضية وتبديد الهم الذي نعاني منه: هل يوجد في تركيا كورد أم لا؟".

رد عليّ أوزال بشكل آني: "ماذا تعني بتساؤلك: هل يوجد؟ طبعاً يوجد كورد".

ألححت: "الجميع يعرفون هذا. ليس هذا هو السؤال. هل ستعترف الدولة بوجود الكورد في تركيا أم لا؟ إذا كانت ستعترف بوجودهم يمكن عندها تجاوز المشكلة المذكورة بسهولة".

ارتسم على وجه أوزال تعبير طفولي، وسأل: "كيف؟".

"لأشرح لك كيف":

إذا قبلنا بأن قسماً من مواطنينا في تركيا من الكورد، فسنضطر للقبول بأن كورد العراق ومواطنينا الكورد من أصل واحد. مع العلم أن الحدود العراقية – التركية لم تكن موجودة قبل سبعين عاماً. فالكورد على جانبي الحدود اليوم كانوا مواطنين في الدولة نفسها في ما مضى. كان كورد العراق قبل سبعين سنة مواطنينا. لماذا نهتم بأتراك تراكيا الغربية وبلغاريا؟ إنهم مواطنو اليونان وبلغاريا، وليس لدينا مطلب أرض من تينك الدولتين. ولكننا نهتم بالأتراك هناك، ونعتبر رفاهيتهم قضيتنا. في مطلع القرن، كان أجداد الكثيرين منا يعيشون هناك، ويحملون الهوية العثمانية. وعلى الرغم من أن الحدود تفصلنا الآن عن الذين يعيشون هناك، فهم مواطنونا، وننتمي معهم إلى جذر واحد. لذلك، بالتأكيد سنهتمُّ بهم. لماذا نهتم بأتراك قبرص؟ أليس بسبب انتمائنا إلى جذر واحد؟ إذا قبلنا بأن الكورد مواطنونا فعلينا أن نقبل بأنهم لا يختلفون كثيراً عن أتراك تراكيا الغربية وبلغاريا وقبرص".

كان تورغوت أوزال مصغياً بانتباه، وقال: "أعد ما قلته ثانية!". وأثناء إعادتي، قاطعني وسط الشرح قائلاً: "حسنٌ". وبحركة يد حاسمة أضاف: "يمكنني أن أستخدم هذا".

وحقيقة، أثناء متابعتي عبر التلفزيون لكلمة ألقاها رئيس الجمهورية في ديار بكر سمعته يقول عن كورد العراق: "إنهم ينتمون إلى أصل واحد مع مواطنينا، ولذلك سنهتم بهم". إضافة إلى استخدامه هذه العبارة بكثرة فقد تبنى حق إبداعها. بعد حديثنا ذاك بعدة أشهر، وفي معرض شكواه من الذين ينتقدون سياسته قال: "إنهم لا يفهمون، كورد العراق ينتمون إلى أصل واحد مع مواطنينا. وإذا لم نهتم نحن بهم، فمن سيهتم؟". تدخّلت قائلاً: "سيدي، أنا قلت لكم هذا". قاطعني بطريقة سلطوية: "اسمعني الآن. أنا أشرح لك شيئاً".

فهمت فوراً ما أراد شرحه. لقد تبنى حقوق ملكية مقولة: "ينتمون إلى أصل واحد مع مواطنينا". وينبغي أن أنسى أنني قلت له هذا. كان هو رئيس جمهورية، وعندما يقول العبارة فإنها تكتسب حياة. أمّا إذا انطلقت في الشوارع وصرخت: "كورد العراق ينتمون إلى أصل واحد مع مواطنينا". فما النتيجة التي يمكن الحصول عليها؟

كان محقاً.

لم ألح على تبني حق ملكية المقولة المذكورة.

وقعت بيننا مشكلة "ملكية فكرية" في تاريخ لاحق، وتبنى ملكيتها

أيضاً.

إذا كانت سلطة تورغوت أوزال قد تقلصت مع صعوده إلى القصر الرئاسي، فقد استمرت بصفتها السلطة الأقوى حتى انتخابات 6 تشرين الأول 1991. إذ لم يسقط حزبه حزب الوطن الأم ويتحول إلى المعارضة فحسب، بل شكل الحكومة عدوه السياسي الألد سليمان دميريل بائتلاف مع إردال إينونو، وجلس على مقعد رئاسة الوزراء. وهنا بدأت أيام أوزال الصعبة. بعد ستة أيام من الانتخابات – يوم السبت في 12 تشرين الأول – طلبني إلى القصر. لم تكن الدعوة إلى مكتبه، بل إلى الطابق الأعلى في مكان إقامته. كانت زوجته سمرا أوزال قد ذهبت إلى اسطنبول. ولم يكن في يوم الجمعة ذلك في مقر إقامته سوانا. استقبلني وهو يرتدي تي شيرت، واقترح علي متابعة مباراة عبر التلفزيون. كانت تُعرض مباراة بين فنار بهتشة وطرابظون. (ربح فنار بهتشة المباراة 4-1) كنا نتابع المباراة على التلفزيون ونتبادل حديث الرياضة الموشى بشائعات السياسة.

في فترة ما بين الشوطين، وجّه إليّ سؤالاً أبعد ما يمكن عن المناسبة: "كيف ستُحل هذه القضية برأيك؟".

سألته بشكل طبيعي: "أي قضية؟".

- القضية الكوردية.

هل سنجد حلاً للقضية الكوردية؛ وهي أهم قضايا تركيا التي لم تُحل منذ عقود في استراحة ما بين شوطين لمباراة كرة قدم مدتها ربع ساعة؟

كان رئيس الجمهورية يعيش أياماً صعبة "بسبب دور رئيس الحكومة سليمان دميريل"، ولم يكن وضعه يحتمل المزاح.

بعد توقف قصير، قلت: "لا فائدة من قول ما أفكر فيه".

- وما السبب؟

- لأن التوازنات في تركيا لا تسمح بتنفيذ ما يخطر ببالي. العسكر وغيرهم كما تعلمون.

- ما الذي تفكر فيه؟

- مثلاً، أن تبث إحدى قنوات " TRT " (التلفزيون التركي الرسمي) عدة ساعات في اليوم باللغة الكوردية، وأن تُذاع بعض الأغاني الكوردية. وفي وقت الأخبار، يقرأ المذيع الأخبار بالكوردية كما يقرأها أيطاتش قاردوز (أحد المذيعين المشاهير في تلك الفترة)، ما الذي سيحدث حينها؟ سيقول مواطنو هذا البلد الكورد: "دولتنا تعترف بوجودنا وبهويتنا وتحترمنا؛ ولذلك تبث من تلفزيونها الرسمي في ساعات محددة من كل يوم بلغتنا الأم. هذا لن يحل

مشكلة حزب العمال الكوردستاني بالتأكيد. فلا يمكن أن يتوقف الإرهاب فوراً لمجرد بدء التلفزيون البث باللغة الكوردية، ولن يزول حزب العمال الكوردستاني. ولكن، يمكن أن يخف قليلاً ولاء الكورد وتمسكهم بهذا الحزب. ويمكن أن تنخفض درجة حرارة القضية...".

قاطعني تورغوت أوزال قائلاً: "انظر، لا تقل أو تكتب حتى تلميحاً ما قلته لي الآن. انسَ ما قلته هذا".

دُهشت هذه المرّة، وطرحت عليه ذلك السؤال البسيط: "لماذا؟".

قال: "بسبب ما قلته قبل قليل. التوازنات السياسية الداخلية. العسكر وغيرهم...".

في هذه الأثناء، بدأت المباراة وتعلقت عيوننا بالتلفزيون، ولم نفتح الموضوع ثانية.

بعد ستة أشهر، كان تورغوت أوزال سيسافر إلى أمريكا بسبب إصابته بسرطان البروستات في نيسان 1992. وقبل أن يركب الطائرة قال: "ماذا سيحدث لو بثت إحدى القنوات، مثل GAP عدة ساعات بالكوردية؟". وحدث الزلزال؛ كأنه سحب صاعق قنبلة وألقاها على الأحداث التركية الراهنة، ثم ركب الطائرة وانطلق إلى أمريكا.

كل من مُد له الميكروفون اعتبر أن هذا التصريح سيقسّم البلد، وكال الاتهامات لرئيس الجمهورية. وبلغت الجرأة بالبعض إلى حدّ التشكيك بقوى رئيس الجمهورية العقلية. وانضم رئيس حزبه مسعود يلماظ الذي كان في المعارضة إلى قافلة منتقدي أوزال.

أثّر تصريحه على جدول أعمال تركيا بطريقة جعلت بعض الصحفيين – وأنا منهم – بعد عدة أيام يلحقون به إلى نيويورك. قبل أن يبدأ اتصالاته السياسية ويدخل إلى مستشفى هيوستن من أجل العملية كنت معه نتحدث حول ردود الفعل التي أحدثها تصريحه وكيف سيرد.

حين وصلنا إلى نيويورك، نزلتُ مع المرحوم الدكتور يالتشن أوزر مدير مكتب جريدة تركيا في أنقرة، ورئيس تحرير جريدة زمان فهمي قورو في فندق بلازا الذي يقيم فيه رئيس الجمهورية، ثم بدأنا نبحث عنه. وجدناه في حفل الاستقبال الذي أقامه البيت التركي على شرفه، ويقع هذا البيت مقابل بناء الأمم المتحدة. علّق عليّ ممازحاً حين رآني: "من أين خرجت؟". قلت له: "ألقيتم قنبلة لحظة مغادرتكم تركيا، وجئتم إلى هنا. تزلزلت تركيا. يجب أن نتكلم". طلب مني أن أصطحب سامي كوهين عميد الصحافة للشؤون الخارجية والذي كان من بين المدعوين وأذهب إلى غرفته في

الفندق.

كان لقاء مسلياً. يالتشن أوزر يحب تورغوت أوزال كثيراً، وتورغوت أوزال يحبه. كان الدكتور يالتشن ممثلاً لجريدة مؤيدة لأوزال، ولكنها تخاطب جمهوراً قومياً. وكان يريد أن يحمي أوزال ويراعي حساسية قراء جريدته في آن واحد. بدأ حديثه: "سيادة رئيس الجمهورية، لدينا أصدقاء من أصول كوردية يحبونكم جداً. ولقد انزعجوا إثر تصريحكم ذاك. يقولون: نحن نسينا كورديتنا. ماذا نفعل الآن بعد تصريح رئيس جمهوريتنا؟ كيف ينبغي أن نجيبهم؟".

رد أوزال: "يالتشن، هل أنت جدي بسؤالك؟ قل لأصدقائك إنّ هناك ما يدعى جهاز تحكم بالتلفزيون عن بعد. إذا أرادوا ألا يتذكروا كورديتهم فليضغطوا على جهاز التحكم قافزين عن القناة، أو فليغلقوا التلفزيون عندما يصادفون القناة الكوردية. نحن لم نقل إننا سنعاقب من لا يتابع القناة الكوردية. إذا كانت هذه هي المشكلة، فالحل بسيط".

يبدو أن لدى أوزال موهبة خاصة بتبسيط أكثر الأمور تعقيداً، والإقناع بالإجابة.

اصطففنا نحن الأربعة مقابله في غرفة الفندق. بعد أن أجاب أوزال عن سؤال يالتشن أوزر، وهاجمني بنبرة مؤنبة ولكنها تحمل نبرة السخرية بوضوح: "لماذا تنظر إليّ هكذا؟! أنا أعرف ما تفكر فيه". عندما رددت عليه قائلاً: "أنا لم يخرج عن لساني أي شيء يا سيدي!". قال: "أنا أعرف ما تُفكّر فيه". وابتسم.

عند خروجنا من الغرفة أمسك بذراعي، ومال نحو أذني، وقال: "تذكر أنك عندما فتحت لي هذا الموضوع قلت لك: لا تقل أو تكتب حتى تلميحاً ما قلته لي الآن. كان ذاك من أجل حمايتك. لأنهم سيسببون لك المشاكل. أنا رئيس جمهورية، ولن يحدث شيء إذا تكلمت أنا. ولكن، لو تكلمت أنت لحدث. غير هذا، من المهم معرفة ما تقوله وأين تقوله. التوقيت مهم جداً".

في الحقيقة، أنا طرحتُ فكرة البث التلفزيوني باللغة الكوردية إثر سؤاله في تشرين الأول عام 1991، ولكن ملكيته الحصرية لهذه الفكرة جاءت نتيجة تصريحه في نيسان 1992؛ وليس لأنه يحمل صفة رئيس الجمهورية. كانت فكرة أوزال حول ضرورة البث التلفزيوني باللغة الكوردية تتعلق بأفكاره الأعمق.

شرح لي هذا في صيف عام 1992 أثناء لقائنا في مصيف أوقلوق

قويو قرب مرمريس. كان مقتنعاً بأن حزب الوطن الأم الذي أسسه واختار اسمه وشعاره بنفسه قد انحرف عن هدفه على يد مسعود يلماظ، ويشعر بضيق شديد من هذا الأمر. وتقلقه جدياً كيفية تناول مسعود يلماظ للقضية الكوردية. سجّلت على دفتر ملاحظاتي الجزء المذكور من هذا الحديث بالكلمة، وهو على النحو التالي:

"فكرة الوطن الأم تقوم على تبني إنسان جنوب شرق الأناضول. يجب عدم الخلط بين هؤلاء والإرهاب. يمكن أن تجد من يعمل على الانفصال من دون إرهاب. التيار القومي ينمو، وهذا يفرض وسطاً يدور فيه النقاش بشكل حر. إذا كانت هناك أفكار سامة في تلفزيون " GAP " فيجب أن تناقش بصراحة. أنا لم أقل لتناقش الفيدرالية؛ فأنا أعارض الفيدرالية. إذا طبقت الفيدرالية فلن يذهب إلى جنوب شرق الأناضول أي من الاستثمارات التي ذهبت إلى هناك. لقد غادر الناس إيديل وسكنوا في بورصة. كما أنّ هناك قادمين من قارص ووان ومردين إلى أنطاليا ومرمريس. وعندما أسألهم: هل ستعودون؟ يقولون: لا، المكان هنا جميل. ولكن، هل ستتطبق الفيدرالية غداً؟ سيكون هناك تلفزيون " GAP " بالكوردية. يسألون: إذا طلبوا غداً مدرسة كوردية فماذا سيحصل؟ ممكن. إذا وجدتم تلاميذ للمدرسة، فهذا ممكن.

الفكر يغذي الإرهاب. الذين يدعمون الإرهاب يخرجون من بين مواطنينا. لنعترف بهذا. لا تُحل القضية بدفع النقود، فهناك دافع فكري. هذا يعني أن هناك نضالاً فكرياً في جوهر القضية. لا يمكنكم مجابهة الفكر بالسلاح. أنتم مضطرون اليوم لمنح الأقليات القومية حقوقها".

يبرز رئيس الجمهورية أوزال بأسلوب طرحه البسيط ولغته البسيطة أن القضية الكوردية ليست قضية أمنية فقط، وفي الوقت نفسه يعارض فكرة تخفيض القضية إلى مستوى "الطعام والعمل" عبر إطلاق عبارة: "لا تُحل القضية بدفع النقود". والأكثر من هذا أنه يرى أن البنية القومية تقف وراء الإرهاب، لذلك يعتبر أن القضية لن تُحل بالأسلوب العسكري. كان يخطط للسيطرة على أرضية "النضال الفكري" بالبث الكوردي من قناة " GAP " التابعة لقناة " TRT ".

ولأن تورغوت أوزال يهتم كثيراً بالتقنيات، ويتابع التطورات التقنية عن قرب، فهو يدرك أن هذه الخطوة لن يكون لها معنى من الناحية السياسية إذا تأخرت. وتبين أنه على حق في هذا الموضوع. فبعد فترة قصيرة، ركّب كورد تركيا هوائيات في أبعد القرى والمزارع، وبدأوا يتابعون

تلفزيون " Med " بداية ثم " Roj " التابعَيْن لحزب العمال الكوردستاني. واعتباراً من أواسط التسعينيات، بدأت قنوات كوردية لا تحصى بالبث من شمال العراق. وكان هناك بث باللغة الكوردية سابقاً من إذاعة صوت أمريكا ومن العاصمة الأرمينية ياريفان.

قال لي رئيس هيئة الأركان الفريق أول إلكر باشبوغ أثناء حديثنا الطويل إنّ فكرة بث " TRT " بالكوردية جاءت منه، وأضاف: "أنا نصحتُ الحكومة بأن يبث التلفزيون الرسمي بالكوردية. ليستمعوا إلي بدل أن يستمعوا لتلفزيون روج!". وأنا أيضاً أجبت خلال الحديث الطويل الذي نادراً ما تدخلت فيه قائلاً بالإنكليزية: " too little ، too late /قليل جداً، ومتأخر جداً". وطبعاً أضفت: "شيء بسيط أفضل من لا شيء".

يتبنى رئيس هيئة الأركان متأخراً اقتراحاً حظي بشرف تقديمه تورغوت أوزال قبل ستة عشر عاماً، وجذب بسببه الكثير من الانتقادات. خسرنا زمناً طويلاً. وخلال الزمن الطويل الذي مر، تعرض الكورد لتغيرات مهمة وخاصة نتيجة التطورات التي شهدها شمال العراق. لهذا السبب، إن تأثير البث باللغة الكوردية من " TRT " في ما بعد كان أقل بكثير من تأثيره لو أنّه قد بدأ في مطلع العقد التاسع من القرن الماضي.

القرار الذي اعتبر راديكالياً خلال عامي 1991-1992 أصبح " too Little, too Late " في عامي 2008-2009.

اقتراح تورغوت أوزال في تركيا أن يبثّ تلفزيون الدولة باللغة الكوردية عام 1992 لم يتحقق حتى 1 كانون الثاني 2009. وبعض نواب حزب العدالة والتنمية الكورد هم من حققوا هذه الخطوة، وقالوا لي في برنامج تلفزيوني ناقش الموضوع: "لو نُفذت هذه الخطوة قبل سنين، لكانت ستحول دون موت آلاف الناس".

VI - الانفتاح الكوردي بواسطة الصحفيين



لم يكن طالباني يبارح أوزال. بواسطة من جاء طالباني إلى أوزال؟ هناك بعض " المبشرين " والصحفيين بين مستشاريه. أنتم تعرفون أن جنكيز تشاندار من مستشاريه " المبشرين " .

جم ارسفر، رائد متقاعد،مؤسس مخابرات الدرك ومحاربة الإرهاب.

(صونر يالتشن، اعترافات الرائد ارسفر، ص 66 ، 98 ،منشورات ضوغان، 2003)

بعد أن التقيت تورغوت أوزال مطوّلاً في القصر الجمهوري في شباط من عام 1991، عزمتُ على السفر إلى لندن من أجل تقفي أثر جلال طالباني. إذ كنت سأنقل لزعيم كوردي قضى حياته في الجبال رسالة رئيس الجمهورية التركية التي تهدف إلى إقامة علاقات مع الكورد. ويمكن أن أضطر لإقناعه بهذا "المشروع".

اتفقت مع تورغوت أوزال حول ما سأشرحه لجلال طالباني، والرسالة التي سأنقلها إليه. انتهى حديثنا الذي دام ثلاث ساعات على انفراد. كنت على وشك النهوض حين وقعت عيني على لوحة كبيرة معلقة فوق الطاولة المدورة التي كنا جالسين إليها بجوار باب المكتب؛ لوحة لإيفازوفسكي. إنها

تصور حالة البحر الأسود الهائج التقليدية. لسبب ما تعلّقت عيني باللوحة، وكاد انتباهي يتشتت. سألته: "هل تعرفون رسام هذه اللوحة؟". أدهشني أوزال المعروف بأن ثقافته العامة معدومة بجوابه: "إيفازوفسكي". عقّبت على جوابه بسؤال سخيف: "يقال إن لوحات إيفازوفسكي كثيراً ما تُقلد، فهل هذه أصلية؟". هز أوزال كتفه وهو يقول: "لا أعرف!". عادة، يُزين مكتب رئيس الجمهورية برموز قومية، فلماذا تُعلّق لوحة لإيفازوفسكي التي لا يُعرف إن كانت أصلية أم لا، وهو إيفازوفسكي الأرميني؟! ما الرمزية التي تحملها هذه اللوحة؟ لم أفهم مطلقاً. تعلّق هذا التفصيل بذهني أثناء مناقشتنا قضية كسر أحد أهم "المبادئ المؤسِسة" للدولة، وحينئذ طرح تورغوت أوزال هذا المقترح:

"عندما تلتقي طالباني دعه يتكلم. دعه يتكلم هو بداية. لا تبلغه بما تكلمنا فيه الآن قبل أن يتكلم هو. ليتكلم هو، ثم اشرح له ما اتفقنا عليه".

خطر ببالي أن تورغوت أوزال يوجهني بشكل غير مباشر لمباحثات باسم تركيا. عندما سألتقي طالباني، وأجري معه المباحثات سأتجاوز عملي الصحفي، وسأقوم بالدور الذي كلفني تورغوت أوزال بحمل مسؤوليته.

أخبرني تورغوت أوزال بالرسالة التي ينبغي أن أنقلها لطالباني بشكل بسيط، وبجملٍ مجرّدة، ومن دون لف أو دوران: "قل لهم إنه يجدر بهم أن يثقوا بتركيا. وإذا وقفوا بجانبنا وتحركوا معنا فإن تركيا لن تخيّب أملهم في أي وقت. لا يمكن أن نفعل بهم ما فعلته إيران مطلقاً. عليهم ألا ينسوا أن غالبية الشعبين – شعبهم وشعبنا – سنّة، وهذا رابط مهم. بالإضافة لذلك، على الرغم من عدم تأسيس تركيا علاقات رسمية معهم حتى الآن، ولكن في حال قيام هذه العلاقات بيننا، فإنها ستدافع عنهم في كل المحافل. عليهم ألا ينسوا أيضاً أن تركيا دولة غربيّة. إنها عضو مهم في حلف الناتو، وممثلة في المؤسسات الغربية. من المهم جداً بالنسبة إليهم أن تتبنى تركيا الدفاع عن قضاياهم في المؤسسات والتحالفات التي توجد فيها. وكما قلت، نحن لن نفعل معهم ما فعلته إيران، ولن نبيعهم في أي وقت".

لا شك أن أوزال يفكر بالبعد الأمني كجزء من العلاقات التي يفكر بإقامتها مع القيادة الكوردية. فهو يريد أن يستخدم "الورقة الكوردية" ليكون صاحب كلمة في مرحلة ما بعد صدام، وليجعل كوردستان العراق حديقة خلفية لتركيا من الناحية الأمنية؛ وذلك على الرغم من عزوف

الكثيرين عن هذه العلاقة؛ وخاصة أولئك الذين ظلوا مصرين على عدم استعمال كلمتي الكورد وكوردستان. فإذا تحرك كورد العراق بالتنسيق مع تركيا، فلن يدعموا حزب العمال الكوردستاني، وحتى إنهم يمكن أن يلعبوا دوراً بنبذ هذا الحزب. وفي حال تلبية كورد العراق هذه المطالب، فإن تأسيس تركيا علاقة معهم ودفاعها عنهم في المحافل الدولية سيمتّنان مشروعيتهم.

حديثنا حول حزب العمال الكوردستاني، أشعرني بضرورة تذكير أوزال بقضية كورد تركيا من جديد: "في حال عدم القيام بأي شيء على صعيد وضع كورد تركيا، وعدم إجراء تغييرات متعلقة بهويتهم وحقوقهم يمكن لطالباني أن يعتقد أننا نعامله وكأنه قائد لمجموعة من الرجال مهمتها حراسة مصالحنا. لن يقبل الظهور بمظهر القوة الاحتياطية ضد كورد تركيا". ثم سألته: "ماذا سأقول له لو فتح موضوع وضع الكورد في تركيا؟".

قال أوزال: "سيتغير. لن يبقى وضع الكورد في تركيا على هذا النحو، سيتغير. ولكن، عليهم أن يكونوا واقعيين. هذه قضية تحتاج إلى زمن. ستتحقق خطوةً خطوة؛ ولكنها ستتحقق. عليهم أن يعتبروا أن هذه القضية قضية وقت، وستُحلّ على مراحل".

طلب مني تورغوت أوزال أن أذكّر طالباني بجهوده الكبرى التي بذلها من أجل إقناع الأطراف السياسية في تركيا بالموافقة على لجوء البشمركة وأسرهم إلى تركيا إثر مجزرة حلبجة عام 1988. وقال: "هذا لم يكن سهلاً كما يُعتقد. فقد عارض العسكر بشدة، ولم يكن سهلاً عليّ كسر مقاومتهم بالدفاع عن القضية باعتبارها قضية إنسانية. هذه الأمور لا تجري بهذه السهولة".

بالنسبة إليه، إن الحدث الأساسي الذي "كَسَرَ الجليد" و"خَرَقَ المحرمات" التركية هو قبول لجوء البشمركة وعائلاتهم إلى تركيا وإقامتهم فيها عام 1988. وكان يرى هذا منعطفاً تاريخياً في القضية الكوردية، وحتى أهم من سياسة "الانفتاح" المطالب بها، وينبغي نقل هذا إلى طالباني.

قلت له إنني سأبلغه بالتطورات، وودعته. اعترض طريقي قايا توبر عند باب القصر، وقال: "كنتُ سأطلب منك قبل دخولك أن تفتح لرئيس الجمهورية قضية الانفتاح على كورد العراق. أخبرني مراسل واشنطن بوست جوناثان راندال بأنه ذاهب للقاء مسعود برزاني. يجب أن نفكر باستخدام هذه القنوات. كنت سأطلب منك أن تُخبره بهذا".

أجبته: "لا تشغل بالك يا أخي الكبير، لم نتكلم سوى في هذا

الموضوع". ارتاح قايا توبر، وقال: "هه، حسنٌ. هذا ما كنت سأقوله لك". ولم يسألني عما تحدثنا به أنا وأوزال.

الآن، عليّ أن أفعل ما بوسعي من أجل إيجاد جلال طالباني.

وسأعرف بعد فترة وجيزة أن هناك شخصين انطلقا في طريقين مختلفين من أجل التقريب بين تركيا وكورد العراق، أحدهما هو جوناثان راندال الذي ذكره قايا توبر.

يُعتبر جوناثان راندال من أهم الصحفيين الأمريكيين المتابعين للقضية الكوردية. كان يعمل في واشنطن بوست. لقد وطئت قدماه كل مربع من الجغرافية الكوردية تقريباً. يعرف الشخصيات الكوردية الشهيرة كلها عن قرب. يشرح دوره الذي لعبه بالمصادفة في العلاقات بين تركيا وكورد العراق من خلال سطور كتابه الوثائقي المدهش " After Such Knowledge, What Forgiveness – My Encounters With Kurdistan (Farrar, Straus and Giroux, New York, 1997)":

"في نهاية كانون الثاني 1991، انخرطت فجأة في هذه القضية من خلال قرار أوزال خارق المحرمات (iconoclastic). كان أوزال مشهوراً بإعطائه فرصة لقاء ربع ساعة لكل صحفي بالدور. ويحرص على الحديث شخصياً إلى الصحفيين الواقفين بالدور بطريقة يفضلها الصحفيون الأتراك على التصريحات الصحفية العامة. على الرغم من هذا، تمكنت من طرح أسئلة في أحد اللقاءات القصيرة المملة تلك. سألت أوزال عن سبب رفض تركيا الدائم لقيام دولة كوردية في شمال العراق. كنت عائداً للتوّ من دمشق، وأكد طالباني والقادة الكورد الآخرون أنهم يرفضون أمراً كهذا، ويعتبرون أن الأفضل لهم هو الحكم الذاتي في عراق ديمقراطي. سألت أوزال عن سبب الاعتراض إذا قبلت بغداد بحكومة إدارة ذاتية، وضبطت الحدود جيداً؟ أجابني أوزال جواباً غامضاً حول كورد العراق والفيدرالية، وانتهت مدتي، وغادرت اللقاء خائب الأمل.

في اليوم التالي، اتصل قايا توبر الناطق باسم أوزال، والمسؤول الإعلامي الأسبق لوزارة الخارجية، وقدم لي أجمل إطراء يمكن أن يحظى به صحفي: "كانت أسئلتكم أغرب من إجابات رئيس الجمهورية". ثم سأل: "هل تعتقدون أننا يجب أن نلتقي كورد العراق؟". اعترضت قائلاً إنني صحفي ولستُ دبلوماسياً. كنتُ منتبهاً إلى أن صديقاً قديماً مثل قايا توبر لم يتخلص من الشكوك الخاصة بالشرق الأوسط حول حقيقة عمل المراسلين الأجانب. قلت له من دون أن أتحمل المسؤولية إنّه لا ضرر من إجراء

لقاء كهذا، بل على العكس سيكون مفيداً. عند انتقالي إلى أوروبا من أجل السفر إلى طهران، وأثناء انتظاري تبديل الطائرة، اتصلت بمكتب التمثيل لكورد العراق في لندن، وسجلت على هاتفه رسالة توبر. وقد كان السبب الأساسي لاستقبال برزاني لي في جبال ريان هو تأكيده مرة أخرى بأن لحزبه منذ زمن والده في انتفاضة عام 1961 فضل المحافظة على هدوء الحدود العراقية التركية.

هل تحرّك أوزال بعد قراءته تصريح برزاني في واشنطن بوست؟ هذا غير مؤكد. ولكن، بعد تصريح أوزال في 11 آذار حول لقاء الكورد، ادعت الصحافة التركية المشهورة بعلاقتها الواهية بالحقيقة أن صحفياً أمريكياً على علاقة بـ " CIA " لعب دوراً مهماً في هذا الموضوع. (يجب أن أعتبر محظوظاً لعدم طرح اسمي في هذا الادعاء) هناك صحفيان حركا أوزال بعد أسبوعين - قبل أسبوع من الحرب البرية - ليصل إلى درجة دعوته الزعماء الكورد سراً إلى أنقرة". (ص 90، 91)

وفي مكان سابق في كتابه، يتحدث جوناثان راندال عن مقابلة مع مسعود برزاني في مقر قيادته في جبل رايان على الطرف الإيراني من الحدود العراقية الإيرانية غير بعيد عن جبل قنديل، ونشره في واشنطن بوست:

"في ملجأ يقي من القنابل في الجبل المغطى بالثلج دارت مقابلتي معه حول العمل. لم يطرح برزاني على عادته مطلبه بعراق ديمقراطي يحظى فيه الكورد بحكم ذاتي، بل ركزّ على توجيه إشارات تبدد مخاوف الطرف التركي من احتمال طلب الكورد الاستقلال. وقال إن الكورد مدركون أن القسم الأكبر من العالم الذي شارك بالحرب لحماية حدود الكويت لا يمكن أن يقبل اقتطاع أراضٍ من العراق أو إيران أو تركيا من أجل كوردستان". (ص 39)

لم أكن أعلم أن جوناثان راندال التقى أوزال بداية ثم برزاني، وكنتُ في طريقي إلى لندن عندما نُشر حواره مع برزاني في واشنطن بوست.

كان هدفي إيجاد جلال طالباني.

بدأتُ بلقاء المعارضين العراقيين العرب عن طريق زميل لبناني يعمل في جريدة الحياة. ولكنْ بدا أنه من غير الممكن أن أجد برزاني وطالباني عن طريقهم. كان برزاني في مقر قيادته الجبلي على الجانب الإيراني من الحدود العراقية الإيرانية. ولم يكن الذين التقيتهم يعرفون مكان طالباني.

ذهبتُ مساء يومِ أحدٍ للقاء رجل الدين الشيعي محمد بحر العلوم

في إحدى ضواحي لندن الجنوبية. سيبرز اسم محمد بحر العلوم بعد سقوط صدام عام 2003 كعضو في هيئة الحكم العراقي المؤلفة من عشرين شخصاً، وذلك باعتباره رجل دين محترماً. أثناء ذهابي للقائه كانت كنية "بحر العلوم" تجذب اهتمامي أكثر. لعله اختارها لإبراز غنى معلوماته في العلوم الشرعية. عندما وصلت إليه، وجدت عنده مترجماً يتقن الإنكليزية، والذي أصر على الحديث بالإنكليزية على الرغم من إصراري على الحديث باللغة العربية. وفي هذه الأثناء، قُطع حوارنا بسبب قيام محمد بحر العلوم لأداء الصلاة.

بقيتُ مع المترجم على انفراد، وعرفت حينئذ اسمه: أحمد جلبي!

سألني أحمد جلبي عن مصدر معرفتي اللغة العربية. فقلت له إنني عشتُ في بيروت، وتعلمتها هناك. وقد دار بيننا حديثٌ حار حول بيروت. فهو أيضاً عاش هناك. وقد ظهر أن لدينا معارف مشتركين كثيرين، حيث لم يمض وقت طويل إلا وصرت شبه صديق لأحمد جلبي.

استمددت جرأة من التقارب الناجم بيننا، وقلت له إنني يجب أن أجد جلال طالباني، وإنّ لدي ما أقوله له. فقال أحمد جلبي إن طالباني في باريس، وإنه سيتصل به ويبلغه أنني أريد لقاءه، وسيبلغ فندقي بالنتيجة.

أبلغته أن الموضوع مهم جداً، وأنني أنتظر منه خبراً في أقرب وقت؛ لأن لدي رسالة هامة جداً من رئيس الجمهورية تورغوت أوزال، وينبغي أن أكلمه، وأن أوزال ينتظر نتيجة حديثي معه...

تمعن أحمد جلبي بوجهي. ليس ثمة سبب للكذب؛ بناء على ما تحدثنا عنه من مشتركات بيروتية قبل قليل. في تلك اللحظة، رن الهاتف، ودخل أحمد جلبي في حديث حار مع المتصل. وبعد وقت قصير، عرفت أن المتكلم هو جلال طالباني بسبب معرفتي العربية. فوق هذا، كان طالباني في لندن وليس في باريس، وفهمت من الحديث الهاتفي أن طالباني أعطاني موعداً للقائه في الغد.

سألتقي جلال طالباني غداً في بيت أحمد جلبي، أي في العاشرة من صباح الاثنين في 18 شباط 1991. يقع بيت أحمد جلبي الفخم في حي مايفير الراقي في لندن، على الشارع الموازي لمقر شركة بولي بيك التي يمتلكها أصيل نادر في شارع آلدفورد، والذي كثيراً ما يُذكر في تركيا. لهذا السبب، لم يصعب عليّ إيجاد البيت. اخترت أن أكون مُنتظَراً وليس منتظِراً بشعور أنني أمثل رئيس الجمهورية التركية، لذلك قرعتُ باب بيت أحمد جلبي في العاشرة وخمس دقائق وليس في العاشرة تماماً.

فتح أحمد جلبي الباب. ولكن، لم يكن طالباني هناك. فقد جاء بعد عدة دقائق. كانت تلك هي المرة الأولى التي ألتقيه فيها منذ عام 1973. لم يعرفني. لذا تصافحنا بطريقة رسمية جداً. كان معه شخصان. أحدهما الدكتور عبد اللطيف راشد أحد أهم قادة الاتحاد الوطني الكوردستاني والمعارضة العراقية. سأعرف في ما بعد أن الدكتور في الهندسة عبد اللطيف عديل طالباني. وقد تسلم الدكتور عبد اللطيف راشد منصب وزير الري في حكومة ما بعد صدام، وبقي في هذا المنصب فترة طويلة.

قُدم إليّ الرجل الثاني المرافق لطالباني باسم محسن دزائي. من النظرة الأولى، توحي تصرفاته الأرستقراطية أنه رجل دولة عاش عزاً. وتبيّن أن هذا صحيح، فقد شغل منصب سفير العراق في براغ خلال الستينيات، وكان أحد الوزراء الكورد في الحكومة المركزية بعد المصالحة الكوردية مع نظام بغداد، ومن أقرب المقربين إلى برزاني الأب أي الملا مصطفى. وعندما لفظ الملا مصطفى برزاني أنفاسه الأخيرة في واشنطن كان محسن دزائي أحد بضعة أشخاص رافقوه. قُدّمت إلي هذه المعلومات بسرعة. كما أنّ محسن دزائي يتكلم التركية إلى درجة تمكنه من خوض حوار بسيط. وعُيّن ابنه سفين دزائي ممثلاً للحزب الديمقراطي الكوردستاني عند فتح ممثلية له في أنقرة.

قبل أن أجلس للحوار مع جلال طالباني، أبلغني أن حزبه الوطني الكوردستاني قد انضم مع الحزب الديمقراطي الكوردستاني إلى "الجبهة الكوردستانية". ولعدم وجود مسعود برزاني هنا، فقد قام طالباني بإخبار محسن دزائي صديق الملا مصطفى الوفي لكي لا يكون اللقاء سراً على الحزب الديمقراطي الكوردستاني.

هذا التصريح، وإبلاغه محسن دزائي قبل ليلة، واصطحابه له إلى اللقاء عند الساعة العاشرة من اليوم التالي تشير إلى اهتمامه باللقاء. هكذا أظهروا اهتمامهم برسالة رئيس الجمهورية التركية تورغوت أوزال.

عندما لاحظت أن طالباني لم يعرفني، أعدته بالذاكرة إلى لقائنا في بيروت قبل 18 عاماً في نيسان من عام 1973 من أجل إراحة الجو (من المحتمل؛ لإراحة نفسي). وقد تذكّر. نقلنا القدرُ إلى موقعين مختلفين تماماً، وجمعنا هذه المرّة في لندن.

ولكن لقاءنا لم يكن لقاءً بين ثائرين قديمين بعد ثمانية عشر عاماً. إذ دخلنا في نقاش صعب؛ هو ككوردي وأنا كتركي. ولم يتدخل بالحديث محسن دزائي والدكتور عبد اللطيف وأحمد جلبي الذين كانوا حاضرين. بدأ حديثه بانتقاد سياسة تركيا السابقة، وبهذا نفّذتُ طلب تورغوت أوزال

"دعه يتكلم أولاً" من دون أن أبذل جهداً. بعد استماعي لانتقاداته، شرحت له أن طورغت أوزال يرغب بسماعه.

بدأ طالباني حديثه قائلاً: "تركيا كانت دائماً عائقاً أمامنا. كان حزب الاتحاد الوطني الكوردستاني على وشك التفاهم مع صدام عام 1985. قطع صدام الحوار بحجة أن الأتراك لا يريدون. ذهبت إلى واشنطن عام 1988 لأقيم علاقة مع البنتاغون، وكان كنان إفرَن يزور واشنطن في تلك الأثناء. وهو من أعاق إقامتي علاقات مع أمريكا. وحدث الأمر نفسه عام 1990".

انتقل إلى لغة إيجابية بعد أن رغب بتسجيل هذه الملاحظات: "الآن، هناك حديث عن خطوات إيجابية في المستقبل، وسيُسر الكورد بهذا. إذا تذكرنا كم كانت تركيا تعيقنا، فهذا يعطي أهمية لما نسمعه الآن. وخاصة الحوار مع جريدة الحياة".

لم أكن على علم بأن كاميران قرة داغي قد أجرى حواراً مع تورغوت أوزال في نادي الجيش في منطقة حربية في اسطنبول، وأن الحوار قد نُشر في جريدة الحياة قبل يوم من لقائي طالباني. لهذا السبب، تابعتُ الاستماع إليه من دون أن أفهم تعليقه على مقابلة جريدة الحياة. لقد قرأ طالباني المقال قبل أن يأتي لمقابلتي.

تابع حديثه معي قائلاً: "نحن لسنا لاهثين خلف الانفصال في العراق. فنحن نؤيد عراقاً فيدرالياً أو ديمقراطياً يحقق لنا حكماً ذاتياً. الديمقراطية هي دواء النظام في العراق. ولكن الديمقراطية في تركيا مهمة جداً، ويمكن للحكومة التركية أن تثق بكورد العراق كحلفاء. فنحن لن نضر بمصالح تركيا".

ضرب أمثلة من إيران وسورية لشرح ضرورة إقامتهم علاقة مع تركيا: "لدينا علاقات مع إيران وسورية منذ زمن طويل. ولم نتدخل بشؤونهما الداخلية؛ على الرغم من أنهما تسحقان كوردهما. سيدعم الكورد والعرب الدور الذي ستلعبه تركيا في تحول العراق نحو الديموقراطية".

نَقَلَ الموضوع إلى قضية كورد تركيا من دون أن يسميها، وقال: "نحن نعي عوائقَ تحوّل المجتمع التركي نحو الديمقراطية. ونعرف أن بعض الأمور لن تتم إلا على مراحل. ولكن الزمن لا ينتظرنا، بل إنه يتدفق بسرعة. انظروا كم كانت التطورات سريعة في أوروبا الشرقية. لهذا السبب، على تركيا أن تخطو بعض الخطوات على وجه السرعة. لا يمكن أن نحظى بدعم الحركة القومية الكوردية للتقارب مع تركيا إن لم تقم تركيا بخطوات فعلية. ستعتبر هذه الحركةُ ممارسات تركيا مع كوردها مبرراً لموقفها

الرافض". وضرب مثالاً على صحة طرحه قولاً لرئيس الجمهورية الإيرانية حينئذ هاشمي رفسنجاني: "قال لي رفسنجاني: كيف تدافع عن العراق وتركيا وهم يعاملون كوردهم بهذه الطريقة؟" [5] .

á á á

غير هذا، أبرز أن تواصله مع أوزال ليس جديداً، وأنه أرسل ممثلاً إلى برزاني وإليه قبل سنتين [6] .

وقال ضارباً مثالاً من التاريخ: "لم يقف مع الأتراك سوى الكورد حتى تأسيس الجمهورية التركية. فخلال الحرب العالمية الأولى حارب الأتراكُ العربَ المصطفين خلف الشريف حسين، كما حاربوا الروس والإنكليز. ووقف الكورد دائماً مع الأتراك".

ثم عاد مجدداً إلى موضوع حزب العمال الكوردستاني. واعتَبَرَ تحالفُ تركيا مع العراق موجهاً ضد كوردها، وقال في هذا الموضوع: "كان التعاون التركي العراقي موجهاً ضدنا. ونحن نعرف أن هذا جاء نتيجة ضغط الأوساط العسكرية". ثم رسم لعلاقته مع حزب العمال الكوردستاني إطاراً شرعياً كالتالي: "التعاون بين تركيا والعراق دفعنا إلى الوقوف بجانب حزب العمال الكوردستاني، أي إنها قضية فعل وردة فعل. غير هذا، لم تكن علاقاتنا مع حزب العمال الكوردستاني جيدة قط. فقبل شهرين أو ثلاثة، هاجمني حزب العمال الكوردستاني وهاجم برزاني؛ بحجة أننا نتعاون مع تركيا. اتهمنا بالعمالة لتركيا وأمريكا وفرنسا. إننا لا نريد أن نشتبك معهم. هناك مئات آلاف الكورد ممن يدعمونهم في أوروبا. لهذا السبب، لا نريد أن نشتبك مع حزب العمال الكوردستاني. أخبرني عبد الله أوجلان أنه يمكن أن يتخلى عن مطلبه بكوردستان مستقلة إذا تطبّع الوضع. لذلك، يمكننا أن نؤثر عليهم وندفعهم لتليين موقفهم".

بكلماته هذه، يوحي طالباني بما يمكن أن يقدمه في موضوع حزب العمال الكوردستاني مقابل التعاون مع تركيا.

وفي هذه النقطة، تدخّل في الحديث محسن دزائي وقال إنه سيكون له تأثير على حزب العمال الكوردستاني في حال إقامة تركيا علاقات جيدة مع كورد العراق.

عندما عاد طالباني إلى الحديث، امتدح تورغوت أوزال، وقال إنه "إنسان عقلاني ومنطقي. وهو يرى القضية بشكل أفضل من العسكريين المتخلفين بتفكيرهم؛ بفضل فهمه بالاقتصاد".

بعد أن استمع لما قلته، ولرسالة تورغوت أوزال، ترك موقف المحاور

الجاد والرافع من سقف المساومات فجأة، ورسم ابتسامة على وجهه، وقال: "أنا سعيد جداً بكون السيد رئيس الجمهورية لديه وجهة نظر محددة، وبأنه متمسك بها. خاصة أن ما سمعناه منكم يتطابق تماماً مع ما سمعناه عنه بالضبط. إننا نثق بتورغوت أوزال".

ما الذي عناه بقوله: "ما سمعناه"؟ كأنه قد سمع ما قلته له من قبل بالكلمة. كيف عرف بمضمون حديثي مع أوزال؟

كان مراسل الحياة كاميران قرة داغي قد اتصل بطالباني في منتصف الليل قبل يومين، وأبلغه بلقائه مع تورغوت أوزال. وقد نشر الحوار مع تورغوت أوزال قبل يوم من لقائي طالباني في جريدة الحياة. عاد كاميران في اليوم نفسه إلى لندن، وشرح لطالباني انطباعاته وملاحظاته. ولقاء طالباني بي كان تأكيداً لما سمعه قبل يوم.

وأنا سأنقل لأوزال انطباعاتي وملاحظاتي حول طالباني.

عند خروجي من بيت أحمد جلبي، رافقني طالباني إلى الباب. وعند الباب، عاد إلى دفئه الذي كان قبل سنوات طويلة وتأبط ذراعي، وقال: "لدي رجاء من السيد رئيس الجمهورية. وسأكون سعيداً إذا أبلغته به ثم أبلغتني بالنتيجة. ليَدْعُ وفداً من المعارضة العراقية أشارك فيه مع مسعود (برزاني)، وأيضاً أريد منه أن يدعونا سراً مسعود وأنا".

قال إنه يمكن تسمية اللجنة التي سيشكلها سبعة عشر تنظيماً معارضاً "لجنة العمل المشترك".

لم أتوقع اقتراحاً كهذا. توقفت، ودفعتُ الباب الذي كان على وشك أن يُفتح. التفتُّ إلى طالباني، وقلت له: "لم يمنحني أوزال صلاحية الرد. سأنقل له رغبتكم هذه. ولكن، اسمحوا لي بأن أسألكم: لماذا تريدون أن تكون الزيارة الأولى علنية والثانية سرية؟".

ضحك طالباني: "توازنات تركيا الداخلية ليست مناسبة، لذلك طلبتُ أن يدعونا السيد رئيس الجمهورية تحت ستارة عضوية الهيئة لكي لا يقع في إحراج؛ وهذا لأنني أهتم لأمره، وأريد أن أجنّبه المشاكل. المهم أن يقيم معنا علاقة. إذا أراد أن يدعونا بشكل علني، فدعوته لنا على رأسنا. هذا سيسعدنا أكثر".

أطلعني على برنامج زياراته للأيام القادمة، وقال إنه على وشك الذهاب إلى أمريكا، وأضاف: "الوقت ضيق جداً. إذا تلقيت دعوة من تركيا فإنني سألغي كل شيء وأذهب. هل يمكنك أن تبلغني بالنتيجة خلال فترة قصيرة؟".

قلت له إنني سأقابل أوزال فور وصولي إلى تركيا، وسأبلغه بالأمر في أقرب فرصة، ثم غادرتُ بيت أحمد جلبي. لم أتصور أن تصل العلاقة إلى هذه النقطة. عدت إلى فندق كامبرلاند القريب من ماربل آرك وكأنني أطير. اتصلتُ بالقصر، وتركت لرئيس الجمهورية رسالة مفادها: "أجريت لقاء مهماً". وقد توجب علي أن أقطع زيارتي إلى لندن وأعود فوراً. كان يوم الاثنين، وأبلغني مسؤولو القصر أن أوزال سيذهب إلى اسطنبول في نهاية الأسبوع، وذهابي إلى أنقرة ليس ضرورياً، وأنه سيقابلني يوم السبت في اسطنبول، وسيبلغني بالزمان والمكان في ما بعد.

ذهبتُ بعد ظهر ذلك اليوم لمقابلة هوشار زيباري في مكتبه الواقع في كنغستبريدج لأتعرف عليه وأكلمه، وأنا أشعر أن صفحة جديدة ستفتح بين تركيا وكورد العراق والكورد عموماً. كان هوشار زيباري ممثلاً للحزب الديمقراطي الكوردستاني العراقي. وكان في تلك الأثناء ممثلاً لتنظيمٍ متحالفٍ مع حزب الاتحاد الوطني الكوردستاني بقيادة طالباني، وفي الوقت نفسه منافساً له. لقد اصطحب طالباني معه محسن دزائي، ولكن هوشار زيباري يحمل صفة رسمية. وبما أنني أتيت إلى لندن من أجل انفتاح رئيس الجمهورية التركي على كورد العراق ينبغي أن أقابله أيضاً لكي لا أبدو أنني أميّز بين مجموعة وأخرى من المجموعتين الكورديتين الكبيرتين.

كان هوشار زيباري على علم بمضمون لقائنا الذي تم قبل عدة ساعات. قابلني بحرارة. وبعد أن قال: "تصلنا إشارات إيجابية متعاقبة" عدَّدَ تلك الإشارات: "حوار جوناثان راندال مع مسعود برزاني في واشنطن بوست، ولقاء كاميران قرة داغي مع تورغوت أوزال المنشور في جريدة الحياة، ولقاؤكم اليوم بطالباني ودزائي الذي نقلتم فيه انفتاح تورغوت أوزال".

أعطاني زيباري المقال الذي يتناول لقاء راندال الذي أجراه مع مسعود برزاني في مكان ناءٍ من الأراضي الإيرانية. قرأته أيضاً. بعد ذلك جاء الدور على إيجاد كاميران قرة داغي الذي أجري معه في المضمار نفسه، والتعرف عليه. ذهبت إلى جريدة الحياة إثر خروجي من مكتب هوشار زيباري. كان كاميران قرة داغي هناك. في ذلك اليوم، بدأت صداقتنا التي استمرت سنوات طويلة.

كان كاميران قصير القامة، ويكبرني بعشر سنوات تقريباً. نظرته حنونة. بدا لنا وكأننا نعرف بعضنا بعضاً منذ سنوات. كان والده محافظ كركوك في الخمسينيات، ويعتبر نفسه كركوكياً. انتسب في سنوات شبابه إلى الحزب الشيوعي العراقي الذي كان قبلة الكثير من السياسيين الكورد، ثم غادر إلى

موسكو ودرس في الجامعة هناك، وتزوج من فتاة روسية تدعى أولغا. لم يقطع علاقاته ببلده، ووثّق علاقته بالحركة الوطنية الكوردية. صعد إلى الجبال في تمرد عام 1974، وأدار إذاعة "كوردستان الحرة" ليكون صوت التمرد. اضطر كاميران قرة داغي لترك بلده مثله مثل الآلاف من أبناء جلدته بعد أكبر كارثة عاشها الكورد بقمع الانتفاضة وخسارة الحرب، وسكن في إنكلترا. وبدأ يفرض اسمه باعتباره خبيراً بالشؤون الكوردية من خلال جريدة الحياة. في هذه الأثناء، حصل على الجنسية الإنكليزية. تنتمي عائلته إلى عشيرة "ملّي" التي يوجد جزء منها في تركيا. وهو يعرف القليل من اللغة التركية نتيجة العلاقة العشائرية هذه، وأيامه التي عاشها في كركوك.

أكثر ما أثر بي في كاميران قرة داغي هو موقفه المستقل الذي كان على مسافة واحدة من طالباني وبرزاني، ومعلوماته المدهشة حول تاريخ الحركة الكوردية، ونظرته النقدية لشخصياتها وكل ما فيها، والأهم وقفته الصادقة إلى جانب الحقيقة.

عاد كاميران إلى العراق بعد إسقاط صدام عام 2003، وعرض عليه كل من برزاني وطالباني العمل معهما لمعرفتهما بخصوصياته تلك. عرض عليه مسعود برزاني العمل مستشاراً له، وعرض جلال طالباني عليه وظيفة سكرتير عام لرئاسة الجمهورية العراقية، وهذا يعني موقعاً أكثر تأثيراً وصلاحياتٍ مقارنةً بنظيره التركي. فضّل كاميران موقع بغداد على موقع أربيل، وعمل في مركز يساهم في التطورات السياسة على الساحة العراقية من دون أن يفقد دقة ملاحظته الصحفية وبرودة أعصابه ونظرته النقدية التحليلية بتناول الأحداث. بفضل علاقة الثقة بيننا التي قويت على مدى السنين كنت أقصده في أغلب الأحيان من أجل أن أفهم ما يجري في بغداد وداخل الحركة الكوردية، ولم يخذلني في أي وقت.

روى لي كاميران قرة داغي قصة التواصل بين أوزال وطالباني عام 1991، ونشرها رفيقي الذي تعرفت عليه أثناء خدمة العلم إلنور تشَفيك في جريدة " Turkish Daily News " بتفاصيل أكبر في 28 آذار 1996.

لأترك الحديث لكاميران قرة داغي في هذه النقطة:

"في 11 آذار 1991، كان رئيس الجمهورية المرحوم تورغوت أوزال في طريقه إلى موسكو. كان كبار الصحفيين الذين يرافقونه في الطائرة يناقشون خبراً نُشر في جريدة حريّت. يقول الخبر إن أنقرة تفكر بنهج سياسة مختلفة مع كورد العراق، وحتى إن إذناً أعطي لطالباني بزيارة أنقرة.

فجأة، ظهر تورغوت أوزال. أثناء توجهه إلى مؤخر الطائرة سأله حسن

جمال عما إذا كان خبر طالباني صحيحاً. أدهش أوزال الصحفيين بقوله: "طالباني جاء وذهب، وفاتكم الخبر". لم يكن في الطائرة سوى شخصين يعرفان بما جرى؛ هما الناطق باسمه قايا توبر وكاتب الزاوية في جريدة غونِش جنكيز تشاندار.

وسأل أوزال الصحفيين عن سبب عدم لقاء تركيا مع كورد العراق إذا كان الفرنسيون والإنكليز يلتقونهم. "في الحقيقة، إن الأتراك يجب أن يلتقوهم قبل أولئك، لأنهم (الكورد) في منطقتنا، ولدينا مشكلة معهم".

حقيقة، كان طالباني ومحسن دزائي ممثل مسعود برزاني قائد الحزب الديمقراطي الكوردستاني في تركيا؛ ضيفين على الحكومة. لقد جاء محسن دزائي عبر مطار أتاتورك الدولي في اسطنبول بوثيقة سائح إنكليزية، واستقبله رجال رئيس الجمهورية، واصطحبوه في اليوم نفسه إلى أنقرة. في اليوم التالي، أتى طالباني من دمشق، واصطُحب إلى المركز العسكري الذي يقيم فيه دزائي. (يمكن أن يكون كاميران قرة داغي مخطئاً حول مكان إقامة طالباني ودزائي. وذلك لأن الشخصيتين الكورديتين أُنزلتا في أنقرة بالاس الذي يستخدم دارَ ضيافة للخارجية). في 9 و10 آذار كلف رئيس الدولة التركية هيئة برئاسة مستشاره للشؤون الخارجية طوغاي أوزتشري للتفاوض مع الممثلين الكورد، والذي أبلغ أوزال بكل صفحة من صفحات المفاوضات.

انتهت المباحثات ظهيرة العاشر من آذار. كان رئيس الجمهورية وطالباني ودزائي مسرورين جداً. كان القائدان الكورديان مضطرين لحضور اجتماع للمعارضة العراقية في اليوم ذاته في بيروت. ولم تكن هناك طائرة إلى دمشق في ذلك اليوم. إثر هذا، سافرت الشخصيتان إلى أضنة جواً، ومن هناك أُقلا إلى الحدود السورية بسيارات رسمية. وبفضل هذا، وصلا مساء ذلك اليوم إلى بيروت.

ولقد تمت هذه المحادثات بسرية تامة، ولم يعلم بالأمر أحد خارج نطاق المتفاوضين.

كانت هذه هي النقطة الأخيرة التي وصلت إليها قصة بدأت قبل ثلاثة أسابيع وشارك فيها رئيس الجمهورية والناطق الرسمي باسمه وصحفيان. كان هذا اللقاء هو الأول من نوعه بين الزعماء الكورد وقيادة دولة تُعتبر قوة إقليمية؛ إذا أخذنا بعين الاعتبار أن اللقاءات السابقة كانت تتم مع عناصر المخابرات.

كيف حدث كل هذا؟

الجواب سيخيّب آمال محبي نظرية المؤامرة. أؤكد هذا لأنني أحد

الصحفيّين المتدخلين بالموضوع. فقد جاء مقترح إجراء تواصل مع كورد العراق من دون اعتراف بوجود كورد تركيا من المرحوم رئيس الجمهورية أثناء إجرائي لقاء معه لجريدة الحياة في 16 شباط 1991.

في 17 كانون الثاني 1991، بدأت قوات التحالف بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية عمليتها ضد العراق. في اليوم التالي، سافرت إلى أنقرة ومنها إلى ديار بكر. وتابعتُ الحدث من الحدود العراقية التركية لصالح جريدتي. قبل عودتي إلى أنقرة، أرسل إلي المدير العام للإعلام والنشر قايا توبر فاكساً يطلب فيه إجراء حوار مع رئيس الجمهورية تورغوت أوزال. وأبلغني أنه سينتظرني عند الساعة 12 من 16 شباط في نادي الجيش في حربية – اسطنبول. فقد كان هذا مكان إقامة أوزال أيضاً.

في اليوم والساعة المقررين، سرت من فندق هيلتون حيث أقيم إلى الرصيف المقابل، واصطُحبت إلى مكتب قايا توبر في الطابق الحادي والعشرين. تحدثنا قليلاً، ثم أبلغني أن آتي في الرابعة من بعد الظهر للقاء رئيس الجمهورية. ونبهني أن لدي عشرين دقيقة فقط؛ نظراً لوجود عدد كبير من الصحفيين الذين يريدون لقاء رئيس الجمهورية.

عدتُ إلى نادي الجيش في حربية في الموعد المحدد، وطلبوا مني الصعود إلى الطابق الحادي والعشرين. عندما جاء دوري، بعد خمسين دقيقة، كان ثمة أربعة صحفيين ينتظرون أدوارهم. أثناء مسيري نحو غرفة رئيس الجمهورية، اعتقدت أن فترتي ستكون أقل من عشرين دقيقة.

استقبلني قايا توبر الذي أبلغ أوزال بمجيئي. كان أوزال يتابع مباراة رياضية عبر التلفزيون. نظر إليّ، وأشار إلى الكرسي المجاور له قائلاً بحرارة وود بالتركية: "تعال، اجلس بجانبي!". تصافحنا. وبينما كان طوب إر يجلس بجانبه مقابلي قلت: "أعرف القليل من التركية". وتابعت بالإنكليزية: "ليس إلى درجة إجراء المقابلة".

استمر أوزال بمتابعة مباراة كرة القدم وأنا أحضّر دفتر ملاحظاتي ومسجلتي. الوقت يمرّ، وليس لدي سوى عشرين دقيقة. أشار أوزال نحو شاشة التلفزيون بجهاز التحكم وقال: "انظر إلى خضرة الساحة. هذا عشب طبيعي. أعطيت توجيهاتي بأن تُزرع ملاعب كرة القدم كلها بعشب طبيعي عندما كنت رئيساً للحكومة". ما إن شعرتُ بالراحة من هذه الكلمات حتى جعلني أوزال أتشنج من جديد: "أعرف أنك كوردي. لا تفتح جهاز التسجيل. أريد أن أسألك حول كورد العراق". رأيت توبر يحضّر نفسه لكتابة ملاحظات. خطر ببالي سؤال: "من سيجري المقابلة؟ ومع من؟".

أخضعني رئيس الجمهورية التركية لمقابلة مدتها ستون دقيقة حول كورد العراق بطريقة في غاية الغرابة. تحوّل قسم السؤال والجواب خلال فترة قصيرة إلى تبادل أفكار حار. كثيراً ما كرر أن الكورد يجب ألا يعتبروا تركيا عدوة. وقال: "على العكس تماماً". وأشار إلى خريطة العراق المفتوحة على طاولة توبر: "تركيا الراعية الطبيعية لكورد العراق وتركمانها".

ثم تحدث عن كورد تركيا، فقلت إن القضية الكوردية ستبقى عالقة طالما أنكرت تركيا الهوية الكوردية وحقوق الكورد المشروعة. وقلت إن الكورد في تركيا لا يستطيعون تعلم لغتهم، ولا يُسمح لهم بنشر مطبوعاتهم بلغتهم. قاطعني أوزال سائلاً: "كيف وضع الكورد في العراق؟". أجبتُ: "على الرغم من وحشية النظام العراقي، إلاّ أنه لم يُنكر الهوية الكوردية قط. على العكس تماماً، هناك جامعة حكومية تُدرس بالكوردية في أربيل، ودار نشر حكومية كوردية، وتلفزيون وإذاعة حكوميان يبثان بالكوردية". بدا أوزال مندهشاً. توقف قليلاً، ثم قال: "يمكن أن تكون هذه كلها في تركيا".

سأل عن العلاقة بين القادة الكورد العراقيين وحزب العمال الكوردستاني. وأثناء حديثنا في هذا الموضوع، قال أوزال إنه على كورد العراق ألا يعتبروا تركيا عدوة لهم، ويمكن لزعماء الكورد العراقيين أن يثقوا به. هبط عليّ الإلهام في تلك اللحظة، وسمعت هذه الكلمات تنسكب من لساني: "سيدي رئيس الجمهورية، لماذا لا تتواصلون مع الزعماء الكورد بشكل مباشر؟ أنا واثق أن لديهم رغبة كبرى بهذا".

انتبهتُ فجأة إلى أن كلامي يوحي بأنني أتكلم باسم القادة الكورد. في الحقيقة، إنهم لا يعلمون أنني سألتقي أوزال. ماذا لو وافق أوزال، ورفض برزاني وطالباني!

نظر أوزال إلي، ثم إلى توبر، ثم إلي من جديد. سُررت لعدم رده على اقتراحي مباشرة. وأخيراً قال: "المهم أن يُدرك الكورد أن تركيا ليست عدوة لهم".

ما أراحني أكثر هو موافقة أوزال على إجراء مقابلة بهدف نشرها. بعد خروجي وانتظاري المصعد، جاء توبر وصافحني، وقال: "عاملك كأخ أصغر".

لم أكن أعلم حينئذ أن أوزال مصمم على الدخول في مرحلة تاريخية والنجاح فيها. في ما بعد، عملت مع جنكيز تشاندار على إقامة علاقات بين أوزال وكورد العراق.

بعد لقائي أوزال عدت إلى فندقي، وكتبت قصتي، وأرسلتها بالفاكس

إلى جريدة الحياة. بعد ذلك مباشرة اتصلت بطالباني؛ إذ كان في لندن في تلك الأثناء، وتكلمنا حول التطورات في العراق. وحدثته عن لقائي بأوزال. وقلت له: "بالمناسبة، أبلغته بضرورة أن يقيموا علاقاتٍ معكم. هل هذا ممكن؟". سألني طالباني: "هل أنت جاد؟ ماذا قال؟". أخبرته أن أوزال لم يقل شيئاً، ولكن انطباعي أن الكورد إذا خطوا خطوة بهذا الاتجاه فإنه سيرد بإيجابية وبسرعة.

التقط طالباني الفرصة فوراً. "في هذه الحال، هل يمكن أن تطلب لي ولبرزاني لقاء معه؟".

عند الساعة التاسعة صباح يوم 17 شباط 1991 ذهبتُ مجدداً إلى نادي الجيش في حربية. قالوا لي إنّ توبر ليس هناك. تركت له رسالة بطلب من طالباني، ورقم هاتفي إذا أراد أن يتحدث معي، وسافرت في اليوم نفسه إلى لندن.

بعد أسبوع، اتصلتْ بي رئاسة الجمهورية التركية. كان المتصل توبر. أبلغني بهذا فقط: "الرجاء إبلاغ برزاني وطالباني أن رئيس الجمهورية وافق على لقائهما".

وصلت العلاقات إلى ذروتها باستقبال رئيس الجمهورية أوزال لطالباني علناً في القصر الرئاسي في حزيران من عام 1991. وأعطي إذناً رسمياً بفتح مكتب تمثيلي للحزب الوطني الكوردستاني والحزب الديمقراطي الكوردستاني في أنقرة. وبدأ زعيما هذين التنظيمين بزيارات منتظمة لرئيس الجمهورية وبقية المسؤولين الكبار. ولكن موت أوزال المفاجئ أدى إلى تراجع العلاقات مع زعماء الكورد العراقيين...".

بعد خمس سنوات، ثبت أن الكثير مما نقله كاميران حول بداية "المرحلة التاريخية" صحيح. عدتُ إلى اسطنبول بعد لقائي جلال طالباني ومحسن دزائي يوم الاثنين في 18 شباط 1991، وانتظرتُ موعد أوزال. من جهة أخرى، أقمت في فندق لا يعرفه إلا عدد قليل جداً من الناس، ولم أقم في بيتي بسبب تهديد لحياتي لا أعرف مصدره. كنت قد حصلت على جهاز نداء، وهو آخر ما توصلت إليه تقنية الاتصالات. وفي يوم السبت في 23 شباط 1991، وصلني خبر عبر جهاز النداء بأن تورغوت أوزال ينتظرني عند الساعة السابعة مساء في نادي الجيش في حربية.

كان أوزال جالساً برفقة قايا توبر يتابع التلفزيون في بهو جناحه في الطابق الأخير من نادي الجيش الذي يقيم فيه مع أفراد عائلته. إنها قناة " CNN " كالعادة. عندما وصلت، انتقلنا إلى غرفة المكتب المجاورة، ورافقنا

قايا توبر هذه المرّة. حدثني كاميران عن دور قايا توبر من قبل. وصرت أعرف أنه لا ضرورة لأن أخفي عنه ما سأرويه لأوزال.

بعد مقدمة قصيرة، نقلت له اقتراح طالباني الذي اقترحه علي في بيت أحمد جلبي: إما أن يأتي مع مسعود برزاني ضمن وفد للمعارضة العراقية علناً، أو أن يأتيا إلى تركيا سراً ويلتقياه.

أضفتُ لما شرحته بأن لدى طالباني برنامج سفر، ولهذا السبب فهو ينتظر الجواب خلال فترة قصيرة لأنه سيبرمج سفره على هذا الأساس.

بعد توقف قصير، التفت رئيس الجمهورية إلى قايا توبر، وقال: "كلّم تيومان، واذهبوا خلال عدة أيام. هل يمكن أن يتم اللقاء في سفارة باريس؟ ما رأيك؟".

شعرتُ بضرورة التدخل، فقلت: "الاقتراح هو زيارة أنقرة سراً، وليس لقاء في الخارج. إذا كان هكذا، فلا سفارة باريس ولا لندن تصلحان، لا تصلح سفاراتنا. سيتسرب الخبر، ثم يمكن لخارجيتنا ألا تنظر إلى الموضوع بحرارة. على الرغم من هذا، يمكن التفكير بمكان مثل ستوكهولم".

قال تورغوت أوزال: "انظر، ليتم هذا الأمر في الأسبوع القادم".

ولم يعد إلى هذا الموضوع. نادت سمرا أوزال من الداخل بأن الطعام جاهز. سألني: "هل أكلت؟". وسحبني إلى المائدة من دون أن ينتظر جوابي. كان إلى مائدة الطعام الوزير بولند أقارجالِ من حزب الوطن الأم. قبل أن ينتهي الطعام، بدأ بث اللقاء الخاص الذي أجراه مع " CNN International ". نهضنا عن المائدة، وبدأنا نتابع اللقاء بدقة. بعد فترة، تلقى اتصالاً من الرئيس الأمريكي جورج بوش. استمر الحوار الذي بدأه أوزال بالقول: " George Hi " عدة دقائق. إنها المرة الأولى التي أشهد فيها حديثاً بين الزعيمين. بعد انتهاء المكالمة، لم أستطع ضبط نفسي، فعلّقت على أوزال قائلاً: "ما شاء الله، ما هذه الحميمية؟ إنكم تخاطبونه باسم جورج". هز أوزال كتفه وكأن هذا من أكثر الأمور طبيعية، وقال: "هو أيضاً يناديني تورغوت...".

كان يتوقف دائماً عند قناة " International CNN " أثناء تنقله بين القنوات ويقول: "أين ذهب هؤلاء؟". لم أحتمل، وسألته: "من ذهب؟ وإلى أين؟".

أفشى أوزال "بالسر" الذي لا يعرفه إلا القليل من الأشخاص: "من المفترض أن تبدأ الحرب البرية. وحتى الآن لم يذع خبر بدئها...".

- هل ستبدأ الحرب في هذه الأثناء؟ هل أُبلغتم؟

- أخبرني بوش!

في الحقيقة، اندلعت الحرب البرية التي أسماها صدام حسين "أم المعارك" وقال إنّ أرض العراق ستكون مقبرة لقوات التحالف بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية بعد عدة ساعات من حديثنا ذاك.

تركنا أوزال مقابل التلفزيون، وخرجنا قايا توبر وأنا. وأثناء نزولنا بمصعد نادي الجيش، سألته: "أخي، من هو تيومان الذي طلب منك السيد تورغوت أن تكلمه؟". كان جوابه: "تيومان قومان". اشتهر تيومان قومان الذي كان في تلك الأيام برتبة لواء بأنه من صقور الجيش في قضايا الكورد والإسلاميين، ويشغل منصب مستشار المخابرات القومية.

في الحقيقة، أدركتُ أن الدولة التركية على وشك إجراء تواصل مع القادة الكورد، وأن عملي قد انتهى. تسلّمتِ الدولة العمل الذي بدأنا به أنا ورئيسها.

وحقيقة، خرجتُ من الموضوع؛ باستثناء بعض الاتصالات التي أجريتها مع كاميران قرة داغي بين اسطنبول ولندن. لم أكن أعرف متى سيلتقي تيومان قومان وقايا توبر طالباني، وإلى أين سيذهبان، ولم أسأل.

بعد عدة أيام، اتصلت بقايا من أجل موضوع آخر، وبعد انتهاء حديثنا، وقبل إنهاء الاتصال، قلت له: "سفراً موفقاً". متوقعاً أنه سيسافر بعد عدة أيام. فردّ قائلاً: "إلى أين؟ لن أذهب إلى أي مكان؟".

- أما كنتم ستذهبون إلى أوروبا من أجل لقاء طالباني؟
- تغير القرار، لن نذهب.

توقعتُ تاريخ مجيئه، وكنت أعتقد أنني سأجد فرصة للقائه في تركيا. لكن، من الواضح أن الدولة ستحافظ على السرية بشكل كامل. بعد مجيء طالباني إلى تركيا سراً سينضم إلى اجتماع المعارضة العراقية المنعقد في 10 آذار في بيروت. يمكن أن أراه هناك، وأسمع منه انطباعاته حول تركيا.

استمرت المعركة البرية التي طُردت فيها القوات العراقية من الكويت، وفُتح طريق بغداد أمام قوات التحالف مائة ساعة، وانتهت بوقف إطلاق النار. على الرغم من تقلص قوة صدام ولكنه ظلّ قائماً على رأس عمله في بغداد، ولبى الشيعة دعوة الرئيس جورج بوش للتمرد في 15 شباط 1991. المتوقع أن الشيعة يشكلون ستين بالمائة من سكان العراق، ولهذا سقطت مدن الجنوب العراقي بدءاً من البصرة الواحدة تلو الأخرى. والتمرد الكوردي في الشمال كان على وشك الاندلاع.

ذهبتُ إلى بيروت. كان فندق البريستول مكان الاجتماع يغصُّ برجال

الدين الشيعة ذوي اللفات السوداء والبيضاء والجباب السوداء والمشكلين لغالبية المعارضة الشيعية. كان يُقدِّم أحياناً شرح لآخر التطورات في التمرد الشيعي. بحسب التوقعات، إنّ صدام حسين سيسقط أو يهرب من البلد قريباً.

أما أنا، فقد كنت أبحث عن الأمين العام للحزب القومي التركماني العراقي الدكتور مظفر أرسلان الذي سمعت باسمه لأول مرة، وكنت من جهة أخرى أسأل عن موعد وصول جلال طالباني إلى هناك. كان كاميران قرة داغي هناك، وعرفت منه أن طالباني ذهب إلى أنقرة بصحبة محسن دزائي.

عندما تأخر طالباني بالمجيء، كان عليّ أن أغادر بيروت إلى أنقرة في العاشر من آذار، وذلك لأن تورغوت أوزال سيخرج في زيارة إلى موسكو في الحادي عشر من آذار، وهو يولي أهمية كبرى لهذه الزيارة وينتظرها منذ فترة طويلة، وسوف يلتقي غورباتشوف الذي لم يجد فرصة للقائه من قبل. وسأشارك في تلك الرحلة.

في 11 آذار أورد إرطوغرول أوزكوك في زاويته في جريدة حريت أن طالباني من المحتمل أن يزور تركيا في الأيام القادمة. يوم نشر الزاوية كان طالباني قد جاء إلى أنقرة وغادر متجهاً إلى بيروت. ولكن، كيف عرف إرطوغرول بهذا "الاحتمال"؟

كنت متجهاً نحو مقدمة الطائرة عند دخول الإيرباص التي تقل رئيس الجمهورية والوفد الكبير المرافق له أجواء الاتحاد السوفييتي. أردت أن أسأل قايا توبر عن مصدر "تسريب الخبر". كان تورغوت أوزال يسير في الممر الموازي للممر الذي أسير فيه ليجري حواراً مع الصحفيين. لوح كل منا للآخر مبتسماً. انتقلتُ إلى المقدمة، وسألت قايا توبر ما أردت سؤاله عنه. أَقْسَمَ أنه لم يسرب الخبر. جاء طالباني إلى أنقرة بصحبة محسن دزائي، ونزل في بيت الدولة للضيافة أي في أنقرة بالاس، والتقيا مستشار وزارة الخارجية طوغاي أوزتشري ورئيس مكتب المخابرات التابع لوزارة الخارجية جنك دُعاتبة. ولم يلتقيا أي شخص غيرهما.

أشرتُ إلى وزير الدولة غونش طانِر الجالس في الأمام، وسألته: "غونش صديق مقرب من إرطوغرول، وهو يعطيه الكثير من المعلومات. هل يمكن أن يكون لسان السيد تورغوت قد زل أمام غونش بالزيارة السرية؟". أجاب توبر من دون تردد: "ممكن".

كنا على وشك الهبوط في موسكو. وأثناء عودتي إلى مكاني كان أوزال

أيضاً يسير في الممر الموازي عائداً إلى مكانه. حييته بابتسامة مرة أخرى. عندما عدت إلى مكاني، كان الوضع قد انقلب رأساً على عقب. "طالباني جاء إلى تركيا وغادر". سقطت هذه المعلومة مثل "القنبلة" في قسم الصحفيين. الجميع انهمكوا بالكتابة، وهم يتناقشون. وصلتُ إلى مكاني بجوار ألوتش غورقان، سألته: "من قال هذا؟ من أين خرج الأمر؟". أجاب ألوتش ببرودة: "أوزال قال هذا".

- كيف قال أوزال هذا؟ متى قاله؟

- قبل قليل. سأله حسن جمال: "هل صحيح ما كتبه إرطوغرول اليوم؟ هل سيأتي طالباني؟". فأجابه ساخراً: "ذهب وغادر. لقد فوّتم الخبر. هل أنتم صحفيون حقيقيون؟". في الحقيقة، جاء وغادر.

عندما هبطت الطائرة في موسكو، كان همّ الصحفيين الوحيد الوصول إلى فندق روسيا، وإبلاغ صحفهم بهذا الخبر القنبلة بعد تزيينه. طغى خبر "جاء طالباني إلى تركيا" على الأخبار الأخرى كلها، ومنها زيارة موسكو التي يعطيها أوزال أهمية كبرى وينتظرها منذ فترة طويلة، وذلك منذ بداية الزيارة.

حيث لم يذهب الصحفيون المرافقون لتورغوت أوزال إلى الكرملين لتغطية لقاء غورباتشوف – أوزال. لم يستغل الصحفيون الأتراك فرصة الدخول إلى الكرملين وموسكو القابعة خلف الجدران المرتفعة، والتي بقيت نقطة جذب مهمة باعتبارها مركز الشيوعية لعقود طويلة، بل كان الجميع في فندق روسيا مشغولين بنقل خبر زيارة طالباني إلى تركيا. جلس تورغوت أوزال مقابل ميخائيل غورباتشوف مبتسماً للكاميرات، ولكنه بدأ يتفقد بنظرات استفهام ما حوله عندما لم ير أي صحفي من الصحافة المكتوبة ممن اصطحبهم معه في الطائرة. وبنبرة تمزج بين الاستغراب والغضب قال قايا توبر: "أين هؤلاء؟". أشرت برأسي نحو رئيس الجمهورية، وقلت له: "اسأله. بفضله لم يأتوا. إنهم يكتبون خبراً". استنتجت من تعابير وجه قايا أنه لم يفهم شيئاً.

كان قد تقرر حضور صحفيين تركيين فقط وليمة العشاء التي سيقيمها غورباتشوف على شرف أوزال، وأجرينا قرعة في الطائرة لتحديدهما، وفزت مع المرحوم معمر يشار. أقيم العشاء في قاعة فاتشادة، إحدى أقدم صالات الكرملين التاريخية. بحسب ما شرح لي، إن هذه القاعة التي يعود تاريخها إلى القرن الخامس عشر والتي أقام القياصرة الروس ولائمهم فيها، تحتوي أكبر أيقونة تعود إلى العصور الوسطى، وتحمل لمسات فنان الفريسك [7]

(أندريه روبليوف).

سمعت عن الفنان من فيلم حمل اسمه، وأخرجه سميه أندريه تاركوفسكي. انفعلت جداً لأنني سأتناول العشاء في القاعة مع غورباتشوف وأوزال وسأكون جالساً إلى طاولة واحدة مع كبير اللاعبين السياسيين السوفييت في الموضوع العراقي، وخبير الشرق الأوسط يفغيني بريماكوف. شغل بريماكوف منصب رئيس الحكومة الروسي في عهد يالتسن بعد تفتت الاتحاد السوفييتي، كما أنه أحد أهم عناصر KGB . تم تحديد السيارة التي ستقلنا قبل فترة طويلة من أجل عبور أمن القصر، وذلك بسبب الإجراءات الأمنية المتبعة في الكرملين. أما معمر يشار فقد أصرّ على عدم الذهاب إلى العشاء.

لم يكن من الممكن إقناع معمر يشار. فقد قال: "عزيزي جنكيز، أنا صحفي منذ سنين طويلة. أسأل نفسي: ما أهم خبر صحفي شهدته طوال فترة عملي؟ فلا أجد ما هو أهم من زيارة طالباني. ولذلك يجب أن أجلس وأكتب مقالاً".

دخلت بحوار قصير مع بريماكوف حول العراق إلى مائدة العشاء. ترك لدي انطباعاً بأنه مغرور ومتعجرف وفظ. إنه يطابق الشخصية النموذجية لعملاء KGB في الأفلام الأمريكية خلال الحرب الباردة. لا أنسى أبداً ذلك العشاء أمام لوحة أندريه روبليوف، وفي الأضواء الصفراء الباردة، وتحت الأقواس في 11 آذار 1991. غالبية المسؤولين الروس الذين كانوا معنا في ذلك العشاء سيشاركون في الانقلاب على غورباتشوف بعد أشهر معدودة، وينهون الاتحاد السوفييتي. غضبتُ من نفسي كثيراً لعدم حرصي في تلك الليلة على معرفتهم عن قرب أكثر.

قبيل عشاء صالة فاتشادة في الكرملين، أقيم حفل استقبال في منتجع السفارة التركية على شرف رئيس الجمهورية. عندما وصلنا إلى هناك، كان أوزال يستقبل هيئة من شعب الكاكوز. حين وصلت سألني قايا توبر مرة أخرى عن سبب عدم ذهاب الصحفيين إلى الكرملين. فهمت أنه لا علم له بتصريح أوزال للصحفيين في مؤخر الطائرة أثناء حديثي معه. وعندما رويت له ما حدث، استغرب من إفشاء رئيس الجمهورية "السر الكبير". في هذه الأثناء، خرج أوزال من لقاء الكاكوز، وتوجه نحو الدرج للذهاب إلى قاعة حفل الاستقبال. كان قايا توبر يقول: "ماذا فعل السيد تورغوت يا ناس؟". وفي الوقت نفسه، يحاول إرسالي إلى تورغوت أوزال قائلاً: "اسأله، ماذا

سنفعل؟". ذهبت إلى تورغوت أوزال بجانب الدرج، وسألته: "لماذا صرحتم بمجيء طالباني يا سيدي؟".

كان جواب السيد تورغوت واضحاً وصريحاً بما لا يدع مجالاً للشائعات:

"ولماذا لا أصرّح؟ سيتسرب الأمر بطريقة ما. سيتسرب إلى النور في ديلي نيوز. ثم لماذا يكون حديث الإنكليز والفرنسيين مع الكورد طبيعياً، ولا يكون حديثنا كذلك؟ عليهم أن يعتادوا. على الجميع أن يعتادوا".

قُطعت مسافة طويلة في العلاقة بين تركيا وكورد العراق، وعلى طريق حل القضية الكوردية بشكل عام. ولكنني على ما يبدو جلبت لنفسي غضب العسكر منذ ذلك اليوم.

قبل يوم من لقائي تورغوت أوزال في نادي الجيش إثر عودتي من لندن التي مهّدت لزيارة طالباني إلى تركيا، نشر إرطوغرول أوزكوك زاويته في جريدة حريت تحت عنوان: "الجسر بين أوزال وطالباني". لم يذكر اسمي، ولكن من خلال المعلومات التي أوردها، كل من سيقرأ الزاوية سيدرك بسهولة أنني "الجسر" المقصود.

لم يكن ثمة تناول سلبي، ولكنني أدركت بعد أسبوع أن المعلومات الواردة فيها بمثابة إشارة البدء لبعض الأوساط. نشر "ضوغو بيرنتشك" صورتي على غلاف مجلته تحت عنوان: من فدائي في فلسطين إلى عميل للمخابرات التركية والموساد والـ CIA . ونشر بعض المعلومات الصحيحة، ولكنه غلّفها بالكثير من الكذب والتلفيق على أنها قصة حياتي. كان النص نموذجياً "لقتل معنوي". وقد وردت على غلاف المجلة اتهامات وافتراءات جعلت مثيلاتُها الكثير من الشخصيات هدفاً للاغتيال من قبل. كانت المجلة نفسها قد استهدفت مسؤول المخابرات التركية محمد آيمور الذي سمّى ضوغو بيرنتشك وفريقه "كذابين"، وصدر له في ما بعد عن منشورات مليت كتاب (تحليل: ذكريات عميل في المخابرات، 1991) والذي كانت مسودته لدى أولوتش غورقان. قدم آيمور الكتاب لجريدة غونش على أمل أن تصدره. اطلعنا على مخطوطه أنا وأولوتش؛ وذلك عندما كنا في الطائرة أثناء ذهابنا إلى موسكو. شعرتُ مما كتبه رجل المخابرات القديم ومسؤول مكافحة الإرهاب، وبعد مقارنته بما كتبه عني ضوغو بيرنتشيك في مجلته، أن أسلوب ضوغو يشبه أساليب رجال المخابرات في الكتابة وتقديم المعلومات... فقد جعلني مقاله عرضة لخطر كبير؛ وذلك بعد إقحام اسمي في الزيارة التي قام بها طالباني إلى تركيا، والتطورات التي بدأت تحدث على الساحتين التركية والعراقية في

آن واحد.

ما الذي يمكن أن يكون سبب هذا العدوان المفاجئ عليّ والمبني على الكذب والتلفيق؟ لم يكن لدي أي تواصل مع بيرنشك وأوساطه منذ عام 1971، ولا يمكن أن تكون لديهم أي حجة منطقية لشن هجوم عليّ يومئذ، أي عام 1991.

لم تكن الإجابة عن هذه الأسئلة صعبة على شخص مثلي أمضى حياته وسط الكثير من التطورات التاريخية في الشرق الأوسط، وعرف كثيراً من سياسيي هذه المنطقة. لم أُجهد عقلي كثيراً بالبحث عن سبب إطلاق هذه الحملة ضدي من أشخاص معروفين بقربهم من مراكز صنع القرار في الدولة. أدخلت يدي في مأخذ الكهرباء حتى الرسغ حين لعبت دوراً بالتواصل بين رئيس الجمهورية التركية والقيادات الكوردية العراقية. وإثر "طلقة الإشارة" التي أطلقها إرطوغرول أوزكوك تحركت بعض الأجهزة فوراً. كان يراد من "قتلي المعنوي" والهجوم العنيف عليّ تشويه مشروع التقارب بين تركيا وكورد العراق.

إذا كان الموضوع يخص الكورد ويمس مقدسات الجمهورية، ويخترق "الخط الأحمر" فيجب أن يكون ثمنه غالياً.

أريد لي أن أدفع الثمن بفوائد ضخمة في مراحل مختلفة. منذ لعبتُ دوراً بالعلاقات بين أوزال وطالباني، أو بتعبير آخر بين تركيا وكورد العراق لم تتوقف عملية "قتلي المعنوي"، وبدأت أتعرض للتهديد بالقتل. لم أعش وضعاً كهذا من قبل.

بما أنني بقيت على قيد الحياة فهذا يعني أن الله يحميني. أنا محظوظ.

آلاف من الذين تدخلوا مباشرة بالقضية الكوردية ليسوا محظوظين مثلي.

VII - مقامرة عابرة للحدود



أعرف أن حاصل ضرب الرقم اثنين باثنين يساوي أربعة. إذا تمكنت من الوصول إلى نتيجة خمسة من ضرب اثنين باثنين فهذا سيمنحني متعة كبرى.

بايرون

مجيء طالباني إلى تركيا فتح باب الولايات المتحدة الأمريكية أمام الكورد. كانت الولايات المتحدة تحرص على الابتعاد عن الكورد لكي لا تثير غضب تركيا.

وكانت القناعة السائدة في تركيا أن الولايات المتحدة تستخدم "الورقة الكوردية" ضد تركيا. ولكن الحقيقة عكس هذا تماماً. فقد كانت تركيا تُعيق تطوير العلاقات بين الولايات المتحدة والكورد. فعندما تُوضع الولايات المتحدة بين خياري تركيا والكورد، كانت دائماً تراعي علاقاتها مع حليفتها في حلف الناتو.

بيتر غالبرايث أكثر من يعرف هذا باعتباره بذل جهداً على مدى سنين طويلة لإقامة علاقات بين الولايات المتحدة والكورد. يعتبر غالبرايث "كبير خبراء الشؤون الكوردية" في الولايات المتحدة الأمريكية، وعمل لفترة طويلة كبير مستشاري لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ الأمريكي. إنه ابن الاقتصادي الشهير عالمياً جون كينيث غالبرايث، وخريج هارفارد وأكسفورد، وله نفوذ في واشنطن؛ إضافة إلى شبكة علاقات خارجية واسعة بفضل

زميلته بالدراسة بنزير بوتو.

بدأ اهتمام بيتر غالبرايث بالعراق وكوردها أثناء عمله مستشاراً للجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ الأمريكي 14 سنة حتى عام 1993، وهذا ما جرّه إلى مغامرات في المنطقة تشبه مغامرات الإنكليز أثناء الحرب العالمية الأولى. عَبَرَ الحدود العراقية السورية مرات عديدة سراً، وأقام علاقات وثيقة بالقيادات الكوردية العراقية.

شكّلت قضية تأسيس كورد العراق دولة مستقلة عقدةً مرضية لدى بيتر غالبرايث. حتى إنني عندما قلت له أثناء حديث لنا إنه يريد أن يدخل التاريخ باسم "غالبرايث الكورد" استلهاماً من "لورانس العرب"، لم يعترض نهائياً.

عُيّن غالبرايث أول سفير أمريكي في كرواتيا ما بين عامي 1993-1996. وقد لعب دوراً مهماً إلى جانب ريتشارد هولبورك باتفاقية دايتون التي أنهت حرب البوسنة والهرسك. بعد حرب العراق عام 2003، قدم خبرته وخدماته للكورد. كما ترك بصماته على مواد الدستور العراقي الفيدرالي التي كانت لصالح الكورد بصفته مستشاراً لهم. وفي أحد أحاديثنا، قال إنه هو الذي وضع التفسير الدستوري بأن "يؤخذ بدستور الإقليم في حال التناقض بين الدستورين الفيدرالي الإقليمي" ويقول إن "نظرية الفيدرالية هي مساهمته الشخصية".

روى لي مرات عديدة كيف أعاقت تركيا إقامة الولايات المتحدة الأمريكية علاقات مع الكورد. كما روت سمانثا باور قصة نشاط غالبرايث في كوردستان العراق بالتفصيل في كتابها الحائز على جائزة بوليتزر (A Problem From Hell: America and the Age of Genocide'da, Basic Books, 2002).

وطئت قدما جلال طالباني الأرض الأمريكية عام 1988 لأول مرة بفضل علاقته ببيتر غالبرايث. فقد أمّن غالبرايث تواصلاً بين طالباني ولاري بوب مسؤول العلاقات العراقية – الإيرانية في وزارة الخارجية الأمريكية. صادف هذا أثناء وجود رئيس الدولة التركية كنعان أفرين في واشنطن. تشرح سمانثا باور في كتابها نقلاً عن غالبرايث المعوقات التي وضعتها تركيا أمام إقامة علاقة بين الولايات المتحدة وطالباني، وفي ما بعد، أمام العلاقة بين الولايات المتحدة وكورد العراق على النحو التالي:

"اجتمع طالباني وبوب في مبنى وزارة الخارجية الواقع في فوغي بوتوم الشبيه بالقلعة لمدة ساعة. أول احتجاج غاضب لم يأتِ من العراق، بل

من رئيس الجمهورية التركي كنعان أفرين الذي كان في واشنطن للقاء وزير الخارجية شولتز. جن جنون أفرين لاعتباره أي تشجيع لكورد العراق بمثابة تشجيع لعشرة ملايين كوردي في تركيا. لم يكن شولتز يعلم بلقاء طالباني – بوب، وأراد أن يعرف مصدر هذه الفكرة البراقة. العراقيون أيضاً كانوا غاضبين كما هو متوقع. فقد ألغى طارق عزيز زيارة كانت مقررة إلى الولايات المتحدة متهماً الإدارة الأمريكية بالتدخل في الشؤون العراقية الداخلية... ولكي ترضي الخارجية الأمريكية العراق صرحت: "إن الولايات المتحدة الأمريكية لا تتدخل بالشؤون الداخلية للدول التي تضم أقليات كوردية". وقد سمع بوب تأنيباً (لإجرائه مباحثات مع طالباني)...". (ص 199)

وهكذا، أغلقت الإدارة الأمريكية أبوابها أمام الكورد العراقيين. ولم يُدخلوا إلى أي بناء عائد للإدارة الأمريكية. ولم تغيّر الولايات المتحدة سياستها هذه حتى أثناء حرب الخليج عام 1991؛ إلى أن فتح تورغوت أوزال أبواب تركيا لجلال طالباني...

وقد روى لي بيتر غالبرايث قصة غريبة في هذا الموضوع نشرها في كتابه " The End of Irak/ نهاية العراق" الصادر عام 2006. جرت أحداث القصة في واشنطن؛ أثناء زيارة جلال طالباني، وذلك بعد لقائنا في لندن مباشرة. لنستمع لغالبرايث:

"في 27 شباط 1991، أدرت بالاشتراك مع السناتور بِلْ اجتماعاً استشارياً يتعلق بالكورد في قاعة لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ. المتحدثون هم طالباني، والناطق باسم السياسة الخارجية للحزب الديمقراطي الكوردستاني هوشار زيباري، وسامي عبد الرحمن رئيس الحزب الديمقراطي الشعبي الكوردستاني الذي يتكلم بصوت ناعم ذي مسحة أرستقراطية، وكندال نزان رئيس المعهد الكوردي في باريس، ودانيلا ميتران زوجة الرئيس الفرنسي وواحدة من أهم المدافعين عن القضية الكوردية في العالم. وعلى الغداء، عبّر القادة الكورد لأعضاء هيئة العلاقات الخارجية عن تأييد كوردستان للأمريكان، وتحدثوا عن احتمال نشوب انتفاضة... أخبرني طالباني أنه يريد أن يعود إلى كوردستان لأن الانتفاضة ستندلع.

كان هذا خبراً عظيماً، واعتقدت أنني يجب أن أبلغ الإدارة الأمريكية به فوراً. لذا، اتصلت بزميلي من أكسفورد مدير شؤون الشرق الأوسط في مجلس الأمن القومي ريتشارد هاس. لم أجده، ولكنني تكلمت مع مساعدته ساندي تشارلز في 1 آذار. اتهمتني بتعقيد الأمور بلهجة حادة. سألتها: "ألا نريد التخلص من هذا النظام؟". أجابتني ساندي بحدة: "سياستنا هي

التخلص من صدام وليس من النظام".

فشلتُ بتأمين لقاء بين طالباني ومساعد وزير الخارجية المسؤول عن حقوق الإنسان... كان شيفتر قد وافق على لقاء طالباني. ولكنهم أخرجوا الكورد خارج مبنى وزارة الخارجية وأخذوهم إلى مقهى مقابل الوزارة، واكتفوا بشرب القهوة مع موظّفين صغار من الوزارة بدل لقاء شيفتر...

مساء 1 آذار، سألني طالباني عما إذا كانت ثمة فائدة من بقائه في واشنطن. كان رئيس الجمهورية التركية أوزال قد دعاه إلى تركيا. وكانت حساسية تركيا هي السبب الرئيس لبرودة موقف الأوساط الرسمية في واشنطن منه. بالتأكيد يجب أن يذهب إلى تركيا. قلت له هذا...". (ص 46)

وهكذا، عرفتُ أن أوزال كان مفتاح أبواب واشنطن لطالباني. بعد أن بدأ طالباني بزيارة تركيا ثم تبعه برزاني، اعتبر الأمريكيون أن هذا يعني "إلغاء الحظر" التركي عليهما، وفتحت واشنطن أبوابها لطالباني أولاً ثم لبرزاني.

قابلت مسعود برزاني الذي يعتبر بالإضافة إلى طالباني من أهم قادة الحراك الكوردي في التاريخ الحديث لأوّل مرة مساء 30 آب 1992؛ بعد تسعة عشر عاماً من لقائي الأول بجلال طالباني. فبعد زيارة جلال طالباني السرية إلى أنقرة في آذار 1991 واستقبال تورغوت أوزال له في القصر الرئاسي في حزيران 1991، فُتِحت أبواب القصر للزعيم الكوردي الآخر مسعود برزاني، وأكُرم برزاني أكثر من طالباني، ودعي إلى أنقرة عدة مرات، ولكنني لم ألتقه نهائياً حتى 30 آب 1992 عندما استُقبل مع طالباني في القصر الرئاسي...

جاء مسعود برزاني من دمشق بعد لقائه حافظ الأسد، كما جاء جلال طالباني من أوروبا. وكانت تلك هي المرة الأولى التي سيستقبلهما فيها رئيس الجمهورية تورغوت أوزال معاً. سيُطبق المقترح الذي قدمه لي جلال طالباني في لندن قبل عام. كانت الزيارة تُعطى أهمية خاصة. لهذا السبب، ذهبت إلى القصر الصيفي في أوقلوق قويو قرب مرمريس لأحدّث تورغوت أوزال حول تحضيرات الزيارة قبل أسبوعين.

قبيل سفري، اتصل بي الأمين العام للحزب الوطني التركماني الدكتور مظفر أرسلان وأخبرني أنه يجب أن يقابل رئيس الجمهورية، ولكنه يجد صعوبة بالوصول إليه. كان تورغوت أوزال – أكثر رؤساء الجمهورية في تاريخها اهتماماً بالتركمان – قد أبلغ الدكتور أرسلان بأنه أصدر توجيهاته لمستشار الشؤون الخارجية أوزدم صانبرك، وعليه أن يقوم بلقاءاته الروتينية

معه. استقبل صانبرك مظفر أرسلان بحرارة بموجب توجيهات أوزال، وسأله: "يا دكتور، هل يمكن أن تشرح لي القضية التركمانية؟". ضحك أرسلان، وحوله إلي. من الواضح أنه لم تكن لدى الخارجية التركية حتى 1991 ونشوب حرب الخليج الأولى ونهايتها أي فكرة حول "قضية تركمانية" في العراق.

كان رئيس الجمهورية أوزال يثق بأن الورقة التركمانية يجب أن تكون مصدر قوة بيد تركيا لا تقل عن قوة الورقة الكوردية. وقد تطورت بيني وبين الدكتور مظفر أرسلان علاقة إنسانية حارة خارج مهمتي كمستشار لأوزال. لهذا السبب، كلما زار القادة الكورد أنقرة كنت أحرص على أن يستقبل أوزال الدكتور أرسلان أيضاً. وقد أصبح هذا شبه تقليد.

اعتماداً على هذا قلت له: "أنا ذاهب إلى مرمريس، تعال لنذهب معاً". وعندما قال الدكتور إنه ليس لديه موعد مع رئيس الجمهورية، قلت له: "عندما يعرف رئيس الجمهورية أنك في مرمريس فلن يرفض استقبالك". أردنا أن نفرض أمراً واقعاً على رئيس الجمهورية أوزال. وأعددنا خطة.

نجحت الخطة. فعندما وصلت إلى أوزال، وفي نقطة من حديثنا أبلغته بأن الدكتور مظفر أرسلان في مرمريس. قال: "أعرف، اتصل قبل قليل".

- متى ستقابلونه؟

- أبلغت قايا في أنقرة أن يقابله.

عندما التقط أوزال تقلصات وجهي المعبرة عن مزيج الاستغراب والاحتجاج، قال: "ما هذا؟! هل لديك اعتراض؟ ما هو؟". قلت: "سيدي، ستستقبلون برزاني وطالباني الأسبوع القادم، لا بد أن يتسرب إلى الإعلام أن زعيم التركمان قد قطع كل هذا الطريق من أنقرة، ولم تقابلوه، وأعدتموه إلى أنقرة وحولتموه إلى الناطق الإعلامي باسمكم بينما استقبلتم الزعماء الكورد. بالنتيجة، يعرف مساعدوه وأعضاء مجلس إدارة حزبه أنه أتى إلى هنا. إذا سرب أحدهم الخبر إلى الصحافة فستهاجمكم على أنكم احتضنتم الكورد ونبذتم التركمان. ما الضرورة لهذا؟ بما أن الدكتور مظفر أتى إلى هنا، لو تأمروا بإيجاده قبل أن يعود إلى أنقرة...".

صمت تورغوت أوزال لثانية أو ثانيتين ثم نادى أحد موظفي ديوانه، وأصدر تعليماته: "جدوا الدكتور أرسلان فوراً، وأبلغوه أنني سأستقبله بعد ساعة".

أثناء خروجي من المنتجع الرئاسي الصيفي في أوقلوق قويو بعد ساعة، كان الدكتور مظفر داخلاً. تبادلنا نظرات مودة وتحية وكأننا التقينا مصادفة.

كانت تلك هي الحيلة الوحيدة التي حبكتها على السيد تورغوت من دون علمه طوال سنتين من العمل المشترك المعتمد على الثقة المتبادلة، وكانت الثانية والأخيرة استمراراً لها.

عندما ذهبتُ إلى بيت سرجل قزاز ممثل طالباني في حي "أشاغي عيرانجي" في أنقرة مساء 30 آب - حيث ينزل طالباني وبرزاني معاً - كان تورغوت أوزال يقيم استقبالاً بمناسبة ذكرى الثلاثين من آب في نادي الجيش. كان طالباني وبرزاني ينتظران مني الموعد الذي سيقابلان فيه أوزال. لم يكن الموعد قد تحدد، ولكنني اعتماداً على الجرأة التي استمددتها من التطورات التي حدثت في مرمريس قبل عشرة أيام قلت لهما من دون أن يعلم أوزال: "سيستقبلكما رئيس الجمهورية في بداية الأسبوع. لم يتحدد الموعد بالضبط، ولكنه سيستقبلكما مع الدكتور مظفر أرسلان". كنت أعتقد بضرورة دس التركمان في الصورة، وأهمية التحالف الكوردي التركماني مقابل نظام ديكتاتورية البعث القومية العربية لصدام. ولمعرفتي أن أوزال لا يختلف معي بهذا التفكير، وجدت بنفسي الجرأة لطرح هذا المقترح من دون علمه.

دُهش طالباني وبرزاني إزاء هذا المقترح، ودخلا بحوار حار بالكوردية في ما بينهما. وبعد انتهاء مشاورات طالباني مع برزاني، التفت إليّ، وقدم مقترحه:

"بالتأكيد، لا يمكننا أن نفرض شروطاً على طريقة استقبال رئيس الجمهورية لنا. هذا يعود له، ويشرّفنا أن نلتقيه في كل الظروف. ولكننا توقفنا كاك مسعود وأنا عند هذه المشكلة: إذا استقبلنا كقائدين كورديين مع قائد تركماني، فستبدو تركيا وكأن لها أطماعاً في شمال العراق، وتنظر إلى شمال العراق نظرة مختلفة، ولا تعترف بوحدة التراب العراقي. كاك مسعود قادم من دمشق للتوّ. وقد أشار إلى احتمال تفسير دمشق لهذا الأمر؛ على الأقل على هذا النحو. هل يمكن أن يستقبلنا نحن الاثنين ثم يستقبل الدكتور مظفر أرسلان مع هيئة من المعارضين العراقيين يُمثل فيها العرب؟".

سقطتُ في الحفرة التي حفرتها بمعزل عن تورغوت أوزال. كنت أحاول لعب لعبة تؤمن استقبال رئيس الجمهورية لهيئة كوردية تركمانية مشتركة، فقوبلت بمقترح مضاد يقضي باستقبال تورغوت أوزال هيئة من المعارضة العراقية.

ولكن هذا المقترح يتوافق مع فكري وما أرغب به؛ لأنه إذا أيّدت

تركيا إقامة علاقات مع المعارضة العراقية كلها فستكون بيدها ورقة رابحة بعد سقوط صدام. كان حلمي تأسيس عراق صديق، وبناء علاقات قوية معه بعد سقوط صدام. لهذا السبب، ثمة جانب جذاب بالنسبة إلي في مقترح برزاني - طالباني المضاد في ما لو تحقق.

عندما تلقيت اقتراح الزعيمين الكورديين، قلت: "ينبغي أن أسأل رئيس الجمهورية". وتوقعت أن يكون أوزال قد غادر حفل الاستقبال في نادي الجيش، وخرجتُ من الشقة التي وضعت تحت حماية مشددة فيها للتواصل مع القصر.

رويت لتورغوت أوزال لعبتي، واقتراح طالباني وبرزاني المشترك. ومن دون أن يفكر السيد تورغوت كثيراً، أبلغني أنه سيستقبل هيئة المعارضة العراقية يوم الأربعاء في 2 أيلول، وسيلتقي الزعيمين الكورديين في اجتماع مستقل، وسيستقبل الدكتور مظفر أرسلان الأمين العام للحزب الوطني التركماني قبل استقباله الزعيمين الكورديين. ستُبلغ مؤسسة الإذاعة والتلفزيون الرسمية لتغطية اللقاءات كلها بشكل موسع، وعلى رأسها لقاء الهيئة التركمانية.

موهبة تورغوت أوزال بسرعة اتخاذ القرار، ونظرته العملية حوّلتا وضعاً شديد التعقيد إلى أمر جديد تماماً. ستظهر تركيا بمظهر الراعية للمعارضة العراقية، وستقيم علاقات خاصة مع التركمان والكورد. وهذا يفرض ضبط سياستها الخارجية كلها على هذا الأساس.

في منتصف الليل، عدت إلى البيت الذي يقيم فيه طالباني وبرزاني من أجل نقل قرار السيد تورغوت. فرحا بقرار رئيس الجمهورية أوزال هذا، وهرعا إلى الهاتف واتصلا ببعض الأسماء في لندن والقاهرة لتشكيل هيئة المعارضة العراقية. دخلنا يوم السبت، فيما أكمل المعارضون العراقيون ترتيبات سفرهم من مختلف أصقاع العالم ليصلوا إلى أنقرة قبيل موعد اللقاء.

حان الوقت لإبلاغ الدكتور مظفر بالتطورات. لذا، تواصلت معه، وأبلغته بضرورة اجتماع قيادة الحزب الوطني التركماني على وجه السرعة، وتقديم طلباته لأوزال بشكل محدد على خريطة.

كانت تجربة التركمان السياسة معدومة أو ضعيفة جداً على عكس الكورد. غير هذا، لم تكن لديهم مشاريع سياسية يعملون عليها كالكورد، وكانوا يتكئون على تركيا كأغلب أتراك الخارج. كنت أفكر بما يجب أن تكون طلبات تركمان العراق المادية، وما يمكن أن يقدموه لتورغوت أوزال.

مدينة كركوك هي مركز تركمان العراق ورمزهم. كنت مقتنعاً بعدم إمكانية إدخال التركمان في أي قضية لها معنى من دون أن تكون كركوك في مركزها. ولكنها لم تكن ضمن منطقة الحظر الجوي المحددة بخط العرض 36 التي تتقلص هيمنة نظام صدام فيها، لذلك فهي تحت سيطرة نظامه. لهذا السبب، إن كركوك بحاجة إلى ترتيب دولي يؤدي إلى إبعادها عن غضب صدام. وهذا ليس ممكناً سوى بجعل خط العرض المحدد لمنطقة الحظر الجوي يمتد ليشمل خط العرض 34. توسيع منطقة الحظر إلى خط العرض 34 يعني وضع التركمان تحت الحماية الدولية.

شاركتُ باجتماع هيئة إدارة الحزب الوطني التركماني، ونصحتهم بتقديم مطلب توسيع منطقة الحظر إلى خط العرض 34 لتورغوت أوزال، إضافة إلى أنهم يجب أن يتقدموا إليه بطلبات قوية ومنطقية، لهذا عليهم أن يعملوا على خريطة توضح مكان سكن التركمان، وتقديم تلك الخريطة له في القصر.

كنت على دراية بفوائد التكلم مع تورغوت أوزال على أرضية مادية. فإذا أُعْطِي أوزال معلومات بهذا الشكل يمكنه أن يقنع الرئيس الأمريكي جورج بوش؛ إذ لديه تأثير قوي عليه.

كنتُ في حالة حركة دائمة بين القصر والقادة الكورد والحزب الوطني التركماني. عملي بدعم من رئيس الجمهورية وبالتعاون الوثيق معه أبعدني عن فكرة أن مؤسسات الدولة الأكثر أهمية يمكن أن تكون ضد هذا كله. تابعتُ لعبي بالنار من دون أن أدرك أنني لا أجتذب صواعق مؤسسات الدولة التركية فقط، بل صواعق المخابرات العراقية سند صدام الأساسي.

يوم الأربعاء في 2 أيلول 1992، استقبل تورغوت أوزال في القصر الرئاسي هيئة من المعارضين العراقيين تضم طالباني وبرزاني، إضافة إلى شخصيات من المعارضين العرب الشيعة والسنة مثل محمد بحر العلوم، والشيخ سامي عزارة، وإياد علاوي، ومحمد ألوسي، وهاني الفكيكي.

استقبال رئيس الجمهورية تورغوت أوزال هيئة المعارضة العراقية في القصر الرئاسي جعل المؤسسات السياسية التركية كلها تقريباً، وأكثر أقلام الصحافة التركية انسجاماً مع المدافعين عن ثوابت الدولة التركية، يجن جنونها وتشن هجوماً عنيفاً على رئيس الجمهورية.

في 3 أيلول 1992، نشرت جريدة حريت "مانشيت" على ثمانية أعمدة يقول: "قمة إسقاط صدام في القصر الرئاسي" مرفقة بصورة كبيرة للاجتماع. وتحت المانشيت عنوان لمربعين كبيرين: "موضوعان هامان على جدول

الأعمال":

"1- خطة (خط العرض 34):

سحب منطقة الحظر إلى خط العرض 34 لتضم التركمان والسنة والشيعة وليس الكورد فقط.

2- الحكومة المؤقتة:

تأسيس حكومة وبرلمان مؤقتين تتمثل فيهما المجموعات المعارضة التي تعمل ضد صدام حسين".

في اليوم نفسه، نُشرت زاوية إرطوغرول أوزكوك على طرف المانشيت تحت عنوان: "الطريق من فيينا إلى أنقرة". كنتُ قد أَعطيت أوزكوك معلومة حول لقاء أوزال بالمعارضة العراقية مسبقاً، وبعض رؤوس الأقلام حول جدول أعمال اللقاء، وتاريخاً مختصراً عن المعارضة العراقية. خططت للاستفادة من رئيس تحرير جريدة حريت الذي يحب الظهور بمظهر العارف بكل شيء قبل الجميع، واعتبار هذا نجاحاً صحفياً تحسباً للعاصفة التي ستهب.

كتب إرطوغرول مقالة مهمة بعد الاستماع إلي؛ ظهر من خلالها وكأنه متابع لكل ما يحدث خلف الستار. أدرج المعلومات التي أعطيته إياها حول الاجتماع من دون ذكر اسمي، وقيّم الاجتماع على النحو التالي:

"تُرى، هل أعطيت تأشيرة الموافقة على هذا الاجتماع في واشنطن؟ لأنه بحسب المعلومات الواردة إلى أنقرة، أرسلت واشنطن رسالة مفادها: يجب أن تكون واشنطن على دراية بكل خطوة تخطونها مع الزعيمين الكورديين. وبناء على هذا، من الطبيعي أن يكون للاجتماع الذي عقد بالأمس في القصر الجمهوري معنى أكبر".

بالطبع، كان شائعاً جداً ربط أمريكا، وزج حزب العمال الكوردستاني بكل تطور له علاقة بالقضية الكوردية. ويبدو من الأسطر الأخيرة لمقالة أوزكوك أنه لم تكن لديه مناعة ضد هذه الحساسية:

"تلقى الزعيمان الكورديان الرسالة نفسها في لقاءاتهما التي أجرياها في أنقرة. قال رئيس الحكومة دميريل: "ساعدونا في القضايا الأمنية لنقدم لكم كل أنواع المساعدة". أما تشتين (وزير الخارجية) فقد قدم رسالة مشابهة بصورة معكوسة: "نحن نقدم لكم كل أنواع المساعدات المادية والإنسانية. ولكن، إذا استمرت أعمال حزب العمال الكوردستاني فستتوقف هذه المساعدات".

أجرى برزاني وطالباني لقاء مفاجئاً مع نواب حزب العمل الشعبي إثر

تلقيهما هذه الرسائل من الحكومة، ونصحوهم بالابتعاد عن حزب العمال الكوردستاني...".

في اليوم التالي، قامت القيامة نتيجة اجتماع القصر الرئاسي. كان مانشيت جريدة حريت الصادرة في 4 أيلول 1992: "اجتماع القصر الرئاسي قوّم القيامة"، وأدرج تحته العنوان الفرعي التالي: "عارض كل من رؤساء الأحزاب ووزير الخارجية اجتماع أوزال بقادة المعارضة العراقية ومناقشة خطط إسقاط صدام معهم".

ثارت ثورة سليمان دميريل، وقال عن أوزال: "ذكّرناه بصلاحياته عدة مرات... الجميع يعرف صلاحيات كل من رئيس الجمهورية والحكومة والمجلس بحسب دستور الجمهورية التركية". جاء الاحتجاج الأشد من رئيس حزب اليسار الديمقراطي بولند أجاويد الذي ذهب إلى بغداد للتضامن مع صدام بهوية صحفي. واتهم أوزال قائلاً إنّ أمريكا "تستخدمه من أجل تقسيم تركيا. يبدو أنه لم يفهم بعد أن تقسيم تركيا هو ما يكمن خلف تقسيم العراق إلى ثلاث دول، أو أنه يدخل اللعبة عن وعي". كانت ردة فعله حادة جداً، إذ جاء على ذكر ضرورة إسقاط أوزال من رئاسة الجمهورية لأول مرة بقوله: "لم أكن في البداية مؤيداً لهذا. اقترحت أن يُذكّر أوزال بحدود صلاحياته، والبحث عن طرق إسقاطه إذا لم يلتزم بها. ولكن، هذا هو الوقت المناسب. لا يمكن لتركيا أن تحتمل فرض أوزال سياسة الأمر الواقع أكثر من هذا".

اكتفى إردال إينونو نائب رئيس الحكومة بالقول: "لا أصوّب ما فعله السيد أوزال".

في اليوم نفسه، نشرت حريت تصريح السفير العراقي تحت عنوان: "العراق منـزعجة". عبّر السفير الذي عيّنه صدام لاحقاً رئيساً للمخابرات في العام 2003 أثناء الحرب عن انزعاجه، مستخفاً بأعضاء هيئة المعارضة العراقية: "شعبنا يعرف برزاني وطالباني، لكن الآخرين إذا ساروا في شوارع بغداد فلن يعرفهم أحد. هؤلاء يتحركون بموجب تعليمات واشنطن ولندن، لا ماضي لهم ولا مستقبل. لهذا السبب، نحن حزانى على تقدير أصدقائنا لهم ولقائهم". أحد الذين قيل عنهم إنه لا مستقبل لهم غدا رئيس الجمهورية العراقية، والآخر رئيساً للحكومة، والآخر عضواً في مجلس الحكم في العراق إثر إسقاط صدام، والآخر رئيس إدارة إقليم كوردستان خلال خمسة عشر عاماً.

لذا تبين أن توقعات سفير صدام المخابراتي غير صحيحة. في عدد 4

أيلول 1992 لجريدة حريت الذي أورد مانشيت: "اجتماع القصر الرئاسي قوّم القيامة"، نُشر خبر من واشنطن بعنوان: "الولايات المتحدة الأمريكية مسرورة". جاء في الخبر:

"تلقت الإدارة الأمريكية خبر استقبال رئيس الجمهورية تورغوت أوزال ممثلي المجموعات المناهضة لصدام حسين في أنقرة ببالغ السرور. ولكن الإدارة الأمريكية لا تدعم حالياً مقترح توسيع المنطقة الآمنة في شمال العراق نحو الجنوب من خط العرض 36 إلى الخط 34. قال مسؤول أمريكي: "يتردد كلام حول هذا الأمر. ولكننا كإدارة لا نؤيده".

تتعاطف الإدارة الأمريكية مع الجهود المبذولة لتشكيل المعارضة حكومة مؤقتة في شمال العراق، ولكن واشنطن لم تطلب من أنقرة إشعال الضوء الأخضر لهذه الخطة. كما تنظر واشنطن بعين الرضا إذا دعمت أنقرة هذا المشروع. وبهذا ألقت واشنطن الكرة إلى ملعب أنقرة باعتبار أن هذا القرار الذي تدعمه بعض دول المنطقة مثل السعودية يحمل بعض المخاطر السياسية".

أما في أنقرة، فقد كان رئيس الجمهورية تورغوت أوزال وحيداً. عارضت الحكومة ومؤسسات الدولة كلها تقريباً بحدة خطوة رئيس الجمهورية. وقد كتب أوقاي إكشي – أكثر أصوات الثبات استقراراً – في جريدة مليت في 4 أيلول تحت عنوان: "أليس هذا كثيراً؟"، وفي اليوم التالي تحت عنوان: "العقد المستعصية" موجهاً نقداً شديداً لتورغوت أوزال وكأنه لسان حال الحكومة والدولة. بدأ مقالته الأولى على النحو التالي: "لم نر شيئاً كهذا من قبل. كما أننا لم نسمع ولم نقرأ شيئاً كهذا. فهل حدث أن جمع رئيس جمهورية معارضي نظام دولة جارة كما فعل السيد تورغوت أوزال البارحة في غير حالات الحرب؟".

سُمِعَ صوت أوزال وسط هذا الضجيج عبر مقالة إرطوغرول أوزكوك المنشورة يوم الجمعة في 4 أيلول 1992. تحت عنوان: "أوزال: لِمَ لا ألتقيهم؟". جاء في المقالة ما يلي:

"أثار لقاء أول البارحة في القصر الرئاسي نقاشاً غريباً. للنقاش بعدان. الأول: هل يحق لرئيس جمهورية محدود الصلاحيات أن يعقد اجتماعاً كهذا يمكن تفسيره بطرق مختلفة؟

الثاني: أمن الضروري أن تلتقي تركيا ممثلي المجموعات التي تلعب دوراً في الصراع الداخلي العراقي؟

يجيب رئيس الجمهورية تورغوت أوزال على السؤال الثاني من دون

تردد: "لِمَ لا ألتقهيم! سورية والسعودية والإدارة الأمريكية تلتقي هذه المجموعات. يجب توسيع هذه اللقاءات".

كما أورد أسباباً أخرى لهذا اللقاء الذي عقده مع قادة المعارضة العراقية بقوله: "لا يجب أن تقتصر علاقتنا على القادة الكورد في المعارضة العراقية، بل يجب أن تشمل جميع الأطراف".

يتابع أوزال: "لِمَ نكون صدّاميين؟ المؤكد أن الرجل يدعم حزب العمال الكوردستاني. هل لتركيا مصالح مع صدام؟ هل الصداقة مع صدام ما زالت ممكنة؟!".

كلمات رئيس الجمهورية هذه تظهر أن المشكلة مع صدام مستمرة بالحدة نفسها منذ حرب الخليج".

لكن في الواقع، لم تكن لدى أنقرة - باستثناء أوزال - أي مشكلة مع صدام، ولم يكن لدى بقية الأطراف أي مانع بعودة الوضع إلى ما كان عليه في السابق. فقد شعر هؤلاء بخوف فظيع من تأسيس الإدارة الذاتية الكوردية شمال خط العرض 36 بفضل تحديد سلطة صدام، وظهروا كحلفاء طبيعيين لصدام.

تختلف نظرة تورغوت أوزال عن نظرة أنقرة في ما يتعلق بموضوع العراق والكورد اختلاف حدي مقص مفتوح. لذلك استمر تورغوت أوزال على الرغم من كل شيء مؤيداً لسقوط صدام وبناء عراق من دونه. انطلاقاً من هذه النظرة، استغل فرصة اللقاء بالمعارضة العراقية. ولكن الدولة التركية لديها خيار آخر؛ وهو عراق صدام.

في الحقيقة، تقدمت المعارضة العراقية من قبل إلى الخارجية في أنقرة بطلب لإقامة علاقات معها، ولم تحصل على نتيجة. ولكن، هذه المرة جاء الطلب من أوزال في القصر الجمهوري قبل شهرين ونصف الشهر؛ إثر اجتماع المعارضة العراقية التاريخي في فيينا في حزيران 1992، وبعد دخولها - المعارضة - في بنية مؤسساتية.

كان تورغوت أوزال يشعر أنه في مأزق شديد؛ فهو يرغب في تطبيق سياسته التي يريدها مع عدم رؤية أنقرة عدم إمكانية استمرار الوضع القائم في العراق على حاله، وعدم شعورها بأن نتائج الحرب الباردة ستؤثر على المنطقة كلها وعلى رأسها العراق، وعدم تخليها عن تناول القضايا بشكل تقليدي.

بموت تورغوت أوزال عام 1993، تخلّص خط الدولة التقليدي هذا في أنقرة من أكبر العوائق أمامه، وقويَ أكثر في الجزء المتبقي من التسعينيات.

وقد كان هذا التيار التقليدي أحد الأسباب الرئيسة في تأزم العلاقات التركية – الأمريكية، وذلك أثناء حرب العراق في العام 2003؛ حيث ظل مصرّاً على التمسك بمواقفه، بمعزل عن التغيّرات الحاصلة.

لم يتزعزع إيماني في أي وقت بصواب الدور السياسي الذي لعبته من أجل استقبال أوزال هيئة المعارضة العراقية في القصر الرئاسي. مع هذا، لا أستطيع القول إنني لم أشعر بالضيق نتيجة تسببي بالقلق لرئيس الجمهورية الذي لم يكن على وفاق مع الحكومة ووصلت الأمور بينهما إلى درجة المطالبة بإسقاطه. كما كنت منتبهاً إلى أن الذين يحيطون بأوزال يدركون الدور الذي لعبته في الأمر. على الرغم من حمل تورغوت أوزال صفة رئيس الجمهورية فإن حساسية الدولة التركية من الكورد لم تزُل نهائياً.

صحيح أن تورغوت أوزال يبعد أشواطاً عن إداريي الدولة من خلال موهبته بالمغامرة السياسية واستشرافه المستقبل، ولهذا أجج استقباله هيئة المعارضة العراقية النقاش حول موقعه وآرائه، ولكنه لم يتراجع لأنه كان على ثقة من صواب خطوته. وسيثبت التاريخ أنه كان مصيباً.

بعد سنوات، وفي عام 2012، برر مستشار الخارجية التركية فريدون سينيرلي أوغلو في لقاء صحفي حول الموقف من سورية، ودعم تركيا للمعارضة السورية، واتخاذها من اسطنبول مركزاً لها بقوله: "لا نريد أن نكرر الخطأ التي ارتكبناه في ما مضى مع المعارضة العراقية".

كان التواصل بين رئيس الجمهورية تورغوت أوزال وهيئة المعارضة العراقية من خلال استقباله لها في أيلول عام 1992 هو التواصل الأول والأخير بهذا المستوى الرفيع على مدى أكثر من عشرة أعوام؛ حتى سقوط صدام عام 2003. لم يُتابع هذا الاجتماع إلا خلال 24 ساعة قبيل الحرب عام 2003. لم تتخذ تركيا مكاناً لها في التوازنات العراقية على مدى سنين. وقد نُهِجَ نَهْجٌ معاكس تماماً لنهج أوزال من بعده.

تخلت تركيا عن نهج أوزال بتناول قضيتها الكوردية في المرحلة التالية له. كانت فترة ما بعد أوزال هي الفترة التي دفعت تركيا فيها ثمناً باهظاً في هذه القضية.

دعوة تورغوت أوزال المعارضة العراقية جعلته يجذب صواعق الغضب القادمة من الجهات كافة؛ بدءاً من بغداد، إلى خصومه الفاشلين في تركيا.

ولكنني أنا الذي عرضت نفسي لمخاطرة كبيرة من خلال الدور الذي لعبته في جعل تورغوت أوزال يستقبل هيئة المعارضة العراقية في القصر الرئاسي. قربي من أوزال لا يجعلني محمياً.

بعد مغادرة هيئة المعارضة العراقية تركيا بزمن قصير، وصلت إلى إدارة جريدة صباح معلومات "مؤكدة" لم نعرف مصدرها بأن "فريقَ عمليات خاصة دخل إلى تركيا من العراق، وسيؤمن سلاح الاغتيال من الداخل لتصفيتي خلال فترة قصيرة".

اقترح رئيس تحرير الجريدة ظافر مطلو عليّ أن أخرج من تركيا في أقرب فرصة ممكنة. كانت لدي حجة مهنية مقبولة من أجل الذهاب إلى واشنطن: ستكون هناك انتخابات رئاسية أمريكية بعد فترة قصيرة، ويمكنني تغطيتها.

اتصلت بتورغوت أوزال من واشنطن، وأخبرته بضرورة تشديد الإجراءات الأمنية حوله، ونقلت له ما "وصلني" حول وضعي.

بعد فترة قصيرة، توصلت إلى معلومات تدل على أن مصدر التهديد كان أنقرة أكثر من بغداد؛ وتحديداً من "المخابرات العسكرية"، أو ما نسميه "القوات الخاصة"، أو "مخابرات الدرك ومكافحة الإرهاب (JİTEM)".

وسأعلم بعد عدة سنوات أن نظام صدام في العراق أيضاً ناقم علي. فقد اتصل بي هلعاً مراسل لجريدة صباح يعرف العربية، وقد شارك بوفد إعلامي ذهب إلى بغداد، ونقل لي تهديد وزير الخارجية العراقي طارق عزيز قائلاً: "أخي الكبير، احذر من الذهاب إلى العراق. استقبلنا طارق عزيز قبل يومين، وعندما عرف أنني من جريدة صباح قال لي بنبرة غاضبة: قل للمدعو جنكيز تشاندار...". وأكمل سلسلة التهديدات التي أبلغه إياها الوزير الغاضب.

لم أحدد الشعور الذي انتابني عندما عرفت أن وزير الخارجية العراقي طارق عزيز يعرف اسمي، هل كان مزيجاً من نرجسية خفيفة مع قلق شديد لمعرفتي منذ أيام بيروت بمهارة نظام البعث العراقي بتنفيذ الاغتيالات خارج الحدود؟ يبدو أنه كان مزيجاً قلقاً ما بين الحالتين.

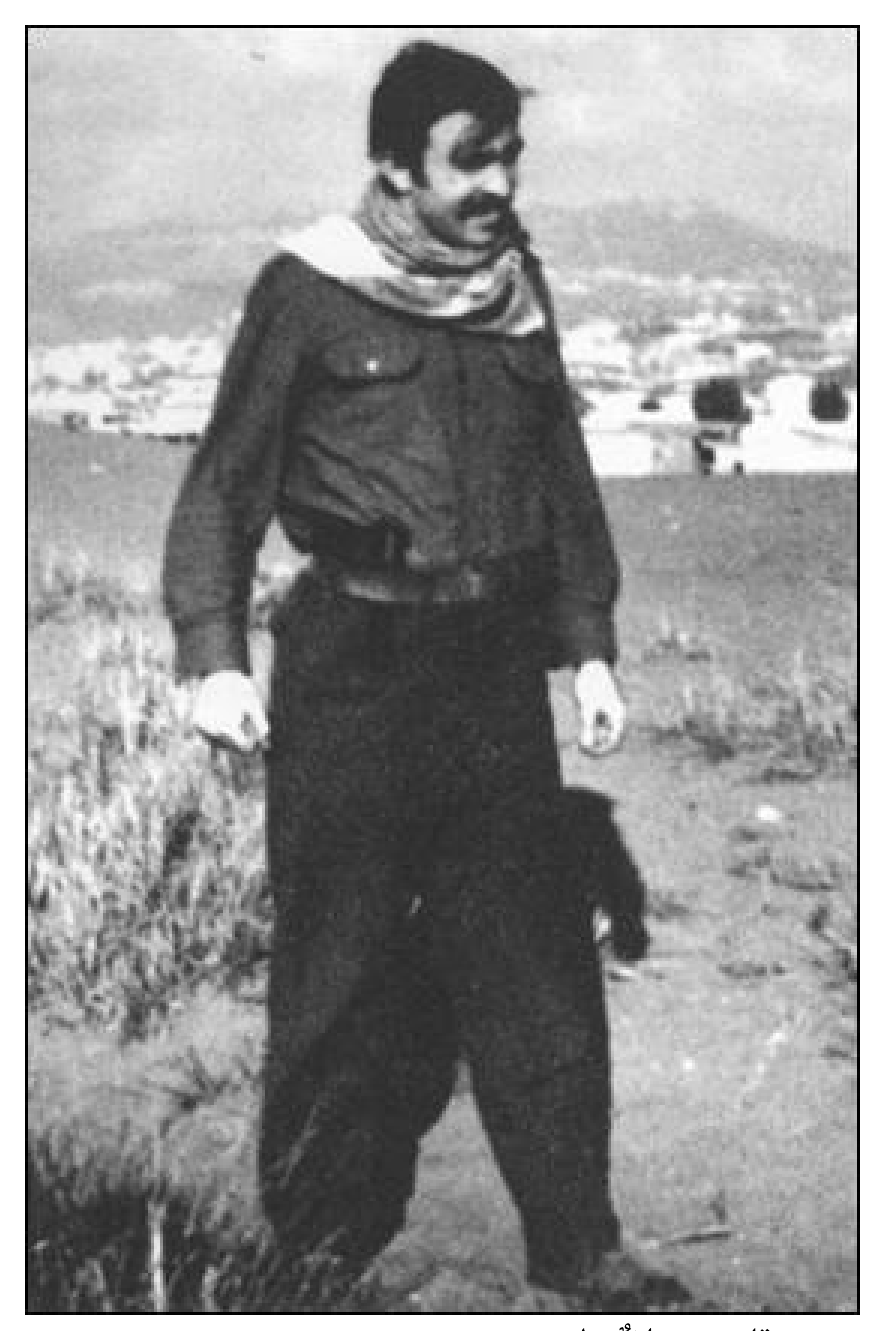
لا يمكن أن يذكرني طارق عزيز من مؤتمر وزراء خارجية الدول الإسلامية الذي انعقد في عمان عام 1987. جلستُ هناك بجانبه على الأريكة نفسها، وأجريت معه حواراً قصيراً. ولكن طارق عزيز الممسك بسيجار ضخم، والذي كان ينفث دخانه في الهواء من دون أن يتنازل وينظر إلى وجهي لا يمكن أن يدفعه الفضول للسؤال عن اسمي في ذلك الوقت.

عندما التقى تورغوت أوزال وزير الخارجية الأمريكي جيمس بيكر في

آب من عام 1990، وفي الأيام الأولى لأزمة الخليج قال له: "علينا أن ننهيه (صدام). إذا بقي صدام حسين، فإن كل الدول في خطر. سنكون مهددين بشكل دائم". بعد الحرب بسنتين، فَقَدَ تورغوت أوزال حياته منسحباً من مسرح الحياة، ولكن صدام بقي على رأس نظامه الديكتاتوري في بغداد. ولندع رؤية تورغوت أوزال بأن بقاءه يعني الخطر لكل الدول، فهو خطر شخصي علي. فوق هذا، علاقتي بالمعارضة العراقية بعد وفاة أوزال تجعل تجنبي هذا الخطر مستحيلاً. انتباه طارق عزيز في بغداد إلي إشارة لخطر التهديد واستمراره.

في الحقيقة، إنّ علاقتي بالمعارضة العراقية تعود إلى زمن أقدم بكثير من مأسستها، وتعود إلى أيام بيروت في أواخر السبعينيات...

VIII - بيروت بيروت...



لبيروت من قلبي سلامٌ لبيروت
وقُبلٌ للبحر والبيوت
لصخرةٍ كأنها وجه بحارٍ قديم
هي من روحِ الشعب خمرٌ
هي من عرقِهِ خبزٌ وياسمين
فكيف صار طعمها طعم نارٍ ودخان
فيروز "أغنية لبيروت"

لم تكن بيروت عاصمة لبنان فقط، بل كانت مركز الثقافة العربية أيضاً. أخذت مكانة القاهرة على صعيد الموسيقى والأدب عبر أداء فيروز

ذات الحنجرة الساحرة ألحان الأخوين الرحباني، وتحقيق الإبداع الأدبي عصر نهضة عربية. يقول أفي شلايم أحد أساتذة أكسفورد عن بيروت: "عاصمة الأدب والتنوير العربي". ويعتبر سمير قصير [8] في كتابه المرجعي "تاريخ بيروت" أن جذب بيروت لمقاتلين ومثقفين من تونس والمغرب والسودان والعراق ومصر مع دخول منظمة التحرير الفلسطينية إلى المدينة، فتح الباب لتأسيس عدد كبير من مراكز الدراسات ودور النشر، ويذكر أمثلة منها.

دبت الحيوية بشكل كبير في بيروت إثر هزيمة الفلسطينيين في الحرب الداخلية الأردنية عام 1971 وانتقال كل مؤسسات منظمة التحرير الفلسطينية وقياداتها إلى هذه المدينة.

وطئنا بيروت أنا ومنظمة التحرير الفلسطينية معاً. تزامنت الحرب الداخلية الأردنية مع وجودي مع مجموعة من الرفاق الأتراك في أحد معسكرات التدريب قرب دمشق. بعد بقائنا فترة قصيرة في قاعدة فلسطينية في هضبة الجولان لحقنا بالمؤسسات والقيادات الفلسطينية المنسحبة من الأردن، ونُقلنا إلى لبنان.

كتبتُ قصة تلك الأيام تحت عنوان: " A Turk in the Palestinian Resistance /تركي في المقاومة الفلسطينية" في عدد شتاء 2000 من مجلة " Journal of Palestine Studies ". وصفت فيه وصولي إلى بيروت على النحو التالي تقريباً:

"لم يكن النظام السوري يسمح للمقاتلين الفلسطينيين على جبهة الجولان بتنفيذ عمليات (ضد إسرائيل) قبل هزيمة منظمة التحرير الفلسطينية في الأردن. ولم يعد بعدها يسمح بوجود الفدائيين الفلسطينيين وقواعدهم على أراضيه. لهذا السبب، ذات ليلة من خريف 1971 رُكّبنا في شاحنات، ونُقلنا إلى لبنان.

ما زلتُ أذكر انفعالي أثناء صعودنا جبل لبنان بعد عبورنا وادي بردى وسلسلة جبال لبنان الشرقية. قطعنا ضهر البيدر وبحمدون وعالية وبدأنا نسير نزولاً، فظهر منظر بيروت على شكل مثلث متلألئ داخل البحر، وامتد البحر المتوسط أمامنا. استمتعت بجمال القرى وسط أشجار الصنوبر والسنديان في جبل لبنان، ولكن إعجابي ازداد ببيروت.

أقمتُ أسبوعاً في بيروت لدى مسؤول في الجبهة الديمقراطية يتكلم التركية لأنه درس في أنقرة، قبل أن نرسل إلى قاعدة فدائية فلسطينية في جنوب لبنان. خلال تلك الفترة تجولنا في شوارعها، وأبهرت أعيننا أضواء شارع الحمرا الذي يعتبر شانزليزيه الشرق الأوسط، ومقاهي الرصيف فيه،

ومطاعمه الفخمة، وواجهات محلاته الجميلة. لم أستطع منع نفسي من مقارنة هذه المدينة العثمانية القديمة مع مدن تركيا الكبرى، وتوصلت إلى أن بيروت أكثر تطوراً بكثير وأشبه بمدن أوروبا.

من جهة أخرى، ثمة ما هو أكثر عروبة حتى من دمشق في بيروت. إذ يبرز هذا الجانب البيروتي في الطراز المعماري العثماني - العربي لأحيائها التقليدية، وطرابيش جيلها السني الكبير في السن المنتشرة، وقبعات الصوف داخل لفات الدروز المسنين. كانت بيروت قوس قزح ثقافات وعقائد وأيديولوجيات وأساليب حياة. عندما ألتفتُ الآن إلى الخلف، أنتبه إلى أن ما جذبني هو التنوع الذي لا يتوفر حتى في اسطنبول التي بدأ عدد غير المسلمين فيها ينخفض".

كانت بيروت أكثر مدن الشرق الأوسط تغريباً، وباب الغرب إلى الشرق الأوسط، وأحد "موانئ الشرق" التي تحدث عنها أمين معلوف. لعل حيفا فقط في زمن ما كانت تماثلها. عُزلت حيفا بسقوطها بيد إسرائيل، وسَكَنُ مثقفيها وقادتها بيروت جعل الأخيرة مدينة لا منافس لها بإحياء تقاليد بلاد الشام. كان كل شيء في بيروت؛ من غرب وشرق وموسيقى وشعر وأدب وسياسية ومكر وصراع وأنانية؛ يتغذى من كونها مركزاً ماليًّا متوسطياً لدول الخليج، ومعاناة في مخيمات الفلسطينيين.

كانت بيروت عاصمة منظمة التحرير بين عامي 1971-1982... وخلال تلك السنوات، يمكن القول إنها تحولت من مدينة شامية إلى مدينة تنتمي إلى العالم الثالث على الرغم من واجهتها الغربية.

جلبت الحرب الأهلية في تلك السنوات حمام دم ودمار. بعد حصار إسرائيل لها ثلاثة أشهر عام 1982، وقصفها من كل الجهات، غادرتها منظمة التحرير الفلسطينية تاركة في هوية المدينة آثاراً لا تُمحى. شهدتُ هذه المراحل من داخلها خلال تلك المرحلة.

بدت بيروت من دون صاحب؛ لأنها احتضنت كل شيء، وأصبحت فجأة عاصمة قوى متعددة، وحصلت على حرية واسعة تتناقض مع ضعفها الأمني نتيجة استطاعة أي شخص أن يتخذ منها مسكناً.

هوية بيروت هذه جعلتها تجذب تيارات العالم العربي الفكرية، وحتى تيارات العالم الثالث كلها، وصارت مفترق طرق المعارضين لأنظمة الدول العربية الدكتاتورية.

في بيروت عرفتُ (أبو أمل) الذي سيعرفه العالم في ما بعد باسم عادل عبد المهدي. إنه أول نائب رئيس جمهورية شيعي بعد انتخابات

2006 في العراق، وأول صديق عراقي شاركني بيته عندما كنت أنزل في بيروت بين أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات. أي إنه كان ذكراي من "مرحلة بيروت الثانية".

عشتُ مرحلتين في بيروت، كل منهما لعبت دوراً بتشكيل شخصيتي ونظرتي إلى الحياة، ولكن الثانية أهم بالنسبة إليّ.

المرحلة الأولى هي مرحلة انتسابي إلى النضال التحرري الفلسطيني. إنها مرحلة "الفدائية الفلسطينية" التي كان من يريد تشويه سمعتي في تركيا بعد سنوات طويلة منها يلصق صفة "الإرهاب" بي بسبب تلك المرحلة.

بدأت هذه المرحلة بعبوري الحدود سراً إلى سورية في نهاية حزيران من عام 1971؛ إثر انسحابي إلى العمل السري بعد انقلاب 12 آذار، وملاحقتي من قبل إدارة الانقلاب العسكرية. وانتهت في نيسان 1973 بخروجي بجواز سفر تركي مزور بشكل ساذج جداً أمّنه لي (أبو خالد) مسؤول القسم التركي – الإيراني في فتح؛ أكبر تنظيمات منظمة التحرير الفلسطينية.

عندما خرجت من تركيا وانخرطت بحركة التحرر الفلسطيني كنت محكوماً بالسجن تسع سنوات بموجب المادة 142 [9] الشهيرة؛ استناداً لنشر مقالتين في مجلة "التنوير الثوري البروليتاري" باعتباري مديراً لتحريرها اعتبرتا أنهما "تروجان للشيوعية".

وكانت قد رُفعت ضدي دعاوى مختلفة تتعلق بفترة رئاستي لرابطة طلاب كلية العلوم السياسية منها: "التحريض على التمرد"، "وخرق قانون التظاهر والتجمع". ولكن الأهم هو احتمال رفع دعوى بتهمة "تأسيس منظمة سرية"؛ لأن "منظمتنا السرية" ستُكشف قريباً كما يحدث مع بقية المنظمات.

لا يمكن أن أنفد من دعوى: "تأسيس منظمة سرية". هدمنا الجسور. بحسب رؤيتنا الأيديولوجية في تلك المرحلة (كنت في الثانية والعشرين) فإن الفاشية هي التي حكمت تركيا، وهذه الفاشية مدعومة من الإمبريالية الأمريكية، ولا يمكن القضاء عليها إلا بنضال مسلح طويل المدى يبدأ في الريف ثم يحاصر المدن لتحريرها.

تم اختياري بين أول ثلاثة أشخاص يرسلون إلى منظمة التحرير الفلسطينية المجاورة لنا بسبب صدور حكم بحقي بعد الانقلاب العسكري، واعتباري أكثر المؤهلين للعلاقات الخارجية، والحاجة لكوادر تتدرب على أساليب النضال المسلح لتعود وتقوم بمهمة التدريب.

من جهة أخرى، كُلفت بمهمة التمثيل السياسي لمنظمتنا السرية التي أسميناها: "حزب العمال والفلاحين الثوريين في تركيا"، وكنت سأخضع لتدريب فدائي، وأعود في ما بعد إلى تركيا لتدريب أوّل الكوادر الفدائية.

ظهر النضال الفلسطيني المسلح بعد الحرب العربية – الإسرائيلية الكبرى التي سميت "حرب الأيام الستة" عام 1967، وما زالت نتائجها مستمرة إلى اليوم. تناثرت قواعد الفدائيين الفلسطينيين على الطرف الأردني من نهر الأردن (الشريعة) كحبات المسبحة، وغدت مركز جذب للحركات الطلابية التي انفجرت في العالم كله، وعلى رأسه أوروبا عام 1968 وبالتوازي معها حركة طلاب الجامعات التركية.

كانت المرحلة مرحلة تشي غيفارا الأسطورة الذي عرفته تركيا بشكل واسع عبر المنشورات الماركسية – اليسارية، وحرب التحرير الفييتنامية ضد الولايات المتحدة التي حظيت بإعجاب كبير.

بدأت تجتاح الطلاب الذين يعتبرون أنفسهم ثوريين ويساريين رغبة "رحلات فلسطين" أو على الأصح الذهاب إلى القواعد الفدائية الفلسطينية في الأردن والخضوع للتدريب. أول مجموعة نظمت هذه الرحلات كانت من عينتاب (من نيزب على وجه الدقة) عام 1969، وتواصلت مع الطلاب الثوريين في أنقرة واسطنبول.

تكثفت "رحلات فلسطين" عام 1970؛ وخاصة في صيف ذلك العام. وغدا النضال الفدائي الفلسطيني نوعاً من "العطلة الصيفية" بالنسبة للطلاب اليساريين الثوريين. كان دنيز غزمش الذي أصبح "المثل الأعلى" للشباب تلك الفترة من بين الذاهبين عام 1970. بعد عودة دنيز، أقام في بيت طلبة كلية العلوم السياسية التي كنت رئيس رابطة طلابها؛ بسبب ملاحقة شرطة اسطنبول له. وكان يمضي غالبية يومه في مقصف الكلية بلباس الفدائي الفلسطيني. كان في حالة تخفٍّ تعلم بها الشرطة. لم تستطع الشرطة اعتقال دنيز غزمش على الرغم من معرفتها مكانه بسبب قانون استقلال الجامعات الذي كان سارياً في تلك الأيام. لم يكن تخفي دنيز غزمش في كلية العلوم السياسية جدياً. بعد إلقائي كلمة افتتاح الحفل الذي أقيم في قاعة المحاضرات الرئيسة بمناسبة وفاة الرئيس الفييتنامي (هو تشي منة) الذي شكّل نموذجاً لكل منا نحن الطلاب الثوريين، صعد دنيز غزمش إلى المنبر ببذلة فدائي فلسطيني – لم يُصغِ لنصيحتي بخلعها – ونشرت صوره في اليوم التالي في الصحف. وهكذا عرف الرأي العام أين وكيف يختبئ دنيز غزمش.

كانت الحركة الفلسطينية تشغل مكانة خاصة في عملية شحن شباب تركيا المندفع للنضال المسلح في مطلع عام 1970. على الرغم من ابتعاد نهجي السياسي الأيديولوجي عن فكر النضال المسلح، فقد توجه نحو هذا الفكر بعد أن حظر انقلاب 12 آذار النضال القانوني؛ متأثراً بحيوية اليسار والشباب، وبالتنافس بين التنظيمات الذي لم يعد بالإمكان كبحه، وبالانقسامات. وغدا النضال الفلسطيني المجاور لنا باباً سنطرقه نحن أيضاً.

كانت هناك عدة منظمات فلسطينية. بأي منها سنتصل أو يجب أن نتصل؟

وقَعَت على عاتقي مهمة البحث في الأمر. أفكاري المقولبة في تلك الأيام قادتني إلى عنوان الجبهة الديمقراطية. اعتبرتُ "فتح" أكبر التنظيمات الفلسطينية بقيادة ياسر عرفات تنظيماً "يمينياً" يحمل مسحة "إسلامية". الجبهة الشعبية بقيادة جورج حبش تدعي الماركسية، ولكنها ولدت من التيار القومي العربي. غير هذا، كانت تطرق عمليات "خطف الطائرات" التي يعتبرها تيارنا السياسي "إرهاباً فردياً"، وذات صخب فقط. تبدو الصاعقة يسارية، ولكنها مرتبطة بالنظام السوري. أما الجبهة الديمقراطية فتبرز باعتبارها "جناحاً يسارياً" منشقاً عن الجبهة الشعبية، وتتبنى النجمة الحمراء الخاصة بالجيش الأحمر بجانب المطرقة والمنجل شعاراً لها. وتبدو الأكثر قرباً من موقفنا الأيديولوجي.

كنتُ أعرف الكثير من الطلاب الفلسطينيين الذين يدرسون في جامعة أنقرة باعتباري أحد قادة الحركة الطلابية في تركيا. لم يكن من الصعب بالنسبة إليّ العثور على ممثلي الجبهة الديمقراطية. أقمت تواصلاً مع الجبهة الديمقراطية، وأرسلت أحد طلابها الذين تواصلت معهم إلى حلب والشام من أجل أن يُعلم مراكزها بانتسابنا إليها.

قضيت عدة أشهر في التحضير الأيديولوجي؛ بعد عبوري إلى الأراضي السورية عن طريق سهل حرّان وسط مجموعة من المهربين في حزيران من عام 1971، أي عندما غادرتُ الأراضي التركية من أجل الانضمام إلى حركة التحرر الفلسطيني.

بدأت مرحلة بيروت الأولى.

يمكن أن أقسم مرحلة الشرق الأوسط الأولى التي أسميها "مرحلة بيروت الأولى" إلى قسمين أيضاً. تمتد الأولى من تموز 1971 إلى حزيران 1972؛ وهي مرحلة "النظام الفدائي" التي قضيتها في معسكرات التدريب في معلولا وهضبة الجولان السورية، وفي القواعد الفلسطينية قرب مخيم

الرشيدية للاجئين الفلسطينيين بجوار الحدود الإسرائيلية جنوب مدينة صور اللبنانية الجنوبية، وفي نهر البارد شمال مدينة طرابلس الشمالية، وفي عيتا الفخار في سهل البقاع. ويمتد القسم الثاني من حزيران 1972 إلى نيسان 1873 تاريخ مغادرتي لبنان، وقضيتها في مخيم برج البراجنة؛ أكثر مخيمات لبنان كثافة سكانية وقتها.

مخيم برج البراجنة قريب جداً من مطار بيروت ويشرف على طريقه، وعلى الطرف الغربي منه، هناك مرتفعات رملية تساعد على حفر المتاريس. وعلى الطرف الآخر، منطقة حراجية حيث يقع مخيّما صبرا وشاتيلا اللذان سيشهدان مجزرة في ما بعد، ولموقعه هذا أهمية استراتيجية على صعيد حرب المدن.

بعد ترتيبات عام 1990، أُزيلت تلال الرمل من أمام مخيم برج البراجنة، كما أزيلت المنطقة الحراجية المقابلة للمخيم، ولم تبق شجرة واحدة.

في النصف الأول من السبعينيات، كانت الضاحية - أي المكان الذي سيتحول إلى مركز حزب الله - تحدّ مخيم برج البراجنة من الشرق. يجاور مخيم برج البراجنة من الشمال حارة حريك المسيحية المارونية التي شهدت لاحقاً أكثر صدامات الحرب الأهلية دموية.

كان الناس يسيرون في الأزقة الضيقة المتعرجة كالمتاهة حيث تسيل مياه الصرف بصحبة الجرذان، ويعيش في ذلك المخيم الذي تتراكم بيوته فوق بعضها بعضاً وأضخمها يتألف من طابقين، ويتألف بعضها من غرفة واحدة، ويشبه مناطق المخالفات في تركيا حوالى عشرين ألف نسمة.

تتوزع مراكز المنظمات الفلسطينية وحتى مستودعات ذخيرتها بشكل عشوائي داخل المخيم. تُراقب مداخل المخيم المتعددة قوة من الشرطة الفلسطينية تابعة لجيش التحرير الفلسطيني الذي يعتبر القوة المسلحة الرسمية لمنظمة التحرير الفلسطينية. ثمة كشك للشرطة الفلسطينية في مدخل الزقاق الذي يتسع لشخصين بصعوبة.

أُسكنا نحن؛ أفراد المجموعة التركية التي انخفض عددها بسبب عودة الأغلبية إلى تركيا ونحمل بطاقات الجبهة الديمقراطية في مستودع ذخيرة وسط مخيم برج البراجنة. كنا ننام على فرشات، ونحرس على مدار أربع وعشرين ساعة. إذ لا بد أن يُصاب مئات الأشخاص فيما لو تعرض المستودع الذي نحرسه لغارة جوية إسرائيلية.

انتسابنا إلى الجبهة الديمقراطية كان من تدبيري، ووقع على عاتقي

أيضاً إجراء الاتصالات من أجل ترك الجبهة الديمقراطية والانتقال إلى فتح.

تزامن الشهر الأول من تدريبنا الفدائي في الجبهة الديمقراطية مع أولى كوارث الحركة الفلسطينية التي صادفت الأيام الأخيرة من الصراع الدموي الفلسطيني - الأردني الذي نشب عام 1970، والمسمى "أيلول الأسود". بدأت القوات الفلسطينية المحاصرة في عجلون وجرش شمال عمان بين فكي كماشة إسرائيل والجيش الأردني بإخلاء الأردن، والدخول إلى سورية، والانتقال منها إلى لبنان.

تلقت الحركة الفلسطينية ضربة عسكرية ثقيلة. لم يكن يُسمح للقوات الفلسطينية المتمركزة في الجولان بأن تقوم بأي عمل ضد إسرائيل. فعلى الرغم من استمرار حالة الحرب بين سوريا وإسرائيل، كان هناك وقف إطلاق نار صارم، ولا يسمح الطرف السوري للمنظمات الفلسطينية بأن تخرقه بأي شكل.

مر شهر قضيناه في قاعدة الجبهة الديمقراطية بالاستماع لإثبات صحة نهجها وخطأ فتح "اليمينية". هذا كان تأثير خسارة الأردن على الجبهة الديمقراطية.

انتقالنا إلى لبنان، وإقامتنا لفترة قصيرة في بيروت، ثم تمركزنا في مخيم الرشيدية جنوب لبنان فتح أعيننا. وبكل الاتجاهات...

كانت قاعدتنا على شاطئ البحر المتوسط في عمق مخيم كبير للاجئين الفلسطينيين. هناك وجدنا فرصة رؤية ظروف حياة الشعب الفلسطيني في مكانها. كثيراً ما كان قادتنا يدسون بأيدينا دفاتر إيصالات من أجل جمع التبرعات من المخيم. اكتشفنا أن الكثير من البيوت التي طرقنا أبوابها كانت تدفع تبرعاتها لفتح أو أنها بيوت شهداء لفتح. بدأ تفكيرنا يُشوش. كيف لمنظمة فتح "اليمينية الرجعية" أن تتجذر في الشعب إلى هذه الدرجة، وتبدو في مقدمة النضال؟ أما جبهتنا الديمقراطية فقد كانت ناجحة جداً برفع الشعارات الحادة وتوزيع الملصقات والبيانات من دون أن تقوم بعمليات عسكرية لافتة للنظر.

وبسبب توتر بين الجبهة الديمقراطية وفتح ذات مرة، دُست الكلاشنكوفات بأيدينا، واتخذنا مواقعنا على أسطح بيوت مخيم الرشيدية. المهم أن ما قمنا به منع الصراع. قتل فلسطيني من فتح أو السقوط على يد فلسطيني من فتح، وتوجيه سلاح فلسطيني نحو فلسطيني آخر كانت أموراً غير مقبولة بالنسبة لنا.

لم تكن تُنفذ عمليات ضد إسرائيل التي تبعد عشرين كيلومتراً ونراها

وراء أفق البحر. نزل الفلسطينيون تواً إلى لبنان وجنوبه تحديداً. كانت المرحلة جامدة من الناحية العسكرية. وبدلاً من عبور الحدود اللبنانية من أجل تنفيذ عمليات ضد إسرائيل، نفّذت منظمة غامضة تدعى: "أيلول الأسود" عملية اغتيال لرئيس الحكومة الأردنية في القاهرة. وقبل مرور وقت طويل، عرفنا أن "أيلول الأسود" اسم منظمة تستخدمه فتح. كانت أهم عمليات "أيلول الأسود" التي أحدثت ضجة كبرى هي تلك العملية الدموية التي نفذتها في ميونخ ضد الرياضيين الإسرائيليين.

ثمة جمود تام في جنوب لبنان. ما زالت المنظمات الفلسطينية في حالة صدمة مما حصل في الأردن. حدث صدام وحيد مع إسرائيل أثناء إقامتنا في مخيم الرشيدية. وصلنا خبر بأن مركباً مطاطياً مليئاً بالفدائيين الفلسطينيين دخل المياه الإقليمية الإسرائيلية، وكشف أمره، وتلاحقه الطّرادات الإسرائيلية، وسينزل إلى شاطئ الرشيدية. اتخذنا مواقعنا لتأمين نزولهم. استمرت المطاردة في البحر لمدة. بعد فترة، توقفت القنابل الضوئية التي تلقيها المروحيات الإسرائيلية. يبدو أن الفدائيين قد قُبض عليهم قبل وصولهم إلى البر. وهكذا، زال احتمال دخولنا باشتباك مع الإسرائيليين.

كنا نريد أن نخرج من مخاطر خوض اشتباك داخلي بين الفلسطينيين من دون أن نطلق طلقة واحدة على إسرائيل. التقطتُ هذه الفرصة في بيروت أثناء إحدى زياراتي بصفتي "ممثلاً سياسياً". في مركز المدينة الذي سيُخرّب تماماً أثناء الحرب الأهلية لاحقاً، وجدت مكتبة اسمها "ابن سينا". دُهشت حين دخلت ووجدت صور ماركس وأنجلز ولينين وستالين وماو معلقة فيها. لم يكن رمز "الرؤوس الخمسة" يستخدمه حينئذ سوى الماويين؛ خاصة صورة ستالين، إذ لا يمكن أن تكون صورة ستالين رمزاً لأي حركة شيوعية خارج الأحزاب الصينية والألبانية.

يمكنني القول إن دخولي مصادفة إلى المكتبة فتح لي باب علاقات أثرت على حياتي بشكل كبير. كان أعضاء الحزب الشيوعي اللبناني الماركسي اللينيني يديرون المكتبة. دخلنا بعلاقة مباشرة. هم أيضاً كانوا يبحثون عنا. سمعوا من مكان ما أن هناك بعض الرفاق في الجبهة الديمقراطية.

عدتُ إلى الرشيدية بعد ذلك اللقاء والتعارف، واصطحبت شاهين ألباي، وعدت إلى بيروت. التقينا في بيت ميشال نوفل. كان ميشال عضو المكتب السياسي للحزب، وقد عاد حديثاً من مؤتمر حزب العمل الألباني المنعقد في تيرانا. علق على جدار بيته لوحة للبيت الذي أسس فيه أنور خوجا الحزب. اعتبرت وجود شاهين الذي أدخل "الماوية" إلى تركيا وكان أهم

منظريها في إحدى الفترات ضرورياً.

لعب ميشال نوفل الذي التقيته في بيته في خريف 1971 دوراً مهماً في حياتي في ما بعد من دون أن يقصد.

سأل رفاقنا اللبنانيون باستغراب عن سبب وجودنا في "الجبهة الديمقراطية". فتح تشكل 75% إلى 80% من الحركة الفلسطينية. لا يمكن فهم الحركة الفلسطينية من دون فهم فتح. ولا يمكن المساهمة بالحركة الفلسطينية بكل ما للكلمة من معنى من دون الانضمام إلى فتح. وهناك "جناح يساري" كبير ومؤثر في فتح، فيه رفاق من الحزب الشيوعي الأردني الذين قضوا سنوات في السجون. إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الضفة الغربية والقدس الشرقية بقيتا تابعتين للأردن حتى حرب حزيران (الأيام الستة)، فإن الحزب الشيوعي الأردني يتشكل أساساً من الفلسطينيين. وكان الكثير من كوادره حينئذ في فتح.

بدأ ميشال نوفل باتصالات على أعلى المستويات من أجل نقلنا إلى فتح. سيكون كافياً تعرفي إلى الرجل الثاني في فتح بعد ياسر عرفات (أبو عمار) وهو خليل الوزير (أبو جهاد). ولكن (أبو جهاد) مقيم في دمشق، ويأتي يوماً في الأسبوع إلى مكتب فتح في شاتيلا، ويجري لقاءاته هناك.

سئمت من انتظار (أبو جهاد) في مكتب فتح. لم نستطع أن نلتقيَهُ بأي شكل. لم أستطع أن أقيم علاقة مع القائد الفلسطيني الذي كان أكثر من التقيتهم في "مرحلة بيروت الثانية" ونشأت بيننا علاقة خاصة خلال "الفترة الثانية".

وجهني ميشال نوفل هذه المرّة إلى عنوان آخر أدنى من (أبو جهاد) بدرجة، ويعتبر منظّر التيار اليساري في فتح: أبو فادي، واسمه الحقيقي منير شفيق.

كان منير شفيق الرجل الثاني في دائرة التخطيط لمنظمة التحرير الفلسطينية، ولكن نفوذه يتجاوز مهمته بكثير. على الرغم من كونه مسيحياً أرثوذكسياً فقد توجه إلى الإسلام بعد ثورة إيران عام 1979. اعتنق الإسلام السني، وغدا ممثل التيار الإسلامي في فتح، وأهم المنظرين الإسلاميين في العالم العربي. واقترب من حماس في مطلع القرن الحادي والعشرين.

عندما التقيته عام 1972 كان عضواً سابقاً في الحزب الشيوعي الأردني، وقد قضى في السجن فترة طويلة، كما كان مفكراً ماركسياً له نفوذ قوي في فتح ومنظمة التحرير الفلسطينية.

ذهبتُ إلى مكتبه القريب من شارع الحمرا الفخم. كان وضعنا غير

قانوني في لبنان، وكنا نعيش في مخيم برج البراجنة. بطاقة الجبهة الديمقراطية التي أحملها لم تكن تعني شيئاً بالنسبة للشرطة اللبنانية. لأن العلاقات متوترة أصلاً بين الفلسطينيين والمسؤولين اللبنانيين، ومن الممكن إعادة مواطن تركي يقبض عليه بهوية فلسطينية إلى بلده. لهذا السبب، لم نكن نخرج من المخيم إلا في حالات الضرورة القصوى. وكنت أكثر من يغادر المخيم بسبب مهمتي. لم تكن لدينا ألبسة مناسبة من أجل التجول في المناطق الراقية من بيروت من دون أن نلفت الانتباه. لذا، استعرت حذاء رفيق هرب إلينا بعد أن أطلق سراحه من سجن مامق العسكري في أنقرة. لم يكن حذاء فخماً، ولكنه أفضل المتوفر مما يمكن أن تحمله قدماي في شوارع بيروت. وارتديت بنطالاً مخملياً لم يهترئ كثيراً، وذهبت للقاء منير شفيق.

كان مكتبه أنيقاً جداً مقارنة بالظروف التي نعيشها. بدا منير شفيق نبيلاً إنكليزياً أكثر مما بدا ثائراً فلسطينياً. وحين التقيته شعرت بأنني في هيئة رثة جداً وسط ما اخترته من أفضل ما لدي من لباس. كنتُ منتبهاً إلى أنني لا أعطي انطباعاً بأنني شخص يجذب الاهتمام.

وجهني منير شفيق إلى شقيقه الذي قال إنه مسؤول القسم التركي – الإيراني. وهكذا عرفت (أبو خالد)؛ أحب أصدقائي إليّ، وأكثر من أثر في حياتي.

لوجود الكثيرين ممن يستخدمون اسم (أبو خالد) في الحركة الفلسطينية، أضاف اسمه الأول جورج. استقبلني بحرارة شديدة على عكس استقبال أخيه الأرستقراطي. على الرغم من كونه مسؤول القسم الإيراني – التركي ويتواصل مع الكثير من الثوار الإيرانيين، إلاّ أنه لم يقابل أي تركي. كنت "الأول" بالنسبة إليه.

عندما أبلغته أننا نريد الانتقال من الجبهة الديمقراطية إلى فتح، قال لي إن هذا ممكن، ولكنه يريد أن يعرف من نحن. كنا في تلك الأثناء قد انقطعنا عن منظمتنا. فرفاقنا الذين أتوا معنا في المجموعة الأولى إلى الحركة الفلسطينية تركوا المنظمة وعادوا إلى تركيا من أجل إيجاد العناصر المنتقلين إلى المعارضة، ولقاء إبراهيم قايباق قايا الذي كان يمثل المعارضة الداخلية في المنظمة. في تلك الأثناء، أعدم دنيز غزمش وحسين إنان ويوسف أصلان، وقتل ماهر تشايان ورفاقه. أما بقية المنظمات اليسارية بما في ذلك منظمتنا التي خططنا لتكون معارضة فقد انهارت أو دخل أعضاؤها السجون.

ما الذي يمكن أن أشرحه لأبي خالد عن المنظمة؟ الأهم من هذا أن

ارتباطي برفاقي الذين غادروا إلى تركيا مقطوع.

حدّثته عن حالتنا وطموحنا بشكل مبالغ به، وقلت له إننا سنطلب "سلاحاً من أجل قتال الإمبريالية الأمريكية في تركيا".

قال (أبو خالد) جورج والابتسامة لم تفارق وجهه: "انظر، من ناحية تأمين السلاح فسنؤمّنه. ولكن، إذا وقع بأيديهم قبل استعماله فسيكون ذلك مؤسفاً على السلاح وعليكم. حضّر لي تقريراً عن تاريخ الحركة اليسارية في تركيا، ومجموعاتها، وموقفها الأيديولوجي، وبنياتها التنظيمية، وتعال لنتحدث حولها بداية...".

عدتُ إلى برج البراجنة. تناولت القلم، وكتبتُ صفحات كثيرة. أثناء كتابتي، وجدت أنني أحاسب نفسي؛ والأهم من هذا أنني أحاسب الحركة اليسارية في تركيا. في الحقيقة، إن تلك المحاسبة بدأت سابقاً، منذ الأسابيع الأولى في الحركة الفلسطينية. خيبة أملنا بالجبهة الديمقراطية تزامنت مع خيبة أملنا بتنظيمنا في تركيا.

ثمة عناصر كثيرة تراكمت: تواصلنا مع الشعب الفلسطيني - في مخيم الرشيدية الجنوبي أولاً، وبيروت في ما بعد - فتح أعيننا على الحركة الشعبية، والروابط بين الشعب وتنظيم النضال المسلح. بدأنا نرى علاقاتنا الواهية بين تنظيماتنا في تركيا والشعب من خلال التجربة الفلسطينية.

كنا نعيش وسط حركة تحرر لها مكانة محترمة في العالم. والتعليمات التي تأتينا من تركيا تبرز قلة خبرة المقبوض عليهم والمستسلمين.

ذهبتُ إلى سفارة الصين في دمشق عدة مرات بموجب تعليمات الحزب. أُبلغت بأن حزبنا أقام علاقة مع الحزب الشيوعي الصيني، وصدرت إليّ تعليمات بمراجعة السفارة الصينية بدمشق للخطو بعض الخطوات العملية. لم يكن الدبلوماسيون الصينيون على علم بأي شيء مما وصلني. من الواضح أننا كنا نعيش في عالم من الخيال ونريد أن نعيش عالماً من الكذب. اهتزت ثقتنا بالمركز في تركيا. ومع الوقت، فقدتُ هذه الثقة تماماً، واتخذنا؛ نحن المنخرطين في صفوف الحركة الفلسطينية قراراً بترك فصيلنا الذي نسميه حزباً، وبالعمل بشكل مستقل.

في المرحلة نفسها، أدهشتنا التطورات التي شهدتها الصين، والتي تستند حركتنا إليها أيديولوجياً. دُهشنا بخبر محاولة لين بياو - الرجل الثاني في الصين بعد ماو - القيام بمحاولة انقلابية، وأثناء هربه إلى الاتحاد السوفييتي ألد أعداء الصين سقطت طائرته في منغوليا ومات. بدأت تسقط بأنظارنا الثورة الثقافية التي كنّا ندافع عنها على مدى أشهر. الأكثر من

هذا، نتيجة الدبلوماسية الجديدة التي وضعها هنري كيسنجر في الولايات المتحدة الأمريكية، ذهبَ الرئيس الأمريكي نيكسون مع وزير خارجيته كيسنجر إلى بيجين، ونزلا ضيفيْن على ماو، وبدأ التقارب الأمريكي الصيني. تبددت كل الفروق الأيديولوجية التي تميزنا عن بقية أجنحة اليسار في تركيا.

أضف إلى ذلك، انهيار التنظيمات اليسارية في تركيا الواحد تلو الآخر، وإلقاء القبض على المئات من رفاقنا. مع من سنناضل؟ وضد من؟ وكيف؟

شوّشت عقلي أسئلة (أبو خالد) جورج بعد أن كانت تلك الأسئلة تنهش عقلي. كنت واعياً بأن خوض نضال مسلح في تركيا بوضعنا في تلك المرحلة ضرب من ضروب الخيال، ولكنني كنت أخشى من الاعتراف بهذا حتى أمام نفسي. والظروف التي وقعنا بها لا تمكننا من البحث عن مجال حركة جديد.

قدمت التقرير المؤلف من ثلاثين صفحة بخط اليد إلى (أبو خالد). الأسئلة الجديدة فرضت عليّ إعادة كتابة التقرير مرات عديدة. خلال هذه الفترة، أصبحنا – (أبو خالد) وأنا – كأخوين. من جهة أخرى، انسد أفق تركيا بالنسبة إلي. إذا أردت أن أعود إلى تركيا فإن كل العناوين التي يمكن أن أذهب إليها والمراكز التي يمكن أن أتصل فيها وقعت بيد الشرطة.

قررت أن أعيش حياتي كمحارب فلسطيني. تطورت لغتي العربية كثيراً. كنت أستطيع أن أتواصل مع الناس ببساطة، ومن دون الحاجة إلى لغة أخرى.

انخفضَ عدد مجموعتنا القادمة من تركيا في مخيم برج البراجنة الفلسطيني. غالبية رفاقي في المجموعة – وهم قلة أصلاً- إما جاءوا حديثاً إلى لبنان وقد قذفتهم رياح الكذب للانخراط في نضال مسلح متخيّل، أو جاءوا تهريباً من تركيا، أو قادمون من ألمانيا ويريدون العبور إلى تركيا. ارتباطهم بالقضية الفلسطينية ليس قوياً كفاية. وقد تغيّر وضعنا في المخيم أساساً. خرجنا من كوننا فدائيين بسبب نقص عددنا، ودخلنا بوضع المرتزقة أو الميليشيا. كنا نقضي أيامنا بقراءة الكتب والنقاش أو جلسات النقد الذاتي التي لا تنتهي. تحولنا إلى أفراد قطعت علاقاتهم بمنظمتهم، ويبدو أن الطريق الوحيد المتاح لنا هو الاستمرار بحياتنا في المنفى الأوروبي. مهما يكن، ثمة طبقة عاملة تركية كبيرة هناك.

صار شغلنا الجديد هو إيجاد جوازات سفر مزورة توصلنا إلى أوروبا.

في هذه الظروف، اتصلت قيادة منظمتنا في ألمانيا في مطلع 1973 محاولة إعادة ربطنا بمنظمتنا التي تركناها. أمّن رفاقنا؛ ما عدا ثلاثة – أنا من بينهم رفضنا هذا المقترح – جوازات سفر، وتركونا على أمل الذهاب إلى ألمانيا. ذهب الرفاق الذين انفصلوا عنا إلى مخيم نهر البارد في شمال لبنان الذي ذهبنا إليه قبل سنة من أجل انتظار ذهابهم إلى ألمانيا.

نزل عددنا إلى ثلاثة أشخاص. استأجرنا غرفة كوخ في المخيم. أحدنا جلب زوجته من تركيا وانتقل إلى مكان آخر. أخيراً، بقينا شخصين في غرفة كوخ.

ذات يوم من شباط (20 منه) جاء ثلاثة من رفاقنا الذين غادرونا إلى شمال لبنان من أجل الذهاب إلى ألمانيا؛ وهم بورا غوزَن وأحمد أوزدمير ويوجل أوزبك، وطلبوا لقائي. قالوا إنهم أمّنوا جوازات سفر، وسيذهبون في اليوم التالي إلى ألمانيا من ميناء بيروت. جاءوا من أجل إبلاغي بمراكز الارتباط إذا أردت أن أنتقل إلى أوروبا من أجل الاستمرار بالتواصل.

ودّعت أحمد ويوجل عناقاً. ألححت على بورا بأن يقضي الليلة معنا في الغرفة التي نقيم فيها. لأننا لن نلتقي لفترة طويلة. ذهبوا صباح اليوم التالي إلى طرابلس ومنها إلى نهر البارد. كان سفرهم عبارة عن ساعة ونصف الساعة. كنت سأطبخ له برغلاً لو بقي. لكنه قال إنه سيقضي بعض أعماله في بيروت، وسيأتي مساء. اشتريت لوازم "الوليمة" التي سأقيمها لبورا من مركز بيروت، وعدت. لم يأت بورا. توقعنا أنه غيّر رأيه، وعاد. في اليوم التالي، سمعنا من الراديو بأن إسرائيل شنت هجوماً على مخيم نهر البارد، وفقد البعض حياتهم إضافة إلى أسيرين أحدهما تركي تم القبض عليه جريحاً. كان بورا غوزن رفيقي الذي عشت معه سنوات طويلة، وشاركته الخبز في مخيم اللاجئين الفلسطينيين بين الثمانية الذين فقدوا حياتهم. حزنت كثيراً.

بعد تجاوزي الصدمة مباشرة هرعت إلى (أبو خالد). أعطانا سيارة وذهبت بصحبة رفيقي الذي أقيم معه في مخيم برج البراجنة للمشاركة في الجنازة التي شُيّعت في مخيم البداوي، ثم ذهبنا إلى مخيم نهر البارد حيث شُن الهجوم. كانت معنا زوجة محمود الهمشري الفرنسية؛ ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في باريس الذي اغتالته إسرائيل قبل فترة هناك.

أنقذ من الهجوم الإسرائيلي شخصان جريحان. أدخل أحدهما المستشفى في طرابلس. زرنا رفيقنا الجريح الذي نقل إلى المستشفى في طرابلس. التركي

الآخر الذي علمنا أنه جريح كان بحالة جيدة. تأذى غشاءا طبلتي أذنيه نتيجة انفجارات الهجوم الإسرائيلي. لم نكن نعرفه من قبل. تقابلنا عند ذهابنا إلى مخيم نهر البارد. جلبناه معنا إلى بيروت من أجل العلاج.

صدمنا بقوة فقدان بورا وبقية رفاقي على هذا النحو. كنت أقدم المشاركين بالحركة الفلسطينية. وكل مخيم غادرته كانت إسرائيل تضربه بعد فترة. تجوّلتُ في شوارع بيروت وأنا أفكر كيف تخلصت من الموت على قيد شعرة، وكيف أعيش الآن.

في هذه الأثناء، تدبر (أبو خالد) لي ولصديقي المقيم معي في برج البراجنة جوازي سفر تركيين وكان مشغولاً بتزويرهما. هناك جناح في فتح يجيد هذا العمل، ولكن اسم ذلك الجناح "أيلول الأسود" وهو بقيادة الرجل الثالث في فتح (أبو إياد). كان (أبو خالد) قلقاً من تكليفنا بتنفيذ عملية في أوروبا باسم "أيلول الأسود". ولخوفه على حياتنا كان يقوم بعمل لم يقدم عليه في حياته. كان يعد جوازاً مزوراً لكل منا بنفسه. بعد تحضير الجوازين كنا سنغادر الشرق الأوسط إلى أوروبا من طريق واحد في موعدين مختلفين.

عندما أنهى (أبو خالد) عمله، ودس الجوازين بيدي لم أرتح من النتيجة؛ كأن الختم على الجواز يصرخ بأنه مزور. على الرغم من عدم دقة يدي وضعتُ قطرة كولونيا على الختم الذي لم يعجبني محاولاً تصحيحه، فتبدد أكثر، وصار يصدر رائحة من جيب السترة التي كنت أضعه فيها. اعتقد (أبو خالد) أن التفتيش الإيطالي على الجوازات هو الأضعف، ولذلك قطع لي تذكرة طائرة إلى إيطاليا. صدق توقعه. فعندما مددت الجواز الذي يفوح برائحة الكولونيا لشرطي الجوازات ختم تأشيرة الدخول من دون أن ينظر إلى وجهي وهو منخرط في حديث حار مع زميله.

قبل أيام من مغادرة بيروت بفضل (أبو خالد) والإمكانيات التي أمنتها لي فتح، وتحديداً في 10 نيسان اهتز بيتنا المؤلف من غرفة بضجيج انفجارات وآليات بنادق رشاشة. لحظة اندفاعنا نحو الخارج، رأينا يوسف يركض وهو يصرخ فرحاً: "جاءوا".

كان يوسف في التاسعة عشرة من عمره، طويل القامة ووسيماً جداً. إنه ابن أحد جيراننا في مخيم اللاجئين الفلسطينيين الذي نعيش فيه. كان يحبنا كثيراً، ومن أصدقائنا المقربين. ذات يوم، جلب لنا أحد المشاركين بعملية ميونيخ وعرفنا عليه. لم يعط الشاب اسمه ولم يتكلم، وكان قد تحرر من سجون ألمانيا بفضل عملية خطف طائرة جريئة نفذتها "أيلول

الأسود" ونقل إلى ليبيا. أصر يوسف على تعريفنا إليه. ومنذ ذلك اليوم، شككنا بأن يوسف عضو في "أيلول الأسود"، ولكن صداقتنا وعلاقتنا المحببة بقيت مستمرة.

في تلك الليلة، أخذنا أسلحتنا وهرعنا إلى تلال الرمل المطلة على طريق مطار بيروت. بدأ هجوم إسرائيلي على المخيم. وضعت نفسي تحت قيادة جيش التحرير الفلسطيني وبيدي كلاشنكوف على قيود الجبهة الديمقراطية، وفي جيبي بطاقة فتح. تمترسنا خلف الرمل لمجابهة الإسرائيليين القادمين من البحر.

كانت قذائف الهاون التي ترسم خطاً مضيئاً من فوقنا تهز الأرض عندما تنفجر. كنت أستطيع رؤية مساحة واسعة حيث تسقط القنابل المضيئة من المروحيات الإسرائيلية. كانت الأرض الرملية حيث كنا متمترسين تنبع بالفدائيين الفلسطينيين المسلحين.

خطر ببالي بورا غوزن والرفاق الذين فقدناهم قبل فترة قصيرة. وخطر ببالي المثل القائل: "الجرادة تنط مرّة، وتنط ثانية، ولكنها تقع في الثالثة". والمثل الذي يقول: "جرة الماء تُكسر على طريق النبع...". لقد حان وقت القدر باعتباري صاحب أطول فترة قضيتها في الحركة الفلسطينية.

غاب يوسف برهة، ثم أتى وهو يقول: "هيا تعالوا!". وهرع إلى المواقع الأمامية ونحن خلفه. أخيراً تمددنا على الأرض، وسألته: "ماذا يحدث؟ لماذا جئنا إلى هنا؟". لم يستطع أن يهدأ من شدة الفرح، وقال: "هذا الموقع الأول، اسمه متراس الانتحار. لا مخرج من هنا. فكر، سيمتزج الدم الفلسطيني بالدم التركي. إذا ضحينا بأنفسنا في هذا العمر فإن الأجيال القادمة ستقول هناك من مات في سبيل القضية الفلسطينية، وتستمر بالنضال...".

كان صادقاً جداً حيث لا يمكن رفض طلبه. خطر ببالي كيف سيتلقى والدي ووالدتي خبر موتي. أججت في نفسي شعور: "سيفخران بي مدركين أنني مت في سبيل قضية". تفرض عليّ الثورية الرومانسية هذا التفكير. من جهة أخرى، تجلت في عقلي صورة أمي عندما تتلقى خبر موتي. لم أحتمل دموع أمي. كانت تتدفق كالسيل من عينيها.

اقترب الهجوم الإسرائيلي كثيراً. جاء أمر: "ركبوا الحراب!". هذه هي قواعد متراس الانتحار. سنحارب مواجهة عندما ينتهي رصاصنا، وسنستخدم حرابنا من أجل إكساب الذين خلفنا وقتاً. حل فشلي الأزلي في أحرج اللحظات، ولم أستطع تركيب الحربة بأي شكل. تخليت عن هذا.

فجأة، تصاعد نشيد "وصية الشهيد" من متراس الانتحار. كنت أحفظه. بدأت أردده بأعلى صوتي. سيطر عليّ شعور بأن معنى النشيد وقوته سيخففان عني ثقل آخر لحظات حياتي. عدم تمكني من تركيب الحربة جعل حالتي النفسية سيئة.

انتهى النشيد، ولكن الهجوم الإسرائيلي توقف فجأة. مع أشعة الصباح الأولى، عرفنا أن الهجوم كان على بعد كيلومتر أو كيلومترين منا؛ حيث مراكز منظمة التحرير الفلسطينية في صبرا والفاكهاني، وكان يستهدف ياسر عرفات، وقد قُتل ثلاثة قادة فلسطينيين هم أبو يوسف النجار وكمال عدوان من مؤسسي فتح، والناطق باسم منظمة التحرير الفلسطينية كمال ناصر، وأن هدف الهجوم علينا كان عدم السماح للعدد الكبير من الفدائيين المتواجدين في مخيم برج البراجنة بالتحرك لتقديم الدعم لمنطقة الهجوم الأساسية.

ومع ظهور هذه المعلومة، سيطرت القوى الفلسطينية على بيروت نتيجة غضبها من عجز الحكومة اللبنانية عن مواجهة الهجوم الإسرائيلي. كنتُ وسط الأسلحة التي تقطع طريق المطار. تذوقت لعدة ساعات طعم "السلطة الثورية" في المدينة التي عشت فيها سنتين بشكل غير قانوني.

لقد بقيت على قيد الحياة. لم تتحقق أمنية يوسف الرومانسية. عندما تقفيت أثر يوسف بعد سنوات طويلة، عرفت أنه درس الهندسة في الولايات المتحدة الأمريكية، وأقام هناك، وقد تزوج من فتاة يهودية.

في اليوم التالي للهجوم الإسرائيلي، كنت أسير بصحبة (أبو خالد) خلف نعوش القادة الفلسطينيين الثلاثة في أعظم مراسم تشييع في تاريخ بيروت. وسيُدفن (أبو خالد) في مقبرة الشهداء الفلسطينية تلك بعد ثلاثة أعوام. كان على رأس السرايا الطلابية التي شكلها الطلاب والمثقفون الفلسطينيون واللبنانيون، وأثناء خوضه إحدى المعارك في جبل صنين - أعلى نقطة في لبنان - أصيب بقذيفة صاروخية، واختطفته المنية في سن الشباب. وقد أهديته أول كتاب لي والذي صدر في ذلك العام.

لقد خطط لي مغادرتي لبنان ودخولي إلى أوروبا بأدق التفاصيل، واشترى لي بطاقة دمشق - روما على خطوط "إير فرانس"، وروما - ميلانو على خطوط "أليتاليا". كان من المقرر أن أقصد جنيف بعد وصولي إلى ميلانو حيث رفيقي اللذين تواصلا معي بولند تانور ويوجل صايمان. ختم على جوازي خاتم الخروج من لبنان. أبرزت بطاقة فتح ووثيقة الإجازة التي أعطاني إياها لشرطة الحدود اللبنانية. بهذه الطريقة، يتم العبور بين

لبنان وسورية. في الحدود السورية على بعد عدة كيلومترات، قدمت للسوريين جوازي المختوم عليه الخروج اللبناني. وبعد دخولي، هرعت إلى مطار دمشق.

سارت الخطة كما رسمها بالضبط.

حين عانقت (أبو خالد) مودعاً في أحد أيام نيسان من عام 1973، لم أعرف أننا لن نلتقي ثانية. انتهت مرحلتي البيروتية الأولى بوداعه. انتهت مرحلة النضال الفدائي الفلسطيني التي حملتها بفخر طوال حياتي من دون أن أطلق رصاصة واحدة على "العدو".

IX - "كخيالات غير واضحة" (أصدقاء قدامى - مجهولون)



لا يعيش الإنسان حياته الفردية كفرد فقط. في الوقت نفسه، يعيش حياة مرحلته ومعاصريه.

توماس مان، الجبل السحري، 1924

إذا كان هناك من لعب دوراً في حياتي من دون أن يدري ولم نلتق على مدى أربعين سنة فهو عبد الحميد درويش؛ أحد أقدم رجال الحركة الكوردية. عندما ذهبت إلى فندق في تبة باشِ لأدير جلسة بعنوان "السياسة الخارجية العراقية" في العاشر من نيسان 2012 كنت أعرف أنني سأجده هناك، وأنه لن يعرفني. رأيت اسمه في القائمة، وكان اسمي مدرجاً أيضاً، ولكنه لا يعرف اسمي الحقيقي.

عرفته فور دخوله القاعة؛ على الرغم من مرور كل تلك السنوات. يجب أن يكون عمره قد قارب الثمانين. ناديته بالعربية، وذكرته بأيام سورية ولبنان في مطلع السبعينيات. لم يكن من الممكن أن يعرفني بشعري الأبيض. فور ذكري اسمي الحركي صرخ: "زكريا". تعانقنا. تابع أصدقاؤه

الملتفون حوله وعلى رأسهم الناطق الرسمي باسم الحكومة العراقية علي الدباغ لقاءنا الحار باستغراب. التفَتَ إليهم عبد الحميد درويش، وقال: "لم نلتق منذ أربعين عاماً. ساعدتهم كثيراً قبل أربعين عاماً".

صحيح ما قاله. استمرت علاقتي بالكورد، وتطورت أثناء إقامتي في بيروت أيضاً. كان في مقدمتهم الكوردي السوري عبد الحميد درويش الذي كنت أناديه: "الرفيق عبد الحميد". إضافة إلى أن "الرفيق عبد الحميد" عرّفني إلى جلال طالباني في مطلع عام 1973، فقد كان يلبيني بتمرير رفاقي بشكل آمن من سورية إلى تركيا. كان الأصدقاء الكورد بقيادته أقوياء جداً في قامشلي. كان وصول رفاقنا إلى قامشلي على الحدود السورية التركية كافياً. يتولى الكورد السوريون الباقي، أي تمريرهم إلى تركيا.

ذهبتُ من بيروت إلى حلب عدة مرات باعتبارها أحد مراكز الارتباط مع الكورد السوريين من أجل تنسيق أمور عبور الحدود. لم أهمل التعريج على جكر خوين والمبيت عنده.

لم تكن ثمة إجراءات أمنية مثل اليوم في المطارات. كان من يعود من رفاقنا إلى تركيا يأتي إلى دمشق أولاً، ويقيم عدة أيام في مخيم اليرموك للاجئين الفلسطينيين من أجل الاستعداد للعودة، ثم نرسله من دمشق إلى قامشلي بالطائرة. وهناك، يستقبله أصدقاؤنا الكورد وعلى رأسهم الرفيق عبد الحميد بقافلة، وعندما يصبح الوضع متاحاً يعبرون دجلة إلى جِزرة.

تعرّفت إلى كوردي من تركيا بواسطة الكورد السوريين. كان مسؤولاً في جناح سعيد ألتشي للحزب الديمقراطي الكوردستاني في تركيا. قال إنه كان رئيس بلدية باطمان قبل انقلاب 12 آذار. لم أعرف اسمه بسبب استخدامه اسماً حركياً، ولم أسأل أيضاً.

كثيراً ما كان يزورني في كوخي المؤلف من غرفة واحدة في برج البراجنة، ويحدثني ساعات عن الحركة الكوردية في تركيا. سمعت منه أن حزب تركيا الجديدة بقيادة الدكتور يوسف عزيز أوغلو من سلون والذي شغل منصب وزير الصحة في حكومة ائتلاف حزب الشعب الجمهوري وحزب العدالة هو في الحقيقة الجناح القانوني للحزب الديمقراطي الكوردستاني.

كنا نعرّج أحياناً على بيت الشاب ابن شقيق الرفيق عبد الحميد ممثل الحزب الديمقراطي الكوردي السوري في شارع الحمرا.

هذه العلاقات فتحت طريق التعارف إلى جلال طالباني وصداقته في

بيروت.

أول ما قمت به بعد مغادرتي الشرق الأوسط إلى جنيف في سويسرا، هو أنني عرّجت على لوزان لكي أجد الأكاديمي عصمت شريف وانلي ممثل الملا مصطفى برزاني في أوروبا. وكنت قد سمعت باسمه كثيراً في الشرق الأوسط. قدّمت له مجلداً من الديوان الذي أهداني إياه جكر خوين لكي أعطي أهمية لنفسي.

لم أستطع الاستمرار بعلاقتي مع عصمت شريف وانلي، وبقيت علاقتي به آخر علاقة بالكورد لفترة طويلة إلى أن أُرسلت من جديد بشكل مختلف جداً في "مرحلة بيروت الثانية".

بدأت مرحلة بيروت الثانية عام 1978؛ بعد الأولى بخمس سنوات. وهذه أيضاً يمكن تقسيمها إلى قسمين. القسم الأول من مرحلة بيروت الثانية من عام 1978 إلى يوم مغادرة القوات المسلحة الفلسطينية لبنان بعد محاصرة القوات الإسرائيلية لبيروت ودخولها.

الثانية من عام 1982 وحتى نهاية الثمانينيات؛ حيث كنت أزور بيروت ثلاثة أشهر في السنة تقريباً. بالتأكيد زرت بيروت بعد تلك الأيام، ولكن بشكل غير منتظم. لم تنقطع علاقتي بالمدينة التي شكلتني قط.

لا يمكن أن تنقطع. لقد بات لها حق علي، ولي حق عليها وخاصة أثناء تداخل حياتنا أيام القهر. نشأت علاقتي الخاصة جداً ببيروت في الأشهر الثلاثة من أيام الصيف الأكثر قهراً بين 14 حزيران و30 آب عام 1982 تحت حصار إسرائيل وقصفها المستمر.

استمرت حياة منفاي في جنيف وباريس وأمستردام بعد مغادرتي بيروت عام 1973، وانتهت بعودتي إلى تركيا بعد صدور عفو في مطلع تشرين الأول من عام 1974. بعد أن كنت عاطلاً عن العمل لسنتين، بدأتُ العمل صحفياً عام 1976. بدأت العمل الصحفي في جريدة الوطن، وتزامن بدئي العمل الصحافي مع نشوب أشد الاشتباكات في بيروت خلال الحرب الأهلية اللبنانية. كنت أعرف لبنان كما أعرف راحة كفي، وأعرف اللاعبين السياسيين فيه أكثر من أي شخص آخر في تركيا. بدأت مقالاتي في الوطن حول الحرب الأهلية اللبنانية وسيرها تلفت الأنظار. وفرضت نفسي "كخبير في شؤون الشرق الأوسط".

أول رحلة خارجية لي بعد العفو كانت إلى بغداد. بعد أن قضيت عدة أيام في بغداد، انتقلت إلى بيروت. كنت أحمل صفةَ صحفيٍ وجوازَ سفرٍ رسمياً. وطئت الشرق الأوسط في المرة الثانية بطريقة رسمية.

كان سبب زيارتي بغداد هو مهرجان الأفلام الفلسطينية الدولي. كانت العلاقات التركية – العراقية جيدة جداً بسبب افتتاح خط أنابيب بترول كركوك – يومورطالك في ذلك العام. عرفت السفارة العراقية اهتمامي بالشأن الفلسطيني من مقالاتي، لذلك دعتني إلى المهرجان الدولي للأفلام الفلسطينية في بغداد.

متابعتي الصحفية للحرب الأهلية اللبنانية والنضال الفلسطيني على مدى عامين قادتني للتعرف إلى ممثل فتح في أنقرة الطالب في جامعة الشرق الأوسط عبد العزيز عبد العزيز. لم تكن تركيا تعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية، وكانت تقيم علاقات وثيقة بإسرائيل. كان عبد العزيز ممثلاً شبه رسمي لفتح، ويؤخر تخرجه من جامعة الشرق الأوسط من أجل تمديد إقامته في تركيا.

عندما عرف بأنني سأسافر إلى بغداد، ومنها إلى بيروت رتب لي لقاء مع ياسر عرفات. كنت سأذهب إلى بيروت، وأحلّ ضيفاً على منظمة التحرير الفلسطينية وأعمل حواراً مع قائد فتح والمنظمة ياسر عرفات لنشره في الصحافة التركية. لا شك أن الحوار مع ياسر عرفات يُعد نجاحاً صحفياً، وسيخدم هدف الدعاية الفلسطينية في تركيا. لم تكن نظرة الرأي العام التركي للفلسطينيين على أنهم "إرهابيون" قد مُحيت بعد. وثمة تأثير ضد مصلحة الفلسطينيين من خلال إقامة تركيا علاقات دبلوماسية مع إسرائيل وعدم وجود هذه العلاقة مع منظمة التحرير الفلسطينية.

بدأت إسرائيل باحتلال جنوب لبنان يوم وصولي إلى بغداد. كانت تلك العملية واحدة من أهم العمليات العسكرية الإسرائيلية خارج الحدود ضد القواعد الفدائية الفلسطينية في جنوب لبنان. تزامن المهرجان الدولي للأفلام الفلسطينية مع تردد أصداء المعارك بين إسرائيل والفلسطينيين في جنوب لبنان. استضافنا نظام البعث – وبيننا مشاهير مثل جينا لولوبريجيدا وفانيسا ردغريفا – في مطاعم تذكر بألف ليلة وليلة على ضفة بردى، واستقبلنا نائب الرئيس صدام حسين. غير هذا، فقد أشركني قياديو البعث مع بقية الضيوف بمسيرة احتجاجية ضد إسرائيل حُملت فيها صور صدام. انتهت مسيرتنا الضخمة التي شاركت فيها جينا لولوبريجيدا في ساحة التحرير. وهناك خطب ميشيل عفلق الاسم الكبير في الحركة القومية العربية ومؤسس حزب البعث الذي وقف إلى جانب الجناح العراقي في الحزب بعد الانقسام.

أثناء تلك المسيرة كنت أفكر ببيروت. سأذهب إلى مدينتي الحبيبة

بعد انقطاع دام خمس سنوات؛ وهي تحتل رأس الأحداث العالمية.

فور وصولي إلى بيروت، استقبلني الناطق باسم منظمة التحرير الفلسطينية محمود لبادي. نسّق عبد العزيز من أنقرة استقبالي على أعلى المستويات. أثناء انتظار موعدي مع عرفات تقفيت آثار أصدقائي القدماء، ووجدت ميشال نوفل.

استمعت منه ومن أصدقائي الآخرين عما جرى في السنوات الخمس الأخيرة، وقصة الحرب الأهلية اللبنانية في سهرات طويلة. ورأيت أننا خلال فترة السنوات الخمس خضعنا لتحول أيديولوجي متشابه من دون أن نكون على تواصل في ما بيننا، وهذا ما أسعدني. غير هذا، فقد أصبح ميشال أيضاً صحفياً مثلي. لقد كان مسؤولَ قسم الأخبار الخارجية في جريدة النهار التي كانت تعتبر إحدى أهم جريدتين لبنانيتين في تلك الفترة. وكنت أعمل العمل نفسه في جريدة الوطن.

جميع أصدقائي اللبنانيين قاموا بمهمات عسكرية في صفوف فتح خلال الحرب الأهلية أثناء غيابي عنهم. فقدتُ عزيزاً من أصدقائي القدامى؛ إنه صديقي العزيز (أبو خالد)...

برزت منظمة التحرير الفلسطينية في الساحة العالمية خلال خمس السنوات التي مضت، وخاصة بعد الحرب العربية الإسرائيلية (تُذكر بأسماء عديدة مثل حرب رمضان، حرب يوم الغفران، حرب تشرين)، وظهرت وكأنها دولة حوّلت بيروت إلى عاصمة لها، ومأسست نفسها بشكل لافت.

غالبية أصدقائي الفلسطينيين واللبنانيين من المرحلة السابقة أقاموا علاقات وثيقة بالشخصية الكبيرة في النضال الفلسطيني (أبو جهاد) الذي يعتبر الرجل الثاني بلا منازع بعد عرفات. جميعهم تقريباً شاركوا بشكل ما في المعارك العنيفة من خلال السرايا الطلابية التي قدم فيها (أبو خالد) روحه، وبشكل طبيعي أصبحت بينهم وبين عرفات و(أبو جهاد) علاقة خاصة باعتباره القائد الفعلي للقوات المسلحة الفلسطينية.

كان منير شفيق مع المصري الدكتور محجوب عمر على رأس دائرة التخطيط التي تعتبر المؤسسة الفكرية السياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية، وكانا ملهمي أوساط أصدقائي المقربين.

في بداية مرحلة بيروت الثانية، عملت على إغلاق فجوة السنوات الخمس التي غبتُها، وتقوية ارتباطي بالقضية الفلسطينية. ذات ليلة، جاء فلاح فجأة إلى بيت ميشال. كان واحداً من أعز أصدقائي في مرحلة بيروت الأولى. اختبأ في بيتي في برج البراجنة مدة شهر عندما لاحقته الشرطة

اللبنانية نتيجة نشاطاته. كنت أعرفه باسمه الحركي حسام. كان ضخماً وبديناً ومحبباً. دُهشت عندما رأيته باللباس العسكري وقد نحل كثيراً. أصبح أحد قادة فتح في جنوب لبنان. جاء إلى بيروت من أجل أن يأخذ نفساً من المعارك، ويجري بعض اللقاءات، ويؤمن بعض الإمدادات، وفي اليوم التالي سيعود إلى مكان مهمته.

شعرت بنظراته المعجبة بي عندما كنت فدائياً في النضال الفلسطيني أثناء اختبائه في بيتي في المخيم قبل خمس سنوات. بعد خمس سنوات، التقينا؛ أنا كصحفي تركي، وهو قائد فلسطيني وسط الحرب.

شعرت بأنني عدت إلى عشي، وحظيت ببيئتي الطبيعية وبأصدقاء جدد لم أكن أعرفهم من قبل. في تلك الأيام، عرفت يزيد صايغ الذي كان في دائرة التخطيط في منظمة التحرير الفلسطينية، ثم برز اسمه كمثقف كبير وعضو في هيئة تدريسية في جامعة أكسفورد، ومعين قائد الوحدات الفلسطينية المحارب في قلعة الشقيف أحد المراكز الاستراتيجية في جنوب لبنان بطوله الفارع وجسمه النحيل وكارزميته، وعباس في مكتب الغرب المسؤول عن تنظيم فتح السري في الضفة الغربية وعملياتها وكثيرين غيرهم.

في تلك الرحلة، التقيت عرفات لأول مرة، ولم تنقطع علاقتنا حتى وفاته. والتقينا مرات في بيروت وأنقرة وموسكو وتونس والجزائر والرباط والدار البيضاء والكويت وداكار وأخيراً في الأراضي الفلسطينية في غزة وقبيل وفاته عندما كان محاصراً في المقاطعة.

لم أر عرفات في مرحلة بيروت الأولى سوى مرتين، إحداهما من بعيد أثناء مروري من أمام مكتب فتح في بيروت وهو في الفسحة ينتظر سيارته، والثانية أثناء وجودي في غرفة أبي خالد وكان الباب مفتوحاً، وحين قمت لأغلقه قال لي: "أبو عمار في المبنى. عندما يكون هنا نترك الأبواب كلها مفتوحة". كنت جالساً وظهري باتجاه الباب المفتوح، تناهت إليّ قهقهات من الدهليز. التفت، فلفت نظري رجل أقرع. لم يكن يشبه عرفات ولكن الفضول دفعني لمعرفة الرجل الذي يمازح القيادات الفلسطينية بمرح. قال (أبو خالد): "جان جينيه". ودهش لأنني أسمع اسمه أول مرة. إنه جهلي. لم يكن بين الكتاب اليساريين الماركسيين وبعدهم اللينيين الماويين الذين قرأنا أعمالهم أيام الجامعة لأسباب ذرائعية. بعد قليل، قفز (أبو خالد) وعلى وجهه تعبير احترام واضح. التفت فرأيت ياسر عرفات أقرع الرأس بدون كفيته التي تعتبر علامته الفارقة. كنت سأتحرك من مكاني، فسأل أبا خالد عن أحواله، وابتعد. لم أتعرف إليه ولم أصافحه.

كان عرفات قد أصبح أحد أشهر سياسيي العالم في بداية مرحلة بيروت الثانية التي بدأت عام 1978. في طريقي إلى موعده، كاد قلبي يتوقف من شدة الانفعال لأنني لم ألتق شخصية ذات شهرة عالمية مثله حتى ذلك اليوم. كان يتحدث عبر الهاتف عندما أُدخلت إليه. حياني بحركة يده، وأشار إلي بالجلوس. بعد قليل، خرجت من حالة الذهول التي انتابتني نتيجة شعوري بأنني أجلس مع رجل لا يمكن الوصول إليه. أدخلني عرفات بسرعة بالحالة الطبيعية. في كل مرة من لقاءاتي التالية التي لا أعرف عددها كان يُسيطر عليّ الانفعال، ولكنه في كل مرة كان يشعرني بقرب أكبر.

لقاءاتي الثلاثة الأخيرة بعرفات كانت في الأراضي الفلسطينية في مرحلة ما بعد اتفاقية أوسلو للسلام: اثنتان في غزة، والأخيرة في رام الله.

أثناء زيارة رئيسة الحكومة طانصو تشيلر عبرنا إلى غزة من معبر إيرز الذي تسيطر عليه إسرائيل. بسبب الفوضى على المعبر، لم تستطع الغالبية العظمى من أفراد الوفد الرسمي المرافق لطانصو تشيلر الدخول. كنت سعيداً برؤية رفاقي المحاربين القدامى الذين أعرفهم من أيام بيروت وتونس على أرضهم. تعانقنا مبددين شوقنا لبعضنا بعضاً.

كان جهاد الغول أكثر من عانقته بحرارة. فقد تزوج من فتاة كنت كثيراً ما أتردد على أهلها في برج البراجنة في مطلع السبعينيات، وقد حضرت خطوبته وعرسه. رُفّع جهاد إلى رتبة جنرال، وأصبح قائد حرس عرفات. قربي الخاص من جهاد لفت أنظار الصحفيين الأتراك. أجرى معه مَتَه تشبوقتشو حواراً خاصاً لتلفزيون " NTV "، وترجمتُ أسئلة مته وأجوبة جهاد. أضحكني جواب جهاد عن سؤال: "كيف تعرفت على جنكيز؟". قال: "كان واضحاً منذ أيام برج البراجنة أنه سيغدو صحفياً. كان يتجول من بيت إلى بيت حاملاً أوراقاً، ويكتب أموراً ما". كنت أقوم بحملة لوقف إعدام دنيز غزمش وحسين إنان ويوسف أصلان في مطلع عام 1972 وأجمع التواقيع في مخيم اللاجئين من أجل الحملة. غير هذا، فقد تواصلتُ مع جان بول سارتر بواسطة رفاقنا اللبنانيين، وكنت أحاول إشراكه بالحملة. وهذه هي حقيقة قصة اكتشاف جهاد "موهبتي الصحفية".

عندما انتقلنا إلى الغداء، لم تكن طانصو تشيلر على علم بتاريخي الشخصي بشكل كامل، فقدمتني للقادة الفلسطينيين: "صحفي شهير في تركيا". التفت عرفات إلى تشيلر، وقال ضاحكاً: "نحن نعرفه منذ سنين طويلة جداً".

عندما ذهبت مع رئيس الجمهورية سليمان دميريل إلى غزة لم أجد فرصة لتبادل التحية مع عرفات. عقد دميريل وعرفات مؤتمراً صحفياً مشتركاً، وكنا ننوي بعد المؤتمر أن نركب الحافلات لنذهب إلى مطار بن غوريون قرب تل أبيب من أجل المغادرة إلى تركيا. كان رئيس تحرير جريدة صباح ظَفَر مطلو جالساً على يميني في المؤتمر الصحفي، وانتبه إلى أن عرفات لم يبدِ أية حركة توحي بأنه يعرفني، لذلك بدأ يعلّق علي، ويسمعني كلاماً من قبيل: "ألستما قريبين جداً؟ أما كان كل منكما له حق على الآخر؟". عند انتهاء المؤتمر الصحفي، عبر دميريل في المقدمة وخلفه عرفات من الممر الضيق بين الكراسي متجهين نحو باب الخروج. وقفنا، وكنا ننتظر خروج الرئيسين من الصالة الصغيرة. كنت من جهة الممر. وعندما وصل إلى محاذاتي، مد ذراعه اليسرى، ولفها حول عنقي، وقبلني من خدي، وتابع طريقه. قدم رسالته للجميع، وكانت رسالته لي "رسالة وفاء" أججت مشاعري.

في مرحلة الانتفاضة الثانية سال دم كثير، وأقسم شارون على إنهاء عرفات، وحتى على إزهاق روحه. في عام 2002، كان مقر إقامته هو الموقع الإنكليزي القديم في رام الله المسمى مقاطعة تحت الحصار والقصف. وقد أصبح القائد الأسطوري لمنظمة التحرير الفلسطينية وفتح الذي رسّخ مفهوم فلسطين في التاريخ العالمي، ويحمل صفة "رئيس الدولة الفلسطينية" معتقلاً بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى.

رأيت أبا عمار آخر مرة على الأرض الفلسطينية في المقاطعة مستقره الأخير في تشرين الثاني من عام 2002. أجريت انتخابات عامة في تركيا بتاريخ 3 تشرين الثاني، ووصل إلى الحكم حزب العدالة والتنمية الذي شارك في الانتخابات لأول مرة، وينظر إليه على أنه ذو هوية "إسلامية". دعاني يومئذ سفير تركيا الجديد في إسرائيل صديقي فريدون سينيرلي أوغلو (أصبح مستشاراً لوزارة الخارجية في ما بعد) لأقدم محاضرة حول الانتخابات التركية في جامعة تل أبيب. كان ذهابي إلى تل أبيب سيتيح لي الفرصة للذهاب إلى رام الله، ورؤية (أبو عمار).

عندما عرفت أن قنصلنا في القدس حسين عوني بتشاقتشي سيزور عرفات، قفزنا - زوجتي وأنا - إلى جيب القنصلية التركية المصفح الذي يحمل العلم التركي. خرجنا من القدس تحت ستار الدبلوماسية، ودخلنا إلى رام التي تحاصرها إسرائيل. كنت مدركاً أن الذهاب إلى المقاطعة؛ أي إلى ياسر عرفات في تلك الظروف أفضل تعبير عن الوفاء والإخلاص له.

كانت المقاطعة مقر إقامة عرفات، وفي الوقت نفسه مركز الإدارة الفلسطينية. وهي بناء ضخم يمتد على مساحة واسعة، وقد أنشئت في زمن الانتداب الإنكليزي لفلسطين لتستخدم مركزاً عسكرياً وإدارياً. احترقَ قسم كبير من المقاطعة في هجوم الدبابات الإسرائيلية على عرفات في نيسان عام 2002، ودُمر وغدا خراباً. وإذا كانت الدبابات الإسرائيلية قد انسحبت من محيط المقاطعة في أيار من عام 2002 فهي تضبط مداخل رام الله وتطبق حصاراً على دائرة أوسع.

استقبلنا عرفات يوم السبت في 9 تشرين الثاني 2002 في الطابق الثاني من المقاطعة بصحبة مستشاريه ياسر عبد ربه ونبيل أبو ردينة. تعانقنا بشوق شديد شعرت أنه طال لدقائق. وشعرت بالحنان نحو الشخصية التاريخية وأنا أضمها إلى صدري بقوة وكأنني أؤلمها.

جلسنا إلى جانب الطاولة المستطيلة الطويلة، وتذكرنا الأيام القديمة قليلاً. وصل الحديث إلى الانتخابات التي جرت قبل ستة أيام في تركيا. اعتبر عرفات نتيجة الانتخابات ثورة، واعتبر وصول حزب العدالة والتنمية إلى الحكم في تركيا يعادل ثورة.

سألته عما إذا كان يعرف قائد الحزب طيب أرضوغان. لم يكن يعرفه، ولكنه عرف رئيس الحكومة الجديد عبد الله غول. قال: "أعتقد أنه جاء مرتين إلى هنا برفقة هيئة الاتحاد الأوروبي. أتذكر عبد الله غول".

كان عقله مشغولاً بغيوم الحرب التي تحوم فوق العراق. كان قلقاً جداً من اندلاع حرب العراق، وعبّر مرات عديدة عن قلقه هذا.

التقطنا صوراً حميمة تجمعنا. كنت أعتقد أننا سنتبادل الوداع في الطابق الثاني حيث استقبلنا، غير أنه لم يفعل هذا. فقد أمسك بيدي. نزلنا درج الطابقين ببطء وهو يمسك بيدي. سرنا وأحدنا يمسك بيد الآخر في مدخل المقاطعة أمام كاميرات التلفزيون التي تنتظره، ثم تعانقنا مرة أخرى، وتبادلنا الوداع. التفتُ إلى عرفات أثناء توجهي إلى جِيْب القنصلية، ونظرت إليه آخر مرة. كان قد بدأ يتكلم إلى تلفزيونات العالم.

بعد سنتين تقريباً، نُقل من المقاطعة إلى باريس بشبهة قيام إسرائيل بتسميمه، وهناك ودع الحياة في 11 تشرين الثاني 2004.

كنت وسط الزحام الكبير أثناء الدفن في فسحة المقاطعة بتاريخ 12 تشرين الثاني 2004. وفي كانون الثاني عام 2007، ذهبت مرة أخرى إلى المقاطعة للقاء محمود عباس (أبو مازن) الذي حل محله. حينئذ أدركت أن لا أحد يستطيع ملء مكان عرفات.

تراخت روابطي مع الحركة الفلسطينية بعد وفاة عرفات، وأخذت مكانها الذي لا يمحى بين ذكرياتي.

بقدر ما كنت قريباً من ياسر عرفات في مرحلة بيروت الثانية من حياتي، فقد كنت قريباً من خليل الوزير (أبو جهاد). تعرفت إلى أبي جهاد في بداية مرحلة بيروت الثانية التي بدأت عام 1978. كنت أبلغه بمجيئي كلما قصدت بيروت، وأنزل ضيفاً في بيته في أغلب الأحيان، وندخل بأحاديث طويلة تستمر حتى منتصف الليل. كان أبو جهاد طليعياً بتأسيس المؤسسات الفكرية ومراكز الدراسات، وطلب مني أن أساهم فيها وبالمجلات التي تصدرها. كان يعتبرني عضواً في البنية التي يترأسها في بيروت.

كنت الصحفي التركي الوحيد في بيروت أثناء حصار إسرائيل لها عام 1982 وقصفها من البر والبحر والجو. (كان هناك المصور الصحفي جوشكون أرال، ويعمل جوشكون للصحافة الفرنسية. الصور التي التقطها بفضل جرأته تصدرت أغلفة أهم المجلات الفرنسية، وذاع اسم جوشكن أرال كمصور عالمي).

كان من المنتظر أن تشن إسرائيل هجوماً. في أيار 1982، ذهبت إلى السودان، ومنها إلى مصر، ومن هناك عرجت إلى بيروت مجدداً قبل عودتي إلى اسطنبول. وهناك أبلغني أبو جهاد أن إسرائيل ستشن هجوماً واسعاً بعد فترة قريبة جداً، وسيكون هذه المرة مختلفاً تماماً عن المرات السابقة؛ إذ لن تكتفي باحتلال جنوب لبنان، بل ستصل إلى الدامور على بعد عشرين كيلومتراً من بيروت. وأضاف أن هدف إسرائيل هو إزالة الوجود العسكري لمنظمة التحرير الفلسطينية نهائياً.

عندما سألته: "متى تتوقعون هذا الهجوم؟". أجابني: "بعد أسبوعين تقريباً".

سأكون في بيروت بعد أسبوعين. دُعيت هيئة لبنانية كبيرة تضم كبار رجال الدين الشيعة اللبنانيين الجنوبيين إلى طهران. أبلغني أصدقائي أنني أستطيع مرافقة الوفد. كانت الذكرى الثالثة للثورة الإسلامية، وبدأ التأثير الإيراني يفرض نفسه على شيعة لبنان بقوّة. كنتُ قد طوّرت علاقة قريبة جداً مع رجال الدين الشيعة اللبنانيين أثناء ترددي على لبنان منذ الأيام الأولى للثورة الإيرانية. في ما بعد، أقمت علاقة مع بعض رجال الدين الشيعة الذين سيؤسسون في ما بعد حزب الله ويقودون مقاومة كبرى في جنوب لبنان عن طريق ميشال نوفل أيضاً. كان ميشال نوفل الصحفي اللبناني الوحيد الذي رافق قائد الثورة الإيرانية الخميني بالطائرة من باريس

إلى طهران، وتعرفت على الثورة الإيرانية في أيامها الأولى من قلمه. عرفني ميشال نوفل إلى السيد محمد حسين فضل الله أهم رجال الدين الشيعة اللبنانيين. تعرفت إلى الشيخ راغب حرب الذي يُعتبر ملهم فكر حزب الله - والذي قُتِل لاحقاً في غارة إسرائيلية - في إحدى رحلاتي المتكررة إلى طهران، وكثيراً ما التقيته، ونشأت بيننا صداقة، وما كنت أهمل زيارته في جبشيت قرب النبطية في الجنوب، وزيارة فضل الله في ضاحية بيروت. وقد جذبتني فكرة مرافقة كل هؤلاء إلى طهران.

بعد أسبوعين من مجيئي إلى اسطنبول، عدت إلى بيروت بغية الذهاب إلى طهران. كانت بيروت في حالة هدوء نادراً ما تعيشها. أصبحت معروفاً في مركز بريد بيروت الذي كثيراً ما أقصده من أجل إرسال مقالاتي بالتلكس إلى جريدة الجمهورية. عندما دخلت إلى مركز البريد بعد ظهر 5 حزيران 1982، سألني موظفو قسم التلكس: "خير إن شاء الله؟ بما أنك هنا لا بد أن أموراً مهمة ستقع". يبدو أنني أصبحت بنظرهم مقياساً للأحداث. قلت: "ليس هناك شيء هذه المرّة. أتيت لكي أذهب إلى طهران. ولا شيء يتعلق ببيروت". وبعد أن أرسلت المقالة التي مفادها: "إن الأمن مستتب في بيروت"، اتجهت إلى مركز الدراسات حيث كان ميشال نوفل يعمل.

كان مكتبه في أحد الطوابق العليا لبناء يقع على كورنيش المزرعة، وقد اهتز بصوت تفجير عنيف وكأنه زلزال بقوة ثماني درجات. كانت الساعة تشير إلى الثالثة والربع. قفزنا نحو الشرفة، ورأينا لهباً يتصاعد من ملعب كميل شمعون على بعد كيلومتر، وغاب الملعب الضخم الذي أنشئ عام 1959 بمناسبة ألعاب البحر المتوسط وسط الدخان الأسود الداكن. كانت طائرات " F 16 " الإسرائيلية تنقضّ، وتقصف الملعب. كان من المعروف أن منظمة التحرير الفلسطينية تستخدم الملعب مستودعاً للذخيرة. وكانت منطقة الفاكهاني التي تضم مكتب ياسر عرفات وقادة منظمة التحرير الآخرين على مقربة من المكان الذي كنّا فيه.

بعد نصف ساعة من إرسالي خبراً يقول: "الأمن مستتب في بيروت"، استُهدفت بيروت بأعنف هجوم إسرائيلي في تاريخها.

في اليوم التالي، ركبنا طائرة جانبو أرسلتها الحكومة الإيرانية إلى بيروت، وذهبنا إلى دمشق. أثناء وضع الدرج قرب باب الطائرة في مطار دمشق، وصل خبرٌ مفاده أن إسرائيل بدأت باحتلال جنوب لبنان. إنه السادس من حزيران؛ ذكرى الحرب العربية الإسرائيلية الكبرى عام 1967.

لم ندرك في تلك اللحظة أن أطول حرب عربية - إسرائيلية قد بدأت. أرَّخَ الصحفي الأرجنتيني اليهودي، المدافع المعروف عن حقوق الإنسان جاكوب تيمارمان لهذه الحرب تحت عنوان "أطول الحروب".

اعتقدنا بداية أن الحرب واحدة من الهجمات الإسرائيلية المتكررة على جنوب لبنان، وأنها أشد من سابقاتها فقط. ولم يفتح أعيننا الانفجار الرهيب الذي شهدناه قبل يوم في بيروت. مع أن أبا جهاد أخبرني قبل أسبوعين أن إسرائيل ستشن هجوماً واسعاً.

عندما نزلنا في طهران، كانت إسرائيل على وشك السيطرة على قلعة الشقيف، وهي تتقدم على ثلاثة محاور، واشتبكت مع القوات السورية في البقاع، وكانت القوات الإسرائيلية تتقدّم على خط الساحل، وقد اقتربت من الدامور.

كان ضمن الوفد اللبناني عدد كبير من رجال الدين الشيعة الذين يعتبرون زعماء المناطق الجنوبية. عندما وصلنا إلى طهران، لم يكن أحد مهتماً بالمؤتمر الدولي المنعقد هناك. وكان الجميع يعملون ما بوسعهم بغية العودة إلى لبنان.

كنت أتلوى وأنا أشعر بالذنب لأنني تركت بيروت التي احتلت رأس قائمة الأحداث في العالم، ولا سيما وأنا أعرف بالأمر من قبل. كيف عُمِيت بصيرتي بعد أن تطور حدسي الصحفي كثيراً، وتلقيت الإشارات اللازمة كلها، وشهدت القصف على بيروت قبل يوم، وجئت إلى طهران تاركاً بيروت؟!

اتصلتُ باسطنبول من طهران. كانت القوات الإسرائيلية التي تسحق الجنوب اللبناني كالمحدلة قد اقتربت من أبواب بيروت. كان زملائي في إدارة جريدة جمهوريت مدركين خطورة الوضع، ولخوفهم عليّ طلبوا مني أن أعود من طهران إلى اسطنبول. ولكنني لم أكن أفكر بغير العودة إلى بيروت.

تمكن الوفد اللبناني خلال عدة أيام من إقناع حرس الثورة الإيراني بأن تعيدنا الطائرة التي جلبتنا إلى دمشق.

فور وصولنا إلى مطار دمشق، دفعنا - ميشال نوفل ووليد نويهض وأنا - مبلغاً خيالياً لسيارة أجرة وانطلقنا إلى بيروت. أثناء عبورنا دمشق، لفتت نظرنا نحن الثلاثة لوحة طرقية تشير إلى طرفين: حلب وتركيا نحو الشمال، لبنان وبيروت نحو الغرب. ألح الصديقان معاً: "عد أنت إلى تركيا. نحن مضطران للذهاب إلى بيروت. عائلتانا هناك. لعلنا نضطر لترك بيروت، ليكن لدينا مكان نستطيع الذهاب إليه. لننفصل هنا، وعد أنت إلى بلدك".

أجبت من دون تردد: "لا. لنتابع، أنا أيضاً ذاهب إلى بيروت، وليكن ما يكون".

بعد أقل من نصف ساعة وصلنا إلى الحدود اللبنانية. قصفت الطائرات الإسرائيلية معبر المصنع الحدودي، وغداً هيكلاً أسود. بالطبع، لم يبق جمارك أو تفتيش على الجوازات. ولا أثر لحواجز المخابرات السورية المنتشرة دائماً على مسافات مائة متر من الجانب السوري وتفتش الذاهبين والآيبين. كانت المعابر الحدودية الفارغة والدبابات السورية المحترقة الملقاة على جوانبها تعطي فكرة واضحة عن الحرب الدائرة منذ أيام.

بعد أن عبرنا وادي البقاع وصعدنا جبل لبنان، وبدأنا نهبط نحو بيروت في منطقة بحمدون أوقفنا رجال الأمن اللبناني. أخبرونا أن القوات الإسرائيلية وصلت إلى عاليه بالقرب من المكان هناك. وقالوا لنا إننا نستطيع الدخول إلى بيروت من المنطقة المسيحية عبر الحازمية.

رفض وليد الدخول إلى بيروت من الحازمية لأنه درزي. فقد خاف من طلب الكتائب المسيحية الهويات، ومعرفة أنه درزي وقتله، وهو محق بهذا. ما زالت قضية الثأر المارونية - الدرزية التي بدأت في القرن التاسع عشر قائمة حتى في تلك الظروف.

انعطفنا إلى طريق جبلي مقوس أطول، وبدأنا ننـزل إلى بيروت. غامرنا بالمرور من مراكز قريبة جداً من الوحدات الإسرائيلية. وكأننا نسابق الوقت. كنا نحاول الدخول إلى بيروت أثناء اقتراب إسرائيل من أبوابها.

بدأ المساء يحل. وصلنا إلى الشيّاح عبر الأحياء الشيعية. حين وصلنا إلى الساحة المسماة الدوار، وشعرنا بالارتياح لدخولنا بيروت، اهتزت الساحة بأصوات الطائرات والمضادات. فقد سائقنا سيطرته على المقود، وأعاد ضبطه بصعوبة. عندما وصلنا إلى بيت ميشال القريب من حي الصنايع أعلنت الإذاعة أن إسرائيل قد سيطرت على مداخل بيروت. حوصرنا. وقعنا في الفخ. عشنا لاحقاً ثلاثة أشهر تحت قصف بري وبحري وجوي من دون كهرباء أو ماء؛ في حر ورطوبة خانقين، ومن دون أن تجمع النفايات.

ولكننا كنا في حالة سعادة عجيبة. إننا في بيروت، وإن كنا محاصرين.

سأشعر بالشعور نفسه بعد سنين في سراي بوسنة. ذهبتُ خمس مرات إلى عاصمة البوسنة والهرسك أثناء الحرب. في المرة الأولى، اختطفت العصابات الكرواتية فريقنا ومن ضمنه زوجتي. بعد ساعات من مغازلة الموت لنا، اضطررنا للاقتراب من سراي بوسنة تحت القصف الصربي هذه المرّة. بعد تجاوز ذلك الخطر، اضطررنا لعبور نفق طوله 890 متراً؛ جزء

منه للصرف الصحي من أجل الوصول إلى تحت المطار. بعد تجاوزنا كل تلك المخاطر، ووصولنا إلى سراي بوسنة حوصرنا، وأصبحنا هدفاً لطلقات القناصة الصرب. ولكننا كنّا سعداء جداً لكوننا في سراي بوسنة المحاصرة. كان الوصول إلى سراي بوسنة في المرات التالية دائماً محفوفاً بالمخاطر، والوصول إليها يشعر بسعادة مشابهة. بعد مغادرتي سراي بوسنة في طريق العودة إلى تركيا، شعرت بالذنب لتركي سراي بوسنة المحاصرة، وحال هذا الشعور دون استمتاعي بجمال المدينة الكرواتية الجميلة سبليت القريبة من دالماسيا.

استمرت هذه السعادة الخاصة الغريبة التي يصعب تفسيرها في بيروت حتى 30 آب 1982؛ يوم مغادرة ياسر عرفات لها. تدخلت القوى العظمى وفكت حصار إسرائيل لبيروت مقابل مغادرة منظمة التحرير. غادرت قوات منظمة التحرير الفلسطينية العسكرية بيروت عن طريق البحر إلى اليمن وتونس والجزائر، وبالبر إلى سورية. لم تبق في بيروت أية مؤسسة لمنظمة التحرير الفلسطينية. ومع إبحار ياسر عرفات في سفينة يونانية باتجاه تونس انتهت مرحلة بيروت بالنسبة إلي.

استمررت بالتردد على بيروت. كانت بيروت الخالية من منظمة التحرير الفلسطينية تمنح شعوراً بالوحدة لا يمكن وصفه. كل شيء في غاية التسطح ولم يعد كما كان. ولكن الحرب الأهلية اللبنانية استمرت على الرغم من انسحاب الفلسطينيين من الساحة، وانحل كل شيء، ونشبت معارك شديدة العنف على مستويات أدنى وأدنى أكثر. من جهة أخرى، بدأت حركة مقاومة مسلحة قوية جداً ضد إسرائيل في جنوب لبنان. كان تأثير الثورة الإسلامية ينتشر مالئاً الساحة التي أخلاها الفلسطينيون.

أي إن لبنان بقي لبنان، وكذلك بيروت.

بما أنني لم أستطع انتزاع نفسي من بيروت فهذا يعني أن علاقة عشق تربطنا. شعرت بهذا الشعور عندما كنت أخربش على ورقة في ضوء شمعة على أصوات اشتباكات بين مختلف الميليشيات في زقاق قريب من بيت ميشال نوفل الذي أقيم فيه وحدي. حتى ميشال لم يحتمل بيروت، فأخذ عائلته، وذهب إلى فرنسا لفترة.

ماذا كنت أفعل في تلك الأثناء؟ ماذا أفعل في بيروت؟

لحظة طرحي هذه الأسئلة على نفسي بدأت الكتابة:

"ذلك الصيف أيضاً كان حاراً جداً ورطباً على هذا النحو. القميص يلتصق بالجسم، ولا يمكن إزالة اللزوجة عن الجبين وما تحت الأذنين.

التوتر يملأ النهار والليل. في صيف عام 1982 ذاك كنا متوترين لعدم معرفتنا من ستلتهمه آلة الموت الإسرائيلية التي تدور باستمرار على أبواب بيروت، ومتى. الشوارع قفرة في الليل من جديد، والنفايات مكومة، وتفوح رائحة حموضة من المدينة. صمت الليل يقطعه هدير زلزال قصف المدفعية والطيران.

في ذلك الوقت، كنا عائلة كبيرة في بيروت، تربطنا قرابة حبكها المصير المشترك؛ هذا ما كان يبقينا منتصبين.

لم يكن خريف عام 1983 رطباً على هذا النحو. ذهبت منظمة التحرير الفلسطينية. إسرائيل على الأبواب، وجنود مشاة البحرية الأمريكية في الداخل. كانت الشوارع قفرة أيضاً صيف عام 1982، والليالي قبيحة وباردة إلى درجة أنها تقوي الشعور المشترك إزاء القصف. تسممت العلاقات بين الناس، وخربت علاقات عائلة عام 1982، وتضاءلت الصداقات؛ فيما استمرت سيطرة التوتر.

هل كانت أواخر صيف 1984 رطبة ولزجة أيضاً؟ لا أذكر. ما أذكره أن إسرائيل ابتعدت عن أبواب المدينة، والأمريكيين ذهبوا، واللبنانيين بقوا في مواجهة التوتر، وتضاءلت الصداقات أكثر.

الرطوبة في عام 1985 مثل تلك التي كانت في عام 1982. نزلت الصداقات إلى مستوى لقاءات بضعة أشخاص كل فترة طويلة، وهروب من الحوار، وحديث متعَب سائم.

التوتر مستمر وفي الذروة.

المولودون من الفلسطينيين واللبنانيين في أواسط القرن التاسع عشر أو الربع الأخير منه يسيرون في طرق قدر رسمه آخرون لهم من قبل؛ من دون أن يستشيرهم التاريخ. لا مهرب من هذا.

حسنٌ، لماذا أنا هنا؟ لماذا أرافق التوتر الخانق الذي لا يمكن وصفه على مدى سنوات؟

لعل المكان يُعلّم ما لا يمكن لكثير من الأشخاص تعلمه والشعور به.

قوسا الموت والحياة ضيقان إلى درجة أنك إذا أدرت ظهرك لأحدهما لامس رأسي قدميك الآخر. وفي كل لحظة.

في ذلك الوقت، يصبح النضال الفردي وسط زحمة الحياة التي تجعل الناس يلتهمون بعضهم بعضاً.

كل رصاصة ظالمة تطلق في بيروت، وكل قذيفة مدفع وقحة تغدو رشقاً من التسامح عندما يلتفت الإنسان، وينظر إلى الخلف.

كان الموت يقترب من الجميع بحنان وجاذبية في كل لحظة، ويجعل الإنسان عندما يلتفت إلى الخلف وينظر إلى الحياة لا يستطيع منع نفسه عن القول: أيها الناس، على الرغم من كل شيء أحببتكم، وأحبكم.

لا أدري إذا كان التاريخ قد شهد مدينة على هذا النحو. هذه المدينة على طاولة معاصرة. يبدو أن الطاولة أكثر بساطة من هذا. مهما يكن، فقد أقدمت بيروت على انتحار جماعي. بيروت تعيش وهي تنتحر، وتنتحر وهي تعيش.

هل هناك ما يدعى انتحاراً جماعياً بطيئاً؟

هذه المدينة أكثر مدن العالم شعوراً بالوحدة. إنها شديدة الوحدة.

تنظر إليها مدن العالم كلها بمزيج من السخرية والقرف؛ كما تنظر إلى مجنون الحي. تفتح بيروت صدرها لبلايا العالم كله ولعناته، وتقدم ما لديها لدفق الحياة اليومية الطبيعي وراحته مثل مجنون الحي الذي يحمل مساوئ الحي وشيطنته ويترك الباقي لبطولة الخيانات الممتعة هنيئاً مريئاً.

تخلت الدنيا عن هذا المكان، هُجرت اللصة المدعوة بيروت وتُركت وحيدة. يشعر الناس هنا بالوحدة؛ حتى وهم معاً. المدينة وحيدة، والناس يشعرون بالوحدة والزحام في آن واحد.

لا يمكن أن يتداخل الناس والمدينة على هذا النحو في أي مكان آخر من العالم.

كأن هذه المدينة انتُزعت من العالم لعدم وجود مكان يشبهها. لا يمكن الشعور بالوحدة بشكل أعمق في مكان آخر.

هذه المدينة حساسة إلى درجة تأثرها باهتزاز ورقة شجرة في العالم. وجودك فيها يعني امتلاكك رفاهية متابعة كل شيء في العالم من شاشة واسعة.

العيش في هذه المدينة عذاب، وهجر هذه المدينة سقوط في الفراغ.

بيروت عشق".

في اللحظة التي أنهيت فيها نصي بعبارة "بيروت عشق" اعتبرتها عنوانه. وجدت طريقة في اليوم التالي وأرسلت النص إلى جريدة جمهوريت بالتلكس.

بعد أيام، انتقلت من بيروت إلى عمان. التقيت أبا جهاد. بعد ذلك، سافرت إلى القاهرة للذهاب منها إلى تونس من أجل لقاء ياسر عرفات. في القاهرة، أيقظني هاتف حسن جمال من نوم تقتُ إليه كثيراً في غرفتي الدافئة والمريحة من فندق شيفاردز التاريخي المطل على النيل الذي كان

مركزاً إنكليزياً أيام الحرب. اتصل بي ليهنئني على نصي "بيروت عشق" ناقلاً كلمات أقوى أقلام جريدة جمهوريت الكاتب "إلهان سلجوق". قال حسن إن إلهان سلجوق قال له: "إنها المرة الأولى التي أشعر فيها بالغيرة من نص كتابي. هذا النص هو بيروت عشق".

دفنت رأسي بالمخدة بعد إنهاء الاتصال، وفكرت ببيروت. تذكرت مرة أخرى سعادتي لحظة نجاحنا بالدخول إلى بيروت في حزيران 1982 قبل دقائق من إحكام إسرائيل الحصار عليها. العيش في بيروت تحت الحصار يعني العيش مع ياسر عرفات وأبي جهاد أيام القهر، ويعني رؤية القائدين الفلسطينيين أكثر، والعيش معهما في ظروف صعبة.

أن نكون معاً في تلك الظروف يعني أن نتشارك حالة لا يمكن تكرارها. شعوري بالسعادة عند دخولي بيروت على الرغم من معرفتي بأنني سأقع تحت الحصار لا شك أنه يعني معرفتي كل هذا.

فرغت نصف بيروت المنهكة والمقطوعة مياهها وكهرباؤها. كنّا نخرج - ميشال وأنا - في ليلها القفر كلما خطر ذلك ببالنا، ونذهب إلى أبي جهاد، ونتحدث حول الأوضاع. كان باب بيته دائماً مشرعاً أمامنا؛ على الرغم من كونه المسؤول الأول عن الدفاع عن بيروت.

كان أبو جهاد أقرب رفاق عرفات إليه. أسسا فتح معاً. ويقال إن مساهمة أبي جهاد كانت أكبر من مساهمة عرفات بالتأسيس. هو مؤسس العاصفة؛ الجناح العسكري لفتح، ويعتبر ملهم الانتفاضة الأولى التي اندلعت عام 1987. ولديه جانب دبلوماسي، فهو أول من جذب دعماً خارجياً للقضية الفلسطينية. فبعد حصوله على دعم الجزائر في مطلع الستينيات التقى رئيس الحكومة الصينية تشو إنلاي في بيجين وحظي بدعم الصين. وكلاهما نجاح لأبي جهاد.

لقاؤنا المتكرر بأبي جهاد لم يبق في حدود احترام كوادره المخلصة لنا، بل يعني منحنا ثقة لا تقدر بثمن في ذلك الوسط البيروتي غير الآمن الذي يمكن أن يعرضنا للاغتيال على يد أي شخص أو جهاز مخابرات. كنت تحت مظلة حماية أبي جهاد المعروفة وغير المرئية.

ذهبت إلى عمان والتقيته هناك حيث أقام فترة بعد خروج منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت. كنا قريبين إلى درجة أنه فاتحني بمبادرته لإيقاف الحرب العراقية - الإيرانية، وناقشني بها. قال لي ذات مرة: "هيا بنا، سنذهب إلى الزرقا!". الزرقا مدينة أردنية قريبة من الحدود العراقية. سألته: "ماذا يوجد في الزرقا؟". أجابني: "يجب أن أذهب لأعزي أحدهم".

حسنٌ، وما صفتي أنا؟ لم تكن لدي أي معلومات حول العائلة التي سنذهب لتعزيتها... اختصر أبو جهاد القول: "أنت من العائلة. من عائلتنا".

عندما تلقيت أول دعوة إلى إسرائيل من سفارتها أثناء عملي في جريدة جمهوريت عام 1986 استشرت أبا جهاد. للدعوة جاذبية لا تقاوم؛ إذ كانت ستؤمن لي لقاءات مع عدد من القادة الإسرائيليين مثل إسحاق رابين وشمعون بيريز وعازار وايزمن وإيهود باراك. ما جذبني أكثر هو أنني كنت سأجد فرصة لرؤية أرض فلسطين كلها. ولكنني كنت أخشى أن تحول زيارتي هذه دون زيارة الدول العربية التي لا علاقة لها مع إسرائيل، وإدراجي على القائمة السوداء للسفارات العربية في أنقرة.

قال أبو جهاد: "طبعاً ستذهب. يجب أن تذهب. هذه بلدنا. لا تنس أنك لو فقدت حياتك في أحد الاعتداءات الإسرائيلية لدفنت مع العلم الفلسطيني باعتبارك شهيد فلسطين. نحن لا نستطيع الذهاب لأسباب معروفة. أنت منا، ولكنك في الوقت نفسه تركي، ولتركيا علاقات مع إسرائيل. هذه ميزة، وهي تتيح لك الذهاب إلى بلدنا. عليك أن تذهب بالتأكيد. لدي توق شديد لمعرفة انطباعاتك بعد أن تعود. عليك أن تشرح لي".

كان هذا قبل الانتفاضة بسنة. أشرق وجهه عندما حدثته عن انطباعاتي، وقال: "إنها متوافقة مع رؤيتنا".

انتقل أبو جهاد من عمان إلى تونس، وبعملية مذهلة نفذتها إسرائيل وراء البحار قتل على مرأى من زوجته وولديه؛ إذ كانوا في البيت في تلك الأثناء مساء 16 نيسان 1988. يقال إن إيهود باراك أدار العملية من طائرة بوينغ 707 كانت فوق البحر المتوسط. لم يكذّب باراك هذه الادعاءات خلال فترة رئاسته للحكومة وحمله حقيبتي الدفاع والخارجية. كان أبو جهاد في الثالثة والخمسين من عمره، وقاوم الكوماندس الإسرائيلي بسلاحه الفردي، وأُخرجت من جسده سبعون رصاصة.

ذهبتُ إلى جنازته التي شُيّعت في مخيم اليرموك للاجئين الفلسطينيين بدمشق وشارك فيها حشد كبير من الناس. لم أستطع الاقتراب من المقبرة التي دُفن فيها، وهكذا ودعت الرجل الذي جمع ثوار الشرق الأوسط، والمعارضين القادمين من كل الجهات حوله في دمشق من بعيد وبصمت.

كان عادل عبد المهدي من محيط أبي جهاد في بيروت. هرب عادل من ظلم صدام وقمعه. وكان أيضاً تحت حماية أبي جهاد مثلي، وكان في دائرة التخطيط التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية.

لن أكون مخطئاً إذا اعتبرت عادل عبد الحميد "أستاذاً" تلقيت

"دروس العراق" الأولى على يده.

عرفت نائب رئيس الجمهورية الشيعي عادل عبد المهدي الذي عرفه العالم بعد حرب العراق عام 2003 وإسقاط صدام حسين في بيروت باسم (أبو أمل).

كان بيت أبي أمل بيتي الاحتياطي عندما كنت أذهب إلى بيروت بين عامي 1978-1982 وأبقى فترة طويلة. فإذا لم أنزل في بيت ميشال نوفل أو في فندق باعتباري ضيفاً على منظمة التحرير الفلسطينية، كنت أنزل في بيت أبي أمل.

يبدو أن تطور صداقتي بأبي أمل نجم عن اكتشافنا أننا مررنا بمراحل التحول الفكري نفسه تقريباً. أبو أمل من مواليد 1942، ويكبرني بست سنوات. نعد من الجيل نفسه. وهو ابن عائلة معروفة وغنية وصاحبة نفوذ في العراق. عمل والده وزيراً في الحكومة الملكية العراقية التي أسقطت بثورة دموية عام 1958. تلقى تعليمه المتوسط في معهد بغداد التبشيري الأمريكي بالإنكليزية، وكان يرتاده أبناء النخبة العراقية. أحمد جلبي وإياد علاوي من زملاء أبي أمل في معهد بغداد. على الرغم من كون والده وزيراً في الحكومة الملكية فقد تأثر أبو أمل بالرياح الثورية القومية في سن مبكرة مع فقدان فلسطين، وتوجه نحو البعث، وغدا أحد قادة الحركة الطلابية ذات الطابع القومي المناهض للإمبريالية. وقع بمشاكل كثيرة، ودخل السجن، وتعرّف على سجون العراق وتعذيبها. ويوم صدور حكم ضده بالسجن خمسة عشر عاماً سنة 1963 أسقط تحالف الناصريين والبعثيين نظام عبد الكريم قاسم، وفتحوا أبواب السجون، وحصل أبو أمل على حريته.

في السنوات التالية، ابتعد عن البعث، وانتسب إلى الحزب الشيوعي العراقي. كانت الحركة الشيوعية العراقية تهيمن على الأوساط المثقفة من مطلع الأربعينيات وحتى السبعينيات. وضمت في صفوفها أهم المثقفين من الشعراء والكتاب والفنانين، وجذبت أبا أمل أيضاً.

الانقسام في الحركة الشيوعية العالمية بين محوري الصين والاتحاد السوفييتي انعكس على الحركة الشيوعية العراقية أيضاً، وانقسم الحزب الشيوعي العراقي إلى الحزب الشيوعي العراقي - اللجنة المركزية، والحزب الشيوعي العراقي - القيادة المركزية. التيار الثاني هو الماوي المؤيد لنهج تشي غيفارا بالحرب الفدائية المسلحة، ويمثل تياراً راديكالياً يعتبر أن سقوط النظام لا يمكن أن يتم إلا بنضال مسلح. من جراء الانقسام، اختار أبو

أمل هذا التيار؛ أي الحزب الشيوعي العراقي - القيادة المركزية.

دخل الحزب الشيوعي العراقي - القيادة المركزية تاريخ العراق من خلال الحرب الفدائية التي خاضها في منطقة المستنقعات المسماة الأهوار عند شط العرب. بعد مقاومة ملحمية خاضها حوالى ربع مليون مقاتل في منطقة معدان القريبة من الحدود الإيرانية - وجميعهم تقريباً من الشيعة، ويسمون "عرب الأهوار" - تم سحقهم جميعاً.

كانت "تجربة الأهوار" أكثر الموضوعات حماسة في أحاديثنا. كنت أسمع من أبي أمل عن تجربة الأهوار والقبض على عزيز الحاج؛ الاسم الكبير في الحركة الشيوعية العراقية، وتعرضه للتعذيب، ثم خروجه على شاشة التلفزيون العراقي واعترافه بخطئه وإعلان ولائه لصدام، وشغله منصباً بيروقراطياً في النظام وكأنني أسمع قصة بوليسية تحبس الأنفاس، وأسجّل الملاحظات بشكل دائم.

لا أعرف لماذا كنت أحضر "جلسات العراق" لدى (أبو أمل) وأسجل ملاحظاتي. كنتُ في بيروت بصفتي الصحفية، ولا أحد يتوقع مني أن أكتب أخباراً عن العراق انطلاقاً من بيروت. يبدو أن قوة غير مرئية تدرك أن قدري سيأخذني إلى طريق العراق فأجلستني أمام (أبو أمل) وجعلتني أمسك الورقة والقلم.

بعد سحق نضال الحزب الفدائي الذي يعتبر أبو أمل أحد قادته، وتغيير قائده موقعه، هرب إلى فرنسا عام 1969. درس الاقتصاد في جامعة بواتييه. وهكذا بدأت حياة منفاه التي استمرت 34 سنة؛ حتى عام 2003. بين هذه السنوات، هناك الفترات التي تقارب فيها مع جلال طالباني في دمشق. وكان يتنقل بين دمشق وبيروت. ولقد تعارفنا في فترته البيروتية.

كنت أجد بين تاريخ أبي أمل الشخصي ومغامرة الثوار العراقيين أشياء مشتركة مهمة مع حركتنا. أبرز شخصيات اليسار الثوري التي انخرطت في صفوف الماركسية خلال الستينيات كانت بغالبيتها تنتمي إلى الطبقة الوسطى المتعصبة للكمالية في سنوات الشباب الأولى. بينهم من درس تعليمه المتوسط في المدارس الفرنسية والإنكليزية مثلي؛ فقد درست في مدرسة طَلَص المتوسطة الأمريكية وثانوية طرصوص الأمريكية التبشيريتين.

أغلبنا توجّهنا توجهات سياسية مختلفة عن توجهات آبائنا وحتى معاكسة لها، وفتحنا أشرعتنا للماركسية قبل أن نودع الكمالية. وجدنا أنفسنا وسط نقاش حول إمكانية تطبيق الاشتراكية عن طريق البرلمان ونحن في بداية العشرينيات، وابتعد الكثير من الشباب الجامعيين مثلي عن حزب

العمال في تركيا، وبدأ تشي غيفارا يبهر أبصارنا. حفظنا نظرية ماو حول الحرب الشعبية طويلة الأمد، وتأثرنا بحرب فييتنام والنضال الفلسطيني المجاور لنا. وضحى جيلنا بأكثر شبابه جرأة مثل سنان جمغيللر، ودنيز غزمش كما جرى في الأهوار. وسُحقت حركتنا بشكل يشبه سحق الحركة اليسارية في العراق.

لا يمكن أن يكون لقائي أبا أمل في محيط أبي جهاد داخل الحركة الفلسطينية مصادفة. هذا لقاء مكتوب. فتحنا أعيننا على الدنيا في المنطقة نفسها، ونحن ننتمي إلى جيل واحد. لهذا السبب، التقينا ذات يوم من أيام السبعينيات في بيروت...

غادر لبنان في نهاية صيف عام 1982 ذاك الكثير من معارضي الأنظمة العربية وثوار العالم الثالث الذين عاشوا في بيروت تحت مظلة منظمة التحرير الفلسطينية. وكان أبو أمل من بين الذين ركبوا السفينة وأبحروا في المتوسط.

استغرق إيجادي أثر الذين تركوا بيروت وغادروا وقتاً. عرفت أن أبا أمل قد عاد إلى فرنسا، وسكن قرب سانت إتيان. التقيت أبا أمل بعد سنتين من الفراق. بعد لقائنا في فرنسا لم نلتق على مدى عشرين عاماً تقريباً.

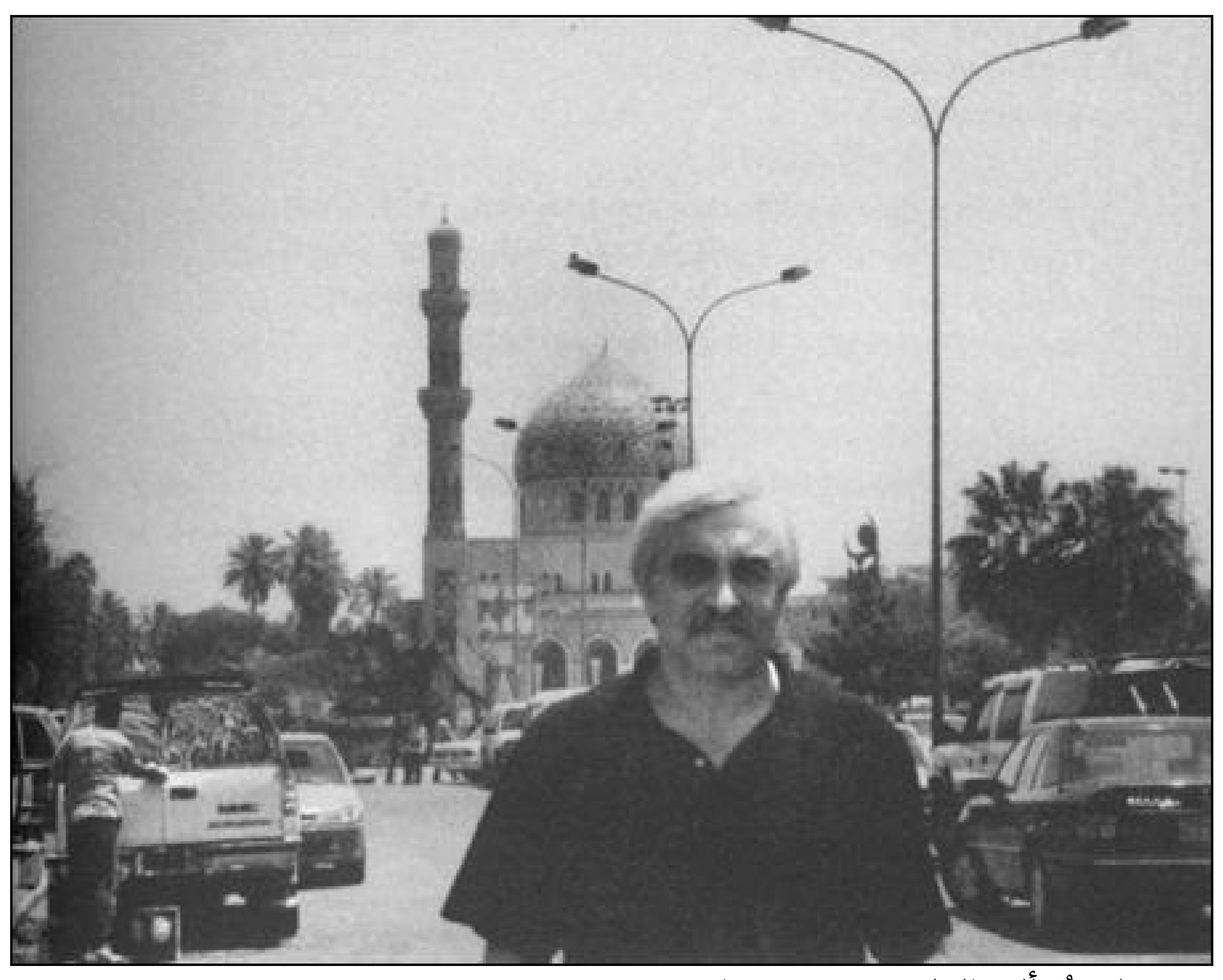
سألني ذات يوم عنه تركي آخر سكن في بيته في بيروت بواسطتي هو راغب ضوران. كان راغب معارضاً شديداً لحرب العراق والنظام الجديد في العراق. سألني: "سكنت في بيت صديق لك في بيروت. أبو أمل. عراقي. كان رجلاً لطيفاً إلى أبعد الحدود. ماذا جرى له؟ هل عرفت خبراً عنه؟". قلت: "لدي أخباره، إنه الآن نائب رئيس الجمهورية العراقية".

كان راغب يعرف اسم عادل عبد المهدي بالتأكيد، ولكنه لا يعرف أن عادل عبد المهدي هو أبو أمل.

حظي عادل عبد المهدي باعتباره أحد قادة العراق الكبار بدعم قوي من تركيا لرئاسة حكومة العراق عام 2010، وكثيراً ما زارها، والتقاه كثير من المسؤولين الأتراك وعلى رأسهم طيب أردوغان عند زيارتهم بغداد.

أنا لم ألتق أبا أمل بعد لقاء باريس إلا في بغداد، وفي موقعه الجديد. كأنه لم يمضِ زمن عشرين سنة؛ فقد استمررنا من حيث توقفنا.

X - ألف قصة وقصة حول دجلة



لا يُسأل العاشق عن بغداد

يتجاوز الآفاق ويذهب

لا يُتعب مسافر الأمل

يهرع راكضاً وراء الحظ.

لحن ماهور: منير نور الدين سلجوق، كلمات: وجدي بنغُل

وهل خلق الله مثلك في الدنيا أجمعها؟

بغداد، بغداد، بغداد !

أغنية محبوبة لمطرب العراق الأشهر كاظم الساهر

قال أبو أمل (عادل عبد المهدي): "إذا أردت أن تعود فيجب أن تعود الآن بسرعة أو ابق، ونم هنا. ولكنك إذا أردت أن تذهب، فلتذهب الآن".

لم تكن الساعة قد تجاوزت العاشرة والنصف. كنت ضيفَ نائب رئيس الجمهورية في المنطقة الأكثر أمناً في بغداد المسماة "المنطقة الخضراء" المراقبة مداخلها، ويقيم فيها المسؤولون العراقيون والأمريكيون. إذا لم أبق في

بيت نائب رئيس الجمهورية العراقية في تلك الليلة، وعدت، فسأعود إلى حيث أتيت، أي قصر رئيس الجمهورية. ثمة سيارتان لرئاسة الجمهورية أقلتاني إلى بيت عادل عبد المهدي - إحداهما مليئة برجال مدججين بالسلاح - تقفان عند الباب بغية إعادتي.

كانت بغداد في مطلع عام 2006 مدينة خطرة وغير آمنة في ساعات معينة من الليل؛ حتى بين قصر رئيس الجمهورية وقصر نائبه. وقبل مرور شهر على لقائي عادل عبد المهدي، وصل الدم إلى الركب بين الشيعة والسنة. في 23 شباط نُسف مرقدي إمامي الشيعة العاشر والحادي عشر المدفونين تحت قبة جامع الإمامين الذهبية في سامراء على بعد 125 كيلومتراً من بغداد بانفجار رهيب. وحظيت بغدادُ بأكبر نصيب من حمام الدم ذاك بين الشيعة والسنة العراقيين. أصبح من غير الممكن أن تضم أحياء الشيعة سنة، وأحياء السنة شيعة بين عامي 2006-2009. تحولّت بغداد إلى مدينة منقسمة ودموية بطريقة لم تشهدها من قبل.

يمر طريق بغداد - الموصل بجوار سامراء. أبهرتني قبة الجامع الذهبية في سامراء وأنا أعبر الجسر فوق دجلة باتجاه الموصل في الأيام الأولى من عام 2004. لم أصدّق عندما سمعتُ أنها نُسفت. فالمكان يضم مرقدي الإمامين علي الهادي وحسن العسكري، بالإضافة إلى ضريح السيدة نرجس والدة الإمام الثاني عشر المهدي الغائب، فضلاً عن الاعتقاد بأن آخر مرة شوهد فيها الإمام المهدي كانت هنا. خطر ببالي أن تحويل مكان كهذا إلى أنقاض سيحوّل بغداد أيضاً إلى أنقاض.

قبل عدة أسابيع من اعتداء سامراء الذي اعْتُبِر القطرة التي طفح فيها كيل الصراع الشيعي السني ذهبتُ من عند جلال طالباني إلى عادل عبد المهدي، واضطررت للعودة في تلك الساعة غير المتأخرة إلى الضفة الشرقية من دجلة، وما زالت انطباعاتي واضحة حول تلك الليلة البغدادية.

عندما اتصل طالباني بنائبه عادل عبد المهدي وأبلغه أنني في بغداد، أصر عادل على دعوتي على العشاء في بيته؛ مما جعلني أتخلى عن فرصة الحديث المطول مع سفير الولايات المتحدة الأمريكية زلماي خليل زادة الذي سيأتي إلى العشاء عند طالباني، وأنطلق قاصداً صديقي.

حمّلني السفير الأمريكي أفغاني الأصل الشهير زلماي خليل زادة تحيته إلى عادل عبد المهدي قبل مغادرتي مقر إقامة طالباني بالموكب الصغير الذي خصصه لي.

انطلق موكبنا الصغير المؤلف من سيارتي دفع رباعي من عند طالباني

في الجادرية (الرصافة) شرق دجلة إلى غربه (الكرخ) "المنطقة الخضراء". وقُطِع طريقنا عندما وصلنا إلى الجسر المعلق الشهير؛ أحد جسور بغداد المختفية خلف متاريس الرمل والشاحنات المصفحة. ثمة ثلاثة عشر جسراً فوق دجلة في بغداد، ولكلٍ منها قصة. والجسر المعلق أيضاً له قصة. يعتبر الجسر المعلق جديداً نسبياً. أنشئ عام 1959؛ أثناء الاحتلال الأمريكي مُنع عبور الناس عليه من الرصافة إلى الكرخ. وكان أقصر الطرق بين بيوت إداريي العراق الجدد ومركز الإدارة الجديدة والاحتلال الأمريكي في المنطقة الخضراء. على الرغم من هذا، لم يهتم الجنود بموكب رئاسة الجمهورية وطلبوا الهويات، وأمطرونا بالأسئلة. قلت لمرافقي: "مهمة هؤلاء الأساسية هي حماية السفير الأمريكي. لنقل لهم إننا قادمون من عنده، ونحمل سلامه إلى نائب رئيس الجمهورية". أجابني: "هذا لا يفيد. من الصعب التفاهم مع هؤلاء. فهم لا يعرفون الإنكليزية أيضاً".

- كيف لا يعرفون الإنكليزية؟

- هؤلاء من البيرو. يكلف الأمريكيون حراساً مأجورين لا يجيدون الإنكليزية بشؤون الأمن. مثل هؤلاء البيرويّين...

لم أفاجأ؛ لأنني عندما ذهبت ذات مرة إلى قصر المؤتمرات لحضور اجتماع أوقفني حراسٌ نيباليون يرتدون بذلات عسكرية أمريكية، وشقيت كثيراً حتى دخلت.

كان مشهد رجال الأمن النيباليين والبيرويين الذين لا يستطيعون التواصل مع الأمريكيين من مشاهد الاحتلال الأمريكي الغريبة لبغداد.

المشهد الأقبح للاحتلال هو مشهد الحواجز الإسمنتية بارتفاع عدة طوابق التي ملأت المنطقة الخضراء حيث قصور صدام الرئاسية الفخمة الكثيرة وساحة المراسم الواسعة والتي حولتها إلى متاهة تُفقد الإنسان شعوره بالاتجاهات.

لم أفهم من أين ذهبنا إلى بيت عادل عبد المهدي وكيف وصلنا. فور جلوسي، وجدت نفسي أسأل: "أين هذا المكان؟ أين نحن؟".

بدأ يشرح لي أنني في مكان مركزي من المدينة. وجه إصبعه نحو الجدار خلف مقعدي، وقال: "جسر الجمهورية هنا. نحن مقابل باب شرجي تماماً. دجلة بجانبنا. خلف البناء...".

أنتوني شديد أفضل من رسم صورة بغداد تحت الاحتلال بلغة شاعرية عندما كان مراسلاً لواشنطن بوست فيها. حازت مقالات الصحفي الأمريكي من أصل لبناني أنتوني شديد بين عامي 2004-2010 على الجائزة الصحفية

الكبرى في الولايات المتحدة بوليتزر مرتين. وبرأيي، إنه أهم كاتب يوميات في الشرق الأوسط. إنه موهوب إلى درجة أن مقالاته عن الثورة العربية في تونس ومصر ستبقى الفضلى والأكثر وعياً. أصيب بنوبة ربو عند الحدود أثناء عودته إلى تركيا من سورية التي دخلها سراً في 17 شباط 2012، وفقد حياته عن عمر ناهز الرابعة والأربعين. لقد هجر محبيه وتقلبات الشرق الأوسط التي لا تنتهي فجأة. حملت إحدى مقالات أنتوني الخالدة عن بغداد عنوان: " In the City of Cement/ في مدينة من الإسمنت".

غدت صورة بغداد المتحولة إلى إسمنت لازمةً استخدمها كثيراً في مقالاته. رَسَمَ "بغداد الجديدة" التي بدأتُ أغدو أحد شهودها في السياق التاريخي بمقالة كتبها في مطلع كانون الثاني 2009 تحت عنوان "مدينة الأسوار":

"مَنَحَ سكان بغداد مدينتهم الكثير من الأسماء عبر تاريخها الممتد على 1250 عاماً. بالنسبة إلى مؤسسها "أبو جعفر المنصور"... إنها مدينة السلام، العاصمة المثالية المرسومة في دائرة والمصبوبة مع أسوارها في قالب.

تحوّلت العظمة في بغداد صدام حسين إلى معنى من دون شكل؛ منتشرة في كل مكان بشكل غريب وكأنها وصية غروره. بعد سقوطه، بدت المدينة وكأنها استبيحت، وعرّيت من سكانها؛ وبُعث شكل جديد للبلوك والطين. غدت مدينة فوانيس وسط الظلال، مدينة أشباح في ظل الخوف، مدينة مهجورة. بعد هذا مباشرة أُسدل طراز الاحتلال المعماري عليها كستارة مسدودة بحواجز إسمنتية شاحبة، ملونة بلون السماء الغائمة الرمادي القاسي والخالي من الزينة.

بغداد اليوم هي مدينة هذه الأسوار".

هذه هي بغداد التي رآها طيب أرضوغان في زيارته الأولى لبغداد بتاريخ 10 تموز 2008. قال بضيق في تلك الليلة في الطائرة أثناء عودته إلى أنقرة: "ذهبنا إلى بغداد، وها نحن نعود منها من دون أن نراها". ذهب من المطار إلى المنطقة الخضراء عبر متاهة إسمنتية، ومن هناك عَبَرَ الجسر المعلّق وذهب إلى عشاء جلال طالباني، ومنه إلى المطار.

اعتبر طيب أرضوغان نفسه قد زار بغداد حين قصدها للمرة الثالثة في 29 آذار 2011 ووجد فرصة لزيارة قبر الإمام موسى الكاظم في الكاظمية وقبر أبي حنيفة على الضفة المقابلة له من دجلة. كان يُستشعر من كلماته: "ذهبنا إلى بغداد، وها نحن نعود منها من دون أن نراها". احتجاجاً على الاحتلال الأمريكي.

عبّر وزير الخارجية أحمد داوود أوغلو عن هذا السخط بشكل واضح في الندوة الصحفية المغلقة التي عقدها في اسطنبول حينئذ. فقد تحدث عن متاهة بغداد الإسمنتية بما يعني "هجوماً صليبياً غربياً" ظالماً على بؤبؤ عين الحضارة الإسلامية.

الاحتلال الأمريكي بالنسبة إلى بعض العقليات الإسلامية هو أكبر كارثة عاشتها بغداد منذ عام 1258؛ تاريخ دخول هولاكو إليها وقضاء المغول على العصر الذهبي الإسلامي "عند احمرار مياه دجلة بالدم المسفوك، واسودادها بإلقاء الكتب".

ثمة فرق دائم بين بغداد "عصر الحضارة الإسلامية الذهبي" المحفورة في الأذهان، وبغداد الحقيقية في مرحلة حياتنا نحن. وهذا فرقٌ لن يختفي في أي وقت. أعرف هذا جيداً نظراً إلى كوني قد زرتها في المرة الأولى عام 1978، والثانية عام 1988، ومرات عديدة بعد عام 2003، وجلتُ في كل زاوية من زواياها بشغف.

عاشت بغداد عصراً ذهبياً لا يمكن مقارنته إلا بالأندلس مدة خمسة قرون؛ بين القرنين الثامن والثالث عشر حتى محقت على يد المغول. خلال خمسة القرون تلك، كانت عاصمة العلم الأولى في العالم. وبفضل بغداد غدت العربية لغة العلوم على مدى ثمانية قرون. إنها مدينة الخليفتين المنصور وهارون الرشيد، ولم تكن أكبر مدينة في العالم بعدد سكانها الذي بلغ مليون نسمة في عهد المأمون فحسب، بل كانت مركز إشعاع علمي لأن "بيت الحكمة" تأسس فيها. كانت بغداد تنير ما حولها، وأوروبا محرومة من ذلك النور. تُرجمت الكتب الإغريقية والفارسية والهندية القديمة وأعمال سقراط وأرسطو وأفلاطون، ودخل المفكرون الإسلاميون بنقاشات وجدل مع المفكرين المسيحيين واليهود في بغداد. ابن سينا الطاجيكي، وابن رشد الأندلسي الذي أنار له الطريق الفارابي التركي المتأثر بعالم الرياضيات العظيم الكندي، والخوارزمي الذي أدخل الجبر حيز العلوم، والبيروني الفارسي الذي يعتبر ليوناردو دافنتشي الإسلام، والطوسي الذي أثر على أرخميدس، وابن خلدون جميعاً من نتاج عصر بغداد الذهبي وبيت حكمتها...

عاش مؤسسا مدرستي الفقه الإسلامي الكبريين، الحنفيّة والحنبلية أبو حنيفة وابن حنبل في بغداد، وأسسا مدرستيهما فيها. ناظمية نظام الملك، والمدرسة المستنصرية التي تُعتبر بيت العلماء في العصور الوسطى كانتا في بغداد أيضاً. "ألف ليلة وليلة" التي تصور أبّهة عصر هارون الرشيد تنتمي إلى بغداد أيضاً.

بغداد بخصوصياتها كلها تثير "مدينة حكائية" في العقول. وجذبت إليها الجميع، وفي كل العصور بفضول لا يُقاوم. وجذبتني أيضاً.

في الحقيقة، إن العصر الذهبي لم يستمر طوال فترة الدولة العباسية. عمره يساوي ربع عمرها، وثمة حقيقة أخرى، وهي أن بغداد كثيراً ما هُدمت، وبرزت بشاعتها أكثر مما برز جمالها.

ولكن خيال "العصر الذهبي" الذي جعل بغداد أثيرة مدن العالم على مدى قرون يجعل الإنسان يعيش في عالم الحلم حتى في واقعها القبيح أو قبحها الواقعي. يبدو أن هذا ما يجعل بغداد جذابة ومخاتلة في الوقت نفسه.

وهذه حالة ليست خاصة بالوقت الراهن؛ فقد استشعر الرحالة الشهير في التاريخ الإسلامي ابن جبير الأندلسي (1145-1217) وسبق الرحالة الأشهر ابن بطوطة بقرن تقريباً بتقهقر بغداد عام 1184. لقد كتب: "هذه المدينة العتيقة، وإن لم تزل حضرة الخلافة العباسية، ومثابة الدعوة الإمامية القرشية الهاشمية، قد ذهب أكثر رسمها، ولم يبق منها إلا شهير اسمها. وهي بالإضافة إلى ما كانت عليه قبل إنحاء الحوادث عليها والتفات أعين النوائب إليها كالظل الدارس، والأثر الطامس، أو تمثال الخيال الشاخص". هذا قبل أن يُجرِيَ هولاكو في دجلة دماً وحبراً بأربع وسبعين سنة.

لم ينقطع قاصدو بغداد منذ نشأتها عام 742. جاءها البويهيون عام 945، وتبعهم السلاجقة عام 1055. وجاء مغول هولاكو عام 1258، والجلائريون عام 1340. وحكمها تيمورلنك بين 1393-1401. ودخلها أتراك الخرفان السود عام 1411، والخرفان البيض عام 1469. جاءها الصفويون عام 1508، والعثمانيون بقيادة السلطان سليمان القانوني عام 1534. عاد إليها الصفويون عام 1623، والعثمانيون مرة أخرى بقيادة مراد الرابع عام 1638. دخل الإنكليز المدينة عام 1917. أرسل الإنكليز جنودهم إليها مرة أخرى لإسقاط الحكومة الموالية لألمانيا المشكّلة عام 1941. أما الأمريكيون الذين جاءوا عام 2003 فقد غادروها عام 2011 تاركين خلفهم آثارهم.

في تموز من عام 2003، انطلقتُ بالسيارة من جبال كوردستان في صلاح الدين شمال أربيل باتجاه بغداد عبر كركوك؛ حالماً برؤية بغداد المُحررة من صدّام وأنا في ذروة الانفعال. دخلتْ بيننا خمسة عشر عاماً ومعركتان. وصلت درجة الحرارة إلى خمس عشرة درجة في الظل. قطعت أربيل وكركوك وطوز خورماتو والحدود التي يتصورها الكورد بينهم وبين العراق العربي في تلال حمرين، ونزلت إلى سهل غابات النخيل في الرافدين

الأدنى. اتجهت من مفرق بعقوبة إلى الطريق المجاور لبلدة الخالص داخلاً بغداد من الجهة الشمالية الشرقية لأول مرة في حياتي.

أمضيتُ قبلها يوماً كاملاً في كركوك لأول مرة في حياتي أيضاً في درجة حرارة بلغت الخمسين. رسخ في ذهني منذ الطفولة أن كركوك "مدينة تركمانية". في تلك الفترة، كانت موضع خلاف بين الكورد والتركمان والعرب. مخزون هذه المدينة النفطي هو سبب الخلاف الذي يمكن أن يقضي على العراق. أعلنها جلال طالباني – وهي مدينة عائلته – "قدس الكورد" من دون أي سند تاريخي، وتبنى الإعلام العالمي هذه التسمية. كل المصالحات بين الحكومة العراقية المركزية والكورد انهارت بسبب ادعاء كل طرف حقه بكركوك، وكانت سبباً لاستمرار الحرب. كل هذا أجج فضولي أكثر نحو كركوك.

ظهرت كركوك أمامي كأكثر المدن التي رأيتها في حياتي رثاثة ودمامة. شكل الجانب الجمالي خيبة أملي الكبرى. هل هذه مدينة الأتراك التي وُصفت بأغنيات تقول كلماتها: "لائق خزامك الذهبي... عشتِ رفاه يوم، فعشتُ أياماً/رأيتُك فسعِدتُ"، "اقدحي قداحتك، شعلتي لم تشتعل".

عندما قلت هذا للدكتور مظفر أرسلان في ما بعد، قال لي الزعيم التركماني؛ ابن المدينة وعاشقها: "كركوك طفولتنا كانت جميلة جداً بحق. في زمن صدام وصلت إلى حالتها التي رأيتها عليها". ولكنني لم أقتنع. بعد زمن، عندما قرأت سطور كتاب جورج بيكر أمريكا في العراق اقتنعت أنه من الممكن النظر إلى كركوك بطريقة مختلفة: "مدينتي الأثيرة كركوك العراقية تخنقها زحمة المواصلات، وتنتشر قمامتها وتكتوي تحت الشمس؛ مثل أي مكان آخر من العراق. ولكنني ومنذ زيارتي الأولى لها وجدتها سحرية بحنين إلى الماضي وآثار ذلك الماضي في كل زقاق من أزقتها الضيقة المعتمة والمخيفة. ثمة سحر في قلب المدينة" (ص 337، Farrar, Straus and Giroux, New York, 2005).

استطاعت كركوك أن تكون ساحرة، وأن تثير حنيناً إلى عشقٍ مضى بموقعها بين نهر هاصا الجاف والمتحول إلى مزبلة، والقلعة القديمة شرقي النهر التي تُطل على فسحة واسعة، وكانت مركزاً سكنياً للتركمان، وتحوّلت إلى مزبلة في زمن صدام إثر مجزرة بيئية نفذها عام 1992، والنار الأبدية التي تُرى عند مدخل المدينة الشمالي وتبقى مشتعلة باندفاع غاز الميتان من تحت الأرض في بابا غوغور.

عبرتُ كركوك للمرة الثانية بعد يوم من الأولى. وعندما وصلت إلى

بغداد بعد ساعتين ونصف الساعة اجتاحتني سعادة رهيبة لكوني في بغداد. التاريخ 12 تموز 2003.

سجلتُ انطباعاتي حول بغداد بعد خمسة عشر عاماً تضمنت حربين كبيرتين على النحو التالي:

"فور أن وطئت قدمي بغداد، اجتاحني سحر إيقاع المدينة المذهل وكأنني ثملت بأوكسجين الحرية الذي لم أشعر بذرة منه سابقاً. يَنْظر إليّ باستغراب من يسمعني أتحدّث عن هذا الشعور نتيجة اعتياده على سماع أخبار الاغتيالات والأحداث الدموية القادمة من العراق ومن بغداد تحديداً، ومشاهد التلوي ألماً من الحرمان أثناء الكدح تحت حرٍّ رهيب في وضع لا يُحسد البغداديون عليه. مصدر الشعور بالسعادة الذي أصفه لكل من يسألني عن بغداد هو جو الحرية الذي يخيّم على المدينة. جو الحرية الذي يُبطل تأثير خمسين درجة مئوية في الظل. بغداد التي لا آمن فيها على حياتي ويُمنع التجول فيها اعتباراً من الساعة الحادية عشرة ليلاً كانت بالنسبة إلي حرة بما لا يُقارن ببغداد التي زرتها كضيف على النظام عام 1978، وبغداد التي نزلت فيها ضمن وفد رسمي مع رئيس الحكومة التركي عام 1988. كان الشعور بعدم وجود مخبر خلفي في أي مكان من المدينة يكفيني.

جانب المدينة الآخر المهم بالنسبة إليّ، والذي أثار حماستي هو عدم فقدانها حياتها. الحياة تصدح في محيط مركز البريد المدمّر وشارع الرشيد والأسواق المحيطة بساحة التحرير. لفتت نظري الشاحنات الكبيرة والصغيرة التي تنزل الصناديق بشكل دائم والأدوات المنـزلية التي تُجلب من دول الخليج، والهوائيات الفضائية. رأيت بعيني حيوية الاقتصاد...".

بعد أيام فقط من تدويني هذه الانطباعات، قرأت في الغارديان الإنكليزية انطباعات الكاتب البيرويّ ماريو فارغاس يوسا حول بغداد عن الفترة ذاتها. نشر الكاتب مقالته بلغته الأصلية الإسبانية في جريدة إلبايس. لماريو فارغاس يوسا مكانة خاصة لدي قبل حصوله على جائزة نوبل عام 2010. وجدت تقارباً شديداً بين ما كتبه في جريدة إلبايس بعد 11 أيلول 2001 من أجل نيويورك – الاقتباس أدناه – وما كتبتُه ونشرته في جريدة يني شفق بتاريخ 15 كانون الأول 2001، وأعلنت يومئذ "أنني أحلق معه على الارتفاع نفسه":

"ما كتبه خوليو كورتزار عن باريس يعني أن تكون حبة رمل في حكاية الجنيات التعددية تلك: بالتأكيد أُفَضّلُ أن أكون مجهولاً في مدينة

فيها كل شيء على أن أكون مشهوراً في مدينة لا شيء فيها. إنها تمنح توتراً وانفعالاً في الوقت نفسه".

لا يمكن أن تعرف المشاعر التي تثيرها نيويورك بكلمات أجمل من هذه.

قرأت كلمات أسطون الكتابة البيروني لانطباعاته عن بغداد باهتمام خاص. ما نشره في الغارديان بتاريخ 5 أيلول 2005 عن بغداد يوحي بأننا ما زلنا نحلق على الارتفاع نفسه منذ كلماته عن نيويورك وحتى الآن:

"في العراق أعظم حرية في العالم. ولأن الحرية تتحول إلى فوضى عندما لا يكون هناك قانون ونظام، فهي في الوقت نفسه أخطر دولة في العالم. ليس ثمة جمارك أو جمركيون، وألغى مجلس الحكم الانتقالي الذي يديره بول بريمر الرسوم الجمركية حتى تاريخ 31 كانون الأول 2003. لهذا تتدفق عبر الحدود العراقية كل البضائع؛ ما عدا السلاح؛ من دون أية صعوبة أو تكلفة... لهذا السبب، إن الشارعين التوأمين السياميين المتعرجين على طول بغداد – كرادة داخل وكرادة خارج – يقدمان تنوعاً هائلاً بالمواد الصناعية والغذائية والملبوسات. دكاكين لا تحصى تفيض بضاعتها إلى الأرصفة وتحولها إلى مرتع للأقراص المدمجة والفيديوهات المقرصنة. هناك مُنتج يهرع البغداديون لشرائه، وهو الهوائي الفضائي الذي يمكّن من متابعة تلفزيونات العالم؛ حيث إنّ هذا لم يكن متاحاً من قبل...".

مشاهداتي حول مركز المدينة يرويها فارغاس يوسا عن كرادة. الجانب الغريب في الأمر أنني نزلت في فندق برج الحياة الواقع في كرادة في تموز من عام 2003. في المرحلة الانتقالية تلك، كان مسعود برزاني يستخدم فندق سندباد الملاصق لبرج الحياة مقراً للحزب الديمقراطي الكوردستاني في العاصمة العراقية. وكان هوشار زيباري الذي سيغدو وزير خارجية العراق ويُعرف بأنه الممثل الأول للسياسة العراقية في الخارج مقيماً في سندباد.

كانت كرادة إحدى مناطق بغداد التي تغدو فيها المواصلات جحيماً. ولكنني سجّلت حالة نفسية إيجابية تنجم عن وضع المواصلات الرهيب على النحو التالي:

"كانت المواصلات بكلمة واحدة تعذيباً. ولكن، هل تعذيبها أصعب من تعذيب مواصلات طهران والقاهرة وحتى اسطنبول في الثمانينيات؟ بُعَيْدَ الثورة، كان شرطيو المرور يقفون ببذلاتهم الرسمية منذ الصباح الباكر، ويطيع الذين ثاروا ضد أحد أشد الأنظمة في العالم قمعاً رجال الشرطة أولئك بشكل مدهش، وقد شهدت على هذا بنفسي. كانت في طهران يومئذ

عدة قوى تتصارع بشدة على السلطة. لم يكن معروفاً من يمسك الإدارة العامة، وهناك شك في ما إذا كانت شرطة المرور تتقاضى رواتب. وأذكر أنني فسّرت طاعة الشعب الإيراني لهم بوعي للوظيفة العامة والانضباط على أنه مثال حيٌّ على تقاليد دولة عظيمة، وقد تأثرتُ بهذا كثيراً. لم يكن في بغداد وضع كهذا بعد سقوط نظام البعث وصدام حسين. فقد زالت الإدارة العامة. كانت المواصلات في جحيم الحر ذاك تعذيباً، ولكن جانبي الذي يستنبط انطباعات إيجابية من الأوضاع الثورية تحرك، وشعرتُ باحترام عميق لشعب بغداد. لأن لا أحد يجادل في العقد المرورية التي تستمر أحياناً نصف ساعة، ولا أحد يحاول فرض حقه على الآخر، ويقفز أي شخص، ويساعد بفتح المرور لحظة، ثم يحوّل هذه المهمة لآخر، وبالنتيجة يسود الصبر، ويُفتح المرور".

ما أغرب هذا! لم يستطع ماريو فارغاس يوسا إلا أن يعرج على مشهد المرور في بغدد من دون البعث، ووصل إلى استنتاجات مشابهة لاستنتاجاتي:

"لعدم وجود أي خدمة من الخدمات العامة، وعدم وجود شرطة مرور على مفارق الطرق في بغداد فإن قيادة السيارة عذاب لا يفوقه عذاب. انسداد المواصلات يفقد الناس صوابهم. ولكنني على الأقل رأيت بعض المؤشرات حول المؤسسات الآنية الشهيرة التي يعتبرها هايك الأكثر تمثيلاً والأطول زمناً وتخرج بشكل طبيعي في المجتمع المدني من دون أن يفرضها نظام. عندما تصل المواصلات إلى نقطة الشلل، يظهر دائماً متطوعون يحملون صفارة وعصا، ويبدأون بتنظيم المرور. ويلتزم السائقون العالقون في العقدة بالأوامر الموجهة إليهم بارتياح".

كتبتُ عن موضوع المطاعم أيضاً فيما لو أخذناها مقياساً لحياة المدينة وقوة مقاومتها وتصميمها.

فقد كتبتُ انطباعاتي حول بغداد في تموز 2003: "لهذا السبب إنّ المطاعم بالنسبة إلي تعني مقياساً للحياة وللتصميم على المقاومة، وشعرتُ بسعادة غامرة نتيجة شعوري بأن بغداد شامخة من هذه الزاوية".

غير هذا، لقد فرحتُ جداً لرؤيتي بغداد سليمة. كنت أخشى من رؤية المدينة التي ألقت الطائرات الأمريكية عليها أطناناً من القنابل في حربي 1991 و2003، ورأيناها عبر شاشات التلفزيونات تغيب وسط النار والدخان مثل برلين أو درسدن بعد الحرب العالمية الثانية. آثار الحرب كانت موجودة بالتأكيد، ولكنها أقل مما كنا نتصوره بكثير. سوي بالأرض

مركز حزب البعث والمخابرات بضربات مركّزة، ولكنهما ما زالا مثل ضرسين في فم المدينة المنتشرة على طرفي دجلة. مع هذا، تلفت الانتباه بعض الأبنية المحروقة كصورة الأضراس النّخرة.

عرفت أن هذا لم يحدث بفعل القصف الأمريكي، بل بأحداث النهب إبان انهيار النظام. كان نهب بغداد حدثاً اجتماعياً قام به البغداديون بغياب القوى الأمنية العراقية أمام أعين الجنود الأمريكيين الذين لا يُعرف ما إذا كانوا جيش احتلال أم جيش إنقاذ؛ ومن دون تدخلهم، وأحرق فيه البغداديون بعض الأبنية.

حدث ما حدث في نيسان من عام 2003، عندما وطئت قدماي بغداد بعد 15 عاماً وغدا النهب من الماضي، ولم يُزِل جمال دجلة المتلوي فيها دمامتها ورثتها؛ على الرغم من أنها بدت لي جذابة جداً. إنها لم تفقد جاذبيتها في نظري.

استمتعت بكل زيارة لبغداد، ولكن متعتي في تموز 2003 كانت غير عادية. يمكن تعريف متعة الوجود في بغداد بأنها "رجولة"؛ بحسب الكاتب المفكر الأمريكي من أصل لبناني البروفيسور فؤاد عجمي.

كان فؤاد عجمي بؤبؤ عين المحافظين الجدد. وقد عمل مستشاراً لنائب الرئيس الأمريكي ديك تشيني الأشد تطرفاً في الموضوع العراقي. فؤاد عجمي شيعي الأصل، ذهب إلى العراق عدة مرات، وحل ضيفاً على أحمد جلبي، وفتحت له أبواب آية الله السيستاني في النجف. يُعدُّ كتابه " The Foreigner's Gift-The Americans, The Arabs and The Iraqis in Iraq /هدية الأجنبي: الأمريكيون والعرب والعراقيون في العراق" من أهم ما كُتِبَ حول عراق ما بعد حرب 2003. برز اسم فؤاد عجمي في حرب العراق لعام 1991. منذ ذلك اليوم، حظي بإعجاب الأوساط المؤيدة لإسرائيل في الولايات المتحدة الأمريكية والصهاينة الأمريكيين، ووصل إلى درجة مرجع النخبة الأمريكية في موضوع الشرق الأوسط. ولكنه في الوقت نفسه حظي بحقد الكثير من العرب.

عرفتُ فؤاد عجمي عن قرب منذ مطلع التسعينيات. شخصيته متشابكة ولا يمكن تحليلها، إضافة إلى كونه حاد الذكاء، وأسلوبه غاية في الإدهاش. شعور فؤاد بالانسحاق لأنه شيعي يكمن خلف تأييده للحرب الأمريكية على العراق من أجل وصول الشيعة إلى الحكم. يروي فؤاد عجمي بقلمه المدهش كيفية تخليص العراق من صدام، وإهدائها للشيعة في كتابه "هدية الأجانب" الذي يصور عراق ما بعد 2003 ضمن المنظور

التاريخي.

ومنذ مقدمة الكتاب، يكيل المديح لعمل حسن العلوي "العراق الأمريكي" ويعرّف به: "دبلوماسي ومثقف عراقي محترم جداً، ويبرز الفكرة الأساسية على النحو التالي:

"مثلما يحكى عن العراق السومري والبابلي والعباسي والعثماني ثم الإنكليزي، من المناسب أن يحكى أيضاً عن العراق الأمريكي. قدر الأمريكيين أن تكون فترتهم قصيرة، ولكنهم سيتركون أثراً كبيراً. ومثلما كان العراق الإنكليزي سنياً، يمكن القول إن العراق الأمريكي سيكون شيعياً. كان السنة أذكياء أثناء الحكم الإنكليزي، وتقبلوا منطق القوة والهزيمة: وهكذا حصلوا على وطنٍ ومملكة سياسية ومواقع رسمية وسفارات. مقابل هذا، سطّر الشيعة تمرداً أسطورياً ببنادق العرب الصدئة في منطقة الأهوار. يقول العلوي: سيكون خيراً على الشيعة إذا تقبلوا قوة الأمريكان وتخلوا عن العنف والتمرد. ويضيف: لم يتصرف الشيعة تحت الحكم الأمريكي بدهاء السنة تحت الإدارة الإنكليزية. ولكن البداية تحققت، وقضي على النظام؛ حيث لم يعد يستطيع العودة ثانية".

حدثني في أحد مطاعم نيويورك عام 2005 عن مضمون كتابه بأنه يصور دخول الشيعة التاريخ الحديث بعد سيطرة للعرب السنة دامت قروناً، إضافة إلى انطباعاته عن بغداد. لم تكن بغداد قد شهدت قتل الشيعة والسنة بعضهم بعضاً بين عامي 2006-2009، وتطهير أحيائهم المشتركة لتغدو لطرف واحد. بينما كنا نستذكر بغداد إلى مائدة العشاء في بيت تمارا ابنة أحمد جلبي الصديق الدائم في اسطنبول في شباط من عام 2012، فسّر عقدة بغداد بتعميم خاص لا يمكن أن يخطر ببال أحد: "هناك سبب واحد لوجود أمثالنا في الفترة الأخيرة في بغداد، فكر جيداً، إنها الرجولة. متعة وجودنا في مكان لا يجرؤ أحد على التواجد فيه بسهولة. هذه ليست بطولة. لهذا تفسير واحد؛ وهو: الرجولة!".

هل كان الوضع على هذا النحو حقيقة؟ للحظة، كدت أقتنع بهذا التفسير الذي لا يخطر ببال. لقد تجولت وبتُّ في كثير من أحياء بغداد... أقمتُ في بيت التركماني مظفر أرسلان في شارع المسبح ذي الغالبية الشيعية شرقي دجلة، وفي الوزيرية؛ الحي السني التقليدي حيث استراحة السفير التركي في الطرف المعاكس تماماً، وفي القادسية من الشطر الغربي حيث كان يسكن قادة البعث في زمن ما، وفي "المنطقة الخضراء" من الشطر الغربي أيضاً حيث قصر الضيافة عند مرافقتنا طيب أرضوغان عام 2011، وفي

الجادرية على ضفة النهر الشرقية، وفي كرادة حيث يعيش الكثير من المسيحيين، وقد أصابت قذيفة صاروخية الطابق العلوي في المكان الذي أقمت فيه... أقمتُ لفترتين متساويتين في كل طرف من طرفي دجلة. لم يخطر ببالي قط بأن إصراري على الذهاب إلى بغداد على الرغم من كونها تحمل خطراً على حياتي بطولة، ولم يخطر ببالي أيضاً أنها يمكن أن تكون "رجولة".

بعد عام 2006، بدأ نسيج بغداد البشري يخرب. يعطي أنتوني شديد رؤوس خيوط في مقالته المعنونة: "في مدينة الإسمنت" (12 تموز 2009). ينقل قول بغدادي: "بغداد بالنسبة إليّ كالشبح"، ثم يضيف: "بغداد مثلها مثل القاهرة وبيروت يسيطر الحنين على أحاديث أهلها، كما يسيطر على غالبية شعور سكان العالم العربي التعيس. يشير الشعور بالحنين إلى حقيقة أن التعددية الثقافية قد فُقدت كما فُقد شيء من التسامح، وشيء من الحياة الحرة...".

يمكن أن لا تكون هناك أسباب كثيرة للحنين إلى ماضٍ قريب لمراكز شرق أوسطية تعددية هامة مثل بغداد وبيروت والقاهرة. ولكن أنتوني شديد الذي يعبّر عن الحنين في مقالته "في مدينة الإسمنت" يتابع على النحو التالي:

"يسأل الكاتب مارك مازوفر في كتابه سيلانيك مدينة الأشباح: كيف يمكن أن نروي قصتنا من دون إبراز الحنين إلى عالم لا نريد العودة إليه لأسباب كثيرة؟ هنا يكمن المأزق.

الحنين بالنسبة إلى مازوفر ليس مفهوماً خاصاً بالعرب، بل إنه مفهوم عالمي يُعبّر عن الفشل بقدر ما يعبر عن فقدان حالة.

يقول: "الجميع يعرفون مدى صعوبة تأسيس أنظمة مستقرة ومتسامحة في الدول القومية. الحنين انعكاس للأزمة الراهنة".

ليس ثمة استقرار أو تسامح في بغداد ما بعد الحرب. ولكن ميسون الدملوجي لا تُحمّل المسؤولية كاملة للوحدات العسكرية الأمريكية التي تركت المدينة.

قالت دملوجي، المهندسة المعمارية والنائب في البرلمان التي تنتمي إلى أسرة مرموقة: "دائماً أقول إن الجيش جيش. الجيش يعني رجالاً يحملون أسلحة. لا يمكنكم أن تتوقعوا من الجيش أن يتحمل مسؤولية راحة مدينة".

ساءت أحوال بغداد قبل مجيء الأمريكان. فقد شهدت حرباً مع إيران

دامت ثماني سنوات عُرض فيها الأسرى في شاحنات صغيرة. تبعتها الحرب الناجمة عن احتلال العراق للكويت، ثم حرب العقوبات التي قضت على الطبقة الوسطى.

قالت دملوجي: "هناك أجيال لا تعرف سوى لغة الحرب والصراع والتحدي. ترون هذا في أعين الناس".

ذهب البغداديون. (عندما قالت دملوجي: "ذهب البغداديون" قصدت: "ذهب تسامح المدينة") أخذ مكان الذاهبين رجال حادون ومهاجرون من الريف مع قواعدهم الصارمة. في أيام شبابها (دملوجي) عندما كان شيخ عشيرة يأتي إلى العاصمة، كان يرفع الكوفية عن رأسه.

قالت: "يخجل جداً. عندما كان يأتي إلى بغداد، كان يتصرف مثل البغدادي. الآن، يتصرف الذين يعيشون في بغداد مثل وجهاء العشائر الذين يعيشون في الريف...".

لكاظم الساهر المطرب العراقي الأشهر أغنية عن بغداد، يسأل فيها: وهل خلق الله مثلك في الدنيا أجمعها؟ ثم يرتفع صوته، ويصرخ بشكل حزين: بغداد، بغداد، بغداد!

"هل حدث أن كانت جميلة ذات مرة؟". توقفت دملوجي.

أجابت قائلة: "لا، لا أعتقد أن بغداد كانت جميلة في أي وقت من الأوقات. ولكنها مدينة حيوية. وكانت مدنية".

بعد قراءة هذه السطور، فكرتُ في أنني أثبت صحة مشاهداتي وشعوري. أنا أيضاً لم أجد بغداد جميلة في أي وقت.

وبما أن بغداد لا يمكن أن تحمل أي حنين بالنسبة إليّ، فما الذي يجذبني إليها؟

هذا ما ورد في ملاحظاتي التي لفتتني وكتبتها في تموز من عام 2003:

"ليس شعور الحرية ما لفّ قلبي في تموز عام 2003 ذاك، بل السعادة. إنه شعور الفرح بالحياة. هذه مفارقة بحد ذاتها؛ لأن التهديد بالقتل الذي لازمني وأنهك محيطي القريب وعائلتي منذ عام 1990 يتعلق بقضية ثأر النظام في هذه المدينة".

ذهب النظام الذي له ثأر عندي، وشرعت بغداد لي أبوابها...

انتصاري في قضية الثأر، وشعوري بأنني أستطيع الذهاب إلى بغداد متى شئت جعلها جذابة في نظري. حسنٌ، ما الذي يمكن أن يستمر بجذبي في هذه المدينة التي تتحول إلى إسمنت بشكل تدريجي، وتفقد التسامح،

وتغدو العلاقات الإنسانية فيها قبيحة حتى لو أشرعت أبوابها لي؟

يبدو أن الجواب بسيط إلى درجة أنه يتألف من كلمتين: جلال طالباني.

أنا أعتبر الكورد امتداداً طبيعياً واستراتيجياً لتركيا، وأتخيل تكاملهم مع تركيا، وجعلت تحقيق هذا التصور هدفاً لحياتي، وقد تمددوا إلى بغداد بفضل جلال طالباني.

لقد غدا صديقي القديم، والقائد الكوردي الذي بواسطته كُسرتُ جليد العلاقة بين تركيا والكورد لأول مرة في تاريخ الجمهورية رئيس جمهورية العراق.

XI - الرفاق والرفاقية



نحن لا نصنع التاريخ، بل التاريخ يصنعنا.

مارتن لوثر كنغ

لم يُقم جلال طالباني في "المنطقة الخضراء" حيث مركز إدارة الاحتلال الأمريكي، وقصور صدام الفخمة، وساحات مراسمه الكبرى. المنطقة الخضراء غرب دجلة مغلقة على الناس، وهي شكل من أشكال المنطقة المحرمة. طرح تبريراً أيديولوجياً بقوله: "أنا رئيس الجمهورية، ولا عمل لي في المنطقة الخضراء!". ونقل مقر إقامته إلى الجادرية على الضفة الشرقية للنهر.

استمدت الجادرية اسمها من كونها موقع قيادة الجيش في العهد العثماني، وتعني المخيم. المكان الذي اختار طالباني أن يُقيم فيه كان فيلا برزان التكريتي شقيق صدام. كان برزان رئيس المخابرات العراقية، واسمه فقط يكفي لبث الرعب في النفوس. بهو برزان التكريتي الذي لا يعلم إلا الله ما اتُخذ فيه من قرارات ظالمة يستخدمه الآن جلال طالباني كصالة استقبال.

نهضنا عن مائدة الغداء في مقر إقامة رئيس الجمهورية طالباني، وانتقلنا مع مجموعة من الوزراء العراقيين من غرفة الطعام إلى البهو المجاور؛ أي المكان الذي يستقبل فيه رئيس الجمهورية العراقية ضيوفه.

عندما دخلنا إلى البهو، أشار طالباني نحو الأريكة الواقعة إلى اليسار، وتوجه نحو المقعد المجاور. ترددت بالجلوس على الأريكة التي أشار إليها؛ لأن العلم العراقي خلفها مباشرة. هذه الأريكة أريكة رئيس الجمهورية العراقية. ألح قائلاً: "اجلس، اجلس!". وجلس على المقعد المجاور، وأشعل سيجاراً، وقدم لي واحداً. كان الشاي قد وُضع على الطاولات الصغيرة بجوارنا.

قلت: "مام جلال، هذه أريكة رئيس الجمهورية العراقية، دعني أجلس على الأريكة المجاورة، واجلس على أريكتك". لوّح بيده غير مبالٍ، وقال: "لا تُطِل الأمر. خذ راحتك. لقد جلست. أشعل سيجارك". وقدّم لي علبة ثقاب.

هو من عودني على تدخين السيجار عام 2003 بعد تركي التدخين، وعدم وضعي السيجارة بفمي بعام. أثناء وجودي في بغداد ضيفاً عليه، كان يُخرج السيجار من مجموعته الغنية جداً بالأنواع، وبعد اقتراحه: "هيا ندخّن السيجار بعد الفطور!"، نغوص في أحاديث لا تنتهي. واعتدت أن أحمل له السيجار عندما أزوره في بغداد لكي لا أذهب بيد خاوية. حتى إنني حملت إلى بغداد علب السيجار التي أرسلها له فيدل كاسترو هدية. أحد زملائنا الذين رافقوا البطرك برثلماوس في زيارته إلى هافانا أخبر فيدل كاسترو أنه يمكن أن يحمل لطالباني سيجاراً، فحمّل فيدل عدداً من علب السيجار لزميلنا، وزميلنا حمّلنا تلك العلب.

بعد أن أشعلت سيجاري وأنا جالس على أريكة رئيس الجمهورية أمام العلم العراقي، قلت: "علينا أن نوثّق هذه اللحظة". وطلبتُ التقاط صورة بواسطة هاتفي النقال، وأرسلت الصورة لزوجتي القلقة من وجودي في بغداد، ولم تستطع الاتصال بي بأي شكل. ولم أهمل أن أكتب لها: "أنا على مقعد رئيس الجمهورية في بغداد، وبجانبي رئيس الجمهورية العراقية. وكما ترين، نحن نتكلم بموضوعات جدية. أنا مشغول...".

لا يمكن لأحد أن يكون كريماً معي إلى درجة تقديم أريكة رئاسة الجمهورية العراقية في كانون ثاني لعام 2006. في نهاية شباط من عام 2011، قضيت خمسة أيام في استراحة السفير التركي مراد أوزتشليك صديقي منذ أن كان مدير ديوان تورغوت أوزال الخاص. ومنذ اللحظة التي وطئت فيها قدماي أرض بغداد قطعتها عرضاً من الوزيرية إلى الجادرية من أجل

تناول الغداء مع جلال طالباني. كنت في جيب مصفح، وبجانبه جيب آخر، وبرفقتنا فرقة عمليات خاصة. هذا ما يتطلبه الأمن في بغداد. لم يكن لدي مجال للقاء طالباني في وقت آخر؛ لأنه كان سيغادر بغداد متجهاً إلى الكويت. وجدته جالساً ينتظرني. خلال حديثنا في صالة الاستقبال ذات العلم تلك التي جلسنا فيها مرات عديدة، سألته: "ماذا يوجد في الكويت؟". أجابني: "أنا ذاهب للمشاركة في احتفالات تحرير الكويت". وحين سألته بسذاجة: "ممن تحررت الكويت؟". قال: "من العراق!". وضحك، ثم أضاف: "بصفتي رئيس جمهورية العراق الكوردي أدعم استقلال الكويت عن العراق، وأهنئها". وعند مغادرته مقر إقامته، ألح بأنني أستطيع الإقامة هناك حتى لو لم يكن موجوداً. فرددت عليه ممازحاً: "أنا أيضاً لدي دولة يا مام جلال. أقيم في ممثلية دولتي. لا تقلق على راحتي في بغداد". أشار إلى ماضينا المشترك الذي طالما تقاطع، وقال: "أعرف. لا تنس أن لك هنا أيضاً دولة؛ دولة جاهزة لاحتضانك دائماً".

يبدو أنه لا يمكن سماع عبارة كهذه سوى من رئيس جمهورية كوردي فريد حارب الحكم العراقي المركزي لعشرات السنين. وقد اعتاد لسنوات طويلة على مخاطبتي بلفظ صيني ركيك "تونتشة" (رفيق)، ويعرّف من حوله إليّ على هذا النحو.

خصص مقعد رئاسة الجمهورية العراقية لطالباني الكوردي وليس لطالباني ذي الجذور الكوردية. رئاسة طالباني للجمهورية العراقية تحمل خصوصية صمام الأمان لبقاء الكورد ضمن حدود العراق، ولإدارة الكورد الذاتية في الشمال ضمن الاتحاد العراقي. بعد حرب عام 2003، وضمن توازنات ما بعد صدام، كان شرط الكورد لبقائهم ضمن حدود العراق إما أن يحصلوا على رئاسة الجمهورية أو رئاسة الوزراء. توازنات السلطة في العراق الجديد استقرت لأول مرة منذ عام 1921 (ومنذ القرن السادس عشر؛ إذا حسبنا الفترة العثمانية) على المحور الكوردي - الشيعي. كان ستون بالمائة من سكان العراق شيعة. وعندما اختار الشيعة رئاسة السلطة التنفيذية باعتبارها القوة الأساسية صارت رئاسة الجمهورية من حصة الكورد، وجلس جلال طالباني على ذلك المقعد باعتباره كوردياً؛ بمعزل عن تاريخه الشخصي.

لم يصبح طالباني رئيساً للجمهورية العراقية من دون مصاعب من تركيا. مهما قيل عكس هذا، فإن المسؤولين الأتراك لم يهضموا فكرة جلوس كوردي على مقعد رئاسة جمهورية العراق. ولا يُستثنى من هذا حتى وزير

الخارجية التركي أحمد داوود أوغلو الذي لعب دوراً بالتقارب بين أنقرة وأربيل، وزار أربيل، وفتح ممثلية تركية في كوردستان العراق. اعتبر داوود أوغلو جلال طالباني ونوري المالكي قريبين من إيران، ودعم الشيعي العلماني إياد علاوي لرئاسة الحكومة، والعربي السني طارق الهاشمي لرئاسة الجمهورية إثر انتخابات 2010 التي حقق فيها علاوي فوزاً طفيفاً جداً. تحمل القائمة العراقية برئاسة علاوي خصوصية الائتلاف من مجموعات سنية مختلفة، وقد ساهمت تركيا، وداوود أوغلو شخصياً مساهمة كبرى بتشكيلها.

أثناء تطبيق التوازنات التي تصورها للعراق، اعْتَقَدَ أن الكورد يمكن أن يقبلوا بترك منصب رئاسة الجمهورية والاكتفاء بمنصب رئاسة البرلمان. وعندما لم تنجح هذه السياسة، طرق طريقاً أصعب بجعل علاوي رئيساً للجمهورية، وعادل عبد المهدي رئيساً للحكومة. واعتقد أن اللعب على التناقض بين طالباني وبرزاني يمكن أن يثمر، وعندما لم يتحقق أي شيء من هذا، وبعد أزمة حكومية طويلة جداً، اضطرّ للعودة إلى الترتيب السابق "طالباني رئيس للجمهورية، والمالكي رئيس للحكومة".

وقد عارضتُ سياسة وزير الخارجية أحمد داوود أوغلو وخاصة تكتيكه في الشأن العراقي على الرغم من أنني أجد سياسته صائبة في أكثر القضايا، وأدعمه.

عندما كنت في الصفوف الأولى لمشجعي إسقاط صدام حسين، كان داوود أوغلو يحمل صفة "كبير مستشاري رئاسة الحكومة"، ويستخدم قوته في السلطة ضد التدخل العسكري في العراق. وعندما أصبح وزيراً للخارجية، لعب دوراً مهماً بالتوافق بين تركيا والنظام العراقي الجديد. ولكنه أيضاً من استعدى طالباني بعد عام 2010، وتسبب بتأرجح السياسة التركية تجاه العراق.

التنافس التركي الإيراني يكمن خلف خيارات داوود أوغلو السياسية. لم يزل التنافس بين تركيا وإيران على أرض دولة العراق مستمراً اليوم كما كان طوال التاريخ. إنه مستمر في ظروف جديدة ومعايير مختلفة. من هذه الزاوية، لا يمكن انتقاد سياسة داوود أوغلو وخياراته حول العراق من باب التنافس والتجاذب بين العراق وإيران. المشكلة ليست هنا، بل متى قام بها، وكيف. أنا على قناعة بأن داوود أوغلو لم يشخّص العراق بعد صدام أو بعد طالباني، وهو مخطئ في تناوله للشأن العراقي.

برأيي، إن جذر الخطأ نابع من القضية الأزلية للنخبة الإدارية التركية: النظرة العامة للكورد، ومخاوفهم المباشرة من القضية الكوردية.

على الرغم من مجيء أحمد داوود أوغلو من خارج النخبة الإدارية فهو ليس بمنأى عن الرؤية "التركية" و"مركزية الدولة التركية".

في الأول من أيار عام 2010، كانت الذكرى الأولى لتسلّم أحمد داوود أوغلو حقيبة الخارجية. أثناء ذهابه لإلقاء محاضرة في أكسفورد حول "السياسة الخارجية التركية" دعا مجموعة صغيرة من "الصحفيين والكتاب ورجال الفكر" حسب تعبيره من أجل القيام بعصف ذهني حول "محاسبة عام"، وكنت بينهم. منذ لحظة إقلاع الطائرة من مدرج مطار أنقرة إلى لحظة نزول عجلاتها على مدرج مطار هيثرو تحدث داوود أوغلو بالتفصيل، وقدّم معلومات حول السياسة الخارجية التي طبقها، ويخطط لتطبيقها. وعندما تطرّق إلى موضوع انتخابات العراق الأخيرة، وعدم التمكن من تشكيل الحكومة، قال: "تأسست قائمة العراقية في بيتي. لم يف العراقيون بوعودهم لنا. إثر هذا دعوت إياد علاوي. في تلك الليلة، أجريت اتصالاً بالمقاومين السنة في عمان. جمعنا أشخاصاً لا يمكن لغيرنا أن يجمعهم. أنا جمعت علاوي وأسامة النجيفي وصولاً إلى طارق الهاشمي في قائمة العراقية. ليس صحيحاً أن العراقية قائمة أمريكية. تشكلت القائمة في بيتي. جاء الأمريكيون من الخلف في ما بعد". التفت إليّ ذات لحظة، وقال: "طالباني يتماهى مع الإيرانيين كثيراً. في الحقيقة، إننا سنبلغه بهذا، ولكن عليك أن تبلغه أنت كذلك. سندعم وصول عربي سني إلى رئاسة الجمهورية".

عندما يتعلق الموضوع بطالباني، أبدو وكأنني التركي الوحيد المسؤول عنه.

إثر هذه الكلمات، قلت: "سيدي الوزير، ماذا سيفعل الكورد في ما لو جُلب رئيس جمهورية عربي سني؟".

قال داوود أوغلو من دون تردد: "يأخذون رئاسة البرلمان".

- لن يقبلوا!

- ما الخيار البديل أمامهم إذا لم يقبلوا؟

كانت هذه كلمات مألوفة خاصة بالكورد تحمل استنكاراً لا يقتصر على كورد العراق فقط، بل يشمل الكورد جميعاً، وتشي بأن أحمد داوود أوغلو ليس بمنأى عنها. تابع داوود أوغلو حديثه من دون أن يلتقط أنفاسه.

بعد عودتي إلى تركيا أرسلت رسالة إلى طالباني تجمع بين التوضيح والإيحاء: "تركيا منـزعجة من علاقاتك بإيران. ليكن بعلمك أن وزير الخارجية شخصياً أراد أن يعلمك. اضبط علاقاته على هذا الأساس. أنت

حدد له كيف سيتصرف".

بعد فترة قصيرة، جاء رد طالباني بنبرة حادة لا تتناسب نهائياً مع مرونته الدبلوماسية المعروفة. فقد انتقد الزعيم الكوردي المعلّق موقعه في رئاسة الجمهورية سياسة تركيا تجاه الانتخابات العراقية، وذكّر بمساهمته الشخصية بالتقارب التركي – العراقي، والتركي – الكوردي العراقي. وعلى الرغم من هذا، تدعم تركيا القوميين العرب ضد الكورد في الموصل، وتجمع التركمان والقوميين العرب في كركوك، وتنفق الكثير في هذا المجال، وبينما لا تعارض إيران الفيدرالية في العراق، تعارضها تركيا.

كتبت رسالة طالباني على ورقة، وعند دخولي إلى مؤتمر صحفي في فندق كونراد، قلت لأحمد داوود أوغلو: "ناقل الكفر ليس بكافر". وسلمته المغلّف.

كنت على علم بكل خلفيات المصالحة التي أنهت أزمة الحكومة العراقية التي طالت إلى زمن قياسي. مصدري مسؤولون كورد قريبون من برزاني. وقد أدت سياسة تركيا على مدى أشهر عكس ما كان مرجواً في بدايتها.

لم يكن لدي أدنى شك، ومنذ البداية، بأن هذا ما سيحدث. بعد شهر من حديثي مع داوود أوغلو في الطريق إلى أكسفورد، يوم الأحد في 6 حزيران 2010، التقيت مسعود برزاني إلى مائدة الغداء في فندق "سويس" أثناء زيارة قام بها إلى تركيا بصفته: "رئيس أقليم كوردستان العراق" بعد انقطاع طويل. كان أقرب أصدقائه في تركيا رئيس بلدية جزرة الأسبق والبرلماني هاشم هاشمي ومترجمه عبد السلام برفقتنا. قال مسعود برزاني إنّ لقاءه مع رئيس الحكومة التركية كان حاراً أكثر مما توقع. تحدثنا فترة حول حزب العمال الكوردستاني وأوجلان. انتقل الموضوع إلى التطورات العراقية الداخلية. فقد بُحث هذا الموضوع خلال لقاءاته الرسمية في أنقرة. أرادت تركيا أن يجلس إياد علاوي على مقعد رئاسة الحكومة. قال برزاني: "علاوي صديقي، ولكن الشيعة لا يقبلون به". وفكرت أنقرة بعربي سني لرئاسة الجمهورية مكان طالباني، وبالنسبة لطارق الهاشمي القريب من الإخوان المسلمين قال: "أرادت أن يستلم طارق الهاشمي رئاسة الجمهورية بذريعة أن العراق دولة عربية. لهذا السبب، لا يمكن أن نقبل به نحن. إذا لم يكن مام جلال فإننا سنرشح كوردياً لرئاسة الجمهورية".

اشترط مسعود برزاني "شرطاً قطعياً": أن يكون رئيس الجمهورية العراقية كوردياً.

كان مسعود برزاني أهم اللاعبين في السلطة العراقية عام 2010، وعبره الكورد. ومن الواضح أنه لن يسمح بأي مبادرة لا تأخذ خطوط الكورد الحمراء بعين الاعتبار منذ أواسط 2010. وفي تشرين الثاني من العام نفسه تحققت رغبة برزاني، وانتخب جلال طالباني رئيساً للجمهورية، وتم تحديد نوري المالكي رئيساً للحكومة. تمكنت تركيا من تأمين انتخاب أسامة النجيفي رئيساً للبرلمان. ولكنها لم تستطع تحقيق أهم أهدافها باختيار رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة.

في تلك الفترة بالضبط كنتُ في كوردستان العراق. كتبتُ مقالات ناقدة لسياسة داوود أوغلو في العراق التي لم تؤدِّ إلى نتيجة. بعد ذلك، ذهبتُ في 11 تشرين الثاني إلى جبل قنديل من أجل لقاء مراد قرة يِلان. إثر عودتي من قنديل، وأثناء إقامتي في فندق سليمانية بالاس تابعتُ عبر التلفزيون على الهواء مباشرة جلسة البرلمان العراقي التي انتخب فيها جلال طالباني رئيساً للجمهورية. كان جلال طالباني مرشحاً وحيداً. أثناء التصويت، غادر نوابُ القائمة العراقية التي تدعمها تركيا الجلسة. على الرغم من هذا، انتخب طالباني بالغالبية البسيطة، وحينئذ بدأت السليمانية تهتز وتنار على أصوات المفرقعات وأضوائها، وجابتها السيارات مطلقة أبواقها ابتهاجاً.

في اليوم التالي، انتقلت إلى أربيل. أطلعني الدكتور فؤاد حسين رئيس ديوان الرئاسة في كوردستان العراق والذراع اليمنى لمسعود برزاني على محاضر اجتماعات برزاني – داوود أوغلو، وتفاصيل قصة انتخاب طالباني.

قضيت يومين في تركيا بعد عودتي من أربيل، ثم ذهبت إلى بروكسل. كان من المقرر أن ألقي كلمة في "المؤتمر الكوري" الذي ينظمه البرلمان الأوروبي سنوياً. في ليلتي الأخيرة في بروكسل، جاءني اتصال من داوود أوغلو. كان منـزعجاً من مقالتي التي تبرز خطأ سياسته في العراق. قال منتقداً: "لو استمعت لطرف برزاني بدلاً من الاستماع لطالباني". وأنا رددت: "أنا لم ألتق طالباني أو أتصل به منذ شهور. المعلومات الواردة في مقالتي أخذتها من مصادر برزاني؛ أي من المصدر الذي تقترحونه عليّ".

قال داوود أوغلو: "ولكنك تكتب من السليمانية". قلت: "نعم، ولكن طالباني كان في بغداد وليس في السليمانية أثناء وجودي هناك. غير هذا، لم أكن هناك لمتابعة انتخاب رئيس الجمهورية، بل لسبب مختلف تماماً. وجاء انتخاب رئيس الجمهورية مصادفة. أضف إلى ذلك أن الطريق بين السليمانية وأربيل مدّته ساعتان. سافرت إلى أربيل، والتقيت أوساط برزاني". حاولت أن أعطيه مصدر معلوماتي من دون الدخول بالتفاصيل.

قلت لداوود أوغلو إننا سنذهب مع رئيس الجمهورية عبد الله غول إلى قمة الناتو في لشبونة، وسيكون لدينا وقت كافٍ خلال رحلتنا الطويلة لنتكلم في الموضوع.

قبل يوم من رحلة لشبونة، نشر حوار أصلي آيضن طاشباش مع طالباني أثناء وجوده في باريس لحضور اجتماع الاشتراكية الدولية في جريدة ملييت على الصفحة الأولى. انتقد جلال طالباني بشدة سياسة تركيا حيال العراق بعبارة: "تركيا لعبت على الحصان الخاطئ في العراق".

في اليوم التالي، وفي الطريق إلى لشبونة، دعا رئيس الجمهورية عبد الله غول الصحفيين المرافقين له إلى مقدّمة الطائرة لإجراء حوار حول قمة الناتو. عندما نهض الجميع بمن فيهم وزير الدفاع وجدي غونول للعودة إلى أماكنهم بعد انتهاء الحوار أشار إلي عبد الله غول لكي أبقى. بقيت في القسم المخصص للحوار مع غول ووزير الخارجية داوود أوغلو. وجّه إلي غول بشكل مباشر وبوجه مقطّب غامزاً من مانشيت طالباني في جريدة ملييت: "ماذا يقول هذا؟ ماذا يقصد؟".

وقعت مرة أخرى بموقع "التركي المسؤول عن طالباني". ينبغي أن أعتبر تعرّض طالباني لانتقاد تركيا بعد انتخابه رئيساً للجمهورية قد جاء من دون مناسبة. كنت أعلم أن القائد الكوردي العراقي يعتبر تركيا "شريكاً استراتيجياً"، وأن التذبذبات التكتيكية لن تؤثر على هذه النظرة.

قلت: "إنه تصريح يتناقض مع مرونة طالباني الدبلوماسية. ولكن، ليست هناك مشكلة بالنسبة إليكم. خاطبكم بإيجابية قائلاً: أخي غول وقال إنكما ستعملان معاً في المستقبل. الأمر ليس مهماً". ثم قدمت رؤيتي بأن العلاقات التركية – العراقية لن تتأثر بتصريح طالباني من دون أن أهمل قول: "تصريحه يعبر عن انزعاجه الشديد من الموقف التركي".

أعرف أن طالباني بذل جهداً كبيراً من أجل التمهيد للعلاقة بين تركيا والكورد، وهو يثق بأنه ساهم مساهمة كبرى بالتقارب التركي – العراقي. وفي الحقيقة، إنه منزعج إزاء موقف تركيا منه.

بدأ داوود أوغلو بشرح تفاصيل تأسيس القائمة العراقية والسياسة التي انتهجها حتى اللحظة الأخيرة. تركنا عبد الله غول وحدنا، وعاد إلى مكانه.

يمكن تفهم اعتراض أنقرة على رئاسة المالكي للحكومة بسبب اختيار إيران له من بين المرشحين الشيعة، ولكن لا يمكن أن يكون اعتراض أنقرة على رئاسة طالباني للجمهورية ناجماً عن علاقة الزعيم الكوردي بإيران. لا يبدو هذا مقنعاً. برأيي، إنّ اعتراض الدولة التركية على رئاسة طالباني

للجمهورية ناجم عن كونه كوردياً [10] .
إذا تركنا العلاقات التي طورتها تركيا مع كوردستان العراق عن طريق نجروان برزاني جانباً، فإن كون رئيس الجمهورية العراقية في بغداد كوردياً لم يكن خياراً مفضلاً لتركيا بعد أن فرغ مكان السعودية ومصر في زعامة العرب السنة إبان حرب العراق؛ حتى إن لم تكن قد عبرت عن هذا بصراحة.
شكلت النخبة العربية السنية إدارات الدول العربية المتشكلة إبان الحرب العالمية الأولى في الساحة الجيوسياسية من المغرب إلى الخليج. انتماء النخب السياسية إلى العرب السنة في الدول العربية كلها على الرغم من اختلاف خصوصياتها وجذورها يعتبر صفة مشتركة بينها. الغالبية العظمى لسكان هذه الدول – عدا بعض الاستثناءات – من العرب السنة. الاستثناء الأهم للنظام السني العربي شديد المركزية على الرغم من عدم تشكيل السنة غالبية سكانه هو العراق.
نظام صدام هو آخر نظام عربي سني حكم العراق. عراق صدام هو نقطة التماس مع إيران الشيعية بالنسبة إلى المنطقة (شمال أفريقيا والشرق الأدنى) في النظام العالمي، بل والجدار الأثخن في وجه التوسع الإيراني إن جاز التعبير. وقد تبنى العراق اسم "البوابة الشرقية للعالم العربي". الخصوصية الجيوسياسية هذه تفسر حصول العراق على دعم العالم العربي والنظام الدولي في حربه الدموية على إيران لثماني سنوات؛ للحيلولة دون توسع الثورة الإسلامية الإيرانية عام 1979. وحرب عام 2003 وإسقاط صدام مؤشران على إسقاط النظام الإقليمي الذي أنشئ إبان الحرب العالمية الأولى. لقد فُتحت البوابة الشرقية للعالم العربي أمام إيران، وانهار "الجدار العربي السني" المشاد أمامها.
خروج صدام ومعه إدارة الأقلية السنية العربية في العراق خارج المعادلة لا بد له أن يزعزع مكانة مصر والسعودية باعتبارهما حاميتي العالم العربي السني، ويضعفهما. وإذا تمت المحافظة على الحدود المرسومة بعد الحرب العالمية الأولى ولو على الخريطة، فمن غير الممكن أن يحافظ العراق الجديد على بنيته السابقة. العراق، أو بتعبير آخر أرض الرافدين، ستُفتح تلقائياً للتنافس بين قوتين كبريين غير عربيتين: تركيا وإيران.
وهذا ما حدث. مهما كانت لشيعة العراق هوية خاصة فلا بد أن يُعتبروا جزءاً من حيّز المناورة الإيرانية في توازنات القوى الدولية والإقليمية. في نهاية حرب 2003، لم تستفد إيران من إخراج ألد أعداها خارج المعادلة

على الصعيد الأمني فحسب، بل مدت نفوذها إلى بغداد من خلال بعض الشخصيات والتنظيمات الشيعية العراقية. ودخلت إيران إلى معادلة السلطة عبر الشيعة في تشكيل العراق الجديد.

استندت معارضة تركيا للحرب عام 2003 إلى ذريعة أساسية لا يمكن أن تعلنها. كانت تركيا قلقة من تشكيل بنية كوردية في شمال العراق نتيجة انهيار النظام المركزي في بغداد، وتأثيرها على كورد تركيا. هذا قلق تركيا التقليدي. إنها قلقة دائماً من أي تطور يستفيد منه كورد العراق، ومن انتقال العدوى إلى كورد تركيا. الانحراف الوحيد في الموقف التركي التقليدي هذا أقدم عليه تورغوت أوزال.

لم تصمد تركيا أمام الفعاليات السياسية العراقية على الرغم من ابتعادها عن الحرب عام 2003 ومرور عدة سنوات عليها، وبدأت تضبط نفسها على إيقاع التطورات الجيوسياسية في هذا البلد. كانت تتوجه لملء فراغ السلطة الإقليمي الناجم عن الحرب باعتبارها القوة السنية التاريخية - حتى وإن لم تسمّ نفسها بهذا الاسم - من جهة، وتضطر لإعادة تنظيم علاقاتها مع كورد العراق من جهة أخرى. أي إن الوضع الذي استشرفه تورغوت أوزال عام 1991 فرض نفسه بعد 12 سنة.

يشكّل جبل قنديل الذي يتواجد حزب العمال الكوردستاني العسكري فيه داخل كوردستان العراق، ويعد تحت مسؤولية الإدارة الكوردية العراقية في أربيل الدمّل في التقارب التركي مع كورد العراق. كان إنهاء الوجود العسكري لحزب العمال الكوردستاني شرطاً أساسياً لأي تقارب مع كورد العراق، ونظراً إلى عدم الحصول على نتيجة من هذا الأمر، لم يتحقق التقارب.

أبرزت المصالح الاقتصادية والعلاقات الاقتصادية المتبادلة تدريجياً، ودفع "شرط حزب العمال الكوردستاني" إلى درجة أدنى عن وعي. غُيّرت الأولويات، ومُهِّد الطريق أمام العلاقات بين أنقرة وأربيل.

شكلت زيارة جلال طالباني إلى أنقرة في كانون ثاني 2008 بصفته رئيس الجمهورية العراقية نقطة انعطاف. فقد دبت الحيوية في العلاقات التركية - العراقية على أعلى المستويات، وتم الدخول في مرحلة التقارب التركي - الكوردستاني العراقي من خلال الزيارات التي أصبحت روتينية.

في لقاءاتي الخاصة مع الأوساط الحاكمة في حزب العدالة والتنمية، سمعت منهم أنهم أرادوا التقارب مع كورد العراق منذ عام 2002 عند وصولهم إلى الحكم، ولكنهم قوبلوا برفض شديد من قبل العسكر، وأن

كسر رفض العسكر، وتجاوزه، وإقناعهم استغرقت وقتاً. من هؤلاء علي باباجان الذي تسلّم حقيبة الخارجية بين عامي 2007-2009، والآخر عبد الله غول.

خلال حديث مع عبد الله غول بعد انتخابه رئيساً للجمهورية شرح لي ضرورة التقارب مع كورد العراق لمصلحة تركيا، وأن هذا يجب أن يتحقق في أقرب وقت، وذكرني بثروات كوردستان العراق الباطنية. "إنه مكان أمام أعيننا. يأتي الجميع وصولاً إلى كوريا والصين، ويستثمرون، ونحن نتفرج من بعيد، هل هذا معقول؟".

كان العنصر الاقتصادي هو الدافع الأساسي وراء توجّه تركيا الاستراتيجي نحو كوردستان العراق. هذا ما أراد عبد الله غول أن يشرحه.

عندما استمعت لعبد الله غول تذكرت كلام أشتي هورامي وزير النفط في حكومة إقليم كوردستان.

ذات يوم، عرفني أشتي إلى محمد سبيل شريك جنرال أويل الذي قال لي ونحن نطير إلى أربيل إن ما يستخرج من بئرَي نفط في طق طق قرب كركوك يفوق إنتاج تركيا. وأثناء عودتنا من أربيل إلى أنقرة أمطرت أشتي هوارمي بالأسئلة.

أشتي هوارمي من حلبجة التي شهدت أفظع مجزرة في التاريخ. بعد أن درس هندسة البترول في بغداد، أرسله نظام البعث لدراسة الماجستير في إنكلترا. كان هذا أمراً استثنائياً جداً بالنسبة لطالب كوردي. كان أشتي كوردياً مناهضاً للبعث في إنكلترا، ولكنه دخل قطاع النفط من دون أن يتدخل بالسياسة. عاد إلى كوردستان العراق عام 2003، وبدأ العمل وزيراً للبترول في حكومة أربيل.

أعطاني أشتي على الطريق بين أربيل وأنقرة معلومات مفصلة حول مخزون كوردستان العراق من البترول والغاز الطبيعي. وأخبرني أن المخزون البكر في كوردستان كبير إلى درجة أن مخزون كركوك لا يساوي شيئاً بجانبه. وشرح لي أن الذين سيبادرون للاستثمار باكراً في تلك الساحات سيحققون مكاسب استراتيجية كبرى مستقبلاً. قال: "هذه الأمور تسير وفق مبدأ first com-first serve basis/ من يأتي باكراً يجلس نحن شعب تعداده 4-5 ملايين، ونسبح فوق بحر ضخم من البترول والغاز. إنه كثير جداً علينا. لن نشرب البترول. ولا قيمة للبترول والغاز الطبيعي الكامن تحت الأرض. أنتم دولة كبرى، وشعب جار وشقيق. وبالطبع، لكم الأولوية. تعالوا لنستخرجه وننتجه ونصنّعه ونبيعه معاً".

كان معنا في الطائرة بعض خبراء " TPAO /شركة النفط التركية المساهمة المغفلة" السابقين الذين يعملون مع محمد سبيل. تلقيت معلومات كثيرة حول البترول والغاز – نسيتها بعد فترة قصيرة – في تلك السفرة.

ألهمني أشتي هوارمي واحدة من أهم مقالاتي التي كتبتها لجريدة " Referans " الاقتصادية. كان هذا في مطلع عام 2007. وألمع ما في المقال هو العنوان: "إلى شمال العراق بشركة البترول التركية المساهمة المغفلة وليس بالقوات المسلحة التركية".

من المؤكد أن الخبرة لا تكتسب في حديث مطوّل واحد. بعد فترة قصيرة من عودتي من أربيل نسيتُ قسماً كبيراً مما عرفته من أشتي واستخدمته في مقالتي. المهم أننا بدأنا نتقابل – أشتي هوارمي وأنا – في فترات غير متباعدة في اسطنبول. في "ندوة تركيا وشمال العراق" التي نظمها مركز دراسات أمريكي يدعى " Council Atlantic " طلبت من أشتي هوارمي تسجيل الأرقام التي ذكرها بعد حديث حار دافع فيه عن إقامة علاقات وثيقة بين الجيران على ورقة صغيرة. وكان جالساً إلى الجانب الآخر من الطاولة.

لا يمكن أن يوجد خبير في العالم أهم من أشتي هورامي في هذا الموضوع. ولم أفقد الجواب الذي أعطاني إياه مكتوباً مجدداً. كتب على الورقة الآتي:

"استهلاك تركيا من النفط: 500،000 برميل يومياً. واستهلاكها من الغاز الطبيعي 36 مليار متر مكعب سنوياً.

مخزون كوردستان العراق من النفط: 45 مليار برميل، ومن الغاز الطبيعي 6000 متر مكعب.

إنتاج كوردستان العراق من البترول (يومياً)

2009......... 100،000

2010......... 300،000

2011......... 500،000

2012......... 750،000

2013......... 1،000،000

ليست ثمة بنية تحتية لتصدير الغاز الطبيعي بعد، ولكن يمكن توليد إمكانية لتصدير 60-70 مليار متر مكعب".

هذه الأرقام توضح بسهولة المخزون الاستراتيجي لتركيا من كوردستان، والذي أدركه عبد الله غول.

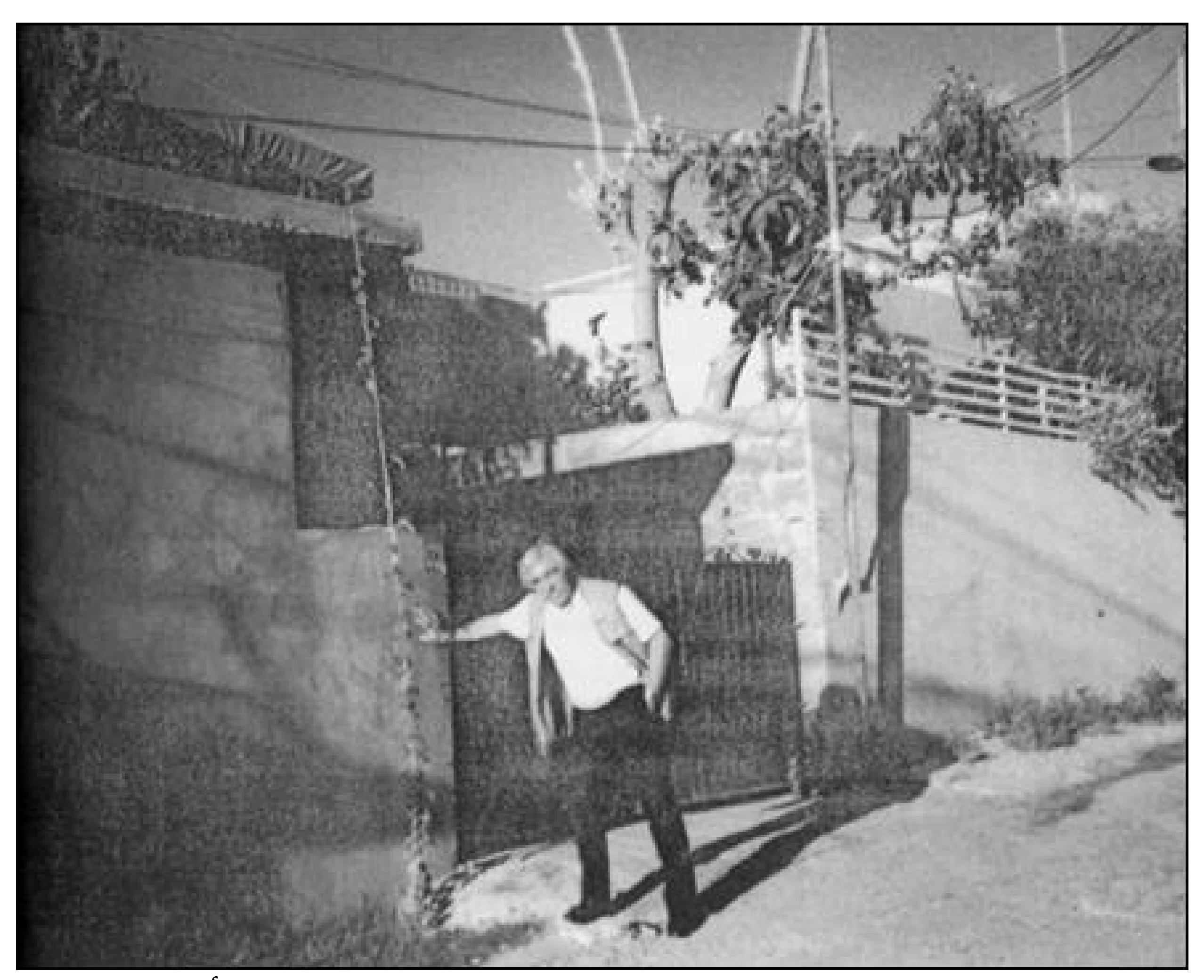
(في 21 أيلول 2011، أعلن أشتي هوارمي للرأي العام من برلمان إقليم كوردستان أسماء الشركات الأجنبية التي مُنحت حق الإنتاج في اثنتين وأربعين منطقة نفطية. قال: "بتنا نعرف أن مخزون الإقليم 45 مليار برميل من النفط 3-6 تريليونات متر مكعب من الغاز الطبيعي بفضل الاتفاقيات التي عقدتها إدارة إقليم كوردستان". المعلومات التي ذكرها أشتي هوارمي تتطابق مع ما قاله لي قبل عدة سنوات).

أدركت تركيا هذه المعطيات، فبدأت تتقدم نحو العراق وكوردستان العراق خطوة خطوة لتحتل "أولوية استراتيجية واقتصادية"؛ اعتباراً من العقد الأول للألفية الثالثة.

على الرغم من التذبذبات والتأخير، بدأ التاريخ يسير في الاتجاه الذي تصورته ورغبته بين تركيا وكورد العراق. ومع هذه النتيجة، أعتقد أن صفحة جديدة ومتفائلة ستفتح بالنسبة للكورد.

برأيي، ما هو جيد للكورد سيكون جيداً لتركيا أيضاً.

XII - مؤامرة في شمال العراق



المؤامرة ليست سوى اتفاق سري بين مجموعة من الأشخاص على سياسة لا يجرؤون على البوح بها أمام الشعب.

مارك توين

حكومات اليوم لا تضطر للكفاح ضد الحكومات الأخرى والأباطرة والملوك والوزراء الآخرين فقط، بل ضد جمعياتهم السرية التي تقلب خطط الحكومات كلها في اللحظة الأخيرة رأساً على عقب أيضاً.

بنجامين دزرائيلي، رئيس وزراء إنكلترا، 1876

بعد أن وضعت تركيا نفسها خارج الحرب عام 2003، حاولت أثناءها بناء سياسة نحو العراق مستحيلة التحقيق بتأييدها الطرف التركماني ضد الكورد. كان هذا خيار العسكر المسيطرين على قرار القضية الكوردية والعراق بعد وفاة تورغوت أوزال الذي يعطي أولوية للناحية الأمنية. القوات الخاصة كانت الوحدة العسكرية المكلفة بتحضير التركمان لخوض سياسة مناهضة للكورد. أعطي ملف التركمان بعد وفاة تورغوت أوزال بفترة قصيرة للمخابرات القومية، ثم أسند تماماً للقوات الخاصة.

يستحيل نهج سياسة معادية للكورد في واقع العراق الجديد. وسياسة تركيا المستحيلة هذه أدت إلى خلافات مع الولايات المتحدة الأمريكية المقيمة في العراق. وكانت قضية مداهمة الجنود الأمريكيين مركز القوات الخاصة التركية في السليمانية في ذكرى الاستقلال الأمريكي المصادف يوم الجمعة 4 تموز 2003، ووضع أكياس على رؤوس الضباط الأتراك، واقتيادهم إلى كركوك بداية، ثم إلى بغداد، واحتجازهم عدة أيام ذروة الخلاف التركي الأمريكي في القضية.

ولّدت القضية غضباً فظيعاً، وصعّدت الشعور المناهض للأمريكان الموجود أصلاً لدى الناس إلى الذروة. نزلت العلاقات التركية - الأمريكية إلى القاع.

إلنور تشفيك وأنا أول شخصين قابلا الضباط الذين وضع الجنود الأمريكيون الأكياس على رؤوسهم في السليمانية واعتقلوهم بعد أن أطلقوا سراحهم. حديثنا معهم في مركز السليمانية الذي اعتقلوا منه لمدة ثلاث ساعات تقريباً يعطي رؤوس خيوط كافية حول طريقة تفكير ضباط القوات الخاصة التركية أولئك، والفعالية التي كانوا يقومون بها في كوردستان العراق عام 2003.

عندما وطئنا أرض كوردستان العراق أول مرة بعد الحرب في 7 تموز 2003، عبرنا من زاخو - دهوك إلى الموصل ثم إلى أربيل، ومنها إلى صلاح الدين، ونزلنا في دار ضيافة الحزب الديمقراطي الكوردستاني براحة لا يمكن تخيلها في ظروف الحرب. بعد يومين، في التاسع من تموز، انطلقنا في الصباح الباكر إلى السليمانية عبر شقلاوة، وكويسنجق، وجبل هيبة سلطان، ودوكان. كنا سنلتقي في السليمانية رئيس الحكومة الكوردية صديقنا القديم برهم صالح في عراق ما بعد صدام لأول مرة. عندما اتصلنا ببرهم من دار الضيافة، طلب منا القدوم فوراً. كانت في كوردستان العراق حينئذ حكومتان كورديتان إحداهما للحزب الديمقراطي الكوردستاني في أربيل، والثانية لحزب الاتحاد الوطني الكوردستاني في السليمانية. وتوحدت الإدارتان عام 2006، وتم التوصل إلى إدارة كوردية واحدة في أربيل.

تأججت مشاعري أثناء ذهابي إلى السليمانية؛ لأنني سأرى قسماً كبيراً من كوردستان، وسأشبع فضولي المتزايد منذ سنين. في السليمانية، ذهبنا مباشرة إلى سليمانية بالاس؛ فندق المدينة الوحيد الأنيق، والذي سأنزل فيه في ما بعد مرات عديدة، وقد وجهنا إليه برهم صالح. قلنا لموظف الاستقبال إننا قادمون لزيارة رئيس الحكومة برهم صالح.

"الدكتور برهم لديه اجتماع. استريحا هنا، وسنخبره عندما ينتهي الاجتماع. كان بانتظاركما، وطلب منا أن نبلغكما هذه المعلومات". هذا ما أبلغنا به موظف الاستقبال الذي يعمل وكأنه مكتب ارتباط لبرهم صالح.

بعد حصولنا على هذه المعلومة، سألنا عن موعد انتهاء الاجتماع. لم يكن ذلك معروفاً، إذ يمكن أن يستمر ساعة أو ساعتين.

قلت لألنور: "بدلاً من جلوسنا هنا من دون عمل، لنتصل بضباطنا، ولنقم بواجب تهنئتهم على عودتهم بالسلامة".

تركنا تركيا خلفنا قبل يومين وليس فيها سوى هذه القضية على مدى أيام. عرفنا أن ضباط القوات الخاصة قد أطلق سراحهم عند عبورنا من الخابور إلى كوردستان. قلت لنفسي إن مغادرة السليمانية من دون رؤيتهم خطأ لا يُغفر في مهنة الصحافة.

حسن، ولكن أين سنجدهم؟

قرأنا في صحافتنا أن المكان الذي داهم الجنود الأمريكان ضباط الوحدات الخاصة فيه هو نفسه الذي توجد فيه إذاعة الجبهة التركمانية العراقية. إذا وجدنا إذاعة الجبهة التركمانية العراقية فسنجدهم. وجدناهم. بعد ربع ساعة من دخولنا السليمانية، كنا أمام ممثل الجبهة التركمانية العراقية في السليمانية. سألنا عن الضباط، فقيل لنا إنهم في البناء نفسه، ولكن المدخل من الزقاق الخلفي. خرجنا، والتففنا نحو الزقاق الخلفي، وتلفتنا في ما حولنا في محاولة لمعرفة كيف تمت المداهمة.

عندما دخلنا من الباب الخلفي للبناء المشترك بين القوات الخاصة وإذاعة الجبهة التركمانية العراقية، رأينا عدة أشخاص جالسين ويرتدون الفانيلات العسكرية وبعضهم يرتدي الجينـز. قفز الضابط الشاب الذي ينادونه "الرائد آيضن" ويبدو أنه قائدهم، وقال: "أهلا وسهلاً أستاذ جنكيز". تعانقنا، وقلنا له: "حمداً لله على السلامة". وجلسنا على كراسٍ صغيرة حول إبريق الشاي الذي يغلي في الوسط، وخضنا في حديث طويل وعميق.

لم نتحدث كثيراً حول تفاصيل الحادث. حاول الرائد آيضن أن يتحدث عن ذلك عدة مرات، ولكنه لم يتابع كلامه نتيجة تدخل رفيقهم بالسلاح القادم من تركيا للتو، وقد فهمنا من حديثهم في ما بينهم أنه رائد أيضاً. توقفنا حول التطورات السياسية العامة، وسياسة تركيا نحو العراق. انتقد "الرائد آيضن" سياسة الدولة تجاه العراق، ولكن انتقاده مختلفٌ جداً. فقد قال ضابط القوات الخاصة إنهم يعرفون منطقة جنوب شرق تركيا وشمال العراق شبراً شبراً لأنهم حاربوا فيها على مدى سنوات، وأثناء كلامه، قال:

"تركيا تحابي الكورد أكثر من اللازم، وتهمل التركمان".

لعله كان سيتوسع أكثر في شرح أفكاره لولا أنه خاف أن أسأله: "هل تنتقد الدولة؟". لذا، سيطر على نفسه، وتذكر أنه موظف دولة، ولا يبلغ به المقام أن ينتقد إداريي الدولة، فغيّر الموضوع.

معرفتي بالعقيد شفيق الذي يحمل الاسم الحركي "أوزدمير" سهلت على الرائد آيضن الغوص عميقاً في الحديث. من غير الممكن مصادفة أحد بين الكتاب المثقفين الذين يكتبون أو يتحدثون عن العراق والكورد والتركمان وشمال العراق في تركيا لا يعرف أوزدمير. فمعرفة أوزدمير تعني معرفة تاريخ شمال العراق إبان الحرب العالمية الأولى. ارتاح الرائد آيضن عندما أخبرته أنني أعرف أوزدمير وما فعله جيداً. ارتحنا في حديثنا نتيجة ارتياحه.

من الواضح تماماً أن اسم "الرائد آيضن" اسم حركي. أوحى الرائد آيضن أنه اتخذ من العقيد شفيق ذي الاسم الحركي أوزدمير مثالاً أعلى له، وكان هذا الأخير قد جاء إلى شمال العراق ممثلاً لقوى النضال القومي في تركيا، وأسس مقراً له في رواندوز، ونظم الكورد ضد الإنكليز الذين تصارعهم تركيا في قضية الموصل. وأذاق أوزدمير الإنكليز المر من خلال عمله لضم ولاية الموصل إلى تركيا.

لم يكن من الصعب علي استنتاج أن الرائد آيضن رأى في نفسه أنه يقوم بدور "أوزدمير".

عمل "أوزدمير" على تحريض الكورد ضد الإنكليز من أجل إكساب تركيا الموصل. أما الرائد آيضن، فأعتقد أنه يستخدم التركمان لتخريب سعي الكورد والأمريكان الذين يحتضنون الكورد حسب اعتقاده بعد ثمانين سنة، وفي ظروف مختلفة.

إلى جانب هذا، فهو يتجنب ذكر الأمريكان أثناء حديثه عما جرى معه، ويحمّل طالباني مسؤولية كل ما حدث معهم. وصفه لطالباني يتشابه إلى درجة مدهشة مع وصف أحد مؤسسي مخابرات الدرك ومكافحة الإرهاب - وهذا أيضاً كان من القوات الخاصة - الذي قتل بشكل غامض عام 1993 لطالباني في كتابه الموقع باسم الرائد جم إرسفر. كان الرائد آيضن يستشيط غضباً كلما ذكر اسم طالباني ويفلت من لسانه قول: "لن يفلت بعمالته لإنكلترا، سيحاسب على هذا ذات يوم". من غير الممكن ألا يكون على معرفة برأيي في هذا الموضوع، وعلاقاتي بطالباني التي تمتد إلى سنوات طويلة. على الرغم من هذا، لم يكن يتوانى عن القول: "أنتم أيضاً تعرفون جيداً أن طالباني رجل الإنكليز". وأثناء حديثه، كان يوحي بأنه

يتكلم استناداً إلى "معلومات مخابراتية مؤكدة".

عرفتُ أفكار الرائد آيضن التي تفوح منها رائحة العنصرية تجاه الكورد من خلال حوار غريب. سألني: "كيف وجدت السليمانية؟". قلت له: "لم تمض على مجيئي ساعة بعد. وهذه هي المرة الأولى التي تطأ فيها قدماي شمال العراق. بعد دخولنا من الخابور انتقلنا من زاخو إلى دهوك، ومنها إلى أربيل عبر الموصل، ثم جئنا إلى هنا. وحسب رؤيتي الأولية والعامة للمدن الكوردية، تبدو هذه، أي السليمانية أفضلها". قال الرائد آيضن: "بفضلنا". ثم أضاف: "تعاليا معي، سأريكما شيئاً". وأنهضني. ذهبنا معاً إلى الحمام. وقال: "تفضل، نحن جلبنا هذا إلى هنا، هل يُقدّم هذا لهؤلاء الناس؟ في الحقيقة، لقد أسأنا لهم. لديهم عاداتهم وتقاليدهم، فما لزوم تقديم هذه الأمور لهم؟".

كان يشير إلى الشطافة المجاورة للمرحاض الإفرنجي. وبجمل محملة بالسخرية من قبيل: "هؤلاء الناس هنا ينظفون أنفسهم بالحجر منذ مئات السنين. هل لدينا الحق بالتدخل في عاداتهم؟" كان يُشير إلى أن القوات الخاصة التركية تلعب دوراً بنقل الحضارة إلى كورد العراق من دون جدوى.

وقد عبّر الرائد آيضن عن اعتراضه على سياسة الدولة في شمال العراق بقوله: "يجب أن نصب جهدنا على التركمان بدلاً من الكورد".

وقع الرائد آيضن بهفوة أخرى قبيل أن نودعه ونغادر. من يعلم؟ لعلها رسالة وليست هفوة. أردت أن أخفف عنهم الشعور بالصدمة نتيجة الإهانة التي تعرضوا لها على يد الأمريكيين، فبدأت قائلاً: "ما حدث لكم محزن بالتأكيد، أرجو أن تعلموا أن لا شيء يذهب سدى". ثم أضفت: "نحن قبل 48 ساعة كنا في تركيا. هبّت عاصفة غضب في تركيا نتيجة اعتقالكم، وتضامن الناس معكم بطريقة لم تشهدها تركيا إلا مع الفريق الوطني عندما عاد من بطولة العالم محققاً المركز الثالث". فرّد علي فوراً: "نعرف. يسلم لنا أخونا الكبير ضوغو بيرنتشك، نحن نعلم بما قد فعله من أجلنا".

استغربت قول الرائد آيضن "أخونا الكبير" عن ضوغو بيرنتشك مبدياً قرباً خاصاً منه، وربطه التضامن الفريد الذي حدث في تركيا به، ولكنني لم أبح باستغرابي. الفكرة التي خطرت ببالي في تلك اللحظة هي أن ضوغو بيرنتشك له علاقة خاصة بالقوات الخاصة والتنظيمات الأمنية؛ مثل المخابرات ومخابرات الدرك ومكافحة الإرهاب. ولم أستغرب بروز اسمه كأهم المتهمين في قضية التآمر لقلب نظام الحكم بعد عدة سنوات بفضل هذه المقولات

المتداولة.

شكر أهم أبطال "حادثة الأكياس" ضابط القوات الخاصة "لأخيه الكبير ضوغو بيرنتشك" استدعى إلى ذاكرتي نصيحة صديقي (أبو خالد) القيادي في فتح عندما غادرت بيروت عام 1973.

أثناء تبادلنا الوداع لأننا يمكن ألا نلتقي ثانية (وقد استشهد في الحرب الأهلية اللبنانية عام 1976)، أخذ مني وعداً. قال لي: "ستعود ذات يوم إلى تركيا. احذر من العودة إلى العمل التنظيمي مع رفاقك الذين خرجوا من السجن. عدني بهذا!".

قلت له إنني لا أنوي فعل ذلك، وإنني قد أغلقت قضية تلك المنظمة بالنسبة إلي، ولكنني سألته عن سبب شعوره بضرورة قول هذا لي. أجابني: "لأنهم تكلموا. إذا تكلمت قيادات منظمة سرية ما فهذا يعني أن تلك المنظمة قد انتهت. لعلها تعمل مع الشرطة، لا يمكنك أن تعرف هذا".

اعترضت وقلت: "أنا لم أتعرض للتعذيب. لا أدري ماذا قد أفعل إذا تعرضت للتعذيب، ولا أستطيع الادعاء بأنني أفضل منهم. لا أستطيع أن أظلمهم في هذا الموضوع؛ حتى إن كنت لا أشاركهم الأفكار نفسها".

تابع (أبو خالد) بمزيد من الجدية: "انظر، أنا لم أقل إنني لو كنت أنت لما اعترفت، بل أتحدث عن أمرٍ آخر. أقول لك هذا باعتباري مسؤولاً في فتح التي يعرفها العالم بأسره. نحن أيضاً لدينا من تكلم بعد التعرض للتعذيب على أيدي الإسرائيليين. ولكن هذا الأمر لا ينسحب على الكوادر القيادية. ليس هناك أحد في العالم يعرف منظمتكم. ما التعذيب؟ إنه كسر المقاومة الجسدية والاعتراف. ما هي نتيجته؟ أن تقول ما اعتبرته حتى تلك اللحظة مقدساً، ولن تبوح به حتى لو اضطررت للموت، أن تشي برفاقك. هل هناك أكبر من هذا الاعتراف؟ ولكن ما يتجاوزه هو اقتراح الشرطة: ستعمل معنا اعتباراً من الآن. هل ستقول: هذا كثير، لا أقبل؟ سيزيدون قوة التيار الكهربائي قليلاً، وسيُقضى الأمر. فقد انهرت أصلاً، واعترفت. نتيجة الاعتراف الأول، سيعرف الجميع من الادعاء بمن وشيت من رفاقك. ولكن العمل للشرطة لا يمكن أن يُعرف؛ فهو يبقى سرّياً. لهذا السبب تعتبر المنظمة التي اعترف قادتها منتهية، ولا يمكن العمل مع تلك المنظمة ثانية. لأنك لا يمكن أن تعرف بيد من وقعَت تلك المنظمة".

لم أنس تحذير (أبو خالد) هذا نهائياً. وبعد عشرين سنة من تحذيره هذا تذكرته على ألا أنساه أبداً حين بدأ ضوغو بيرنتشك وأوساطه باغتيالي

معنوياً من دون أي سبب؛ عندما أسست للعلاقة بين أوزال وطالباني. وصلت افتراءات ضوغو بيرنتشك وأوساطه الوقحة إلى حدّ اتهامي بأنني وراء مقتل ثمانية أتراك بينهم رفاقي في العدوان الإسرائيلي عام 1973، ونشر هذا الاتهام. مهارتهم بتحريف الوقائع، وامتهانهم هذا العمل كجزء من عملهم المخابراتي القذر يثبتان لي كم كان (أبو خالد) على حق بتحذيره.

سكن بورا غوزان والأتراك الآخرون الذين فقدوا حيواتهم في العدوان الإسرائيلي في ذلك المخيم نتيجة مساومات رجال ضوغو بيرنتشك القذرة. بعد أربعين سنة من تلك الحادثة، كشفت ملك أولاغاي خلفية القضية المظلمة، وكتبتها في كتاب بالاشتراك مع أويا بايضار بعنوان: "امرأتا عصر ما" (منشورات جان، اسطنبول، 2011):

"لم أكن أعرف أياً من الرجال. كان أحدهم يتكلم الإنكليزية، وأنا أترجم ما يقال. كان العرض واضحاً تماماً. سيتلقى رفاقنا تدريباً عسكرياً في المخيم مقابل مشاركتهم بعمليات إرهابية في ألمانيا. أدركت أننا أمام مجموعة أيلول الأسود... قلت إننا لن ندخل خطة كهذه. بدأنا نتجادل في ما بيننا بالتركية... يبدو أن بورا سيذهب إلى ذلك المعسكر الجديد، وأنا سأبقى في بيروت. افترق طريقانا... المخيم الذي تقرّر ذهابهم إليه هو مخيم نهر البارد على الشاطئ القريب من طرابلس الشام. قال لي صديقي (أبو خالد) إن المخيم تحت سيطرة أيلول الأسود ومنظمات شبيهة، وهو ليس آمناً... كان بورا وبقية الرفاق يعارضون الذهاب إلى مخيم نهر البارد بشدة. برأيه، إن هذا المخيم غير آمن، ويمكن أن يتعرض لعدوان في أي لحظة...". (ص 243-245)

أنا عرّفت بورا غوزان وملك أولاغاي إلى (أبو خالد).

أنا مدين بالشكر لصديقي الفلسطيني البطل شهيد فتح (أبو خالد) طوال عمري، وضابط القوات الخاصة في سليمانية كوردستان العراق مدين بالشكر "لأخيه الكبير ضوغو بيرنتشك".

ما أغرب هذا! بعد سنة تقريباً من هذا الحوار مع الرائد آيضن؛ ضابط القوات الخاصة في السليمانية، نشرت مجلة ضوغو بيرنتشك "آيدنلك" صورتي على غلافها في 18 تموز 2004 مرة أخرى. ومع الصورة عنوان عريض: "الترتيب الأخير نحو الثلاثين من آب"، وتحته عنوان فرعي: "تشاندار صبي خدمة في عملية CIA ". يروي المقال حكاية تافهة حول لعبي دوراً باسم CIA في عملية إحالة الضباط القادة "القوميين الكماليين" في القوات المسلحة التركية إلى التقاعد في عملية الترقيات والتنقلات التي ستتم في 30

آب. في 30 آب ذاك، أحيل بعض الضباط الذين ستتصدر أسماؤهم في ما بعد دعوى قضية محاولة قلب نظام الحكم إلى التقاعد؛ مثل القائد العام للدرك الفريق أول شنر إرأوغور، وأغلق الباب أمام بعضهم الآخر. الوثائق والمعطيات التي كُشفت بين عامي 2007-2010 حول مرحلة عام 2004؛ العام الذي فُتح فيه الطريق لمباحثات عضوية تركيا الكاملة في الاتحاد الأوروبي بيّنت بعد سنوات أنهم قاموا بمداخلات عديدة من أجل تعطيل هذه المرحلة.

اتخذ حزب العمال الكوردستاني في 1 حزيران 2004 قراراً باستئناف العمليات العسكرية بعد أن كان قد أوقفها عام 1999 إبان إلقاء القبض على عبد الله أوجلان.

كان عام 2004 عاماً غريباً وهاماً بالنسبة إلى تركيا، وبالنسبة إلى العراق أيضاً لمصادفة مرور عام على الاحتلال الأمريكي له، وإسقاط صدام...

قصة غلاف المجلة المذكورة استفزاز وتلفيق نموذجي من نوع آخر.

ماذا ينبغي أن أفعل؟

خطر ببالي سونماز كوكصال. أعرفه منذ أن كان دبلوماسياً شاباً في الخارجية. واجتمعنا في ما بعد عندما عُين سفيراً لتركيا في بغداد وباريس. عُين سونماز كوكصال مستشاراً لتشكيلات المخابرات القومية بين عامي 1992-1998. بعد تقاعده من مهمته الأخيرة كسفير في باريس، اجتمعنا – هو ومستشار الخارجية السابق أوزدم صانبرك ووزير الخارجية الأسبق أمرة غونصاي وأنا – "كرباعي" في برنامج تلفزيوني استمر فترة طويلة. استشرت سونماز كوكصال، فنصحني بألا آخذ الأمر على محمل الجد. ولكن، لكي أكون رادعاً علي أن أراجع وزير الداخلية إذا كنت أعرفه. كنت أعرف وزير الداخلية عبد القادر آقصو من كلية العلوم السياسية، وكان يتقدمني بصفين. غير هذا، كان وزيراً للداخلية في عهد تورغوت أوزال. ذهبت إليه لأحدثه عن الإجراءات الأمنية التي ينبغي أن أتخذها. تحدثنا يوم الاثنين في 2 آب 2004. كان اجتماع الشورى العسكرية العليا منعقداً في مكان قريب جداً من مكان لقائي وزير الداخلية برئاسة رئيس الحكومة طيب أرضوغان، وانتهى الاجتماع بإحالة قادة القوى العسكرية الذين سيقبض عليهم في ما بعد في محاولة قلب نظام الحكم، إلى المحاكمة.

في ذلك اليوم، عرفت من مسؤول أمني كبير وجّهني إليه عبد القادر آقصو الجهة التي تقف وراء عمليات التلفيق والاغتيال المعنوي التي تنفذ ضدي منذ سنوات. وعندما سألته: "من؟". أجابني: "إنهم متعاقدون مع

مخابرات الدرك ومكافحة الإرهاب".

مفاهيم "المخابرات العسكرية" و"الدولة العميقة" التي تشغل بالي منذ سنوات تبلورت بشكل مادي.

قلت: "من؟". من أجل التأكد.

"متعاقدون مع مخابرات الدرك ومكافحة الإرهاب".

في الحقيقة، من المنطقي وجود علاقة بين تهديدي والتآمر علي ومخابرات الدرك ومكافحة الإرهاب التي يرتبط اسمها بقتل أعداد لا تحصى من مواطنينا الكورد في عمليات مجهولة الفاعلين في التسعينيات. مخابرات الدرك ومكافحة الإرهاب أو القوات الخاصة... يمكن ألا يكون الحد بينهما مفهوماً لنا نحن المدنيين.

ظهر العامل المشترك بينهما في قضية قلب نظام الحكم. كشفت محاولة الانقلاب العسكري والمسماة "أرغنيكون" عام 2007 بأن مخابرات الدرك ومكافحة الإرهاب هي المقرات الأيديولوجية - السياسية لتهديد أمثالنا.

إذا كنتم من المهتمين بالقضية الكوردية، ولعبتم دوراً "بتخريب المحفوظات" أو "كسر المحرمات"، فعليكم ألا تُدهشوا من تهديد مخابرات الدرك ومكافحة الإرهاب أو القوات الخاصة لكم، وجعلكم هدفاً لهما.

يوم كتابتي هذه الأسطر (28 تموز 2010) وبالمصادفة المحضة، قرأت مضمون الحلقة الأخيرة من ثلاثية حوار أجرته نشة دُزَل في ستوكهولم مع المحامي حسين يلضرم الذي اشتهر بصفة ممثل حزب العمال الكوردستاني في أوروبا، واختلف مع عبد الله أوجلان، وحتى إنه استُهدف في محاولة اغتيال. بعد سنوات طويلة، تحدث حسين يلضرم الذي كان قريباً جداً من أوجلان عن طريقة تخلّص قائد حزب العمال الكوردستاني من معارضيه على النحو التالي:

"... أطلقوا النار على مجموعة من الأشخاص في البقاع على أنهم عملاء. احفروا البقاع وستجدون مئات الجثث. لعب ضوغو بيرنتشك دوراً في اتهامات العمالة تلك. جاء بيرنتشك إلى معسكر البقاع، وكان لطيفاً جداً مع أوجلان. ثم عاد، وكتب في مجلة نحو عام 2000: "ثمة عملاء في معسكر البقاع"، وكان هناك 12 شخصاً على وشك إطلاق النار عليهم...".

لنعد إلى السليمانية...

في 9 تموز 2004 ذاك، ودعنا الرائد آيضن ورفاقه، وذهبنا إلى برهم صالح. كان برهم مندهشاً من عدم إيجاد أثرنا في السليمانية على مدى

ساعات. وعندما سألت رئيس حكومة السليمانية عن "قضية الأكياس" أجابني قائلاً: "كنت في ذلك اليوم خارج السليمانية. كان يوم جمعة، أي عطلة. ذهبتُ إلى عرس في دوكان. عدت إلى السليمانية في ساعة متأخرة من الليل. وعند عودتي، لفت نظري وجود عدد كبير من السيارات العسكرية الأمريكية. فهمت أن شيئاً ما قد حدث، ولكنني لم أعرف ما هو. عرفت بالأمر في ما بعد". شرح برهم هذا يظهر أن الجنود الأمريكان في الأيام الأولى للاحتلال لم يراجعوا حلفاءهم الكورد في ما يريدون أن يفعلوه.

وعندما سألت جلال طالباني بعد أشهر عن "قضية الأكياس في السليمانية": "مر الكثير من الوقت على الحادث. ما الحقيقة التي تكمن وراء القضية؟". أجاب باختصار: "انتقم الأمريكيون لمذكرة الأول من آذار . ليس هناك شيء آخر". [11]

لم أنقل لطالباني قناعة الرائد التركي بطل قضية الأكياس في السليمانية بحقه. لم أقل له إن المتعرضين للظلم الأتراك على قناعة بأنه هو من أبلغ عنهم.

لم يُكشف الغموض الكامن خلف القضية الواردة في القاموس السياسي التركي باسم "حادث الأكياس في السليمانية" في أي وقت.

بحسب ما سرّبته المصادر الأمريكية حول القضية، إنّ معلومات مخابراتية وصلتها عن تحضير عناصر القوات الخاصة التركية الذين تم وضع أكياس في رؤوسهم وأخذوا من السليمانية إلى كركوك، ومنها إلى بغداد لعملية اغتيال لمحافظ كركوك الكوردي الجديد عبد الرحمن مصطفى.

بعد مرور ثلاث سنوات على القضية، تعرفتُ إلى محافظ كركوك عبد الرحمن مصطفى في مؤتمر عقد في جزيرة ليدو البندقية بعنوان: "الفيدرالية العراقية"، وحضره الكثير من البرلمانيين والمسؤولين العراقيين من المذاهب والأحزاب السياسية كلها؛ دام عشرة أيام ودعيت إليه. إنه رجل مهذب وأنيق. كنا نجتمع من الصباح إلى المساء في دير في ليدو، ونتناول ثلاث وجبات طعام معاً، ونشارك بالجولات التي تنظم في محيط البندقية. وبشعور بالثقة من جراء الصداقة التي طورتها معه سألته عن القضية، فأجابني: "أبلغني الأمريكيون أنهم تلقوا معلومات مخابراتية بأن عملية اغتيال تعد لي، وأنهم أحبطوا العملية. ولم أعرف شيئاً آخر حول الموضوع".

أهم معلومة أخذناها حول "قضية الأكياس في السليمانية" من كاميران قرة داغي عند ذهابنا إلى بغداد بعد السليمانية وكركوك، وقد أكد المعلومة مسعود برزاني.

عندما ذهبنا إلى بغداد لأول مرة إبان الحرب، كان لقاؤنا كاميران مفاجأة سارة. كنا تحت حماية أمن الحزب الديمقراطي الكوردستاني. وصلنا إلى بغداد عن طريق كركوك بسيارة تويوتا قديمة أمنها لنا الحزب الديمقراطي الكوردستاني لكي لا تلفت النظر، ونزلنا في فندق برج الحياة – أحد فندقين متجاورين – في حي الكرادة، حيث يتمركز الحزب الديمقراطي الكوردستاني. ما زالت بغداد غريبة عن مراكز قوى العراق الجديد إبان الحرب مباشرة، ولم تستقر بعد في المدينة. تم تحويل فندقي برج الحياة والسندباد إلى مقر عام للحزب الديمقراطي الكوردستاني. كان كاميران قرة داغي قد وصل للتو إلى بغداد بعد أن عاش فترة طويلة في لندن. تقابلنا في الفندق.

عندما وصل الموضوع إلى "قضية الأكياس في السليمانية" أثناء غوصنا في حديث سياسي عميق، نقل إلينا قرة داغي معلومة غريبة: التقى صحفي إنكليزي قائد القوات الأمريكية في كركوك العقيد مايفايل، وأعطى العقيد مايفايل الصحفي الإنكليزي معلومات هامة جداً. فقد كان يستعد لعقد مؤتمر صحفي ليرد على الاتهامات التركية له؛ إذ سيعلن فيه عن الأدلة الملموسة التي تدين القوات الخاصة التركية، ولكنه ألغى المؤتمر بموجب الأوامر القادمة من واشنطن، وتضايق كثيراً.

بحسب العقيد مايفايل، إن حادثة السليمانية – أي الإعداد لاغتيال محافظ كركوك – هي في الحقيقة الحادثة الثالثة التي تتدخل فيها القوات الخاصة التركية. وأورد الإعلام واحدة من الحادثتين الأخريين. إذ أوقفت مجموعة من ضباط القوات الخاصة التركية في مدخل كركوك، وتمت مصادرة الأسلحة الموجودة في صندوق السيارة، التي كانوا ينقلونها إلى التركمان، وقد أذاع الإعلام هذه الحادثة. أما الحادثة الأخرى المتعلقة بعملية الاغتيال، فقد تمّ التستر عليها نتيجة رجاء مسعود برزاني بحجة "أنها ستخرب العلاقات مع تركيا".

وقد روى العقيد مايفايل للصحفي الإنكليزي الذي التقاه في كركوك أنه كان سيدلي بهذا كله في المؤتمر الصحفي؛ لولا اضطراره إلى إلغائه بموجب أوامر واشنطن.

سألنا كاميران قرة داغي عن مصدر معلوماته. لقد أخذها من الصحفي الإنكليزي. وعرض علينا كاميران أن يعرفنا إلى ذلك الصحفي الإنكليزي إذا أردنا ذلك لأنه كان لا يزال في بغداد.

ولكن، ليست ثمة ضرورة؛ لأن مسعود برزاني الذي لديه كل المعلومات

(أو الادعاءات) سيأتي إلى بغداد. همس بآذاننا مسؤولو الحزب الديمقراطي الكوردستاني بأن اجتماع مجلس الحكم المؤلف من خمس وعشرين شخصية سيعقد في اليوم التالي (13 تموز 2003). ولهذا السبب، مسعود برزاني قادم إلى بغداد، وعلينا أن نشهد هذا اليوم التاريخي في بغداد. منذ أيام يعرف أن مجلس الحكم سيعقد اجتماعاً، ولكن يحافظ على سرية تاريخه بالضبط.

شكلت مذاهب العراق، ومجموعاته القومية، وأحزابه السياسية التي خرجت من السر إلى العلن، ورؤساء عشائره، وقادته الدينيون مجلساً مؤلفاً من خمسة وعشرين شخصية يمثلون الجميع، ومسعود برزاني أحد أولئك الخمسة والعشرين.

بالفعل، جاء مسعود برزاني قرابة المساء، ونزل في الفندق الذي نقيم فيه. التقيناه للمرة الثانية خلال أسبوع بعد لقائنا الأول في صلاح الدين. أبدى نحونا - إلنور تشفيك وأنا - اهتماماً خاصاً. وعندما اجتمع مع نخبة العراق الجديد في الطابق الأخير أجلسنا بجانبه. أثناء الجلسة، انحنيت نحو أذنه، وسألته عن المعلومات المتعلقة بالوحدات الخاصة التركية التي كان العقيد مايفايل سيدلي بها في المؤتمر الصحفي الذي ألغاه.

هل هي صحيحة؟ هل هو من تدخل للتستر على القضية التي يدعي العقيد مايفايل أن القوات الخاصة التركية قد قامت بها؟

ابتسم مسعود برزاني، ورد بسؤال: "عن أي منها تسألون؟ هناك حادثتان من هذا النوع، وليس واحدة...".

كان مركز الجبهة التركمانية العراقية التي تشرف عليها القوات الخاصة التركية في أربيل. وكثيراً ما يُغيّر قادة الجبهة التركمانية. كان قائدها في تلك الأثناء صنعان آغا الذي يقال إنه كان مخبراً لحزب البعث. لأربيل خصوصية مختلفة عن كركوك؛ إذ لا يمكن تمييز التركمان عن الكورد في أربيل كما هو الحال في كركوك. لأن قسماً من تركمان أربيل تكرَّد، لذا يمكن للكورد أن يتسللوا إلى التنظيم التركماني بسهولة.

قال مسعود برزاني إنّ اثنين من أعضاء المجلس التنفيذي للجبهة التركمانية العراقية ينتميان إلى التنظيم المخابراتي للحزب الديمقراطي الكوردستاني، وحصل هذان الشخصان على معلومات حول عملية تخريبية ستنفذها الجبهة التركمانية العراقية، وتم إحباط العملية. ترى، أهي العملية نفسها التي قصدها العقيد مايفايل؟

بالطبع، ليس سهلاً الفصل بين القوات الخاصة التركية والجبهة التركمانية العراقية في أوضاع كهذه.

يُفهم من كلام مسعود برزاني وتصرفاته أنه أبلغ الأمريكان ببعض نشاطات الجنود الأتراك السرية، ولم يصل قسمٌ منها إلى الإعلام. ما لم يبح به في لقائنا ذاك هو انزعاجه من الوجود العسكري التركي في كوردستان العراق. وقد ظهر هذا من خلال مراسلات الدبلوماسيين الأمريكيين التي كُشف عنها في ويكيليكس بعد سنوات.

تتضمن رسالة كبير مستشاري السفارة الأمريكية في أنقرة روبرت دوتشة بعد مباحثات مسعود برزاني في أنقرة بتاريخ 7-8 كانون الثاني 2003 قبيل الحرب معلومات وتقييماً غريباً:

"قال برزاني: مجيء الأتراك إلى شمال العراق حتى كجزء من التحالف بقيادة الولايات المتحدة سيكون مؤذياً مهما كانت الظروف. وقدم برزاني المراقبين الدوليين (القوة المشكلة عام 1997 لمراقبة وقف إطلاق النار بين الحزب الديمقراطي الكوردستاني والاتحاد الوطني الكوردستاني) الذين كان الأتراك في طليعتهم نموذجاً للإشارة إلى ما يريد قوله. سأخبركم بصراحة بما كانت قوة المراقبة تقوم به. لقد فعلت كل شيء ما عدا الوساطة بيننا وبين الاتحاد الوطني الكوردستاني. سلحت الجبهة التركمانية العراقية ودربتها، وهرّبت آثاراً تاريخية ومخدرات، وحتى إنها دبرت عمليات اغتيال. ولا يذهب عناصرها إلى أي مكان. وتعدادها عدة مئات... طوى برزاني منديله بيده، وتابع بمشاعر متأججة: أنا موقفي واضح. ستُعد القوات التركية قوات احتلال سواء أكانت وحدها أو جزءاً من قوات تحالف؛ لأن تركيا لا تنوي ترك المكان والذهاب. هدف الوجود العسكري التركي مختلف عن هدف المحرِّرين القادمين من الولايات المتحدة والمملكة المتحدة... وقد قال برزاني إن المسؤولين الأمريكيين ضمنوا له عدم دخول القوات التركية مرات عديدة. وقال: نحن بالتأكيد لن نكون مسرورين من وجودهم هنا!...". (طرف، 26 آب 2011، ويكيليكس، الوثائق التركية، ص 13)

كانت الولايات المتحدة وإنكلترا تخططان لإرسال جنودٍ إلى العراق من أجل إسقاط نظام صدام حسين في بغداد. أما تركيا فمن أجل الحيلولة دون إنشاء كيان كوردي في شمال العراق، واتخاذ موقع لمحاربة حزب العمال الكوردستاني، ومنع دخول كركوك تحت السيطرة الكوردية...

كما هو ملاحظ، إنّ رؤية حلفاء الناتو لقضية العراق غير متطابقة في ما بينهم.

وبالنتيجة، إنّ القوات الخاصة التركية المندمجة تماماً مع الجبهة التركمانية العراقية بدأت تلعب ورقة التركمان ضد الكورد، وأعطت هذا الأمر

الأولوية خلال الأيام التالية من حرب العراق التي استمرت على مدى شهري آذار ونيسان من عام 2003 وانتهت بإسقاط نظام صدام.

هذه هي سياسة تركيا في العراق التي تديرها اليد العسكرية من دون أن تسميها أو تضع لها معياراً، أو بتعبير آخر، هي "سياسة تركيا مع الكورد". وهذا يتناقض مع سياسة الولايات المتحدة التي تحاول حماية الاستقرار في شمال العراق؛ المنطقة الوحيدة التي تبدو مستقرة.

وهذه السياسة تتعاكس تماماً مع السياسة نحو الكورد التي تصورها أوزال وأراد أن يطبقها.

كل موقف سياسي للجبهة التركمانية العراقية التي يستخدمها الجيش كأداة وظيفية تمليه قيادة الأركان. ويُبرز الإعلام في تركيا الجبهة التركمانية العراقية باعتبارها قوة في مواجهة الكورد بمبالغة كبرى. عارضت الجبهة التركمانية العراقية الفيدرالية في العراق، وطلبت اعتبار التركمان في الدستور العراقي من العناصر المؤسسة للعراق مثل العرب والكورد. وقدموا رقماً لتعدادهم قريباً من رقم الكورد.

وفي أول انتخابات عراقية جرت عام 2005، حصلت الجبهة التركمانية العراقية على واحد بالمائة؛ محققة هزيمة فظيعة. هذه النتيجة كانت سبباً لتولّد شكوك كبيرة حول مدى تمثيل الجبهة التركمانية العراقية، وتعداد التركمان الحقيقي.

أشرتُ إلى فشل الجبهة التركمانية العراقية في الانتخابات، وما أوقعته من أذى في القضية التركمانية في تقرير كتبته بناء على طلب الدكتور مظفر أرسلان بصفته مستشار رئيس الجمهورية العراقية لشؤون التركمان عام 2006 في هذه السطور:

"عند استعراض الحالة التنظيمية لتركمان العراق نجد انقساماً ثلاثياً أو رباعياً وحتى أكثر من هذا. ظهر الانقسام التركماني البنيوي بوضوح بين الشيعة والسنة من خلال انتخابات 25 كانون الثاني 2005 و12 كانون الأول 2005.

لم تعط القاعدة الشيعية التي تشكل قرابة نصف التركمان أصواتها للجبهة التركمانية العراقية التي تبدو ذات قاعدة قومية، بل أعطتها للتحالف العراقي المتحد ذي القاعدة المذهبية (SCIRI). وتبين أن قسماً من أصوات التركمان السنة ذهب إلى التحالف الكوردي، خاصة في أربيل وكركوك؛ المركز القومي للتركمان.

فشل الجبهة التركمانية العراقية التي تقف تركيا وراءها وتدعمها

والمقبولة في العالم والداخل العراقي سبّب خيبة أمل كبرى للتركمان. انخفض مجموع أصوات الجبهة التركمانية في عموم العراق من 94،480 في انتخابات 30 كانون الثاني إلى 87،993 في انتخابات 15 كانون الأول، أي إن العدد التقريبي 88،000، وهذا يعني 0.72% من مجموع الأصوات في العراق، دون الواحد بالمائة.

انخفض عدد أصوات الجبهة في محافظة كركوك ذات الوجود التركماني الأكبر من 65،614 في 30 كانون الثاني إلى 63،658 في الانتخابات الأخيرة. أي إن الجبهة التركمانية العراقية حتى في كركوك تُظهر وجوداً في حدود 10%.

شارك في الانتخابات العراقية الأخيرة (كانون الأول 2005) أحد عشر مليون ناخب، وهذا يعني تجاوز نسبة 70%. إذا أخذت بعين الاعتبار نسبة المشاركة بالانتخابات لتكوين فكرة عن تعداد القوميات في العراق، فإن نسبة 0.72% التي حصل عليها التركمان في الانتخابات لا تكشف خديعة أعدادهم فحسب، بل تعطي انطباعاً سلبياً أيضاً.

لهذا السبب، إن دعوة التركمان للاجتماع تحت مظلة الجبهة التركمانية العراقية وتقديم الجبهة باعتبارها ممثلة سياسية للتركمان يؤثران سلباً على حقوق التركمان، ويضعفانهم في تطبيق الضمانات الدستورية الخاصة بهم".

الانتخابات العراقية التي جرت في مطلع عام 2005 ونهايته تعني إفلاس سياسة تركيا نحو العراق بتوجيه العسكر المعتمدة على عداء الكورد عبر الجبهة التركمانية العراقية. ورغم أن هذه السياسة لم تؤثر على الكورد، فقد آذت المصالح الأساسية للتركمان.

نتائج الانتخابات العراقية لعام 2005 قوّت الشكوك في تركيا حول تمثيل الجبهة التركمانية العراقية، وفي الوقت نفسه أكسبت حزب العدالة والتنمية مشروعية لوضع يده تدريجياً على سياسة العراق.

سُحب الإشراف على الجبهة التركمانية العراقية من يد الأركان العامة عام 2006، ونُقل إلى وزارة الخارجية برئاسة عبد الله غول. وبدأ حزب العدالة والتنمية بتغيير السياسة المطبقة منذ عام 1993، والقائمة على الحيلولة دون تشكيل بنية كوردية في العراق.

أو إن حيويات التاريخ التي دخلت حيز الفاعلية في العراق بعد عام 2003 أجبرت تركيا على تغيير علاقاتها مع الكورد.

لعل "شبح" تورغوت أوزال يجول فوق السياسة الخارجية التركية.

XIII - من الجار إلى الجار



يعرف الشخص بمشاعره وليس بمظهره. يستطيع الإنسان تغيير مظهره بنسبة كبيرة، ويبقى هو نفسه. لا يمكن الحديث عن تغيير في الإنسان إلا عندما يطال هذا التغيير مشاعره. ويمكن القول إننا نتبنى بعض الرؤى التي تساهم بنجاحنا في أمور نوينا أن ننفذها أو ترتبط بمشاعرنا.

عليا عزت بيغوفيتش

عندما ينظر إلى حرب العراق من منظور تاريخي فهي إتمام عمل بدأ عام 1991 ولم يكتمل. أنا أيضاً أنظر إلى الأمر على هذا النحو. وهذه وجهة نظري.

وضع تورغوت أوزال أوراقه السياسية كلها عام 1991 على رؤية سقوط صدام حسين. ركزنا – تورغوت أوزال وأنا – على سقوط صدام عام 1991، ولكنه هزم في ذلك العام، ولم يسقط تماماً، وانتهى عام 2003.

أُضيف "البعد الكوردي" إلى زاوية رؤيتي للحرب الثانية.

أما كان البعد نفسه موجوداً عام 1991؟ كان موجوداً، ولكن ليس إلى المدى الذي وصل إليه عام 2003...

رأيت في نتائج حرب عام 2003 انفتاحاً تاريخياً أمام الكورد، وشراكة استراتيجية بينهم وبين تركيا.

أليس ثمة طريق آخر غير الحرب يمهد أمام الكورد في العراق؟ ألا يمكن أن يكون؟

لم يكن ثمة طريق آخر. لم يكن موجوداً بوجود نظام صدام، ولا يمكن أن يكون، ولم يكن.

عرضت فكرتي هذه على جلال طالباني أثناء حديث لنا في اسطنبول عام 2005. قلت: "أنتم الكورد سبب تأييدي للحرب. كنتم تعتقدون أن إسقاط صدام بهذه الحرب سيكون جيداً على الكورد. وأنا آمنت بضرورة دعم هذه الحرب. ما هو جيد لكورد العراق جيد لكورد تركيا. وما هو جيد لكورد تركيا سيكون جيداً لتركيا".

استمع إلي طالباني من دون أن يجيب، مظهراً على وجهه بعض التقلصات.

إذا أردتم الحقيقة، إن شعوري السلبي نحو نظام البعث الظالم الذي يرأسه صدام، ومعارضتي الحادة له لم ينطلقا من ظلم صدام للكورد؛ أي لم تكن نقطة الانطلاق متعلقة بالكورد.

بدأ اهتمامي بالعراق من أحاديثي مع عادل عبد المهدي في بيروت حول تاريخ العراق وسياسته، وتركز مع الحرب الإيرانية - العراقية. دعمت الثورة الإيرانية عام 1979 من كل قلبي. وكان لا بد لي من زيادة الاهتمام بالعراق بعد أن شنَّ صدام حرباً دموية على تلك الثورة وهي ما زالت في عامها الأول لخنقها دامت ثمانية أعوام وراح ضحيتها مئات الآلاف.

كانت الثورة الإيرانية واحدة من أكثر الأحداث التاريخية إثارة بالنسبة لجيلنا. كان شاه إيران يمثل بالنسبة إلى جيلنا نظام ظلم وقمع يبدو باقياً إلى الأبد. وكنت مثل كل مناهضي الإمبريالية وأمريكا تحت تأثير حرب فييتنام في الستينيات، عندما تذكر إيران أمامي فإن أول ما يخطر ببالي هو الديكتاتورية الحادة التي تلعب دور شرطي الولايات المتحدة في المنطقة ومنظمتها المخابراتية الرهيبة سافاك. وكان نزول ملايين الناس العزّل إلى الشوارع في خريف عام 1978، وتحديهم لجيش إيران الكبير وقواتها الأمنية مثيرين للانفعال.

ثورة إيران أكدت لي ما رأيته في كربلاء خلال زيارتي للعراق. أول زيارة لي إلى العراق كانت في آذار عام 1978، ذهبت إلى كربلاء وبابل (الحلة) لمدة نهار واحد. لدي معلومات حول الشيعة من خلال عيشي في

الماضي القريب لمدة سنتين في بلد ذي أغلبية شيعية هو لبنان، ومنطقة شيعية بالكامل هي ضاحية بيروت الجنوبية وجنوب لبنان. ولكنني لم أر مشهداً مؤثراً كالذي رأيته في جامع سيدنا الحسين وضريحه ذي القبة الذهبية. فقد كان آلاف الناس أطفالاً ونساء ينبعون كالنمل، ويمرغون وجوههم بضريح سيدنا الحسين، ويبكون، ويدعون، ويصلون. كان يستشعر في كل زاوية من زوايا كربلاء بطاقة معنوية مدهشة. قلت لنفسي: "عندما تتوجه طاقة هائلة كهذه نحو هدف سياسي، فلا أحد يستطيع الوقوف في وجهها".

وبعد أقل من سنة، رأيت مشهد كربلاء في شوارع إيران وطهران. من وجهة نظري، لا بد لحركة شعبية عظيمة كهذه أن تحقق هدفها. كنتُ واثقاً تماماً بأن الثورة الإيرانية ستنتصر.

أنا ككل الذين عاشوا سنوات شبابهم معارضين لنظام الشاه ومنظمته الأمنية السرية سافاك سررت للشعب الإيراني الجار ولشعوب منطقتنا. بعد انقلاب 12 آذار 1971 العسكري في تركيا، وخلال فترة "بناء شخصيتي" في الحركة الفلسطينية بين عامي 1971-1973 تعرفت إلى الكثير من الإيرانيين في لبنان ممن تركوا بلدهم. كانت الحركة الفلسطينية في السبعينيات ملتقى ثوار المنطقة ومعارضة أنظمة الدول كلها، وعلى المدى الأوسع الثوار الأمميين. وأنا أيضاً، من الطبيعي أن يكون لي أصدقاء إيرانيون ضمن الحركة الفلسطينية. أعرف ما الذي يعنيه نظام الشاه، وطبيعة منظمة الظلم المدعوة سافاك، وممن تتشكل المنظمات اليسارية مثل حزب تودة، وتودة الثوري، وطوفان، وفدائيي خلق، ومجاهدي خلق، وما هو خطها السياسي والأيديولوجي، وأعرف ما يجري في الثورة الإيرانية ومسيرتها منذ أيامي في بيروت.

تقاطعت الثورة الإيرانية مع مرحلة عملي الصحفي الثانية التي لم تنقطع. بعد عملي سنتين في جريدة وطن ووكالة أخبار تورك، بقيت عاطلاً عن العمل، وكنت أحضر لامتحان قبول معيدين لمادة التاريخ السياسي في كلية العلوم السياسية التي تخرجت فيها لأعود إلى الحياة الأكاديمية. اعتكفت على الدراسة في بيت زميلي من الجامعة ورفيقي في النضال عمر ماضرا. كان عمر في تلك الأثناء معيداً لمادة القانون الدولي في كلية العلوم السياسية. وكان يكتب أطروحة الدكتوراه وفاء بوعده لزوجته التي فقدها حديثاً، ولأستاذه البروفيسور الدكتور سها مريا الذي هزم أمام السرطان. تحمل أطروحة عمر ماضرا للدكتوراه عنواناً يبدو ضرباً من الفنتازيا لكثير

من الأتراك في تلك الأثناء: "حق المراجعة الفردية لمحكمة حقوق الإنسان الأوروبية"...

كانت أياماً مزعجة في فترة سير تركيا خطوة خطوة نحو الانقلاب العسكري في 12 أيلول 1980؛ إذ كان الشباب يقتلون يومياً في الصراع بين اليسار واليمين، والتوتر المعاش نتيجة ما يمكن تسميته مجازر ضد العلويين في تشورم ومرعش على أشدّه. أغلقنا على أنفسنا في بيت عمر ماضرا، وبدأنا ندرس منقطعين عن العالم. ولم يكن هناك ما يبعث على الأمل سوى الثورة الإيرانية التي تتجه نحو إسقاط الشاه.

في 1 شباط 1979، عاد آية الله الخميني إلى طهران. كان منفياً منذ عام 1963. ومع ذيوع شهرته، بدأت المعلومات عن حياته تتوارد. ذهب إلى النجف بعد أن عاش سنة في بورصة، أي في تركيا. وقضى 15 سنة هناك إلى أن طرده صدام لكي لا يثير غضب الشاه، وعاش في ضواحي باريس. وكنا من بين الذين تابعوا بانفعال عبر شاشات التلفزة عودته من باريس إلى طهران بطائرة جامبو، أي بوينغ 747.

استقبل الخميني في الساحة التي كانت تدعى شاهياد وتحول اسمها بعد الثورة إلى أزادي (الحرية) أكثر من مليون شخص بحماسة كبيرة. في ذلك اليوم بالضبط، زُلزلنا على خبر اغتيال عبدي إبكتشي رئيس تحرير جريدة مليت. لم نكن نعرف أن انقلاباً عسكرياً سيحدث في تركيا بتاريخ 12 أيلول 1980. ولكن، كان ثمة شعور بأن البلد يذهب نحو مستقبل مظلم. لهذا السبب، كانت إيران بالنسبة لأمثالنا القضية الوحيدة تقريباً التي تبعث على الأمل.

اختلطت مشاعرنا بمقتل عبدي إبكتشي. فقد دخلت تركيا بمنعطف حاد نحو الانقلاب، وانتصرت الثورة في إيران.

قبل مرور وقت طويل، وجدت نفسي في الصحافة من جديد وليس في العمل الأكاديمي، وفي جريدة جمهوريت التي كانت هدفي منذ البداية؛ الجريدة الأكثر تجذراً في تركيا. ومنذ لحظة عملي في جريدة جمهوريت، بدأت أتابع الشأن الإيراني عن قرب أكثر. بادرت لمعرفة ما يجري في إيران، وبنية السلطة الجديدة بأدق التفاصيل. وثقت بأن ثورة كبرى حدثت على مقربة شديدة منا يمكن مقارنتها بالثورة الفرنسية عام 1798 التي قرأنا عنها في الكتب والثورة البلشفية عام 1917، وكنت أتوق بشدة للذهاب إلى إيران. لم تكن إدارة جمهوريت تبدو متحمسة لهذا الأمر. غير هذا، لم تكن إمكانيات الجريدة المادية كبيرة إلى درجة إرسالي إلى هناك.

اتصل بي مكتب رئيس الجمهورية (أبو الحسن بني صدر)، ودعيت إلى إيران. إذا دفعت ثمن التذكرة فسأستقبل في مطار مهر آباد، وسيستضيفني مكتب رئيس الجمهورية، وأقوم بالاتصالات اللازمة هناك.

أذكر أنني بقيت أقفز فرحاً لدقائق في البيت، وأغني. ولكن، من أين عرف مستشارو رئيس الجمهورية رقم هاتف البيت؟

دفعني حدسي للاتصال بميشال نوفل في بيروت. لم أخطئ. صديقي اللبناني الذي لعب دوراً في انعطاف حياتي ظهر في الساحة من جديد. كان ميشال نوفل أحد الصحفيين الذين رافقوا الخميني في الطائرة من باريس إلى طهران، وحظي بشهرة واسعة من خلال مقالاته للصحافة اللبنانية عن الثورة الإيرانية. أخبرني ميشال أنه هو الذي أعطاهم رقم هاتفي. فقد أبلغته الأوساط القريبة من بني صدر أنهم يعطون أهمية كبرى لتركيا، وهم بحاجة إلى صحفي من هناك يفهمهم ولكنهم لا يعرفون أحداً، فأعطاهم اسمي، وضمن لهم أنني أكثر من يتفهم النظام الجديد في إيران لأنني "تدربت في بيروت" في الحركة الفلسطينية في مطلع السبعينيات مثل الكثير من القادة الإيرانيين. كانت هذه التزكية كافية لأوساط بني صدر، فهرعوا إلى الهاتف، واتصلوا بي.

عندما تلقيت دعوة طهران، وعلى مستوى بني صدر هرعت إلى أوقطاي قورطبُكة رئيس تحرير جمهوريت في اليوم التالي. طلبت منه بما يشبه التوسل أن يرسلني إلى طهران. لم يعارض. اتفقت جريدة جمهوريت وكأنها "برافدا الباب العالي" مع الخطوط الجوية السوفييتية آيرفلوت على بطاقة مقابل إعلان. وكان بإمكاني أن أذهب إلى طهران عن طريق موسكو.

تركت خلفي عروض الأول من أيار (1980) في الساحة الحمراء بانفعال يجعلني أطير، ووصلت إلى طهران. لم يكن هناك من ينتظرني. ذهبت إلى شرطة المطار بالاسم الذي أحمله ورقم الهاتف. كان الرقم رقم مكتب رئاسة الجمهورية، والاسم اسم أحد أقرب المستشارين إلى الرئيس. تمكنت من التواصل مع مكتب رئاسة الجمهورية، وأرسلوا لي محمد صالح حسين عراقي الأصل ليصطحبني من المطار.

كان محمد صالح سياسياً شيعياً عراقياً هارباً من العراق إلى إيران ويتردد على بيروت. الأهم من هذا أن لديه تواصلاً مع عائلة آية الله الخميني. في اليوم التالي لوصولي إلى طهران، جاء إلى الفندق بصحبة حفيد الخميني حسين، وأخذني إلى بيت الخميني. تبادلنا الحديث لساعات في بهو البيت الواسع. قضيت وقتاً وأنا ألاعب أحفاد الخميني الصغار. لم ينزل آية

الله روح الله الخميني الذي مُنح لقب "الإمام" من الطابق العلوي نهائياً. خرجنا مساء إلى أمام البيت لمتابعة العرض أمام بيته. كان رجال الدين سيمرون أمام البيت بالزي الديني؛ أي بالجبة واللفة التي تكون إما سوداء أو بيضاء (علمت حينئذ أن الذي يضع اللفة السوداء هو من نسل الرسول ويُلقب بالسيد، والذي يضع اللفة البيضاء رجل علم يلقب بالشيخ). رفعت رأسي أمام الباب وأنا بجانب محمد صالح وحسين الخميني فرأيت الإمام الخميني لأول مرة على الشرفة يعلوني بمترين أو ثلاثة.

بعد تعرّفي إلى محمد صالح ومرافقته لي في طهران بفترة، اغتالته المخابرات العراقية في بيروت. كانت بيروت ساحة تصفية حسابات بين الدول العربية وبين إسرائيل والفلسطينيين. وبعد الثورة الإيرانية اكتسبت بُعداً جديداً؛ بأنها غدت ساحة صيد يقضي فيها النظام العراقي على معارضيه الذين يقيمون علاقات مع إيران.

فتحت عيني في إيران على عراقي هو محمد صالح، وتابعت مع شقيقه محمد صادق حسيني. بعد أن درس محمد صادق الهندسة في ألمانيا، جاء إلى إيران ودخل بخدمة الجمهورية الإيرانية الإسلامية، ومع الوقت أصبح أحد أقرب المستشارين إلى رفسنجاني. كنت أطرق بابه للحصول على مواعيد من المسؤولين الإيرانيين كلما ذهبت إلى إيران. وكان مصدر معلوماتي حول التطورات السياسية الداخلية فيها.

بدئي بالعلاقات من الذروة حين وطئت قدماي إيران لأول مرة، ودخولي بيت الخميني قبل مرور أربع وعشرين ساعة على وجودي فيها، وقضائي وقت الدوام النهاري في مكتب رئاسة الجمهورية، وعيشي الأيام والأسابيع الأولى للثورة في طهران؛ كلها معاً سهلت لي إقامة علاقات وثيقة مع العديد من الشخصيات الإيرانية. تمكنت من إقامة مروحة علاقات واسعة؛ بدءاً من رجال الدين، ووصولاً إلى الذين تلقوا تعليمهم في الخارج – وخاصة في أمريكا – من أوساط بني صدر أول رئيس جمهورية منتخب في إيران، ومروراً بخريجي التعليم الخاص من المسؤولين الجدد والكوادر السياسية الخبيرة في سياسة الشرق الأوسط التي كانت في صفوف الحركة الفلسطينية والجناح العسكري لحركة أمل الشيعية.

تمكنت من متابعة تطورات السياسة الإيرانية المذهلة عن كثب. دخل بُعد طهران أو إيران على البعد البيروتي أو اللبناني في حياتي، وقضيت في طهران وبيروت أو في مدن إيران والشرق الأوسط المختلفة فترة تعادل فترة حياتي في تركيا. لهذا السبب، قضيت معظم الفترة التي تلت انقلاب 12

أيلول 1980 خارج تركيا، وغالباً ما كنت في طهران ولبنان. يمكن القول إنني نفذت من المرحلة الأكثر تعاسة لانقلاب 12 أيلول. كنت مشغولاً بالنضال الفلسطيني وإيران أكثر من انشغالي بتركيا.

لا شك أن الحرب الإيرانية العراقية طبعت هذه المرحلة بطابعها. فقد بدأت الحرب بعد انقلاب 12 أيلول العسكري بعشرة أيام بشن العراق هجوماً خاطفاً على أغلب المدن الإيرانية وعلى رأسها طهران. في اليوم التالي، دخلت القوات البرية العراقية إلى محافظة خوزستان في منطقة شط العرب. غالبية سكان خوزستان عرب، وتسمي العراق المنطقة عربستان. خوزستان هي المنطقة الإيرانية الغنية بالنفط. التهمت النيران مصفاة عبدان أكبر مصفاة نفط في العالم. كان العراقيون واثقين من تحقيق الانتصار خلال عدة أيام، وأن الثورة الإيرانية والجمهورية الإسلامية ستنهاران؛ إلى درجة أن السفارة العراقية أخذت من الصحف التركية الكبرى مراسلين إلى بغداد بالطائرة في اليوم التالي للهجوم البري، وكان العراقيون سيأخذونهم من هناك إلى الجبهة. فقد يتقدم العراق في الأراضي الإيرانية من ثلاثة محاور.

يجب متابعة الحرب من الجبهة الإيرانية أيضاً. انطلقت مع عدة أصدقاء، وكانت تلك رحلتي الثانية إلى إيران بعد الثورة. لم نكن محظوظين مثل زملائنا الذين أخذهم العراقيون إلى بغداد؛ فقد أغلق مطار طهران. ذهبنا من اسطنبول إلى أرضروم بالطائرة، ومنها إلى بيازيد الشرقية. عندما وصلنا إلى باب غوربولاق الحدودي وجدناه مغلقاً من الجهة الإيرانية؛ لأن هناك اشتباكات بين الحرس الثوري الإيراني والمتمردين في القرى الكوردية. كنا نستطيع رؤية لهب النار المتصاعد خلف الحدود من بيازيد الشرقية.

دخلنا - ولو متأخرين - إلى إيران، وركبنا حافلة، ولم نستطع الوصول سوى إلى تبريز. كانت تبريز تعيش توترَ الحرب، وقد تعرضت لغارة جوية. كنا في بلد يتعرض بكامله للهجوم. بعد تبريز انطلقنا إلى طهران. فور نزولنا في الفندق، انطلقت صفارات الإنذار، وبدأت المضادات الجوية تمشط الجو، ولفت طهران أصوات الانفجارات. بينما كان الجميع يهرعون إلى الملاجئ، وتفرغ الطرق، كنت أشاهد القصف مع صديقي المرحوم إرهان آقيلضظ مراسل جريدة مليّت من سطح الفندق. إنها المرة الأولى التي أكون وسط النار منذ سنوات بيروت في السبعينيات.

قطعت علاقتي نهائياً بنتائج انقلاب 12 أيلول على تركيا. كان عقلي مشغولاً بالذهاب إلى الجبهة الحقيقية، إلى خط جبهة عبدان وخرّم شهر؛ فأشد معارك الحرب تدور هناك. العمل الصحفي يفرض أن أكون هناك.

وقد تزاحم عدد من الصحفيين القادمين من مختلف دول العالم أمام باب وزارة الإرشاد من أجل الذهاب إلى هناك. وكانت المنطقة قد أُعلنت منطقة عسكرية، ويجب انتظار موافقة الجيش الإيراني للذهاب إلى هناك برفقة الجنود. كنا نعرّج على وزارة الإرشاد يومياً، وننتظر صدور الإذن من أجل الذهاب إلى الجبهة. وأخيراً، صدر إذن بذهاب الصحفيين إلى القطاع الأوسط من الجبهة الشمالية على الحدود العراقية الإيرانية؛ لأن أهميتها العسكرية أقل مقارنة ببقية الجبهات. انطلاقاً من فكرة: "أفضل من لا شيء، يلتقط كل منا صورة هناك، ونرسلها إلى تركيا". ذهب الزملاء القادمون من تركيا إلى هناك. ولكنني قاومت بإصرار من أجل الذهاب إلى منطقة عبدان البترولية، وبقيت في طهران. وعندما ذهبت إلى وزارة الإرشاد من أجل الحصول على معلومات بعد عدة أيام، قيل لي إنّ الحافلة التي ستذهب إلى هناك قد انطلقت قبل عدة ساعات؛ إذ صدر إذنٌ مفاجئ، فشعرت بأن ماء مغلياً قد صُب على رأسي. كان المصور الصحفي جوشقون أرال قد وصل تواً إلى طهران وعرّج على وزارة الإرشاد مصادفة، وطلب وضع اسمه مكان اسمي، ثم قفز إلى الحافلة.

جن جنوني. ينبغي أن ألحق بالصحفيين الذاهبين إلى الجبهة. لم يكن بالإمكان الذهاب إلى عبدان وخرم شهر من دون مرافقة عسكرية. عرفت أنهم سيبيتون في الطريق؛ سيبيتون في حرّم أباد مركز محافظة لورستان التي تعد نقطة منتصف الطريق. يمكنني أن ألحق بهم إذا حالفني الحظ قبل انطلاقهم إلى عبدان. هرعت إلى مركز انطلاق الحافلات في طهران. حالفني الحظ ثانية؛ فقفزت إلى حافلة ذاهبة إلى الأهواز مركز محافظة خوزستان، وكانت ستسير من دون استراحة، وهي على وشك الانطلاق. عبرنا من قم، وتجاوزنا أراك، ولم نقف في حُرّم أباد. عندما وصلنا إلى دزفول، وبدأنا ننـزل نحو سهول خوزستان كنا نستطيع رؤية قصف المدفعية العراقية في الأفق. كانت المدفعية العراقية تهز الأراضي الإيرانية. في نقطة معينة توقفت الحافلة، وقالوا إنه من غير الممكن الذهاب أبعد من ذلك، لأنّ ذلك خطر. توسلت إلى السائق، وقمت بفعالية بين الركاب. أقنعتهم بأن وقوفنا سيكون أكثر خطراً. لذا، ضغطوا على السائق، فتابع برفقة ترديد الصلاة الجماعية على الرسول.

وصلنا إلى الأهواز. كان المشهد مشوهاً بالقصف، وقد حل نظام الحرب. كانت هناك أكياس رمل أمام الأبنية. وجدت الفندق الذي نزل فيه الصحفيون. كانوا قد وصلوا للتو. لحقت بهم، وسأتمكن من الدخول إلى

المنطقة الأكثر صعوبة من ساحة المعركة؛ وهي خط عبدان وحرم شهر. عبرنا عبدان، ووصلنا إلى حرم شهر. كانت " BBC " قد أعلنت أنها سقطت بيد القوات العراقية. كانت حرم شهر على ساحل شط العرب مقابل البصرة؛ تبعد عنها عشرة كيلومترات فقط. حينها، لم تكن قد وقعت بيد القوات العراقية، ولكن تلك القوات كانت على الأبواب. أثناء تجوالنا في حرم شهر وقعنا تحت رشقات صواريخ كاتيوشا، فانبطحنا أرضاً. تعرف المتطوعون الإيرانيون القادمون قبل ساعات إلى الأهواز لخوض الحرب إلى صواريخَ الكاتيوشا أيضاً. الصواريخ التي كانت تسقط على بعد مائة متر منا، صارت تقع على يميننا ويسارنا وأمامنا هذه المرة. من المحتمل أن يكون العراقيون الذين رشقونا بالصواريخ قد رأونا. بقينا فترة طويلة منبطحين من دون أن نتحرك. وعند توقف الكاتيوشا لفترة ألقينا بأنفسنا في حافلتنا، وغادرنا حرم شهر التي تتعرض إلى الهجوم. خطر ببالي أنني لم أر الموت على هذا القرب من قبل؛ حتى خلال السنوات الطويلة التي قضيتها مع الحركة الفلسطينية.

سقطت حرم شهر بعد مغادرتنا بثماني وأربعين ساعة. وعاشت أعنف المعارك على مدى ثمانية أعوام، وقدم فيها أكبر عدد من الضحايا؛ حتى تمت استعادتها من قبل القوات الإيرانية. وقد غيّر الإيرانيون اسمها إلى هونين شهر (مدينة الدم).

تمكنت من الخروج سالماً من القصف الإسرائيلي، وعندما نفذت من القذائف المدفعية والصواريخ العراقية في منطقة شط العرب، وخرجت من دزفول والأهواز وعبدان وحرم شهر على بعد أكثر من ألف كيلومتر عن طهران آمنت أنني بسبع أرواح.

تأجج غضبي من صدام إثر مشاهداتي في جبهة إيران. الحرب التي شنها العراق على إيران في 22 أيلول 1980 دخلت التاريخ باعتبارها أطول حرب تقليدية في القرن العشرين، وفيها تعرضت إيران للعدوان، وتركت وحيدة. بقيت مؤيداً لإيران طوال حياتي.

لم أؤيد إيران نتيجة شن العراق حرباً ظالمة عليها ولأنها ظلمت. بل لأنّ الثورة الإيرانية أثرت عليّ كما أثرت على الكثير من الذين تنتمي جذورهم إلى الأيديولوجية اليسارية. الهوية الإسلامية للثورة دفعتني إلى الاهتمام بالفكر الإسلامي. أنا أنتمي إلى مجتمع إسلامي، واكتسبت بنية شخصية تجعلني جزءاً من المجتمع الإسلامي بنسبة كبيرة نتيجة حياتي وسط المجتمع الفلسطيني. ولكن معلوماتي حول تاريخ الإسلام ومذاهبه وتياراته

الفكرية أقل مما يجب أن تكون عليه بكثير.

أثناء عيشي وسط أجواء الثورة الإيرانية كنت منكباً على القراءة. لم يكن صعباً على واحد مثلي غير منحدر من تربية إسلامية التعرف على القلم الإسلامي القوي علي شريعتي، كما أن هذا لم يأخذ مني وقتاً طويلاً. قتل شريعتي على أيدي عملاء شاه إيران خارجها قبل الثورة الإيرانية بفترة قصيرة. بدأت أكن احتراماً خاصاً لآية الله طالقاني؛ أحد أهم رجال الدين في طهران، والذي يتخذ موقفاً وسطاً بين علي شريعتي وقادة الثورة الإيرانية، ويرى أن لقب "آية الله التقدمي" يناسبه. مات آية الله طالقاني بعد انتصار الثورة بفترة قصيرة، ولم يكن من نصيبي التعرف إليه.

كان الموضوع الإيراني يشغل غالبية أحاديثنا في مرحلة حياتي البيروتية في النصف الأول من الثمانينيات. وبعد أن وطئت قدما الخميني طهران بفترة قصيرة، قطع علاقات إيران بإسرائيل، واعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية، وهرع ياسر عرفات إلى طهران، وألقى كلمة من السفارة الفلسطينية التي كانت سابقاً سفارة إسرائيلية بحضور حشود كبيرة من المواطنين. مع الثورة الإيرانية دخلت إيران المعادلة الفلسطينية عبر لبنان. انخرطت إيران في منظمة التحرير الفلسطينية التي مركزها بيروت بقدر ما انخرطت في الشيعة الذين يشكلون الجزء الأكبر والأكثر فقراً من سكان لبنان.

أقرب أصدقائي في بيروت وجدوا أنفسهم تلقائياً يهتمون كثيراً بالتطورات الجارية في إيران، ويدخلون حيز النفوذ الأيديولوجي للثورة الإيرانية.

لم يكن من الممكن لي أنا الذي أعيش في وسط متداخل مع إيران إلى درجة كبيرة إلا أن أتعرف إلى السيد هاني فحص. كان هاني فحص في مثل سني، وهو يعيش في قرية جبشيت التابعة للنبطية مركز الميليشيا الشيعية في جنوب لبنان، ويقضي غالبية وقته في بيروت التي تبعد سفر ساعة ونصف الساعة عن النبطية. هاني فحص هو رجل الدين الذي ظهر في صورة الشرفة التي ألقى منها عرفات كلمته التاريخية وهو يضع لفته السوداء. إنه الرابط بين رجال الدين الحاكمين في إيران وعرفات.

معرفتي بالسيد هاني فحص وصداقتي معه انعكستا على علاقتي بطهران. كنا ننام ونصحو في السفارة الفلسطينية عندما يصادف وجودنا معاً في طهران. بعد فترة، أصبح لدى هاني فحص بيت في طهران، وصرت أذهب إلى بيته عند ذهابي إلى طهران بدلاً من الذهاب إلى الفندق.

السيد هاني فحص – مثله مثل الكثير من رجال الدين الشيعة الكبار – تخرّج من حوزة النجف؛ فهو يعرف الكثير من رجال الدين الإيرانيين عن قرب من فترة الدراسة. لدى السيد هاني فحص كثير من زملاء الحوزة التي كان الخميني أحد أهم المدرسين فيها.

أحد أولئك الزملاء هو السيد هادي مدرّسي. السيد هادي من مدينة كربلاء. شقيقه الأكبر السيد تقي مدرسي قائد أحد أهم التنظيمات الشيعية العراقية. أينما ذهب السيد هادي يرافقه عدة مريدين شباب من دون أن يفتحوا أفواههم. وهو كالسيد هاني مرح ويروي الطرائف ومتقد الذكاء. كنا نتبادل الحديث معه حول الأبعاد الأيديولوجية للثورة الإيرانية من جهة، وبنية العراق الداخلية ووضع معارضته من جهة أخرى.

السيد هادي مدرسي من النوع الذي لا يستطيع الثبات في مكان. إحدى أهم الخصوصيات التي تعطي الثورة طبيعيتها أن تكون عالمية، أو بتعبير آخر، إمكانية حملها خارج الحدود التي حدثت فيها، وأن تلاقي قبولاً. أي إن الثورات لا بد لها إلا أن تُصدّر. نشر نابليون الثورة الفرنسية الكبرى التي قامت عام 1789 في أوروبا كلها بواسطة الحروب. وأنتجت ثورة 1917 الشيوعية العالمية (كومنتيرن). الثورة التي لا يمكن تصديرها سرعان ما تفقد وهج شعلتها ويخبو لهبها وتتحول إلى رماد. كانت لدى الثورة الإيرانية إمكانية التصدير منذ اليوم الأول. وكان سبب الهجوم العراقي على إيران أساساً الحيلولة دون انتشار الثورة. كان السيد هادي مدرسي يعطي انطباعاً بأنه يعمل في قسم تصدير الثورة الإيرانية. كادت العناصر التي حركها أن تسيطر على الحكم في البحرين ذات الأغلبية الشيعية، ولكنها أخمدت، ونتيجة تطورات البحرين، أسست الأنظمة الخليجية التي تحتوي أراضيها ثلثي المخزون النفطي العالمي مجلس التعاون الخليجي. كنت أعلّق على هادي مدرسي بلقب: "المؤسس الحقيقي لمجلس التعاون الخليجي".

وصلت إلى طهران مع تأسيس " SCIR ". وهذا الاسم هو الأحرف الأولى من الترجمة الإنكليزية لاسم "المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق" الذي سيغدو أحد أكبر تنظيمات المعارضة العراقية. بعد عام 2003 غير التنظيم اسمه، وحذف منه كلمة الثورة إثر عودته إلى العراق، وصار يذكر باسمه المختصر "المجلس الأعلى".

حين علمت بتأسيسه في طهران، استعلمت عن عنوانه، وذهبت إلى مقره العام الواقع قرب ساحة الفردوس حيث تقع السفارة التركية أيضاً. كنتُ أخطط للقاء القائد المؤسس لهذا التنظيم حجة الإسلام (غدا آية الله

في ما بعد) محمد باقر الحكيم. ينتمي محمد باقر الحكيم (1939-2003) إلى إحدى أكبر عائلتي علماء شيعيتين في العراق. بعد الحرب عام 2003 عاد من طهران إلى العراق، وفي شهر آب من عام 2003 فقد حياته في تفجير سيارة مفخخة يقال إن تنظيم القاعدة يقف وراءه أثناء خروجه من صلاة الجمعة في مسجد سيدنا عليّ في النجف.

عندما ذهبت إلى المقر العام للمجلس الأعلى للثورة الإسلامية في طهران لم أكن أعرف سوى أن قائد التنظيم الذي تأسس بدعم إيراني هو السيد محمد باقر الحكيم ابن آية الله العظمى محسن الحكيم. أثناء انتظاري موعد اللقاء تعرّفت إلى رجل دين أبيض اللحية يتكلم التركية. سألته كيف تعلم التركية بهذه الطلاقة، فقال إنه تركماني من تلعفر. عرفت من الشيخ تقي المولى عام 1982 بوجود تركمان شيعة؛ وحتى إن هؤلاء يبلغ عددهم أكثر من نصف التركمان. ولم تعلم تركيا بهذا حتى العقد الأول من القرن الحادي والعشرين؛ عندما كانت عالقة بسياسة عداء الكورد عبر "الجبهة التركمانية العراقية". وكلما التقيت الشيخ تقي المولى في العراق في ما بعد كان يذكرني بلقائنا الأول ذاك. لقد قاد الشيخ تقي المولى ألوية بدر الجناح العسكري للمجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق.

لم تكن لعادل عبد المهدي علاقة بالمجلس عندما تأسس. عرفت في ما بعد أن عادل عبد المهدي مال نحو المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق أثناء منفاه الباريسي، وبدأ يتردد على طهران. وخلال فترة قصيرة، وصل إلى منصب عالٍ من التسلسل الرتبي في المجلس؛ حتى إنه صار يُذكر باعتباره المنظّر للمجلس.

كان عادل عبد المهدي (أبو أمل) أول معارض عراقي عرفته. وهو من وجهني للتواصل مع عناصر المعارضة العراقية الذين في دمشق. بدأت علاقتي بالمعارضة العراقية في أواخر السبعينيات في بيروت، واستمرت في الثمانينيات في دمشق ثم في طهران.

في هذه المناسبة، أقدمت على خرق قاعدة غير مكتوبة لا يمكن أن يخرقها أي مهتم بشؤون الشرق الأوسط. ففي إحدى زياراتي إلى دمشق عام 1981 تواصلت مع المعارضة العراقية السرية هناك. تحدثت عنهم في سلسلة مقالاتي المعنونة "تقرير الشرق الأوسط" في جريدة الجمهورية من دون ذكر أسمائهم الحقيقية. لقد دسست يدي في مأخذ كهربائي؛ فقد خرقت قواعد لعبة الشرق الأوسط عن وعي.

نتيجة هذا الأمر، دخل اسمي قيود المخابرات العراقية، ولم يعد

بإمكاني التوافق مع نظام البعث الصدامي طالما بقي قائماً. تحولتُ تلقائياً إلى عضو في المعارضة العراقية؛ وهذا يعني مشكلة أمنية مستعصية بالنسبة إليّ.

بعد سنتين، انقلبت عكسياً موجة الهجوم العراقي الذي بدأ عام 1980. لم تتحقق حسابات العراق بالانتصار على إيران وسحق الثورة، واستعاد الإيرانيون المبادرة مع الوقت، ووجهوا الحرب نحو الأراضي العراقية. كنت من بين المتوقعين أن تغير وجهة الحرب وانتقالها نحو الأراضي العراقية سيغيران التوازنات الداخلية العراقية؛ مما سيؤدي إلى سقوط صدام.

انتقلت الحرب إلى الأراضي العراقية في حزيران عام 1982. تقدم الإيرانيون هذه المرّة في الأراضي العراقية. وعندما لم يكف الدعم الدولي الكبير لصدام، بدأ باستخدام السلاح الكيماوي والبيولوجي. كان ثمة حظر سلاح على إيران. أما العراق فيأتيه السلاح والذخيرة من كل الجهات، ويؤمَّن له الدعم المالي. تتفوق إيران على العراق بعدد سكانها البالغ ثلاثة أضعاف سكان جارتها. حاول الإيرانيون تعويض خلل التسلح بالقوة البشرية، وخاضوا المعارك بدفق كبير من المقاتلين بطريقة الالتحام. واستخدم العراق غازاً ساماً أوقع ضحايا وصلت أعدادهم إلى أرقام مخيفة لدى الطرفين.

استمعت من الدبلوماسي الإيطالي جياندومينيكو بيكو وسيط الأمم المتحدة لإنهاء الحرب عن طريقة استخدام صدام أسلحة الدمار الشامل من دون مبالاة. كان جياندومينيكو بيكو مساعد الأمين العام للأمم المتحدة. باعتباري أحد المتابعين للتطورات عن قرب، فقد سمعت باسمه وبدوره الدبلوماسي الذي لعبه بين وزير الخارجية الإيراني علي أكبر ولايتي ووزير الخارجية العراقي طارق عزيز. تعرفت إلى بيكو في اجتماع عقد قرب واشنطن في أواخر تشرين الأول عام 2002 وشاركت فيه كمتحدث. وقبل مرور سنة، في نيسان من عام 2003، تقابلنا في مؤتمر دولي حول الشرق الأوسط عقد في قطر. كنا في فترة اقتراب الحرب العراقية من نهايتها. بعد أن دخلت القوات الأمريكية بغداد، وصلت إلى تكريت مسقط رأس صدام حسين. وفي إحدى ليالي الدوحة التي شنّفنا فيها آذاننا نحو العراق وآخر التطورات فيه، روى لي كواليس المباحثات الدبلوماسية التي أنهت الحرب العراقية الإيرانية عام 1988. شرح لي أن قبول إيران بوقف إطلاق النار كان ناجماً عن استخدام العراق أسلحة كيماوية وبيولوجية بشكل غريب لاسترجاع شبه جزيرة الفاو التي سقطت بيد الإيرانيين. بحسب بيكو، إنّ استخدام هذه الأسلحة غيّر حتى من الطبيعة الحيوية لشبه جزيرة الفاو.

عدت بذاكرتي خمسة عشر عاماً. أنا أيضاً أصبت بخيبة أمل كبرى نتيجة قبول إيران بوقف إطلاق النار مع العراق المعتدي عليها. كنتُ واثقاً من أن الخميني لن يصالح العراق في أي وقت، ومقتنعاً بأن القواعد الدينية ستمنع قائد الثورة من اتخاذ موقف ذرائعي؛ مع أن محمد صادق الحسيني سرب لي معلومة من الداخل في تلك الأيام، وهي أن إيران يمكن أن تقبل بوقف إطلاق النار. اعترضت حينها، وذكرته بفتاوى الخميني المعاكسة تماماً لهذا الأمر، فضحك محمد صادق وقال: "ماذا سيحدث؟ أليس إماماً؟ سيصدر فتوى جديدة، ويقول: تخليت عن فتاويّ السابقة، واعتمدت هذه الفتوى الجديدة، وينتهي الأمر". كأنه يريد أن يقول لي إن تغيير الفتوى بالنسبة للأئمة الشيعة من أبسط الأمور، وقال لي بالفارسية ما سيقوله الخميني وهو يضحك.

عندما لم تستطع إيران تحمل سقوط المزيد من الضحايا نتيجة استخدام صدام الأسلحة الكيماوية والبيولوجية، استخدم الخميني عبارة "تجرعتُ السم"، وضغط حجراً على صدره، ووافق على وقف إطلاق النار بموجب فتوى. التزمت إيران والعراق بقرار مجلس الأمن رقم 588، ووقفت الحرب التي استمرت ثماني سنوات، وحصدت أرواح نصف مليون ضحية.

توقفُ حرب دموية على هذا النحو يعد تطوراً مفرحاً جداً. لا شك أن الأمر هكذا من الناحيتين الوجدانية والإنسانية. أما من الناحية السياسية فكنت أعتبره نهاية الثورة الإسلامية. لقد خرجت الثورة الإسلامية من كونها آخر سلسلة حلقات الثورات الكبرى بعد الثورة الفرنسية عام 1789 والثورة الروسية عام 1917. النتيجة التي لا بد أن تحل بالثورات الكبرى كلها حلت بالثورة الإيرانية عام 1988 بتوقيع وقف إطلاق النار مع العراق.

أصبحت إيران دولة ولم تعد ثورة. خلعت ألبسة "الثورة" وظهر تحتها زي دولة دينية أو "دولة قومية فارسية" بغطاء ديني، أو "دولة شيعية" في جوهرها.

رأيت من خلال آخر التحليلات أن إيران لم تعد تنهج سياسة ثورية، بل سياسة تراعي مصالحها القومية. اكتسبت سياسة واقعية. إيران واحدة من الدول القومية التي نرى الكثير من النماذج الشبيهة بها. الدولة التي تمتلك تاريخاً عظيماً يمتد إلى 2500 سنة، ستراعي مصالحها القومية بغض النظر عمن يحكمها؛ وهذا ما يحدث عموماً عبر التاريخ.

لم تعد إيران ما بعد عام 1988 إيران التي كان قلبي يخفق لها بين عامي 1978-1988.

وقد كان هذا الموضوع محور حديث لنا مع المفكر الإسلامي الإيراني الكبير عبد الكريم سروش حين اجتمعنا في اسطنبول بعد سنين عام 2005. أعرف اسم عبد الكريم سروش جيداً منذ أواسط الثمانينيات. كان النظام الإيراني قد بدأ بالدخول تحت هيمنة كوادر أيديولوجية يمكن تسميتها متطرفة. احتاجت هذه الكوادر إلى أيديولوجية تكسر أثر علي شريعتي الكبير على الجيل الشاب. وهكذا، أُخرج عبد الكريم سروش إلى الوسط. ولكن "المنظر" اختلف بعد فترة مع النظام الذي وثق فيه، ولم يعد يستطيع العيش في إيران. في ما بعد أثر سروش تأثيراً بالغاً على الجماهير التي سُميت "إصلاحية". اضطر سروش للعيش خارج إيران على الرغم من أنه أهم مفكريها وأكثرهم جماهيرية. وعندما جاء إلى اسطنبول عام 2005 كنت قد عدت للتو من طهران. جُمعنا إلى مائدة غداء. وقلت له أثناء الحديث: "لم أكن أحبكم نهائياً. طُرحتم باعتباركم المنظرين لأكثر شخصيات النظام كرهاً بالنسبة إلي. لم يكن يخطر ببالي أن يصل عبد الكريم سروش إلى ما وصل إليه اليوم...".

عندما سألني سروش عما غير رأيي ومشاعري نحو الثورة الإيرانية، أجبته: "وقف إطلاق النار عام 1988. تحولت إيران في نظري حينئذ إلى دولة قومية. تصالحت مع صدام، وانتهت في نظري".

ابتسم الحكيم الإيراني، وقال: "إذاً أنتم فقدتم ثقتكم بإيران لأنكم لم تجدوا فيها الكثير من الثوار، أما أنا فقد خسرت إقامتي هناك لوجود الكثير من الثوار فيها".

مهما يكن، طبعت إيران حياتي بطابع قوي على مدى عشر سنوات. كل علاقة بإيران أو تطور فيها يدور ويدور ثم يرتبط بالعراق. اندلعت الحرب الإيرانية العراقية بين عامي 1980-1988 (حرب الخليج الأولى)، ثم تبعها احتلال العراق للكويت عام 1990. هذا التطور حدث عام 1991 في حرب الخليج الثانية. هذه التطورات المتعلقة بالعراق حملتني لكي أكون مستشار رئيس الجمهورية التركية تورغوت أوزال.

يمكن اعتبار رؤية أوزال لم تتحقق من خلال استمرار صدام حسين بسلطته على الرغم من كسر جناحه في نهاية حرب عام 1991. ولكن حرب عام 2003 لاحقاً أظهرت أن أوزال كان على حق.

تمكنت من رؤية ما لم يتمكن تورغوت أوزال من رؤيته. على الرغم من جهوده التي صبها فقد تحقق عكس ما صبا إليه عام 1991؛ إذ تمكن صدام من المحافظة على نظام بغداد، ولكنه انهار عام 2003، وفقدت

النخبة العربية السنية امتيازاتها في العراق. خرج العراق من مركزية بغداد الشديدة، وأصبح دولة فيدرالية.

لا أدري إن كان الحظ أو المصادفة ما ألقى بي وسط التغيير التاريخي المذهل الذي حدث في الاتحاد السوفييتي وبولونيا وألمانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا وهنغاريا. في نهاية عام 1987، أنهيت عامي الثامن في جريدة جمهوريت، ووجدت نفسي في جريدة حرّيت. وجهني تشتين إمَتش رئيس تحرير الجريدة نحو أوروبا الشرقية. قضيت قسماً مهماً من وقتي في أوروبا الوسطى والشرقية وفي الاتحاد السوفييتي في ما بعد. خاصة في الفترة الأخيرة من الحرب الباردة؛ بين انهيار جدار برلين عام 1989 وتفتت الاتحاد السوفييتي عام 1991.

خفت زياراتي للشرق الأوسط بعد انتهاء الحرب الإيرانية العراقية، وإنهاء الحرب الأهلية اللبنانية (انتهت الحرب الأهلية اللبنانية التي دامت أربع عشرة سنة بموجب اتفاق الطائف عام 1989). طلب مني تشتين إمتش أن أجوب على دول أوروبا الشرقية وأتابع الدول التي استهلك فيها النظام الشيوعي صلاحيته. بدأت بجولة دول أوروبا الشرقية الاشتراكية من دون رغبة في البداية؛ ظناً مني أنه أراد أن يبعدني عن الشرق الأوسط، ولكنني انسجمت في عملي خلال فترة قصيرة، وبدأت أستمتع بكوني هناك في تلك المرحلة التاريخية. باعتباري ناشطاً ماركسياً يحب قراءة التاريخ خرجت معلوماتي حول التاريخ القريب لهذه الدول من مخزون عقلي، ودبت فيها الحياة. استمتعت كثيراً بوجودي في بودابست وبراغ وبرلين الشرقية ووارسو وموسكو وحتى في تيرانا. كانت تعاش هناك تطورات تغير مجرى التاريخ.

كنت في برلين الشرقية ليلة هدم جدار برلين، وتذوق الناس طعم الحرية، وعبورهم إلى الغرب، وعودتهم في الصباح. هُرعت إلى براغ يوم قيام الثورة المخملية. تنـزّهت في محيط مسرح (Magica Laterna) الذي استخدم مقراً عاماً لقيادة الثورة؛ حيث يعرج فاتسلاف هافيل يومياً، وأحد المتظاهرين في ساحة فاسلافسكا. اتخذت لي مكاناً بين المستمعين لكلمة رئيس الحكومة مازوفيسكي من البرلمان البولوني بعد سقوط النظام الشيوعي. كنت نزيل فندق مزهدونارودنيا القريب من برلمان روسيا الاتحادية الذي يسمى "البيت الأبيض" حيث قاوم يالتسن الانقلاب على غورباتشوف في آخر يوم من حياة الاتحاد السوفييتي. حُظر الحزب الشيوعي السوفييتي، ونظمت تظاهرة انطلقت من إسطبلات تربية الخيول القريبة من الساحة الحمراء.

كنت وسط المتظاهرين الديمقراطيين الدستوريين والنقابيين الأحرار ورجال الدين الأرثوذكس والناس من كل الألوان والأيديولوجيات الذين ملأوا شوارع موسكو في أول مظاهرة ما بعد الشيوعية وكأنهم خرجوا من نفق الزمن العائد إلى ما قبل عام 1917.

كنت أول صحفي تركي وطئت قدماه أراضي أذربيجان وجورجيا وقرغيزيا وكازاخستان وأوزبكستان، وتركمانستان عندما نالت استقلالها.

أثرت عليّ تأثيراً هاماً الفترة التي قضيتها في دول المعسكر الاشتراكي بين عامي 1988-1991 انتهاء بسقوط الاتحاد السوفييتي. بعد معرفتي بنظامي البعث شرق أوسطيين عرفت حلفاءهما الأوروبيين. كنت شاهد عيان على كيفية نظر الناس إلى الأنظمة الشمولية ذات الحزب الواحد مهما كان شكل تعريفها بنفسها، ومهما تخفّت خلف شعارات مزركشة. اكتسبت حدساً قوياً نحو الأنظمة البوليسية، وبالقدر نفسه اكتسبت مناعة تجاهها.

قررت أنه يجب عدم التسامح مع أي نظام شمولي.

لم أعش أي نكوصٍ بآرائي السياسية بعد الحرب الباردة، وقررت أن هويتي الثقافية هي "الإسلام"، وهويتي الأيديولوجية السياسية هي "الديمقراطية والحرية".

كان لموقفي المناهض للشمولية بوضوح، ورغبتي الأكيدة بسقوط صدام تأثير كبير بالتقائي تورغوت أوزال عند منعطف واحد؛ عندما كانت العراق تتجه نحو الحرب عام 1991، وبتقاطع رؤانا الاستراتيجية، والانفتاح على كورد العراق، والاهتمام بالقضية الكوردية في تركيا.

كنت على صلة بالمعارضة العراقية على مدى سنوات طويلة. ولكنني كنت مهتماً جداً بسقوط نظام شمولي قابع بجوار تركيا في الشرق الأوسط.

كنت على قناعة بأن سقوط أنظمة الشرق الأوسط، وبشكل خاص نظامي العراق وسورية سيفتح الباب أمام حركة التاريخ في المنطقة.

كل هزة تاريخية كبرى مركزها أوروبا في القرن العشرين انعكست على الشرق الأوسط، وساهمت بتشكيله. فقد اندلعت الحرب العالمية الأولى بين دول أوروبا الكبرى، وكانت نتيجتها إعادة رسم الخارطة الأوروبية. خريطة الشرق الأوسط أيضاً رسمت بعد تلك الحرب. قُسمت الأرض التي عاشت في ظل العثمانيين أربعة قرون إلى العراق وسورية ولبنان والأردن وفلسطين والسعودية والكويت، وأُعطيت شكلاً جديداً. اندلعت الحرب العالمية الثانية بين الدول الأوروبية الكبرى. وأعيد رسم خريطة أوروبا من جديد، وأضيفت دولة إسرائيل إلى خريطة الشرق الأوسط على قسم من أرض

فلسطين. الحرب الباردة أيضاً حرب على المستوى العالمي؛ مثلها مثل الحربين العالميتين بالضبط. وبانتهائها تغيرت الخريطة الأوروبية مرة أخرى. فقد توحدت الألمانيتين بعد أن قسمتا إبان الحرب العالمية الثانية. وخرج من زوال الاتحاد السوفييتي بالإضافة إلى روسيا كل من أوكرانيا وبيلاروسيا ومولدافيا وليتوانيا وأستونيا، وانضمت إلى خريطة أوروبا الجديدة. انقسمت تشيكوسلوفاكيا إلى كل من جمهورية التشيك وسلوفاكيا. وولد من يوغوسلافيا كل من سلوفانيا وكرواتيا ومقدونيا والبوسنة والهرسك وصربيا والجبل الأسود، وفي القرن الحادي والعشرين ولدت كوسوفو.

من النماذج التاريخية القريبة، يمكن الاستنتاج أن الشرق الأوسط لن يبقى على ما هو عليه عند رسم الخريطة الأوروبية من جديد إبان الحرب الباردة. مع تغير القوالب الأوروبية طرحت قضية تغيير قوالب الشرق الأوسط. تمثل العراق القالب شرق الأوسطي المتشكل إبان الحرب العالمية الأولى.

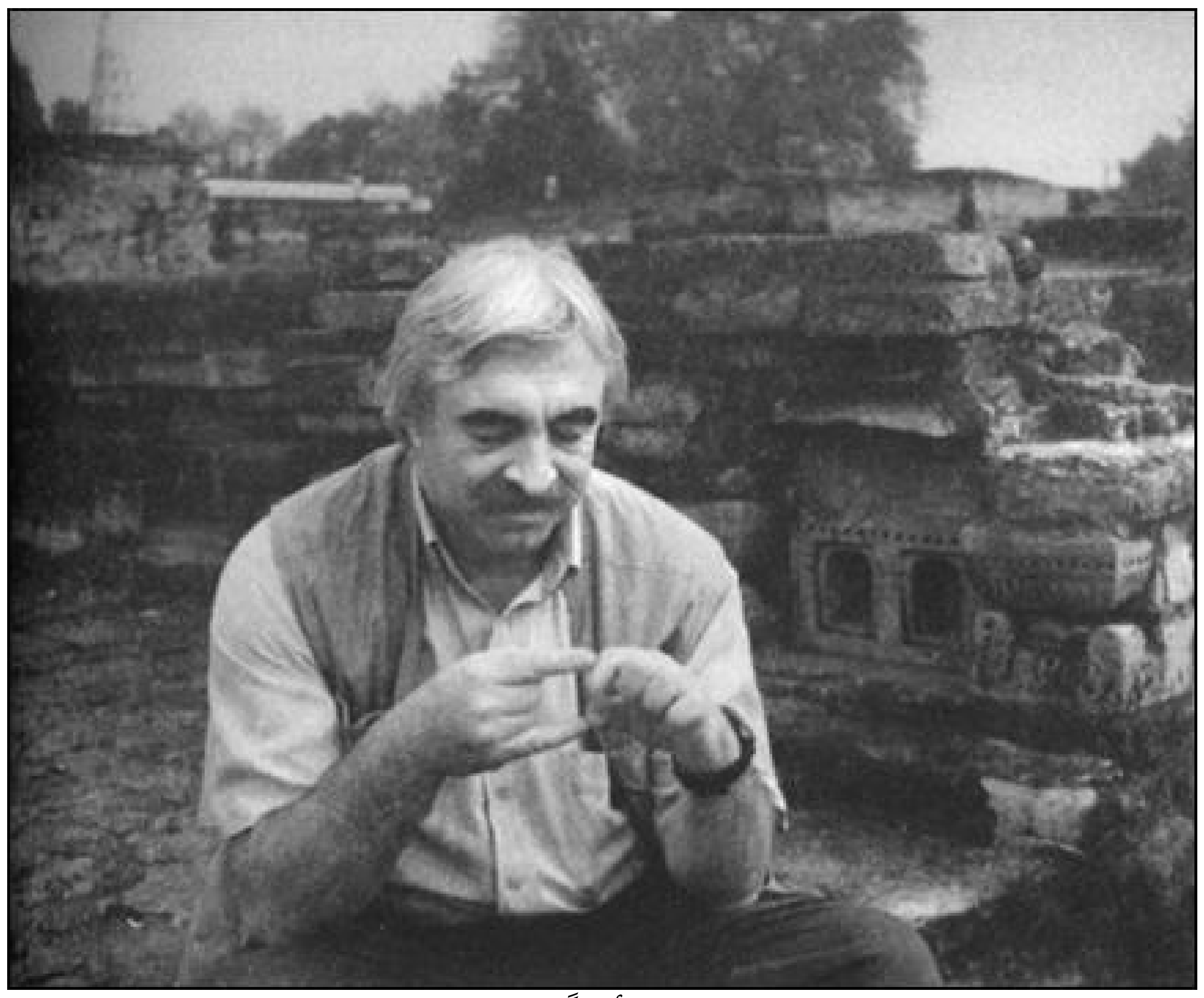
معارضة الحرب ضد صدام الذي احتل العراق عام 1991 لا تعني سوى عدم التمكن من الإبقاء على الشرق الأوسط كما هو، والأهم من هذا أنها دفاع لا ضرورة له عن حالة من الجمود. توصلت إلى هذه الرؤية أثناء بحثنا - تورغوت أوزال وأنا - عن صيغة من أجل انفتاح تركيا على كورد العراق.

حسنٌ، وماذا في عام 2003؟

هذا ما كان في عام 2003. كنت أنتظر ظهور الكورد على مسرح التاريخ بشكل لم يظهروا فيه على هذا النحو من قبل.

ودخل الكورد مسرح التاريخ عام 2003 بشكل لم يدخلوه من قبل.

XIV - اللغز الكبير



... بروميتيوس المكبل بالسلاسل أيضاً يصرخ مع المجموعة: "كل ما هو موجود عادل وناشز عن العدالة في آن واحد".

هل هناك ما هو أصعب على إيفان كارامازوف من هذه الحقائق التي تقضي بأن يقف بحزم مع العدالة ضد الحقيقة عندما لا يتطابقان؟

هذا هو القرار غير الأخلاقي الذي لم يكن البطل التراجيدي مضطراً لاتخاذه. التراجيدية ليست تضحية بالحقيقة باسم العدالة، أو بالعدالة باسم الحقيقة؛ لأن القوى المتصارعة في التراجيدية متساوية بالشرعية، وهي أخلاقية بالقيمة نفسها أيضاً بالمعنى العميق.

(كارلوس فونتس، هذا ما أعتقد به -حياة الكاتب من الألف إلى الياء، 2002)

أججت حرب العراق عام 2003 رفضاً عالمياً واسعاً جداً، وكان رفضاً لا يمكن مقارنته مع رفض حرب عام 1991. جاءت الحرب في فترة زمنية تعرضت فيها الولايات المتحدة الأمريكية لأكبر عدوان إرهابي في تاريخها

بتاريخ 11 أيلول 2001. بعد عدوان 11 أيلول الذي حمل توقيع القاعدة، احتلت الولايات المتحدة أفغانستان ثم العراق. إن الحجج العديدة التي تذرّعت بها الولايات المتحدة لتبرير اتخاذها ذلك القرار؛ مثل امتلاك العراق أسلحة دمار شامل، وظهور بطلان هذا الادعاء، ووجود جورج دبليو بوش الذي يكسب الأعداء أكثر من الأصدقاء على رأس الإدارة الأمريكية أرخت كلّها بظلال الشك على الحرب منذ البداية. هذا ما جعل الرأي العام العالمي يشكك بمشروعية الحرب بشكل لم تشهده حربا أفغانستان والخليج عام 1991.

في الحقيقة، إن سبب اندلاع حرب العراق عام 2003 وهدفها بقيا سراً، ولم توارب ستارة هذا السر على الرغم من كتابة أطنان من الكتب والمقالات حوله. قليلة جداً هي الحروب التي صدر حولها هذا العدد الضخم من المقالات والكتب.

وقع تحت يدي عدد كبير منها. قرأت آلاف الصفحات؛ بدءاً من كتب المذكرات أو المقالات التي كتبها المسؤولون الأمريكيون المساهمون في قرار الحرب، ووصولاً إلى كتب الصحفيين الأمريكيين الذين واكبوا الحرب من العراق، مروراً بما كتبه الإنكليز.

اعتماداً على خبرتي وقراءتي لآلاف الصفحات حول الموضوع، يمكنني أن أعتبر كتاب "احتلال العراق: الانتصار في الحرب وخسارة السلام" لعلي علاوي على قمة تلك الكتب.

علي علاوي عراقي شيعي. تلقى تعليمه المتوسط في إنكلترا، وتعليمه الجامعي في الولايات المتحدة الأمريكية. بعد حياة منفى دامت ما يزيد عن ثلاثين عاماً، عاد إلى بلده في 11 أيلول 2003. شغل علي علاوي منصب وزير دفاع مدني في أول حكومة شكّلها العراقيون بعد الحرب، ثم منصب وزير المالية.

يعتبر الفصل المتعلق بأسباب الحرب، وكيف بدأت، وبأية آلية قرار اتخذت من كتاب علي علاوي أهم ما كتب عن حرب 2003 في العراق، وأكثر الرؤى إقناعاً.

كنت على علم بكل الذرائع التي أدت إلى نشوب الحرب. بالنسبة إلى البعض، إن السبب هو نوايا الإمبريالية بوضع يدها على العراق صاحبة أكبر مخزون نفطي في العالم مع السعودية، وكانت هذه قناعة سائدة على نطاق واسع. الكثيرون ممن اعتبروا أنفسهم حكماء عصرهم طرحوا هذه الحجة وكأنها حقيقة لا تقبل الجدل. في أحد اللقاءات في اسطنبول التي جمعتني

بتيمور غضبان الذي عمل وزيراً للنفط بعد الحرب، سألته عن رأيه بهذه الفرضية. لم يتوقف عندها، وقال إن هناك عواملَ معقدة جداً أدّت إلى نشوب الحرب، وهكذا طرح علي علاوي القضية.

الادعاء بأن الهدف الوحيد للحرب هو وضع الإمبريالية يدها على بترول العراق دحضه رئيس الحكومة البريطانية أثناء الحرب طوني بلير الذي يُعتبر "أحد أولئك الإمبرياليين" في سيرته الذاتية المعنونة: "رحلة - حياة سياسية": "يعطي موضوع البترول ادعاء آخر: على الرغم من أن مقولة: كانت الحرب كلها من أجل البترول تفسير غير منطقي، فقد انتشرت بشكل رهيب، وحتى إن هناك من يصدقها إلى اليوم. في الحقيقة، لو أن مشكلتنا كانت البترول لكنا قد توصلنا إلى مصالحة مع صدام فوراً. كان صدام جاهزاً لتقديم تنازلات أكبر بكثير مقابل رفع العقوبات وتخليصه من تهديد مفتشي أسلحة الدمار الشامل. بحسب جزء من قرار الأمم المتحدة بعد الاختلاف عام 2003؛ شكلنا آلية تضمن وصول قسم من عائدات البترول للشعب العراقي. اليوم، وبعد عشرات السنين تنفق تلك النقود لأول مرة على البنية التحتية هناك؛ من مدارس ومستشفيات. وهذا هو سبب ارتفاع حصة الفرد العراقي من الدخل القومي ثلاثة أضعاف عام 2010 عما كانت عليه عام 2003". (ص 382، 383، بتصرّف)

هناك أطروحات عديدة حول أسباب الحرب جاءت بالتوازي مع حجة شهية الإمبريالية لبترول العراق.

أكثر الحجج رواجاً هي عمل الولايات المتحدة الأمريكية على تنفيذ "مشروع الشرق الأوسط الكبير".

بحسب هذه الأطروحة، إن الحرب التي فرضها المحافظون الجدد الموالون لإسرائيل تهدف إلى تمتين وضع إسرائيل بهدم العراق. غير هذا، إنّ المحافظين الجدد يهدفون إلى تغيير الأنظمة في المنطقة لبسط النفوذ الأمريكي، ولتنفيذ مشروع الشرق الأوسط الكبير.

الذين يصدقون هذا الادعاء في الشرق الأوسط كثيرون، ويمتدون من الإسلاميين إلى اليساريين مروراً بالقوميين الوطنيين.

ولكن أي طرح حول ذرائع تلك الحرب لم يكن مقنعاً أو مستنداً إلى قاعدة متينة. لعل حرب 2003 ستبقى لغزاً في الأدبيات التاريخية.

لهذا السبب، تحمل هذه الأسطر من مدخل كتاب علي علاوي أهمية:

"تعتبر السيطرة على العراق واحتلاله نموذجاً نادراً لتعقيد دوافع الحروب وغموض أهدافها في تاريخ الحروب والصراعات. طرحت سلسلة غير

متناهية من الأسباب والنتائج لتفسير هذه الحقبة الزمنية الأكثر استثنائية من التاريخ المعاصر، ولكن أياً منها لم يقدم جواباً مقنعاً وشاملاً. لماذا تتوجه قوة العالم العظمى الوحيدة بجنودها ومصادرها المالية الهائلة، وتعبر المحيطات وتستقطب معارضة هائلة لتسقط ديكتاتوراً ظالماً ونظاماً وحشياً؟

انطلقت عملية التفتيش لإيجاد أسلحة صدام للدمار الشامل المخبأة، ولكن الجاسوس مكشوف، وحين رأى أعضاء التحالف أنهم لن يجدوا شيئاً، نُسي هذا الموضوع فوراً. ولم تكن هناك حماسة للحصول على الديمقراطية؛ فليس لدى هذا الشعب (العراقي) أي مؤشرات أو دلائل على جوعه للحقوق الأساسية والحريات الغربية... مقابل هذا، كان العالم يتوقع عملية نهب ليس لبغداد فقط بل للمنشآت النفطية البعيدة جداً، وخطوط نقل الطاقة. إن الاعتداءات العشوائية غير القابلة للتفسير على أملاك الدولة والوزارات والمكتبات، وحتى حرق الملاعب الرياضية بدم بارد، ومشاهد الغنائم التي تُحمّلها الجموع على سيارات وتجري خلفها كاميرات التلفزيونات لم تكن تصور شعباً شاكراً تخليصه من الظلم. استمر هذا المشهد الذي يصور الانقطاع بين الفكر القائم حول العراق والشعب العراقي لأشهر وسنوات بعد سقوط صدام... لم يكن المدافع - أياً كان - عن نظام صدام يستطيع أن يفعل شيئاً بعد الحرب سوى الوقوف خجلاً أمام المقابر الجماعية التي كانت تكتشف كل يوم. كانت بربرية الدولة البعثية تبرز بكل عريها. لقد "لخبط" العراق عقول المحللين مرة أخرى...". (علي علاوي/ The Occupation of Iraq, Yal University Press, 2007 /المقدمة ص 1-2، بتصرّف)

قدم الكاتب السوري العلوي الشهير أدونيس تحليله النفسي لمشهد الشعب العراقي الذي صوره علي علاوي في جريدة الحياة الصادرة في لندن بتاريخ 28 آب 2003 على النحو التالي:

"تاريخياً، تمثّلت عبقرية الحاكم العراقي - كما شخّصها على نحوٍ فريدٍ صدام حسين - في الفصل بين الإنسان وقُدْرته على التحرر، أو في تعطيل طاقة التحرر. كانت السياسة العراقية، كما مارسها الطاغوت الصدّامي، فناً هائلاً في تعطيل الحياة نفسها، وفي تعطيل الإنسان... في زمن ذلك الطاغوت العراقي، لم يكن شيءٌ يخصّ الفرد العراقي، يخصّه فعلاً: لا حياته، ولا فكره، ولا عمله، ولا جسده. كانت هذه كلها مُلكاً خاصّاً للطاغوت. فبدلاً من أن يحيا الإنسان العراقي ويفكر ويعمل كما لو أنه محكومٌ بالحرية، كان على العكس يفكر ويعمل ويحيا كما لو أنه، على العكس، محكومٌ

بالعبودية.

لا أحد يقبل الاحتلال. لا العراقيين يقبلون به ولا غيرهم. لا العرب ولا غير العرب. رفض الاحتلال أمر طبيعي، وليس مزيّةً وطنيةً تُضاف إلى مزايا الإنسان. فلا يفخرنَّ العراقيون برفضهم الاحتلال وكأنه شيءٌ يتفردون به، أو كأنّه البطولة الكاملة. وعليهم أن يدركوا أن هذا الرفض ناقصٌ؛ وطنياً وإنسانياً وثقافياً، إذا لم يكن جزءاً من رفضهم الاحتلال في المطلق؛ داخلياً وخارجياً. الذين يسكتون على احتلال داخلهم، وعلى الاحتلال بِحَصْر المعنى، خصوصاً إذا قام به نظامهم، هم آخر من يحق لهم التشدّق بمقاومة الاحتلال الخارجي.

الاحتلال الخارجي، اليوم، للعراق جزءٌ عضويّ من المرض العراقي، وليس المرض كلّه. وسوف يبقى هذا الاحتلال قائماً، حتى بعد زواله ظاهرياً، بشكلٍ أو بآخر، بطريقةٍ أو أخرى، ما دام المرض العراقي قائماً...

لم يكن الاحتلال الداخلي للعراق - الاحتلال الذي قام به الطاغوت الصدّامي - مجرد احتلال للجغرافيا، وللأرض، وللنظام ومؤسساته، وللبلاد وثرواتها، وإنما كان احتلالاً للجسد والروح والعقل؛ احتلالاً لكل بيت، لكل رجل، لكل امرأة، لكل طفل. كان العراق بكلّ طاقاته ملكاً شخصياً للطاغوت الصدامي. هذا كله لا يجوز نسيانه، فيما نرفض جميعاً الاحتلال الخارجي. الذين ينسونه، أو يرجئون التفكير فيه، أو يقبلون به، أو يستفيدون منه، هم أقلّ العراقيين جدارة بهذا الرفض أو هذه المقاومة". (بتصرّف)

كيف اتخذت الولايات المتحدة قرار "الاحتلال الخارجي" - حسب تسمية أدونيس - وما الذي لم تعرفه ولم تره؟

الملاحظة الأكثر دقة، والتحليل الأعمق يأتيان في سطور علي علاوي أيضاً:

"خُطي إلى تلك الحرب بأجواء النصر برفقة عزف الترومبيت. لم يكن ثمة شك بمن سيحقق النصر. لم تقتصر الرغبة بالحرب على واشنطن، بل يمكن رؤيتها لدى جزء كبير من الرأي العام الأمريكي. سُدَّ الطريق أمام كل خيار خارج الحرب أو حُيّد...

كانت السياسة الخارجية الأمريكية تنظر إلى العراق من زاوية موشور محددة منذ زمن طويل...

بقدر ما كانت حماية المصالح الغربية وتطويرها سبباً في الحرب الإيرانية العراقية (1980-1988) بقدر ما ارتبطت بأفكار إقليمية. رأت

الولايات المتحدة الأمريكية في صدام أهم من يحول دون تصدير الثورة الإسلامية ويمنع انتشارها إلى الخليج، وبهذا شكّل موقعاً غير مباشر لها. بعد الحرب الإيرانية العراقية، تخلت الولايات المتحدة الأمريكية عن سياستها مع العراق، وعن ذلك البلد بجيشه المتضخم وديونه العالمية الكبرى وقيادته التي شعرت بأنها لم تنل ما تستحقه مقابل التضحيات التي قدمتها من أجل الآخرين فقاطعت العالم. في تلك الفترة المظلمة القصيرة ما بين 1988-1990 سمحت الولايات المتحدة بخداع العراق وتركه بوضع أليم؛ إلى أن ارتكب الذنب العظيم باحتلاله الكويت؛ حليفة الولايات المتحدة منذ زمن طويل، وإحدى أهم الدول المنتجة للنفط في المنطقة، وضمِّها إليه. حرك الولاياتِ المتحدة هذا التهديدُ الكبير لمصالحها ومصالح الغرب الحياتية. كان الهدف إخراج القوات العراقية من الكويت، وتطبيق استراتيجية "الحصار" على العراق. فبموجب هذه الاستراتيجية، يُجرَّد النظام من سلاحه، ويُعزل، ويُضعف، ويخرج من كونه تهديداً إقليمياً. دعم الولايات المتحدة الأمريكية الإدارة الذاتية الكوردية في مواجهة الحكومة المركزية، واعترافها بمختلف التنظيمات العراقية المعارضة أقلقا نظام بغداد كثيراً...

وصل جورج دبليو بوش إلى الحكم عام 2001. تدفّقُ المستشارين والمسؤولين المحافظين الجدد على الإدارة، وتعيين المتطرفين الأمريكيين في المواقع الحساسة، وتأثير اليمين الديني على بوش شخصياً فرضت كلها معاً تغييراً جذرياً في السياسة الأمريكية نحو العراق. لم تحدث تغييرات أساسية في السياسة الأمريكية تجاه العراق على الرغم من اشتداد العمليات ضد نظام صدام. كان لا بد من الهجوم على برجي التجارة والبنتاغون في 11 أيلول 2001 من أجل فتح تصدعات في أبراج السياسية، ودخول مؤيدي "المقولات البديلة" عبر تلك التصدعات. حينئذ فقط، تعرضت سياسة الشرق الأوسط وخاصة سياسة العراق إلى تغيير جذري وطويل.

بعض المفكرين السياسيين الذين أُبعدوا عن آلية القرار في شؤون الشرق الأوسط والإسلام خلال الثمانينيات والتسعينيات أصبحوا مراكز جذب جدية وراء البيت الأبيض. كُتب الكثير عن تأثير المحافظين الجدد، ولكن الحقيقة هي أن هؤلاء مجرد تيار من التيارات المختلفة، وحتى المتصادمة أحياناً. يمكن أن نذكر منهم على سبيل المثال وليس الحصر الأمميّين من أنصار ويلسون الذين يدافعون بشكل فعال عن نشر الديمقراطية والحريات الأمريكية في العالم، والمسيحيين اليمينيّين برؤيتهم للقيامة، والقوميين الأمريكيين الأقوياء الذين يدفعون باتجاه استخدام قوة الدولة العظمى من أجل

مصالحهم الضيقة.

تكنّ هذه القوة الصاعدة لتغيير روح العصر الحقد، والكراهية لليبرالية الناعمة التي ملأت المجتمع الأمريكي وثقافته في الستينيات والسبعينيات، وشكلت قوتها المناهضة للإصلاح. كل مركز من هذه المراكز وجد إمكانية تحريك أفكاره الضيقة والمحلية في عالم ما بعد 11 أيلول، وكلهم كانوا في مركز آلية القرار الرسمي، وأصبحوا مركز خطط العراق. بعض العناصر كانوا قلقين فعلاً من امتلاك العراق أسلحة دمار شامل، واعتبروها الأرضية الشرعية الوحيدة لتغيير نظام عدواني. لم يكن هذا النوع من المصالح القومية مصالح قومية أمريكية فقط، بل كانت مصالح قومية إسرائيلية أيضاً، ولعبت دوراً حاسماً بقرار احتلال العراق. وكانت لدى الآخرين أطروحات تصل إلى درجة زرع الطموحات الديمقراطية الليبرالية مقابل الإسلام المتطرف في الأرض العربية الصخرية القاحلة.

كان لا بد من قوة خيال لجمع الخيوط المختلفة وربطها لقلب السياسة الأمريكية رأساً على عقب واحتلال العراق...". (علي علاوي، المصدر السابق، ص 2-4، بتصرّف)

لم أجد ما يُلخص حقبة زمنية واسعة ويقيّم السياسة الأمريكية موضحاً المتغيرات التي قادت إلى احتلال العراق، وتعقيد بنية واشنطن، ومرحلة الحرب وما بعدها على هذه الدرجة من الجودة بين آلاف الصفحات التي قرأتُها. بعد ذلك، شرح علي علاوي الدور غير المباشر لليو شتراوس صاحب النفوذ الكبير بتأثيره على مريديه في البيت الأبيض باتخاذ قرار الحرب، وبعد أن بيّن تأثير رؤية برنارد لويس على النخبة المحاربة في الإدارة الأمريكية شرح شعور الأمريكيين بالتوتر في العراق بعد الحرب:

"كان الجهل بما في العراق قبل الحرب مبجلاً في واشنطن الرسمية. لم يكن لدى مؤيدي الحرب بمن فيهم المحافظون الجدد ومراكز الأبحاث التي لعبت دور البارود الثقافي لتبرير مشروعية الحرب أدنى معلومات حول البلد الذي سيحتلونه. التفت مراكز الدراسات حول مكتب نائب الرئيس، وانبهر الباحثون والأكاديميون بالرؤى التي تتناسب مع قناعاتهم الذرائعية أو تطرفهم. كان ثمة فهم خاطئ أساسي حول طبيعة المجتمع العراقي وتأثير الديكتاتورية عليه عبر عشرات السنين. لم يكن لدى أحد من مفكري مراكز البحث أية معلومات؛ ولو بالمصادفة حول العراق. لم تكن حتى لدى وزارة الخارجية التي من المفترض أن تكون قلعة التفكير الواقعي معلومات حول البلد، وطرقت باب استنتاج بعض الأفكار عن طريق الاستطلاع حول ما

يمكن أن يحصل بعد الحرب. كان الجيش الأمريكي هو الجهة الوحيدة التي أمّنت معلومات صحيحة؛ لأنه يعرف نوع الحرب التي سيخوضها، والجيش الفاقد للمعنويات الذي سيقابله ولن يستطيع الصمود في وجهه.

لم يكن عدم امتلاك نظام تحليلي غني حول البلد وعدم امتلاك خبرة فيه سبب هذا الوضع المؤلم فقط. إذ إن دفع كل ما يتعلق بالعراق جانباً لتغدو متعة متعمدة كان عادة سائدة... لم تكن المعارضة العراقية أو من له تواصل مع واشنطن من تلك المعارضة في وضع أفضل. إذ لم تقدّم المجموعات التي تعيش في المنفى ولكل منها هدف وجدول أعمال مختلف معلومات أو تقييمات معقولة حول الشروط العراقية الداخلية، ولم تستطع أن تقدم. إما لأنّها كانت محلية جداً بهواجسها، أو تواقة جداً لتسلُّم السلطة بعد إسقاط صدام. لم تكن لتلك المجموعات أية مصالح في إبراز مشاكلها ونقاط ضعفها التي تزعزع تصميم الولايات المتحدة. أما إنكلترا شريكة الأمريكيين الأخرى في التحالف الذي يبدو أكثر عقلانية، فلم ولن تلعب دور أثينا في الإمبراطورية الرومانية الأمريكية. التحمت إنكلترا والولايات المتحدة في توازن تنسيق القوى، وخافتا إلى درجة عُقَديّة من تخريب توازنات الشرق الأوسط القائمة. كان رئيس الحكومة طوني بلير متأكداً من ضرورة إظهار بريطانيا حليفة مخلصة للولايات المتحدة الأمريكية. وعندما يتطلب الوضع، لم يكن يبالي باتخاذ موقف على يمين الرئيس الأمريكي المؤيد للحرب. كان يرى في نفسه لجاماً لحصان بوش الوحشي، ولكن هذا الحصان كان يندفع نحو الأمام. وضع الإنكليز مخاوفهم كلها جانباً... الجهل بالظروف الداخلية العراقية كان مثل دفق شلال يصب سلسلة نتائج لم تكن متوقعة من قبل...". (علي علاوي، المصدر السابق، ص 7-8، بتصرّف)

أنا أيضاً كنتُ من بين الذين قصدهم علي علاوي بجمله المدهشة، الذين يشتركون "بجهلهم" ما سيحدث في العراق بعد الحرب. ينبغي أن أعترف، وخاصة أن واحداً مثلي حمل يافطة الخبير الأول بشؤون الشرق الأوسط، وقضى مع المعارضة العراقية قبل حرب 2003 حوالى ربع قرن لن يكون "الجهل" عذراً له.

الأكثر من هذا أنني قبل فترة قصيرة جداً من حرب 2003 كنت في مراكز واشنطن للدراسات التي تحدث عنها علاوي، ولم أستطع ملاحظة الجهل الذي صوره علاوي في موضوع العراق.

عندما أمّنت منحة لدخول مراكز دراسات واشنطن في مطلع التسعينيات، وضعت لنفسي هدفاً مهماً. كنتُ على قناعة بأنني وصلت إلى

أقصى ما يمكنني الوصول إليه بخمسة عشر عاماً من الخبرة الصحفية. انتهت الحرب الباردة، وبقيت الولايات المتحدة قطباً وحيداً في العالم. كنتُ مندفعاً لدخول مراكز الدراسات في العاصمة الأمريكية لسنتين؛ واضعاً مسافة بيني وبين العالم عموماً وتركيا خصوصاً، كما كنت مندفعاً للتفرّغ للبحث والقراءة في مركز ثقافة "روما الجديدة". كان هذا الأمر هو الوحيد الذي طلبت من رئيس الجمهورية تورغوت أوزال أن يتوسط لي فيه.

في أحد أيام موجة لجوء الكورد العراقيين إلى الحدود العراقية التركية (1991) والذين بلغ عددهم حوالى نصف مليون لاجئ، استدعاني تورغوت أوزال إلى القصر الرئاسي قرابة منتصف الليل. كنت قد استقلت حديثاً من جريدة غونش. فقد أفلس أصيل نادر صاحب الجريدة بسبب انهيار بورصة لندن، وكانت الجريدة تتجه نحو الإغلاق. عندما وصلت، سألني عما إذا كان خبر الاستقالة صحيحاً، فأكدت الأمر. سألني: "هل لديك بديل؟". أجبته: "لا، ولكنني أنوي على أمر ولا أعرف كيف أفاتحكم فيه. أريد أن أذهب لأعمل في أحد مراكز الدراسات في واشنطن، وأراقب العالم وبلدي من هناك. إذا وجدتم الأمر مناسباً، فسأرجوكم أن تمنحوني رسالة توصية للحصول على منحة من أحد تلك المراكز". خرجت كلمة منحة من فمي بالإنكليزية: " fellowship ".

نظر تورغوت أوزال إلى وجهي، وقال: "كنت سأقترح عليك العمل معي".

- وما هو العمل؟
- ستكون مستشاري.
- ماذا تنتظرون مني؟

أشار أوزال نحو خريطة الشرق الأوسط الكبيرة المعلّقة في مكتبه، والتي تظهر تركيا في مركزها، وأجاب عن سؤالي: "لا أحد يعرف هذا المكان أفضل منك. أريدك أن تفعل ما كنت تفعله من قبل، ولكن أن توجه عملك لي مباشرة باعتبارك مستشاري".

بدا اقتراح العمل بالقرب من تورغوت أوزال إلى هذه الدرجة جذاباً، فخرجت من لساني هذه الكلمات: "أشعر بالفخر في العمل معكم. ولكن العمل في مراكز الدراسات بالنسبة إلي مهم جداً، وهو نوع من الهجرة. والهجرة تتم في هذا العمر، فأنا في النصف الأول من العقد الرابع من عمري. ولدي خبرة طويلة، وإذا مد الله بعمري فأمامي بقدر ما عشت. سأذهب للاستفادة من إمكانيات أمريكا وأعود إلى بلدي مسلحاً بمعارف

جديدة. ضعوا نفسكم مكاني. لقد ذهبتم إلى واشنطن والبنك الدولي عندما كنتم في مثل سني الآن تقريباً، ووصلتم إلى هذا الموقع بعد عودتكم. رجائي منكم الآن أن تضعوا نفسكم مكاني، وأن تفكروا من أجلي بصفتكم أخاً كبيراً لي ويريد مصلحتي. ماذا ينبغي أن أفعل؟".

وجّه تورغوت أوزال إصبعه نحو الخريطة ثانية، وقال: " fellowship هناك و action هنا، الخيار خيارك". ما قصده: "المنحة هناك، والعمليات هنا".

عندما استخدم كلمة " action " أذكر أنها خرجت بشكل ممازح؛ وكأنه يقول: "ها هي البئر وها هو الغطاس".

كنا واقفين أمام باب مكتب رئيس الجمهورية. بعد توقف لا يتجاوز ثانية أو ثانيتين، مددت يدي من دون أن أقول شيئاً. صافحني، وخرجت من فمه عبارة: "مبروك يا عزيزي، بعد العيد أعمل اللازم". في اليوم التالي بدأت عطلة العيد. قبيل خروجي، نظرت إلى الساعة المعلقة على الجدار بطرف عيني. كانت تشير إلى الثانية عشرة ليلاً. أنا الفدائي الفلسطيني السابق صرت مستشاراً لرئيس الجمهورية التركية.

بعد سنوات، وفي أجواء تدخل 28 شباط 1997 العسكري البائس ونشري اسمه بين الناس "انقلاب ما بعد حداثي"، وبدء الحملة التي شنتها هيئة الأركان العامة عليّ، دبت الحياة بهدفي الذي هجرته قبل سنوات. تعلقت بفكرة الذهاب إلى واشنطن والعمل في مركز دراسات من أجل الابتعاد عن تركيا. دُعيت إلى واشنطن لإلقاء محاضرة حول التطورات في تركيا في تموز من عام 1998. خلال فترة إقامتي هناك حصلت على معلومات حول كيفية التقديم، كان عليّ أن أقدم مشروعاً من أجل الحصول على منحة.

انتقلت إلى نيويورك، وأغلقت على نفسي في بيت يتألف من غرفة واحدة تسكنه ابنتي التي كانت تتدرب هناك. كتبتُ مشروعي على مدى أيام. بعدئذ ذهبت إلى مصيف البروفيسور كمال قارباط في لونغ آيلند. أخذ الأستاذ كمال مشروعي، وحسنّ من إنكليزيته، وأضفى على مضمونه مهارة. بسبب ظروف تلك المرحلة، من المحتمل أن يكون عنوان مشروعي سبباً لقبوله: " Towards Democracy with Islam/ نحو الديمقراطية مع الإسلام – تركيا في القرن الحادي والعشرين".

كان حزب الرفاه قد حُظِر في تلك الأثناء، وطيب أرضوغان في السجن. شمرنا عن سيقاننا – كمال وأنا – وسرنا حافيين على الشاطئ

الرملي، ومياه المحيط تداعب أقدامنا ونحن نتكلم عن طيب أرضوغان واحتمال وصول حزب إسلامي إلى السلطة بقيادته.

لعلنا كنا في تموز من عام 1998 خياليين أو صاحبي حدس قوي لأننا نتحدث عن حزب العدالة والتنمية الذي لم يتأسس بعد، وعن وصوله إلى السلطة عام 2002. ومشروعي في الحقيقة سيكون حول تركيا الجديدة في القرن الحادي والعشرين ووصول حزب العدالة والتنمية إلى السلطة قبل أن يوجد هذا الحزب.

أرسلت المشروع إلى مركز دراسات يدعى " United States Institute of Peace/(USIP)". وقبل الموافقة على المشروع، تلقيت دعوة من مركز ويلسون للدراسات للعمل على عنوان مشروعي لمدة ستة أشهر. بعد ذلك مباشرة جاءتني الموافقة من (USIP)، وأبلغوني أنهم ينتظرونني في واشنطن لأقيم مدة أحد عشر شهراً. حصلت على منحتين من مركزين. أقمت في العاصمة الأمريكية من مطلع نيسان 1999 إلى آب 2000.

كانت فترة رئاسة كلينتون. أول ما وطئت قدماي واشنطن بدأت الولايات المتحدة قصفاً جوياً على ديكتاتور الصرب ميلوسوفيتش. أثناء قيامي بأبحاثي حول مشروعي في واشنطن، وجدت نفسي ثانية داخل الموضوع العراقي. كنت أدعى كل يوم تقريباً إلى أحد مراكز الدراسات في المواضيع المتعلقة بالعراق أو الكورد.

وُجِدتُ مع الأكاديمي الشهير في الشؤون العراقية البروفيسور فيبة مار في الفترة نفسها في مركز ويلسون للدراسات. خلال فترة قصيرة صرنا صديقين، وكأن صداقتنا تعود إلى أربعين عاماً مضت. يعتبر فيبة مار أهم خبراء التاريخ العراقي الحديث في بلده، ولديه كتب في هذا المجال. كان فيبة معارضاً لسياسة الولايات المتحدة التي تقضي بمحاصرة صدام والاستعداد لخوض الحرب. كنت أقدره، وتربطنا علاقة جيدة، ولكننا نختلف بالرأي حول ما يجب أن يكون عليه العراق. عندما أنظر إلى الوراء بعد سنين، أستنتج أنه كان محقاً في بعض الأحيان، وكنت محقاً في أحيانٍ أخرى. ولكن، من الصعب الاعتقاد بأن هناك نقص معلومات حول العراق في واشنطن.

لم أفوّت الندوة التي قدمها مفتشا الأمم المتحدة هانس بليكس وجيمس بتلر في مركز الدراسات أثناء وجودي في واشنطن. واستمعت مرات عديدة لأنتوني كوردسمان أهم خبراء الشأن العراقي في " CSIS ". كان فرنك ريكّوردون الذي سيشغل منصب سفير الولايات المتحدة في أنقرة بعد عام 2011 منسق الحكومة الأمريكية مع المعارضة العراقية. اجتمعت بريكوردون

أيضاً عدة مرات. كان برهم صالح ممثل الاتحاد الوطني الكوردستاني في واشنطن. كنت كثيراً ما ألتقي برهم صالح. وكان جلال طالباني ينزل في بيت برهم صالح الواقع في ميريلاند خارج المدينة عندما يزور واشنطن. كلما أتى طالباني، كنا نجتمع نحن الأصدقاء في بيت برهم صالح. استمعت من طالباني في أجواء كتلك عن محاولته إقناع عبد الله أوجلان بوقف إطلاق النار نتيجة مداخلات تورغوت أوزال والقائد العام للدرك أشرف بتلس عام 1991.

أثناء إقامتي في واشنطن كان من بين المعارف الذين التقيتهم البروفيسور هنري باركي المولود في اسطنبول، وزوجته إلين لايبسون نائب رئيس المجلس القومي للمخابرات، والنائب السابق لرئيس المجلس القومي للمخابرات غراهام فولر الذي كان يعيش في ميرلاند أيضاً. كانت المواضيع في أغلب الأحيان تتمحور حول العراق.

كان أحمد جلبي، والخبير بالشؤون العراقية جوديث كيبر، والصحفي الخبير بالشؤون الإيرانية روبين رايت، وموظف القسم الأوروبي في مجلس الأمن القومي وشغل منصب مستشار الرئيس كلينتون في ما بعد، ومساعد وزير الخارجية في عهد أوباما فيليب غوردون من بين الأشخاص الذين كنت ألتقيهم في بيت هنري باركي وإلين لايبسون.

عرفتني جوديث كيبر على أهم مفتشي الأمم المتحدة في العراق تشارلز دولفير. التقيت تشارلز دولفير مطولاً مرتين قبيل الحرب مباشرة؛ أثناء تردده على العراق بصفته مفتشاً لأسلحة الدمار الشامل.

كان البروفيسور فؤاد عجمي يأتي من نيويورك مرتين في الأسبوع ليعطي دروساً في قسم الدراسات العليا " SAIS " في جامعة جون هوبكنز. دعاني فؤاد عدة مرات إلى دروسه، وأمّن لي إمكانية إعطاء دروس حول تركيا. كنت ألتقي فؤاد عجمي مرتين في الأسبوع على الأقل، وكان له تأثيرٌ قوي في مرحلة الحرب على العراق، وخاصة على نائب الرئيس الأمريكي ديك تشيني.

لا بد من إضافة خبير الشؤون الكوردية الأول من دون منازع في الولايات المتحدة بيتر غالبرايث وعميد " SAIS " بول ولفويتز إلى الشخصيات التي كنت ألتقيها.

بالنتيجة، لم أبتعد يوماً واحداً عن الشأن العراقي أثناء وجودي في واشنطن بين عامي 1999-2000. حتى إنني كنت منغمساً فيه أكثر من اللازم. وكما أن علاقتي لم تقطع بالعراق نهائياً، فقد توطدت أكثر قبل

حرب عام 2003 بفترة قصيرة.

أي لم تكن لدي ذريعة "جهل" في موضوع العراق، وكيف تم الدخول إلى الحرب، ولكنني على الرغم من معلوماتي واهتمامي بالموضوع سأعرف مع اندلاع الحرب – وخاصة بعد الحرب – بأن العراق "حرز أسرار".

اقتنعت بأنني أخطأت، أو ظهر ما لم أكن أتوقعه في نقطتين:

1- لم يخطر ببالي أن تكون خطط الولايات المتحدة لما بعد الحرب سيئة إلى هذه الدرجة. كنت أعتقد أن الولايات المتحدة قد أعدت خططاً دقيقة لما بعد الحرب. فالولايات المتحدة هي الدولة العظمى الوحيدة، وإعدادها خطة محكمة لما بعد الحرب أمر طبيعي جداً.

أي إنني لم أكن أتوقع أن تنهار الولايات المتحدة الأمريكية إلى هذه الدرجة بعد الحرب. أثناء الحرب وبعدها، ظهر السبب الأساسي لانهيار الولايات المتحدة الأمريكية على هذا النحو. فقد تحولت حرب العراق إلى "حرب داخلية في واشنطن" بين المؤسسات الأمريكية. كانت الحرب الحقيقية تدور بين "المؤسسات في واشنطن"، وهذا ما أسقط الولايات المتحدة عاجزة.

تشكّل تحالف مقابل تحالف وزارة الخارجية الأمريكية و" CIA " وعسكريي البنتاغون وقسم من البيت الأبيض. ضم هذا التحالف مدنيي البنتاغون وقسماً مهماً من مجلس الأمن القومي، وقسماً كبيراً من البيت الأبيض؛ خاصة فريق نائب رئيس الدولة تشيني. كان الطرفان على درجة من الخلاف تصل إلى المواجهة. وكل قسم كان يشهد صراعاً في بنيته التحتية.

لم أعتقد أن "حرب واشنطن الداخلية" ستكون حادة إلى درجة أن تغطي على حرب الولايات المتحدة في العراق. أخطأت في هذا الموضوع.

2- لم يكن لدي أدنى شك بأن قوات صدام وعلى رأسها الحرس الجمهوري ستنهار خلال فترة قصيرة في حال اندلعت الحرب. فقد كان الجيش العراقي محط نفخ طوال الوقت. أعرفُ جيداً أن القوات المسلحة لنظام البعث الظالم تستسلم بسهولة أمام العدو الأجنبي، وهي تُظهر قوتها وشدتها في مواجهة شعبها الأعزل، ولا يمكن أن تتماسك في مواجهة عسكرية جدية. قبل عشرين عاماً، كانت هذه قناعة تورغوت أوزال حول النظام العراقي وجيشه أيضاً. لم أخطئ في هذا الموضوع. استمرت الحرب حتى دخول القوات الأمريكية بغداد ثلاثة أسابيع. لم يبدِ الحرس الجمهوري مقاومة حقيقية على الرغم من نفخ ممثلي الإعلام الجهلاء والتائهين. خلال فترة قصيرة جداً، انتهت الحرب بانهيار النظام. النقطة التي أخطأت فيها

هي اندلاع مقاومة عراقية سنية بعد الحرب بعدة أشهر. وسمتها العناصر المعادية للولايات المتحدة "مقاومة"، فيما أسمتها الولايات المتحدة وقوات التحالف والشيعة العراقيون "إرهاباً". لم أفكر أو أتوقع أن تكون المقاومة (أو الإرهاب) قوية وأن تصمد إلى هذه الدرجة.

بالطبع، لم أحسب أيضاً أن تنتهي الحرب نهاية مثالية. إذ لا يمكن حساب هذا بسهولة. فقد انهار النظام في العراق، وفي الحقيقة، بدا وكأنه تبخر، ولكنه لم يستسلم. لم تُوثق الحرب كما حدث مع ألمانيا ثم اليابان في نهاية الحرب العالمية الثانية، وحتى كما حدث في حرب العراق الأولى عام 1991 بأن يجتمع الطرفان المتحاربان ويوقعان معترفين بأن أحدهما انتصر والآخر هُزم. سقطت العاصمة بغداد، ولكن اختفى قادة النظام وجيشه الذي لم يحارب مع أسلحته التي لم تضبط.

هذه الظاهرة ستشكل مصدراً هاماً لمقاومة الاحتلال في ما بعد.

مهما يكن، لم أتوقع أن تكون مقاومة الاحتلال بعد الحرب حادة وصامدة إلى هذه الدرجة، وسأعتبر أنني أخطأت الخطأ الثاني في هذه النقطة.

لم أهتم كثيراً لعدم إيجاد أسلحة الدمار الشامل التي اعتمدتها السلطة التشريعية الأمريكية لتبرير الحرب، ولن أهتم. لقد اعتبرت هذا الأمر قضية أمريكية تقنية حقوقية. لم أكن من بين الذين ربطوا مشروعية حرب 2003 بأسلحة الدمار الشامل، ولم أربطها بها في أي وقت.

أعرف كيف استخدم صدام أسلحة الدمار الشامل في الحرب الإيرانية العراقية. الأهم من هذا، لا يمكن أن يمحى من ذاكرتي استخدامه أسلحة الدمار الشامل في حملة الأنفال، والتي وصلت إلى الإبادة العرقية ضد الكورد عام 1988. ولم أستطع تجاهل أكبر مجازر التاريخ من هيروشيما وناغازاكي إلى سربرنيتشا في البوسنة عام 1995، والتي راح ضحيتها خمسة آلاف شخص في حلبجة بالأسلحة الكيماوية والبيولوجية. ذهبتُ إلى حلبجة متأخراً في 10 تشرين الثاني 2010، وسمعت ممن شهد الحدث عن أبعاد وحشية صدام، وزرت متحف الإبادة العرقية ومقبرتها. بالنسبة إلي، لم يكن وجود أسلحة الدمار الشامل أو عدم وجودها مهماً بعد حرب عام 2003؛ بسبب سجل النظام في هذا الموضوع. لهذا يجب ألا يكون لعدم إيجاد أسلحة الدمار الشامل بعد عام 2003 معنى من زاوية مشروعية الحرب.

غير هذا، إن ما كتبه طوني بلير في قسم العراق من كتابه الرحلة محط اهتمام:

"ظهر أن المعلومات المخابراتية حول صدام وأسلحة الدمار الشامل الخاصة به خاطئة. قيل: كيف يمكن أن يحدث هذا ويبقى سراً؟ أنا أيضاً قلت ذلك. لماذا لم يسمح صدام للمفتشين بالتفتيش إذا لم يكن لديه ما يخفيه؟ لماذا أعاق عمل المفتشين؟ لماذا قبل بزج بلده في الحرب في سبيل المحافظة على وهم؟ جاءت الحقيقة على لسان تشارلز دولفر مفتش الأسلحة السابق التابع للأمم المتحدة في مذكراته: عندما هددت الولايات المتحدة وحلفاؤها صداماً اعتقد أننا نخدعه. في الحقيقة، كنا صادقين، ولم نكن نخادع. نحن أيضاً كنا نعتقد حقيقة أن لديه أسلحة دمار شامل.

عندما أعيد التدقيق بكل الحقائق من أجل تقديم إفادة في لجنة التحقيق، قرأت تقرير مجموعة البحث في العراق لعام 2004، وكان لدي وقت أطول للتفكير بالنتيجة التي توصل إليها.

التقت مجموعة البحث في العراق بإدارة تشارلز دولفير قيادات عليا في النظام ومقربين من صدام. وخلال مرحلة غير عادية، التقى عميل شرطة أمريكية فيدرالي وجورج بيتو "صدام" شخصياً. قدمت المجموعة تسجيلات نقاش صدام مع قياداته حول أسلحة الدمار الشامل. ظهرت القصة الحقيقية. إنها قصة تستحق القراءة". (طوني بلير، الرحلة، ص 374-375)

بحسب هذه القصة، إن صدام حسين دخل مأزقاً نتيجة العقوبات التي فرضت عليه عام 1991. مأزقه هذا ازداد بعد هروب صهره المسؤول عن برنامج أسلحة الدمار الشامل وكشفه الأسرار عام 1996.

"إثر هذا، اتخذ صدام قراراً تكتيكياً. بدءاً من أواسط التسعينيات ركّز صدام على رفع العقوبات مهما كلف الأمر. أوقف برنامج أسلحة الدمار الشامل؛ فقد كان مدركاً أنه لن يستطيع المغامرة بإنتاج أسلحة دمار شامل وتخبئتها...

ما توصلت إليه لجنة التحقيق في العراق هو أن القرار المتعلق بالبرنامج تكتيكي وليس استراتيجياً. توصلت لجنة التحقيق في العراق إلى النتيجة الآتية:

أراد صدام أن يُحيي برنامج أسلحة الدمار الشامل بعد أن دمر عام 1991؛ إثر تحقيق الاستقرار في الاقتصاد العراقي نتيجة رفع العقوبات عنه. ولكن من المحتمل أن يكون الأمر مختلفاً عن الحالة السابقة، وكان هناك خليط من إمكانيات تجعله يمتلك أسلحة دمار شامل. كانت لدى صدام رغبة بامتلاك إمكانية نووية. ونتيجة الضغط الدولي وفهمه المخاطر الاقتصادية أراد أن يطور هذا البرنامج بشكل بطيء. قرر أن يركز على

الصواريخ البالستية والأسلحة الكيماوية التكتيكية...". (طوني بلير، الرحلة، ص 375-376)

يعرّج طوني بلير في كتابه على جمع صدام لعلمائه وتقنييه في مكان معين، وعدم إغلاقه المختبرات التي وجدتها الأمم المتحدة ضارباً أمثلة مفصلة.

وهذا ما يبطل الدعاية التي تقول إن صدام لن يتمكن من الحصول على أسلحة الدمار الشامل التي كان يمتلكها من قبل. على الرغم من هذا، أكرر بأنني لم أعتبر قضية أسلحة الدمار الشامل سبباً حاسماً لشرعية الحرب في أي وقت. وبصراحة، لم أهتم أيضاً لشن الحرب من دون الحصول على قرار من مجلس الأمن، والمناقشات التي جرت حول محاذير هذا الأمر من ناحية القانون الدولي.

من بين آلاف الصفحات التي قرأتها في مرحلة الحرب، طرَحَ المفكر الألماني الشهير يورغن هابرماس رأياً يدعو للتفكير حول تناقض الحرب التي قادتها الولايات المتحدة ضد العراق مع القانون الدولي.

حجة هابرماس الأساسية في هذا الموضوع هي:

"في أدبيات الشرعية، ليس ثمة عذر واقعي لأفكار مثالية. الأهداف المعيارية لرغبة بوش بإزالة نظام غير عادل ودمقرطة الشرق الأوسط ليست متناقضة مع برنامج الأمم المتحدة. يجب ألا يُناقش ما إذا كانت العدالة الدولية يمكن أن تتحقق أم لا. إدارة بوش وضعت جانباً مبادئ كانط الأخلاقية التي تحاول كسب مشروعية على الصعيد الدولي وتعود إلى 220 سنة مضت.

تصرفات الإدارة الأمريكية – وكما تراها بنفسها أيضاً – تعطي نتيجة واحدة؛ وهي أن الحقوق الدولية لم تعد أداة لحل الخلافات بين الدول وتطوير الديمقراطية وحقوق الإنسان. القوة العالمية التي تضع هذا الأمر في مركز سياستها لا تستند إلى القانون، ووضعت مكانه قيمها الأخلاقية وقناعاتها. وحلت تعريفاتها المنطقية المعيارية محل الإجراءات القانونية. ولكن لا شيء يأخذ مكان الآخر". (Jürgen Habermas, America and the World, A Conversation with Jürgen Habermas with Eduardo Mendieta)

حجج هامبرماس القوية حقيقة لم تهز قناعتي بالحرب من أسسها.

شهدنا في مثال البوسنة والهرسك في النصف الأول من التسعينيات أن استصدار القوانين وفق المعايير الحقوقية لمجلس الأمن التابع للأمم المتحدة

لم يعطِ نتائج صائبة على الصعيد الإنساني. حظر السلاح الذي فرض على يوغوسلافيا لم يُتح لشعب البوسنة أن يدافع عن نفسه، وأدى لتعرضه إلى سلسلة مجازر على يد العصابات الصربية (والكرواتية في بعض الأحيان). حظر السلاح على يوغوسلافيا الذي أعلنه مجلس الأمن بدا محقاً، ولكنه فتحَ الطريق أمام الإبادة الجماعية لشعب البوسنة. لم ينفد شعب البوسنة من الإبادة الجماعية إلى أن بدأت الطائرات الأمريكية والفرنسية بقصف المواقع الصربية (وحدث هذا بعد مجزرة سربرنيتشا). لم تقم الدولتان العضوان في حلف الناتو - فرنسا والولايات المتحدة - بإيقاف الصرب عبر غارتهما الجوية بقرار من الأمم المتحدة.

وبالطريقة نفسها، لولا العمليات الجوية الأمريكية على كوسوفو عام 1999 لترك شعب كوسوفو الألباني المسلم لظلم جيش ميلوسوفيتش الصربي، ولكان من المحتمل أن يُمحى الألبان كما محي الأرمن سنة 1915 في الأناضول. ما كسر ظهر ميلوسوفيتش في كوسوفو ليس قرار الأمم المتحدة بالعمليات الجوية وحده.

لندع جانباً عدم إشعال الأمم المتحدة "الضوء الأخضر" في بعض الأحيان من أجل شن حرب ضد الظالمين، فإن هذا "الضوء الأخضر" لم يعالج قضايا الأمن كلها. إذ لم يحدث هذا من أجل الكورد في العراق الذين تعرضوا للمجازر دائماً. شهدنا هذا بأنفسنا. لهذا السبب، على الرغم من حجج هابرماس القوية والمقنعة إذا كانت قرارات الأمم المتحدة ستضمن استمرار نظام صدام حسين، لم يعد مهماً بالنسبة إلي كسب تلك الحرب مشروعية من الأمم المتحدة أم لا، وليس لذلك أي معنى.

بقدر ما برز البعدان الإنساني والأخلاقي لدى قسمٍ من المناهضين لحرب العراق، فهما بالنسبة إليّ أيضاً على هذا النحو.

كانت أولويتي إسقاط النظام الديكتاتوري الظالم، وانتهاء الظلم...

XV - ألمُ تأييد الحرب غير المحتمل



ليس ثمة أحمق يفضل الحرب على السلام يقوم الآباء بدفن أبناءهم بدل أن يدفع الأبناء آباءهم على السلام.

هيرودوتس (424-484 ق. م.)

معنى الأحداث يكمن في طريقة تلقينا لها أكثر من الأحداث نفسها.

أنطوان دو سانت أكزوبيري

شوشت حرب العراق عقولَ أشدِ المؤيدين لها. ظهرت حالات تكفير عن الذنوب وندم. ولم يخطر ببالي مجرد خاطر أن يقدّم كنعان مكية وميشيل إغناتيف نقداً ذاتياً بسبب موقفهما من حرب العراق.

أثّر عليّ النقد الذاتي لذينك الرجلين أكثر من مبررات يورغن هابرماس المناهضة للحرب.

مكية وإغناتيف مهمان جداً بالنسبة إلي بغض النظر عن جديتهما بنقدهما الذاتي. تعرفت إلى كنعان مكية، ولم أتعرف إلى ميشيل إغناتيف. ولكن قوة آرائهما خاصة في الشأن العراقي جذبت اهتمامي اعتباراً من التسعينيات.

غدا كتاب كنعان مكية "جمهورية الخوف" الذي وقعه باسم سمير خليل المستعار مرجعاً من أمهات الكتب، كثيراً ما يُطرق في القضايا المتعلقة بنظام صدام على مدى سنوات. لا يمكن للمهتم بالعراق إلا أن يقرأ هذا الكتاب ويتأثر به. كنعان مكية مثقف عراقي شيعي. عمل مستشاراً لمجلس الحكم المشكل إبان الحرب مباشرة. كلما ذهبتُ إلى بغداد كنت أخطط للتعرف إليه، ولم تسنح لي الفرصة. دُعي إلى ندوة نظمتها جامعة بيلكنت في أنقرة عام 2004 لمناقشة قضية التركمان. كان البروفيسور إحسان ضوغرامجي يقف خلف هذه الندوة. بصراحة، لم أكن مهتماً بالندوة والمدعوين إليها. عندما أبلغني منسق تركيا العام للشؤون العراقية السفير عثمان قورو تُرك بأن كنعان مكية مشارك أيضاً، كُسرت مقاومتي لعدم المشاركة.

سئم كنعان مكية كاتب "جمهورية الخوف" عن نظام صدام مما يجري في العراق، واصطحب حبيبة شبابه ولادة الصراف قاصداً الولايات المتحدة ليعمل عضواً في هيئة تدريسية في جامعة برانديس في ماساتشوستس. ولا يمكن أن أتذكر الحديث الحار الذي دار بيننا حول العراق في ذلك العام. غادر كنعان مكية العراق بعد إعدام صدام عام 2007، وأقام في الولايات المتحدة.

قرأت مقابلة عنه في عدد 23 آذار 2007 لجريدة إنترناشيونال هيرالد تريبيون بإعجاب شديد، وشردت بأفكاره العميقة:

"قبل احتلال العراق الذي قادته الولايات المتحدة في آذار 2003، كان المواطن الأمريكي من أصل عراقي كنعان مكية المولود عام 1949 في بغداد من طلائع الذين رفعوا صوتهم في الغرب والعالم العربي للمطالبة بإسقاط صدام...

كانت تلك الأيام – أي الأيام التي سبقت الأزمة وتفجير السيارات المفخخة ومقتل آلاف العراقيين والأمريكيين – حقيقة بسيطة. بعد انقضاء تلك الأيام، دفعت الأزمة في العراق أصحاب الطموحات الليبرالية أمثال مكية إلى مأزق هذا السؤال الذي لا مهرب منه: أين يكمن الخطأ؟

يقودنا هذا السؤال إلى كتابه الجديد.

قال مكية: أريد أن ألتفت وأنظر إلى نفسي، وأنبش في فرضياتي أثناء التوجه إلى الحرب. يبدو لي أن هناك ضرورة للبحث في المجتمع الذي زج نفسه في تلك الفوضى. السؤال الذي يفرض نفسه عليّ كل يوم أكثر هو: ماذا فعلت ديكتاتورية ثلاثين سنة لشعب يبلغ خمسة وعشرين مليوناً؟".

يتابع قائلاً: "لم يكن هذا خارج تفكيري، ولكنني اخترت أن أتصرف كناشط، ودفعت فكري جانباً على أمل إمكانية مساهمتي بالحل وإدارة الأزمة قبل أن يصل العنف إلى ما وصل إليه اليوم. لم تسر الأمور...".

وقال: "كانت هناك أخطاء على صعيد الإدارة، ونسبة كبيرة من تلك الأخطاء ارتكبها العراقيون".

المسؤولون الأساسيون برأي مكية هم العراقيون القادمون من المنفى، المختلفون طائفياً وقومياً، والذين وضعهم الأمريكيون في مجلس الحكم عام 2003 وعملوا على تأسيس قواعد شعبية لهم. قال: "من هناك بدأت الطائفية".

لم يرغب مكية بإعطاء اسم، ولكن المعروف أنه اختلف مع جلبي عندما امتدح رجل الدين المتطرف مقتدى الصدر من أجل الحصول على دعمه في أول انتخابات عراقية. قبل سنوات طويلة من الحرب، عمل مكية مع جلبي على تنظيم عراقيي المنفى الكارهين لصدام على الرغم من اختلافاتهم الأيديولوجية.

وهناك موضوع السياسة الأمريكية. قال مكية: "ارتكبوا كل ما يمكن أن يرتكبوه من أخطاء. أول أخطاء الأمريكيين وأكبرها هو دخولهم إلى العراق بهدف الاحتلال...".

ثمة ثمانية أقراص مدمجة تضم عشرة آلاف وثيقة ممسوحة ضوئياً على الرف فوق حاسوب المكتب في غرفة الجلوس. عمل مكية بنفسه في مؤسسات الدولة التي تُركت، وجمع بعض تلك الوثائق. يبلغ عددها أحد عشر مليون صفحة؛ تمتد من شهادات ميلاد أعضاء حزب البعث إلى الوثائق العسكرية.

عرضت مؤسسة الذاكرة العراقية التي أسسها مكية على محكمة صدام وأعوانه العراقية التي أسسها الأمريكيون تلك الوثائق. على الرغم من هذا، يصف مكية يوم إعدام صدام في 30 كانون أول 2007 قائلاً: "أحد أسوأ أيام حياتي"...

انتقل الحديث إلى انتخابات الرئاسة الأمريكية. قال ضيفٌ كان حاضراً في البيت إن هيلاري كلينتون ينبغي أن تعتذر لأنها صوتت لصالح قرار بوش بالحرب.

نظر مكية إلى كأس الشراب الذي أمامه، وقال: "هذا ماوي أكثر من اللازم. يجب ألا يشعر الناس بضرورة الاعتذار. ما الذي يستحق الاعتذار؟".

في 6 آب 2007، قبل مرور نصف عام على مقال إدوارد وونغ في

إنترناشيونال هيرالد تريبيون بعنوان "أين الخطأ في العراق؟" نُشِرت مقالة في نيويورك تايمز اقتُطِفَ عنوانها من مقولة مكية: "أريد أن ألتفت وأنظر إلى نفسي، وأنبش في فرضياتي أثناء التوجه إلى الحرب" تتضمن نقداً ذاتياً مؤثراً. كان التوقيع لميشيل إغناتيف. عنوان المقالة: "الخطأ في العراق".

ميشيل إغناتيف أحد المفكرين المؤثرين الذين لفتت مقالاتهم نظري في مطلع التسعينيات بعد الحرب الباردة حول التيارات القومية ومشاكل الهوية وحل النـزاعات. وكتابه "الدم والانتماء" الصادر عام 1993 من الكتب المرجعية بالنسبة إلي.

إلى جانب أن مقالته "الخطأ في العراق" التي كتبها عام 2007 نقدٌ ذاتي، فهي نصّ سياسي مدهش من حيث تناوله للفروق بين المثقف والسياسي والقواعد غير المكتوبة في مراحل اتخاذ القرار السياسي. جاء الجزء المهم من المقالة الطويلة على النحو التالي:

"الكارثة التي ظهرت في العراق أبطلت مفاعيل قرار سياسي اتخذه الآخر، ولكنها أبطلت أحكام المحللين الداعمين للاحتلال بمن فيهم أنا. كنا أغلبنا مؤمنين – كما أخبرني صديق عراقي منفي – بأن الحرب آخر فرصة لعودة المنفيين العراقيين جميعاً إلى بلدهم بحرية. والآن، نرى كم أن هذا الحلم بعيد.

منذ عام 2005، تاريخُ تَرْكي عملي الأكاديمي في هارفارد وعودتي إلى كندا من أجل الانخراط في العمل السياسي... استمررت بمتابعة سقوط العراق؛ انطلاقاً من فكرة إعادة تناول القيم التي اعتادت على اقتراحها أطرافُ سياسة بعيدة. تعلّمت أن إطلاق حكم سياسي صائب يبدأ بوعي فضيلة الاعتراف بالخطأ.

قال الفيلسوف أشعيا برلين إنّ مشكلة الأكاديميين والمحللين تنبع من تعلقهم بالأفكار الغريبة أكثر من تعلقهم بالأفكار الصحيحة. السياسيون مثل المفكرين يعيشون مع الفكر، ولكنهم لا يغامرون برفاهية تعلقهم بالفكرة لمجرد غرابتها. إنهم مضطرون للتوقف عند عدد قليل من الأفكار الصحيحة، وحتى عند عدد قليل من الأفكار القابلة للتطبيق في الحياة. الأفكار الخاطئة في الحياة الأكاديمية خاطئة فقط، ومجاملة غير المفيدين فيها مسلية. الأفكار الخاطئة في الحياة السياسية يمكن أن تمحق حياة الملايين، ويهدر غير المفيدين فيها مصادر قيّمة جداً. مسؤولية المثقف عن أفكاره تقضي بأن يذهب إلى حيث تقوده نتائجها. أما مسؤولية السياسي فهي تقييمه لهذه النتائج، والحيلولة دون إيقاعها الضرر.

تعلّمتُ أن التقييم الجيد في السياسة مختلف عن التقييم الجيد في الثقافة. التقييم في الأوساط الثقافية يتعلق بالتعميمات وتفسير بعض الظواهر على أنها نماذج لأفكار عظيمة. أمّا الأمر في السياسة فكما هو، وليس شيئاً آخر. المحدّد أهم من المعمم؛ يسد طريق النظرية.

الحسّ الواقعي هو ما يحدد تقييم السياسيين الإيجابي... لا يمكن للسياسيين أن يسمحوا لخيالات عالمهم الداخلي بأن تجرفهم. لا يمكن لهم أيضاً أن يخلطوا بين العالم الذي يريدون رؤيته والعالم القائم. إنهم مضطرون لرؤية العراق - أو أي مكان آخر - كما هو.

عرفت من خلال وجودي في هارفارد أن الشعور الواقعي ليس متطوراً دائماً في المؤسسات النخبوية. هذه موهبة شارعية بكل معنى الكلمة. إدراك سائقي الحافلات لطبيعة الأشياء أدق من إدراك حائزي جائزة نوبل لتلك الأشياء. الطريقة الوحيدة لتطوير إدراكنا للواقع هي مواجهتنا العالم كل يوم، وتعلم ما يمكن أن يحدث من أخطائنا. مع هذا، يمكن أن نخطئ في الحياة والسياسة على الرغم من التجربة الطويلة. ليس ثمة علم اتخاذ القرار في السياسة العملية. التقييمات التي يجريها السياسي يومياً تتعلق بالإنسان: بمن يجب أن تثق، ومن يجب أن تصدق. تفرض قضية الإخلاص نفسها كل يوم: من سيخونك؟ ومن سيقف إلى جانبك؟ لا بد من ثقة بفراسة غير علمية من أجل تقييم جيدٍ في هذه الموضوعات، وإحساسٍ سليم بالحقيقة.

لا يقتصر هذا الإحساس بالواقعية على الإحساس بطبيعة العالم، بل بما يمكن أن يكون عليه. يرى الفنانون الكبار - مثل السياسيين الكبار - ما لا يراه غيرهم من إمكانيات، ثم يحاولون تحويلها إلى الواقع. ينبغي أن يمتلك السياسي إحساساً بالزمن لتحديد لحظة انطلاقه أو ثباته من أجل تحقيق الجديد. قال بسمارك إن إرادة القرار السياسي هي موهبة سماع وقع حدوات حصان التاريخ القادم من بعيد قبل الجميع.

القليلون منا يستطيعون سماع قدوم خيل التاريخ. سُئِل أحد رؤساء الحكومات الإنكليزية عما يصعب عليه عمله، أجاب بحزن: "الأحداث يا بني". الإبداع السياسي هو إظهار موهبة الارتجال إزاء حدث غير متوقع، والمحافظة على الهدوء قدر الإمكان.

يمكن ألا يحول الارتجال دون الفشل. غالباً ما تنتهي المسرحية وسط الدموع. غالباً ما تنتهي المكانة السياسية نتيجة اتخاذ السياسي قرارات تتعلق بالناس انطلاقاً من هواجس عادية ونتيجة معلومات خاطئة...

في السياسة، التعلم من الفشل مهم بقدر ما يكون استثمار النجاح مهماً. يُبرز صموئيل بيكت أهمية العناد الداخلي اللازم من أجل فن السياسة بكلماته: "افشل مرة أخرى. وافشل مرات ومرات". يحافظ تشرشل وديغول على عنادهما بقراراتهما... ما جعلهما عظيمين اليوم هو رغبتهما برؤية تقييم التاريخ لهما (على صعيد قراراتهما) على الرغم من ابتعادهما الكبير عنها. يبدو الرئيس الحالي (جورج دبليو بوش) على الدرجة نفسها من الإيمان بأن التاريخ سيثبت أنه محقٌّ...

ليس ثمة ما هو شخصي في السياسة؛ لأن السياسة مسرح. التصرف وكأنك تحمل مشاعر لا تحملها في الواقع جزء من وظيفتك. جلوس النواب لاحتساء الشراب بعد أن يحقروا بعضهم بعضاً في الجلسة التشريعية أمر مألوف. ازدواجية المنقذ في الحياة العامة غير ممكنة في الحياة الخاصة...

ما نريده أهم مما نقوله بين الأصدقاء وأفراد العائلة... لا مكان لذريعة كهذه في السياسة. اللغة في الحياة العامة سلاح حربي يستخدم في ظروف عدم الثقة. المهم هو القول فقط وليس القصد. الساحة السياسية عالم كلام مجنون. أدق تشقق بالفرق بين القول والقصد يتوسع، ويمرر السكين ليغرز في الجسد.

في الحياة الخاصة، نحن ندفع ثمن أخطائنا. خطأ السياسي في الحياة العامة يدفع الآخرون ثمنه. التقييم الجيد يعني معرفة كيفية تحميل الآخرين المسؤولية ليدفعوا ثمن قراراتكم. ولكن الأفكار الثابتة بشكل فوضوي عموماً تعادي التقييم الجيد...

التقييم الجيد في السياسة عمل معقد. التوازنات السياسية تعني غالباً وجود مستاءين - بمن فيهم أنتم - في مصالحات لا يمكن أن تصل إلى الكمال...

الذين يستطيعون إجراء تقييمات جيدة حقيقية في موضوع العراق لا يمتلكون معلومات أكثر منا. وهم سيعملون كالجميع على ربط الأمر بخطأ في المعلومات المخابراتية ونقص بالمعلومات حول الانقسام الطائفي في العراق. ما لم يفعلوه هو أنهم لم يضعوا الوقائع مكان الرغبات. بسبب وثوق بوش بأن هواجسه صحيحة اعتقد أن الجميع في المنطقة سيثقون بهذا. وهم لم يعتقدوا ذلك، ولم يثقوا بأن دولة حرة ستبنى على أنقاض إرهاب بوليسي استمر خمسة وثلاثين عاماً. لم يثقوا بأن الولايات المتحدة ستشكل سياسة دولة لا يعرف الكثير من الأمريكيين إلا القليل عنها. لم يثقوا بأن الولايات المتحدة ستدافع عن حقوق الإنسان في العراق كما فعلت في البوسنة

وكوسوفو. تهربوا من هذه الأخطاء كلها.

أنا أيضاً وقعت ببعض هذه الأخطاء، إضافة إلى عدة أخطاء خاصة بي أيضاً. الدرس الذي تعلّمته للمستقبل هو أنه ينبغي لي أن أتبع أحاسيسي أكثر من اتباعي من أعجب بهم، وهواجس العراقيين المنفيين. ذهبتُ عام 1992 إلى شمال العراق، ورأيت ما فعله صدام حسين بالكورد. ومنذ ذلك اليوم صرت على ثقة بضرورة ذهاب صدام. كنت أمتلك تجربة شخصية تجعلني أشكّل قناعة، ولكن لهذا السبب بالضبط دفعتْ مشاعري الأسئلة الصعبة جانباً، وأفسحت المجال لسؤال واحد: هل يمكن وضع الكورد والسنة والشيعة بجو سلمي لأن صدام حسين قد أخضعهم إلى إرهاب واحد؟

ما ظهر هو أن التقييم الصحيح في السياسة يرتبط بالقدرة على المحاكمة النقدية. لم يتحمل بوش أعباء فهم العراق، ولا أعباء فهم نفسه. كان يجب أن يمتلك حس الحقيقة الذي سينقذه من الكارثة عندما يرنّ في داخله المنبه بأنه لا يدرك ما يفعله. كان يعيش حياة مبهرة، وفي حياة كهذه لا ترن منبهات التحذير...".

عليّ أن أعترف أن "النقد الذاتي" لكل من كنعان مكية وميشيل إغناتيف، إضافة إلى مبررات هابرماس دفعتني إلى تفكير عميق. لا يمكنني أن أعترض على الكثير من النقاط الصحيحة المحقة. ولكنهم ينظرون إلى ما حدث في العراق من منظور وحيد؛ وهو منظور الفكر الليبرالي الغربي أو المنظور العلماني العراقي. وإذا كانت هناك جوانب قليلة جداً يمكن الاعتراض عليها، فإن الزاوية التي أنظر منها إلى العراق هي زاوية التاريخ والمستقبل والعلاقة مع تركيا والكورد.

هذه هي المقاييس التي لم تتغير ولم أغيرها في وجهة نظري:

1. سيزيل إسقاط صدام سدادة هامة من مجرى تاريخ العراق والشرق الأوسط، وسيبدأ التاريخ بالتدفق.

2. الحرب في العراق ستخلص الكورد نهائياً من البنية المركزية القومية الصارمة في بغداد. وما سيكون جيداً للكورد على الصعيد الاستراتيجي لا بد أن يكون جيداً للأتراك.

3. ستفتح الحرب أمام تركيا آفاقاً جديدة إيجابية في حال عرفت كيف تستغلها.

أنا أثق بضرورة الدفاع عن حرب العراق من الناحيتين الأخلاقية والإنسانية. فقد قتل في فترة حكم صدام 180 ألف كوردي، وعشرات الآلاف من الشيعة. أنا أعتبر أن الدفاع عن إسقاط ديكتاتور ونظام لا يعرف

حدوداً بارتكابه المجازر والإبادة الجماعية، ولديه خبرة في نشر سياسة الظلم هذه على فترة زمنية طويلة واجب أخلاقي وإنساني.

مع هذا، إنّ الدفاع عن حرب العراق ليس سهلاً مهما طرحت من مبررات محقة وذات معنى. ولم يكن كذلك في أي وقت. عندما يأتي ذكر حرب العراق بعد مرور سنين عليها، تعارضني زوجتي طوبا التي تعرف أكثر من الجميع ما أدافع عنه ولماذا، ووقفت إلى جانبي في القضايا الأساسية.

كنا معاً في فييتنام في آخر أيام عام 2011، والأيام الأولى من عام 2012. دخلنا العام الجديد في مدينة سايغون عاصمة فييتنام الجنوبية قبل الوحدة، وأخذت اسم هو شي من بعد "التحرير" عام 1975. قضينا اليوم الأخير من عام 2011 في أنفاق كوتشي السرية التي وجَّه منها مقاتلو الفيتكونغ أقوى الضربات للأمريكان، وتصل إلى عمق ثلاثة طوابق تحت الأرض، وتعتبر أثراً لا مثيل له للحرب الشعبية، وتقع على بعد سبعين كيلومتراً شمال سايغون، وتجولنا في اليوم الأول من عام 2012 في دلتا ميكونغ التي شهدت أعنف المعارك. شهدنا في شبابنا الحرب الأسطورية التي فقد فيها ثلاثة ملايين فييتنامي حيواتهم؛ مليونان منهم مدنيون، وكانت جزءاً من حياتنا.

في الحقيقة، كنا نقوم بجولة على تاريخنا الشخصي في فييتنام. لم يبق أي أثر للحرب في فييتنام التي تُدار بإدارة تشبه الإدارة الشيوعية الصينية، وحققت نهضة اقتصادية سريعة عبر اقتصاد السوق، و65% من شعبها تحت سنّ الثلاثين. ولكننا كنا نعيش فييتنام بذكرياتها التي ملأت شبابنا ولا يمكن أن تُنسى. وفجأة طرح الموضوع العراقي.

أثناء تجوالنا في متحف ذكريات الحرب دبت الحياة في ذكريات شبابنا حول ظلم الأمريكان الذي لا مثيل له للفييتناميين، وطفحت عينا طوبا بالدمع أمام مشاهداتنا، فطرحت موضوع حرب العراق وبدأت تنتقدني. ولا ينتهي نقدها الذي تبدأه بالقول: "انظر إلى هذه الصور! تذكر موقفك أثناء حرب فييتنام! لا تدافع عن حرب العراق، على الأقل بعد الآن!".

للحرب الفييتنامية مكانة خاصة لدى جيلنا في تركيا والعالم، ومكانة أكبر لدي. كنت رئيس رابطة طلاب كلية العلوم السياسية في أنقرة التي نظّمت عام 1970 حفل تأبين كبير لهو شي منه [*12*] قائد فييتنام الشمالية الذي أكن له إعجاباً كبيراً. في اليوم نفسه، كنت بين مؤسسي رابطة الصداقة والتضامن بين شعبي تركيا وفييتنام، ورُفعت عليّ دعوى ارتكاب جرم يسميه قانون العقوبات التركي "تشكيل رابطة لها أهداف تتجاوز الأمة".

وأثناء وجودي في المقاومة الفلسطينية بين عامي 1971-1973 كنت ألصق راديو الترانزستور على أذني، وأتابع كل تفاصيل تطورات ساحة الحرب الفييتنامية كل ليلة تقريباً. حصلت على الكثير من المنشورات عن فييتنام في دمشق وبيروت، وصرت أعرفها بالشبر تقريباً من دون أن تطأها قدماي. ما رأيته في الأيام الأولى من عام 2012 في فييتنام أعادني إلى أيام شبابي، ونمّى غضبي من الأمريكان.

لهذا السبب، شعرت بثقل انتقاد زوجتي لي لدى تذكيرها إياي بحرب العراق. أنا أيضاً تعاظم غضبي من الأمريكان في فييتنام، ولكنني تشبثت بموقفي من العراق.

لم نعد – زوجتي وأنا – إلى الجدل في موضوع حرب العراق عندما عدنا إلى هانوي التي شهدت أعنف قصف أمريكي. غير أننا عدنا إليه عند انتقالنا من هانوي – أي من فييتنام – إلى كمبوديا.

لم تقتصر جرائم الولايات المتحدة في الهند الصينية على فييتنام. فقد قصفت كمبوديا إلى درجة أنها غيرت توازنها الحيوي. ولكن جريمتها الكبرى في كمبوديا هي دعمها نظام الخمير الحمر بقيادة بول بوت الذي يمثل أكثر أنظمة التاريخ القريب وحشية. لقد قتل بول بوت والخمير الحمر بالمجازر والتجويع مليوناً ونصف المليون من الكمبوديين البالغ عددهم سبعة ملايين بين عامي 1975-1979. أسقط احتلال فييتنام لكمبوديا بول بوت عام 1975، وانشقّ قسم من الخمير الحمر عن بول بوت وأيد الفييتناميين. وسلّم الفييتناميون السلطة للخمير الحمر السابقين المؤيدين لهم. أما الخمير الحمر بقيادة بول بوت فقد انسحبوا إلى الغابات البكر على الحدود التايلاندية الكمبودية، واستمروا بالقتال من هناك بدعم من الصين وتايلاند حتى عام 1990. حظي الفييتناميون بدعم السوفييت للقضاء على نظام بول بوت الماوي، وبسبب التنافس السوفييتي الأمريكي، دعم الأمريكيون بول بوت المجنون الذي لا مثيل له في التاريخ.

عاشت كمبوديا مراحل تاريخية مزدهرة. كانت مدينة أنغكور من ألمع المراكز الحضارية العالمية بين القرنين التاسع والخامس عشر. ذهبتُ إلى أنغكور من أجل الشعور بأيام كمبوديا التي أسطرتها الروايات. على مبعدة عدة كيلومترات من مدينة سيم ريب، وخلف مقهى ومطعم ريفي مكشوف قرب معابد أنغكور بضائع وهدايا وكتب حول كمبوديا. دهشت هناك حين رأيت كتاب هنري كام: "Kambodia: Report From A Stricken land /كمبوديا: تقرير من أرض جريحة". اشتريت الكتاب من دون تردد. فأنا أثق

بكل ما يكتبه هنري كام عن كمبوديا؛ لأنه أهم خبير في الشؤون الكمبودية في الغرب.

تعرّفتُ إلى هنري كام في بودابست العاصمة الهنغارية في كانون الثاني من عام 1988؛ عندما ذهبت إلى أولى دول أوروبا الشرقية من أجل كتابة سلسلة مقالات حول الأيام الأخيرة للمعسكر السوفييتي.

أراد دليلي الهنغاري أن يريني فندق هيلتون المبني في أهم أمكنة بودا. كنا داخل قلعة بودين العثمانية. أشار نحو رجل مسنٍّ جالس في اللوبي، وقال بنبرة إعجاب: "هنري كام". لم يعنِ لي الاسم أي شيء، فاستغرب دليلي الهنجاري الأمر، وخرجت عن لسانه هذه العبارات: "كيف لا تعرفونه؟! إنه صحفي كبير حاز على جائزة بوليتزر. ألم تر فيلمه "حقول القتل/ Fields killing "؟ إنه هنري كام الذي يُذكر اسمه كثيراً في الفيلم...".

ذهبت، وتعرفت إلى هنري كام. ظهر أمامي رجل متواضع بشكل لم أكن أتوقعه. اقترح أن نتناول العشاء معاً إن لم أكن مشغولاً. لذا، قصدت فندق هيلتون مرة أخرى في ذلك المساء من أجل تناول العشاء مع هنري كام. تحدثنا في ذاك المساء البودابستي في مواضيع كثيرة ونحن نستمتع بمشهد جسر لانشيد التاريخي الذي يربط بودا بيست فوق نهر الدانوب، وبمنظر البرلمان الهنغاري الذي يزين بشت بجمال فريد.

هنري كام يهودي ألماني، ولد عام 1925 في مدينة برسلاو الواقعة اليوم في بولونيا. عاش مرحلة هتلر الأولى، وتمكن من الهرب إلى الولايات المتحدة وهو في أول شبابه. نجاحات كبرى حملت توقيعه كمراسل لنيويورك تايمز، وحازت أخباره من كامبوديا عام 1978 جائزة بولتزر؛ أكبر جائزة صحفية في الولايات المتحدة.

من غير الممكن ألا يتطرَّق الحديث إلى كمبوديا عند الحديث مع هنري كام. حكى لي مطولاً عن كمبوديا.

لم أر هنري كام بعد تلك الليلة، وفقدت أثره. برز كتابه أمامي في كمبوديا بعد ربع قرن تقريباً.

كان كتاب "كمبوديا: تقرير من حقول القتل" أول كتاب وقع بيدي عام 2012. قرأت الكتاب المؤلف من 282 صفحة ذات ليلة كمبودية بسلاسة الماء. نقلت الأسطر التالية أفكاري إلى حرب العراق؛ على الرغم من وجود جسمي في كمبوديا:

"دعم الغرب بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية نظام بول بوت بدعوى الشرعية بسبب إسقاطه بواسطة احتلال أجنبي سافر. أُيّد نظام ظالم لم

يشهد التاريخ مثله منذ هتلر وستالين، واكتسب ذلك النظام شرعية بسبب الاضطرار للمقارنة بينه وبين نظام دمية ركّبه المحتل. كانت هذه الحال مؤلمة من زاوية الديمقراطية الغربية التي تضع السيادة الوطنية في ذروة القيم الدولية، وتدافع دائماً عن حقوق الإنسان. لم تدخل فييتنام إلى كمبوديا لتحرير شعبها، ولم تستحق أي مديح. ولكن الاحتلال جلب للكمبوديين بعض حقوق الإنسان الأساسية التي شعروا بأنها أغلى من السيادة أثناء تعرضهم لعذاب عظيم. مُنح عددٌ كبير من الكمبوديين الذين كانوا ينتظرون نهاياتهم فرصة للتمسك بالحياة.

لم يكن من الممكن أن تغيب هذه الحقيقة عن أي زائر لكمبوديا في الأشهر التالية للاحتلال الفييتنامي. هذا لا يعني أن الكمبوديين شكروا فييتنام وتراجعوا عن اعتبارها عدواً تاريخياً لهم. فقد كانوا واعين لحرمانهم من حق الاختيار بين منقذيهم وحرياتهم الأساسية. أستطيع أن أضع نفسي مكانهم. لقد انتظرت طويلاً دولة تخلص دولتي ألمانيا من حاكم ظالم، ولتكن أي دولة. لم يكن هناك مفر من الحرب العالمية الثانية من أجل إنهاء ديكتاتورية هتلر. أسقط الاحتلال التنزاني ديكتاتور أوغندا عيدي أمين في فترة احتلال فييتنام لكمبوديا، ولكن لم يحتج أحد على هذا. احتل الاتحاد السوفييتي هنغاريا عام 1956 وتشيكوسلوفاكيا عام 1968، وأسقط حكومتين تحظيان بشعبية واسعة، وعين مكانهما حكومتين دميتين. تذمرت الديمقراطية الغربية، ولكنها تقبلت الأمر في النهاية. وثَبُتَ أن الاضطرار للتعايش مع الاتحاد السوفييتي القوي يتقدم على مبدأ السيادة. ولكن الولايات المتحدة والحكومات الفييتنامية المتعاقبة في التاريخ القريب لم تكن تهتم بحق الكمبوديين بقدر التخلي عن أحد مبادئها". (ص 152-153)

إبراز حق السيادة في العراق ليس سوى إعطاء جرائم صدام مشروعية. فقد فاق صدام الأنظمة الظالمة العادية بممارسة سياسة ترقى إلى مستوى الإبادة الجماعية ضد الكورد. شرّد نظامه مئات الآلاف، واعتقل آلافاً بعد تخلي شاه إيران وإدارة كيسنجر الأمريكية عن انتفاضة الملا مصطفى البرزاني. قتل 182 ألف كوردي في الحرب الإيرانية العراقية؛ وخاصة في حملة الأنفال عام 1988، وأفرغ 3800 قرية، وسواها بالأرض.

غدت حلبجة رمز سياسة الإبادة الجماعية التي طبقها صدام ضد الكورد بكونها هدفاً لقنابله المحملة بالغاز السام بتاريخ 16 آذار 1988.

شاركتُ بزيارة أوزال إلى بغداد بعد فترة قصيرة من مجزرة حلبجة، وكانت الزيارة غاية في التوتر. لم يتسرب شيء من لقاءات تورغوت أوزال

وصدام حسين، ونَقَلَ لي السفير نزهت ڤاندمير مستشار الخارجية الذي شارك في اللقاءات كل ما جرى فيها من مكان إقامته في فندق الرشيد شرط "ألا أكتبه". بحسب ما رواه لي ڤاندمير، فتح تورغوت أوزال قضية حلبجة التي ما زال دخان قصفها يتصاعد، فأغلق صدام الموضوع بعبارة: "عاقبنا الخونة".

في الحقيقة، إنّ ما جرى في البوسنة والهرسك وكوسوفو والعراق من نتائج انتهاء الحرب الباردة التي استمرت ما بين عامي 1945-1989. والقضايا الثلاث أيضاً تشير إلى انتهاء "نظام وستفاليا" في العلاقات الدولية الذي استمر منذ عام 1648. دخل نظام وستفاليا الذي يعتمد على "سيادة الدولة القومية" حيّز التنفيذ نتيجة حروب استمرت ثلاثين سنة بعد اتفاقية وستفاليا للسلام. وهو يشكل الدعامة الأولى لمبدأ الوحدة الترابية وعدم التدخل بالشؤون الداخلية للدول الأخرى.

بقي مبدأ وستفاليا مبدأ إدارياً دولياً مقبولاً لأكثر من ثلاثة قرون. انتهت صلاحية هذا المبدأ أوروبي المنشأ والنهاية بقبول الدول الأوروبية القومية مبدأ التنازل عن السيادة الوطنية مع ولادة الاتحاد الأوروبي. إذا كان مبدأ وستفاليا قد انتهى بولادة الاتحاد الأوروبي، فقد انتهى تحديداً مع قضايا البوسنة والهرسك وكوسوفو والعراق؛ لأن مفهوم السيادة المعتمد على الوحدة الترابية وعدم التدخل بشؤون الدول الأخرى الداخلية ترك مكانه لمبدأ "التدخل لأهداف إنسانية".

ولا ضرورة لأن يشكل العراق استثناء في هذا الموضوع. ولكن "محرري" العراق أنفسهم شكلوا عبئاً ثقيلاً لا يمكن حمله بتناقضهم مع أطروحة "التدخل لهدف إنساني" المنطقية بحسب سجل صدام. إضافة إلى عُقَدِ جورج دبليو بوش الميتافيزيقية من خلال اعتباره أنه يقوم "بمهمة مبجلة" فإن دعم كبار رجال الإدارة الأمريكية مثل ديك تشيني ودونالد رامسفيلد إضافة إلى داعمين كبار لإسرائيل من المحافظين الجدد أبعد الجميع عن إمكانية أن تكون حرب العراق" تدخلاً لهدف إنساني".

غير هذا، إن طرق مختلف الأحابيل لإقناع الكونغرس الأمريكي بقرار الحرب وضع مفهوم "التدخل لهدف إنساني" موضع شك شديد.

على الرغم من كل هذه المؤشرات السلبية حول الحرب، لم يتخلَّ بعض اليساريين والمفكرين الليبراليين العالميين والمثقفين الأوروبيين الذين قضوا حيواتهم وهم يحاربون الأنظمة الشمولية عن الدفاع عنها عبر "التصريحات الإنسانية". (على سبيل المثال، كتاب " Humanitarian Arguments for

المبررات الإنسانية لحرب العراق" /War in Iraq من منشورات جامعة كاليفورنيا، 2005)

لم تستطع هذه النماذج تغيير صبغة هذه الحرب اللافتة: لم تشهد حرب عام 2003 تطوراً يمكن تحقيق إجماع عليه. فقد فرقت الحرب الناس المتقاربين بالأفكار، وقطعت العلاقات بشكل أفقي، وظهرت تقاطعات غريبة بين الناس على اختلاف تياراتهم الفكرية وحركاتهم السياسية.

لم يتجاوز عدد المدافعين بصراحة عن ضرورة الحرب في تركيا أصابع اليد. لم يكن الظهور إلى جانب اليمين الأمريكي والأوروبي مشهداً محبباً. ولكنني عارضت محيطاً واسعاً في تركيا امتد من الإسلاميين إلى اليساريين. وما آلمني هو خلافي مع بعض أصدقائي القدامى الفلسطينيين واللبنانيين الذين شاركوا بالنضال الفلسطيني. كان ميشال نوفل - صديقي الذي لم تُعكر صداقتنا يوماً على مدى أربعين سنة - من بين أولئك الأصدقاء الذين اختلفت معهم.

بالمقابل، كنت أسير بالتوازي مع كورد العراق وأصدقائي الشيعة الذين شاركوا بالنضال الفلسطيني أمثال عادل عبد المهدي، والمناضلين ضد الشمولية في أوروبا الشرقية والوسطى الذين دفعوا ثمن نضالهم وعلى رأسهم قائد "الثورة المخملية" فاسلاف هافل.

بعد حرب العراق، التقيت خبير الشؤون الكوردية ستيفن كينزر مراسل نيويورك تايمز السابق في تركيا إلى مائدة غداء؛ عندما أتى لكتابة مقالة حول الكورد لمجلة " New York Review of Books " الأسبوعية بحضور عثمان قاولا. استغل ستيفن كينزر مغادرة عثمان قاولا المائدة قليلاً، وسألني: "جنكيز، لماذا يكرهك أصدقاؤك إلى هذه الدرجة؟". يبدو أن كل من التقاهم من أصدقائي وفتح معهم موضوع العراق جعلوه يُقدم على طرح سؤال من هذا النوع.

قلت لستيفن كينزر: "اسمع، إذا كانوا يكرهونني فهم ليسوا أصدقائي. يمكن للأصدقاء أن يختلفوا، ولكنهم لا يمكن أن يكرهوا بعضهم بعضاً. غير هذا، فقد قضيتُ معظم حياتي في الشرق الأوسط. وكان موقفي واضحاً تماماً من صدام. أعرف المعارضة العراقية من الداخل، وأنا لست ممن يتابعون شؤون العراق من أخبار الجرائد؛ فقد عشت في قلب الأحداث. ليقولوا ما يقولونه، فأنا لن أغيّر قناعاتي وأفكاري التي رسخت في ذهني عبر السنين من أجل أن أجاملهم".

ظهرت ابتسامة استهزاء على وجه ستيفن كينزر، وأغلق الموضوع.

ولكنني في تلك المناسبة تذكّرت كيف أن موضوع العراق هو السباحة عكس التيار في تركيا.

حدث ما يشبه هذا مع الكثيرين ممن أيدوا حرب العراق. ينقل طوني بلير هذا الوضع بشكل حار:

"المشكلة في نقاش موضوع العراق هي تخلي الناس عن سماع بعضهم بعضاً. من المحتمل أن يكون عدد المحايدين أكبر مما هو متوقع... لقد اتخذ المعارضون للحرب موقفاً مسبقاً، وتصلّبت عقول اليساريين التقليديين صلابة الغرانيت؛ وهذا أمر سلبي وخاطئ. في الوقت نفسه، اختلف معي أقرب أصدقائي نتيجة القرارات التي اتخذتها. لم يبتعد رفيقي القديم في السياسة غيوف غالوب عني فحسب، بل قال: "لا أفهم لماذا تفعل هذا يا طوني". يتقبل المؤيدون لي أن لدي أسباباً محقة لما فعلته، ولكنهم يعتبرونه بقعة سوداء في سيرتي النظيفة". (طوني بلير، ص 373-374)

عندما قرأت هذه السطور عام 2010، تذكرت المحيط الذي عشت وسطه في تركيا بعد عام 2003. من المؤكد أنه لا يمكن لشخص مثلي أن يكون له أي دور بقرار الحرب، ولكن تأييدها كافٍ لوضع المؤيد في كفة واحدة مع من اتخذ قرار الحرب وخاضها، ولاعتباره في جبهة واحدة معه.

كانت حرب العراق تحاكم أخلاقياً وإنسانياً اعتماداً على أرقام ضحايا الحرب، وكثيراً ما يطرح هذا السؤال القالبي: "هل العراق الآن أفضل ممّا كان عليه في فترة صدام؟".

يشير هذا السؤال بشكل مستتر إلى تفضيل فترة صدام على الرغم من كل شيء. جوابي عن هذا السؤال، أي سؤال: "هل فترة صدام أفضل؟" بسيط ومجرد، وبقي على هذا النحو: "نعم!".

بالطبع، إن السؤال المذكور يعتمد على كذبة كبرى تقول إن ضحايا حرب العراق بلغوا مليوناً. كانت الصحف تنشر في البداية رقم خمسمائة ألف أو ستمائة ألف ضحية، ثم تردد الرقم مليون تقريباً للضحايا. ولم يتحمل أحد عبء البحث في صحة هذا الرقم. وقد ثبت على الألسن وفي العقول بأن حرب العراق كلفت مليون ضحية.

مصدر هذه الكذبة أو الخطأ مقالة نشرتها مجلة " Lancet " الطبية والتي تدعي أنها تقدم تحليلاً علمياً لضحايا العراق. ثبت خطأ النهج الذي اعتمده تقرير " Lancet "، وبالتالي، إن الرقم الذي نشرته خاطئ، ولكن أحداً لم يتوقف عند دحض التقرير وسط الأجواء المناهضة للولايات المتحدة وبوش.

توصَّل إحصاء الصليب الأحمر اعتماداً على معطيات ملموسة - استفاد من معطيات منظمة إحصاء ضحايا العراق المناهضة للحرب أساساً - إلى رقم يتراوح بين 100 ألف - 120 ألفاً. والرقم الذي توصل إليه معهد بروكلين للدراسات - وهو مركز جدي - اعتماداً على منظمة إحصاء ضحايا العراق مقارب للرقم السابق.

من خلال حرب الأرقام هذه، يمكن أن تتبادر إلى الذهن العبارة التي تنسب لجوزيف ستالين: "مقتل شخص تراجيديا، ومقتل مليون شخص إحصاء". ونقاش كهذا مشكلة إنسانية وأخلاقية، ولكن لا شك أن الفرق كبير بين مائة ألف ضحية ومليون ضحية.

أهمية إحصاء ضحايا الحرب العراقية بشكل صحيح ومثبت تتعلق بتوثيق ظاهرة تاريخية هامة جداً. لأن حوالى سبعين ألف ضحية من المائة ألف الذين سقطوا في تلك الفترة هم ضحية صراع طائفي، أي إنهم ضحايا "الحرب الطائفية العراقية".

الصراع الشيعي السني بين 2005-2007 بإيقاعه المتسارع، وأبعاده المتوسعة أزهق أرواح سبعين ألف عراقي. أكبر المساهمين في حمام الدم هذا القاعدة (ظهرت باسم قاعدة الرافدين)، والميليشيات الشيعية التي يدعمها لواء القدس في الحرس الثوري الإيراني. وتستفيد القاعدة مع الميليشيات السنية الأخرى من الدعم المالي الذي تقدمه لها دول الخليج العربية.

واجهت من جديد إحصاءات ضحايا حرب العراق في مكان ويوم لم يخطرا ببالي قطّ. إنها جريدة " Viet Nam News " التي وجدتها على باب غرفة فندقي في العاصمة الفييتنامية هانوي بتاريخ 3 كانون الثاني 2012. بمناسبة انسحاب الولايات المتحدة الأمريكية، وردت في الجريدة مقالة على النحو الآتي:

"أعلنت إحدى مؤسسات المجتمع المدني البارحة أن عدد ضحايا العراق منذ عام 2003؛ تاريخ الاحتلال الذي قادته الولايات المتحدة الأمريكية حتى انسحابها في العام الماضي 162000 ضحية؛ ثمانون بالمائة منهم مدنيون.

مؤسسة إحصاء ضحايا العراق... طرأ تغير طفيف على مستوى العنف في العراق في أواسط عام 2009، وانخفضت حدة العنف عما كانت عليه بين عامي 2006-2007 عندما كاد أن يصل إلى شفا حرب أهلية.

بيّنت الإحصاءات أن 79% من الضحايا مدنيون، والباقين جنود أمريكيون وأمنيون عراقيون ومتمردون. وتوضح مؤسسة إحصاء ضحايا العراق

بأن العنف وصل إلى الذروة عام 2006، واستمر بمستوى مرتفع حتى عام 2008...".

عدد ضحايا عهد ديكتاتورية صدام في الحروب التي أشعل أغلبها يزيد كثيراً على عدد الذين فقدوا حياتهم في حرب عام 2003 والمرحلة التي تلت.

واجه طوني بلير أيضاً السؤال الذي نُصفع به بين وقت وآخر. يقول: "هل العراق الآن أفضل مما كان عليه في عهد صدام؟". لهذا السؤال جواب منطقي واحد: "بالتأكيد". ولإثبات هذا الأمر، يورد بعض الأرقام حول ضحايا عهد صدام جمعها من مختلف المصادر:

* ضحايا الحرب الإيرانية العراقية بين عامي 1980-1988 من ستمائة ألف إلى مليون ومائة ألف (أنطوني كوردسمان، The Lessons of Modern War ، المجلد الثاني، ص 3).

* ضحايا حملة الأنفال ضد الكورد عام 1988 حوالى مائة ألف كوردي، وأصيب عدد أكبر (هيومن رايتس ووتش، الإبادة الجماعية في العراق، 2003).

* ضحايا حرب احتلال الكويت عام 1991/حرب الخليج خمسة وسبعون ألفاً (ضحايا حروب القرن العشرين وصراعاته، Cornell University, Peace Studies Program).

* خمسون ألف ضحية في الحملة ضد الشيعة وردود الفعل (Leitenberg).

* أكثر من مائة ألف ضحية عبر السنين لأهداف مختلفة (ثمة ضرورة للعدالة من أجل جرائم الحكومة العراقية، كانون الأول 2002) (The Journey ، ص 378).

تعرفت إلى طوني بلير بعد أن دونت هذا المقتطف من كتابه بفترة قصيرة. كان مدير جلسة ندوة في اسطنبول شاركت فيها. أبلغني أن آرائي الواردة في مداخلتي تنسجم مع آرائه. وأبلغته أنني اعتمدت على كتاب مذكراته حول نتائج حرب العراق. وكنا بوضعين متطابقين؛ نظراً إلى كوننا هدفاً لانتقادات حادة بسبب الموقف من حرب العراق.

كان من الواضح تماماً أن صدام يعمل في العراق ومحيطه كآلة قتل، وكان سيبقى على هذه الحال لو تُرك. لا يمكن لأي مبرر أيديولوجي أو حقوقي – على الرغم من عدم وجوده على الورق – أن يشوش اعتقادي المطلق بضرورة إزاحة نظام ظالم ومجرم من الناحية الأخلاقية والإنسانية.

يقول جوسيه راموس - هورتا قائد حركة المقاومة والاستقلال في تيمور الشرقية، والحائز على جائزة نوبل عام 1996: "لو أن الاحتجاجات المناهضة للحرب جعلت الولايات المتحدة وحلفاءها يتراجعون عنها لساهمت في سلام أولئك الضحايا".

لم يُحل دون الحرب. وبعد الحرب، أنقذ الكورد الذين ينتمون إلى قومية تشكل خمس شعوب تركيا من نير حكم صدام الذي استهدفهم بحرب إبادة جماعية. وأصبحت العراق دولة فيدرالية، واتخذ الكورد مكانهم في مسرح التاريخ بهويتهم القومية الكوردية. وتأسست في شمال العراق إدارة كوردية مستقلة تقريباً، وصارت الكوردية إلى جانب العربية لغة رسمية بحسب الدستور.

من التطورات التي ستفرضها حرب العراق مواجهة تركيا لقضية كوردها ومبادرات حلها. أما تركيا الديمقراطية التي تحل قضية كوردها فستصبح قوة إقليمية ومؤثرة في الساحة الدولية.

لا يمكن لتركيا أن تحظى بما حظيت به في عراق ما بعد صدام لو بقي نظام صدام أو نظام شبيه به.

XVI - بنّاء حالم



فرضية أن تؤدي الأحداث إلى نموذج مخطط له مسبقاً نقطة ضعف خاصة بالمحافظين الجدد. يمكن أن تكون بقايا الماركسية التي لم تُنظف تماماً أحد الأسباب. وجد المثقفون المحافظون الجدد ورثة التروتسكية فكرة الثورة من القمة التي يلعب فيها المثقفون والمفكرون دوراً هاماً فكرة جذابة. الكثير من المحافظين الجدد يميلون للاعتقاد بحتمية هيغل (انظروا فرانسيس فوكوياما). وبهذا المعنى، إن فرضية أن تكون الديمقراطية الليبرالية قدراً بدفع أمريكي بسيط تشبه رأي جين ج. كيركباتريك الذي استلهمته من حنة أريندت: "لا يمكن للأنظمة الشيوعية الشمولية أن تُصلح من الداخل".

جاكوب وينبرغ (مدير تحرير Slate)

ذات مساء حزيراني من عام 2010، التقيت بول ولفويتز بعد انقطاع دام سنتين. مهما دار الحديث، لم يكن ثمة بدٌّ من عودته إلى العراق.

بماذا يفكر عقل حرب العراق لعام 2003 و"عرابها الثقافي" الذي ينفرد بحمل لقب "بنّائها ثقافياً" عندما ينظر إلى الوراء يا ترى؟

هل يشعر بالندم نتيجة الدور الذي لعبه؟ هل يلتفت إلى الوراء ويتوصل إلى ما توصل إليه كنعان مكية وميشيل إغناتيف؟ هل انطلق في

"قافلة النادمين".

سألني: "هل تعرف السفير ريان كوكر؟". ويقصد الدبلوماسي الكبير الذي كان يحمل صفة سفير الولايات المتحدة في بغداد، ثم تابع: "كان معارضاً للحرب. تقابلنا قبل فترة. سألته: ما رأيك يا ريان؟ قال: ما زال الوقت باكراً لكي أجيبك...".

ثم أطلق قهقهة طفولية ساخرة متقطعة يعرفها المقربون منه جيداً، وخرجت عن لسانه عبارة: "ما زال الوقت باكراً لكي أجيبك".

ثمة بداية لهذه النقطة من الحوار. قبل عدة دقائق، وخلال اجتماع مجموعة بلدربيرغ في فندق ريتز كارلتون في اسطنبول الذي حضره ولفويتز، نقلت له حديثاً جرى بيني وبين هنري كيسنجر. نتيجة التقارب الذي نشأ بيني وبين هنري كيسنجر لأنني ألتقيه في استراحة القهوة أثناء الاجتماعات، وإلى مائدة العشاء لليلتين، وعند تناول الفطور كل صباح، وعند الغداء الذي جلست فيه ملكة هولندا إلى الطاولة (حضرها كلها ريتشارد هولبروك) اقتربت منه، وقلت له: "دكتور كيسنجر، هل يمكنني أن أسألك سؤالاً؟". ووجهت سؤالي لأهم رجل دولة أثرت سياسته على القرن العشرين وهو يحملق من خلف نظارته سميكة العدستين: "طالما يُذكر حديث جرى بينكم وبين رئيس الحكومة الصيني الراحل تشو إن لاي. سألتموه عن رأيه بثورة عام 1789 الفرنسية...".

قاطعني هنري كيسنجر قبل أن أكمل سؤالي، وقال: "هو أيضاً قال لي: ما زال الوقت مبكراً لأجيبك...".

- نعم.
- حسنٌ، ما السؤال؟ ماذا كنت ستسأل؟
- هل جرى بينكم هذا الحديث؟
- لا!
- ولكن العالم كله يعرف الأمر على هذا النحو...
- أعلم. حتى إنني أستشهد بتلك الكلمات!

لقد رسخت عبارة: "ما زال الوقت باكراً لأجيبك..." في خزينة المعلومات العالمية. وعندما سمعتُ من بطل القصة شخصياً وبشكل ساخر أن شيئاً كهذا لم يحدث تشوش عقلي تماماً حول ما هو صحيح وما هو خاطئ في التاريخ.

لم تبق تلك القصة هناك باعتبارها مشوشة للتفكير حول ما هو صحيح وما هو خاطئ في التاريخ. قابلت كيسنجر في اسطنبول مرة أخرى

في 13 تشرين الأول 2011. إذ دعيت إلى محاضرة مغلقة يلقيها ج. ب. مورغن في اسطنبول بعنوان: "الهوية التركية والسياسة الخارجية الجديدة". أدار طوني بلير الجلسة. تجمدت عندما دخلت إلى قاعة الاجتماع؛ إذ كانت مجموعة المحاورين تضمّ ألمع السياسيين الدوليين. ميزت عيناي فوراً هنري كيسنجر وكوفي عنان ومبدع الأعجوبة السنغافورية لي كوان يو ورئيس الجمهورية الكولومبي بين عامي 2002-2010 ألفارو أوريبي، ومن مشاهير الولايات المتحدة ريتشارد هاس والبروفيسور شبلي تلحمي إلى طاولة مربعة في الوسط. فجأة تذكرت عبارة "ما زال الوقت مبكراً لأجيبك" التي مرت بيني وبين كيسنجر قبل أربع سنوات. أخبرته أنني أدرجت القصة في كتابي. فهل يؤكدها؟

أجرى كيسنجر التصحيح اللازم من أجل هذا الكتاب وقال: "قبل فترة، التقيت أحد المترجمين الذين كتبوا محضر ذلك الاجتماع من أجل العمل على كتاب. لقد جرى بيننا حوار كهذا حقيقة...".

- هل هذا يعني أنكم عندما سألتم تشو إن لاي عن رأيه بالثورة الفرنسية أجابكم: "ما زال الوقت باكراً لأجيبك"؟

- نعم، أجابني، ولكن ذلك الحوار جرى عام 1971. لم أكن أقصد ثورة 1789 الفرنسية. لا بد أنكم تذكرون أحداث فرنسا الكبرى عام 1968. إذا أخذنا بعين الاعتبار تاريخ ذلك الحوار، فلا يمكن أن يكون قد فهم السؤال على أنه عن عام 1789.

كان تصحيح كيسنجر مفيداً جداً من أجل هذا الكتاب، ولكن عبارة تشون إن لاي "ما زال الوقت باكراً لأجيبك" التي تتردد على أنها تقصد ثورة 1789 الفرنسية لم تتغير.

عندما أردت معرفة ما إذا كان لدى بنّاء الحرب العراقية الأساسي ولفويتز "نقداً ذاتياً" منه شخصياً، أجابني بالعبارة المنسوبة لشو إن لاي: "ما زال الوقت باكراً لأجيبك".

لم يتفق بول ولفويتز مع بول بريمر الذي ترأس إدارة الاحتلال بعد حرب العراق مباشرة في أي موضوع تقريباً. كان بريمر خيار دونالد رامسفيلد الذي يعتبر رئيس ولفويتز ورئيس سلطة الائتلاف الموحدة المؤقتة. ولأن الولايات المتحدة نموذج دولة استعمارية على طريقة القرن التاسع عشر أطلق عليه صفة: "الحاكم المطلق"، وكانت الصحافة الإنكليزية تطلق هذه الصفة عليه.

بول بريمر رمز انتقال الولايات المتحدة من "منقذة" إلى "محتلة".

ويعتبر الكثير من العراقيين ومتابعي الشأن العراقي أن أكبر أخطاء الولايات المتحدة هو تحولها إلى محتلة. لو تمكنت الولايات المتحدة من نقل السلطة إلى العراقيين بعد وقت قصير من المرحلة التي ترمز إلى تغيير النظام، وبدأت بالهجوم الجوي في 9 نيسان 2003، وانتهت بإسقاط تمثال صدام حسين في ساحة الفردوس، لكتُب تاريخ العراق بشكل مختلف.

في الحقيقة، إن مجلس الحكم الذي يعتبر التجربة الأولى في الإدارة العراقية والمؤلف من خمسة وعشرين شخصاً يمثلون القوميات والطوائف كلها تشكّل في مرحلة بول بريمر. ولكن سلطة الائتلاف المؤقتة التي يرأسها بول بريمر هي الإدارة الحقيقية، ولم يكن مجلس الحكم سوى ورقة تين أمام عورة إدارة الاحتلال.

عام 2006 قيّم أحمد جلبي الوضع باعتباره أحد أعضاء مجلس الحكم لمراسل نيويورك تايمز ديكستر فيلكنس الذي شهد الحرب على النحو التالي: "حدث أسوأ ما يمكن أن يحدث في العالم. نحن المسؤولون وليست لدينا سلطة. اتُهمنا بكل ما فعله الأمريكان، ولكننا لم نكن نستطيع عمل شيء". ويتهم جلبي صديقه الأقرب الذي كاد أن يكون شريكه في التحضير للعملية العسكرية الأمريكية بول ولفويتز، فيقول: "المسؤول الأول عن كل ما جرى هو بول ولفويتز. لقد وقع فريق البنتاغون في فخه".

مع بداية حكم بول بريمر، تأججت المقاومة ضد الاحتلال الأمريكي، والحرب الطائفية بين الشيعة والسنة، وأصبح العراق في وضع لا يمكن إدارته. وقد اختلف بول ولفويتز مع بريمر في الموضوع الذي حمّله أحمد جلبي مسؤوليته. وقد أورد بول بريمر جدله مع ولفويتز في البنتاغون عندما عرّج على واشنطن في أيلول عام 2003 في كتابه: " My Year in Iraq /سنتي في العراق":

"قال ولفويتز: "يجب أن نتحرك بسرعة على الجبهة السياسية. ماذا سيحدث إذا وسّعنا المجلس إلى مائة أو مائتي شخص، ونقلنا السلطة إليه؟".

أجبته: "يمكننا أن نفعل هذا نظرياً على الأقل. ولكن هذا يحتاج إلى وقت طويل... سنهدر الوقت". وذكّرته أن فريق الإدارتين الأمريكية والإنكليزية قد قضى أكثر من شهرين بعمل أربع وعشرين ساعة يومياً من أجل جمع خمسين شخصاً: "الله أعلم كم سيستغرق هذا من وقت".

"حسنٌ، إذا تركنا للائتلاف مهمة توسعته فماذا سيحدث؟".

"لم يقدم هؤلاء الأشخاص أي موهبة على صعيد توسيع تمثيلهم...".

لم يبدُ على ولفويتز أنه اقتنع، ونقل الموضوع إلى الوضع الأمني. ألا يمكننا أن نسرّع تدريب العراقيين؟ هكذا يمكنهم أن يحلوا محل الجنود الأمريكان...". (بول بريمر، سنتي في العراق، سايمون وشوستر، نيويورك، 2006، ص 171)

إن فترة إدارة بول بريمر في العراق تتشابه بشكل غريب جداً مع فترة السير أرنولد ويلسون وبعده السير بيرسي كوكس عندما أدار الإنكليز العراق بين عامي 1918-1921 وحتى إلى عام 1923. خاصة مرحلة الانتفاضة الكبرى التي ما زالت تسمى في العراق "ثورة 1920" وشارك فيها الشعب العربي كله؛ شيعة وسنة تقريباً، وجزء من كورد الشمال... وقد استُخدم الغاز السام لأول مرة ضد الكورد لقمع تلك الانتفاضة.

لم يختلف عقل الحرب العراقية الثقافي وعراب فكرة تغيير النظام بول ولفويتز مع بريمر فقط، بل اختلف بشكل مستتر في الكثير من الأحيان مع رئيسه رامسفيلد أيضاً. ولكنه لم يصطدم مع أحد بقدر ما اصطدم مع وزير خارجية بوش في فترة سنواته الأربع الأولى كولن باول؛ حيث وصلا إلى درجة العداء.

تعود جذور الخلاف بين ولفويتز وباول إلى عام 1993. وقد تأجج من جديد عام 2003. كان بول ولفويتز مستشار البنتاغون السياسي عام 1993. وبحسب الرتب، كان الشخصية الثالثة في وزارة الدفاع الأمريكية. عند انسحاب جيش صدام المحتل للكويت بشكل مهلهل، أي عندما كان طريق بغداد مفتوحاً تماماً، لم يكن في المواقع العليا الأمريكية من يدافع عن التوجه إلى بغداد غيره. كان كولن باول في تلك الأثناء رئيس هيئة الأركان الأمريكية. أيد الجنرال برنت سوكروفت مستشار الرئيس بوش للأمن القومي، وقادة ميدانيون مثل الجنرال نورمان شوارتزكوف وقف إطلاق النار وانسحاب القوات الأمريكية من العراق خلال فترة قصيرة.

روى الرئيس جورج بوش الأب ومستشاره لشؤون الأمن القومي الجنرال برنت سوكروفت أسباب عدم التوجه إلى بغداد في حرب الخليج عام 1991 في مقالة نشرت في جريدة تايمز بتاريخ 2 آذار 1998 بعنوان: "لماذا لم نُسقط صدام؟".

"لقد انتهت المقاومة العراقية الحادة بسرعة فاجأتنا جميعاً، ويبدو أننا لم نكن جاهزين من الناحية النفسية للانتقال من الحرب إلى السلام. أوقفنا الحرب عندما وصلنا إلى أهدافنا الاستراتيجية التي وضعناها (إخراج القوات العراقية من الكويت وإنهاء تهديد صدام للمنطقة). ولكن تحديد الغايات،

وضباب الحرب، وعدم وجود اتفاقية استسلام مثل اتفاقية "ميسوري" ولّدت مشاكل معقدة مع الأسف، وظهرت مشاكل أخرى.

خاب أملنا كما خاب أمل الكثيرين من حلفائنا العرب نتيجة هزيمة صدام وعدم زوال نظامه. وقد أعلن الرئيس بوش مرات عديدة أن مصير صدام بيد الشعب العراقي. وكان يقول أحياناً إن سقوط صدام سيكون جيداً جداً، ولكنه لأسباب عملية لم يعد بدعم انتفاضة محتملة. على الرغم من أمنيته بحصول انتفاضة شعبية أو انقلاب عسكري يطيح بصدام، إلاّ أن الولايات المتحدة ودول المنطقة لم تكن راغبة بتقسيم العراق. كنا نشعر بالقلق منذ فترة طويلة من توازنات القوى في شمال الخليج. فالعمل على إزالة صدام يعني تحويل الحرب البرية إلى حرب احتلال، وخرقاً لمبدئنا الذي يقضي بعدم تغيير الهدف في منتصف الطريق لأنه لا يمكن تقدير الثمن الإنساني والسياسي لهذا التغيير. يمكن أن يكون القبض على صدام مستحيلاً. لم نجد نورييغا في بنما التي نعرفها بشكل جيد جداً. وكنا سنضطر لاحتلال بغداد وإدارة العراق، وسينهار التحالف فوراً، وينسحب منه العرب غاضبين، ثم ينسحب منه حلفاؤنا... دخول العراق واحتلاله يعني تجاوز الصلاحية التي منحها مجلس الأمن، وستمحق ردة الفعل الدولية العمل. لو سلكنا طريق الاحتلال، لبقيت الولايات المتحدة قوة محتلة ينظر إليها نظرة عدوانية...".

تبدو هذه المبررات معقولة جداً عندما ننظر إلى الماضي - خاصة بعد الاحتلال الأمريكي بين عامي 2003-2011- ونقيّم الوضع. ومن زاوية أخرى، يمكن اعتبار أن حرب الخليج لم تحقق هدفها الذي يجب أن تحققه، وهذا ما سبّب حرب عام 2003 والاحتلال.

عندما أُدرك في واشنطن أن صدام حسين سيُترك واقفاً، ضغط ولفويتز لتشكيل منطقة آمنة للشيعة في الجنوب من أجل إضعاف صدام، وتحديد حركة سلطة بغداد. وقد اصطدم مع كولن باول في هذا الأمر أيضاً.

كان الجنرال باول في تلك الفترة يضغط من أجل انسحاب الولايات المتحدة من العراق بأسرع وقت ممكن. روى لي ولفويتز كيف كان باول في تلك الفترة يستخف به في الاجتماعات الحارة خلف الأبواب المغلقة في واشنطن قائلاً: "بول، يبدو أنك غير منتبه إلى أننا انتصرنا في الحرب". وكيف كان يرد عليه: "لا، لم ننتصر".

كان بول ولفويتز يرى أن حرب العراق لم تنته، ولأنها لم تنته كان يعتبر "عراباً فكرياً" لحرب 2003. ولكنه اصطدم من جديد مع باول قبيل

اندلاع الحرب. في ذلك الوقت، كان باول وزير الخارجية الأمريكي، وولفويتز رجل البنتاغون الثاني القوي.

بول ولفويتز أكثر شخصيات الإدارة الأمريكية قرباً لتركيا، وأكثرهم احتراماً لها. فهو يقدر تركيا أكثر من الجميع، ومقبول في أوساط الإدارة. ولكن خصمه الأكبر كولن باول قبيل الحرب قدّم تقييماً لافتاً حول تركيا:

"كان فرانكس (رئيس هيئة الأركان الأمريكي في تلك الفترة) يؤيد باستمرار فتح جبهة الشمال، واقترح الإنكليز دخول قواتهم عبر تركيا.

سأله باول في اجتماع مجلس الأمن القومي بطريقة ساخرة: هل ستدخلها من تشنق قلعة؟ كان يقصد خسارة الإنكليز والأستراليين مائة ألف رجل، وانتهاء عملية إنزالهم بكارثة في الحرب العالمية الأولى، وقد صُورت فيلماً عام 1981. فقال: لقد شاهدنا هذا الفيلم، ولن يحدث هذا. كان باول يعتبر هذا الاقتراح عبثياً.

بعد فترة، عاد التخطيط لدخول القوات الأمريكية عبر تركيا. بدأ فرانكس يناقش نقل قوات تتألف من ثلاثين ألفاً إلى ثمانين ألفاً بعتادهم عبر تركيا. حُمّلت سفن الشحن بدبابات اللواء الرابع مشاة، وأمرها رامسفيلد بالتوجه نحو البحر المتوسط لتفرغ حمولتها في تركيا.

قال باول إنّ قوة بهذا الحجم تحتاج إلى إعادة نظر بكل الاتفاقيات المبرمة مع تركيا: "هل ستمر قوة ثمانين ألفاً تقريباً عبر تركيا؟ أيها الأصدقاء، هناك حكومة إسلامية جديدة لا تستطيع تحمّل هذا". خُفِّض الرقم إلى أربعين ألفاً، ثم رُفع إلى اثنين وستين ألفاً.

قال باول لمجلس الأمن القومي: "باعتقادي، يمكنكم تأمين استخدام المجال الجوي التركي. يمكنهم أن يحلّوا الجزء الجوي من العمل. ما تقولونه يعني أنكم ستمررون قطاراً طويلاً جداً وخلفه قافلة طويلة من العربات من أول الأناضول – يحب باول استخدام الأسماء التاريخية القديمة، واستخدم اسم القسم الآسيوي من تركيا بدلاً من تركيا – إلى آخرها؛ من أجل احتلال دولة إسلامية أخرى. أنا يمكن أن أؤيد هذا، ولكنه عمل يشبه تحميل ميزان تركيا حملاً يفوق استطاعته، ولا أعتقد أنكم تستطيعون تحقيقه، وأنتم تغامرون بكل شيء من أجل الحصول عليه. هل هذا ضروري فعلاً؟".

كان فرانكس ورامسفيلد يعتقدان أن الأمر ضروري.

في 1 آذار رفض البرلمان التركي طلب أمريكا تمرير وحداتها العسكرية من بلده. في ما بعد صرح فرانكس بأن اللواء الرابع مشاة المنتظر في

البحر قريباً من الشواطئ كان خديعة مؤثرة. فقد استخدمت المخابرات الأمريكية مصادرها، وأبلغت الدائرة الأقرب لصدام بأن تركيا قبلت مرور القوات الأمريكية سراً، وأن تصويت البرلمان مجرد حيلة. أدت خديعة فرانكس لربط صدام 11 لواء نظامياً، و3 ألوية من الحرس الجمهوري في الشمال، وبهذا تأخرت بالتحرك للدفاع عن بغداد.

كانت هذه "ذروة" بالنسبة إلى باول". (بوب وودورد، خطة الهجوم، سيمون وشوستر، نيويورك، ص 324-325)

لقد طرح كولن باول حدساً أصدق حول موقف تركيا المحتمل عام 2003، ولكن التاريخ سار وفق ما اقترحه ولفويتز.

تعرفت إلى بول ولفويتز عام 1995. عرفتنا شاها علي رضا التي أقامت علاقة معه في ما بعد، وكانت سبباً بتركه البنك الدولي عام 2007. تعرفت إلى شاها أول مرة وطئت قدماي فيها الولايات المتحدة الأمريكية، وكنت مدعوًّا لمؤتمر حول قبرص، وكانت متزوجة من بولند علي رضا الذي كان يحمل في تلك الأثناء لقب ممثل الولايات المتحدة لجمهورية شمال قبرص التركية. التقى شاها وبولند علي رضا أثناء إعداد شاها أطروحة الدكتوراه في كلية سانت أنطوني في أكسفورد بعد أن أنهت شاها دراسة الاقتصاد من مدرسة لندن.

بعد أن انفصل الزوجان علي رضا، استمرت علاقتي بكل منهما. كان بيت كل منهما مفتوحاً لي كلما ذهبت إلى واشنطن إذا لم أكن نازلاً في الفندق. أول تواصل لي مع مراكز الدراسات في واشنطن تم عبرهما. بدأ بولند العمل في مؤسسة كارنيغي التي عُين مورتون أبراموويتس مديراً لها؛ إثر انتقاله من منصب سفير الولايات المتحدة في أنقرة، وتركه ممثلية جمهورية قبرص التركية. في ما بعد، دخل مركز دراسات مهمًّا آخر هو "مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية".

أما شاها فقد دخلت الصندوق الوطني للديمقراطية. أسست الولايات المتحدة هذه البنية لتقوم بمداخلات يمكن تسميتها "تصدير الديمقراطية"، وكانت مسؤولة عن قسم التحول الديمقراطي في البلاد العربية. قدمتُ عدة مداخلات حول قضية العسكر في تركيا مع كارل غيرشمان مدير الصندوق الوطني للديمقراطية عن طريقها. وبدأت أدعى كمتحدث إلى مؤتمرات الصندوق الوطني للديمقراطية. ذات يوم، أخبرتني شاها أنها يمكن أن تعرفني إلى بول ولفويتز الذي كان مدير هيئة الصندوق الوطني للديمقراطية إذا أردت. كنت أعرف اسم بول ولفويتز وموقعه الهام في

مرحلة حرب الخليج. وافقت على اقتراح شاها بكل حب. وقد اهتم ولفويتز بالتعرف إليّ لأنني كنت مستشاراً لتورغوت أوزال أيام حرب الخليج.

التقينا نحن الثلاثة على الغداء في مطعم ماليزي - أندونيسي في كونكتكانت أفينيو اختاره بول ولفويتز. انتقل الموضوع فوراً إلى أيام حرب الخليج. كان ولفويتز فضولياً لمعرفة رأي أوزال أثناء الحرب وبعدها، وردة فعله، و"خلفية" ما جرى في تركيا. رويت له بعض المواقف التي شهدتها شخصياً، وروى لي ما كان يناقش في الإدارة الأمريكية، وخلفية الأحداث هناك بصراحة ووضوح أدهشاني. أدهشه حديثي عن موقف أوزال، وكان سعيداً بحدس رئيس الجمهورية الراحل، كما دُهشت لمعرفتي بعض الأحداث والصراعات الداخلية الأمريكية التي لم أكن أعرفها، ومعرفتي أننا كنّا نسير على التوازي. وقد شردنا في الحديث ولذة مطبخ ملاي الذي لم أكن أعرفه حتى ذلك اليوم، إلى درجة أنني كدت أن أفوّت موعد الطائرة التي ستقلني إلى تركيا.

معرفتي ببول ولفويتز ذات ظهيرة من عام 1995 بهدف الحديث حول العراق بدأت بحديث حار، وتحولت إلى صداقة، مع استمرارها ولقائنا في كل زيارة له إلى تركيا، وكل زيارة لي إلى واشنطن. كان ولفويتز في فترة كلينتون الديمقراطي عميد مدرسة الدراسات الدولية المتقدمة " School of Advanced International Studies \SAIS " التابعة لجامعة جونز هوبكنز في واشنطن التي تمنح درجتي الماجستير والدكتوراه. وقبل ذلك، شغل منصباً مهماً في وزارتي الخارجية والدفاع الأمريكيتين. وبفضل التقليد الأمريكي الذي يتجاوز الأحزاب، إن ولفويتز بصفته عميدَ " SAIS " يعتبر أحد رجال النخبة السياسية الأمريكية المهمين، وإن كان الديمقراطيون على رأس الحكم.

ليست ثمة علاقة بين صورة بول ولفويتز التي تطورت صداقتي به في النصف الثاني من التسعينيات، والصورة التي انتشرت عنه في العالم خلال فترة حرب العراق.

كان منفتح الفكر، وكانت شخصيات الإدارة الأمريكية المعتبرة والشهيرة عالمياً وعلى رأسها شخصيات المخابرات الأمريكية تنال نصيبها من سخريته ولسانه اللاذع. ولم يجد ضرورة لإخفاء نقده لتلك الشخصيات والمؤسسات حتى أمامي أنا الصحفي الأجنبي. خلال الفترة التي عُرف فيها بول ولفويتز بأنه البنّاء الفكري لحرب العراق، والأيام التي وصلت فيها معارضة الحرب إلى الذروة، روى عنه العاملون معه أنه متكبر وحاد. ولكنني عرفت بول

ولفويتز بخصوصيته وتواضعه على عكس ما ادعي.

جاء إلى اسطنبول لحضور اجتماع أيام استهداف هيئة الأركان لي بالتهديد في أيار من عام 1988، واتصل بي عند وصوله، وقال مبدياً تضامنه معي على عكس بعض زملائي الذين ابتعدوا عني في مرحلة انقلاب 28 شباط وكأنني وباء: "سمعت أنك واقع في مشكلة، لنتحدث في ما يمكن لنا أن نفعله". خلال اجتماع فندق تشيرغان في اسطنبول، نهض نائب رئيس هيئة الأركان ورمز مرحلة 28 شباط تشفيك بير كنجم إعلامي بشكل استعراضي، وجاء إلى طاولتي، وعانقني، وقال بصوت مرتفع حيث يسمعه: "يجب أن نلتقي بعد الطعام لنتكلم". مبدياً تضامنه معي.

كان ولفويتز مرتبطاً بمفهوم الديمقراطية وليس بمفهوم العسكر. وكان الجنرالات الأمريكيون لا يطيقونه؛ حتى عندما كان الرجل الثاني في البنتاغون. يذكر الجنرال نورمان شوارتزكوف الذي قاد الحرب في الميدان في مذكراته أنه عارض خطة عمليات أعدها ولفويتز قائلاً: "غير قابلة للتطبيق"، وبرّر موقفه على النحو التالي: "إذا نصَّبتم مدنياً ليكون مسؤولاً عن العسكر فإنه بعد فترة قصيرة لن يكتفي بممارسته السياسة، وسيحاول تعليم الجنرال القيادة العسكرية".

كنا عام 1998 قريبين جداً؛ إلى درجة أن يفضي أحدنا للآخر بمشاعره الخاصة. كان يعاني من اضطرابات نفسية كبرى لأنه سينفصل عن زوجته التي عاش معها ثلاثين سنة. فتح لي قلبه، وأخبرني عن همومه بصراحة تامة. وأنا كنت قد فقدت والدي في تلك الأثناء. وقد كان في اسطنبول أيضاً في تشرين الأول من عام 1998 المحمل بالهموم بالنسبة إلي. أخبرني بأنه شعر بما يعنيه الأب بالنسبة إلى الأولاد بعد أن فقد والده. بدا لي عزاء ولفويتز في تلك الأيام من أحر التعازي التي تلقيتها. هاجر والد ولفويتز البروفيسور جاكوب إلى نيويورك وهو صبي في العاشرة، وهو ابن عائلة يهودية بولونية. كان عالماً "عظيمًا" ومحترماً عالمياً في الرياضيات. على الرغم من شهرة العبقري الرياضي جاكوب ولفويتز بأنه صهيوني، فأنا لا أذكر أننا تكلمنا - بول ولفويتز وأنا - عن الصهيونية وإسرائيل، ولم نشعر بضرورة التكلم قط. هو أيضاً لم يسألني عن ماضيّ في مطلع السبعينيات في المقاومة الفلسطينية على الرغم من معرفته هذا؛ وكأن بيننا عقداً لم يسمَّ بألا أتكلم عن فلسطين ولا يتكلم عن إسرائيل طوال لقاءاتنا الممتدة لخمسة عشر عاماً. موضوع الهلوكوست أيضاً لم يفتح في أحاديثي مع بول ولفويتز. قرأت هذه الأسطر عن تكوينه الثقافي في دراسة لشخصيته:

"ثمة أربعة خيوط رفيعة في تطور بول ولفويتز الثقافي: جذره اليهودي البولوني، وآثار جامعة شيكاغو باعتبارها سوقاً مفتوحة للأفكار، وامرأتان مهمتان في حياته وهما زوجته على مدى ثلاثين عاماً عالمة البشريات كلارا سلغين، وفي ما بعد عشيقته شاها علي رضا، وأخيراً الاحترام والصداقة اللذان يحملهما للمنفيين العراقيين وبشكل خاص أحمد جلبي". (Karl E. Meyer & Shareen Blair Brysac, Kingmakers-The Invention of the Middle East, New York, 2008, p. 388)

استمعت بشكل مدهش من ولفويتز شخصياً، ولساعات في بيتي في اسطنبول عن درجة حساسيته ضد الأنظمة القمعية، وعن دوره بإسقاط بعضها في التاريخ القريب.

دور ولفويتز بإسقاط نظام ماركوس حليف أمريكا القريب في الفلبين، وتحول هذا البلد الديمقراطي في عهد رونالد ريغان عام 1981 فتح أمامه باب تعيينه سفيراً في أندونيسيا. وهناك بدأت تتشكل قناعة بول ولفويتز القوية بإمكانية تعايش الإسلام والديمقراطية. أندونيسيا هي الدولة الإسلامية الأكبر بعدد السكان، وأقوى تيارات المعارضة للديكتاتورية هناك تتشكل من الإسلاميين. وقبل مرور وقت طويل، بدأ ولفويتز بالتواصل معها. وأقام الإسلاميون الأندونيسيون علاقة قوية مع هذا اليهودي الأمريكي. قرأت لاحقاً هذه المقالة المتضمنة معلومات حول بول ولفويتز:

"... قال لبيتر ج. بوير: حقيقة، لم آمل أن أعشق المكان هنا. ولكنني عشقته. ثمة ما يلبي رغبتي بشكل مدهش في أندونيسيا.

تعرف ولفويتز إلى عبد الرحمن وحيد زعيم المعارضة المتدين والمدني والمتسامح والمؤيد لفصل الدين عن الدولة، وأحبه وصادقه. يصف ولفويتز عبد الرحمن: "إنسان رائع. ما أردت قوله هو أنه قائد أكبر تنظيم إسلامي ومثال للتسامح. كيف لا تعجبون بإنسان كهذا؟". غضب الطاغية الطاعن بالسن سوهارتو إثر إصرار ولفويتز على إحداث تغيير ديمقراطي في النظام خلال لقائه الأخير معه بصفته سفيراً. بعد فترة، تحولت منظمة عبد الرحمن وحيد إلى حزب سياسي، وفي أول انتخابات ديمقراطية انتخب قائده – أي وحيد – رئيساً للجمهورية. (المصدر السابق، ص 398-399)

حدثني ولفويتز باندفاع طفولي لعدة ساعات عن عبد الرحمن وحيد. وعبّر خلال الحديث بصراحة عن كرهه للعسكر عموماً، والأنظمة الديكتاتورية خصوصاً.

وقد تشكلت قناعته حول إمكانية تطبيق الديمقراطية في العراق

وضرورة إسقاط صدام من أجل تطبيقها قبل فترة طويلة.

تعود فكرة تغيير النظام في العراق في عقل ولفويتز إلى سنوات طويلة مضت.

عندما لم يكن اسمه معروفاً نهائياً، وكانت الولايات المتحدة الأمريكية تركّز على "التهديد الإيراني" إبان الثورة الإسلامية الإيرانية في موضوع أمن الخليج عام 1979، قدَّم تقريراً بحثياً للبنتاغون يعتمد على اعتبار العراق التهديد الأساسي لأمن الخليج. رُفع ذلك البحث على رفوف الإدارة الأمريكية المغبرة؛ إذ كانت الولايات المتحدة الأمريكية تتحضر لدعم صدام في العراق ضد إيران.

أسطر تلك الدراسة لافتة:

"أصبح العراق أكبر قوة في الخليج. وهذا تطور مقلق. إذ يمكن للعراق أن يستخدم قوته العسكرية هذه ضد دول مثل الكويت والسعودية (كما حدث خلال فترة حكم إنكلترا عام 1961 في الأزمة الكويتية). علينا ألا نكتفي بحماية أنفسنا وحماية الكويت والسعودية إزاء احتلال العراق المحتمل للكويت أو استعراضه للقوة، بل علينا أن نفرض إمكانياتنا وتوازناً مع قوة العراق في المنطقة. وهذا يتطلب إبراز القوة الأمريكية بشكل أكبر...". (مقتطف من دراسة بعنوان " Limited for Capabilities Contingencies in the Persian Gulf, 1979 " كتبه تيموثي نواه في مقالة بعنوان " Wolfowitz's Overconfidence " منشورة على موقع " Chatterbox " للإنترنت تاريخها 29 آذار 2004).

اكتُشف تقرير ولفويتز لعام 1979 في أرشيف البنتاغون المغبر عند احتلال العراق للكويت عام 1990، وهذا ما رفع من مكانته في الإدارة الأمريكية لامتلاكه حدساً كهذا.

مهما دافع بول ولفويتز عن إمكانية تشكيل الديمقراطية العراقية الناجحة في بلد إسلامي مختبراً ديمقراطياً ونموذجاً يحتذي به العالم العربي – مستلهماً نموذجي أندونيسيا وتركيا بشكل خاص – فإن هذه الرؤية مجرد أيديولوجية جمالية، ولا تعكس الواقع تماماً. تشكلت بنية بول ولفويتز الفكرية التي تقدم الأمن الأمريكي على كل شيء آخر في النصف الثاني للقرن العشرين. تأثر ولفويتز بأفكار أستاذه العالم السياسي والاستراتيجي النووي البروفيسور ألبرت ولستيتر في جامعة شيكاغو المعارضة لسياسة الانفراج مع الاتحاد السوفييتي وسياسة كيسنجر منذ بدايتها أثناء الحرب الباردة.

سمعت هذا منه شخصياً. أثناء إحدى زياراتي إلى واشنطن، وفي الطائرة بين نيويورك وواشنطن، كان رسم كاريكاتوري لبول ولفويتز بلباس المحارب الرومي يملأ الصفحة الأولى من ملحق الأحد لجريدة نيويورك تايمز. موضوع غلاف الملحق هو الفيلسوف ليو شتراوس (1899-1973) ملهم المحافظين الجدد الذين تحكموا بسياسة الإدارة الأمريكية أثناء حرب العراق، وأستاذ ولفويتز في جامعة شيكاغو. ويذكر بول ولفويتز في طليعة مريدي ليو شتراوس من المحافظين الجدد في الإدارة الأمريكية. يوضع في رأس "شجرة عائلة المحافظين الجدد" ليو شتراوس، وتحته بول ولفويتز، وتضاف أسماء مثل ريتشارد بيرل، وأرام شولسكي، ووليام كريستول، وفرانسيس فوكوياما، ولويس "سكوتر" ليبي، وتحتها سيرة حياة كل من ليو شتراوس ومريديه.

عندما عرضت ملحق الأحد لنيويورك تايمز مساء ذلك اليوم في بيت شاها، هز كتفه، وقَلَبَ شفته، وقال من دون أن يبدي أي اهتمام بالرسم والمقال: "هذا خطأ. أنا تلقيت عدة دروس فقط من ليو شتراوس في جامعة شيكاغو. أستاذي الذي أثر بي أصلاً هو ألبرت ولستيتر".

الغريب أن بول ولفويتز يرفض أنه من المحافظين الجدد. أثناء استعراضي الكتب التي نزلت إلى السوق في واشنطن بعد أسبوع من إعلان جورج دبليو بوش عن سطح السفينة الحربية انتهاء الحرب العراقية، رأيت كتاب "الحرب في العراق" من تأليف وليام كريستول ولويس فريدمان. كان الكتاب الأحدث لتقييم الحرب من الجانب الأمريكي. عندما رأيت الكتاب في بيت شاها، أشرت نحوه لبول ولفويتز، وقلت: "صدر كتاب جماعتك". ألقى نظرة نحوه، وقال: "ما قصدك بجماعتي؟".

- المحافظون الجدد.

- أنا لست من المحافظين الجدد.

كانت تقاطيع وجهه كافية للتعبير عن جديته. ثم تابع: "أتّفق مع المحافظين الجدد في بعض النقاط، ولكنني لست منهم...".

- حسنٌ، كيف تعرّف بنفسك يا بول؟

- سؤال جيد. أنا أيضاً بحثت كثيراً عن جواب هذا السؤال. أفضل جواب وجدته هو "مثالي وعملي".

إذا لم يكن بول ولفويتز من المحافظين الجدد تماماً، فلا شك في أن أقرب زملائه من المحافظين الجدد الأمريكان المندفعين المعروفين، وهم أقرب مؤيديه. يُربط انتماء أقرب زملائه في العمل بالمحافظين الجدد وتأثيرهم في السياسة الأمريكية وتأييدهم القوي لإسرائيل مع دوره في حرب العراق؛

وهذا يؤدي بشكل طبيعي إلى ربط كل السلبيات ببول ولفويتز.

الخلاف في أوساط النخبة الأمريكية، وتعمق الاستقطاب والتنافر دفعا بول ولفويتز في مرحلة كان فيها من أكثر المستهدفين إلى أن يبحث عن طرق للوحدة. هواجس السياسيين نتيجة الصراع الحاد داخل الإدارة في واشنطن جعلت تمييز خط ولفويتز المستقل الخاص عن فكر حلفائه غير ممكن.

انتبه دينس روس الذي ترأس دائرة التخطيط في الإدارة الأمريكية وعمل معه، ثم غدا دبلوماسي الإدارة الأمريكية الأول في الشرق الأوسط إلى شخصية ولفويتز الخاصة، وقال عنه في تصريح لنيويورك تايمز: "لبول ولفويتز خصوصية تميزه عن جميع الذين عمل معهم في التشكيلة السياسية... وهذا يجعله منفتحاً على أنواع الفكر كلها بالمعنى الثقافي؛ أكثر ممن معه في صف واحد". (وليم كيلر، " The Sunshine Warrior " نيويورك تايمز، " Sunday Magazin" ، 22 أيلول 2002)

من المحتمل ألا يكون قد أعطى أهمية لإبراز نظرته الخاصة والمستقلة عن الآخرين. المهم بالنسبة إليه أن تكون "القوة الأمريكية" في مركز القضية الأمنية. وهذا أحد أهم أعمدة نظرته الاستراتيجية.

أثناء تبادلنا الحديث حول التوازنات الدولية في القرن الحادي والعشرين، ونهضة الصين قال: "من الممكن أن تكون نهضة الصين التي ذكرتها قبل قليل العاملَ الفلسفي غير المرئي الكامن خلف حرب العراق. يمكن تفسير حرب العراق بأنها تأمين السيطرة على منطقة الخليج، مقابل قوة ناهضة تحمل إمكانية أن تغدو دولة عظمى".

يعتمد ولفويتز في مبرره لبقاء الولايات المتحدة قطباً وحيداً في النظام العالمي الجديد بعد الحرب الباردة على ضرورة "استخدام القوة الأمريكية من أجل أهداف سامية ومشروعة". تبنى ولفويتز منذ البداية حماية البوسنة والهرسك، واستخدام القوة الأمريكية ضد الصرب، والتحرك لوقف المجازر في البوسنة. وانطلاقاً من المفهوم والمنطق نفسه، تبنى دعم المسلمين الألبان الكوسوفيين في تحركهم ضد الصرب ورئيس الدولة اليوغسلافي سلوبودان ميلوسيفيتش.

كان واثقاً بإمكانية تأسيس الديمقراطية في العراق عبر تغيير نظامها باستخدام القوة الأمريكية. وتركيا جارة العراق.

مثلت له تركيا مثالاً أهم من أندونيسيا. فهي إضافة إلى كونها دولة إسلامية وديمقراطية علمانية تقع فوق الفالق الزلزالي السياسي، وليست بعيدة

عنه مثل أندونيسيا، فالشرق الأوسط على حدودها.

اتخذ ولفويتز مكانه بين "أصدقاء تركيا" في الإدارة الأمريكية منذ بداية الثمانينيات عندما كان أولئك الأصدقاء ليسوا كثيرين في واشنطن. ومع الزمن، ازداد اهتمامه بتركيا، وتحول اهتمامه بتورغوت أوزال إلى إعجاب؛ خاصة في فترة حرب الخليج. عندما كان ولفويتز يعبّد الطرق المؤدية إلى حرب العراق عام 2002 مستفيداً من وضعه الجديد والمؤثر في الإدارة الأمريكية اعتبر تركيا الحجر الأساسي – ليست أحد الأحجار الأساسية، بل الحجر الأساسي – في الحملات السياسية التي خطط لها من أجل العراق.

ارتاح أكثر، وحتى إنه كان مسروراً، لحصول حزب العدالة والتنمية على الأغلبية وتشكيله الحكومة في خريف عام 2002. لم يشكل فوز حزب ذي صبغة إسلامية بطريقة ديمقراطية لولفويتز أي قلق لأنه عرف عبد الرحمن وحيد في أندونيسيا عن قرب، وتبنى نهجه المعتدل والمتسامح والديمقراطي وحتى العلماني. والأكثر من هذا أنه يدعم قناعاته وأطروحاته حول إمكانية تعايش الإسلام والديمقراطية.

لم يكن لديه شك بأن تركيا ستتصرف بإدارة حزب العدالة والتنمية كحليف تقليدي للولايات المتحدة أثناء التحضير لحرب العراق. وكان واثقاً بضرورة تقوية حكومة العدالة والتنمية بهويتها الإسلامية في تركيا، وحصول الولايات المتحدة على دعم حليفتها تركيا إلى درجة أنه فتح لأرضوغان أبواب البيت الأبيض؛ على الرغم من كونه محظوراً سياسياً، ورهناً للتحقيق. أثناء دخول طيب أرضوغان من ذلك الباب الذي فُتح له، فتح له أيضاً باب رئاسة الحكومة التركية بمفتاح مشروعية حصل عليها من أعلى مستوى وأقوى دول العالم.

كان رئيس حزب العدالة والتنمية طيب أرضوغان ممنوعاً من خوض الانتخابات. وعندما فاز حزبه بانتخابات 2 تشرين الثاني 2003، تسلّم رئاسة الوزراء الرجل الثاني في الحزب عبد الله غول. على الرغم من تشكيل حكومة العدالة والتنمية برئاسة عبد الله غول، ودخول طيب أرضوغان حملة إقناع في عواصم دول الاتحاد الأوروبي من أجل بدء مفاوضات حول عضوية تركيا الكاملة، واستقباله من قبل رؤساء – مثل جاك شيراك في فرنسا – ورؤساء حكومات أوروبا على أعلى المستويات، فقد بدأ مدعي عام التمييز في تركيا تحقيقاً قانونياً سيؤدي إلى توقيفه.

التقى بول ولفويتز عبد الله غول أثناء زيارته الثانية لتركيا في تشرين الثاني عام 2002، وقدم له مقترح مرور عشرات آلاف الجنود الأمريكان من

تركيا في حال نشوب حرب في العراق. تواصل في زيارته تلك مع رجل الأعمال جنيد ظابصو الذي كان مستشار طيب أرضوغان للسياسة الخارجية. شكل لقاء ولفويتز وظابصو بداية تطور، وصل بعد شهر إلى استقبال الرئيس جورج دبليو بوش أرضوغان في البيت الأبيض.

عرّج ولفويتز على اسطنبول أثناء ذهابه إلى أفغانستان يوم الأحد في 14 تموز 2002. وعندما جاء إلى أنقرة في طريق عودته من أفغانستان، وجد المسؤولين الأتراك ممتعضين إلى درجة كبيرة من الولايات المتحدة؛ وخاصة من تصوراتها حول العراق.

كنت مدعواً إلى عشاء صديقه المقرب في تركيا، رجل الأعمال مصطفى قوتش في بيته يوم الأحد في 14 تموز 2002، وأعرف أنني سألتقيه. أثناء عملي في مركز ولسون للدراسات، وبعده في معهد الولايات المتحدة للسلام في واشنطن بين عامي 1999-2000، كلما أتى مصطفى قوتش إلى واشنطن اعتاد على جمعنا نحن الثلاثة في وليمة يقيمها لبول ولفويتز. زيارة بول ولفويتز إلى اسطنبول كانت ذريعة لتكرار تقليد مصطفى قوتش موسعاً المجموعة. كنت أعلم قبل أيام أنني سألتقي بول ولفويتز على العشاء، ولكنني لم أكن أعرف أنه سيتصل بي ظهراً، ويطلب مني لقاءً عاجلاً في فندق كونراد على انفراد بعد الظهر.

تم التخطيط لزيارة ولفويتز قبل أسابيع. ولكن مع انطلاقه إلى تركيا بدأت حكومة بولند أجاويد المؤلفة من ثلاثة أحزاب تتصدع، وتوالت استقالات أهم وزراء حزب اليسار الديمقراطي الذي يقوده أجاويد. استقال بداية نائب رئيس الحكومة حسام الدين أوزقان في 8 تموز - والذي كان بمثابة ذراع أجاويد اليمنى - ثم وزير الخارجية إسماعيل جم في 10 تموز؛ والذي كان سيلتقيه مع ولفويتز. الأهم من هذا هو استقالة كمال درويش الذي تعتبره الأوساط المالية العالمية صمام أمان في ذروة الاقتصاد الوطني أثناء خروج تركيا من أزمة اقتصادية مالية خانقة في 12 تموز. كانت الحكومة تعاني من أزمة خانقة على الرغم من سحب كمال درويش استقالته بعد عدة ساعات، وقال الوزراء المستقيلون إنهم سيؤسسون حزباً جديداً، ويخوضون الانتخابات القادمة للوصول إلى الحكم. عَيّن بولند أجاويد شكرو سنان غورَل المعروف بمناهضته للولايات المتحدة وتأييده لدول العالم الثالث مكان وزير الخارجية إسماعيل جم.

انطلق بول ولفويتز إلى تركيا معتقداً أنه سيلتقي إسماعيل جم، ثم أدرك أنه سيجري لقاء مع شكرو سنان غورَل الذي لا يعرفه، ومن المحتمل

أنه لم يسمع باسمه من قبل؛ ليبحث معه تعاوناً تاريخياً مع حكومة لا يُعرف إلى متى ستبقى.

كنت أعرف جيداً كل من سيلتقيهم ولفويتز في تركيا ممن يعرفهم ولا يعرفهم. كان شكرو سنان غورَل زميلي في كلية العلوم السياسية، وكنت أتقدمه بصفين، كما كان معيداً في قسم التاريخ السياسي الذي كنت أريد دخوله عام 1976. وإذا فرقتنا السنون في رؤانا السياسية ومواقفنا، فقد حافظنا على مودة الأيام الماضية.

وأعرف كمال درويش عن قرب منذ سنين طويلة. فقد كنا معاً من بين مؤسسي تنظيم حركة الديمقراطية الجديدة عام 1994. أثناء عمله في البنك الدولي في واشنطن، كنا نلتقي كلما زار اسطنبول، وقويت صداقتنا إثر دعوة رئيس جمهورية ألبانيا بعد النظام الشيوعي سالي بريشا لنا إلى تيرانا، ولقائنا هناك. وقويت صداقتنا أكثر أثناء عملي في مراكز الدراسات في واشنطن بين عامي 1999-2000. حتى إنني عرّفت في بيتي كمال درويش – الذي كان نائب رئيس البنك الدولي في تلك المرحلة – إلى بول ولفويتز الذي كان في تلك المرحلة عميد مدرسة الدراسات الدولية المتقدمة.

اجتمعت بكمال درويش في اسطنبول قبل يوم من مجيء بول ولفويتز في بيت صديق مشترك. كان هذا بعد يوم من استقالته وسحبها. بدا كمال درويش مصمماً على ترك الحكومة والانضمام إلى إسماعيل جم وحسام الدين أوزقان في الحزب الجديد. وغضب من تنبيه بعض أصدقائه له بمن فيهم أنا بأن تنظيماً يتشكل بدعم بعض مراكز القوة ومجموعة إعلامية كبرى لن يعطي نتيجة. وفي إحدى اللحظات، أخرج من جيبه دليلاً لأعضاء المجلس جميعاً، وقال محدداً خياره السياسي: "انظروا إلى هؤلاء واحداً واحداً، هل يوجد بينهم من هو أفضل من إسماعيل جم ليكون رئيساً للحكومة؟".

سحبت كمال درويش جانباً، وسألته عما إذا كان يلتقي دنيز بايقال. قال: "نلتقي أحياناً، ولم نلتق منذ فترة طويلة". كان حزب الشعب الجمهوري في تلك الأثناء خارج البرلمان، ولكن كان يُتَوقَّع أنه سيدخل البرلمان بالتأكيد هذه المرّة. كان كمال درويش من أنصار حزب الشعب الجمهوري القدامى. نبهته قائلاً: "لا تخطُ أي خطوة من دون أن تلتقي دنيز بايقال". تجاوز تنبيهي بعبارة فضفاضة: "سنرى، لعلنا نلتقي في الأيام القادمة".

بعد هذا الحديث بفترة قصيرة، اتصل حسام الدين أوزقان هاتفياً

بكمال درويش. وشهد من كان هناك على الحوار الذي تم بينهما. كان أوزقان يضغط على درويش من أجل أن يلتقيا في اليوم التالي. كان مستعجلاً على تأسيس الحزب الجديد، ومن المهم جداً بالنسبة إليه أن يشاركه درويش في أعمال التأسيس. اعتذر كمال درويش من أوزقان؛ لأنه مضطر للبقاء في اسطنبول بسبب اجتماعه ببول ولفويتز في دعوة إلى العشاء.

في اليوم التالي، أي في صباح يوم الأحد الذي سيصل فيه بول ولفويتز إلى اسطنبول أقدمت على ما لم أفعله من قبل، واتصلت بدنيز بايقال. أبلغت بايقال أنني كنت مع كمال درويش في الليلة الماضية، وأنه من المفضل ألا يوجه إليه انتقادات حادة، وأن يلتقيا وجهاً لوجه. قال لي بايقال: "هل أنت منتبه لأهمية ما تقوله لي؟". أجبته: "هل تذكر أنني اتصلت بك قبل الآن، وصباح يوم عطلة؟". سألني عما إذا كنت سألتقي كمال درويش خلال فترة قصيرة، فأبلغته أننا سنلتقي في عشاء يُقام على شرف بول ولفويتز في ذلك المساء. قال: "حسنٌ، أخبر كمال درويش أن يتصل بي فوراً، أو أن يعطيك رقم هاتف يمكنني الاتصال به...".

سحبت كمال درويش جانباً في حديقة بيت مصطفى قوتش في ذلك المساء، ونقلت له حديثي مع دنيز بايقال. قال: "سأتصل به. سأزور رئيس الجمهورية يوم الثلاثاء، وسأذهب إلى المقر العام لحزب الشعب الجمهوري بعد خروجي من هناك...".

وهذا ما حدث. لقاء كمال درويش دنيز بايقال مساء ذلك الثلاثاء فتح الطريق أمامه للانضمام إلى حزب الشعب الجمهوري، وهذا ما أدى به إلى دخول البرلمان باسم هذا الحزب.

ضم الطرف الأمريكي الذي حضر عشاء مصطفى قوتش على شرف ولفويتز سفير الولايات المتحدة في أنقرة روبرت بيرسون وقنصل اسطنبول فرانك أوروبانسيك. أما الضيوف الأتراك فقد كانوا رجال أعمال معروفين بثقافتهم، إضافة إلى كمال درويش. حضر جم بوينر، والدبلوماسي السابق ورجل الأعمال اللاحق جم ضونا، وشرف إغلي الذي بدأ العمل في فترة أوزال وطوره كثيراً مع العراق، ومحمد علي بايار المستقيل حديثاً من آخر منصب له في الخارجية كمستشار للسفارة التركية في واشنطن ليدخل السياسة، ويكون في ما بعد رئيس حزب يميني وسطي صغير.

من المؤكد أن الحديث الذي دار على العشاء، وكان محط اهتمام الإعلام التركي الذي كان يلاحق ولفويتز تناول تحضيرات الحرب على العراق،

والعلاقات التركية الأمريكية في هذا الإطار. حافظ المدعوون إلى ذلك العشاء على سرية الحديث، ولم يتسرب الكثير منه. إن لم يكن كل الموجودين حول طاولة ذلك العشاء قلقين من نوايا الولايات المتحدة بحربها على العراق التي ستنتهي بإسقاط صدام وإشراك تركيا بهذا الأمر، فإن معظمهم كانوا قلقين. بعضهم لم يكونوا واعين لجدية الأمر، وكانوا غافلين عن تصميم الأمريكان بتحضيراتهم وإلى أين سيصلون.

كان كمال درويش من بين المعارضين للسياسة الأمريكية وفكرة الحرب على العراق، ولكنه مدرك أن الولايات المتحدة مصممة على هذا الأمر، وحَسَبَ الخسائر التي ستتعرض لها تركيا في حال نشوبها. بالنسبة إلى بول ولفويتز صاحب التفكير العملي، إن ما سيقوله كمال درويش – المسؤول الذي نجح بإخراج تركيا من أكبر أزمة اقتصادية في تاريخ الجمهورية – وما سيطلبه أهم بكثير من حديث أي شخص آخر جالس إلى الطاولة.

لهذا السبب، دار الحديث بين درويش وولفويتز المتقابلين في هذا الاتجاه. وعلى الرغم من تهرّب كمال درويش من التوضيح فقد ذكر رقماً ضخماً جداً. كان الرقم الذي اقترحته الولايات المتحدة على تركيا من أجل تعاونها في حرب العراق، ولم تبق له أهمية بسبب رفض البرلمان لطلبها في 1 آذار 2003 أكبر من رقم درويش.

في دعوة مصطفى قوتش، لم يكن ثمة مفر من فتح حديث عن الحكومة التي بدأت بالتصدع، والمحاذير الناجمة عن عدم وجود شريك بالنسبة إلى الولايات المتحدة الأمريكية. لمّح بول ولفويتز إلى أنه مدرك لوضع الغموض، واستخدم عبارة تعني "إمكانية تجاوز هذا الوضع عبر مؤسسات الدولة الاحترافية". يفهم أنه يقصد هيئة الأركان العامة التركية. قدم محمد علي بايار أصغر الجالسين حول الطاولة التوضيح الأدق حول الموقف التركي، وسبب اتخاذ تركيا هذا الموقف. فقد أشار إلى أن هيئة الأركان العامة لا تتحمس لأي خطة عسكرية لا تكون جزءاً من التحضير لها، وقدم تنبيهاً مفاده: "إذا أردتم تأييد تركيا لخططكم مهما كانت تلك الخطط، فعليكم منذ البداية أن تشركوا هيئة الأركان العامة التركية بها".

قرابة منتصف الليل، غادر ولفويتز المائدة من أجل أن يطير إلى أفغانستان. وكان سيعرّج على أنقرة في طريق العودة، وسيُجري لقاء لا يخطر بباله أبداً بدلاً من اللقاء الذي كان مخططاً له. خربت بنية حكومة أجاويد، وتغيّر الوزراء الذين كان من المفترض أن يلتقيهم بول ولفويتز؛ وعلى رأسهم وزير الخارجية. وهذا هو الموضوع الذي أراد أن يكلمني به

فور وصوله إلى اسطنبول. بعد تجاوزي الطوق الأمني الهائل لفندق كونراد، وصلت إلى الطابق الذي ينزل فيه، فلم يدهش السفير الأمريكي عندما رآني. أنا واثق من أنه دهش أكثر لعدم إدخاله إلى الغرفة التي جرى فيها لقاؤنا. لم يكن معه سوى وليم لوتي الذي قدمه لي على أنه "الرجل الذي يستشيره في شؤون المنطقة الممتدة من أفغانستان إلى شمال أفريقيا". بدأ حديثه: "ماذا يحدث هنا؟". وكان لديه فضول لمعرفة وضع كمال درويش ودوره بشكل خاص. قمنا بجولة مختصرة حول تطورات السياسة الداخلية التركية. بعدئذ، وجَّه ولفويتز سؤالاً بسيطاً ومجرداً: "ما رأيك بإسقاط صدام في العراق؟".

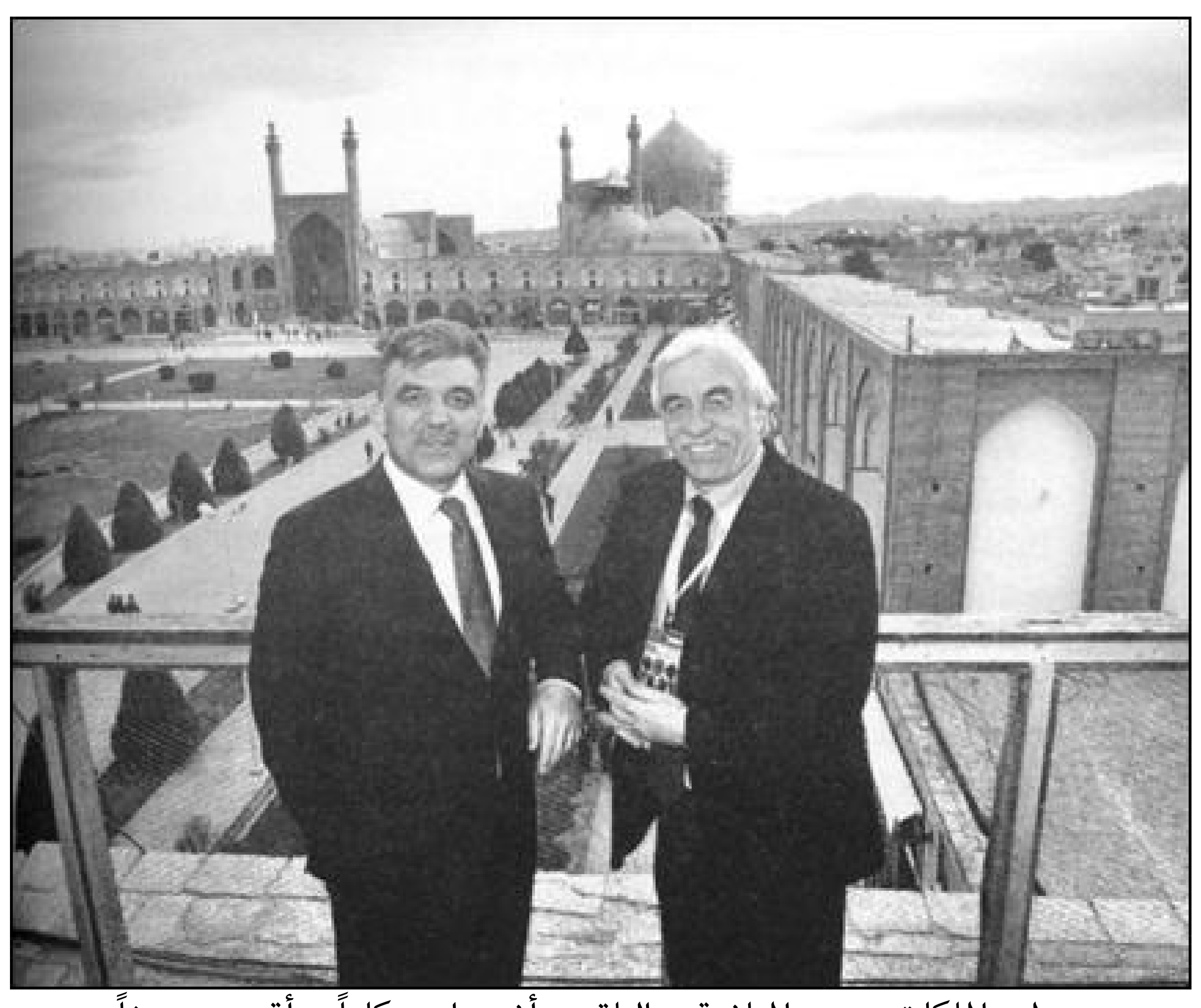
قلت: "بول، من المحتمل ألا تجد بين مواطني الجمهورية التركية من يتمنى إسقاط صدام مثلي. ولكن، لا بد من القول إن هذه ليست فكرة مقبولة في تركيا. غير هذا، ثمة سؤال في عقلي: بكل الأحوال ستسقطون صدام هذه المرّة. ولكن، هل أخذتم في الحسبان دخول العراق بعد صدام تحت النفوذ الإيراني؟ هل لديكم سياسة تحول دون هذا؟ أنا لا أرى هذا بوضوح...".

نظر بول ولفويتز إلى وجهي بتلك الابتسامة التي أعرفها جيداً، ثم نهض. لم يتبق سوى وقت قصير جداً لمحاضرته التي سيلقيها في وقف الدراسات الاقتصادية والاجتماعية في تركيا. كنا سنلتقي على العشاء، وقد انتهى لقاؤنا الخاص. يمكن تفسير تلك الابتسامة بأي معنى: "لا تقلق، فكرنا بكل شيء". أو "هل تعتقد أن هذا الأمر البسيط الذي تفكر فيه لا يخطر ببالنا؟". أو "هل انضممت أيضاً إلى تلك الجوقة الكلاسيكية؟".

لم يخطر ببالي مجرد خاطر بأن تسقط الولايات المتحدة عاجزة إلى هذه الدرجة بعد حرب العراق، وتقع بخطأ تلو الخطأ، وأنها أعدت خطة حرب لا تأخذ بعين الاعتبار أبسط الحقائق، وحتى إنها لم تعد أي خطة لما بعد الحرب بحسب رأي البعض. وقد شعرت يومئذ بالقلق قليلاً لاعتقادي أنني سألت سؤالاً تافهاً لا معنى له.

وإذ بي أدرك أنني قد سألت بول ولفويتز سؤالاً صحيحاً. فهمت هذا بعد حرب العراق.

XVII - كتابة التاريخ بشكل صحيح أو عدم كتابته نهائياً



حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاماً وأقوى رسوخاً.

ابن خلدون (1332-1406) المقدمة

لم تكن زيارة بول ولفويتز الأولى إلى أنقرة عام 2002 مثمرة لأسباب كثيرة؛ منها ظروف تركيا، وتغيّر الأشخاص الذين تحدّث إليهم، وتدهور حالة بولند أجاويد الصحية بالإضافة إلى امتعاضه من موقف الولايات المتحدة بإسقاط نظام صدام، ودخول تركيا أجواء الانتخابات.

عندما جاء بول ولفويتز ثانية في شهر تشرين الثاني، كانت هناك حكومة جديدة يحبها ويحترمها بسبب ميوله الأيديولوجية. بعد يوم أو يومين من لقائه عبد الله غول، اتصلتُ برئيس الحكومة الجديد من أجل تهنئته على منصبه الجديد، فدعاني إلى مكتبه. عندما دخلت إلى مكتب رئيس الحكومة عبد الله غول استقبلني بحرارة.

تعرفت إلى غول في مطلع التسعينيات؛ عندما أصبح نائباً لأول مرة.

رافقته مع صديقه المقرب جداً فهمي قورو إلى بروكسل لحضور ندوة تدبرها فهمي. تطورت صداقتنا أثناء تلك الرحلة، وخلال فترة شغله منصب وزير في حكومة نجم الدين أربكان عامي 1996-1997. وقوّت صداقتنا شراكة المظلومية في المرحلة السياسية التي دخلت القاموس السياسي باسم "مرحلة 28 شباط"؛ وهي المداخلة العسكرية لإسقاط نجم الدين أربكان. عارضتُ المداخلة العسكرية التي سميت "28 شباط" منذ البداية، ولهذا وُضعت عوائق أمامي في ممارسة عملي نتيجة استهدافي بمؤامرات أعدتها الأركان العامة.

فقد عبد الله غول مقعد الوزارة نتيجة التدخل العسكري في 28 شباط. كثيراً ما اجتمعت معه ومع طيب أرضوغان في تلك الأيام. طيب أرضوغان أيضاً عُزل من رئاسة بلدية اسطنبول نتيجة التدخل العسكري، ودخل السجن عدة أشهر.

عندما تمرّد عبد الله غول على نجم الدين أربكان، ودخل سباق رئاسة حزب الفضيلة كنتُ في واشنطن. ولكنني كنت أحترم "الإصلاحيين" في حزب الفضيلة، وأدعم نضالهم. الحركة التي قادها عبد الله غول، تسلّم رايتها طيب أرضوغان بعد سنة؛ بتأسيس حزب العدالة والتنمية، ووصول هذا الحزب إلى السلطة عام 2002، وتسلم عبد الله غول رئاسة الحكومة لاحقاً.

قبل فترة من بدء عبد الله غول حركته "الإصلاحية"، وأثناء سفري من واشنطن إلى اسطنبول اجتمعت معه ومع طيب أرضوغان في بيت ناظلي إلجاق. كلاهما أرادا معرفة انطباعاتي عن أمريكا وسياستها. في تلك المرحلة، طلب مني رجائي قوطان الذي كان رئيسَ حزب الفضيلة المساعدة للتواصل مع الولايات المتحدة الأمريكية. ساعدت قوطان بأن يقدم مداخلة في مركز ويلسون الذي كنت أعمل فيه حينئذ. كان غول بين أعضاء الهيئة التي ذهبت إلى واشنطن. ولم يكن من الممكن عدم ملاحظة الفاصل الذي يضعه بينه وبين بقية أعضاء الهيئة. وبعد فترة قصيرة، دخل سباق رئاسة الحزب منافساً لقوطان؛ مرشح أربكان. في الأحزاب السياسية التي تعتمد تقاليد "الرؤية القومية"، يُنفذ ما يقوله نجم الدين أربكان، ولكن تصرف عبد الله غول أنهى هذا التقليد. سيتجلى نضال غول في حزب العدالة والتنمية الذي سيتأسس بعد عام، وسيصل إلى الحكم بعد عامين.

لم أتوقع أن يلعب غول دوراً تاريخياً كهذا، ولاحظت كيف وضع مسافة بينه وبين بقية أعضاء الهيئة في واشنطن، وتناولت معه فطوراً في

الفندق لكي أجلس معه على انفراد. لعلاقتي بعبد الله غول قصة خاصة، ويوم دخولي مكتبه غول استقبلني انطلاقاً من تلك القصة.

تمحور الحديث تلقائياً حول لقاء ولفويتز؛ وهذا ما كان المادة الرئيسة في تركيا. فقد طلبت الولايات المتحدة عبور قواتها من تركيا من أجل تحارب في العراق، وهذا يعني نزول عشرات آلاف الجنود الأمريكان في الأراضي التركية. كانت الولايات المتحدة تعقد آمالاً كبيرة جداً على تركيا، باعتبارها دولة إقليمية وحليفة في الناتو. وعلى هذا الأساس، إذا كانت هناك علاقة خاصة بين البلدين الحليفين فإن هذه النقطة امتحان لهذا التحالف، ويجب أن تظهر تركيا تجاوبها مع مطالب الولايات المتحدة.

سألت غول عن مطالب ولفويتز. انحنى على الأريكة المجاورة لي، وهز يده اليمنى نحو الأعلى ونحو الأسفل، وابتسم ابتسامة تسببت بظهور خطوط عصبية على وجهي، وقال: "كارثة، كارثة".

- إنهم يتحدثون عن حوالى ثمانين ألف جندي. هل هذا الرقم صحيح؟

تابع غول مع الحركات والتعابير نفسها: "اسكت، اسكت! كارثة، كارثة...".

- إذاً ماذا سيحدث؟ كيف ستردون عليهم؟

قال غول: "سنرى". وتابع مردّداً: "كارثة، كارثة!".

لا بد أنه كان يفكر في كيفية التملص من مطالب الأمريكان. فور جلوسه على مقعد رئاسة الحكومة سقط عليه حزْمُ الولايات المتحدة بالحرب على العراق، ومطالبها السخية من تركيا.

بالنسبة إلى غول القادم من تيار سياسي يعارض التدخلات العسكرية الأمريكية ضد الدول الإسلامية منذ سنين طويلة، ليس من العقلانية أن يصطدم مع حليفته الأولى والقوة العظمى الوحيدة في العالم. فمع أن حزب العدالة والتنمية أسس الحكومة من دون الحاجة إلى ائتلاف لأول مرة منذ عشر سنوات، ولكنه يقبع تحت حصار من الشك في محيطه. لم تكن القوات المسلحة وبيروقراطية الدولة؛ وعلى رأسها القضاء، والجامعات، وعالم الأعمال والإعلام جاهزة لتقبّل حكومة ألصقت فيها صفة "الإسلامية" تحكم تركيا.

كانت حكومة العدالة والتنمية تعمل على اتخاذ مكانها، والسير في أرض مجهولة، وفي وسط معادٍ. ولكن تأبط عبد الله غول ذراع الولايات المتحدة مغمض العينين أمر غير مقبول بحسب عقيدته، ولا تحتمله

التوازنات السياسية الداخلية التي يعتمد عليها.

لا بد أن بول ولفويتز شعر بتردد رئيس حكومة تركيا الجديد. ولا بد أنه فكر بتليين طيب أرضوغان؛ رئيس حزب غول المحظور سياسياً بخططه حول العراق. خلال الأيام التي قضاها في أنقرة، اجتمع بول ولفويتز بالمحيط الأقرب لطيب أرضوغان؛ وعلى رأسهم جنيد ظابصو. وبعد عودة ولفويتز إلى بلده، استمر بالاتصالات بواسطة رجل أعمال يهودي أمريكي على معرفة بكل من ولفويتز وظابصو.

أقنع بول ولفويتز الرئيس جورج دبليو بوش باستقبال طيب أرضوغان في البيت الأبيض بعد عودته إلى بلده. فتح أبواب البيت الأبيض لقادة الدول الحليفة للولايات المتحدة خصوصية لا يحظى بها سوى قادة إنكلترا وإسرائيل. استقبال الرئيس الأمريكي لطيب أرضوغان في البيت الأبيض بعد شهر من الانتخابات خرق جديد لتقاليد واشنطن. غير هذا، إنّ طيب أرضوغان لم يكن رئيس الحكومة التركية، ولم تكن له صفة غير كونه رئيس حزب العدالة والتنمية. وأكثر من هذا، كان مدعي عام التمييز صبيح قناد أوغلو يلاحقه، وهو تحت تهديد الاعتقال.

كان تأييد طيب أرضوغان ودعم تركيا عبره مهمَّين جداً بالنسبة إلى الولايات المتحدة التي تحضّر نفسها لحرب في العراق؛ إلى درجة خرق التقليد المذكور.

انطلق طيب أرضوغان للقاء بوش في البيت الأبيض قبيل قمة الاتحاد الأوروبي التي كانت ستعقد في كوبنهاغن وتعتبر مهمة جداً للحكومة التركية الجديدة. كنت من بين الذين رافقوه في سفره إلى كوبنهاغن وواشنطن ونيويورك ثم كوبنهاغن من جديد.

لا بد للرحلة العابرة للأطلسي أن تدخل سجل طيب أرضوغان باعتبارها الرحلة الأسرع إيقاعاً في حياته؛ حتى بعد أن أصبح رئيساً للحكومة. انطلقنا في 9 كانون الأول 2002 من أنقرة إلى الدانمرك التي كانت رئيسة الاتحاد الأوروبي. أراد أرضوغان أن يلتقي راسموسن رئيس حكومة الدانمرك قبيل قمة كوبنهاغن التي كانت ستنعقد بين 12 و13 كانون الأول 2002. طرنا في اليوم نفسه بعد اللقاء من كوبنهاغن إلى واشنطن. وصلنا إلى واشنطن بعد الظهر بسبب فرق التوقيت. وتمكن أرضوغان حتى المساء من إلقاء محاضرة في " CSIS "، وحضور التقييم العراقي الذي أعده ولفويتز في البنتاغون. في اليوم التالي، استقبله الرئيس جورج دبليو بوش. وفي مساء اليوم الذي التقى فيه بوش أرضوغان انتقلنا

إلى نيويورك. وبعد لقاء أجراه مع الأمين العام للأمم المتحدة كوفي عنان، عدنا إلى كوبنهاغن من أجل أن يلتقي رئيس الحكومة عبد الله غول ويحضر قمة الاتحاد الأوروبي.

من الإدارة الأمريكية، حضر بول ولفويتز المحاضرة التي ألقاها أرضوغان في " CSIS " بحضور جمع غفير. وأثناء خروج ولفويتز من البناء بعد محاضرة أرضوغان، أشار إليّ بأن أخرج معه بسبب عدم وجود وقت للقاء آخر بيننا. ذهبنا إلى البنتاغون، وانتظرنا طيب أرضوغان هناك. تمكنا من الحديث لعدة دقائق في السيارة الشبيهة بالحافلة الصغيرة برفقة قافلة حراسة نائب وزير الدفاع الأمريكي. سألته سؤالاً صحفياً غريباً قاصداً حرب العراق: "متى يبدأ الكوكتيل؟". قال ولفويتز باسماً: "قريباً جداً".

كنت على قناعة بأن نتيجة المباحثات بين جورج دبليو بوش وطيب أرضوغان ستلعب دوراً مؤثراً بتحديد الأمريكان توقيت الحرب. لم يكن ولفويتز مرتاحاً من لقائه عبد الله غول خلال زيارته لأنقرة قبل ثلاثة أسابيع من ناحية الدعم الذي ستؤمنه تركيا للحرب. لهذا السبب، كان يعطي أهمية لإقناع قائد العدالة والتنمية، ورجل تركيا القوي الجديد، أي طيب أرضوغان. ولهذا، فتح أبواب البيت الأبيض من أجل ضمان تحقيق الأمر، ورتّب اجتماعاً يقدّم فيه بيتر غالبرايث معلومات حول العراق خلال الفترة القصيرة التي سيقضيها طيب أرضوغان في واشنطن.

نشر بيتر غالبرايث انطباعاته عن طيب أرضوغان الذي قدم له محاضرة في بناء البنتاغون بتاريخ 9 كانون الأول 2002 في كتابه " Strengthened Iraq in War How – Consequences Unintended :"(2008) Enemies America's

"كان الأتراك بغالبيتهم العظمى ضد حرب العراق. إنهم يعيشون بجوار العراقيين، ولكنهم لم يروا التهديد الذي يبالغ به بوش على الشعب الأمريكي، وكانوا يرون الفوضى التي من المحتمل أن تنجم عن تلك الحرب. هناك احتمال وقوف حلفاء الولايات المتحدة الآخرين المعارضين للحرب جانباً. ولكن، لتركيا أهمية حاسمة بالنسبة لخطة البنتاغون التي تقضي بمرور اللواء الرابع مشاة من أراضيها، وفتح جبهة ثانية من شمال العراق الكوردي...

كانت مبادرات إدارة بوش من أجل إقناع تركيا بالمساهمة في جهود الحرب ضعيفة وغير مؤثرة. ونتيجة رجاء نائب وزير الدفاع بول ولفويتز شاركتُ بندوة قدمت في البنتاغون للقائد التركي رجب طيب أرضوغان في شهر تشرين الثاني (يبدو أن الكاتب نسي التاريخ بالضبط، ولكنه كانون

الأول) من عام 2002، وتمكنت من ملاحظة عدم اقتناعه مع فريقه بالأدلة التي قدمها المحافظون الجدد حول تهديد العراق. في النهاية، شعر أرضوغان أنه لا يوجد طريق آخر أمامه".

وكانت انطباعاتي أيضاً مشابهة لهذه.

يمكن للأمريكيين أن يُشعِروا طيب أرضوغان بتصميمهم على الدخول في حرب العراق، وأن يطلبوا دعم تركيا في هذا الأمر. وبالمقابل، بإمكانهم أن يُشعِروا طيب أرضوغان بأنهم يساهمون بتقديم المشروعية السياسية التي يعتقدون أنه يحتاج إليها. ثمة مفهوم في الثقافة الأمريكية يقول: "ليس هناك غداء مجاناً". هذا ما يعبر عنه الوضع العام في واشنطن، وأبلغت أعضاء الوفد بهذه القناعة.

في اليوم التالي، أي في 10 كانون الأول 2002 استقبل الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش ومعه مستشارة الأمن القومي (وزيرة الخارجية في فترة رئاسته الثانية) كونداليزا رايس وبول ولفويتز الهيئة المؤلفة من رجب طيب أرضوغان ووزير الخارجية التركي الجديد يشار ياقش ومستشاره عمر تشليك ومستشاره أيضاً جنيد ظابصو في قاعة روزفلت في البيت الأبيض. قاعة روزفلت هي قاعة الاجتماعات الوحيدة التي لا نافذة لها، وتقع مقابل المكتب البيضاوي مباشرة. اختار بروتوكول البيت الأبيض هذه القاعة المقابلة للمكتب البيضاوي الذي سيدخله طيب أرضوغان مرات عديدة في ما بعد لأنه لم يكن يحمل صفة رئيس أو رئيس حكومة.

في منتصف الليلة نفسها، وفي الطريق من نيويورك إلى كوبنهاغن نقل طيب أرضوغان انطباعاته لمن في الطائرة. مد بوش يده لمصافحة أرضوغان مبرزاً التزامه بإقامة علاقة شخصية بينهما. بالطبع، إن الموضوع العراقي هو الأصل، وقد أدرك أرضوغان أن الأمريكيين مصممون على دخول العراق، ومن غير الممكن تغيير قرارهم هذا.

وطلب بوش مساهمة تركيا بشكل واضح. وقال طيب أرضوغان إنه سيعطي الجواب بعد عودته إلى بلاده، وإن الموضوع بحاجة إلى البحث في مختلف المؤسسات وعلى رأسها البرلمان. وأعرب له بوش عن ضيق الوقت، وأنه بحاجة لمعرفة الجواب في أقرب وقت ممكن.

في ما بعد، انتقد المعارضون في تركيا أرضوغان من دون وجه حق؛ لأنه حمّل تركيا أعباء في البيت الأبيض. لم تكن لدى طيب أرضوغان أصلاً صفة تمنحه إمكانية تحميل تركيا تلك الأعباء، إضافة إلى أنه لم يقدم لبوش أي وعد، وأبدى حرصاً على التهرب من قول أي شيء محدد؛ محاولاً كسب

القليل من الوقت. باختصار، لم يقدم على أي تصرف يستحق أن توجه إليه تلك الانتقادات.

إضافة إلى هذا، فقد انتبه لإصرار الأمريكان على دخول الحرب، ورأى أن الصواب بالنسبة لتركيا هو الوقوف إلى جانب من سينتصر في هذه الحرب التي لا مفر منها. وفي الحقيقة، لم يبح لبوش بتفكيره هذا، ولكن هذا ما يستنتج من تصرفاته في ما لو دُقِّقَ فيها جيداً.

لا بد أن الأمريكان قد فهموا هذا؛ مما جعلهم يصابون بخيبة أمل كبرى عندما رفض البرلمان التركي مذكرة الحكومة حول طلب الولايات المتحدة مرور قواتها إلى العراق عبر الأراضي التركية في 1 آذار 2003. وحرصت الإدارة الأمريكية على تحميل طيب أرضوغان فاتورة تخريب العلاقات بينها وبين تركيا.

كنت أحد الشهود على هذا.

ذهبت إلى واشنطن لعدة أيام من أجل اجتماع عقد بين يوم 1 آذار؛ تاريخ المذكرة، و19 آذار 2003؛ تاريخ نشوب الحرب. التقيت بول ولفويتز على العشاء. كان من الممكن استشعار إحساس ولفويتز بالصدمة نتيجة مذكرة الأول من آذار بسهولة.

أثّر بول ولفويتز سلبياً بثقله في الإدارة الأمريكية بعد أن كان معروفاً "بتأييده لتركيا"، وسعيداً أكثر من الجميع لوصول حكومة "إسلامية" في تركيا.

أردت أن أشرح لولفويتز أن حكومة طيب أرضوغان ما زالت حديثة العهد، ويمكن وصفها بعبارة "ورقة بيضاء"، ومن الطبيعي تأثرها بالشعور بالحذر السائد. عندما اصطدمت مذكرة الأول من آذار في البرلمان، أي إفشال خطة دخول القوات البرية الأمريكية الأراضي التركية لفتح "جبهة ثانية" في شمال العراق، لم يكن طيب أرضوغان قد أصبح رئيساً للحكومة بعد.

إحدى حلقات التطورات التي تلت لقاء الرئيس بوش وأرضوغان في كانون الأول 2002 هي نجاح طيب أرضوغان نائباً عن سيرت في انتخابات فرعية في 9 آذار، وانسحاب عبد الله غول من أجل إفساح المجال له، وحصل أرضوغان على مهمة تشكيل الحكومة في 12 آذار، وحصلت هذه الحكومة على الثقة في 15 آذار.

ليس سراً أن طيب أرضوغان كان مع الموافقة على مذكرة الأول من آذار، وأنه حاول تقديم نصيحة بهذا الصدد في اجتماعات حزب العدالة والتنمية خلف الأبواب. وقد شعر بالضيق نتيجة عدم التزام 97 نائباً من

حزبه. في اجتماع المجلس التنفيذي لحزبه بعد التصويت، حمل على نوابه الخارجين على الإجماع، ونُشر قوله في الجرائد: "تحدثنا على مدى أيام حول المذكرة. وبيّنّا كيف سنتصرف، وقررنا موقفنا، يجب ألا يحدث هذا". (راديكال، 4 آذار 2003)

لا يمكن قول الكلام نفسه عن رئيس البرلمان بولند أرنتش الذي يعتبر أحد "الكبار الثلاثة". يبدو أن أرنتش كان معارضاً لقبول المذكرة. على الرغم من أن المذكرة هي مذكرة الحكومة، ولكن عبد الله غول لم يكن متحمساً لقبولها.

انطلاقاً من خلفية هذه المعلومات، حاولت أن أقول لفويتز: "لا تقع مسؤولية على رئيس الحكومة الجديد طيب أرضوغان برفض المذكرة. فقد رغب بتمريرها". قال ولفويتز إلى مائدة العشاء: "نعرف. عبد الله خرب الأمر! لا دخل لطيب نهائياً".

استمر بول ولفويتز بدعم طيب أرضوغان وحكومة حزب العدالة والتنمية ضد القوات المسلحة التركية أو بتعبير آخر هيئة الأركان العامة التي تعتبر نقطة الارتباط مع البنتاغون.

بعد ظهر الخميس في 1 أيار 2003، نزل جورج دبليو بوش إلى حاملة الطائرات التي تعمل بالوقود النووي إبراهام لينكولن في المحيط الهادئ مقابل شواطئ كاليفورنيا. كانت هناك لوحة ضخمة معلقة على السطح كُتب عليها: "أنجزت المهمة". ألقى بوش هناك كلمة أعلن فيها "انتهاء العمليات العسكرية الأساسية في العراق". فقد انتصر في حرب العراق، ولم يعد النظام "الظالم" على رأس عمله هناك.

تجلت نهاية حرب العراق بدخول القوات الأمريكية إلى بغداد، وإسقاط تمثال صدام حسين في ساحة الفردوس شرقي نهر دجلة بتاريخ 9 نيسان. كنت أقدم تحليلات حول الحرب يومياً عبر شاشة " CNN التركية".

قال لي محمد علي بيراند بحدسه الإخباري القوي: "ليتك تتصل ببول ولفويتز ليخصنا بلقاء لبرنامج اليوم الثاني والثلاثين، فنذهب إلى واشنطن فوراً". اتصلت بشاها، ونقلت إليها طلبنا. كانت وسائل الإعلام العالمية المرئية والمقروءة كلها تنتظر دورها للقاء بنّاء حرب العراق. ولكن شاها تعني الطريق الأسرع والأقصر والأضمن من أجل الوصول إلى بول ولفويتز.

كنت في طالس قرب قيصري يوم الجمعة في 2 أيار يوم إعلان خبر انتهاء الحرب في العالم كله على اختلاف التوقيت. وعندما كنا نعيش لحظة حنين في اجتماع خريجي معهد طالس السنوي، جاءني الخبر من محمد علي

بيراند. بول ولفويتز سينتظرنا في مكتبه في البنتاغون في التاسعة من صباح الاثنين في الخامس من أيار من أجل إجراء مقابلة معه!

عندما وصلنا إلى واشنطن، راجعنا الأسئلة التي حضرناها في الطريق من تركيا إلى أمريكا. وفي اليوم التالي، انطلقنا في طريقنا نحو البنتاغون من أجل المقابلة التي بثثناها في اليوم التالي وكان لها وقع القيامة في تركيا وبقي تأثيرها مدة طويلة.

قبل عدة أيام، أعلن الرئيس الأمريكي أنهم انتصروا بالحرب. أما بنّاء هذه الحرب فالتقى اثنين من صحفيّي تركيا المعروفين، ويريد أن يبعث برسالة نقد من واشنطن إلى تركيا. كان العسكر هدف رجل البنتاغون الثاني.

محمد علي بيراند قدم افتتاحية المقابلة. رد بول ولفويتز عن سؤال محمد علي حول رأيه برفض البرلمان لمذكرة الأول من آذار بإجابة ناقدة. وعندما سألناه: "من تقصدون؟". أجاب: "أنتم تعرفون جيداً من أقصد".

من ناحية الفهم فقد فهمنا، ولكنه على ما يبدو خشي من سوء فهم الجواب، وذهاب الرسالة إلى العنوان الخطأ، فقال قبل انتقالنا إلى سؤال آخر: "العسكر". موضحاً المقصود من جوابه.

طلب محمد علي بيراند تلك المقابلة من أجل تحقيق نجاحٍ صحفي كبير، وإحداث "ضربة" إعلامية بالمفهوم العالمي. ولكن مجرد لقائنا بول ولفويتز في ذلك اليوم كان "ضربة".

شكل رفض البرلمان لمذكرة الأول من آذار أرضية لتحليلات تعتبر أن هذا الرفض خرّب العلاقة بين تركيا وواشنطن. حسنٌ، ما رأي ولفويتز بالحكومة؟ من أجل تأكيد رأيه في هذا الموضوع حول نقده للعسكر، تدخّلت بالحديث، وقدمت ملاحظة اعتبرتها ماكرة: "البرلمان يصوت على المذكرة لدينا، والعسكر لا يصوتون".

كان ولفويتز مصمماً على توجيه انتقاده للعسكر وحماية الحكومة، وتابع قائلاً: "لم تُبدِ هيئة الأركان العامة التركية موقفاً قيادياً بدعم أمريكا في حرب العراق".

ما الذي يمكن لهيئة الأركان أن تفعله؟ كان اجتماع هيئة الأمن القومي قبيل التصويت على المذكرة إشارة إلى أن رأي العسكر لن يؤخذ به. وفي الحقيقة، إن السياسيين هم الذين أطلقوا المدفع. وهذا ما يجب أن يكون في الديمقراطية. هل يريد أن يكون العسكر فوق السياسيين في الولايات المتحدة مثلاً؟ هل هذه تعتبر "ديمقراطية" بحسب المقاييس الأمريكية؟

عندما صغت له هذا الأمر في سؤال طرحته عليه، لم يتراجع ولفويتز عن نقد العسكر، وذكّر بتصريحاتهم المتعلقة بالقضية القبرصية في الفترة نفسها.

كانت حكومة العدالة والتنمية قد بدأت بمحاولات تغيير السياسة التركية الكلاسيكية في القضية القبرصية القائلة: "الحل الأفضل هو عدم الحل". ولكن قائد القوات البرية الفريق أول أيتاتش يالمان زار عبد الرؤوف دنكطاش رمز سياسة "الحل الأفضل هو عدم الحل" لتقديم الدعم له في الفترة نفسها، وقدم تصريحات فُسرت على أنها انتقادات حادة لسياسة حكومة العدالة والتنمية تلك.

هذا ما قصده ولفويتز، ولم يكن رجل البنتاغون القوي ينوي التراجع عن نقد الجيش التركي.

كان رأي ولفويتز في هذه النقطة: "لم يكن للحكومة ذنب. فقد صوت غالبية نواب حزب العدالة والتنمية لصالح المذكرة؛ على الرغم من تصويت بعضهم ضدها. وحكومة حزب العدالة والتنمية هي التي قدمت المذكرة. وحزب الشعب الجمهوري هو الذي عارض...".

كانت المقابلة مع بول ولفويتز هامة في نقطتين: الأولى أنها سبق صحفي كبير. أما الثانية فهي أنها تحذير من البنتاغون للقوات المسلحة التركية بسحب دعمه لها. كما هو معروف، إن العمود الفقري للسياسة التركية – الأمريكية وضع أساسه منذ نصف قرن البنتاغون والهيئة العامة للأركان التركية. لهذا السبب، تعتبر الانقلابات في تركيا منذ عام 1960 مدعومة أمريكياً بفضل "موافقة البنتاغون" عليها.

من الممكن قراءة ترجمة رسالة رجل البنتاغون الثاني في تلك الأثناء: "لم يعد البنتاغون خلفكم من الآن فصاعداً". وكان هذا بالنسبة إليّ – أنا المعارض للانقلابات العسكرية الفاشلة – مصدر سعادة خاصة.

فتحت مقابلة بول ولفويتز تلك طريقَ السلطة المدنية أمام حكومة حزب العدالة والتنمية، وحصلت على أقوى دعم لهذا الأمر من السلطة العسكرية الأمريكية.

كان تأثير المقابلة في تركيا كبيراً. فقد استغلها من اعتبر أنها إهانة لتركيا لتأجيج المشاعر المناهضة للولايات المتحدة الأمريكية. فقد كان اليساريون المناهضون للإمبريالية والهامشيون في الساحة السياسية التركية من ضمن أولئك المستغلين، وكان صوتهم القوي في وسائل الإعلام لا يتناسب مع هامشيتهم. وقد بدأت الردود تتصاعد على الانتقادات الواردة على لسان بنّاء

حرب العراق المرفوضة شعبياً في تركيا.

لم يُحتمل طلبه من تركيا تقديم نقد ذاتي. وادعى بعض السياسيين بينهم أعضاء في حزب العدالة والتنمية أن كلام ولفويتز لا يمثل الولايات المتحدة. المهم بالنسبة إليهم رأي بوش. ليست هناك مشكلة طالما أن الكلمات التي خرجت عن لسان ولفويتز لم تخرج عن لسان بوش. يُفهم من هذا أن الأوساط السياسية التركية تخشى من تخريب العلاقات التركية الأمريكية، وقد فضلت الصراع مع الأحداث والاعتراض عليها كالمعتاد بدلاً من فهم سبب قول ما لم تُرِد سماعه.

ولكن بول ولفويتز لم "يطلب نقداً ذاتياً"، بل اقترح على المؤثرين برفض البرلمان للمذكرة أن يفكروا في ما إذا كانوا قد أخطأوا في النقطة التي وصلت إليها العلاقات الأمريكية التركية. هذا لا يعني أن مسؤولاً رسمياً أمريكياً طلب من تركيا تقديم نقد ذاتي، ولكن الاختلاف في الانتماء الثقافي جعل الأتراك سريعي الغضب يفهمون ما قاله ولفويتز على هذا النحو.

ولكن، انظروا إلى المفارقة! العسكر هم الذين ترجموا كلمات بول ولفويتز بشكل صحيح كما فهمتها أنا. قوة العسكر بتوجيه الصحافة مسلم بها؛ فهناك الكثير من الجنرالات المتقاعدين الذين يكتبون في الصحف، ويستعرضون أنفسهم. وصخب هؤلاء هو الأعلى.

لم يقتصر الغضب على ولفويتز، وقد نلنا نصيبنا؛ نحن اللذان أجرينا اللقاء. فقد كتب الفريق أول المتقاعد كمال ياووظ، أحد كُتّاب جريدة أقشام في تلك الفترة، وقائد الجيش الثاني السابق، وقائد الأكاديميات الحربية السابق، وقد ورد اسمه في ما بعد في دعوى أرغنيكون؛ وهي الدعوى بمحاولة قلب نظام الحكم، كتب أن الولايات المتحدة الأمريكية أعدتنا من الصغر للعب دور ما ذات يوم لصالحها، وكان يوم إجرائنا تلك المقابلة مع ولفويتز هو ذلك اليوم المنتظر.

كتب الفريق أول المتقاعد كمال ياووظ بروح المخابراتي العالم بخفايا الأمور، والواثق من نفسه، والمتابع لاستثمار الولايات المتحدة فينا منذ طفولتنا. كان هذا الضابط يعارض تورغوت أوزال بشكل دائم أثناء حرب العراق الأولى، ويعتبره أوزال جباناً كعسكري.

بدأ العسكر بحملة "اغتيال معنوي" لي باستخدام اللقاء مع بول ولفويتز.

عاد محمد علي بيراند إلى تركيا مع استمرار عاصفة اللقاء فيها، فيما

بقيت أنا في الولايات المتحدة لعدة أيام. قابلت بول ولفويتز مرة أخرى قبل مغادرتي. كان ذلك في اليوم التالي لبث اللقاء في تركيا. قال ضاحكاً: "جلبت لي بلية. علمتُ بما يكتب في تركيا". رددت عليه: "في الواقع، أنت من جلب لي بلية. أنت هنا مرتاح. غير هذا، تحمل صفة نائب وزير الدفاع الأمريكي. أما أنا فسأعود إلى بلدي. وليس لدي أي لقب أو وضع يحميني. أكلة اللحوم البشرية ينتظرونني لالتهامي بسببك...".

ضحك ثانية، وقال: "على الرغم من كل شيء، أنا مسرور من ذلك اللقاء. كنت أريد قول ما قلته. كان ذلك ضرورياً...".

بعدئذ سأل: "ماذا يقولون في تركيا بالضبط؟". عندما قلت له: "هناك من يقول إن كلامك رأي شخصي لا يعبر عن موقف الولايات المتحدة". ضحك أكثر، وقال: "حسنٌ أنهم عندما تُذكر تركيا في الإدارة الأمريكية فهم لا يسمعون ما قيل ومن قاله. على الرغم من كل شيء، يصعب عليهم جداً إيجاد صديق لتركيا غيري في الإدارة الأمريكية".

يبدو أنه كان يفكر ببناء جسور التعاون مع تركيا وإدخالها في توازنات العراق؛ مما جعله يقول: "هل يمكن لتركيا أن ترسل جنوداً إلى جنوب العراق في إطار قوة حفظ سلام؟ وبهذا ستحظى بدور في العراق من جديد، ومن جهة أخرى ستقطع مسافة على صعيد تصحيح علاقاتها بنا".

إرسال تركيا جنوداً إلى العراق لا يعني بالنسبة إليها أكثر من إدخال جنود إلى كوردستان. وهذا ما كانت عليه الحال دائماً. مشكلة تركيا أنها تعيق تأسيس كوردستان المستقلة، وإرسالها جنوداً إلى العراق إما للحيلولة دون حصول تطور كهذا، أو لتصفية حسابات مع حزب العمال الكوردستاني الذي تأويه تلك الجغرافية.

رفضُ البرلمان لمذكرة الأول من آذار لم يَحُلْ دون دخول الوحدات الأمريكية إلى العراق عبر الأراضي التركية فحسب، بل حال دون دخول الجنود الأتراك إلى شمال العراق. كان الجيش الأمريكي يخطط لإسقاط نظام صدام في العراق بدخوله عبر تركيا. أما تركيا فقد كانت تخطط لإنشاء منطقة عازلة بعرض عشرين كيلومتراً لوضع الكورد تحت سيطرتها. لن تهتم تركيا بإسقاط صدام عندما ترسل جنودها إلى العراق، بل سترسلهم لتصفية حسابات مع الكورد.

أسست القوات الأمريكية علاقة طيبة جداً مع الكورد بعد دخولها العراق وإسقاطها صدام، وغدا دخول تركيا إلى شمال العراق "خطاً أحمرَ"

رسمته واشنطن أمام أنقرة.

وقد نقل بوب وودوارد الذي يعتبر مؤرخ البيت الأبيض في عهد بوش في كتابه "خطة الهجوم" عن بوش قوله:

"في النهاية، ستكون تركيا معنا. أرضوغان يتعلم. سننتصر من دون تركيا. ومن الأفضل أن تكون تركيا معنا. القضية تكمن بالطريقة التي سنمنعهم فيها من دخول شمال العراق". (ص 369)

أما بول ولفويتز الذي ما زال يدافع عن تركيا في الإدارة الأمريكية، ولم يتراجع عن عناده بتوريطها في العراق فقد كان يدلي بعبارته: "ترى، ما رأي تركيا بإرسال جنود إلى جنوب العراق؟". وكان يرى أن هذا ما يصلح العلاقات الأمريكية التركية التي تعيش أسوأ حالاتها.

بعد فترة، طرحت قضية إرسال تركيا جنوداً إلى العراق مرة أخرى. كان طيب أرضوغان رئيس حكومة هذه المرة، وقد تحسّن وضعه. كانت الجرائد تكتب أن طيب أرضوغان فرض ثقله، وأثّر على أعضاء حزب العدالة والتنمية عبر تحذيراته الحادة.

وافق البرلمان على "مذكرة منح الحكومة صلاحيات إرسال جنود إلى العراق لمدة عام" في 7 تشرين الأول 2003 بموافقة 358 عضواً ورفض 183 عضواً. بعد سبعة أشهر فقط، وافقت كتلة حزب العدالة والتنمية البرلمانية التي ساهمت برفض مذكرة 1 آذار على المذكرة الجديدة التي لا تقل عنها، ولم يتجاوز مجموع الرافضين سبعة أعضاء.

في الحقيقة، إن هذه المذكرة ليست الأولى التي تمررها تركيا، أو يمررها رئيس الحكومة طيب أرضوغان من البرلمان لدعم القوات الأمريكية. فقد كانت هناك مذكرة أخرى مرت أو مُررت وسط الصعوبات والنقاشات التي خلقها عدم قبول مذكرة الأول من آذار من دون أن ينتبه إليها أحد. فبعد جلوس طيب أرضوغان على مقعد رئاسة الحكومة التركية بأسبوع تقريباً، وافق البرلمان بأغلبية 332 صوتاً مقابل 202 على مذكرة منح الحكومة صلاحية "إدخال القوات المسلحة التركية إلى شمال العراق، وفتح المجال الجوي التركي للدول الأجنبية". وقد تحدث عبد الله غول باسم الحكومة داعياً الأعضاء لقبول المذكرة.

عارض مذكرة 20 آذار هذه المرة أربعون من أعضاء حزب العدالة والتنمية، ولكنها حظيت بموافقة البرلمان على عكس مذكرة الأول من آذار.

في الحقيقة، إنّ مذكرة 20 آذار تقضي "بدخول القوات المسلحة التركية إلى شمال العراق، ولكن الإدارة الأمريكية أشعلت الضوء الأحمر لهذا الأمر.

فبعد رفض مذكرة 1 آذار، وضعت الإدارة الأمريكية حظراً على دخول القوات المسلحة التركية، أو على الأصح القوات البرية التركية إلى العراق، ولم تكن لتركيا القدرة أو الإرادة لخرق هذا المنع. من ناحية أخرى، كانت الأجواء التركية مفتوحة للطائرات الحربية الأمريكية من أجل شنّ غارات على العراق بعد أربع وعشرين ساعة من بدء الحرب.

هذه هي الحقيقة المؤلمة التي غابت عن أعين الكثيرين، أو اختار الكثيرون عدم التوقف عندها. أُغلقت الأراضي التركية في وجه القوات البرية الأمريكية في 1 آذار، وفتح المجال الجوي التركي للقوات الجوية الأمريكية في 20 آذار.

الكثير من الأشخاص في تركيا ومنهم أعضاء حزب العدالة والتنمية ركزوا على رفض مذكرة 1 آذار باعتبارها موقفاً مناهضاً للحرب. وحُولت قضية رفض المذكرة إلى رمز للاستقلال ومناهضة الولايات المتحدة. تشكل تحالف واسع مع رفض المذكرة. وقد دخلت هذا التحالف أوساط مختلفة جداً في ما بينها، وانطلاقاً من وقائع غاية في التباعد. كان كورد العراق وكورد تركيا واليساريون المناهضون للولايات المتحدة والعسكر الذين يريدون إحراج حزب العدالة والتنمية مع الولايات المتحدة الأمريكية والمتدينون المؤيدون لحزب العدالة والتنمية الذين يعتبرون الحرب "حملة صليبية" على دولة مسلمة جارة ضمن هذا التحالف.

وكان بينهم أيضاً من يعتقد أن عدم تمكن الولايات المتحدة الأمريكية من فتح جبهة في الشمال سيجعلها تتراجع عن الحرب. اعتقد هؤلاء أنهم سيمنعون الحرب في حال رفضت تركيا المذكرة.

وجود أوساط واسعة من مناهضي الحرب - حتى إن كانوا ينطلقون من حقائق مختلفة - شكل قوة متآزرة؛ مما أدى إلى انتشار موجة من الفرح نتيجة مداعبة الكبرياء القومية برفض مذكرة الأول من آذار.

كان الموقف الكوردي حاسماً إثر رفض مذكرة الأول من آذار. إذ إن كورد تركيا التابعين لنفوذ مسعود برزاني أيضاً عارضوا الموافقة على المذكّرة. وانعكست هذه المعارضة على نواب حزب العدالة والتنمية الكورد. وعلى الرغم من أن المذكرة صادرة عن الحكومة، شكل نواب جنوب شرق الأناضول قسماً كبيراً من الأعضاء السبعة والتسعين الخارجين عن إجماع الحزب.

تسمح مذكرة 1 آذار بتمركز القوات الأمريكية المسلحة على الأراضي التركية ودخولها العراق، إضافة إلى دخول القوات المسلحة التركية إلى شمال

العراق، وتشكيل منطقة عازلة بعمق عشرين كيلومتراً. وهذا كان سبب معارضة كورد العراق وعلى رأسهم برزاني للمذكرة. كان الكورد يعتقدون أن تركيا لن تدخل لتقديم الدعم بإسقاط صدام، بل للهيمنة على الكورد ولهذا فهم لا يريدون وجود جنود أتراك في منطقتهم. لقد شهدت أربيل مظاهرة كبرى لم يُرَ مثلها في تاريخ كوردستان العراق، فقد جاء ما يقارب مليون كوردي من المناطق كلها لمعارضة إرسال تركيا جنوداً إلى أرضهم.

ثمة فرق أساسي في الموقف من العراق بين حكومة العدالة والتنمية في الربع الأول من عام 2003، ورئيس الجمهورية تورغوت أوزال عام 1990. في إحداهما، لم يكن هناك هدف بإسقاط نظام صدام حسين، أما في الثانية فقد كان هذا هو الهدف الأول.

وينعكس هذا الفرق الأساسي على موقف كورد العراق من تركيا بين عامي 1991 و2003. ففي عهد أوزال، شعر كورد العراق أنهم قريبون من تركيا، بينما كانوا معارضين في عام 2003.

إضافة إلى كورد العراق، كان الكورد الذين يعيشون بجوارهم في جنوب شرق تركيا أيضاً معارضين لمذكرة الأول من آذار. إذ لم تكن حالة الطوارئ المطبقة في المنطقة منذ سنوات طويلة قد ألغيت. وتمترسُ عشرات آلاف الجنود الأمريكان في المنطقة سيدخلها في جو عسكري، وسيبرز البعد الأمني ثانية. لا أحد كان راغباً بحشد عسكري جديد. لهذا السبب، كان كورد تركيا من بين معارضي المذكرة.

العسكريون الذين تهاوت خطة انقلابهم على حكومة العدالة والتنمية عام 2007 لم يفرضوا أي ثقل في هيئة الأمن القومي المجتمعة قبيل التصويت على المذكرة في البرلمان. المعروف أن التوجه الذي يُفرض في هيئة الأمن القومي يؤثر على التصويت في البرلمان.

كان القادة العسكريون جميعاً باستثناء رئيس هيئة الأركان حلمي أوزكوك يعتقدون أن الموافقة على المذكرة تؤسس لعلاقات قوية بين الولايات المتحدة الأمريكية وحكومة العدالة والتنمية، ويقلقون من هذا الاحتمال. فالضوء الأخضر الذي ستشعله الولايات المتحدة لحزب العدالة والتنمية سيصعب عملهم. وقد بدأوا بالاستعداد لإبعاد حزب العدالة والتنمية عن الحكم إبان انتخابات 2002 مباشرة.

كان العسكريون ينتظرون تمريغ أنف الولايات المتحدة في العراق، ولكن ذريعتهم الأساسية لمعارضتهم حرب العراق هي الكورد. كان كابوس العسكريين الأتراك هو احتمال تأسيس الكورد دولة مستقلة إثر سقوط

صدام بعد أن حققت لهم أحزاب العراق الأولى 1990-1991 حكماً ذاتياً بخروج المنطقة عن سلطة بغداد المركزية.

على الرغم من اتساع المروحة المعارضة إلى هذه الدرجة، لم يكن هناك احتمال كبير بعدم موافقة البرلمان على المذكرة. وأنا كنت أثق بهذا، ولم يكن لدي أي شك بنشوب الحرب. وإضافة إلى وثوقي بأن معارضة تركيا لن تمنع الولايات المتحدة من خوض الحرب، كنت مقتنعاً بأن عدم موافقة البرلمان على المذكرة لن يُغيّر خطط الولايات المتحدة حول العراق تغييراً جذرياً.

فرزت الحرب المقتربة تركيا إلى قطبين من جديد. ولا مفرّ من اختفاء الفروق الطفيفة في الاستقطاب. انتشر اسمي كمدافع عن المذكرة؛ مع أن توقع الموافقة على المذكرة، وتأييد المذكرة أمران مختلفان. وليس هناك كثيرون ينتبهون إلى هذا الفرق. فأنا لا يمكن أن أؤيد أمراً كهذا يضع الكورد وتركيا في مواجهة بعضهما بعضاً. غير هذا، كنت أعرف أن تركيا لا تهدف إلى إسقاط صدام، ولا علاقة لجنودها في العراق بهذا الهدف. باختصار، لا يمكن أن يكون لدي أي سبب يجعلني أؤيد مذكرة 1 آذار.

إضافة إلى هذا، رُبط موقفي التقليدي من إسقاط صدام بقناعتي أن البرلمان سيوافق على المذكرة، وهذا ما وصمني بوصمة المؤيد لها.

بعد إلهاء الأمريكيين لفترة طويلة، صوّت البرلمان بالاقتراع السري على مذكرة حكومة العدالة والتنمية برئاسة عبد الله غول في 1 آذار لعام 2003. شارك بالتصويت 533 عضواً. أيدها 264 عضواً، ورفضها 250 عضواً، وامتنع عن التصويت 19 عضواً. بحسب النظام الداخلي للبرلمان، إن أصوات الموافقين يجب أن تكون أكثر من نصف النواب الحاضرين، وبما أن عدد الموافقين لم يصل إلى 267 صوتاً اعتبرت المذكرة مرفوضة.

لو أن ستة أعضاء ممن امتنعوا عن التصويت لم يحضروا، لحظيت المذكرة بموافقة أكثر من نصف الأعضاء، ولتمّت الموافقة عليها.

لم ترفض المذكرة، ولكنها لم تُقبل أيضاً. وقد رفضت لأنها لم تحظ بالموافقة.

وفي اللقاء الحدث الذي أجريناه مع بول ولفويتز في 5 أيار 2003 سألته السؤال التقليدي: "هل فوجئتم برفض البرلمان التركي للمذكرة؟". فأجابني جواباً واضحاً: "لم يرفضها!".

- هل وافق عليها؟

- لم يوافق. في الحقيقة، لا أعرف عدد الأمريكيين الذين سيتابعون

هذا البرنامج، ولكنني يجب ألا أعطي الناس معلومات خاطئة بقولي إن البرلمان التركي قد رفضها. نعم، لم نحصل على الغالبية المطلوبة، وبالتالي لم نحصل على الدعم المطلوب.

لهذا السبب، من غير الصواب اعتبار تاريخ رفض البرلمان لمذكرة 1 آذار 2003 "يوماً وطنياً" عظيماً و"نقطة تحوّل" في تاريخ تركيا، فهذا تحريف غوغائي للتاريخ.

فلو كان الأمر على هذا النحو لما وُجد تفسير للموافقة على مذكرة 20 آذار. بعد يوم من اندلاع الحرب، فتح المجال الجوي التركي للطائرات الأمريكية. كان طيب أرضوغان جالساً على مقعد رئاسة الحكومة وليس عبد الله غول. يبدو أن حِرْصَ طيب أرضوغان على مراعاة التعاون مع الولايات المتحدة الأمريكية شجعها في موضوع عدم إرسال تركيا جنوداً إلى العراق.

بالنتيجة، تحققت حسابات بول ولفويتز. فقد وافق البرلمان على مذكرة 7 تشرين الثاني 2003 القاضية بإرسال جنود أتراك إلى العراق. طرحت حكومة حزب العدالة والتنمية على البرلمان ثلاث مذكرات تتعلق بحرب العراق والتعاون العسكري مع الولايات المتحدة الأمريكية خلال عام. الأولى هي مذكرة 1 آذار التي لم تحصل على أصوات كافية. وبالمقابل، حظيت مذكرتا 20 آذار و7 تشرين الأول بغالبية ساحقة.

أراد الأمريكان أن يعمل الجنود الأتراك في المنطقة الأكثر بلاء في العراق، والتي اشتهرت باسم "المثلث السني". إذ كانت قد بدأت المقاومة ضد الوجود الأمريكي، وتركزت بشكل خاص في محافظة الأنبار شرقي بغداد. والمنطقة التي خُطط ليكون الجنود الأتراك فيها هي "المثلث السني" الذي تعتبر الأنبار جزءاً منه.

ولكن الكورد الذين عارضوا مذكرة 1 آذار، قامت قيامتهم إزاء مذكرة 7 تشرين الأول، ورفضوا وجود الجنود الأتراك على أرض العراق حتى لو وضعوا في محافظة الأنبار؛ لأنهم خشوا من بقاء القوات التركية؛ بفرضها أمراً واقعاً بعد عبورها باب الخابور.

انتقلت معارضة الكورد للوجود العسكري التركي المحتمل في العراق إلى التيارات السياسية العراقية الأخرى، وفي النهاية وصلت إلى سلطة الائتلاف المؤقتة التي يقودها بول بريمر في بغداد. لم يكن من الممكن تنفيذ المذكرة التي حظيت بموافقة البرلمان والقاضية بإرسال جنود أتراك إلى العراق بسبب رفض العراقيين والأمريكيين الذين يحكمون العراق.

كان بول ولفويتز صاحب فكرة إرسال الجنود الأتراك إلى العراق على

قناعة بأن بول بريمر هو الذي أفشل الأمر. وبعد مرور سنوات على الأمر، نقل لي ولفويتز ما جرى بينه وبين مسعود برزاني في هذا الموضوع:

"ذهبت إلى مسعود برزاني لأبحث معه قضية إدخال الجنود الأتراك. سألته: لن نُدخل الجنود الأتراك إلى العراق من كوردستان، ولكنْ هل تعارض دخولهم من الكويت أو جواً إلى المنطقة مباشرة؟ قال: لا، ولكن بشرط. نقبل إذا وضعت الولايات المتحدة جنودها في كوردستان!".

بعد أن نقل لي بول ولفويتز هذه المعلومة خلال حديث طويل دار بيننا في 12 حزيران 2010، انتقل الحديث إلى بول بريمر، وقال: "من عارض دخول القوات التركية حقيقة هو بول بريمر، وقد أثر على واشنطن. وعلى الرغم من تبريره الأمر على أنه نتيجة اعتراضات داخلية عراقية، فإن السبب الأساسي هو المستعربون في وزارة الخارجية (الأمريكية). لهوران دور كبير أيضاً، ومن المحتمل أن يكون دوره هو الأكبر. لغته العربية طليقة جداً، وهو مستشار جيد، ولكنه لا يعرف شيئاً عن الشأن العراقي".

أعرف أن بول بريمر استخدم اسم هومة هوران من أجل تبرئة نفسه في كتابه حول انطباعاته أثناء عمله في العراق: "سنتي في العراق". عرفت هومة هوران وتأثيره على بول بريمر؛ وبالتالي على مصير العراق من خلال هذه الأسطر من كتاب علي علاوي "احتلال العراق: الانتصار في الحرب وخسارة السلام":

"كان هومة هوران سفيراً متقاعداً. وبموجب رجاء شخصي من الملك فهد، عُين بشكل مثير للجدل سفيراً في سفارة السعودية. أمضى هوران مهمته الدبلوماسية في الشرق الأوسط، وهو يتحدث العربية بطلاقة... وقد برز بتبنيه أطروحة برنارد لويس حول تعدد الهويات في الشرق الأوسط. يرى هوران أن هوية العراق فسيفساء توزعت بشكل عشوائي، ويجب إعادة جمعها بإصرار وانتباه. هذه الرؤية شكلت أفكار سلطة الائتلاف المؤقتة وبريمر... في مقالة مؤثرة كتبها بريمر بعد تركه سلطة الائتلاف المؤقتة يقول إن رؤية هوران التي يؤيده فيها المحافظون الجدد بشكل كامل تقوم على احتمال (أو رغبة) تشكيل محور يضم العراق وإسرائيل وإيران بعد التحول إلى الديمقراطية وتركيا. ويرى أن محوراً كهذا سيشكل نموذجاً لبقية الدول العربية، وسيدوّر زوايا الدين الحادة، والأهم من هذا سيشجع "الإصلاح"، ويسهل تقبل العالم المعاصر والانتقال إليه. كانت الأحكام المسبقة المبنية على دوافع أيديولوجية وقراءات تاريخية انتقائية هي الرائجة في الأيام الأولى لسلطة الائتلاف المؤقتة. وقد تم تجاهل الاتجاهات خارج إطار هذا التحليل

والأحداث الجارية في الحياة الحقيقية بسهولة".

بحسب بول ولفويتز، إنّ الفريق الذي قطع الطريق أمام تركيا في العراق هو الفريق الذي يعارضه داخل الإدارة الأمريكية ويضم شخصيات مثل بول بريمر وهومة هوران.

وجّه إلي ولفويتز فجأة سؤالاً لم أتوقعه: "برأيك، لو دخل الجنود الأتراك إلى العراق بموجب مذكرة السابع من تشرين الأول، أما كان كل شيء سيكون مختلفاً الآن؟".

لو أن إدارة بوش لم تبقِ صدام في بغداد، ولم تدر ظهرها للشعب العراقي، وطبقت في جنوب بغداد ما يشبه الحظر المفروض في الشمال حتى خط العرض السادس والثلاثين كما اقترح بول ولفويتز فهل ستكون هناك ضرورة لحرب عام 2003 والاحتلال الأمريكي؟

ومثلما لم يتخلص بول ولفويتز من طرح هذا السؤال على نفسه بين عامي 1993-2003، يبدو أنه سيبقى يلح على ذهنه بعد 2003 أيضاً.

كلما طرح أمثال بول ولفويتز - من الذين "يصنعون التاريخ" أو يساهمون مساهمات فردية فعالة في "صناعة التاريخ" - أسئلة من هذا النوع يخطر ببالي السؤال الذي أطرحه بإصرار وعناد على طلابي في درس "تاريخ الشرق الأوسط الحديث":

"هل كان ينبغي للعرب قبول قرار الهيئة العامة للأمم المتحدة رقم 181 في تاريخ 29 تشرين الثاني لعام 1947 القاضي بتقسيم فلسطين؟ وماذا كان من الممكن أن يحدث اليوم لو قبلوا به؟ هل ستكون القضية الفلسطينية عندها على ما هي عليه اليوم؟".

خطة الأمم المتحدة لتقسيم فلسطين تقضي بمنح 56.47% من أرض فلسطين وهي تحت الانتداب الإنكليزي للصهاينة لإقامة دولة يهودية، ومنح 42.88% الباقية للعرب لإقامة دولة عربية. والمساحة البالغة 0.65% وتضم القدس ستكون منطقة دولية.

كان يعيش على 56.47% من أرض فلسطين التي ستقام عليها الدولة اليهودية 905،000 نسمة، 498،000 منهم يهود، و407،000 عرب. وحددت لجنة الأمم المتحدة التي حضرت الخطة أن هناك 105،000 عربي بدوي يعيشون في المنطقة المذكورة. وبهذا سيكون اليهود أقلية في هذه الدولة. على الرغم من هذا، منح العرب الذين يعيشون في الدولة اليهودية صفة الأقلية.

أما في الأرض التي ستترك للإدارة العربية فيعيش فيها 10،000 يهودي

مقابل 725،000 عربي، ويمنح اليهود صفة الأقلية.

أما المنطقة الدولية التي تضم القدس فيعيش فيها 100،000 يهودي مقابل 105،000 عربي.

وافق القائد الصهيوني ديفيد بن غوريون الذي سيدخل التاريخ بعد عام على أنه مؤسس دولة إسرائيل على الخطة. أما العرب فقد رفضوا الخطة لأنهم اعتبروها ظلماً كبيراً لهم.

في النقطة التي تم التوصل إليها اليوم، يقترح تأسيس دولة فلسطينية مستقلة على 22% من أرض فلسطين. ومع الأسف، بعد نصف قرن، وعلى الرغم من الآلام الشديدة والحروب الكثيرة والحروب الداخلية لم يتحقق هذا الحل أيضاً.

إذا أخذنا بعين الاعتبار العذاب الذي عاشه الشعب الفلسطيني على مدى عشرات السنين، ألم يكن تأسيس دولة فلسطينية على 42% من أراضي فلسطين عام 1948 أفضل من الوضع الحالي؛ حيث ليس لدى الفلسطينيين أي شيء؟ هل يمكن اعتبار رفض الفلسطينيين لقرار التقسيم رقم 181 الذي قبله الصهاينة خطأً تاريخياً؟ هل يجب اعتباره على هذا النحو؟

طرحت هذا السؤال على طلابي في درس "تاريخ الشرق الأوسط الحديث" في جامعة بلغي – اسطنبول اعتباراً من عام 1997، وفي ما بعد في جامعة الثقافة – اسطنبول في الامتحانات النهائية كلها، وقلت لهم إنني سأعطيهم درجة تامة لو أجابوا بشكل صحيح، وفي جملة واحدة عن هذا السؤال؛ حتى لو كانت أجوبتهم الأخرى كلها خاطئة.

هذه الجملة هي: "لا يحق لنا طرح سؤال كهذا؛ لأن التاريخ تدقيق في الأحداث، وما لم يتحقق لا يتجاوز كونه تخمينات".

سيكون الجواب على هذا النحو هو الجواب الصحيح؛ لأنني في بداية كل درس أتحدث طويلاً عن علم مناهج التاريخ.

لم أصادف أي طالب أجاب بشكل صحيح كما شرحت. ولم أحسم لهم درجات أيضاً. أنا مدرك أن عقل الإنسان يعمل وفق دوافعه الشخصية وليس وفق علم مناهج التاريخ. عقل الإنسان يساعد على طرح الأسئلة على نحو: "ماذا لو حدث على هذا النحو؟"، أو "ماذا لو لم يحدث هذا؟".

ويدخل سؤال بول ولفويتز ضمن هذا التصنيف.

أجبت عن سؤال ولفويتز: "من أين ستعرفون؟ لم يحدث ذلك؛ إذ لم يُنـزل الجيش التركي في الأنبار في خريف عام 2003. ماذا سيحدث لو نزل؟ لا بد أن حيويات أخرى ستدخل حيز الفاعلية حينها. ماذا ستكون تلك

الحيويات؟ وما النتائج التي ستترتب عنها؟ بما أنها لم تحدث فلا يمكن أن نعرف...".

XVIII - ملاحظات من "نُزلٍ للعابرين"



شكلوا قناعتكم حول إنسان من خلال أسئلته وليس من خلال أجوبته.
فولتير

كنت في بغداد بعد غياب ثلاثة أشهر في تشرين الأول 2003 بعد سقوط صدام. استمعت من أعضاء سلطة الائتلاف الموحدة، ومجلس الحكم الانتقالي، والوزراء والكثير من الشيعة والسنة والكورد أصحاب الكلمة في العراق عن سبب رفض وجود الجيش التركي في أي مكان من العراق، ووعدتهم بأن أنقل كلامهم بالضبط إلى رئيس الحكومة طيب أرضوغان.

كنتُ ضيفاً على برهم صالح في السليمانية قبل انطلاقي إلى بغداد. كان برهم صالح رئيس الحكومة الكوردية في السليمانية التي يسيطر عليها الاتحاد الوطني الكوردستاني بزعامة طالباني. كانت الإدارة الكوردية في شمال العراق حينئذ برأسين، وأربيل تحت إدارة الحزب الديمقراطي الكوردستاني

بزعامة مسعود برزاني، ورئيس الحكومة هناك نهجوان برزاني. عندما علم برهم صالح أنني ذاهب إلى بغداد برفقة إلنور تشفيك، سأل إلى أين سنذهب. أجاب إلنور أننا نعرف إلى أين سنذهب، ولا ضرورة للقلق. المكان الذي قصده إلنور هو فندق سندباد في حي الكرادة البغدادي الملاصق للفندق الذي نزلنا فيه في تموز. كان يقيم في الفندق مسؤولو الحزب الديمقراطي الكبار كلهم. وكان هدف إلنور أن ينهي فصل الاتحاد الوطني الكوردستاني في السليمانية مع برهم، ويحل ضيفاً على هوشار زيباري في بغداد. هوشار زيباري ما زال مقيماً في فندق سندباد كما كان في تموز.

كان إلنور تشفيك رفيقي في الجندية؛ إذ كنّا في سرية واحدة سنة 1975 في تشنق قلعة. تعرفت إليه هناك، واستمرت علاقاتنا بعد الجندية. عندما تسلم إدارة جريدة " Turkish Daily News " الإنكليزية الناجحة الصادرة في تركيا، والتي أسسها والداه، صرت أحد كتابها من أجل استمرار صدورها. عندما كنتُ مستشاراً لأوزال كان إلنور مستشاراً لسليمان دميريل. لم ينعكس التناقض السياسي بين أوزال في أواخر حياته ودميريل على صداقتنا نحن مستشاريهما. أثناء وجودي في واشنطن بين عامي 1999-2000، زارها إلنور تشفيك بصحبة سليمان دميريل، واجتمعنا، وتبادلنا حديثاً طويلاً. أخبرني إلنور أنه مشغول بتأسيس تلفزيون كوردستان في أربيل بطلب من مسعود برزاني وبعلم هيئة الأركان التركية وموافقتها.

لإلنور علاقة جيدة مع القائدين الكورديين برزاني وطالباني، ويفسح لهما مكاناً جيداً في جريدته. إلى جانب هذا، كان أقرب إلى برزاني، وتربطه علاقة جيدة بنهجوان برزاني وهوشار زيباري. علاقات إلنور بأوساط الحزب الديمقراطي الكوردستاني الجيدة جعلته الصحفي التركي الوحيد الذي حضر مؤتمر المعارضة العراقية التاريخي الأخير الذي انعقد في مدينة صلاح الدين الكوردستانية بحضور زلماي خليل زادة قبيل الحرب بأسبوعين أو ثلاثة.

بعد الحرب، اقترح علي الذهاب إلى العراق معاً. وكان عقلي مشغولاً بهذا الأمر حينئذ. بداية، كنت أرغب برؤية كوردستان التي لم أرها من قبل. ذهب الكثير من الصحفيين الأتراك إلى هناك في التسعينيات. ولكن، نتيجة الدور الذي لعبته في القضية الكوردية وتأسيس روابط مع القادة الكورد صرفت النظر عن الذهاب إلى كوردستان؛ حيث كان يتردد الكثير من زملائي خشية تعرضي "لحادث" في طريق الذهاب أو الإياب. وصل فضولي إلى درجة غير محتملة بعد الحرب، وكنتُ أعدّ الخطط للذهاب إلى بغداد عن طريق الأردن أو الكويت.

كان مقترح إلنور جذاباً إلى درجة لا تُقاوم؛ لأنه تحدّث عن الدخول من باب الخابور إلى شمال العراق مباشرة، ومن هناك إلى بغداد.

كيف سيحدث هذا؟ كان باب الخابور تحت إشراف الجيش أو على الأصح القوات الخاصة، ولم يكن يُسمح بعبور المدنيين. قال إلنور: "دع هذا لي، أنا سأحصل على إذن".

وحصل عليه. أصبح أصلان غونر رئيس مرافقي تورغوت أوزال سكرتير عام رئاسة الأركان برتبة لواء. انطلقنا في الطريق حاملين إذن أصلان غونر. أوقفتنا القوات الخاصة في الخابور، وعاملتنا معاملة سيئة. عندها، اتصل إلنور بأصلان غونر، وقبل مرور نصف ساعة فتح لنا الباب، ووطئت قدماي باب إبراهيم الخليل الحدودي حيث لوحة "كوردستان ترحب بكم" لأول مرة في تموز 2003.

علاقة إلنور تشفيك بالحزب الديمقراطي الكوردستاني أمّنت لنا سيارات أرسلت من أربيل. أخذونا إلى دهوك بداية. وبعد الغداء في دهوك ذهبنا إلى أربيل عبر الموصل، ومن هناك إلى صلاح الدين، ونزلنا في دار ضيافة هذا الحزب المريحة والمفروشة بشكل جيد يجعل المرء لا يتصور أن هذا البلد خاض حرباً.

كانت قاعدتنا في العراق في شهر تموز هي دار الضيافة، ومن هناك إلى السليمانية، ثم إلى أربيل، فكركوك، وأخيراً إلى بغداد. في بغداد، كنا ضيفَي الحزب الديمقراطي الكوردستاني. وكان أعضاء هذا الحزب يوصلون لنا المعلومات اليومية. عندما كنا على وشك مغادرة بغداد أخبرونا أن مسعود برزاني سيأتي إلى الفندق، وفي اليوم التالي ستقام مراسم تأسيس مجلس الحكم الذي يُعَدُّ أول إدارة عراقية تمثيلية؛ مما جعلنا نتراجع عن المغادرة، ونبقى في بغداد. وجدنا فرصة قضاء السهرة كلها مع مسعود برزاني قبيل ذلك اليوم التاريخي.

كان إلنور تشفيك يعتمد على الحزب الديمقراطي الكوردستاني، وقضى وقته مع قيادات هذا الحزب وعلى رأسهم هوشار زيباري عند ذهابه إلى بغداد في تشرين الأول بعد انقطاع قصير. وعلى الرغم من أن العلاقات بين الاتحاد الوطني الكوردستاني والحزب الديمقراطي الكوردستاني لم تكن متوترة في تلك الأيام، ولكنها لم تكن علاقة ود. ولهذا السبب، تجنّب أن يخبر برهم صالح بأننا ذاهبان إلى هوشار زيباري والحزب الديمقراطي الكوردستاني.

عندما لم يحصل برهم صالح على معلومات دقيقة حول المكان الذي نقصده في بغداد، وطريقة الذهاب، تذرع بالأمن وتسلّم مسألة إيصالنا إلى

بغداد. أزال التنسيق الذي أعده برهم إمكانية اعتراضنا نهائياً حين أبلغنا بأننا سنقيم لدى نوشيروان مصطفى في بغداد. وبنبرة تجمع بين الأمر والكرم قال: "كاك نوشيروان ينتظركما، وقد أعدّ وليمة كبرى على شرفكما. ستذهبان إليه مباشرة". وودعنا إلى بغداد.

الأمن في خريف عام 2003 كان مقلقاً في بغداد بقدر ما هو مقلق على الطرق البرية. وحسب معلوماتنا، إن الأحوال الأمنية في بغداد ساءت في تموز، وأصبحت أماكن إقامة طبقة الحكام الجدد والأمريكيين هدفاً للاعتداءات.

التطور الذي جعل بغداد أخطر منطقة من الناحية الأمنية هو نسف مكتب الأمم المتحدة في 19 آب بشحنة كبيرة من المتفجرات. قتل في الهجوم ممثل الأمم المتحدة في العراق الدبلوماسي البرازيلي فييرا دي ميلو وأربعة عشر شخصاً آخر، وأصيب المئات.

أخلت الأمم المتحدة مقرها في بغداد بعد مقتل ممثلها فييرا دي ميلو. ولكن الصدمة الحقيقية حدثت بعد هذا التطور بعشرة أيام؛ حين قتل آية الله محمد باقر الحكيم قائد أكبر تنظيم شيعي هو المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق بتفجير أثناء خروجه من جامع الإمام علي في النجف في 29 آب. وفقد مع آية الله محمد باقر الحكيم مائة وخمسة وعشرون شخصاً حيواتهم.

وفي أواخر آب، لم يكن هناك أحد أو مكان آمن في بغداد. إبداء برهم صالح حرصاً شديداً على قضية الأمن أمرٌ مفهوم بالنسبة إلى تلك الأيام.

أثناء انطلاقنا بسيارة دفع رباعي تويوتا تسمى "مونيكا" أيام ما بعد الحرب، كانت تتبعنا سيارة أخرى من النوع واللون نفسه مليئة بالبشمركة.

انطلقنا نحو طوزخورماتو وداقوق، وعبرنا جبل حمرين الذي يعتبره الكورد حدودهم مع العرب، ونزلنا إلى البصرة والسهل الذي يغطي العراق كلها. بعد ثلاث ساعات ونصف الساعة، كنا في بغداد على الضفة الغربية من دجلة، واستقبلنا نوشيروان مصطفى على باب فيلا تحت حراسة قوية.

يعتبر نوشيروان مصطفى الذي قابلناه في بيت برهم صالح أثناء رحلتنا الأولى في تموز الرجل الثاني في الاتحاد الوطني الكوردستاني. كان نوشيروان مصطفى قائد "عصبة الشغيلة الكوردستانية" اليسارية الماركسية التي تعتبر الوريد الرئيس بتشكيل الاتحاد الوطني الكوردستاني عام 1975. أسس حركة "التغيير"، وفاز بالانتخابات في مدينة السليمانية التي تعتبر قلعة الاتحاد

الوطني الكوردستاني الذي انشق عنه، وغدا المنافس السياسي الأول لطالباني. كان نوشيروان مقيماً في بغداد منذ أيام طويلة، ويمثل طالباني في اجتماع مجلس الحكم العراقي. إذ كان جلال طالباني نادراً ما يتواجد في بغداد في تلك الأثناء، وكان يقوم بزيارات خارجية باستمرار.

بعد أن استقبلنا نوشيروان مصطفى عند باب الفيلا، دعانا إلى المائدة من دون إبطاء. كانت شخصيات مهمة في الاتحاد الوطني الكوردستاني مثل وزير الصناعة محمد توفيق الذي سيغدو الرجل الثاني في حركة التغيير، والدكتور عبد اللطيف رشيد وزير شؤون المياه وعديل طالباني، وأخرى شيعية وسنية عراقية تنتظرنا إلى المائدة. قبل مرور وقت طويل، انتقل الموضوع إلى دخول القوات التركية إلى العراق، وسبب اعتراض العراقيين على هذا الأمر.

فهمت سبب توجيه برهم صالح لنا بالذهاب إلى نوشيروان مصطفى في بغداد. إضافة إلى هاجس الأمن، كان يرغب بإقناعنا بأن للعرب أيضاً أسباباً قوية لرفض القوات التركية وليس الكورد وحدهم. طبعاً، كان يراد أن نوصل هذه الآراء إلى المرجعيات المختصة عندما نعود إلى تركيا.

أغرب الرؤى المعارضة لدخول القوات التركية إلى العراق خلال الفترة التي قضيتها في بغداد سمعتها من عادل عبد المهدي. قال صديقي عادل عبد المهدي - أو (أبو أمل) كما اعتدت على ندائه من أيام بيروت - إن تركيا دولة جارة، وإذا أدخلت قواتها إلى العراق، فسيخشى من تذرّع إيران بالأمر، وممارستها ضغطاً على القوى السياسية القريبة منها لإدخال قواتها إلى العراق. أبو أمل أحد قيادات المجلس الأعلى الإسلامي العراقي لا يرى أن زيادة نفوذ إيران على هذا التنظيم الذي لها فيه نفوذ قوي أمر مناسب.

ويقال إن عدنان الباجة جي من المسؤولين العرب السنة أيضاً كان معارضاً لدخول القوات التركية إلى العراق. كان العرب السنة قوميين عرباً أو عراقيين، ولديهم مشاعر عدائية تجاه المنظمات التي تعتبر امتداداً لإيران. لماذا يعارضون هذا على الرغم من اعتبارهم تركيا "مركز ثقل سنيًّا" ويتوقعون منها المزيد من الفاعلية في التوازن مقابل إيران؟

المعروف أن القوميين العرب ونظرائهم من القوميين العراقيين يشعرون بالقلق من تركيا باعتبارها الدولة المسيطرة القديمة. ولكن هناك حجة يسوقها السنة بمعارضتهم للوجود العسكري التركي في العراق يمكن أن تبدو غريبة للوهلة الأولى: كانت الأنبار هي المنطقة التي تشهد أوسع مقاومة للاحتلال الأمريكي، وهي ضمن ما يسمى "المثلث السني". يرى السنة أن

وجود الجيش التركي في المنطقة سيجعله يبدو حليفاً للقوات الأمريكية المحتلة، وستبدأ العمليات ضد الجنود الأتراك. وهذا سيخدم مخططات الشيعة "لتقسيم السنة"!

سمعنا رؤى تتضمن هذه الحسابات في الفيلا التي نقيم فيها مع نوشيروان مصطفى عضو مجلس الحكم العراقي، والدكتور محمود عثمان الكوردي المستقل، والذي أثار احتجاجات كبرى في تركيا على أنه من حزب العمال الكوردستاني، وفي الاجتماعات التي أعدها لنا مضيفنا في بغداد على مدى أيام.

الإقامة في مكان واحد مع نوشيروان مصطفى والدكتور محمود عثمان العضوين في مجلس الحكم العراقي أعطتنا فرصة للحديث في السياسية والتاريخ حتى ساعات الصباح الأولى. محمود عثمان من أقدم أسماء الحركة الكوردية في العراق، وكان طبيب الملا مصطفى برزاني ومساعده. كان بجوار الملا مصطفى برزاني الذي نجا بأعجوبة من محاولة الاغتيال التي أعدها نظام البعث في 29 أيلول 1971 في حج عمران القريبة من الحدود الإيرانية، وقتل فيها عدد كبير من العناصر. الدكتور محمود عثمان يحب السهر مثلي، وخلال تلك الليالي روى لي قصة محاولة الاغتيال تلك، ونقاش شاه إيران رضا بهلوي معه ومع الملا مصطفى الجارح، والأحاديث التي دارت بينه وبين عبد الله أوجلان عام 1999 عندما كان في روما، والكثير من صفحات التاريخ القريب الملونة. كانت تلك السهرات مع محمود عثمان في تلك الفيلا مفيدة جداً على صعيد معرفتي بالتاريخ الكوردي القريب.

الفيلا التي أقمنا فيها أيضاً تحمل معنى "تاريخياً". ومنذ اليوم الأول قال نوشيروان مصطفى: "هذه الغرفة التي نحن فيها مكان تاريخي. كانت تستخدم دار ضيافة للمخابرات في عهد صدام. هنا تفاوضنا مع صدام عام 1984 ممثلين للاتحاد الوطني الكوردستاني. كان صدام يجلس على هذه الأريكة التي تجلس عليها. انقطعت تلك اللقاءات بسببكم. قطعها كنعان إفران. جاء صدام ذات يوم، وجلس على الأريكة، وقال: "نحن مضطرون لقطع المفاوضات. تركيا تعارضها، وقد هددتنا بقطع النفط عبر أنبوب كركوك – يومورطالك. لا أستطيع استعداء تركيا. عدم المؤاخذة". أَرْسَلَنا مع حماية، فعدنا إلى الجبال وتابعنا الحرب...".

عندما بحثت في هذه المعلومة التي نقلها لي نوشيروان وغير المعروفة في العلاقات التركية – العراقية القريبة، وجدت أن رئيس هيئة الأركان التركية زار بغداد عام 1984 أثناء اجتماعات طالباني بصدام من أجل حل

القضية، وبعدئذ قطعت المفاوضات فجأة. ووردت معلومة حول هذا الموضوع في كتاب ديفيد ماك دوال الموسوم "التاريخ الحديث للكورد/ A Modern History of the Kurds " جاء في الصفحتين 350 و351 من الكتاب: "حتى الاتحاد الديمقراطي الكوردستاني رأى أن الاتفاق قريب في تشرين الأول 1984. ولكن وزير الخارجية التركية زار بغداد في تلك الأثناء، وحذّر بغداد من أن أي اتفاق مع الاتحاد الديمقراطي الكوردستاني سيؤدي إلى قطع منفذ البترول العراقي الوحيد عبر تركيا. على الأقل، يعتقد الاتحاد الديمقراطي الكوردستاني أن هذا هو سبب وقف المفاوضات. بكل الأحوال، انتهى وقف إطلاق النار، وعاد الاتحاد الديمقراطي الكوردستاني إلى ساحة الحرب".

قصة نوشيروان حول اتفاق صدام مع الاتحاد الديمقراطي الكوردستاني جعلتني أفهم أكثر ما قاله طالباني معاتباً في لقاء لندن الذي فتح أبواب تركيا له في شباط 1991: "التعاون بين تركيا والعراق موجَّه ضدنا. نعرف أن هذا نتيجة ضغط الأوساط العسكرية. التعاون بين تركيا والعراق دفعنا للتعاون مع حزب العمال الكوردستاني. أي إن القضية فعل ورد فعل".

بقدر ما كان تاريخ الحركة الكوردية تاريخ صراع دموي مع نظام بغداد، فهو تاريخ صراع بين التيارات الكوردية، واتفاق أحدها مع بغداد ضد الآخر. وضع العراق الجيوسياسي يفرض أن تراعي كل خطوة سياسة التوازنات الإقليمية والدولية.

كان الاتحاد الوطني الكوردستاني في عامي 1983-1984 يستمد قوته أساساً من سورية وليبيا. ويتواجد جلال طالباني على الأغلب في دمشق. في تلك الأثناء أيضاً، كانت الحرب الإيرانية العراقية في الجنوب مستمرة على أشدها. شكلت الحرب الإيرانية العراقية جواً دفع للتقارب بين إيران والكورد بعد أن خربت العلاقة بينهما منذ عام 1975.

فكّر صدام بلعب ورقة التعاون العراقي – التركي مقابل التعاون الإيراني الكوردي، ووقَّعت تركيا مع العراق "اتفاقية الملاحقة الحارّة" التي تعطيها حق إدخال جنودها إلى العراق من أجل كبح عمليات حركتها الكوردية التي ما زالت في المهد. وقد وُقعت "اتفاقية الملاحقة الحارة" عام 1978 قبل بدء الحرب العراقية الإيرانية. ونفّذت تركيا أولى عملياتها خارج الحدود بموافقة بغداد.

لم يكن من الممكن حينئذ معرفة ما يجري في تركيا، حيث تهيمن الإدارة العسكرية وتراقب الإعلام. طلب مني رئيس تحرير جريدة جمهوريت

الذهاب إلى طهران من أجل جمع المعلومات. كانت الكثير من الأبواب ومصادر الأخبار مفتوحة أمامي في طهران. ولكن، من غير الممكن نشر معلومات أجمعها من طهران حول استهداف الجيش التركي لكورد شمال العراق في الجريدة. عندما ذكّرت "حسن" بهذا، قال: "أعرف. ليكن. اذهب، ولنعرف ما يجري. لنعرف وإن كنا لا نستطيع النشر".

لم أستطع الحصول على معلومات ملموسة هامة حول هذا الموضوع في طهران. وبعد سنوات، قرأت هذه المعلومات في مقالة لديفيد ماك دوال حول أول عملية لتركيا خارج الحدود في شمال العراق:

"بدت تركيا أنها قامت بعملية خارج الحدود لقمع المتمردين الكورد في آخر أيار. فقد دخلت بقواتها البرية والجوية بموجب أحكام اتفاقية "الملاحقة الحارة" الموقعة عام 1978 وبموافقة بغداد. وخلال العملية التي قامت بها أنقرة، قبضت على 1500 شخص من المحتمل أن يكون أغلبهم مدنيين محليين. في الوقت نفسه، خربت مقرَّي الحزب الشيوعي العراقي والحزب الديمقراطي الكوردستاني وأوقعت خسائر كبيرة بأعداء بغداد بقتلها خمسمائة من البشمركة. حاولت تركيا الدخول بعملية أخرى وراء الحدود في آب، ولكنها اصطدمت بالحزب الديمقراطي الكوردستاني، وانسحبت.

إثر هذا، أوقفت القوات الإيرانية تقدم القوات العراقية في أراضيها، وانتقلت إلى الهجوم المعاكس. وإذا كان مركز الهجوم على الجنوب حيث الشيعة، فقد فُتحت جبهة أخرى في كوردستان. احتلت مدينة حاج عمران الحدودية المهمة بالاشتراك مع الحزب الديمقراطي الكوردستاني. كانت المدينة بيد الاتحاد الوطني الكوردستاني...

كانت نوايا إيران غامضة. ويعتبر خرقها الحدود موجهاً ضد بغداد من جهة، وفي الوقت نفسه يستهدف الاتحاد الوطني الكوردستاني مع الحزب الديمقراطي الكوردستاني الإيراني ومن يدعمه من كورد العراق. وهنا، قرعت بغداد جرس الإنذار خوفاً من عدم استطاعة الكورد مواجهة الهجوم الإيراني أو الهجوم الإيراني الكوردي المشترك. كانت إيران تشكل تهديداً للاتحاد الوطني الكوردستاني الذي لا يخفي تذمره من الجمهورية الإسلامية.

أسرع نتائج التقدم الإيراني هي دفع مقر قيادة الاتحاد الوطني الكوردستاني من الحدود إلى القوات العراقية... وصار الاتحاد الوطني الكوردستاني يواجه الانسحاق بين حجري رحى بغداد وطهران... وكان بحاجة ماسة لالتقاط أنفاسه...". (مصدر سبق ذكره، ص 347-348)

هذه هي الخلفية التاريخية التي دفعت جلال طالباني للتفاوض مع

بغداد.

أَمِلَ صدام من مفاوضة طالباني تقسيم الكورد، وتأمين دفاع الجبهة الشمالية.

لفت ماك دوال النظر إلى هذه العناصر حول جلوس الطرفين إلى طاولة المفاوضات:

"في هذه الأثناء، أقنع قائد الحزب الديمقراطي الكوردستاني في إيران عبد الرحمن قاسملو المدعوم من العراق طالباني بفائدة الصلح مع بغداد. كان الاتحاد الوطني الكوردستاني أقوى من الحزب الديمقراطي الكوردستاني. سيغدو طالباني ممثلاً مطلقاً للشعب الكوردي إذا نجحت المفاوضات". (مصدر سبق ذكره، ص 349)

بدأت المفاوضات في كانون الأول 1983 بعد التوصل إلى وقف لإطلاق النار. ما سعى الاتحاد الوطني الكوردستاني لتحقيقه بالمفاوضات هو:

تشكيل حكومة "وحدة وطنية" تضم الاتحاد الوطني الكوردستاني والحزب الشيوعي العراقي، وإجراء انتخابات حرة ديمقراطية حقيقية، ومنح الكورد حكماً ذاتياً أوسع مما تم الاتفاق عليه عام 1974، وتأسيس جيش كوردي يتألف من أربعين ألف مقاتل لحماية كوردستان العراق من الأعداء الخارجيين (يقصد هنا إيران)، وتخصيص ثلاثين بالمائة من ميزانية الدولة لإعمار المنطقة الكوردية.

مطالب طالباني التي خطط لها عام 1983 حول الحكم الذاتي تطابق بدرجة كبيرة ما طُلب بعد عام 2003. فقد طلب إدخال كركوك وجبل سنجار وخانقين ومندلي في منطقة الحكم الذاتي الموسع.

عارض صدام كل المواضيع تقريباً، وخاصة موضوع كركوك. فإذا حصل طالباني على كركوك فسيكون قد حقق ما لم يستطع الملا مصطفى برزاني تحقيقه، وسيغدو القائد الكوردي الأوحد. اقترح صدام في تلك المباحثات التي حضرها نوشيروان حلاً وسطاً، وهو: "لا تصر على كوردية كركوك، ونحن لن نقول إن كركوك ليست مدينة كوردية". ولكنه كتب في ما بعد أنه لم يقدم أي تنازل في قضية كركوك.

كنت أستمع لنوشيروان في الفيلا التي شهدت تلك المفاوضات. أنهى جولتنا بهذه الجمل: "قضينا حياتنا ونحن نسعى إلى حكم ذاتي، حكم ذاتي، حكم ذاتي. صعدنا إلى الجبال في سبيله. عندما نقول منطقة حكم ذاتي فنحن نقصد منطقة حكم ذاتي تضم كركوك. قبل صعودنا إلى الجبال عام 1975 اقترح صدام على الملا مصطفى تقسيم المدينة وترك طرفها الشرقي –

أي الطرف الواقع شرقي طريق بغداد - للكورد، وبقاء غربها تابعاً للإدارة المركزية. وصلنا إلى تلك النقطة، لم يقبل الملا مصطفى برزاني".

يعرف كركوك العارفون. فهي تقع شرقي طريق بغداد، بحي الإمام قاسم الذي أُسكِن فيه الكورد، وقلعتها التاريخية ذات الهوية التركمانية، ونهرها الجاف هاسا. لا يُعدّ اقتراح صدام على الملا مصطفى برزاني غير منطقي.

عندما سألت نوشيروان السؤال الذي أعرف جوابه: "أين موقع المخزون النفطي؟". أجابني ضاحكاً: "في الطرف الغربي!".

كانت كركوك دائماً أهم عائق بالاتفاق بين بغداد والكورد. ولكن من المحتمل أن الطرفين جلسا إلى طاولة المفاوضات لأسباب تكتيكية وليس من أجل الوصول إلى حل، فمن غير الواقعي انتظار التوصل إلى حل. لا بد أن اعتراض تركيا الذي قطع المفاوضات ذريعة بحث عنها صدام كثيراً.

- حسنٌ، كيف كان صدام يعاملكم؟ على الرغم من مفاوضاته معكم فأنتم أعداؤه، وخونة للعراق بنظره.

- كان إنسانياً ولبقاً إلى أبعد الحدود على الصعيد الشخصي. لا أثر لقسوته الشديدة وظلمه المعروف في علاقاته الشخصية.

قطعت المفاوضات عام 1984، ونهض صدام عن الأريكة التي أجلس عليها، ورافق نوشيروان مصطفى وقائد الاتحاد الوطني الكوردستاني إلى باب الفيلا، وأرسلهما مع حماية إلى جبال كوردستان ليخوضا حرباً ضده.

احترام الضيف، وتقديم الطعام والشراب له، وحمايته عادة عربية بدوية قديمة، وأحد تقاليد عشائر الشرق الأوسط. وقد التزم بها صدام. بعد قطع المفاوضات، ووصول الهيئة الكوردية إلى أرضها سليمة يُباح الاغتيال والقصف والحرب وكل شيء. نحن "الأناضوليين من أصول روملية" لا نعرف هذا الأسلوب في العلاقات.

أثناء حديثي مع نوشيروان حول صدام لم يكن قد قُبض على ديكتاتور العراق بعد، ولا يُعرف أين هو. بعد شهرين من حديثنا في بيت ضيافة المخابرات، قبض عليه قرب مسقط رأسه في تكريت بتاريخ 14 كانون الأول 2003.

من المحتمل أن نوشيروان كان يلاحق أثر صدام أثناء حديثنا حوله. فقد أذيع بعد القبض على صدام أن الاتحاد الوطني تقفى أثره، وأوصل للأمريكيين المعلومات التي حصل عليها. كان نوشيروان كثيراً ما يأتي على ذكر بول بريمر أثناء حديثه، ويشتكي من عدم معرفته العراق، وأن هذا

سبب عدم إمكانية وقف الإرهاب.

قال ذات مرة: "بنية العراق قبلية. إذا حصلت على رئيس القبيلة فستحصل على الكثير. ولهذا ألف طريق وطريق بما فيها النقود. ينبغي أن تعرف خصائص القبائل وبنيتها الداخلية. نحن نعرف هذا، فنحن نعيش في هذا البلد. قطع الطريق على الإرهاب يكمن بإقامة علاقات مع القبائل...".

- حسنٌ، ألم تشرحوا ما تشرحه لي الآن لبول بريمر؟

- ليست المشكلة بالوصول إلى بول بريمر، وشرح هذا له. نحن نعمل في البناء نفسه، ويمكننا الوصول إليه متى شئنا من دون طرق بابه. ولقد شرحنا هذا مرات عديدة.

- أين المشكلة؟ ألا يستمع إليكم؟

- بل يستمع، ويستمع بانتباه. ولكن ما نشرحه يدخل من أذن ويخرج من الأخرى. المشكلة في التكوين الثقافي. ليست لدى الرجل مكونات ثقافية تجعله يفهم ما نشرحه. إنها لا تدخل عقله. عدم سماعه لنا ليس ناجماً عن سوء نية، بل إنه لا يفهمنا...

اعتمدت "استراتيجية زيادة القوة" التي أعلنها الجنرال باتريوس في السنة الأخيرة من فترة حكم جورج دبليو بوش على كسب العشائر العربية السنية وتسليحها؛ مما أدى إلى خفض وتيرة الإرهاب بنسبة كبيرة، وخاصة تحقيق أمن نسبي في بغداد. لقد طبقوا ما قاله لي نوشيروان في تشرين الأول عام 2003 بقليل من الزيادة أو النقص بتأخير خمس سنوات.

كان الحديث عن بغداد مع نوشيروان مصطفى في بيت ضيافة مخابرات صدام يحمل متعة مختلفة. إنه يعرف مختلف زواياها بغداد وماضيها وخصوصياتها الثقافية جيداً جداً لأنه درس في الجامعة فيها. على الرغم من أنني زرت بغداد ثلاث مرات سابقاً منذ عام 1978، فقد عرفت منه أن قسم المدينة الغربي يسمى الكرخ والشرقي يسمى الرصافة. والآن نحن في الكرخ.

في هذه الحال، لقد أقمت في زيارتي الأولى عام 1978 في الرصافة، وفي المرة الثانية عندما جئت برفقة تورغوت أوزال أقمت في الكرخ، وعندما أتيت قبل ثلاثة أشهر أقمت في الرصافة، والآن أنا في الكرخ ثانية.

يجب أن نكون في المنصور، الحي السني الذي كانت النخبة البعثية تسكنه في الكرخ. بنى الخليفة العباسي مدينة ألف ليلة وليلة الأسطورية التي كانت مركز العلم من دون منازع في العصور الوسطى بين عامي 762-767م. في الكرخ بداية، وأطلق اسمه على المكان الذي أسس فيه

بغداد. وقد أصبح المنصور أهم حي بغدادي في ما بعد؛ وخاصة في عهد نظام البعث.

قال نوشيروان: "لا، هذه الحارثية. يبدأ حي المنصور من أول الشارع الذي أمامنا. ولكن، للمكان الذي نحن فيه خصوصية أخرى. القصر الذي يتوسط الحديقة الواسعة على الشارع الموازي للشارع الذي يفصل بين الحارثية والمنصور هو القصر الملكي حتى عام 1958".

كنت دائماً أرغب برؤية المكان الذي أُنهِيَت فيه الملكية بثورة 1958؛ حيث قتل الملك الشاب فيصل الثاني وهو في الثالثة والعشرين من عمره. لتاريخ 14 تموز 1958 مكان خاص في ذكريات طفولتي. إذ إنّ إسقاط الملكية العراقية حليفة تركيا في حلف بغداد، ومقتل الملك فيصل الثاني خطيب الأميرة الشابة فضيلة ابنة الأميرة هان زادة سليلة الأسرة العثمانية الملكية، والأمير عبد الإله خال الملك ونائبه بشكل وحشي أجّجا المشاعر في تركيا. كوت قلوبَ الرأي العام التركي في تلك الأثناء صورُ النهاية التراجيدية للملك فيصل الثاني وفضيلة الجميلة التي فقدت خطيبها قبل أن تصبح ملكة عندما نشرت في جريدة الحياة الشعبية جداً والمهتمة بالمنوعات. لقد قضى الملك فيصل الثاني آخر أيامه في قصر الرهاب الواقع على الطرف الثاني من هذا الشارع الذي أراه من النافذة. شردت لحظات وأنا أنظر إلى قصر الرحاب على الطرف الآخر من الشارع، وأحاول استحضار 14 تموز 1958 في عقلي.

تقع غرفة نومي في الجهة المعاكسة من الفيلا، أي إنها تطل على جهة المنصور. فتحت عيني صباح 16 تشرين الأول 2003 على أصوات تشبه طلقات بندقية رشاشة. رأيت طائرات مروحية من نافذتي المفتوحة والمنفرجة ستائرها. كانت الطائرات الأمريكية مستمرة بالتحليق، ومن المستحيل متابعة النوم مع ذلك الضجيج.

عندما نهضت وذهبت إلى الصالون، وجدت نوشيروان مصطفى ومحمود عثمان وإلنور تشفيك يجلسون إلى طاولة الفطور في ساعة مبكرة وهم يشربون الشاي. لم يصدقوا أنني استيقظت على صوت مراوح الطائرات وليس على صوت الانفجار الذي اهتز له البناء؛ فأنا لم أشعر بشيء وأنا أغط بنوم يسمى "إذا انفجر مدفع لا أشعر".

أطلقوا قذائف صاروخية على بناء فندق الرشيد الذي يظهر من حيث أنام. كان بول ولفويتز مقيماً في الفندق في تلك الأثناء. محاولة اغتيال بول ولفويتز بهجوم صاروخي كانت أكبر عملية للمقاومة ضد الوجود الأمريكي

حتى ذلك الوقت. حدث ما حدث قبل أن أفتح عيني على أصوات المروحيات بعشرين دقيقة.

كان نوشيروان ومحمود عثمان قبل ليلة في حفل جَمَعَ بين أعضاء مجلس الحكم في العراق وبول ولفويتز في فندق الرشيد. ذهب محمود عثمان المعروف بصراحته التي تصل إلى حدود الوقاحة إلى الحفل من أجل أن يشرح لولفويتز أسلوب الحكم في العراق وأخطاءه.

تسمّرت عيون نوشيروان مصطفى ومحمود عثمان على التلفزيون لمعرفة نتائج العملية المذهلة على المكان الذي كانا فيه مع ولفويتز قبل ليلة، واستمعوا للأخبار. تمت العملية بصواريخ أطلقت من حديقة الزوراء وأدت إلى وقوع الكثير من الضحايا والجرحى. وظهر ولفويتز بحال مزرية وقد نجا على قيد شعرة من العملية. العملية التي هدفت إلى قتله، وكادت أن تحقق هدفها ستجعله يغير برنامج زيارته إلى مدن العراق الأخرى.

أما نحن فقد مررنا إلى جوار حديقة الزوراء التي نفذ منها الهجوم في ذلك اليوم، وانطلقنا في الطريق عائدين إلى تركيا.

كان لدينا ما نشرحه لطيب أرضوغان. لقد وعدنا أن ننقل ما سمعناه في بغداد بالضبط للمسؤولين في تركيا.

فور عودتنا إلى تركيا، طلبنا لقاء خاصاً مع طيب أرضوغان. اتصل إلنور تشفيك بجنيد ظابصو، واتصلت بعمر تشليك. بعد فترة قصيرة جداً جاء الخبر من رئيس الحكومة. إنه ينتظرنا يوم الخميس في 6 تشرين الثاني 2003 بعد الإفطار مباشرة في مكتبه.

كانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها طيب أرضوغان في مكتب رئاسة الحكومة منذ أن رأيته عندما ذهبت مهنئاً عبد الله غول قبل عام. بقينا نتحدث حتى منتصف الليل. أخذ شرح انطباعاتنا عن العراق أول ساعة. ولكنه على ما يبدو أخذ بمتعة الحديث فلم يجب على الهاتف، واضطر المنتظرون لقاءه وبينهم وزراء الانتظار حتى خروجنا.

شرحنا لرئيس الحكومة بالتفصيل الرؤى المعارضة لذهاب الجنود الأتراك إلى العراق بشكل خاص والحجج التي سمعناها. وبهذه المناسبة، حدثناه عن زحمة إعلانات الشركات التركية في شمال العراق بما في ذلك كركوك، وشرحنا له بالأمثلة كيف تدخل تركيا إلى العراق بقوتها الاقتصادية. ونقلنا له العبارة التي قيلت لنا وتم التأكيد عليها: "لا تأتوا بالبذلات العسكرية، تعالوا بالشركات والمواد الغذائية ولوازم الإنشاءات لنفتح لكم حينئذ أذرعنا".

في إحدى اللحظات قلت له الآتي:

"دوركم بتمرير مذكرة إرسال جنود أتراك إلى العراق بسرعة وغالبية كبيرة من البرلمان يسجل رصيداً سياسياً لصالحكم لدى الولايات المتحدة تضعونه في جيبكم. ولكن، إذا أرسلتم جنوداً أتراكاً إلى الأنبار فهناك احتمال كبير بتقديم شهداء. إذا عاد الجنود الأتراك الذين سترسلونهم بالتوابيت فهذا سيجعل تركيا تضطرب، ويحرج موقفكم. وبما أن بول بريمر ومجلس الحكم والعراقيين لا يريدون ذلك، فما ضرورة هذه المغامرة؟ الرصيد الأمريكي في جيبكم، بعد هذا يعتبر الأمر مغامرة. وبما أنهم لا يريدون، فمن الأفضل ألا تستخدموا صلاحية إرسال الجنود إلى العراق".

استمع طيب أرضوغان بانتباه من دون إبداء أي تعليق.

في هذه الأثناء، أخبرته أننا أقمنا في بغداد مع الدكتور محمود عثمان؛ الوارد اسمه في قائمة تتضمن أكثر من مائة شخص يوصفون بأنهم أعضاء في حزب العمال الكوردستاني وإرهابيون:

"سيدي رئيس الحكومة، هذا الاسم يثير شكوك الولايات المتحدة الأمريكية ومؤسسات دولية مثل الأمم المتحدة. إنه اسم معروف جداً، ولا ضرورة لتقارير المخابرات. إذا اشتريتم كتاباً حول العراق أو الكورد من أي مكتبة في لندن أو نيويورك فستعرفون منه محمود عثمان. إنه أحد قادة الحركة الكوردية العراقية منذ مطلع الستينيات. في ذلك الوقت، لم يكن قد ولد جدّ حزب العمال الكوردستاني".

بعد أن استمع طيب أرضوغان وعلى وجهه تعابير الدهشة والفضول، سأل: "ولكنه قومي كوردي أليس كذلك؟".

"نعم، بالتأكيد. ولكن، هذا هو الشرق الأوسط. الناس هنا إما قوميون كورد، أو عرب، أو أتراك، أو اشتراكيون أو شيوعيون أو إسلاميون أو غير ذلك. وليس هناك من ينكر أنه قومي. ليس من حزب العمال الكوردستاني وليس إرهابياً...".

لاحظت أن رئيس الحكومة أصغى جيداً إلى ما قلناه؛ وبشكل خاص لحديثي حول المخزون الاقتصادي الواعد للعراق والمنطقة الكوردية.

نزل الخبر في اليوم التالي بعد الظهر كالقنبلة على أنقرة: اتخذت الحكومة برئاسة طيب أرضوغان قراراً بعدم استخدام الصلاحية التي منحها إياها البرلمان. أي إنها لن ترسل جنوداً إلى العراق!

مساء، كنت في أستوديو البث المباشر لـ " CNN " التركية وأحلل القرار. وبينما كنت أقوي تحليلي بقولي: "اعتمدت بمعلوماتي على مسؤول رفيع جداً التقيته بالأمس". قطع تحليلي ببث كلمة رئيس الحكومة في

إفطار يعده حزبه. كنت سأستمر بتحليلي بعد أن ينهي رئيس الحكومة كلمته. ذكر رئيس الحكومة أن الحكومة قد اتخذت قراراً بعدم استخدام الصلاحية الممنوحة لها بإرسال جنود إلى العراق. وقال: "استمعت البارحة لصديقين صحفيين عادا للتو من العراق. العراق يفتح حضنه لنا في الاقتصاد، وينتظرنا. البضاعة التركية في كل مكان هناك...".

لا أعتقد أن قرار الحكومة بعدم إرسال جنود إلى العراق اتخذ نتيجة ما شرحناه لرئيس الحكومة. أعتقدُ أن ما شرحناه هو بمثابة القطرة الأخيرة في قرار كان عازماً على اتخاذه. تحت عنوان: "أنقرة أغلقت دفتر العراق"، نشرت جريدة راديكال في اليوم التالي: "جاء قرار الحكومة إثر مكالمة هاتفية بين وزير الخارجية الأمريكي كولن باول ووزير الخارجية التركي عبد الله غول. وقال باول إنه طلب مساهمة تركيا العسكرية، ولكن هناك مشاكل عديدة، وطلب سحب عرض إرسال الجنود". وجاءت في الخبر عبارة: "وقد قال باول إن مجلس الحكم المؤقت يرفض الجنود الأتراك. وعدم ذهاب الجنود الأتراك سيكون أفضل للجميع. شكراً على كل شيء".

في الحقيقة، إنّ عدم ذهاب الجنود الأتراك إلى العراق في تشرين الأول والثاني 2003 أفضل للجميع.

ولكن بول ولفويتز حافظ على شكوكه بصواب هذا الأمر؛ مما جعله لا يستطيع منع نفسه من طرح سؤال علي في 12 حزيران 2010 في اسطنبول: "ألن يكون كل شيء مختلفاً لو أرسلت تركيا جنوداً إلى العراق في تلك الأيام؟".

لا يمكن لرجل مثل بول ولفويتز لعبَ دوراً رئيساً في سياسة الولايات المتحدة نحو العراق ألا يكون قد أجرى محاسبة شخصية. ترى، هل يلتفت إلى الوراء في عام 2010 في حياته المبتعدة عن الأضواء والفلاشات، ويقول: "نحن أخطأنا هنا"؟

كان هذا أكثر ما يثير فضولي.

لقد كتب أشخاص مثل كنعان مكية وميشيل إغناتيف ما يشبه النقد الذاتي. بماذا يفكر بول ولفويتز من ناحيته؟

يبدو أن بول ولفويتز قد ارتاح بعد "الثورة العربية" التي انفجرت في تونس في أواخر عام 2010، والأهم في مصر عام 2011، وحصول سورية على نصيبها من الثورة العربية، وسقوط القذافي في أيلول 2011. يقول في جريدة وول ستريت:

"بعد ظهور أننا أخطأنا في موضوع مخزون أسلحة الدمار الشامل في

العراق، هاجم البعض الرئيس بوش مع الأسف، والأسوأ من هذا أنهم اتهموه بالكذب. وادعى آخرون أننا "وضعنا بقعة سوداء على اسم الديمقراطية". هذا كله عبثي. عشرات الآلاف من العرب في سورية يخرجون اليوم معرضين أرواحهم للخطر من أجل الديمقراطية وليس من أجل ما وعدهم به بن لادن". (9 أيلول 2011)

أعطى جوابه عام 2011. ولكن، ما رأيه في عام 2009 بعد ست سنوات من الحرب، وأربع سنوات من تركه وظيفته؟

هل كانت حرب العراق خطأ؟

إذا كان قد ارتكب خطأ، فأين ارتكب؟

إزاء سؤالي هذا، أطرق بول ولفويتز بنظره الشارد، وبصوت خافت أفضى بما يمكن أن يكون قد توصل إليه عبر سنوات من محاسبة الذات. عدَّد ثلاثة أخطاء:

"خطؤنا الأساسي هو عدم نقل السلطة للعراقيين منذ البداية. وقد أفسد بريمر الأمور باعتباره حاكماً محتلاً. ولم نحسب جيداً قوة مقاومة نظام ساقط!".

أول هذه الأخطاء كان نتيجة السياسة الأمريكية التي جاءت معاكسة لرغبة ولفويتز. كان ولفويتز مؤيداً لنقل السلطة إلى العراقيين في أقرب فرصة. في الحقيقة، إنه هو البنّاء الثقافي لحرب العراق، وكان وضعه قوياً جداً بصفته نائب وزير الدفاع، ولكنه ليس كل أمريكا أو كل شيء في أمريكا. مع أنه استمر بانتقاد الجيش. قال: "كان (الجنرال) سانشيز سيئاً جداً. اقترحت بترواس على رامسفيلد. لو جاء بترواس من قبل لاختلفت الأمور". ولم يتوانَ عن انتقاد الرئيس بوش، فأضاف قائلاً: "لم يستطع بوش جمع فريقه والعمل بشكل منسق. أظهر ضعفاً بإدارة فريقه".

عدم نقل السلطة للعراقيين، واحتلال العراق، وفوق هذا جلب شخص مثل بول بريمر – كان خيار رامسفيلد – ووضعه على رأس إدارة الاحتلال، وعدم حساب قوة مقاومة نظام ساقط جيداً.

أنا أيضاً سجلت هذه "الأخطاء الأساسية" التي ارتكبتها الولايات المتحدة في ذهني من خلال زياراتي المتكررة إلى العراق بعد عام 2003. ولكن "أخطاء" مشابهة لهذه ارتكبها أيضاً الإنكليز عندما أوجدوا دولة العراق. في الحقيقة، إن أخطاء الإنكليز في العراق تقدم درساً رائعاً بالأخطاء التي يجب تجنبها.

قلت: "بول، هل قرأت تاريخ العراق المتعلق بالإنكليز قبل الحرب؟

هل تعلم بانتفاضة 1920؟".

هز رأسه بمعنى الإيجاب من دون تردد، وقال: "قرأته. ولدي علم بانتفاضة 1920".

لا يمكن معرفة الشعب العراقي إذا لم تُعرَف كيفية تأسيس العراق وعراق الإنكليز. وحتى إن معرفة هذا يمكن ألاّ تكفي لمعرفة العراق وفهمه.

ولم يكفِ هذا الأمريكيين أصلاً.

ولكنكم إذا لم تعرفوا كيف تأسس العراق، وعراق الإنكليز، فالأفضل ألاّ تتحدثوا نهائياً عن العراق. إذ إن معرفة تلك الفترة تعني ملامسة جذر القضية الكوردية في تركيا.

XIX - معاق بالولادة



"إذا رسمتم خطاً حول العراق وأعلنتموه وحدة سياسية فإنكم تحاولون الطيران ضد تاريخ يمتد أربعة آلاف عام. دائماً كانت آشور تنظر إلى الشرق والغرب والشمال، وبابل تنظر إلى الجنوب. ولم يكونا وحدة مستقلة في أي وقت. ثمة حاجة للزمن من أجل جمعهما، ويجب أن يُنفَّذ هذا تدريجياً. ليس لديهما أي أسلوب ليكونا أمة".

ديفيد فرومكين

بناء على رسالة تزكية من بول ولفويتز دعاني " Wilson Woodrow International Center for Scholars " أو باسمه المختصر "مركز ويلسون" إلى واشنطن لأعمل فيه فترة.

كان لي هاميلتون مدير مركز ويلسون. شغل لي هاميلتون منصب رئيس لجنة العلاقات الخارجية في مجلس النواب لمدة قياسية، وهو واحد من أقدم شخصيات السياسة الأمريكية وأكثرها احتراماً. وعمل رئيساً موازياً لوزير الخارجية الأسبق جيمس بيكر "لمجموعة العمل العراقية" التي أسسها

الكونغرس عام 2006 من أجل البحث في حرب العراق. يعتبر تقرير بيكر – هاميلتون الأشد نقداً لسياسة بوش في العراق من داخل النظام الأمريكي، وخريطةَ طريق السياسة العراقية لأوباما، وهو يحمل آثاراً من هاميلتون لا يمكن محوها.

بقدر ما كان بول ولفويتز جمهورياً، كان لي هاميلتون ديمقراطياً. وبقدر ما يعتبر بول ولفويتز بنّاء ثقافياً لحرب العراق، بقدر ما يعتبر لي هاميلتون مفكك هذه العمارة.

عندما اتفق هذان الشخصان على اسمي عام 1999 كانت هناك أربع سنوات لبدء حرب العراق، واتخذ كل منهما موقعه المضاد للآخر. منحني بول ولفويتز تزكية لدخول مركز ويلسون، ووافق هاميلتون، وخطوت خطوتي الأولى إلى أحد أهم مراكز واشنطن للدراسات في ربيع عام 1999.

تعكس مجلة " The Wilson Quarterly " الفصلية التي يصدرها مركز ويلسون المستوى الأكاديمي والثقافي لهذا المركز. بدأتْ هذه المجلة الفصلية حياتها حاملة تواقيع والت و. روستاو، وجورج ف. كينن، وريم كولهاس، وكارلوس فونتس، وماريو فارغاس لوسا، وجوزيف برودسكي، وجون أوبدايك، واستمرت. أنا أيضاً كتبت في مجلة ويلسون الفصلية، واستمررت بمتابعتها بعد مغادرتي الولايات المتحدة الأمريكية. في الحقيقة، إن فصلية ويلسون واحدة من المنشورات التي تلفت النظر إلى وجود مخزون ثقافي مختلف في الولايات المتحدة حتى من تركيا، ولم تفقد خصوصيتها هذه قط. بفضل هذه المجلة اكتشفت ف. س. نايدن من مقالته المعنونة: "خطوط على الرمال" والتي تتناول العراق في عدد شتاء 2007.

أعتقد أنني قرأت كل ما نشر بالإنكليزية حول تشكيل العراق. من الصعب إيجاد نصٍ ناجح يختصر مرحلة تاريخية معقدة بلغة ممتعة كثيرة الجناس، ومغطاة بالتلاعب اللفظي كهذا النص. الغريب بالأمر أن الكاتب بروفيسور في التاريخ ومختص بتاريخ اليونان القديم، ولم يتناول الشرق الأوسط بغير هذه المقالة.

يروي نايدن قصة ظهور خريطة العراق الحالية من خلال صراع المسؤولين الإنكليز على خطوط الخريطة، أو بتعبير آخر: "حرب خرائط بين الإنكليز".

يبدأ قصته على النحو الآتي:

"قبل أن تجعل الحرب العالمية الأولى التصوير الجوي فناً لإنتاج الخرائط، لم يكن النظر إلى أمة بشكل كامل سهلاً كالنظر إلى صورة. كانت

الأمة نتاج الخيال. وقليلة جداً الدول التي احتاجت إلى قوة خيال أكبر مما احتاج إليها العراق. رآه الأتراك العثمانيون محطة على طريق الخليج، وبالتالي على طريق الهند. وتصوره الروم والمقدونيون أيضاً على هذا النحو. انطلق الإسكندر الكبير في رحلة الهند، وتبعه إمبراطور روما تراجان بعد 450 سنة عام 117م. ولكنهما اضطرا للعودة بعد وصولهما إلى الخليج. ولكن غيرهما ذهبا من بعدهما...

الآن، تصوروا الإسكندر أو تراجان في الوقت المعاصر. فهو يعرف أين تقع الهند، ووضع يده على قسم كبير من العراق وعليه أن يديره. الهند تابعة لبريطانيا، وهي على وشك إدارته باعتباره جزءاً منها. في خريف 1914، في الأيام الأولى للحرب العالمية الأولى أنـزلت بريطانيا جيشها الهندي على شاطئ الخليج جنوب العراق. لم يأت الخمسون ألف جندي بنيّة احتلال البلد؛ فما أرادوه هو الحيلولة دون استخدام هذا البلد باعتباره باباً خلفياً للهند من قبل أعداء بريطانيا أو حتى حلفائها. من جهة أخرى، لم يكن للعراق حتى اسم على الخريطة. أطلقت الهند عليه اسماً.

حينئذ تدخل الحكام في 10 داونينغ ستريت. ورفضت حكومة الهند البريطانية المُستعمرة ذات الحكم الذاتي رَسْمَ الخريطة. أرادت أن ترسم هي الخريطة، ولهذا السبب يبدأ الصراع. ورسمت حكومة الهند خريطة العراق، ورسمتها لندن أيضاً. فكّرت الهند بشكل بسيط. لهذا السبب، إن العراق صغير بالنسبة إليها. فكّرت لندن بشكل كبير. تفرض الهند رؤيتها بواسطة جيشها، أما لندن فتفرض رؤيتها برسم خريطة. بالنتيجة، تكسب لندن؛ ولكن عدة خرائط ترسم قبل أن تكسب...".

لا بد من التعرف إلى أرنولد ويلسون قبل الجميع من خلال قصة نايدن.

"عندما جاء جيش الهند البريطاني عام 1914، كُلف رجل بمهمة الخريطة. كان هذا الرجل هو النقيب (أصبح عقيداً، ثم "سير") أرنولد ويلسون... بحدسه المحدود، كان معجباً بما يسميه البريطانيون "الأمم المحاربة" التي تقوي جيش الهند من الغورخا والسيخ، وبالأتراك الذين حكموا العراق لأربعة قرون حتى عام 1914. إعجاب ويلسون نابع من خوفه. نعم، يستطيع جيش الهند التغلب على الأتراك. ولكن، هل يستطيع أن يحل محلهم؟ بعد سقوط الإمبراطورية الصينية عام 1912، بقيت الخلافة أقدم الدول البارزة في العالم. كانت لا تضم العراق وحده، بل تضم معه سورية ولبنان والأردن وغالبية العربية السعودية وأكثر دويلات الخليج. وقبل

تاريخ ليس بعيداً كانت تضم غالبية البلقان ومصر وليبيا والجزائر.

عراق الأتراك عبارة عن ثلاث محافظات أو أقضية تمتد شمال الخليج. لم يقع ويلسون بخطأ تسميتها ولايات؛ إذ إنّ مفهوم الولاية مفهوم كندي، (الأسوأ من هذا أنه فرنسي). لم يكن العراق على هذا النحو؛ إذ تشكل الصحراء أو المستنقعات غالبية مساحته، وتُسمى كل محافظة من محافظاته الثلاث باسم مدينتها المركزية وهي البصرة وبغداد والموصل. تشكل البصرة ثلث البلد الجنوبي، وبغداد الثلث الأوسط، والقسم الأكبر في الشمال هو الموصل. كانت دير الزور الواقعة اليوم في سورية متصرفية تشكل حدود الموصل الغربية.

يمر دجلة والفرات من المحافظات الثلاث، ولكنهما يتحدان في منطقة تقع شمال الخليج بمائة وثلاثين ميلاً عند منطقة الأهوار. وتتطلب المنطقة حفر القنوات بشكل دائم. وقد جفت غالبية قنوات الري القديمة التي تقطع البلد أفقياً منذ أن خربها المغول قبل سبعة قرون. لم تكن السفن الكبيرة تصل إلى بغداد التي أُنشئت على ضفة دجلة في منطقة حرارتها كحرارة الحمّام، ويتباعد النهران شمالها ليشكّلا المنطقة الممتدة حتى جبال أرمينيا وتسمى الجزيرة. هذا المكان الجاف الذي لا يعطي محاصيل جيدة هو للرّحل الكورد والعرب.

لم يُطلق اسمٌ واحد على هذه المناطق المختلفة. كلمة "العراق/السهل" اسم طوبغرافي وليس جغرافياً، ولا يُطلق على المنطقة الجبلية في الشمال. أما تعبير " Mesopotamia /أرض ما بين النهرين" فهو أيضاً تعبير طوبغرافي لا يطلق على المنطقة الجبلية أو شط العرب. " Mesopotamia " كلمة يونانية، وتميز ويلسون بحبِّ الكلمات اليونانية منذ الطفولة. فقد كان يعرف أن اسم " Mesopotamia " يعود إلى العصر الهلنستي، ولم يكن ثمة ما هو هلنستي في العراق.

عندما كتب ويلسون مذكراته في ما بعد، استشهد بتاريخ المنطقة الطويل. كانت البصرة في الألف الثالث قبل الميلاد مكانَ أول حضارة في أرض الرافدين؛ وهي الحضارة السومرية. أما سنة 2200 ق. م. فقد أسس البابليون دولتهم على القسم الباقي من البلد. بعد ذلك، سكن الآشوريون في الشمال اعتباراً من 1800 ق. م. لم يستطع أحد حكم هذه المناطق الثلاث مجتمعة لفترة طويلة. حكم الفرس لأطول فترة، وهي بين 350-330 ق. م. حتى إن الروم لم يستطيعوا الإمساك بأرض ما بين النهرين كلها مجتمعة. بعد دخول الإسلام إلى المنطقة في القرن السابع الميلادي، سيطر

المسلمون على فارس وسومر وبابل، ولم يدخلوا آشور.

وحّدت الأسرة العباسية العربية العراق كما فعل الفرس. ولكنها جعلته جزءاً من قطعة أكبر منه. أسست بغداد عام 762، وأصبحت بابل جديدة امتدت أهميتها إلى ما بعد حدود دجلة والفرات. أفضل الجنود العباسيين جاءوا من هضاب آسيا الوسطى على بعد آلاف الأميال. وأفضل إداريي العباسيين كانوا من البوذيين السابقين الأفغان؛ ورثة تمثالي بوذا الضخمين اللذين دمرتهما طالبان عام 2001. وأفضل حكامهم هو هارون الرشيد؛ الحاكم العربي الوحيد الذي أرسل جيشه إلى الجهاد ضد البيزنطيين وحج في العام نفسه. هارون هو بطل حكاية ألف ليلة وليلة التي شهرت بغداد...

جاء الفاتحون الجدد – الأتراك العثمانيون – في القرن السادس عشر، وشكلوا القسم الثلاثي نفسه. وجدوا في الجنوب الإيراني مسلمين شيعة لديهم سحر الأئمة المتعلمين. تقبل ويلسون قوة العلماء، وأسماهم "علماء الفرس". حكم الأتراكُ الجنوبَ عن طريق الأئمة أو زعماء العشائر المحليين. ووجد الأتراك في الوسط شيعة مشتتين ويهوداً، إلى جانب الغالبية السنية. يميل السنة نحو العالم الإسلامي الكبير وليس نحو إيران الشيعية، ولهذا السبب كانت تَبَعيّتهم مخلصة. ساعد ملاّكو الأراضي السنة بإدارة المنطقة، وخدم المتعلمون منهم موظفين وضباطاً. وهنا، اهتم الأتراك بجمع الضرائب على عكس ما فعلوه في الجنوب. كانت المنطقة الباقية في الشمال هي الأكثر تخلفاً. المجموعة الأساسية هي الكورد، وهؤلاء مسلمون ولكنهم ليسوا ساميين كالعرب. يمكن أن يكون الفرسان الكورد من أحفاد أجدادهم الميديين. ويمكن أن يكون ويلسون قد اعتقد أن هذا هو سبب تعلقهم بالاستقلال وحب الطبيعة وفقرهم الذي لم يُر له مثيل. كان المسيحيون في بعض نقاط الشمال يشعرون بالضيق.

لم يرغب ويلسون بتخريب هذه الحالة، وهو القادم من الهند المتنوعة بأمرائها وأديانها وأعراقها. أراد أن يجعل البصرة فقط بريطانية. كان سيشق الطرق، وينظّف القنوات، ويجمع الضرائب، ويؤسس محاكم بريطانية بدل المحاكم الإسلامية. كانت بورما للهند البريطانية. ولِمَ لا تكون البصرة كذلك؟".

في السنوات الأولى للحرب العالمية الأولى، كانت عين السير أرنولد ويلسون على محافظة البصرة فقط. ولم يكن لديه اعتراض على بقاء محافظتي بغداد والموصل بيد العثمانيين الأتراك. رسمت لجنة حكومية برئاسة السير موريس دي بنسن خريطة تضم البصرة لإنكلترا، وتركت ما تبقى من العراق للأتراك.

تغيّرت الخرائط بعد الحرب العالمية الأولى، وتغيّرت خريطة العراق، وبرز اسم السير مارك سايكس متقدماً على الجميع. استمر نايدن بقصته مصوراً بنية سايكس الفكرية بشكل لا يمكن أن يُصادف في أي مكان. يعرض هذا التصوير الذهنية الاستعمارية الإنكليزية ونظرتها الملونة للشرق والشرق الأوسط:

"في عام 1916 أحيل السير إدوارد غري (آخر وزير خارجية ليبرالي إنكليزي إلى التقاعد)، وانتقلت سياسة الشرق الأوسط من الخارجية في وايت هول إلى مجموعة الأبنية المنشأة عشوائياً فوق الأرض الواقعة خلف الرقم 10 في شارع دوننغ حيث انتقل رئيس الحكومة هـ. هـ. أسكويس المسماة غاردن سوبورب. كان نزلاء غاردن سوبورب مثقفين على عكس أرنولد ويلسون وإدوارد غري. أول من رسم خريطة للعراق هو النائب المحافظ السير مارك سايكس الذي كتب كتبَ رحلات فقيرة – إلى درجة إثارة الاستغراب – حول الشرق الأوسط.

لم يحب مارك سايكس الأتراك على عكس أرنولد ويلسون. وقسمهم إلى قسمين: "قدماء" و"شباب". حكم الأتراك القدماء حتى عام 1908، وكانوا يشبهون الفرس في العصور القديمة بانتمائهم إلى عرق يتبنى الفروسية ومهارة استخدام السلاح والوقوف مع الحق. ولكن الأتراك الشباب الذين سيطروا على الخلافة بانقلاب حكومي كانوا "منوعي الثقافة". فقد كانوا شرق أوسطيين بثقافة متنوعة. كان الروم بغالبيتهم منوعي الثقافة، وكذلك الأرمن. أما اليهود فقد كانوا بعيدين عن الاختلاط بشكل مدهش. وكما سنرى، كانت لدى سايكس نظرية حول اليهود. لقد كانوا هجيناً إلى درجة أنه لم يكن بالإمكان إدارة قيمهم المتنوعة مهما اختلفت قومياتهم. اعتبر سايكس الأتراك منوعي الثقافة، ولا يمكن أن يصلحوا الخلافة. وقال: "انظروا إلى سجلهم بعد انقلاب 1908، وشاهدوا بأعينكم كيف لا يستطيعون عمل هذا".

ولكن سايكس لم يحب العرب باعتبارهم بديلاً عن الأتراك أيضاً. فهو يصفهم في كتابه دار الإسلام الصادر عام 1904 على النحو الآتي:

"إنهم ماكرون وجبناء، ولديهم بلاغة وخبث... وهم مرضى بسبب عيشهم السيئ لسنوات طويلة. كما أنهم قرويون أجلاف ووقحون مثل ولد يشبه يقطيناً منتفخاً بكل قرفه، يلقون الشعر كما لو أنهم يتكلمون كلاماً عادياً... وهم جاهزون للتمرد وإزهاق الأرواح بتطرف طالما أنهم لا يواجهون تمرداً وخطراً، ويشمئزون من الأوروبيين بتعصب وخبل ومن دون منطق...

ويصرخ أحدهم في وجه الأجنبي قائلاً له إنه كافر، وعندما يلتفت إليه يطلق ساقيه للريح ويختفي".

ويكتب حول البدو في الصحراء: "من الصعب أن تجد من هم أبخل من هؤلاء وأسوأ طباعاً وأكثر وحشية".

على الرغم من هذا، إن عرب المدن والريف أفضل من الأتراك. كان سايكس موافقاً على التفكير بحكام عرب للعراق شرط أن يكونوا مدعومين من إنكلترا وتحت هيمنتها. ولكنه لا يقبل بحكام عرب مستقلين سنة أو شيعة؛ لأنه يعتبر العرب غير قادرين على الحكم، وكذلك الكورد (على الرغم من هذا، فهم موثوقون أكثر برأيه). كان سايكس على قناعة بوجود رماة وفرسان جيدين بين الكورد (مهما يكن، يمكن الوثوق بهم فيما إذا أُعْطوا رشوة لأنهم من الميديين). لهذا السبب، خطط سايكس للمحافظة على البصرة وتسليم باقي العراق لدمى.

تبلورت رؤاه في تطورات عام 1916 والعام الذي سبقه. كان الإنكليز يخططون للهجوم على الأراضي التركية في الجزيرة العربية وفلسطين وسورية منذ معركة غاليبولو. وكان من المعروف أن العرب في هذه المنطقة لن يساعدوهم. كان بعض العرب ضباطاً في الجيش التركي؛ مثلهم مثل الضباط العراقيين السنة. ولكن البدو البعيدين في أعماق الصحراء فهم كما وصفهم مارك سايكس. كانوا يتحرشون بالأتراك منذ فترة طويلة، ويفرضون الإتاوات على حجاج الأماكن المقدسة في المدينة. إذا نُصِّب أحد أشراف العرب – ولن يكون من أولئك – ملكاً، فيمكنه أن يستخدم هؤلاء... يمكنهم أن يهاجموا غاصبي الخلافة (تركيا الفتاة) باسم الإسلام. يجب أن يكون الملك الجديد عربياً حقيقياً و(قريباً من القلب)...

وقد وجد الإنكليز ملكاً كهذا (الحسين بن علي). إنه من سلالة الرسول، وشريف الأماكن المقدسة في مكة والمدينة. المباحثات بين الإنكليز والشريف حسين، ومع أبنائه في ما بعد حددت مستقبل فلسطين والأردن، وفي ما بعد العربية السعودية. وفي الوقت نفسه، حددت مصير العراق أيضاً. كانوا غامضين، ومن الذين يسميهم سايكس "ذوي ثقافة منوعة". ولكن ثمة أمرين واضحين تماماً: حسين يريد العراق، والإنكليز لا يريدون أن يأخذه. أما غاردن سوبورب فلا يعرف ما يريده، أي إنه يعرف أنه لا يريد العراق من أجل حسين... أعلن الإنكليز أن أرض ما بين الرافدين تحتاج إلى نظام إداري خاص. كانوا على علم بأن "حسين" ليست لديه القوة التي تمكنه من إخراجهم من البصرة. إنه لم يستطع إخراج الأتراك

من المدينة.

ما الذي يكمن خلف عبارة نظام خاص؟ فرنسا حليفة إنكلترا. الممثل غير الرسمي لغاردن سوبورب مارك سايكس على تواصل مع نظيره الفرنسي فرانسوا جورج بيكو. عندما التقيا في بدايات عام 1916، جلب بيكو معه سفير فرنسا في روسيا موريس باليولوغ. وتوصل الثلاثة إلى الاتفاقية المسماة سايكس – بيكو. الاتفاقية بسيطة؛ سيفكك الحلفاء دولة الخلافة، وستحصل روسيا على الوجبة الأقرب إليها وهي تشنق قلعة، فيما تحصل إيطاليا على قطعة قريبة منها، ويحظى الفرنسيون والإنكليز بالأجزاء الكبرى. سيأخذ الفرنسيون لبنان الذي طالما تدخلوا فيه باسم حماية المسيحيين الموارنة، وسيأخذ الإنكليز البصرة...

عرض سايكس على العرب وسط سورية الذي يضم بعض المدن كمكافأة. ولكن العرب لا يمكنهم إدارة هذه المنطقة إلا إذا غضت فرنسا الطرف عنهم؛ لأن سورية قطعة منحت لفرنسا. الأمر نفسه ينسحب على عرب بغداد؛ حيث يمكنهم إدارة شؤونهم إذا سمحت لهم إنكلترا بذلك. سيُمنح قضاء الموصل لفرنسا حليفة إنكلترا كنوع من التعويض؛ ولكن هذا التعويض نتيجة عدم رغبة الهند البريطانية بإخراج دوريات عسكرية فيها. خطط سايكس لأن يصارع الفرنسيون الكورد، أو لندع الفرنسيين يصارعون الكورد، وإذا انقلبت شؤون كوردستان فسيخرجون على أنهم فاشلون. وهكذا ستضعف تركيا أكثر.

خريطة سايكس دبلوماسية، ولكن خريطة ويلسون إدارية. لم تعكس الخريطتان رغبة الرأي العام؛ أي الشعب الذي يعيش في تلك المدن. في الحقيقة، إنّ الخريطتين سريتان. الخريطة التي من الممكن أن تُقبل من الناحية السياسية جاءت من كاتبين لم يدخلا البرلمان في أي وقت على عكس ويلسون وسايكس؛ وهما ت. إ. لورانس، وجيرترود بيل، وخاصة بيل. سيفتح حظهما عند تغير الوضع العسكري قليلاً في نهاية الحرب، وبفضل قضاء مرض الأنفلونزا على السير مارك سايكس".

انسحب السير مارك سايكس من "إنتاج الخرائط" بسبب موته المبكر والمفاجئ، وظهر على الساحة جيرترود بيل وت. إ. لورانس الذي اشتهر بفضل الفيلم الأمريكي "لورانس العرب". كلاهما معجبان بالعرب. وكلاهما يعتقدان بحق العرب بتأسيس مملكة في الشرق الأوسط. كانت جيرترود بيل هي الحاسمة بينهما بولادة العراق.

كانت جيرترود بيل تعمل بأمر أرنولد ويلسون، ومستشارته. ولكن

رؤيتيهما متعاكستان تماماً. سعت جيرترود بيل ليقدم الإنكليز الدعم والمساعدة للعرب لكي يُترك العراق لحكم عربي. وإثر الانتفاضة التي انفجرت في العراق ضد الإنكليز، وفي فترة سقوط مكانة أرنولد ويلسون في لندن، ساهمت جيرترود بيل بولادة العراق.

القسم الأخير من قصة نايدن حول جيرترود بيل على النحو الآتي:

"وجد المتمردون العرب أمامهم امرأة تثبت أن أرنولد ويلسون وت. إ. لورانس قد أعدا الخرائط. إنها الكاتبة والإدارية الإنكليزية جيرترود بيل. معاصروها يعرفونها جيداً. منهم فرجينيا وولف التي كانت تخاف منها. كتبت وولف لصديق تجول في العراق الآتي: "أين أنت الآن؟ أعتقد أنك مع جيرترود بيل، أليس كذلك؟.. لدى السيدة بيل أنف طويل جداً، أطول من جبل أبردين، وهي ماهرة، تلعّب الجميع على أصابعها، ويشعر الناس أمامها بعجزهم إلى حد ما".

كانت جيرترود بيل أكثر شموخاً من أي قمة من جبل أبردين. ولكن، ليست بنيتها وطولها ما يجعلها مخيفة؛ فقد تسلقت سلسلة جبال الألب في سويسرا، وأخذت اسمها منها. حتى سايكس لم يستطع مواجهتها... قال سايكس عن بيل: "مسطحة الصدر، لعوب الورك، وتمزج بين الرجل والمرأة، وهي ثرثارة وناقلة للكلام". ويشاركه كثيرون بهذا الرأي، ولكن هذا كله ليس له تأثير. كانت المرأة الأولى التي حصلت على الدرجة الأولى في مادة التاريخ في جامعة أكسفورد، وترعرعت في بيت صمم ديكوره وليم موريس، وهي حفيدة أحد أكبر رجال الصناعة الكيميائية البريطانية.

كانت بيل تتحرك في البلاد الإسلامية بحرية أكبر؛ من دون أن تثير الشكوك التي يثيرها الرجال. وقابلت القادة المحليين على عكس سايكس، ولم تقدم مقترحات للندن أو لحكومات أخرى.

وهي على عكس ويلسون لم تتجاهل المنفلتين العرب التابعين للورانس، وعلى عكس لورانس لم تبالغ في تقديرهم. ولم تكن تكره منوعي الثقافة والعرب، بل كانت معجبة بهم...

أدركت بيل أن لورانس أراد تشكيل ما يشبه الأمة في العراق... فقد طرح لورانس فكرة تأسيس ثلاث ممالك للعرب، ثم بدأ يدافع عن مملكة واحدة بعد أخذ البريطانيين للموصل. هذا التحول ألهم بيل بأن تدعمه. المملكة بحاجة إلى اسم وحدود. لن يكفي العرب ملك واحد كما طرح لورانس. يجب أن يكون هناك عراق يحكمه ملك، وأن يقبل من يعيش هناك بهذا الملك.

كانت لدى بيل نقطة انطلاق لهذه الفكرة. لقد عينها ويلسون مسؤولة عن الآثار القديمة، وهي التي أسست المتحف الوطني العراقي. كانت العراق أول دولة يؤسس فيها متحف وطني قبل الوطن، لأن هذا المتحف برأي جيرترود بيل يجب أن يتجاوز كونه يبجّل الماضي. يجب أن يكون المتحف ملهماً للمستقبل. ويجب ألا يكون زائر المتحف المثالي متذوقاً، بل أن يكون مواطناً، وألا يكون موظفو المتحف علماء، بل أن يكونوا حالمين... وكما تعني اليونانية واللاتينية لويلسون، وكما لا تعني الآثار الكلاسيكية للورانس (لأنه ترك مهنته السابقة)، تعني لبيل ما تخبئه التلال في بابل وبقية المدن. هي ستبدع، وسيأخذ عنها الآخرون. وستكون مؤثرة مثل وولف...".

في حزيران 1920، انتفض العرب ضد الإنكليز. أودى التمرد العربي الذي استمر ستة أشهر، ودخل تاريخ العراق باسم "ثورة 1920" بويلسون، وحل محله "معلمه" السير بيرسي كوكس. وسيرسم السير كوكس حدود خريطة الكويت والسعودية إضافة إلى خريطة العراق بالقلم الأحمر. أجلست جيرترود بيل الملك فيصل على عرش العراق خلال مناظرة رسمت خطوطها، وتحقق الأمر برعاية كوكس. لنطّلع على قصة يوم ولادة العراق من نايدن:

"هدف بيل التي تعمل تحت أمر السير بيرسي كوكس... المساعدة بإجراء استفتاء شعبي؛ وهذا من أجل الموافقة على فيصل. ما صعّب عمل بيل هو عدم إيجاد طريق رسمي لمنح العراقيين السلطة. ما زال الإنكليز يديرون البلد وكأنه جزء من الهند. لهذا السبب، كثيراً ما كانت بيل تستضيف العراقيين في بيتها على العشاء، وتقدم لهم الوعود. وعندما جاء فيصل من المدينة عام 1921 نسّقت بيل والآخرون دعماً له، ورافقوه إلى كل مكان زاره من البلد...

وبعد هذا، هيمن الإنكليز على البلد بطريقة مختلفة. وبدلاً من الإمساك بالموانئ والواحات، أنشأوا مدارج للطائرات على مسافة خمسمائة ميل، وراقبوا البلد من الجو. إذ إنّ قصف مجموعة من طائرات القوات الجوية الملكية القرى والقوافل سيكون أقوى بكثير وأقل كلفة بكثير أيضاً.

في تموز 1924، كتبت بيل لوالدها، أغرب قضية في الأسبوع الماضي: كان ثمة عرض للقوات الجوية الملكية... تأثرت بشكل مدهش. الحرب من الجو أمر رهيب ولا حماية منه. لو كان أرنولد ويلسون هناك لوافقها الرأي. مات السير أرنولد (هكذا غدا اسمه) أثناء الحرب في السماء الفرنسية في إحدى المعارك الجوية. وماتت بيل قبل خمسة عشر عاماً. كتب لورانس (لوالد جيرترود المفجوع): ستكون دولة العراق عملاً جميلاً؛ حتى لو

استمرت بضع سنوات".

خلال الفترة التي زرع فيها الإنكليز بذور العراق ونمّوها (1916-1922) كان ديفيد لويد جورج يجلس على مقعد رئاسة الوزراء في لندن. دخل لويد جورج – آخر رئيس وزراء ليبرالي سكن في الرقم 10 من شارع داونينغ – التاريخ باعتباره معادياً لتركيا. وهكذا، كان وليام غلادستون الشخصية الليبرالية العظيمة في القرن التاسع عشر رئيس حكومة المملكة المتحدة لأربع فترات وأطول مدة. لعب عداء غلادستون لتركيا دوراً مهماً بابتعاد تركيا العثمانية عن إنكلترا، وتوجهها نحو ألمانيا. ولعل فرمان موت السلطنة العثمانية قد كُتِبَ في ذلك الوقت؛ أي في الربع الأخير من القرن التاسع عشر. لعل سبب عداء الليبراليين لتركيا العثمانية عبر الأجيال ناجم عن اعتبارهم إياها تجلياً للدولة "الديكتاتورية الشرقية". الديكتاتورية هي النظام الذي لا يمكن أن يحتمله الليبراليون.

لديفيد لويد جورج (1863-1945) آخر ممثل لليبراليين على مقعد سلطة "الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس" خصوصيات غريبة. كان إنجيلياً والوحيد الذي جلس على مقعد الرقم 10 من شارع داونينغ، ولم تكن الإنكليزية لغته الأم. كان لويد جورج ويلزياً، ولغته الأم ويلزية. تعرف حفيد لويد جورج إلى الكندية مارغريت ماكميلان عندما كانت عميدة كلية سانت أنتوني الشهيرة في جامعة أكسفورد. كانت مضيفة وزير الخارجية التركي عندما ذهبت بصحبته في 1 أيار 2010 إلى أكسفورد. كنت أعرف مارغريت ماكميلان بالاسم فقط منذ مطلع الألفية الثالثة من خلال كتابها الرائع "باريس 1919" الذي يتحدث عن نهاية الحرب العالمية الأولى.

وتتحدث مارغريت ماكميلان عن العراق المصطنع وولادته المعاقة في هذه الأسطر اللافتة:

" كانت لدى ويلسون رؤى حادة حول طريقة إدارة المنطقة. يقول: يجب تناول البصرة وبغداد والموصل باعتبارها بنية واحدة تحت حكم إنكليزي فاعل. لم يفكر بأن عبارة بنية واحدة يمكن أن تحمل معنى آخر. في عام 1919، لم يكن هناك شعب عراقي، والتاريخ والدين والجغرافية لم تجمع الشعب، بل فرقته. كانت البصرة في الجنوب تطل على الخليج والهند، ولبغداد روابط قوية مع إيران، وللموصل روابط مع تركيا وإيران.

جمع هذه المحافظات العثمانية الثلاث، وتشكيل أمة منها بحسب المقاييس الأوروبية يشبه الأمل بإنشاء دولة من مسلمي البوسنة مع الكرواتيين والصرب. صراع الإمبراطوريات والحضارات كما حدث في البلقان

يؤدي إلى هوة سحيقة. كان نصف عدد سكانه شيعة، وربعهم سنة، وهناك يهود ومسيحيون وأقليات أخرى فيه. ولكن هناك انقساماً آخر غير الانقسام الديني؛ إذ إن نصف الذين يعيشون هناك (وأكثرهم في محافظة الموصل) عرب، بينما النصف الآخر كرد وفرس وآشوريون. تطورت المدن نسبياً، وهي مختلطة قومياً ودينياً، ولكن رابطة الدم العشائرية وسيطرة رجال الدين ما زالتا قائمتين في الريف. لم تكن هناك قومية عراقية، بل قومية عربية فقط...". (مارغريت ماكميلان، باريس 1919 – ستة أشهر غيرت العالم، راندون هاوس، لندن 2002، ص 367، 368)

كل هذه التطورات التي أثرت على جيلي، والله أعلم على كم جيل ستؤثر حدثت في بضع السنوات التي تلت الحرب العالمية الأولى. ويأتي كتاب "السلام الذي أنهى السلام – انهيار الإمبراطورية العثمانية وولادة الشرق الأوسط الجديد" لديفيد فرومكين في مقدمة الكتب التي تعرض تلك الشريحة الزمنية الغريبة...

وجدتُ كتاب فرومكين "السلام الذي أنهى السلام" في إحدى مكتبات نيويورك، واشتريته في الأيام الأخيرة للحرب الباردة. وعندما وقع بيدي في إحدى مكتبات لندن، نسيتُ أنني اشتريته، واشتريته مرة أخرى. أخذت إحدى النسختين لتورغوت أوزال. فور دخولي غرفة مكتبه، ورؤيته الكتاب بيدي، قال لي: "هل تقرأ هذا؟ لدي نسخة منه. قرأت قسماً كبيراً منه". كان بيني وبين تورغوت أوزال اتفاق. اشتكى من عدم استطاعته التجول على المكتبات، وقال: "اشتر لي أي كتاب تشتريه لنفسك". كنت أنفذ رغبته، ولكنني لم أكن أستطيع التأكد مما إذا كان يقرأ الكتب التي أجلبها له أم لا. وقد أزال كتاب "السلام الذي أنهى السلام" شكوكي في هذا الموضوع.

إذا قرأتم أي كتاب حول مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى، وبحثتم حول طريقة ولادة العراق، فستصلون إلى نتيجة مفادها بأن ولادة العراق كانت صعبة. ولكنها كلها تتحدث عن تصورات شخصيات إنكليزية خاصة جداً وتطبيقها.

"لقد ظهر أن العراق إنجاز إنكليزي بالكامل؛ مثله مثل الجزء الأكبر من الشرق الأوسط اليوم؛ فهو من إنجاز الإنكليز أيضاً. ولكن أي دولة من دول الشرق الأوسط لم يحدد قدرها وترسم حدودها كما حدد قدر العراق ورسمت حدوده على يد مجموعة من الإنكليز الموهوبين والمغامرين في آن واحد...". (Karl E.Meyer & Shareen Blair Brysac, Kingmakers, The Invention of the Modern Middle East, s. 173)

إضافة إلى لعب أرنولد ويلسون، وجيرترود بيل، ولورانس، والسير مارك سايكس، وحكومة لندن وعلى رأسها ونستون تشرشل دوراً في جَمْعِ المحافظات العثمانية الثلاث تحت مسمى العراق – على الرغم من اختلافهم بطريقة التفكير والأسلوب – فلا شك أن اللاعب الآخر المهم هو السير بيرسي كوكس (1864-1937).

"عندما خسّرت انتفاضة أرض ما بين النهرين الكبرى عام 1920 أرنولد ويلسون مقعده حلّ محله السير بيرسي كوكس. ودخل التاريخ باعتباره راسم خريطة العراق اليوم؛ العراق، وقسم كبير من الشرق الأوسط.

في عام 1922، عُقِد مؤتمر في مدينة عقير شرق العربية السعودية. أقنع السير بيرسي ملك الجزيرة العربية المستقبلي ابن سعود بأن يعترف بالعراق. وأخذ بنصيحة جيرترود بيل كما يفعل دائماً، ورسم الحدود بين العراق والكويت ونَجْد التي ستغدو في ما بعد العربية السعودية. وبحسب مذكرات الملحق العسكري الإنكليزي في الكويت هارولد ديكسون كان كوكس يقرر الحدود وحده. أمسك السير بيرسي كوكس الورقة والقلم، ورسم الحدود بين العراق ونجد. (Kingmakers, s. 188, 189)

غدا الخط الذي رسمه السير بيرسي كوكس بقلمه الأحمر في جنوب العراق مشكلة بين العراق والكويت. أولى الأزمات بين العراق والكويت انفجرت إثر استقلال الكويت عام 1961. فقد أعلن رئيس الدولة العراقي عبد الكريم قاسم أن الكويت تابعة للبصرة. في الحقيقة، إن الكويت كانت متصرفية تابعة للبصرة في العهد العثماني. وتحول قرار عبد الكريم قاسم هذا إلى أزمة دولية خلال فترة قصيرة. أما احتلال صدام حسين للكويت وضمها عام 1990 فقد أدى إلى حرب دولية.

رُسمت الحدود الطويلة بين العراق وغرب سورية بالطريقة التي رُسمت فيها الحدود الجنوبية. نجم غموض في وضع الموصل إثر اتفاقية سايكس بيكو السرية عام 1916 التي كانت أول عملية تقسيم للشرق الأوسط على يد الغرب بتركها لفرنسا، ولكنّ مؤتمر باريس للسلام عام 1919 بدد الغموض، وسهّل رسم الحدود العراقية السورية.

"أخذت إنكلترا الموصل بعد أن كانت لفرنسا في اتفاقية سايكس بيكو. بدأت الأحاديث بمشاكل أوروبا، ثم وصلت إلى الشرق الأوسط. سأل كليمنصو عن مطالب إنكلترا من فرنسا، فأجاب لويد جورج: الموصل. قال كليمنصو: ستأخذونها...". (مارغريت ماكميلان، باريس 1919، ص 382)

اتجهت الوحدات الفرنسية شرقاً بعد أن احتلت دمشق، ووصلت إلى

البوكمال بعد عبورها الفرات. وسار الإنكليز من بغداد نحو الغرب، وقابلوا الفرنسيين عند الفرات. كان الإنكليز يتجهون إلى غرب البوكمال، والفرنسيون إلى غربها. كانت البوكمال تابعة لمحافظة أورفة العثمانية، وفي ما بعد أصبحت جزءاً من متصرفية دير الزور.

رُسمت الحدود التي تفصل بين متصرفية دير الزور ومحافظة الموصل العثمانيتين بالقلم، ومن دون أي حواجز طبيعية.

أما الحدود الشمالية للعراق مع تركيا فلم تُرسم عندما ظهرت العراق كدولة. ظهرت قضية الموصل نتيجة عدم رسم الحدود بين تركيا وشمال العراق. وشكّلت الموصل مشكلة منذ لحظة ولادة كيان العراق.

مُنحت الموصل في النهاية للعراق. ولكنها منذ العصر الآشوري لم تلتفت نحو الجنوب، أي نحو بغداد، وكانت دائماً تلتفت نحو الغرب والشمال، ولذلك طوّرت عبر السنين طرف مثلثٍ تجاري مع حلب وديار بكر. ولمّا تركت حدود المحافظة كلها خارج تركيا، قُطعت عن روابطها التجارية والاقتصادية.

غدا العراق عراقاً نتيجة ضم الموصل إليه، ولكن ولادته على هذا النحو جعلته "معاقاً".

ولادة العراق معاقاً أدّت إلى ولادة القضية الكوردية المعاصرة.

XX - كوردستان العميقة



جبال هيبة سلطان كحد السكين؛
تفصل العالم إلى جزأين:
جبال كوردستان الوعرة المتعرجة من طرف، وسهل الرافدين الواسع مترامي الأطراف في الطرف الآخر.
كمال بوقاي (عند غروب الشمس في أربيل)

قلت لنوشيروان برزاني: "البارحة رأيت كوردستان العميقة لأول مرة. جئت مرات عديدة إلى أمكنة مختلفة من هذه الأرض طوال السنين الماضية، وتجولت فيها، وأقمت في العديد من مناطقها. ولكنني البارحة أدركت أن هناك كوردستان عميقة. أدركت هذا من ملاحظة عدم وجود تشابه بين الذين يعيشون على هذه الأرض والذين يعيشون على ما تبقى من أرض العراق بالعين المجردة. عندما رأيت كوردستان العميقة وتجولت فيها انتبهت إلى أنكم استمررتم بالبقاء ضمن العراق لأسباب متعددة. لا يمكنكم أن تقنعوني بعكس هذا".

تابعتُ تحت نظراته المفعمة بالدهشة: "ذهبتُ إلى برزان. لن تصدق

أنني لم أذهب قط إلى برزان على الرغم من مجيئي إلى هنا مرات عديدة. بقيت في داخلي عقدة لأنني لم أذهب. وبالطبع، زرت في برزان قبر جدك (الملا مصطفى برزاني) وقبر والدك (إدريس). كتبت بعض الأمور على الدفتر. وجاءت كاميرات تلفزيون كوردستان، وألقيت كلمة قصيرة أيضاً".

ضحك؛ إذ كان قد وصله الخبر. لا يمكن لأي شخص تطأ قدماه برزان إلا أن تعلم به أسرة برزاني. تابعت الشرح:

"لم أتخيّل أن جمال برزان يحبس الأنفاس. المنطقة كلها مذهلة أساساً. ذهبت إلى برزان عبر زاب وسبيليك وزيبار، رسمت قوساً عريضاً نحو الشرق عبر مرغاصور وراواندوز في طريق العودة إلى أربيل. وبهذه المناسبة، سنحت لي الفرصة لرؤية سوران، وجبال حندرين وحسان علي بيك، والمنطقة من رواندوز إلى حاج عمران امتداداً إلى رانيا وقنديل. أثناء تجوالي هناك، نسيت لوهلة أنني في العراق. في الحقيقة، إن الأمكنة التي رأيتها هي كوردستان... اكتشفت أن كوردستان لا تظهر في أربيل والسليمانية وعندما تتجاوز جبل هيبة سلطان إلى دوكان أو كوي سنجق أو دهوك وحتى زاخو. ليس بين الأمكنة التي رأيتها والعراق الواقع جنوب كركوك أي شبه، بل ولا حتى بينها وبين أربيل، وهذا على صعيدَي الجغرافية والسلوك الإنساني. لا أحد يستطيع أن يقنعني بأن الأمكنة التي رأيتها اليوم هي العراق. انتبهت إلى أنني وجدت أموراً مشتركة قليلة جداً بين كوردستان العميقة التي رأيتها اليوم والعراق خارج كوردستان. ولكن بينها وبين حقاري الكثير من الأمور المشتركة؛ لهذا السبب كانت جغرافية مألوفة جداً".

استمع نوشيروان إليّ بمتعة وأنا أصف بلده، وشارك في الحديث قائلاً: "سأروي لك خاطرة. ذات مرة، أثناء حديثي مع إمره طانر (مستشار المخابرات التركية السابق) بدأت الحديث قائلاً: من المؤكد أننا لا نريد الاستقلال. فقال السيد أمره: انظر يا نوشيروان، إذا كررت هذه الجملة فسأفقد ثقتي بك. ولن نعمل شيئاً معاً. أنا أعرف جدك ووالدك جيداً. لا تستخدم جملة كهذه مرة أخرى!".

كنت أتبادل الحديث مع نوشيروان برزاني في جناحه الخاص من مجموعة القصور التي بناها مسعود برزاني في سري رش على مائدة فطور أسطوري. إنه ليس ابن أخ مسعود برزاني فقط بل صهره أيضاً. وإذا كان الصراع بين ابن مسعود برزاني مسرور وابن عمه على خلافة مسعود غير معروفٍ كثيراً، فإنه ليس سراً أن كوردستان العراق إذا حظيت ببنية تمكنها من الوقوف على قدميها فهذا سيتم بفضل مهارة نوشيروان.

نوشيروان برزاني هو الرجل الثاني فعلياً في كوردستان العراق بعد عمه. غير هذا، فهو خليفته المحتمل. لديه سعي للوصول للأفضل في كل شيء، وهذا ما جعل المكان الذي يقيم فيه يقترب من الكمال. لو لم نكن في كوردستان العراق، وفي سري رش، فإن ديكور مكتبه يوحي بأنك في البيت الأبيض في واشنطن.

7 أيار 2011. نحن في سري رش من منطقة مسيف، شمال أربيل بسفر نصف ساعة. إذا كانت أربيل مركز كوردستان العراق السياسي فإن الرئيس مسعود برزاني لا يقيم في المدينة التي يفضل الكورد إطلاق اسم هولير عليها. أنا لا أعرفه إلا في مسيف - سري رش، ونادراً ما يخرج من هناك.

مسيف بلغة الناس، وتسمى في الخرائط الحديثة واللوحات الطرقية صلاح الدين هي بداية كوردستان العميقة؛ لأن جبال كوردستان تبدأ منها. تبدأ سهول مترامية الأطراف من كركوك إلى أربيل؛ المدينة السهلية تماماً على بعد ساعة إلى الشمال، وصولاً إلى شمالها. بعد التل الذي يظهر فجأة في منتصف الطريق بين أربيل ومسيف - أي خانزاد الذي أنشأ عليه فندق يشبه نسراً يفتح جناحيه حيث يطل على أربيل في الأسفل ومسيف في الأعلى - يغدو الطريق حاداً ومتلوياً بشكل أفعواني. عندما ينتهي الصعود، تبدأ مسيف أي باسمها الحديث صلاح الدين.

تقع فيلات النخبة الكوردستانية ومبنى المكتب السياسي للحزب الديمقراطي الكوردستاني في مسيف؛ حيث دار الضيافة التي تبدو حلماً أو مشهداً لعراق سريالي بنظر الضيوف الأجانب؛ بموائدها الغنية، وسهولة الاتصال بالإنترنت، وعدم انقطاع الكهرباء فيها عندما كان الدم إلى الركب وسط العراق وغربه وشرقه وجنوبه؛ وخاصة في بغداد. إذا ذهبتم بضعة كيلومترات باتجاه اليمين عند وصولكم إلى مسيف فستصلون إلى سري رش. يقضي مسعود برزاني معظم وقته في سري رش التي تقع على بعد عشرين كيلومتراً من أربيل، وتطل عليها من علٍ عندما يخرج من برزان أرض والده، ويسند ظهره إلى جبل سفين أعلى جبال كوردستان.

يظهر جبل سفين بهيبته كلها اعتباراً من مسيف. وترتفع الجبال خلفه بشكل متتالٍ باتجاه الشمال نحو تركيا، وعلى المحور الشرقي - الغربي باتجاه إيران. لهذا السبب، إذا اعتبرنا أن الكورد سكان الجبال، فلن يكون من الخطأ اعتبار كوردستان العميقة تبدأ من مسيف.

عند نهاية جبال زاغروس التي تنخفض تدريجياً نحو الجنوب على

الحدود الإيرانية – العراقية تبدأ سلسلة جبال حمرين الجرداء التي يمكن اعتبارها تلالاً نتأت من السهل، وتمتد من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي بجوار الموصل لتصل إلى الجزيرة راسمة حدود كوردستان الجنوبية.

في سنوات الأزمة الدموية التي تلت حرب العراق، شهدت مرات عديدة أن هذا الأمر ليس جغرافياً فقط، بل نفسياً أيضاً. عندما ننطلق من بغداد إلى تركيا، وبعد أن نقطع قصبة الخالص التي تعتبر حداً بين الشيعة والسنة، ونعبر من جوار بعقوبة التي تأتي منها يومياً أخبار عشرات القتلى بساعة ونصف الساعة، وتمتد على اليسار هضاب جرداء، وعلى اليمين ينتهي السهل الذي تزينه غابات النخيل ونعرف أنه يمتد غرباً إلى دمشق وجنوباً إلى الخليج، يبدأ الطريق بصعود خفيف. عندما تلتفتون إلى الخلف ولا ترون السهل، فهذا يعني أنكم وصلتم إلى جبل حمرين. بعد خمس وأربعين دقيقة تصلون إلى كركوك؛ بعد أن تعبروا من طوزخرماتو وطازة وداقوق. الجزء الذي يبدأ بين خالص وجبل حمرين مع بداية الصعود خطير جداً. ولكن، بعد عبور خط عرض جبل حمرين بربع أو ثلث ساعة ينتابكم شعور "الوصول إلى الوطن" بشكل غريب. ويخيم على قلوبكم شعور بالأمان والوصول إلى أرض صديقة.

مع أن الوصول إلى كركوك من جبل حمرين يستغرق حوالى الساعة، فإن الوصول إلى السليمانية عبر أربيل يستغرق ساعتين على الأقل. ليكن، الشعور بالوصول إلى الوطن في الفترة التي يعيش العراق فيها أسوأ مراحله الدموية التي لا تحكمها قاعدة وعلى مرأى من أعين العالم المندهشة كلها شعور جيد.

جبل حمرين هو حدود كوردستان الجنوبية، أينما كانت كوردستان، بلا منازع.

أين كوردستان؟ كتب رائد إنكليزي يدعى ميلنغين عام 1870:

"تمتد كوردستان من شمال تركيا الآسيوية وجنوب جبل أغري وحدود جورجيا إلى بغداد. من جهة أخرى، تعتبر حدودها من الغرب والشرق من حدود إيران إلى آسيا الصغرى لاظستان. ليس ثمة ما هو ثابت في هذه الحدود. السبب بسيط جداً؛ لأنه ليس ثمة ما هو ثابت ومستمر في توزيع الأرض تحت السيطرة العثمانية. إذ تتعرض حدود المحافظات والمدن المركزية وتوابعها للتغيير الإداري المستمر. أحياناً، تمتد حدود محافظة لتبتلع محافظة أخرى. يسيطر الأتراك أحياناً على القطع الكبرى على الحدود الإيرانية، أو يدعي الفرس حقهم فيها فيسيطرون عليها. لا يمكن لهذه الحدود أن تصل

إلى حل نهائي".

الطرف الجنوبي لحدود كوردستان الذي قال الرائد ميلنغين إنه "قرب بغداد" هو جبل حمرين. والمنطقة التي تعرضت لكل أنواع التداخل الإداري هي الحدود الجنوبية لمحافظة الموصل العثمانية.

تمتد الجغرافية التي يُعرّفِها الكورد أنها كوردستان العراق من الحدود العراقية التركية شمالاً إلى جبل حمرين جنوباً.

وهناك كوردستان إيران أيضاً. ويشرح سيسيل ج. إدمندز المسؤول السياسي للقوات العسكرية الإنكليزية في أرض الرافدين وإيران الغربية منذ عام 1951 حتى نهاية فترة الاستعمار الإنكليزي للعراق:

"على الرغم من مركزية سياسة الحكومتين التركية والإيرانية، كان أمراء بوطان وحقاري وبهدينان وسوران وبابان الكورد في تركيا، وموقري وأردلان في إيران يتمتعون بشبه إدارة ذاتية منذ قرن تقريباً. وقد قمعوا في تركيا أو أدخلوا تحت الهيمنة العثمانية المباشرة بين عامي 1837-1852. وفقدت موقري وأردلان إدارتيهما الذاتيتين في الفترة نفسها. ولم يُطلق اسم كوردستان في إيران عموماً على المنطقة الكوردية، بل على أردلان القديمة فقط". (C.J. Edmonds, Kurds, Turks and Arabs-Politics, Travel and Research in North-Eastern Iraq 1919-1925, s. 8-9, Oxford University Press, 1957)

المنطقة التي أسميها كوردستان العميقة اليوم هي المنطقة الممتدة من صلاح الدين شمالاً إلى تركيا، وتمتد شرقاً إلى إيران، ولها جمال مبهر للأبصار.

من الممكن اعتبار صلاح الدين أو مسيف "قلب أرض الكورد" نهايةَ السهول وبداية الجبال التي تمنح كوردستان خصوصياتها المتنوعة بكل معنى الكلمة.

عندما تنتقلون إلى ما وراء مسيف، أي إلى الجغرافية التي لا ترون فيها أربيل وسهلها مرة أخرى، تصلون إلى شقلاوة وطريق هاملتون الشهير. طريق هاملتون طريق يقطع الجغرافية الوعرة بشكل فظيع على محور كوردستان العراق الشرقي – الغربي وصولاً إلى إيران. أنجزه مهندس نيوزلندي يدعى هاملتون في صراع رهيب مع الطبيعة بين عامي 1928-1932. لم يشرح هاملتون في كتابه الموسوم "طريق عبر كوردستان – رحلات في شمال العراق" الصادر عام 1937 مغامرته الذاتية، بل يُعتبر وثيقة عظيمة حول جغرافية المنطقة وبنيتها العشائرية وعلاقات شعبها.

لا يمكن قطع "قلب أرض كوردستان" من دون أن تطأ أقدامكم طريق هاملتون. عند الوصول إلى شقلاوة والعبور من سهل الحرير بين سلسلتين جبليتين متوازيتين، يبدأ الصعود وينتهي في سبيليك. إن جغرافية كوردستان أصلاً هي انتقال بين الصعود والنزول، ثم العودة إلى الصعود على المحورين الشرقي - الغربي، أو الجنوبي - الشمالي.

الطريق المنطلق من سبيليك باتجاه الشرق يصل إلى راوندوز حيث أحد أجمل الأخاديد في العالم. ولكنني أريد أن أذهب إلى برزان. ولا بد من مغادرة طريق هاملتون بعد سبيليك من أجل الذهاب إلى برزان.

تتجهون باتجاه برزان في طريق يتلوى بين سلسلتين جبليتين متوازيتين قاطعين نهر زاب الكبير الذي يتدفق بمشهد جماله يحبس الأنفاس. وتمرون قرب أقرا ومن ثم بخمة ومنطقة عشيرة سورجي، ثم تتجهون إلى برزان عبر زيبار. تغدو مشاهد الألب في سويسرا والنمسا أسطورية الجمال لا شيء بجانب الجغرافية التي حولكم.

عندما علم مسعود تِك الأمين العام للحزب الاشتراكي الكوردستاني التركي في المنفى أنني ذاهب إلى برزان دلني من أربيل على الطرق بالتفصيل، واقترح علي العودة عبر مريكه سور. إنه يعرف المنطقة كراحة كفه بسبب وجوده في صفوف بشمركة الحزب الديمقراطي الكوردستاني الإيراني بزعامة عبد الرحمن قاسملو.

نفذت ما قاله. ترتفع سلسلة جبال شاهقة شمال جبال برزان الخضراء التي تزينها كل أنواع النباتات. وعندما انطلقتُ من برزان شرقاً متلوياً في طريق مريكه سور ضاقت الوديان بين سلاسل جبلية مذهلة، وبدأتُ أسير في منطقة ذات جمال نادر ما مسته يد إنسان. في الجهة الشمالية تبدأ محافظة حقاري في تركيا، وتستمر هذه الجغرافية التي أراها هناك بالشكل نفسه.

أعرف أن مسلحي حزب العمال الكوردستاني متموضعون على طرفي الحدود بالقرب مني. ولكن الشيء الوحيد في عقلي هو جمال الجغرافية المتدفق من كل الجهات. لا بد أن السير مارك سايكس قد شعر قبل قرن بما شعرت به؛ الأمر الذي جعله يكتب الآتي في كتابه دار الإسلام:

"السفر بين هابديان ومريكه سور ممتع جداً وسط أشجار السنديان لمدة خمس ساعات ونصف الساعة. بُنِيت قرية مريكه سور في أول معبر جبلي على حافة وادٍ، وتطل على مشهد مذهل من الجبال التي تحيط بها. تنتقل عين الإنسان على الجبال المسيطرة على المنطقة بدءاً من آفاق وان

ووصولاً إلى حدود السليمانية. (Mark Sykes, Dar-ul-Islam-A Record of Journey Through Ten of the Asiatic Provinces of Turkey, Darf Publishers Limited, London, 1988s. 222) (الطبعة الأولى عام 1904)

يبيّن بروفيسور اللغة العربية في جامعة كامبريدج إدوارد براون في مقدمة طبعة 1904 للكتاب بأن النقيب مارك سايكس يقصد بدار الإسلام الإمبراطورية التركية.

تلك الزاوية من الإمبراطورية التركية التي يصورها مارك سايكس هي الزاوية التي أسميها كوردستان العميقة من كوردستان العراق.

غدت أربيل مركز كوردستان العراق السياسي اعتباراً من عام 1974؛ مع تطبيق نظام البعث حكماً ذاتياً جزئياً. قوّت أربيل خصوصيتها هذه بعد حرب العراق عام 2003، وتحول العراق إلى جمهورية فيدرالية؛ إذ غدت عاصمة إدارة إقليم كوردستان.

هاملتون الذي شقّ طريقاً استراتيجياً يعتبر نجاحاً هندسياً عظيماً في الجغرافية النائية لكوردستان وشمال العراق وحمل اسمه، يضمّن كتابه "طريق عبر كوردستان وسفر في شمال العراق" انطباعات لافتة جداً حول أربيل وشمال كوردستان التي خرجت من يد تركيا ودخلت تحت الاستعمار الإنكليزي.

كتاب هاملتون بين يدي منذ عام 2004. وغالباً ما حملته معي أثناء سفري المتكرر إلى كوردستان. ولكنه لم يترك أي أثر في ذهني بعد رؤيتي كوردستان العميقة بعيني المجردة. وعندما أعدت قراءته في ما بعد، صدمت بتشابه انطباعاتنا.

يصف هاملتون أربيل التي تعتبر واحدة من أربع مدن رئيسة في آشور، واسمها بمعنى "أربعة آلهة" وتلفظ أربعا إلو، ثم تحولت إلى أربلا بهذه العبارات اللافتة:

"أربيل هي المكان الذي هرب إليه داريوس بعد هزيمته التاريخية أمام الإسكندر الكبير أول فاتح أوروبي في آسيا. دارت الحرب الكبرى على بعد عدة أميال فقط من ضفة نهر زاب الكبير عام 331 ق. م. بعد هذا، شق الإسكندر جبال كوردستان. يذكر اسم الإسكندر في الشرق باحترام، وأطلق اسمه على الكثير من الأمكنة والأساطير.

كتب سوان: حيوية أربيل جعلتها منتصبة منذ أيامها الأولى، وبقيت هكذا؛ لأن حيويتها أبرزتها مرة على الأقل خلال فترات حكم الأمم المتعاقبة عليها من آشوريين وميديين وفرس ويونانيين وبارتيين وروم وأرمن، ثم روم

وفرس مرة أخرى، وعرب.

يقال إنها كانت مركز صلاح الدين الشهير الذي أخرج الصليبيين لفترة في القرن الثاني عشر. نهبها المغول وهدموها مع مدن أرض الرافدين كلها تقريباً، ولكنهم لم يستطيعوا إزالتها. وإذا كان الأتراك قد تركوها تتفسخ بإهمالهم لها فقد عاشت أطول منهم. لقد تركوها قبل أن يدخل الإنكليز من دون إطلاق رصاصة واحدة، ولم تسقط فوقها قنبلة واحدة.

تشمخ أربيل نهاراً كجبلٍ أو نُصُبٍ، وتلمع أضواؤها ليلاً كمنارة على بعد أميال. من حق هذه المدينة التاريخية أن تكون نقطة بداية الطريق الذي سيثقب جدار كوردستان الجبلي". (هاملتون، ص 48، 49)

وينطلق هاملتون من أربيل عبر جدار كوردستان الجبلي:

"... عبر طريق غير معبد من الصخور الحادة والمتتابعة، وصلنا إلى سلسلة جبال كلسية مرتفعة تنتشر عليها هنا وهناك أشجار السنديان القصيرة والسامقة عشوائياً. صعدنا عدة مئات من الأمتار في آخر ستة أميال، وقوبلنا بهواء بارد ومنعش يهبُّ من الجبال المقابلة.

هذه كوردستان الحقيقية أخيراً، وهي المشهد الذي يظهر أمامنا. تمتد أمامي نحو الشمال الشرقي سلسلة جبال، تغطيها ثلوج عواصف الشتاء وترتفع أكثر مع مد البصر. تشير الخريطة التي بين يدي بأن أغلبها يزيد ارتفاعها عن ثلاثة آلاف متر، وأن الأبعد – على مسافة مائة ميل تقريباً – تقع قرب الحدود الإيرانية.

على الطرف البعيد من اليمين جبال سفين التي تنام فيها قرية شقلاوة... هناك سلسلة جبال على مسافة متوسطة تقدّر بأربعين ميلاً... هناك أخدود مظلم، وتحت ذلك الأخدود معبر رواندوز، النقطة الأكثر وحشة في كوردستان". (ص 52)

ويشرح هاملتون عن سكان جغرافية الجبال الوعرة هذه، وسبب شقه هذا الطريق من الغرب إلى الشرق في كوردستان الحقيقة حسب تعبيره على النحو الآتي:

"عندما يُطرح سؤال: لماذا شُق هذا الطريق؟ فالجواب هو: هناك سببان: التجارة والإدارة. كما تعلمون، إن الأمم الكبرى كلها في الماضي والحاضر اعتبرت شق الطرق وسن القوانين وتحقيق النظام ضرورية. من المؤكد أن الطرق البرية عندما تدخل إلى منطقة ما تحول أكثر الشعوب وحشية إلى شعوب مسالمة، وتنسخ القواعد المدنية للحياة. الأكثر من هذا أنه لا يمكن للإمبراطوريات أن تحتفظ بشعب الأرض التي تفتحها لمدة

طويلة اعتماداً على العسكر فقط". (ص 54)

يعرّف سوان الكورد الذين يعرفهم أكثر من الأوروبيين الآخرين في هذا القرن:

"إنهم سفاكو دماء، ومُفتِنون، وباحثون عن الفوضى والتمرد، ونهابون ولصوص، ولديهم كل أنواع السوء. وسوء عاداتهم يدفعهم لعمل السوء. وهم يحتقرون عقل الإنسان، ولكنهم عرق جريء ومقدام، ولديهم كرم يداعب روح الإنسان، ولا مثيل لهم بالصدق والكرامة، وجوههم جميلة تمتع الأبصار، ولديهم كل أنواع اللباقة والجمال الإنساني". (ص 56)

المقصودون بالتعريف هم الكورد العثمانيون. اشتقت عبارتا كورد تركيا وكورد العراق في ما بعد؛ إثر انهيار الإمبراطورية العثمانية وخروج الموصل من يد تركيا.

شهدت الأيام الأخيرة من الحرب العالمية الأولى، وفي شهري أيلول وتشرين الأول من عام 1918 أحداثاً مذهلة ستؤثر على مطلع الألفية الثالثة. التواقيع التي ستغير قدر الأتراك والكورد والعرب الذين يعيشون في أرض الرافدين القديمة والأناضول وُقِّعت في قمرة سفينة مدرعة إنكليزية في ميناء جزيرة شمال إيجة.

في أيلول عام 1918، لم يستطع الجيش العثماني صد الهجوم الإنكليزي. سقطت القدس، وأفرغت فلسطين، وتقدمت القوات الإنكليزية باتجاه الشمال. في الأول من تشرين الأول 1918 سقطت دمشق. قبل يومين، في 29 أيلول وُقعت هدنة في بلغاريا، وفُتح طريق اسطنبول أمام الفرنسيين ومعهم جنود الحلفاء. إزاء الخطر الداهم، تحركت حكومة طلعت باشا لتوقيع هدنة مع الإنكليز، وطرقت باب الولايات المتحدة من أجل التوسط في 5 تشرين الثاني. وبعد ثلاثة أيام استقالت. وانتهت سلطة الاتحاد والترقي التي أنهت السلطنة العثمانية. في 14 تشرين الثاني، شكّل أحمد عزت باشا أحد رؤساء هيئة الأركان الحكومة العثمانية الجديدة. وعين رؤوف بيك (أوروباي) بطل معركة تشنق قلعة البحرية عام 1915 الذي اختلف مع حكومة الاتحاد والترقي الموالية لألمانيا، واعتُقد أنه قريب من الإنكليز وزيراً للبحرية.

كان التاريخ كعربة تهوي في منحدر. بعد تعيين رؤوف أوروباي وزيراً للبحرية بأربعة أيام، وقع أسيراً في معركة الكوت التي حقق فيها العثمانيون الأتراك نصرهم الوحيد في أرض الرافدين. بقي ثلاثة أعوام في الجزيرة الكبيرة. في ما بعد أرسله الجنرال تونشند الذي يقيم في البيت الذي سيسكنه أحد كبار قادة الثورة البلشفية ومؤسس الجيش الأحمر ليون

تروتسكي سراً بسفينة إلى جزيرة مدللي (ليسبوس). كان الجنرال تونشند يحمل في حقيبته شروط الحكومة العثمانية من أجل الهدنة مع الإنكليز. مرت ستة أيام، وفي 24 تشرين الأول، كلفت الحكومة الإنكليزية الأميرال كالثروب قائد أسطول البحر المتوسط الموجود في جزيرة ليمني بصلاحية البدء بمفاوضات الهدنة. في اليوم التالي، وصل وزير البحرية رؤوف بيك، مع مستشار وزارة الخارجية رشاد حكمت والأميرلاي سعد الله بيك إلى مدللي، ثم إلى ليمني بواسطة طراد إنكليزي.

بدأت المفاوضات في ميناء موندروس في جزيرة ليمني الذي سيستخدم أثناء الحرب كقاعدة بحرية خلال إنزال تشنق قلعة وغليبولو في 27 تشرين الأول. وبعد مباحثات دامت أربعة أيام، وفي 30 تشرين الأول 1918، وقعت اتفاقية الهدنة في المدرعة الإنكليزية أغاميمنون. في اليوم التالي لبدء المباحثات، أرادت الحكومة الفرنسية المشاركة فيها، ولكن الإنكليز تجاهلوا هذا الطلب. في تلك الأثناء، كان العثمانيون في حالة حرب فعلية مع الإنكليز فقط.

في بداية المباحثات، قرأ الأميرال كالثروب على المبعوثين العثمانيين النص الذي حضّره الإنكليز مسبقاً، وقال إنه ليس لدى الحكومة العثمانية خيار غير توقيع هذا النص، وفي حال لم تفعل ستستمر الحملة العسكرية، وستفرض حينئذ شروطاً أقسى. استمرت مقاومة رؤوف بيك وأعضاء الوفد أربعة أيام. وفي مساء 30 تشرين الثاني وقعت هدنة موندروس، وتحققت غالبية مطالب الإنكليز.

تتضمن هدنة موندروس خمساً وعشرين مادة. أهمها المادتان السابعة والرابعة والعشرون اللتان لاقتا موافقة عامة. تقضي المادة الرابعة والعشرون باحتلال الحلفاء للمحافظات الست (أرضروم، وان، مأمورة العزيز، سيواس، بتلس، ديار بكر) في حال حدوث أي فوضى فيها. وضعت هذه المادة كإجراء احتياطي في حال منع الأرمن من العودة إلى بيوتهم بعد تهجير عام 1915. ولأنه لم يبق أرمن يعودون، لم تكن هناك ضرورة للمنع، ولم تُطبق هذه المادة.

شكلت المادة الهامة الأخرى وهي السابعة المستند القانوني لدخول الإنكليز إلى مدينة الموصل وأخذهم المحافظة كلها. ورد في المادة: "سيكون من حق الدول المتحالفة احتلال المراكز والمناطق الاستراتيجية في حال وقوع أحداث تعرض الأمن للخطر".

يوم توقيع هدنة موندروس في 30 تشرين الأول 1918 وصلت طلائع

قوات الجيش الثالث عشر الذي يحمل اسم: "قوة حملة أرض الرافدين" من جيش الهند البريطاني بقيادة المشير مارشال إلى شرقاط على بعد ستين ميلاً جنوب الموصل. كانت شرقاط مجرد آثار تاريخية قرب عاصمة آشور الشهيرة نينوى. وبموجب الهدنة التي كانت ستدخل حيز التنفيذ في 31 تشرين الأول، كان من المفترض أن تتوقف حركة القوات العسكرية، وتبقى حيث هي.

لم يحدث هذا. فقد أنذرت القوات الإنكليزية قائد الجيش العثماني السادس علي إحسان باشا صابيس ليخلي الموصل، ومع تقدمهم نحو الشمال دخلوا المدينة في 3 تشرين الثاني. انتهت الهيمنة العثمانية التي بدأت في عهد السلطان سليم الجبار سنة 1517 بعد أربعمائة وعام.

انسحب آخر جندي من القوات التي يقودها علي إحسان باشا خارج حدود محافظة الموصل، إلى نصيبين في 10 تشرين الثاني.

حمّل رئيس هيئة الأركان المقدم خالد بيك ضاضايلي بتقريره الذي أعده حول الأحداث علي إحسان باشا مسؤولية الانسحاب. بحسب خالد بيك، إن الموصل سُلِّمت للإنكليز قبل يوم من توقيع اتفاقية الهدنة، وطلب علي إحسان باشا عربات وحماية من قائد القوات الإنكليزية الجنرال مارشال من أجل المغادرة إلى نصيبين.

يروي علي إحسان صابيس قصة أخرى تحمل غموضاً في مذكراته بعد سقوط الموصل، ولم يتفق بأي شكل مع عصمت باشا الذي لمع نجمه في جبهة الغرب، وخاض معارضة حادة ضده. يتحدث عن مراسلات تمت بينه وبين العميد مصطفى كمال قائد الجيش السابع الموجود في سورية:

"تلقيتُ خبراً بأن الإنكليز قد اقتربوا من حلب... أرسلتُ برقية مشفرة إلى قائد الجيش السابع العقيد مصطفى كمال باشا، وطلبت منه أن يقاوم في حلب، وأبلغته أنني أرسلت له مدافع عيار 15 من أجل هذا، وأنني أقاوم في الموصل أثناء مقاومته في حلب، وهذا ما يجب أن يكون في وضع الهدنة... بدأت القوات الإنكليزية بالتقدم نحو دمشق في 21 أيلول 1918 بقيادة الجنرال اللنبي. كان أملي كله الحفاظ على الموصل قبل الهدنة كما كتبت لمصطفى كمال باشا... في 25 تشرين الأول 1918 تلقيت خبر سقوط حلب. في 25 تشرين الأول أصدرت أمراً بإخلاء كركوك. كتبت للصدر الأعظم المشير أحمد عزت باشا برقية مشفرة بأنني سأخوض حرب انسحاب ومراوغة إذا كانت مباحثات الهدنة مستمرة من أجل الحفاظ على الموصل. وافق على فكرتي. كنا سنحاول الحفاظ على الموصل حتى دخول الهدنة

موعد التنفيذ، وأبلغته أنني سأنفذ انسحاباً تكتيكياً من أجل المحافظة على الموصل حتى توقيع الهدنة.

أبلغتُ أن الهدنة وُقعت، وستكون سارية في 31 تشرين أول 1918. أرسلت وحدة مؤلفة من خمسة عشر فارساً لإبلاغ الإنكليز بأن الهدنة قد وُقعت. تظاهر قائد الإنكليز بعدم معرفته بالهدنة، وأصدر أمراً باحتلال الموصل. في 4 تشرين الثاني تحرك الفرسان الإنكليز نحو الموصل. بعد يومين، جاء الجنرال مارشال إلى مقر قيادتي. أبلغته بأنه خرق اتفاقية الهدنة، وقرأت له موادها، وأعدتها. حينئذ، أبلغني أنه سيحتل الموصل بموجب أحكام المادة السابعة... ولم أحتمل ضغوط اسطنبول، واضطررت للانسحاب إلى نصيبين في 10 تشرين الثاني 1918".

ويحمّل علي إحسان صابيس مسؤولية ترك الموصل للحكومة العثمانية في اسطنبول، بعد أن حمله مسؤوليتها رئيس الأركان.

أما قصة الإنكليز فمختلفة. عندما وقعت هدنة موندروس في 30 تشرين أول 1918 كانت الموصل ستمنح للفرنسيين حسب اتفاقية سايكس بيكو السرية لعام 1916 في حال أخذت من يد الأتراك. ولكن الإنكليز قرروا طلب الموصل، ولم يكن مؤتمر باريس لعام 1919 الذي طلب فيه لويد جورج الموصل من كليمنصو، وحصل عليها قد عقد. حصول الإنكليز على الموصل وتوابعها كلها سيجعلها ورقة عسكرية رابحة بأيديهم ضد الفرنسيين. من جهة أخرى، ستشكل محافظة البصرة منطقة أمنية واقتصادية في حال كسب محافظتي بغداد والموصل العثمانيتين وضعاً قانونياً خاصاً.

من دون محافظة الموصل، لن يكون تأسيس دولة العراق التي لم يوضع لها اسم بعد ممكناً تحت الاستعمار الإنكليزي.

وضع الإنكليز أيديهم على الموصل خلال الأيام التي تلت اتفاقية موندروس للهدنة من أجل إيجاد عراق آمن وقابل العيش من الناحية الاقتصادية. ولكن هذا لم يكف من أجل رسم حدود تركيا - العراق.

كان البرلمان العثماني في اسطنبول، ومجلس الأمة التركية الكبير الذي سيعبد الطريق لتأسيس الجمهورية التركية في أنقرة مستمرين بالمطالبة بمحافظة البصرة بموجب "مبدأ الميثاق القومي".

رسم الحدود التركية - العراقية، وربط هذه الحدود باتفاقية سيستغرقان ثمانية أعوام بعد الحرب، وهذه الأعوام الثمانية ستحمل بالقضية الكوردية.

في 5 حزيران 1926 رسمت الحدود بين تركيا والعراق بموجب اتفاقية

ثلاثية وُقعت في أنقرة. وبهذا انتهت مطالب تركيا بالموصل من الناحية القانونية.

قبل اتفاقية أنقرة بثلاثة أشهر، في 8 آذار 1926، نظمت الجمعية الجغرافية الملكية في لندن ندوة بعنوان: "جغرافية حدود الموصل". المتحدث في الندوة باسم الحكومة العراقية هو الرائد لويد المكلف برسم الحدود بصفته خبيراً. وهناك اسمان معروفان شاركا بصفة متداخلين هما السير بيرسي كوكس والسير أرنولد ويلسون.

بدأ الرائد لويد مداخلته قائلاً: "الصعوبة الأولى التي يجب أن نأخذها بعين الاعتبار هي تعريف مفهوم الموصل.

أثناء هدنة 1918، تقدمت القوات الإنكليزية إلى نقطة شمال شرقاط جنوب الموصل بستين ميلاً. ولكن جلاء الأتراك عن المحافظات الثلاث التي يسمونها البصرة وبغداد والموصل وهي أرض الرافدين كلها من شروط الهدنة. اعتباراً من هذا التاريخ، اعتبر الإنكليز أنهم حلوا مشكلة هذه المحافظات التركية الثلاث، وعندما أسسوا مملكة العراق عام 1921 لم يكن هناك أي شك بأن المساحة التي ستضم المحافظات الثلاث هي التي ستشكل الدولة العراقية. إلى جانب هذا، بسبب عدم توقيع اتفاقية نهائية مع تركيا، لم تُرسم الحدود. بناء على هذا، عبّرت الملاحظات الإدارية عن رغبة بإدخال ناحية حقاري ضمن حدود العراق. كانت حقاري موطن المسيحيين النسطوريين الذين يشكلون أكثر جنود (العراق) المحليين ثقة، وهجروا. في الحقيقة، إنّ عدداً من هؤلاء الآشوريين عادوا إلى بيوتهم القديمة الواقعة على طرفي نهر زاب بين آميدية وتشولماريك، وسكنوا هناك بشكل غير رسمي، وبقوا حتى طردهم الأتراك في أيلول 1924".

يستمر الرائد لويد بشرح ما يبدو للوهلة الأولى مجرد تفصيل، ولكنه خلفية "سفر تكوين" القضية الكوردية ويجب عدم نسيانه:

"نجحت جهود تركيا الجديدة والحيوية بطرح حلول الهدنة كلها، وطالبت باستعادة محافظة الموصل. وكما تُظهر الخريطة، ويُلاحظ من خلال التجول في المنطقة فإن الموصل جزء لا يتجزأ من العراق، وتصل حدودها إلى قرب بغداد. ينظر الإنكليز والأتراك إلى مشكلة حدود العراق من زاويتين مختلفتين. فقد أعلنت الحكومة التركية أن الموصل تركية بروابط الدم والمشاعر، وإذا لم تكن تركية، فالمؤكد أنها ليست عربية، وأن لا شيء سيريحها سوى إعادة الموصل كاملة. وقد رأت الحكومة الإنكليزية أن الاتفاقية (لوزان) إقرار حدود بين تركيا والعراق، وأن محافظة الموصل جزء

من العراق على الصعيدين العرقي والاقتصادي، والقضية حسب تصورها تتعلق بتحديد سلاسل الجبال أو وديان الأنهار المناسبة للدفاع لتكون حدوداً، وكيفية إعادة الآشوريين النسطوريين إلى وطنهم منذ ألفي عام بعد أن طُردوا منه أثناء الحرب الكبرى. قرر مؤتمر لوزان إحالة القضية إلى عصبة الأمم لاتخاذ القرار في ما إذا لم يتم التوصل إلى حل. عندما صرّح السير بيرسي كوكس برؤية الإنكليز من اسطنبول، أعادت الحكومة التركية طلبها بالموصل كلها، وفُض المؤتمر (الذي انعقد في خليج اسطنبول – المؤلف). خلال شهر، دخل الأتراك إلى العراق، وطردوا النسطوريين الباقين في منطقة تياري العليا والسفلى. حُول الخلاف إلى عصبة الأمم، وعُينت لجنة فرعية برئاسة المرحوم برانتينغ. رُسم خط الأمر الواقع في بروكسل في تشرين الأول 1924. سمي هذا الخط خط بروكسل أو خط برانتينغ. الخط المذكور هو حدود محافظة الموصل القديمة مع بعض التغييرات الطفيفة. وقرار عصبة الأمم هو إقرار خط بروكسل باعتباره حدود العراق الشمالية. لم يكن هذا أفضل خط حدود. لا شك أن الخط الذي اقترحته حكومة صاحبة الجلالة في اسطنبول عام 1924، وفي جنيف عام 1925 المار من قمم الجبال ويستحيل عبوره تقريباً هو الخط الأمثل. ستسهل الجبال الجرداء دفاع المملكة الضعيفة عن هذه الحدود التي يصعب تجاوزها، وتصعب غزوات العشائر على طرفي الحدود".

كان مركز عصبة الأمم في جنيف. عقدت العصبة اجتماعها الذي قرر منح رواندا – بروندي مستعمرة لبلجيكا في تشرين الأول 1924 بشكل استثنائي في العاصمة البلجيكية بروكسل بسبب الموضوع. وتم تناول الطلب المتعلق بحدود تركيا – العراق في ذلك الاجتماع، وهذا سبب تسمية خط اللجنة الفرعية برئاسة برانتينغ (المؤقت) خط بروكسل. هايلمار برانتينغ هو رئيس الحزب الاشتراكي الديمقراطي ورئيس وزراء السويد، والحائز على جائزة نوبل للسلام لعام 1921. مات بعد رسمه الحدود بأربعة أشهر عن عمر ناهز الخامسة والستين.

خرج خط برانتينغ أو بحسب شهرته خط بروكسل من كونه "مؤقتاً" وأصبح دائماً باعتباره حدوداً بين تركيا والعراق.

أُجري تعديل طفيف جداً على خط بروكسل في اتفاقية أنقرة الموقعة في حزيران 1926 بين تركيا وإنكلترا والعراق. أدخل الطريق بين ألمون وأشوطا إلى داخل الحدود التركية. وهي النقطة التي تصل بين محافظتي حقاري وشرناق.

لو حُلت القضية كما أرادت تركيا، لدخلت الموصل ضمن الحدود التركية. وهذا سيعني أن بعض مدن العراق وكوردستان العراق اليوم مثل الموصل وكركوك وأربيل والسليمانية وزاخو ودهوك، مع السكان الكورد والتركمان وجزء من المسيحيين سيتبعون تركيا. وستكون أماكن معروفة مثل جبل قنديل وحلبجة داخل الحدود التركية. وستنزل الحدود التركية العراقية إلى قرب بغداد. لأن البنية الإدارية العثمانية لمحافظة الموصل تشمل هذه المناطق اليوم.

كانت التقسيمات الإدارية في السلطنة العثمانية حتى عام 1918 تقسم إلى محافظات وسناجق أو ألوية، وأقضية ونواحٍ. على رأس المحافظة محافظ (والٍ)، وعلى رأس السنجق متصرف، وعلى رأس القضاء قائم مقام، وعلى رأس الناحية مدير ناحية. استمرت الجمهورية التركية بهذه البنية الإدارية ما عدا السنجق. الأصح أن السنجق أصبح محافظة، وألغيت المحافظات السابقة. سمي القضاء ناحية، والناحية بوجاق. كانت الموصل في البنية العثمانية تضم ثلاثة سناجق. هذه السناجق هي الموصل وكركوك والسليمانية. قبل هدنة عام 1918، فصلت عن كركوك الأقضية الثلاثة الواقعة شمالها، وشكّل سنجق أربيل داخل محافظة الموصل. ويمتد سنجق أربيل من سنجق الموصل إلى زاب الصغير. وبقي سنجقا كركوك والسليمانية جنوب زاب الصغير.

الأقسام التي كانت إمارات كوردية ذات إدارة ذاتية جزئية حتى أواسط القرن التاسع عشر هي اليوم داخل العراق: بهدينان، وسوران، وبابان. وتشمل إدارة إقليم كوردستان اليوم هذه البنى الإدارية الثلاث بنسبة كبيرة. يضم سنجق بهدينان كلاً من زاخو ودهوك عقرة والعمادية والجزء الجبلي شمال الموصل من زيبار. أما سنجق أربيل فهو سوران تقريباً، وسنجق السليمانية هو بابان كلها وقسم من سنجق كركوك.

كانت وجهة سنجق الموصل عموماً نحو الأناضول، ولكن وجهة سوران عموماً إمارة مقري الكوردية التي مركزها مهاباد في إيران، أما بابان فقد كانت على تواصل حثيث مع أردلان التابعة لسنندج في إيران.

كانت محافظة الموصل تتألف من سناجق أربيل وكركوك والسليمانية أثناء الخلاف عليها بين تركيا وإنكلترا إبان الهدنة عام 1918. لو بقيت محافظة الموصل ببنيتها الإدارية تلك ضمن حدود الجمهورية التركية لبقيت الأرض الممتدة على خط مائل من الخابور باتجاه الجنوب الغربي حتى حلبجة الملاصقة لحدود إيران وتضم جبل حمرين الذي يبعد سفر ساعة ونصف الساعة أو ساعتين بالسيارة عن بغداد داخل حدود الجمهورية

التركية.

وعندها، ستكون بنية تركيا - وبالتالي سيرورتها التاريخية - مختلفة إلى درجة لا يمكن تحديد أبعادها.

يمر خط بروكسل من الحدود الإدارية الفاصلة بين محافظة الموصل العثمانية ومحافظة وان؛ ما عدا بعض الاستثناءات القليلة. بقيت محافظة الموصل خارج أرض الجمهورية التركية.

لم يكن خط بروكسل هو الحدود التي أرادتها الجمهورية التركية على الورق. ونعلم أن إنكلترا أيضاً لم ترده بالضبط. طلبت إنكلترا أن تكون حقاري أيضاً ضمن حدود العراق، (خريطة خط بروكسل/ص 490) وكان دافع الإنكليز الأساسي رعايتهم للمسيحيين النسطوريين أو بتعبير آخر الآشوريين أكثر من الكورد.

تحدّث السير بيرسي كوكس بعد مداخلة الرائد لويد في مؤتمر الجمعية الجغرافية الملكية: "جغرافية حدود الموصل" (8 آذار 1926)، وبعد أن مدح كثيراً لويد والموظفين الإنكليز الذين عملوا في العراق، شرح موقف الإنكليز من حدود العراق:

"... في مباحثات لوزان تم التوصل إلى حل سياسي لكل القضايا؛ ما عدا حدود العراق. لم تكن هناك أي قاعدة مشتركة بين طموح الأتراك وطموحنا. لهذا تقرر إتمام الاتفاقية وترك قضية حدود العراق لتنجز بشكل مباشر بيننا وبين الأتراك.

كان ممثلنا في لوزان اللورد كورزون على قناعة بعدم فائدة المفاوضات المباشرة مع تركيا للأسباب نفسها، أي عدم وجود أرضية مشتركة يمكن التفاوض عليها. لهذا السبب، فضّل طرق باب العصبة مباشرة. ولكن الأتراك ضغطوا علينا بإلحاح من أجل إيجاد حل مشترك بيننا. طلبوا عاماً، واقترحنا ستة أشهر، ثم اتفقنا على تسعة أشهر. أوفدت إلى اسطنبول... من أجل التوصل إلى حل مع الأتراك. وُضِع بعين الاعتبار كل ما هو ضروري لرسم حدود جيدة، ونُفذ استكشاف جوي عظيم في بلد الطيران فوقه مخيف...

أعطيت تعليمات بتجهيز أفضل ما هو ممكن لاقتراح هذه الحدود... ولبحث تصحيح بعض التفاصيل. ولكنني لم أجد أرضية يمكن التفاوض عليها. وضع المندوبون الأتراك أمامي طلباً باستعادة الموصل، وأبدوا استعدادهم لمناقشة التعويضات الاقتصادية التي ستقدم لنا في حال فعلنا هذا. ولكن ما كنّا نناقشه هو حق استعمار حصلنا عليه، ومن غير الممكن التوصل إلى أي اتفاق بهذه الطريقة. لهذا السبب، أُبلغتُ بإيقاف المفاوضات بعد ستة أشهر

من النقاشات العقيمة.

الآن، هناك قرار حدود صادر عن عصبة الأمم. الموضوع هو خط حدود، ولا شك أنها حدود ممكنة. في الحقيقة، من الطبيعي أن يكون هناك أفضل منها. ولكن تلك الجبال وقممها تقدم حدوداً ممكنة. ولو قدّمنا مفهوماً معقولاً في هذا الموضوع لحضّر هذا مستقبلاً عظيماً للعراق. ما يضايقني في هذا الجانب هو قدر ثمانين ألف رجل وامرأة وطفل من المسيحيين الآشوريين. نصفهم الآن على هذا الطرف من الحدود، ونصفهم الآخر على الطرف الثاني. في حال رسمت الحدود التي أصررت عليها، كان المسيحيون سيحصلون على مساحة كافية ليجتمعوا. لم تعد هذه الفكرة مطروحة على طاولة المفاوضات مع الأسف، وهذه خيبة أمل كبرى بالنسبة إلي. ينبغي التفكير بذلك الشعب المسيحي مهما كان صغيراً، ويجب أن يكون هؤلاء المسيحيون مصدر قلق للعالم المسيحي. نحن فعلنا ما بوسعنا في إنكلترا، ولكن العالم المسيحي لم يفعل شيئاً، وقدر هؤلاء الناس الآن معلق بالمفاوضات الدائرة مع تركيا".

كان اللورد كروزون مقابل عصمت إينونو في لوزان، والسير بيرسي كوكس مقابل فتحي أويار. لم تستطع تركيا وإنكلترا التفاهم على حدود العراق كما شرح كوكس.

في تلك الأمسية، أخذ السير أرنولد ويلسون دوره بالحديث بعد السير كوكس. قدم مداخلة طويلة، تضمنت محددات غريبة حول خصوصية الحدود التركية العراقية. أخذ الجيش التركي تلك المحددات بعين الاعتبار في عملياته داخل حدود شمال العراق أو كوردستان العراق في التسعينيات ومطلع الألفية الثالثة يحمل معنى كبيراً. بالطبع، ليس من الممكن أن يكون السير أرنولد ويلسون قد خطر بباله أن يستخدم الجيش التركي تلك المحددات في التسعينيات ومطلع الألفية الثالثة عندما وضعها. وقدم ويلسون رؤوس خيوط حول التهريب الذي لا ينتهي ولا يمكن منعه عبر الحدود:

"أُبرزت أهمية خط بروكسل الاستراتيجية كثيراً مقابل خطنا. لا شك أنه يحمل أهمية استراتيجية، ولكن كما قال السير بيرسي كوكس، إننا نطلب خط حدود أفضل، وإن العامل الإداري هو السبب الأساسي الذي دفعنا للموافقة على خط بروكسل. للخط الجيد الذي يحول دون المداهمات والامتعاض ويجمع بين العشائر على طرفي الحدود أهمية كبيرة من الناحية الإدارية. ومن الممكن إبراز الناحية الاستراتيجية. إذا أرسلت الوحدات العسكرية التركية لاحتلال الموصل، فلن تدخل من المنطقة التي نراها على

الشاشة الليلة، بل من الغرب. دخولها عن طريق سكة بغداد الحديدية أسهل... يمكنهم أن يدخلوا من نصيبين أو أية نقط مناسبة أخرى...

برأيي، لا يمكن أن يكون خط بروكسل نهائياً. علينا أن نبحث الأمر أكثر قبل أن نحل الموضوع. هناك جوانب قليلة جداً يمكن الدفاع عنها من زاوية كون خط بروكسل خطأً إدارياً بشكل كامل. ليس فيه ما يمكن الدفاع عنه لأنه لم يحل المشكلة الكبرى المتعلقة بالمسيحيين الآشوريين. وبكل الأحوال، الأهم من هذا أنه لا يمنح الذين يعيشون شماله إمكانية الوصول إلى الأسواق. هناك عشرون أو ثلاثون ألف نسمة من العشائر يعيشون شمال خط بروكسل، ولا يمكنهم الوصول إلى السوق التركية من دون تجاوزهم صعوبات كبرى. وسيعانون الصعوبات نفسها تقريباً للوصول إلى سوق مدينة الموصل أو القصبات التي حولها. من الضروري متابعة المباحثات، وعلينا نحن والشعب العراقي أن نصبر، وأن ننتظر وصول الرأي العام التركي إلى مرحلة تقبل الأمر. ولا أعتقد أن هذه الفترة ستكون طويلة جداً".

ظهر أن أرنولد ويلسون محقّ. فقد وُقعت اتفاقية أنقرة بعد ثلاثة أشهر من مداخلته ومداخلة السير بيرسي في الجمعية الجغرافية الملكية. هاجر الآشوريون الذين كانوا في منطقة تياري بين حقاري وتشقورجا أو هُجروا إلى الطرف العراقي، وبقي خط بروكسل مع بعض التعديلات الطفيفة حدوداً بين تركيا والعراق.

فقدت تركيا محافظة الموصل. لم يستطع الإنكليز ضم حقاري إلى العراق. لم تكن هذه "أفضل حدود يريدونها بين تركيا والعراق".

بعد سنين، قدم رجال الدولة الإنكليز تقييمات حول ضرورة عدم اعتبار حدود العراق التي رسمها أسلافهم حدوداً:

"عندما انتهت الحرب العالمية الأولى، بدأت التحضيرات لحل القضايا الخلافية كلها بين دول الحلفاء المنتصرة، ودول المحور المهزومة. وفي مؤتمر باريس للسلام عام 1919، سلم العراق لبريطانيا باعتباره مستعمرة من النوع (آ) اعتماداً على المادة الثانية والعشرين من ميثاق عصبة الأمم. أكملت هذه المكافأة في مؤتمر سان ريمو الذي عُقِد في إيطاليا بين 18-27 نيسان عام 1920. استمر البريطانيون بإظهار أنهم سيوفون بوعودهم للآشوريين الذين خدموهم هناك طوال فترة الحرب الكبرى. إنّ تأسيس دولة عربية جديدة باسم العراق مع بعض التعديلات على الحدود خلال بضع السنوات التي تلت عام 1921 لم يثر في أذهان الآشوريين أنهم تعرضوا للخيانة.

ولكن، عندما انتهى الاستعمار، وقُبل العراق في عصبة الأمم المتحدة عام 1932 اعترف الكثير من المسؤولين الإنكليز بأن سياستهم يمكن وصفها بأي وصف عدا الشرف. وأهم تلك الاعترافات اعتراف وزير الخارجية البريطاني جاك سترو في مقابلة لمجلة إنكليزية أن الإمبراطورية ارتكبت أخطاء خطيرة خاصة في العقد الأخير. وحمّل سترو القوات الاستعمارية ذنب الكثير من خلافات الأرض برسمها حدوداً غير منطقية أسماها: الحدود العراقية الغريبة التي رسمها الإنكليز". (BBC News ، 15 تشرين الثاني 2002، بعنوان: إلقاء ذنب الخلافات المعاصرة على الإمبراطورية الإنكليزية).

لم يستغرق طويلاً اكتشاف المسؤولين والاستراتيجيين الأمريكان "ذنب" الحدود العراقية؛ عندما شعروا بغرقهم في العراق بعد احتلالهم له عام 2003.

في 31 آب 2003، قال ريتشارد هولبروك لمراسل فوكس نيوز طوني سنو خلال بث مباشر:

"أوجد ونستون تشرشل وآخرون الدولة التي نسميها العراق قبل ثمانين سنة في عام 1922 (الصواب 1921 – المؤلف) في مؤتمر القاهرة. يجب ألا تكون الحدود الدولية كما هي اليوم. فقد حكمها العثمانيون أربعة قرون باعتبارها ثلاث محافظات – كوردية، سنية، شيعية – الموصل وبغداد والبصرة.

كان هذا هو الحل الصحيح. فقد ارتكب الإنكليز خطأ، ونحن ورثنا هذا الخطأ؛ لأننا نتحمل مسؤولية الحدود التي رسمت بعد الحرب العالمية الأولى.

أتعلم، حدث أمر مشابه في يوغوسلافيا. وهذه أُوجدت في الفترة نفسها. قُسمت، ولكن ثلاثمائة ألف شخص قتلوا حتى قُسمت... واضطررنا لعمل اتفاقية دايتون.

لهذا السبب، إن ما قاله السيناتور لوغار صحيح، وأعتقد أن ما قاله مهم جداً. كل العلماء الذين استشارهم أبلغوه أن العراق ليس دولة بالمعنى التقليدي. وعلى الرغم من هذا، يلتزم الأمريكيون والأوروبيون بالحدود الراهنة. هذا بشكل خاص ما جعل المأزق صعباً".

في هذه النقطة، يقاطع طوني سنو كلام هولبروك، ويسأله: "أردت أن أصل إلى هذه النقطة بالضبط. هل تعتقد بضرورة إعادة تناول الخطأ الذي ارتكبه ونستون تشرشل، واعترف به في ما بعد من قبل الإدارة والحلفاء؟".

يتنهد هولبروك، ثم يقول: "سأقول لك هذا يا طوني". ثم يضيف:

"فكرت بهذا كثيراً. وكتبت أيضاً في هذا الموضوع. أعتقد أننا يمكن أن نحل هذه القضية عام 1991 خلال إدارة بوش الأولى بالتعاون مع الأتراك. لا أقتنع بإمكانية تحقيق هذا ضمن الظروف الحالية. سيبدأ جيران العراق جميعاً بمن فيهم حلفاؤنا الأتراك في الناتو، والعربية السعودية أيضاً، والإيرانيون والسوريون بشحذ أسنانهم لالتهام العراق. وفي النهاية، ستكون نهاية العراق شبيهة بما وصلت إليه الكونغو. أي سيقيم فيه الإرهابيون، وسيقضم جيرانه أطرافه وزواياه.

لهذا السبب، مع الأسف عليّ أن أقول إننا تجاوزنا لحظة إمكانية تغيير خطأ تشرشل. وهذا يعني أننا في وضع صعب جداً".

ظهر أن تصورنا المشترك - تورغوت أوزال وأنا - صحيح حول مستقبل العراق عام 1991.

XXI - الحدود المرسومة والشعوب المفتتة



في الحقيقة، إن التاريخ ليس سوى سجل جرائم الإنسانية وجنونها وكوارثها. ولكن التجربة علمتنا أن الشعوب والدول لم تتعلم شيئاً من التاريخ...

هيغل، تاريخ الفلسفة، 1807

الماضي ليس ميتاً تماماً؛ حتى إنه ليس ماضياً.

وليام فولكنر

بدافع من التفكير بالقضية الكوردية والأبعاد التي وصلت إليها، طالما شغل ذهني سؤال " كيف رسمت الحدود التركية – العراقية؟ وبأية ظروف؟ " . وجدتُ في الأرشيف الإنكليزي عدد آب 1962 لمجلة الجغرافية (Vol . 68 . No . 2) محاضر اجتماع الجمعية الجغرافية الملكية المؤرخ 8 آذار 1926 – وقد أخذت منه مقتطفات أعلاه – تحت عنوان " جغرافية حدود الموصل " . يمكنني القول إنني فرحت بقدر ما فرح المهندس الإنكليزي الأول الذي استخرج البترول من كركوك لأول مرة عام 1927 .

أثناء قراءة المحاضر، تذكرت حواراً دار بيني وبين السير جون غولدن

الذي كان سفير إنكلترا في أنقرة بين عامي 1992 - 1995 قبل أن يصبح مندوب إنكلترا في الناتو. إثر إحدى أكبر عمليات حزب العمال الكوردستاني دموية، والتي راح ضحيتها عدد كبير من الجنود عام 1992 ، ذهبت برفقة رئيس الجمهورية تورغوت أوزال إلى المخفر المتعرض للهجوم في النقطة صفر من الحدود التركية – العراقية قرب تشوقرجا. طرنا بواسطة مروحية سكورسكي من حقاري إلى تشوقرجا فوق وادي زاب الذي يتلوى فيه النهر تحتنا كالأفعى. كانت الجبال الشاهقة المتتالية موجات داخل العراق في أفق نظري وتغطي السماء. تقع النقطة الحدودية صفر على ذروة جبل شاهق. التفتُّ نحو الشمال باتجاه حقاري، كلها جبال... التفت نحو الجنوب حيث العراق، كلها جبال... ما الذي سيختلف لو وضعنا حجر الحدود ذاك على بعد عشرات الكيلومترات شمالاً أو جنوباً؟ ما الذي كان سيحدث لو لم يكن ذلك المخفر هناك؟ ما المشكلة الأمنية الاستراتيجية التي ستعاني منها تركيا في هذه الحال؟ هذه حدود عبثية ولا معنى لها. أفضيت حينئذ بما في ذهني لأوزال. عندما عبّرت عن فكرتي هذه للسير جون غولدن بشكل ساخر، واتهامي قليلاً، أجابني بالدعابة الدبلوماسية الإنكليزية الخاصة: " أنتم أردتم شد الحدود من الأسفل، ونحن أردنا شدها من الأعلى، ورسمت في مكان وسط " .

في الحقيقة، لم أفهم حينها ما قصده بالضبط؛ لأنني لم أكن أعرف حينئذ قصة رسم الحدود. ووصلت إلى تلك المعلومة بعد اعتكافي على القضية الكوردية.

ما قَصَدَهُ السير جون غولدن هو خط الحدود المسمى خط بروكسل. في الحقيقة، إنّ تبني عصبة الأمم لخط بروكسل أو الحدود التركية – العراقية بشكلها النهائي بعد تعديلات طفيفة لا يعني حل قضية الموصل التي عُلِّقت في لوزان. لم يُغلق الملف.

رأت إنكلترا أنّ المنطقة الجبلية في شمال البلد – أي العراق – تحمل أهمية حياتية لأمنه في مواجهة تركيا. كان الإنكليز والأتراك يرون المشكلة بشكل مختلف. " المشكلة الحقيقية الوحيدة بالنسبة إلى الإنكليز هي المكان الذي ستمر منه الحدود في شمال العراق. الاختلاف بالنسبة إلى تركيا هو محافظة الموصل كلها التي تعتبرها جزءاً منها " . ("The Creation of Iraq 1914 - 1918", Susan Shields, Mosul Questions, s. 54, Columbia University Press, New York, 2004)

مثلما لم يبحث في موضوع تبعية محافظة الموصل، فإن تركيا بدأت

تفقد الموصل اعتباراً من لوزان.

"لم يُحدد مصير الموصل في لوزان. قال الأتراك إن الكورد الذين يشكلون نسبة مهمة من نفوسها أتراك. وهذا ما تقوله الموسوعة البريطانية. يقول كروزون: سُجل للمندوبين الأتراك أن يكونوا أول من يكتشف أن الكورد أتراك. لم يكتشف أحد هذا من قبل. حُولت قضية الموصل إلى العصبة التي منحتها للعراق، وهذا ما أراده كروزون". (Walter Reid, Empire of Sand-How Britain Made The Middle East, Birlinn Ltd., Edinburgh, 2011, s. 192-193)

تعتبر كتب التاريخ الإنكليزية اتفاقية لوزان نجاحاً سياسياً لكروزون؛ على عكس ما يُعلم في تاريخ تركيا. يورد هذا النوع من النصوص أن قضية الموصل أُجلت عندما لم تُحل بالطريقة التي يريدها الإنكليز، وقد تمت الحيلولة دون تأسيس دولة كوردية.

"أسلوب تفاوض كروزون نصر سياسي... وقد كتب محرر سبيكتاتور المهم والمدهش ج. س. ليو ستراتشي في نهاية المؤتمر حول ما تم في لوزان: إحدى أعاجيب رجل الدولة الذي استحق أن يوضع بالمستوى نفسه لما حققه تاليران في مؤتمر فيينا. ذهبتم إلى المؤتمر من دون وجود أي ورقة رابحة بيدكم، وعلى الرغم من هذا حققتم التفوق بشكل كامل بقوة إدارتكم وسلامة حدسكم وتكامل هدفكم ومعلوماتكم حول الأحداث فقط. استعدتم موقعنا الدبلوماسي الذي انهار كثيراً". (ريد، مصدر سبق ذكره، ص 200)

عندما قرأت هذه الأسطر، تذكرت قول تورغوت أوزال ذات مرة إن عصمت إينونو لم يتوقع ما بيد كورزون جيداً، وابتلع الخديعة في موضوع الموصل. وعندما سألته: "كيف توصلتم إلى هذا الاستنتاج؟". أجابني أوزال: "بقراءة أرشيف القصر الرئاسي". هكذا يتقاطع حكم المؤرخين الإنكليز مع حكم أوزال في قضية لوزان.

بعد لوزان، ظهرت لجنة الأمم المتحدة على الساحة من أجل حل قضية الموصل، أو على الأصح قضية تحديد مصير محافظة الموصل العثمانية.

بعد شهر من اعتبار خط بروكسل حدوداً بين محافظة الموصل (العراق في ما بعد) وتركيا، شكلت عصبة الأمم لجنة الموصل في أواسط تشرين الثاني 1924. ترأّس اللجنة الدبلوماسي السويدي كارل آينر ويرسن، وعضوان أحدهما الكونت بال تلكي المعروف بتأييده الشديد للأتراك إلى درجة أنه يصلح ليكون عضواً في الجمعية الطورانية، والثاني العقيد ألبيرت

باوليس الذي خدم في الجيش البلجيكي أثناء الحرب العالمية الأولى وحرب الاستعمار في الكونغو.

ذهبت اللجنة الثلاثية إلى المنطقة. وبعد أن تجولت في كل شبر من محافظة الموصل بين شهري كانون الثاني وآذار من عام 1925، قدمت تقريرها لعصبة الأمم في تموز 1925.

انطلقت لجنة الموصل من أجل معرفة خيار شعب محافظة الموصل وتقديم تقرير بهذا الخصوص؛ اعتماداً على المبدأ الرائج جداً "حق الشعوب بتقرير مصيرها" الذي طرحه الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون صاحب فكرة عصبة الأمم بعد الحرب العالمية الأولى. ذهب ويرسن والكونت تلكي والعقيد باوليس مع مساعديهم إلى بغداد بداية، ووصلوا إلى مدينة الموصل في 27 كانون الثاني 1925. وخلال الأشهر الثلاثة التي قضتها اللجنة داخل حدود المحافظة، درست مساحة المحافظة واقتصادها وأرضها الصالحة للزراعة وطرقها التجارية وتركيبتها القومية. أهم ما فعلته أنها قابلت المئات من أهالي المحافظة. أعطى الإنكليز والأتراك قائمة بمن يجب أن تلتقيهم. إضافة إلى لقاء اللجنة هؤلاء، قابلت رؤساء العشائر وشيوخ الكورد ورجال الدين البارزين والتجار وملاكي الأراضي والمهنيين والوجهاء. وحاولت معرفة ما إذا كان الأهالي يعتبرون أنفسهم عراقيين أم أتراكاً.

من الممكن إيجاد معلومات قيّمة جداً ومفصّلة حول الفترة في كتابي ك. ج. أدموندز ووالاس ليون، كما ترد فيهما معلومات عمّا فعله الإنكليز من أجل التأثير على أعضاء اللجنة الثلاثة ومعرفة خصوصياتهم الشخصية ونشاطاتهم للتأثير عليهم. جمع س. ج. أدموندز مشاهداته ومعلوماته في الكتاب الموسوم "الكورد والأتراك والعرب – سياسة ورحلة وبحث في شمال شرق العراق 1919-1925". أما والاس ليون فقد استلهم عنوان كتاب مذكراته من كتاب أدموندز وأسماه: "الكورد والعرب والبريطانيون 1918-44".

عرفت هذين الكتابين عندما بدأت أتابع قضية الموصل وأثرها على القضية الكوردية في تركيا والعراق أثناء حرب العراق في مطلع الألفية الثالثة. عند قراءتهما اكتشفت مدى قصور الأعمال التاريخية حول قضية تركيا الأولى، وجهل الرأي العام التركي حول الأمر. تقبّلنا من دون طرح سؤال أو استفسار على مدى عقود أن الموصل أخذت من الأتراك من دون وجه حق بلعبة إنكليزية. ولكننا لم نكن على علم بطريقة حصول هذا. غير هذا لم نكن نعرف الفروق بين مدينة الموصل، وسنجق الموصل، ومحافظة الموصل. ومثلما لم نكن نعرف ماذا تضم محافظة الموصل، لم

نعرف أن غالبية سكان المحافظة من الكورد.

لنعد إلى اللجنة...

أظهرت أعمال لجنة الموصل أن الدوافع الاقتصادية هي المحرك لشعب المحافظة. ولكن اللجنة اعتقدت أن شعب المحافظة سيتخذ موقفه انطلاقاً من انتمائه القومي، وأن هذا الموقف سيقرر مصير المحافظة. النتيجة الأخرى التي توصلت إليها اللجنة هي أن محافظتي بغداد والبصرة لا يمكنهما العيش من دون محافظة الموصل. ترتبط حياة بغداد والبصرة من الناحية الاقتصادية بالحبوب التي تنتجها الموصل.

عرّج التقرير على ضرورة اعتبار المناطق المختلف عليها قانونياً تابعة لتركيا، وأورد أن خط بروكسل الذي اقترحه الإنكليز هو الخط الأكثر منطقية من الناحية الاستراتيجية – على الرغم من بعض الملاحظات – حتى تعلن تركيا تخليها عن حقوقها في الموصل.

بحسب تعبير اللجنة المتذبذب، إنها ستفضل ربط المحافظة بالعراق إذا أخذت الأرض أساساً. ولكن هذه الرغبة نابعة من دوافع اقتصادية، ومن كون العراق مستعمرة بريطانية. لولا هذان العاملان لاختار سكان المحافظة بالأغلبية تركيا بدلاً من العراق.

أي لو كان الخيار بين العراق في ظل الاستعمار الإنكليزي وتركيا لاختار الأهالي العراق تحت الاستعمار الإنكليزي، وليس تركيا.

بالنتيجة، أوصت لجنة الموصل بربط المحافظة بالعراق. ولكنها طرحت بعض الشروط من أجل تحقيق هذا؛ منها بقاء المنطقة خمسة وعشرين عاماً تحت وصاية عصبة الأمم. وقد منحت العصبة حق الانتداب لإنكلترا. الشرط الأهم من هذا يتعلق بالكورد. اشترطت اللجنة مشاركة الكورد في إدارة المنطقة ومؤسساتها التعليمية والقضائية، واستخدام الكوردية في هذه الخدمات كلها؛ وبهذا اعتُرف بنوع من الإدارة الذاتية للكورد.

وإحدى توصيات اللجنة أيضاً، إمكانية قبول شعب المحافظة الهيمنة التركية بدلاً من العربية في حال الإيفاء ببعض الشروط. وفق هذا، يمكن إعادة محافظة الموصل إلى تركيا في حال انتهاء مدة الاتفاقية العراقية – الإنكليزية، وفترة انتداب عصبة الأمم، وفي حال لم تطبق الحقوق المعترف بها للكورد، وبناء على رغبة الشعب.

عند انتهاء إدارة الانتداب، واتخاذ العراق مكانه في الساحة الدولية باعتباره أول دولة عربية مستقلة، لم تكن شروط لجنة الموصل قد أوفيت. تذكير جلال طالباني تورغوت أوزال عام 1991 بحقوق تركيا القانونية في

كوردستان العراق، ومقالة مجلة " Review National " الأمريكية التي وضعها أمامي تورغوت أوزال في القصر الجمهوري والتي تتحدث عن حقوق تركيا في محافظة الموصل قبيل مغادرتي إلى لندن لإجراء أول تماس بين أوزال وطالباني يعتمدان على عدم الإيفاء بشروط اللجنة.

أرسلت عصبة الأمم لجنة أخرى في العام ذاته، أي 1925. ترأس لجنة الموصل الثانية التي لم تلفت الأنظار كالتي سبقتها الجنرال الأستوني جون لايدونر. عاد الجنرال لايدونر من الموصل في تشرين الثاني 1925، وقدم تقريره. كان تقرير لايدونر متوافقاً بنسبة كبيرة مع تقرير ويرسن، وتلكي، وباوليس، وتوصل إلى النتائج نفسها.

أخيراً، أصدرت عصبة الأمم قراراً حول وضع محافظة الموصل في 16 كانون الأول 1925. ألغيت صفة المؤقت عن خط بروكسل، واعتبر حدوداً بين العراق وتركيا. خرجت الموصل من يد تركيا، ورُبطت بمملكة العراق التي تشرف عليها إنكلترا، وبقيت حقاري ضمن الحدود التركية.

بالنتيجة، كسبت إنكلترا الصراع بينها وبين تركيا على محافظة الموصل.

ولكن ليس من الصواب تماماً، كما أنه لا يتوافق مع حقائق التاريخ اعتبار مكر إنكلترا أو مهارتها السياسية وراء انتصارها الذي حققته على تركيا. يفهم أن تلك الهزيمة نجمت عن بعض التطورات الجارية في تركيا، ولعبت إرادة الهزيمة التي كانت تحكم تركيا دوراً كبيراً في الصراع على قضية الموصل.

أحد تلك التطورات هو إلغاء الخلافة في تركيا في آذار 1924 خلال الفترة التي وصلت فيها ادعاءات الأطراف إلى حدتها القصوى. إلغاء الخلافة جلب معه انقطاع أهم الروابط المعنوية بين الكورد وتركيا.

"في أواسط آذار، عندما تلقينا خبر إلغاء الخلافة بموجب قانون صادر عن البرلمان (في 3 آذار) استغربنا هذا ولم نصدقه؛ لأن الدعاية المشتعلة كالبركان من أجل انتفاضة الكورد اعتمدت على ارتباط رجال الدين الكورد النافذين بهذه الخرافة. بدت عملية سحب الأتراك البساط من تحت الانتفاضة بهذه الطريقة أمراً لا يصدق. بالتأكيد لم نفوّت استثمار هذا الوضع الجديد. ولكن اقتناع سكان الريف المتجمدة عقولهم بأهمية هذه القضية، وانتهاء احترام هذا الموقع القديم لدى الأتراك استغرق زمناً". (أدموند، مصدر سبق ذكره، ص 383، 384)

ولا بد من التذكير أن لجنة الموصل قدمت تقريرها لعصبة الأمم في تموز عام 1925؛ أي بعد أكثر من سنة بقليل من إعلان إلغاء الخلافة

وتراخي الرابط المعنوي بين كورد الموصل وتركيا. ويقترح هذا التقرير ربط محافظة الموصل بدولة العراق، وحدود الدولة هي حدود المحافظة تقريباً. ولكنها أضافت شرطين خاصين. الأول أن العراق يجب أن يبقى تحت الانتداب مدة خمسة وعشرين عاماً، والثاني ضرورة قبول الدولة العراقية البنية الخاصة للكورد، وإدارتهم أنفسهم وتطويرهم هويتهم الثقافية بواسطة مؤسساتهم الخاصة.

"في كانون الأول عام 1925، وافقت عصبة الأمم على تقرير اللجنة. كان على إنكلترا إلغاء فترة الخمسة والعشرين عاماً في حال قبول العراق كدولة كاملة العضوية في عصبة الأمم (وهذا ما حدث عام 1932)، وعقد اتفاقية بينها وبين والعراق، وتقديم المقترحات اللازمة من أجل قيام إدارة كوردية ذاتية. كانت تركيا منـزعجة من هذه النتائج، ولكنها مضطرة لقبولها". (Charles Tripp, A History of Irak, s. 59, Cambridge University Press, 2000)

وثّقت تركيا فصل الموصل عنها بعد ستة أشهر؛ في حزيران 1926 باتفاقية ثلاثية مع إنكلترا والعراق.

"قبول تركيا التوقيع على تلك الاتفاقية الثلاثية مقابل حصولها على 10% من بترول العراق لمدة خمسة وعشرين عاماً (حتى عام 1951)، ونصف مليون جنيه إسترليني يشير إلى الوضع المادي البائس للحكومة التركية". (George E. Gruen, The Oil Resources of Iraq: Their Role in the Policies of the Great Powers, The Creation of Iraq, Columbia University Press, New York, 2004, s. 122)

وهنا، ليس من الصحيح الاستنتاج بأن تركيا باعت الموصل مقابل النقود. مهما قيل عكس هذا عبر عشرات السنين، فقد تخلت الحكومة التركية الكمالية الجديدة بوعي وإرادة عن الموصل على الرغم من عدم توقف التأريخ الرسمي كثيراً عند هذا الموضوع.

"دخل النظام التركي في عملية تحضير الرأي العام لفقدان الموصل الذي لم يكن ثمة مفر منه. تابع الإنكليز الصحافة التركية التي نفذت عملية تحضير الرأي العام بانتباه شديد... يشير بحث إنكليزي أجري بعد أسبوع من اتفاقية الموصل إلى أنّ الصحافة التركية قابلت الوضع بهدوء يسترعي الانتباه. والأبعد من هذا، لفت الأنظار التغيير الكبير لنظرة الإنكليز إلى تركيا. أرسل السفير الإنكليزي في أنقرة لندسي برقية إلى السير أوستن شامبرلاين يقول فيها: يجب التذكير بأن حكام تركيا الحاليين تسلموا سلسلة

أخطاء قاتلة لا يمكن تجاوزها إلا بتضحيات كبيرة. المهمة الأساسية للحكومة الحالية هي تحقيق الأمن.

توقيت تقبل الوضع مؤشر كبير إلى تغيير في السياسة الخارجية التركية. إذ إنّ علاقات الصداقة التي بدأت تركيا بتطويرها بتوالي السنوات مع إنكلترا وفرنسا وبنسبة أقل مع أمريكا كانت تهدف لتحقيق نوع من التوازن في مواجهة الاتحاد السوفييتي الذي بدأ يظهر مهدداً وعدوانياً. رزمة اتفاقيات الصداقة التي وقعتها الحكومة التركية مع إنكلترا أدخلت الدولة الفتية بصداقة مع الدول الكبرى جميعها من الناحية النظرية. صداقة إنكلترا لتركيا ومساعداتها خففت التهديد اليوناني لتركيا على صعيد الغرب. كانت حدود تركيا الجنوبية تحت حماية الانتداب الفرنسي والإنكليزي، وتشكل مشكلة لهما. وكانت هناك اتفاقيات صداقة مع إيران في الشرق والاتحاد السوفييتي في الشمال. أما بالنسبة لبلغاريا فقد بدت الأوراق كما لو أنه أعيد خلطها مرة أخرى.

كان تمرد الشيخ سعيد حدثاً مهماً آخر أثر على الحسابات القومية وغاب عن الأعين. فقد اندلع ذلك التمرد القصير والصعب في منطقة ديار بكر في نيسان 1925 (بدأ في شباط، وانتهى في نيسان – الكاتب)، واستمر بضعة أشهر. تطلب إخماده قوة عسكرية مؤلفة من خمسة وعشرين ألف جندي. كان معنى ذلك التمرد بالنسبة إلى الحكومة واضحاً تماماً. أوّلاً: شكل مشكلة أمنية إقليمية. وهذا ما كان عليه قبل الحكومة العثمانية بكثير، ويعرف الأتراك هذا جيداً. ثانياً: العمل على تناول قضية محافظة الموصل على مستوى أعلى؛ وهذا يعني انتشار طرق الإمداد العسكرية في أرض معادية. والعمل على بسط الاستقرار في المنطقة سيجفف موارد الحكومة التركية التي تعاني من صعوبات أساساً. وإذا كان تقسيم كوردستان قد أزعج رجال النظام الجديد وعلى رأسهم إينونو فإن فقدان الموصل منح الأتراك حدوداً مريحة أكثر. تركُ المحافظة خسّر الأتراك مفرق طرق مواصلات مهماً، وآبار نفط كركوك. ولكنْ من جهة أخرى، إن التخلي عن قسم مهم من السكان الكورد كان جذاباً للقوميين الذين بدأوا بتطبيق برنامج التتريك في فترة المبادلة التي جرت بعد معاهدة لوزان...". (David Cuthell, A Kemalist Gambit-A View of the Political Negotiations and the Determination of the Turkish-Iraqi Border, The Creation of Iraq 1914-1921, Columbia University Press, 2004, s. 89, 90)

لم يكن البعد الأمني يحمل أولوية في جغرافية محافظة الموصل

بالنسبة لتركيا فقط. هكذا نظر إليها كل من حكم تلك الجغرافية طوال التاريخ. لم تحمل محافظة الموصل طوال الفترة العثمانية على مدى قرون أهمية خاصة؛ لأنها شكّلت حديقة داخلية خلفية للدولة. ولم تحمل أهمية تتجاوز أمن شرق الأناضول.

أما بالنسبة إلى الإنكليز، فإن محافظة الموصل التي تسمى كوردستان العراق أو كوردستان الجنوبية تشكل منطقة فاصلة أو جداراً يحقق أمن الدولة التي كانوا قابِلَتَها التي ولّدتها، إضافة إلى كونها تأوي خزاناً نفطياً، وتشكل المنطقة التي تمتد بينها وبين بغداد خزاناً من الحبوب. تمرير الحدود العراقية – التركية من ذرى الجبال الشاهقة لتشكل جداراً أمام تركيا كان منطلقاً من هواجس أمنية عندما لم يتمكنوا من ضم حقاري إلى العراق باسم حمايتهم للمسيحيين النسطوريين. وقد سهل أمورهم اعتبار تلك الحدود حدود محافظة الموصل الإدارية في الفترة العثمانية تقريباً.

يمكن تلخيص هدف تركيا الأساسي في تلك الفترة بالرغبة في التقارب مع إنكلترا. وكانت تركيا في الوقت نفسه تحسب حساب تخفيض عدد الكورد المرشحين ليكونوا قوة يصعب ضبطها في المستقبل. وبالتالي، إنّ من مصلحتها أن تُقسم كوردستان. لهذا السبب، تقبلت تقسيم المساحة الجيوسياسية التي بقيت عموماً موحدة طوال التاريخ، ورحبت بترك محافظة الموصل... هذه حقيقة لم تدوَّن في التاريخ التركي الرسمي.

إنّ ابتعاد الدولة العثمانية عن إنكلترا التي كانت ضمانة وحدتها الترابية حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر جلب نهاية الدولة العثمانية. كانت تركيا الكمالية مع توجيه دفة قيادتها نحو التقارب مع إنكلترا من جديد. وإذا كان ثمن هذا الأمر هو التخلي عن محافظة الموصل، فإن مصطفى كمال ورفاقه تقبلوا فكرة دفع هذا الثمن. وقد أسمت الجزء المتبقي من كوردستان في تركيا "شرق الأناضول" و"جنوب شرق الأناضول"، وأخضعته لسياسة تتريك وتذويب قومي قوية.

من هذه الزاوية، إنّ مصير محافظة الموصل يعني إلى حد ما تنظيماً جديداً لكوردستان. مع بقاء محافظة الموصل في العراق تحت الهيمنة الإنكليزية لن يبقى كورد في تركيا، وسيعتبر الكورد أتراكاً. وعندما لم يُسمح لكورد محافظة الموصل بإقامة حكم ذاتي، ولم يعترف بكورديتهم، انتفضوا بقيادة الشيخ أحمد برزاني بعد دخول العراق عصبة الأمم كدولة مستقلة عام 1932.

قبل عدة سنوات من الفترة الممتدة بين عامي 1925-1926 عندما

عيش الانفصال، وأثناء السنوات الأولى من "الحرب الكبرى" ارتبط مصير كورد محافظة البصرة الذين بدأ يُطلق عليهم اسم كورد العراق بمصير أبناء قوميتهم. تأسس هذا الارتباط نتيجة عدم تطبيق اتفاقية "سيفر"؛ الاتفاقية الوحيدة المفروضة على الدولة العثمانية المهزومة في الحرب.

في نهاية مؤتمر باريس للسلام، فرضت على ألمانيا والنمسا - المجر (هابسبورغ) والدولة العثمانية مختلف المعاهدات. أشير إلى مبدأ الرئيس الأمريكي ويلسون "حق تقرير الشعوب مصيرها" في بعض بنود اتفاقية سيفر. كانت اتفاقية سيفر من بين تلك الاتفاقيات التي تعني تصفية الدولة العثمانية.

وُقِّعت اتفاقية سيفر في 10 آب 1920. المواد بدءاً من المادة الثانية والستين إلى الرابعة والستين من الفصل الثالث من الاتفاقية تضمن تأسيس دولة كوردية على الأرض التي يعيش عليها الكورد.

كانت المرحلة ستبدأ بتقديم الأهالي الذين يعيشون في المنطقة المسماة في الخريطة كوردستان طلباً إلى عصبة الأمم للانفصال عن تركيا، وتأسيس دولة مستقلة خلال عام من دخول الاتفاقية حيّز التنفيذ في حال تنفيذ بعض الشروط.

نصت المادة الرابعة والستون من اتفاقية سيفر أنه في حال تقديم السكان الكورد في المنطقة المحددة في المادة الثانية والستين والتي يشكلون فيها أغلبية طلباً للهيئة العامة لعصبة الأمم بالاستقلال عن تركيا، وتوصلت الهيئة إلى أنهم قادرون على إدارة أنفسهم، يمكن أن يُقدم اقتراح بتحقيق رغبتهم. في هذه الحالة، ستضطر تركيا لتنفيذ مضمون المقترح، وستعلن تخليها عن حقوقها كلها في المنطقة، وستقرر التفاصيل من خلال اتفاقية تعقد بين تركيا والقوى المتحالفة.

الحكم المصيري في المادة الرابعة والستين لاتفاقية سيفر هو أن الدولة الكوردية التي ستنشأ على الأرض التي ستتخلى فيها تركيا عن حقوقها إذا طلبت الالتحاق بالقسم الذي بقي مع محافظة الموصل لن تعترض الدول المتحالفة. وتتضمن المساحة المذكورة التي ستؤسس عليها الدولة الكوردية المستقلة الجزء الأكبر مما يسمى اليوم في تركيا جنوب شرق الأناضول، وجزء من شرق الأناضول. وبحسب اتفاقية سيفر، خصص جزء صغير من جنوب شرق الأناضول وجزء كبير من شرق الأناضول لتأسيس دولة أرمينيا المستقلة. أما الأرض التي ستلتحق بها الدولة الكوردية المستقلة إذا رغبت - ولن تعارض هذا الدول المنتصرة في الحرب - فهي كوردستان العراق؛ بما فيها

كامل محافظة البصرة تقريباً.

حرب الاستقلال التركية أسقطت اتفاقية سيفر. دفنت تركيا سيفر باتفاقية لوزان، وحصلت على وثيقة الشرعية الدولية للدولة القومية الجديدة التي حلت محل الدولة متعددة القوميات.

كان للدول العظمى دور حاسم بعدم ظهور دولة كوردية، إضافة إلى إلغاء النضال القومي لاتفاقية سيفر. لم تبقَ مادة خاصة على جدول أعمال الدول العظمى تسمى كوردستان المستقلة. (خريطة كوردستان بحسب أحكام اتفاقية سيفر)

"انتهت كوردستان. في آذار 1921، تهرب الحلفاء من وعود اتفاقية سيفر الغامضة. كانوا جاهزين لتطبيق الاتفاقية التي قالوا إنها تتعلق بالكورد في حال حدوث مستجدات. رفضُ أتاتورك للاتفاقية كلها، ونجاح تركيا بالمحافظة على الأرض الأرمينية، ووصولها إلى عتبة توقيع اتفاقية مع الاتحاد السوفييتي للتخلي له عن بقيتها هي المستجدات. يمكن للقوميين الكورد أن يعارضوا، ولكن لم تبق للحلفاء أي مصلحة من تأسيس دولة كوردية". (Margaret MacMillan, "Six Months that Changed the World", Paris, s. 449)

ويمكن رؤية دليل آخر على عدم اهتمام الإنكليز بالدولة الكوردية المستقلة؛ على عكس ما يدعي التاريخ الرسمي التركي في هذه الأسطر:

"كان هدف لوزان حل القضية التركية. فقد تأخر الوقت كثيراً على الأرمن، وترك الكورد. أُرسِل لورانس الكورد الرائد نويل عام 1919 من أجل تأسيس حركة كوردية مستقلة، وأعد تقريراً انفعالياً قال فيه: إن الحركة القومية حيوية، إلى درجة أنني لا أرى صعوبة بتأسيس دولة كوردية مستقلة تحت حمايتنا. ولكن أرنولد ويلسون لم يقتنع. لم يكن على قناعة بإمكانية توحد الكورد تحت قيادة واحدة. عزل نويل، وعين مكانه إيلي سون. وتحدث عن سون قائلاً: إنه واحد من أكثر الذين قابلتهم في حياتي تأثيراً. لم أكن أستطيع الاقتراب منه بسبب قوته النابعة من شخصيته فقط. اشتهر سون برحلاته إلى كوردستان مخفياً هويته، ثم غيّر دينه، واعتنق الإسلام الشيعي.

توصل سون أيضاً إلى النتيجة التي توصل إليها ويلسون... كانت إنكلترا بعيدة عن نية تأسيس دولة كوردية. كان لويد جورج يشتكي من عدم وجود قوة واحدة تمثل الكورد. كان يتحدث عن تحريض قوة معارضة كوردية لوضع تركيا في موقف حرج. ولكن، على الرغم من الانجراف وراء

العمل والتعقيد وأحكام اتفاقية سيفر والرغبات الشخصية لأمثال تشرشل وكروزن، اعتقد أن أفضل ما يمكن عمله هو استخدام هؤلاء لتقوية العراق". (Walter Reid, Empire of Sand ، مصدر سبق ذكره، ص 200-201)

لم تنشأ دولة كوردستان في الخرائط المعاد رسمها وضمن الحدود المعترف بها دولياً، ولكن عدم تأسيسها لم يمنع من ولادة القضية الكوردية وكبرها لكي تغدو أكثر قضايا الشرق الأوسط دموية وإيلاماً.

تحوّلُ القضية الكوردية إلى قضية مزمنة ودموية يمكن أن يكون سبباً لتأسيس دولة كوردية.

توصلت إلى هذه القناعة مع الزمن، وعبّرت عنها أول مرة في مقالتين متتاليتين في جريدة صباح عام 1995. وعبرت عن هذا الأمر بشكل صريح أمام الرأي العام لأول مرة في ندوة بعنوان "القضية الكوردية وطرق الحل" نظمت في اسطنبول في كانون الأول 2006. كنت جالساً بجوار هرانت دنك قبل اغتياله بشهر واحد. سأعلم بشكل مؤلم بعد شهر أن تلك كانت المرة الأخيرة التي أجلس فيها بجوار هرانت.

تحدث هرانت بعدي مباشرة. وهو أيضاً تحدث ارتجالياً. تأثرت بالأفكار التي عرضها، وانسجم كلامي مع ما قاله حول القضية الأرمنية والعلاقات التركية – الأرمنية. بدأ كلامه من حيث انتهيت، وبناه عليه، وقدم حديثاً وازى فيه بين القضيتين الكوردية والأرمنية؛ مبرزاً أهمية ظاهرة "التحول إلى الدولة".

كان طرحي مباشراً:

" في خريطة الشرق الأوسط التي رُسمت بعد الحرب العالمية الثانية، شكل الجميع دولاً قومية؛ ما عدا شعب المنطقة الكبير صاحب الخصوصية القومية [13] . كانت للأتراك دولة. وللعرب عدد كبير من الدول. وإيران موجودة بهويتها الثقافية الفارسية الشيعية في الحدود نفسها تقريباً منذ 2500 سنة. وحظي اليهود بدولة قومية باسم إسرائيل؛ بناء على الأرضية المتشكلة بعد الحرب العالمية الأولى. القضية الكوردية هي قضية عدم تأسيس دولة للكورد. لهذا السبب، ستبقى هذه القضية قائمة في الدول التي يتواجدون فيها؛ حتى يؤسس الكورد دولتهم أو تتغير الظروف؛ حيث تفقد الدولة القومية الكلاسيكية في النظام العالمي الجديد معناها، أو حتى يروا أن إحدى دول المنطقة تمثلهم، ولهم مكاناً فيها ويشاركون في سلطتها. إذا أُخذ بعين الاعتبار عيشهم كجماعات كبرى في كل من تركيا والعراق

وإيران وسورية، فإن القضية الكوردية ستستمر باعتبارها قضية الشرق الأوسط طالما بقيت من دون حل؛ أي طالما لم يحصل الكورد على دولة مستقلة ذات سيادة.

جلب العقد الأول من القرن الحادي والعشرين رؤى مهمة؛ خريطة الشرق الأوسط التي رُسمت بعد الحربين العالميتين. يمكن أن يعاد رسم خريطة أوروبا وأوراسيا في شريحة زمنية ما. مع طرح تأسيس دولة فلسطينية إلى جانب دولة إسرائيل التي تأسست في المنطقة الفلسطينية الممتدة من نهر الأردن إلى البحر المتوسط تحت الانتداب البريطاني، ولُد احتمال حصول الكورد على دولة.

يمكن اعتبار العراق الفيدرالي الذي ظهر بعد حرب عام 2003 نوعاً من الترياق للقضية الكوردية. لقد تشكل إقليم كوردستان العراق بكل مقومات الدولة - ما عدا الشخصية الاعتبارية - بعلمه وبرلمانه وحكومته وقوته الأمنية وضبطه للحدود وممثليه في الهيئات الدبلوماسية العراقية كلها، وبضمان الدستور. أصبحت الكوردية والعربية لغتي العراق الرسميتين بالتساوي. غير هذا، هناك كوردي على رأس النظام المركزي في بغداد، ووزير الخارجية الذي يمثل السياسة الخارجية العراقية كوردي.

إضافة إلى كوردستان العراق، لقد مثل الكورد أنفسهم في الدولة العراقية بهويتهم، وشاركوا في السلطة المركزية.

أما تركيا التي تضم نصف كورد العالم فقد دخلت مرحلة التوافق مع الاتحاد الأوروبي. وفي حال تطبيقها المعايير الأوروبية كلها، سيمتلك الكورد في تركيا حق وجودهم بهويتهم، وسيرون بنية تمكنهم من التمثيل في تركيا الديمقراطية الجديدة.

في مرحلة متقدمة، يمكن أن تتطور العلاقات بين تركيا والعراق على جسر كوردستان، وتتحول إلى ما يشبه "بنلوكس" بين هولندا وبلجيكا ولوكسمبورغ. ولن تكون الحدود بين الدولتين - خط بروكسل - سوى حدٍّ إداريٍّ على الخريطة فقط. وسيتوحد طرفا الحدود سياسياً واقتصادياً وتجارياً وثقافياً".

كان هذا طرحي باختصار. أنا أفكر على هذا النحو منذ عام 1995؛ أي قبل نشوب حرب العراق بسنوات طويلة. حققت الحرب إمكانية تحقيق هذه الفكرة وتحول طرحي إلى تطبيق عملي.

هذه فكرتي منذ عام 1995، ولكن بذورها زُرعت في مرحلة أزمة الخليج عام 1991؛ أثناء تشكيلنا - تورغوت أوزال وأنا - السياسة التركية

نحو القضية الكوردية. كان أوزال يحب الحديث في التاريخ، والإنارة على المستقبل كثيراً. ولأنه حظي بلقب كاسر المحرمات لم تكن ثمة منطقة محرمة في حديثنا. تحدثنا كثيراً في هذا الموضوع. لقد قال لي إن أتاتورك فكَّر بفيدرالية أو كونفيدرالية مع العراق.

رُوِّجت عن تورغوت أوزال شائعات غير صحيحة في موضوع دفاعه عن الفيدرالية من أجل حل القضية الكوردية. لقد راودته فكرة الفيدرالية أو الكونفيدرالية حول العراق الذي سيتأسس بمشاركة الكورد مع احتمال سقوط صدام.

لاحقت فكرة أتاتورك حول تأسيس فيدرالية أو كونفيدرالية مع العراق التي أعطاني رأس خيطها تورغوت أوزال. في عام 1980، نشرت المحاضر السرية للبرلمان الذي تأسس عام 1920، ولم يكن لدى أي شخص علم بفكرة أتاتورك هذه الواردة في الصفحة الأولى من المحاضر السرية.

بدأت أقرأ محاضر البرلمان السرية.

يوم السبت 24 نيسان 1920. إنه اليوم التالي لتأسيس مجلس الأمة الكبير (البرلمان). ورد في المحاضر السرية: "افتتحت الجلسة الرابعة للاجتماع الثاني عند الساعة 4:05. الرئيس: السيد شريف المحترم.

يقول الرئيس: "أفتتح الجلسة السرية". ورد في المحاضر السرية: "البيان الأول" وتحتها عبارة: "1. بيان حضرة مصطفى كمال باشا حول الأحوال الداخلية". وإثر قول الرئيس: "الكلام لحضرة السيد مصطفى كمال باشا". يصعد مصطفى كمال إلى المنبر، ويبدأ بإعطاء معلومات حول "الوضع الداخلي". أثناء عرضه للاتصالات حول ما تُرك في العراق وسورية، يقول الآتي:

"... تقوية روابطنا بالمسلمين في سورية لفتت نظر الأمير فيصل الذي يحاول تأسيس سلطنة هناك، ونظر حماته الفرنسيين. وبالنتيجة، هذا ما جعل رجال الأمير فيصل يتواصلون معنا. أريد أن أشرح هذه النقاط في لقاءاتنا الرسمية. بكل الأحوال، لقد اقتنع السوريون في النهاية بأن أي علاقة مع دولة أجنبية تعني أسراً. لهذا اتصلوا بنا، وقد توافقنا معهم أيضاً. قلنا إنه علينا ألا نهدر ثرواتنا التي ضمن حدودنا القومية للخارج. العالم الإسلامي كله يدرك أن في الاتحاد المادي والمعنوي قوة، ولا شك أننا سننظر للاتحاد بسرور كبير. وكما نريد أن نكون مستقلين داخل حدودنا، سيكون السوريون أيضاً مستقلين داخل حدودهم، والشعب أساس الحكم سيعيش مستقلاً وحراً. يمكننا أن نبني روابط فيدرالية أو كونفيدرالية تسمو

على خلافاتنا وتوافقاتنا... أما بالنسبة إلى العراق، فإن الأهالي منـزعجون جداً من معاملة الإنكليز لهم. لقد اتصلوا بنا قبل أن نحاول الاتصال بهم، وقالوا إنه لا يمكنهم أن يكونوا جزءاً من الدولة العثمانية كما كانوا سابقاً. ولكننا لم نقل لهم غير ما قلناه للسوريين. ليكن ما لديكم لكم (اكسبوا استقلالكم)، نحن نعمل على تحقيق استقلالنا. بعد هذا، لن يكون هناك أي مانع من وحدتنا...". (محضر جلسة سرية لمجلس الأمة الكبير، ص 3، مطبعة المجلس، أنقرة 1980)

يشرح مصطفى كمال في 24 نيسان 1920 بأن العناصر المنـزعجين من الفرنسيين في سورية، ومن الإنكليز في العراق تواصلوا معه حول الارتباط بتركيا. جواب القادة الكماليين: "نحن نخوض حرب استقلال. أنجزوا استقلالكم، ثم تعالوا لنتحدث". ما لم يقله لهم مصطفى كمال حول تصوره للمستقبل صرّح به لقيادات حرب الاستقلال في اليوم التالي لولادة البرلمان: في حال حصول تركيا وسورية والعراق على استقلالها، يمكن أن تحقيق اللقاء من جديد في إطار فيدرالي أو كونفيدرالي.

إذا لم تزل الحدود غير الطبيعية التي رُسمت بعد الحرب العالمية الأولى فسيبقى هذا الأفق قائماً. هكذا توصلت إلى هذه القناعة. ولعل القضية الكوردية يمكن أن تجد حلاً بتركيبة كهذه.

لا بد أنني أسافر في "قطار الرافدين السريع" طوال سنين، من دون أن أعرف في أي موقف سيتوقف، ومتى سيصل، وما هي آخر محطاته نتيجة اعتقادي هذا.

أثناء كتابة هذا القسم من الكتاب الذي يشرح كيف رُسمت الحدود التركية العراقية، نفذ حزب العمال الكوردستاني أقوى عملياته في "نقطة الحدود صفر" بتاريخ 19 تشرين الأول 2011. قتل أربعة وعشرون جندياً في الهجوم الذي شنه حزب العمال الكوردستاني على مواقع عسكرية في ناحية تشقورجة التابعة لحقاري. قالت أوساط حزب العمال الكوردستاني إن العدد أكبر من هذا بكثير. وقد حقق الهجوم صدمة قوية في تركيا. وازداد احتمال شن تركيا عملية عسكرية برية كبيرة "ما وراء الحدود".

طالب القوميون بدخول الجيش التركي إلى شمال العراق، وبقائه هناك، والذهاب حتى جبل قنديل حيث يقيم قادة الحزب، ورفع العلم التركي فوق قنديل.

تلقيت خبر الهجوم أثناء ذهابي إلى المطار للقاء وزير الخارجية أحمد داوود أوغلو الذي سيذهب إلى صربيا تلبية لدعوة له. وعندما خرجت من

البيت لأركب سيارة أجرة وجدت الطريق مقطوعاً. مرَّ موكب رئيس الجمهورية عبد الله غول من أمامي. بعد قليل، نشر تصريح عبد الله غول بأنه "سيؤخذ بالثأر". كانت تلك هي المرة الأولى التي يستخدم فيها عبد الله غول كلمة "ثأر". في طريقي إلى المطار، وصلني خبر إلغاء زيارة صربيا. أُلغيت زيارة رئيس الحكومة ووزير الخارجية إلى الخارج، وكان سيُعقد اجتماع أمني استثنائي. كان حاسوبي معي، لذا عدت إلى البيت وتابعت الكتابة.

في اليوم التالي المصادف 20 تشرين الأول، قدّمت الأركان العامة تصريحاً. عبرت قوة من القوات المسلحة التركية مؤلفة من 22 طابوراً وعشرة آلاف جندي بدعم جوي الحدود عند حقاري من خمس نقاط إلى "ما وراء الحدود" ودخلت إلى العراق. جاء نوشيروان برزاني على عجل إلى أنقرة. وصرّح طيب أرضوغان في مؤتمر صحفي قبيل لقائه نوشيروان برزاني أن "حزب العمال الكوردستاني انتحر"، وأنه قد دعا مسعود برزاني إلى أنقرة، وأنه سيقترح على نوشيروان برزاني مشاركة البشمركة في العمليات ضد حزب العمال الكوردستاني، وأنّ هناك اتفاقية أمنية ثلاثية بين تركيا والعراق وأمريكا، وأنه تحدث إلى أوباما في هذا الموضوع في الليلة الفائتة.

برزت المنطقة التي يحبس جمالها الأنفاس على ضفتي نهر زاب كساحة صدام بين القوات المسلحة التركية وحزب العمال الكوردستاني؛ مع أن الإنكليز مرروا الحدود من هناك لكي لا تدخل تركيا إلى العراق من الشمال. كانت ذُرى الجبال الشاهقة التي يمر منها خط الحدود جداراً أمنياً بنظر الإنكليز.

أما تركيا فقد أسست مخافر على الذُرى المقابلة على طرف الحدود من جهتها. كانت المخافر الوحيدة في تلك الجغرافية الموحشة تتعرض لهجمات حزب العمال الكوردستاني، والجنود الشباب يقدّمون خسائر كبرى بالأرواح. وعلى الرغم من انقطاعها الكبير عن البلد، إلاّ أنّ هذا الأمر شل البلد فجأة.

من وجهة النظر التركية، إن تلك الحدود نقطة ضعف أمنية ضد التسللات والاعتداءات.

أما من وجهة نظر حزب العمال الكوردستاني، فإن تلك الحدود ليست حدوداً بين دولتين مختلفتين. فطرفا الحدود بالنسبة إلى حزب العمال الكوردستاني هما كوردستان. وفضلاً عن أن تلك الحدود تمثل تقسيم كوردستان فهي لا قيمة لها بنظر حزب العمال الكوردستاني.

لم تعد لفظة كوردستان ترد على ألسنة أعضاء حزب العمال الكوردستاني، وحتى على ألسنة الكثير من كورد تركيا بدءاً من مطلع الألفية الثالثة. ولم تعد لفظتا تركيا والعراق تردانِ أيضاً. باتت ترد على ألسنة الجميع لفظتا الشمال والجنوب.

الشمال هو تركيا أو كوردستان تركيا. أما الجنوب فيعني كوردستان العراق.

بُسطت الكلمات التي تحمل معاني سياسية وتاريخية وجغرافية مثل تركيا، وجنوب الشرق، وشرناق، وحقاري، وبوطان، وبهدينان، والعراق، وكوردستان العراق، وصولاً إلى اصطلاح يتعلق بالبوصلة: شمال - جنوب.

كأن الحدود التركية - العراقية التي رسمت بعد الحرب العالمية الأولى ما بين عامي 1919-1925 بكثير من المغامرات قد مُحِيَت، وتحولت إلى مؤشر بوصلة؛ مؤشر بوصلة يشير إلى الشمال والجنوب.

XXII - "امتحان الكوردي بالنار"



لك طريقك ولي طريق. أما الطريق الصحيح، والطريق الحق، والطريق الوحيد؛ فليس ثمة شيء كهذا.

فريدريك نيتشه

قاطعت مراد قرة يلان عندما وصف بعض الممارسات في تركيا الاتحادية الجديدة وهو في نصف الساعة الأولى من حديثه الذي يعد افتتاحاً، وقلت: "أي الكمالية". رسم على وجهه تعبيراً جاداً، وقال: "لا. الكمالية والاتحادية ليستا الأمر نفسه". وتابع قائلاً: "الضربة الكبرى الأساسية للعلاقات التركية – الكوردية حدثت بعد تأسيس الجمهورية. انظروا إلى تعميم أماصيا، ومؤتمر سيواس 1921. سحب من المحاضر تصويت البرلمان عام 1922 على الحكم الذاتي.

لدى القائد آبو تحليلات مهمة في هذا الموضوع. آمل أن تكونوا قد قرأتموها. حاصرت عصابة من الاتحاديين مصطفى كمال. هي التي تتحمل ذنوب النظام. اليوم هؤلاء على نهج أولئك. لهذا السبب قلت اتحاديين جداً. فتح هذا الحديث على النحو التالي: ترك الإنكليز الموضوع في لوزان غامضاً. لعب فوزي تشقمق وعصمت إينونو وأمثالهما – لا نسمي هؤلاء

كماليين، فهم على نهج الاتحاد والترقي - دوراً سلبياً".

لم أستطع منع نفسي من التعليق على حديث قائد حزب العمال الكوردستاني في جبل قنديل على الحدود العراقية - الإيرانية عن مصطفى كمال أتاتورك الذي يشبه حديث طلاب الجامعات اليساريين في الستينيات والسبعينيات، وإبعاده عن الاتحاديين. لذا، قلت له راسماً على وجهي تعابير الجد: "الآن أفهم الأمور بشكل أفضل".

سأل مراد قرة يلان بتعبير دهشة واضح: "لماذا؟". أجبت: "كما تعرفون، اتفقنا على اللقاء البارحة. وعندما وصلت إلى السليمانية أول البارحة، علمت أن موعدنا قد تأجل. وكُتب لنا اللقاء اليوم. اليوم 11 تشرين الثاني. أدرك أنكم لم تستطيعوا لقاء أحد البارحة. كنتم مشغولين. احتفالات الذكرى...".

فهم قرة يلان ممازحتي بالتلميح إلى أنه في 10 تشرين الثاني تُحيى ذكرى وفاة أتاتورك في تركيا وممثلياتها في الخارج، ويمكن أن يكون حزب العمال الكوردستاني يُحيي هذه الذكرى بتأثير الأيديولوجية "الكمالية". ضحك ماراً على الموضوع.

طلبت مني جمعية الدراسات الاقتصادية والاجتماعية في تركيا (TESEV) قبل أشهر تحضير تقرير حول موضوع تخليص حزب العمال الكوردستاني من العنف، أو بتعبير آخر تجريده من سلاحه. وافقت على الاقتراح الذي نقله إليّ إتين محجوبيان فوراً. دعمني جان باكر رئيس (TESEV) بعمل دراسة كهذه. كنت مضطراً لإجراء عمل ميداني، ولقاء شريحة واسعة تمتد من المسؤولين في الدولة إلى قادة حزب العمال الكوردستاني من أجل أن يخرج التقرير جيداً وخاصاً. كنت بحاجة إلى مرحلة هدنة من أجل البدء بعملي. تحركت مع دخول هدنة حزب العمال الكوردستاني في أيلول 2010، ورسوخ توقف الاشتباكات.

أثناء لقائي عبد الله غول في شهر آب في اسطنبول، أبلغته أنني سأذهب إلى جبل قنديل. يوم لقائي مراد قرة يلان، أبلغ جان باكر رئيس (TESEV) رئيس الحكومة طيب أرضوغان أنني سأكون في قنديل مع قرة يلان.

أحدث التقرير المنشور على الرأي العام في 12 حزيران 1911 بعد أسبوعين تقريباً من الانتخابات العامة، والمعنون "النـزول من الجبل - كيف يترك حزب العمال الكوردستاني السلاح؟ تخليص القضية الكوردية من العنف" [*14*] أصداء قوية. تحقق في ذلك اليوم ما لم يتحقق من قبل، اعتمدتِ

النتائج الواردة في التقرير ومقترحات الحل على مخزون سنين وقراءة آلاف الصفحات ولقاءات شخصية مع شريحة واسعة وصلت إلى حوالى أربعين شخصاً يمتدون من مسؤولين في الدولة والحكومة والجيش إلى قادة حزب العمال الكوردستاني. وردت عناصر لافتة كثيرة في التقرير؛ على رأسها إبراز ضرورة إجراء "تغيير جذري" في القضية الكوردية، واعتبار حزب العمال الكوردستاني "آخر انتفاضة كوردية، وأكبرها وأكثرها استمرارية" في تاريخ تركيا وليس قضية إرهاب. ويؤكد التقرير أنه لا يمكن فصل القضية الكوردية عن حزب العمال الكوردستاني، وأن المنظمة "جزء لا يتجزأ" من القضية الكوردية.

وبالطبع، إن التقرير يستبعد "الحل العسكري" والسياسة التي تعطي أولوية للبعد الأمني.

برزت في تلك المرحلة توقعات حل القضية الكوردية سياسياً، واستفادة الحكومة من التقرير الذي تعرف كيف حصلتُ على معلوماته. عدد كبير من أعضاء الحكومة، وحتى رئيسها طيب أرضوغان قدروا جهودي.

ولكن، بعد شهر من الانتخابات، وأسبوعين من نشر التقرير انقلب كل شيء، وخيّم جو العنف؛ إلى درجة دفعت طيب أرضوغان والحكومة إلى الأساليب التقليدية بحزم. أُعطيتْ أولوية للسياسة الأمنية، وتحوّل التقرير الذي يحمل توقيعي بشكل تلقائي إلى عنصر "ضار" يتعارض مع أولوية سياسة الحكومة. سدت قنوات اتصالي بشكل تلقائي مع رئيس الحكومة. ومن جهة أخرى، أخافتني موجة الاعتقالات التي طالت "اتحاد المجتمعات الكوردستانية/ KCK " التي تمثل النفوذ السياسي لحزب العمال الكوردستاني في تركيا.

مع أن الوضع حتى خريف عام 2010 مختلف. فقد كان الطريق مفتوحاً أمام مبادرات الحل السياسي للقضية الكوردية. التقيت مراد قرة يلان وبعض القادة المنفصلين عن حزب العمال الكوردستاني في جو كهذا.

لم أكن أول من يذهب من تركيا إلى جبل قنديل للقاء مراد قرة يلان، ولكنني أول من ذهب بواسطة رئيس جمهورية العراق جلال طالباني، ومن دون تواصل مع أي قناة مباشرة من قنوات حزب العمال الكوردستاني. لهذا لم أذهب إلى قنديل من طريق أربيل، بل اخترت الذهاب عن طريق السليمانية. كان دليلي كوردياً عراقياً من طرف طالباني، وهو عضو سابق في الحزب الشيوعي العراقي، ومؤيد لحزب العمال الكوردستاني. وكان سائق سيارة الجيب ذات الدفع الرباعي أحد قادة بشمركة الاتحاد الوطني الكوردستاني لسنوات في قنديل. خلفنا سيارة جيب دفع رباعي مليئة

ببشمركة الاتحاد الوطني الكوردستاني لحمايتنا. عبرت نقاط التفتيش على الطريق بسهولة كبيرة، ومع التحية لأنها تابعة للاتحاد الوطني الكوردستاني. وصلنا إلى نقطة تفتيش حزب العمال الكوردستاني بعد أن عبرنا المنطقة الفاصلة بين سفوح قنديل وكورتك على المحور الشمالي – الجنوبي.

الطريق بين رانيا وسوران مفتوح للجميع، ولكن نقطة تفتيش حزب العمال الكوردستاني على الجهة اليمنى التي تبدأ الأراضي الإيرانية بعد ذراها التي تشغل مساحة واسعة على المحورين الجنوبي – الشمالي والشرقي – الغربي وتسمى جبل قنديل تظهر بوضوح. رُسمت على السفح صورة ضخمة لعبد الله أوجلان بالحجارة السوداء والبيضاء. وهناك صور لعبد الله أوجلان وأعلام حزب العمال الكوردستاني في نقاط التفتيش أيضاً...

بقي مرافقويّ على بعد عدة كيلومترات. انطلقتُ بشاحنة صغيرة لا تحمل سوى أعضاء حزب العمال الكوردستاني، وانعطفنا قرب السفح المرسومة عليه صورة عبد الله أوجلان إلى أعماق قنديل، وسرنا عشرين دقيقة تقريباً عابرين سلسلتي جبال ووديانا سحيقة.

نزلتُ من الشاحنة في نقطة عرفت أنها كانت مقر القائد الأسطوري للحزب الديمقراطي الكوردستاني الإيراني الدكتور عبد الرحمن قاسملو. سرت في درب ضيق. كان مراد قرة يلان ينتظرني باسماً أمام خيمة صغيرة. وكان حوارنا الممتد ست ساعات ونصف الساعة مهماً جداً للتقرير الذي أعددته.

كان حوارنا الطويل والصريح مفيداً جداً على صعيد فهم تاريخ حزب العمال الكوردستاني، وخصوصياته المميزة، وطريقة تفكير المسؤول في أعلى موقع، ورؤيته. أثناء شرح قرة يلان لتحولات حزب العمال الكوردستاني، قال: "كنا في يسار السبعينيات، وفهمنا تحت تأثير الاشتراكية الواقعية أن حق تقرير المصير يتضمن حق الانفصال. استمر هذا الفهم حتى عام 1993. انتهت الحرب الباردة، وتفكك الاتحاد السوفييتي في عام 1991 واهتممنا بالعمل القانوني في تركيا". وشرح أن حزب العمال الكوردستاني ترك مع الزمن هدف "كوردستان المستقلة".

عندما قال: "كنا نعتبر الاتحاد السوفييتي منحرفاً، لذا لم يهزنا انهياره. وتعلمنا درس الاعتماد على قوتنا الذاتية". تدخلت قائلاً: "أي اعتماد على القوة الذاتية؟! أما كنتم تعتمدون على سورية؟". أجاب قرة يلان: "لم يكن بيننا وبين سورية موضوع نقود. كانت علاقة خاصة. دعم حافظ الأسد لنا ناجم عن مشكلته مع تركيا في قضية المياه. وأسس القائد (عبد الله أوجلان) علاقة صداقة جيدة مع جميل الأسد. كان جميل الأسد يحبنا،

ويثق بنا. ولكن سورية لم تمنحنا في أي وقت بطاقة هوية".

عرج مراد قرة يلان على أول هدنة أعلنها حزب العمال الكوردستاني قبل وفاة تورغوت أوزال بشهر. الواضح أن قيادة حزب العمال الكوردستاني علقت آمالاً كبيرة على هدنة عام 1993: "كانت هدنة عام 1993 فرصة مهمة جداً على صعيد حل القضية. وفاة تورغوت أوزال فوتت هذه الفرصة. القائد آبو هو أول من قال إن تورغوت أوزال قد قتل. نحن في تلك المرحلة توصلنا إلى ضرورة حل القضية الكوردية مع تركيا داخلها. كان ذلك التحول مهماً. مرّت ثمانية عشر عاماً. أين الانفصالية؟ من الانفصالي؟ منذ ثمانية عشر عاماً ونحن نسعى لحل القضية من دون سلاح؛ على الرغم من أن السلاح أداة. في العام 1995 عقد مؤتمر التحول؛ إذ انتقلنا من مطلب الانفصال إلى الفيدرالية. ومع مرحلة عام 1995، أجرينا تحولاً جذرياً". بعد هذه الكلمات، قال: "استمر مفهوم العنف لدينا حتى عام 1999؛ تحت تأثير الاشتراكية الواقعية". وقدم لي تفسيرات فلسفية مطولة حول مفهوم العنف، ثم أضاف: "نعم للعنف في حال الدفاع المشروع عن النفس".

قلت لقرة يلان إنّ النضال المسلح لم يعد له معنى في النقطة التي وصل إليها حزب العمال الكوردستاني. توقف لحظة، وأجاب باسماً: "نحن قوة قادمة من حركة مسلحة، ونحافظ عليها باعتبارها قوة دفاع. نحن في الشرق الأوسط، لا يمكننا ترك السلاح خارج المعادلة". بعبارته: "إذا فتحت الدولة التركية المجال أمام نضال الشعب الكوردي الديمقراطي والسياسي تماماً، ولم تستمر بسياسة الإنكار فسيفقد السلاح معناه". أراد أن يوضح الظروف التي يمكن لحزب العمال الكوردستاني بموجبها ترك السلاح. وأكد مراد قرة يلان أنه خارج هذه الظروف، يمكن لحزب العمال الكوردستاني أن يتخلى عن السلاح في حال أصدر عبد الله أوجلان تعليمات بهذا الخصوص.

مع نهاية عام 2010، حدد مراد قرة يلان الهدف الاستراتيجي لحزب العمال الكوردستاني الذي لا يمكن أن يتخلى عنه: "تركيا ديمقراطية – كوردستان إدارة ذاتية". وقال: "ثمة مشكلة دستورية. يمكن أن تقبل الهوية الكوردية في الدستور، ولكننا نسمي عيش الثقافات معاً إدارة ذاتية. في عالم اليوم، تضعف البنية المركزية وتُقوى البنى المحلية. يجب أن يتضمن الدستور تركيا الديمقراطية، وكوردستان ذات الإدارة الذاتية. يمكننا مناقشة هذا. نحن نتحدث عن مجتمع منفتح على الثقافات كلها". ثم أضاف: "لتكن هناك ديمقراطية وإدارة ذاتية. وأنا، أعني نحن موافقون على البقاء

في المنفى. يمكننا أن نتحدث بهذا في إطار عفو. نحن انطلقنا في سبيل قضية. لتأت الديمقراطية والإدارة الذاتية، وسيأتي ما تبقى". معطياً رؤوس الخيوط لحدود المساومة الممكنة مع تركيا.

أما توضيحه بأن "الديمقراطية والإدارة الذاتية لا تتعارضان مع وجود قواعد للجيش التركي في كوردستان" فقد ورد كملاحظة غريبة. على الرغم من هذا، فهو لا يحب كلمة عفو. قال: "نحن لا نستخدم كلمة عفو. الدولة أخطأت بإنكارها. كان يُراد إزالة شعب جذوره ضاربة في أعماق التاريخ. الإنكار سبب المشكلة. وفوق هذا، نُفذت إعدامات من دون محاكمة، ووقعت جرائم مجهولة الفاعلين. إذا عفت الدولة عنا فمن سيعفو عن مرتكبي الجرائم مجهولة الفاعلين. نحن أيضاً ارتكبنا أخطاء بحق المدنيين. نعتذر عن هذا. ونحن نستعد لكشف هذه الأمور. يمكن تأسيس لجنة حقيقة وعدالة. هناك مثلها في جنوب أفريقيا. يمكن أن تُشكّل لجنة من العقلاء والحقوقيين والمثقفين المستقلين الذين نقبل بهم...".

أثناء حديثي مع قرة يلان الذي استمر ساعات في قنديل، عرّج على مجموعة حزب العمال الكوردستاني التي حاولت العبور من باب الخابور الحدودي في بداية مرحلة الحل قبل فترة قصيرة، وبدأ حديثه قائلاً: "هذه أول مرة أتحدث فيها عن الموضوع. طلب الرئيس (طيب أرضوغان) إرسال هيئة من قنديل. قمت بحركة من أجل تقوية موقفه. أنا حددت أنهم سيدخلون من الخابور. شنوا هجوماً على الخابور. تحملوا يومين. لا علاقة لنا بما جرى في الخابور. إنها المرة الأولى التي يرى الشعب فيها الفدائيين يعودون أحياء. كان ذاك انفجار فرح. لم يستطيعوا فهم هذا". بعد أن قدم هذا التقييم، أنهى الموضوع بقوله: "الحل يحتاج إلى القليل من المخاطرة".

يرى مراد قرة يلان تركيا مركز حل القضية الكوردية؛ قضية الشرق الأوسط. وبالتالي، القضية ذات البعدين الإقليمي والدولي. قال حول هذا الموضوع: "الحل يجعل نجم تركيا لامعاً في المنطقة. ستغدو تركيا قائدة المنطقة إذا حلت القضية الكوردية. حينئذ ستطرق إيران وسورية باب الحل. الحل في تركيا. ليأت الحل، وبعده يسهل الحل في حلقتي إيران وسورية. يكفي أن تحل تركيا القضية".

á á á

بعد عدة أشهر، في نهاية شباط من عام 2011 فاجأني جلال طالباني أثناء الغداء في القصر الرئاسي بسؤال: "كيف وجدت "جمال"؟". جمال هو الاسم الحركي لمراد قرة يلان.

قلت لطالباني: "قرة يلان هو الشخص الثاني الذي التقيته من قادة حزب العمال الكوردستاني الكبار؛ ما عدا المنشقين. وهناك عبد الله أوجلان. كما تذكر، التقيته لمدة أربعين أو خمس وأربعين دقيقة في بلدة بر إلياس اللبنانية في آذار 1993 عند إعلان أول هدنة ساهمتَ فيها أنت. وقضيتُ مع مراد قرة يلان ست ساعات ونصف الساعة. كان اللقاء في قنديل هو اللقاء الثاني المباشر بعد سبعة عشر عاماً. لم أتعرف إلى الآخرين خلال هذه الفترة. لم ألتق أحداً وجهاً لوجه. سمعت وقرأت الكثير عنهم. النتيجة التي استنبطتها من كل هذا هي: يبدو أنه أفضل من يتكلم من جماعة أوجلان خارج السجن، وأكثرهم معقولية".

تدخل جلال طالباني: "هذا ما توصلنا إليه نحن أيضاً. سررت بأنك توصلت إلى الحكم نفسه". ولم يضبط نفسه عن المزاح بروحه المرحة المألوفة، فقال: "المسؤول عن ذلك الخط السيئ ليس منا، بل منكم!".

قصده من كلمة نحن التي استخدمها بتقييمه لمراد قرة يلان هو القيادة الكوردية. ويقصد من تعبير الخط السيئ ما يدّعى أنه جناح الصقور من حزب العمال الكوردستاني. وقصده من كلمة منا أي الكورد، ومنكم أي الأتراك في عبارة "ليس منا، بل منكم". كان ضوران قالقان أحد مؤسسي حزب العمال الكوردستاني، وممثل الصقور تركياً علوياً وليس كوردياً.

فهمت النكتة المشفّرة، وقلت: "حسنٌ، نتحمل نحن الأتراك ذنبه أيضاً". وضحكنا.

من المشكوك به أنه عرّف حزب العمال الكوردستاني بشكل صحيح في هذا الحوار القصير المحمل بالإيحاءات. بقي حزب العمال الكوردستاني حتى الربع الأول من عام 2011 لغزاً، حتى بالنسبة إلى أكثر الذين يعرفونه من الخارج.

من خلال لقاءاتي التي حافظت على سريتها مع كبار رجال الدولة بمن فيهم رئيس الجمهورية، ووزيرا الداخلية والعدل، ومستشار المخابرات القومية من أجل إعداد تقريري الذي أمضيت بإعداده سنة كاملة توصّلت إلى نتيجة مفادها أن الدولة التركية أيضاً لا تعرف حزب العمال الكوردستاني كما يجب؛ على الرغم من أنها تقاتله منذ ما يزيد عن ثلاثين سنة.

من المدهش عدم إعداد بحث أكاديمي أو رصين حول حزب العمال الكوردستاني الذي يُعتبر الطرف الأبرز في القضية الكوردية في مرحلة الصراع المسلح التي فَقَد فيها أربعون ألف مواطن حيواتهم. جهل المنظمة التي تعتبرها الدولة والرأي العام خصم الدولة التركية الأول مؤشر رهيب على

قصور المعلومات.

النخبة التركية المنخرطة في القضية الكوردية على مدى أربعين سنة كالدولة؛ تجهل حزب العمال الكوردستاني أيضاً.

قصتي الشخصية مع حزب العمال الكوردستاني التي مرت من مراحل مختلفة تشبه قصة الكثير من المثقفين الأتراك المهتمين بالقضية الكوردية. بدأت رؤانا حول حزب العمال الكوردستاني وقائده عبد الله أوجلان بشكل متشابه، وشهدت تحولات عبر الزمن، ووصلنا إلى نتائج مختلفة في مراحل مختلفة.

سمعت باسم عبد الله أوجلان – قبل أن أعرف كنيته – بعد دخول العفو السياسي حيز التنفيذ في أواخر عام 1974، وانتهاء فترة منفاي في الشرق الأوسط وأوروبا التي دامت ثلاث سنوات، وعودتي إلى تركيا. كان طلاب الجامعات من اليسار التركي الذي سحقته مرحلة 12 آذار قد بدأوا بالتجمع من جديد. تأسست في أنقرة رابطة طلاب التعليم العالي الديمقراطية، وكان رئيسها عبد الله أوجلان. وقد شهدت سخرية بعض طلاب رابطة طلاب التعليم العالي وقولهم "حزب عبد الله الشيوعي".

سنعلم في ما بعد أن حجر أساس حزب العمال الكوردستاني قد وضعته مجموعة من الطلاب اليساريين الملتفين حول عبد الله أوجلان. كان هناك طلاب ليسوا كورداً في النواة الأولى لحزب العمال الكوردستاني. أفضل من يشرح مرحلة ولادة حزب العمال الكوردستاني وخصوصياته التي أثّرت فيه دائماً هو م. جان يوجة؛ من أوائل الكوادر القيادية لحزب العمال الكوردستاني، وانشق عنه عندما خيبت أمله تصرفات عبد الله أوجلان إثر اعتقاله عام 1999. كتابه "الشمس الصاعدة في الشرق" في جزأين الذي ألّفه قبل انشقاقه ليبجّل عبد الله أوجلان قدم معلومات هامة حول ظروف نشأة حزب العمال الكوردستاني، وجذوره الأيديولوجية وخصائصه الأساسية:

"ثمة تحركات ما في كوردستان الجنوبية في مطلع السبعينيات، وانعكاسات لها في الشمال. على سبيل المثال، بدأ السعيدان – سعيد ألتشي وسعيد قرمزي طوبرق (د. شيفان) – مؤسسا الحزب الديمقراطي الكوردستاني في تركيا بفعاليات تنظيمية في الجنوب. بدا د. شيفان أكثر راديكالية؛ فقد أراد التحرك في حقاري. ولكن برزاني لم يوافق، وحاول منعه. كان ذلك استفزازياً. قُتل سعيد ألتشي. وقتل برزاني الدكتور شيفان. بعدئذ، وصل إلى رئاسة الحزب الديمقراطي الكوردستاني في تركيا عميل للمخابرات التركية يدعى درويش سادو.

لم يتأثر الرئيس (عبد الله أوجلان) كثيراً بهذه التطورات الجارية حول الحزب الديمقراطي الكوردستاني، واكتفى بالمراقبة. هذا كل شيء.

لم ينخرط في جمعيات كورد الشرق الثورية؛ على الرغم من علاقته بها في تلك الفترة. لم يكن هذا التنظيم يجذبه.

لهذا السبب، لم يكن للكورد القوميين البدائيين أو الإصلاحيين تأثير مهم في انطلاقة حزب العمال الكوردستاني، ولم يخرج هذا الحزب من الحركة القومية، وكانت الحركة الثورية في تركيا نقطة انطلاقه.

لم يُعرَف ما إذا كانت هذه المجموعة التي يقودها آبو كوردية أم يسارية تركية حتى عام 1975. بدأ الانفصال، وبروز الهوية القومية الكوردية في المرحلة التي تلت عام 1975...

ثمة أهمية وخصوصية لخروج الرئيس آبو من الحركة الثورية التركية وليس من المجموعات الكوردية، وأخذه أول غذاء نظري وسياسي منها. هذه خصوصية ولادة...". (م. جان يوجه منشورات زلال، اسطنبول، كانون الثاني 1999، ص 206)

سأرى استمرارية خصوصية الولادة هذه من خلال الاحترام الذي أبداه لي مراد قرة يلان في جبل قنديل في تشرين الثاني عام 2010. قال لي إنه يعرفني "باعتباري أحد قادة طلاب جيل 1968، وقد دخلت صفوف حركة التحرر الفلسطيني في مرحلة 12 آذار". وقال: "إنكم تعدّون من الجيل الذي سبقنا، وكنتم مثلنا في تلك السنوات". حينئذ انتبهت إلى أن كلمات مراد قرة يلان تلك ستسهل كثيراً حوارنا الذي امتد ست ساعات ونصف الساعة.

تأسس حزب العمال الكوردستاني باسمه عام 1978. وبدأ نضاله المسلح عام 1984. ولا بد أنه صار معروفاً خلال السنوات الست تلك؛ مما جعلني أقتفي أثره خلال زياراتي المتكررة للشرق الأوسط. على سبيل المثال، ذهبت إلى دمشق عام 1981، والتقيت شخصية سياسية كوردية بواسطة الكوادر القيادية الفلسطينية. لم أعد أذكر ما إذا كان الكهل الكوردي الذي يعيش في دمشق ويقال إنه يعرف الأوساط السياسية الكوردية جيداً سورياً أم عراقياً. عندما سألته عن حزب العمال الكوردستاني الذي قيل إنه اتخذ من سورية مقراً له، ويحاط بهالة من السرية لم أحصل منه على أي جوابٍ شافٍ. غير هذا، لم أر ما يترك لديّ انطباعاً بأنه يخفي عني شيئاً. الرجل الذي لا يُشك بمعلوماته حول الأوساط الكوردية السياسية في دمشق لا يعرف حزب العمال الكوردستاني، وقد سمع باسمه ولكنه لم يلحظ أنه

تنظيم يستحق الوقوف عنده أو له نشاط ملحوظ.

عاد الحديث عن حزب العمال الكوردستاني مع أول عملية نفذتها القوات المسلحة التركية وراء الحدود في الأراضي العراقية في أيار 1983. إذ دخل الجيش إلى كوردستان العراق من أجل إزالة حزب العمال الكوردستاني الذي لم يبدأ عملياته المسلحة بعد. كان نظام 12 أيلول العسكري على رأس عمله، ومن المستحيل معرفة ما يجري حقيقة. لذا، كان ينبغي الاكتفاء بالبيانات العسكرية. كنت في تلك الفترة أعمل في جريدة جمهوريت وأمضي الوقت في لبنان وإيران ومختلف مناطق الشرق الأوسط. طلب مني رئيس التحرير حسن جمال الذهاب إلى إيران لمعرفة أسرار "عملية ما وراء الحدود".

فور وصولي إلى طهران نزلت في بيت صديقي الشيعي اللبناني السيد هاني فحص. شرحت له سبب زيارتي، فقال لي إنّ السيد هادي مدرسي عراقي الأصل والذي لديه علاقات جيدة مع النظام الإيراني يملك معلومات مخابراتية مهمة، ودعا مدرسي إلى بيته. جاء مدرسي مع مجموعة من مريديه كما اعتاد، وجلس متربعاً على الأرض كعادته أيضاً، وخضنا في حديث حار. ولكن السيد هادي مدرسي أيضاً لم تكن لديه معلومات ملموسة. كان على علم بأن قائدي الحزب الديمقراطي الكوردستاني العراقي إدريس ومسعود برزاني يقيمان في مدينة كاراج القريبة من طهران. يمكن الحصول على معلومات منهما إذا كانا هناك حتى ذلك الوقت.

عدت من طهران خالي الوفاض تقريباً.

بعد ثلاثين سنة، وأثناء إعدادي تقرير "جمعية الدراسات الاقتصادية والاجتماعية في تركيا/ TESEV " حول حزب العمال الكوردستاني علمت من أحد المصادر بما حدث في العملية التي خاضتها تركيا في الأراضي العراقية لسحق حزب العمال الكوردستاني وهو لا يزال في المهد.

أمن لي كتاب صلاح الدين تشليك أحد قادة حزب العمال الكوردستاني الأوائل المنشق عنه في ما بعد المعنون "نقل جبل أغري – مقاومة الشعب الكوردي المعاصرة، ونتائجها السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية" الصادر في تموز عام 2000، معلومات مهمة بحثت عنها قبل ثمانية وعشرين عاماً ولم أجدها حول حزب العمال الكوردستاني:

"... تحرك الجيش التركي من أجل كبح حركة حزب العمال الكوردستاني الذي لا تُعرَف خصوصيته تماماً. حشد قواته في الأيام الأولى من أيار عام 1983 على حدود "أولو درة"، "تشوكورجة"، "يوكسك أوفا"، شميدينلي". حفر

الجنود حفراً في الثلج على طرف خط الحدود الشمالي في منطقة "أولو درة"، ووضعوا فيها قرويي قرية هدريش بمن فيهم الشيوخ، وتركوهم على هذه الحال ساعات. بمبادرة ذاتية، أوقع القرويون وحدة عسكرية في كمين، وقتلوا ستة عسكريين بينهم ضابط. تذرع الجيش بهذه الحادثة، ودخل كوردستان الجنوبية في العاشر من أيار.

دخل الجيش التركي إلى مسافة لا تتجاوز عشرة كيلومترات. كان قادة الجيش يوجهون أوامرهم للحزب الديمقراطي الكوردستاني بالانسحاب من الحدود وبعدم حماية حزب العمال الكوردستاني. قُتل في الاشتباكات أثناء العملية جندي شاب من شمدين بقي في معسكر الحزب الشيوعي العراقي...

كانت نتائج العملية لصالح حزب العمال الكوردستاني. انسحاب القوى الجنوبية من الحدود وسّع من ساحة حركة حزب العمال الكوردستاني. وكان الجيش التركي يتحرك انطلاقاً من مواقف مسبقة حول حزب العمال الكوردستاني، ويتوقع أنه سيدخل باشتباكات عنيفة. أما حزب العمال الكوردستاني فلم يكن راغباً بالاشتباك لأنه تمترس حديثاً في المنطقة، وبدأ للتوّ بتوزيع عناصره في الشمال. وقد نجح بإرسال مجموعاته كلها إلى الشمال من دون أن يفقد أي عنصر منها...

وأنزل حزب العمال الكوردستاني وحدات للتحضير من أجل عمليات مسلحة دعائية في تشوكورجة، يوكسك أوفا، شمدينلي، أولو درة، بيت الشباب، شرناق، سيلوبي، إروه، جيزرة، سيرت، برواري، تشاطاق، شيروان، صاصون، موش، سيلوان، ميدياط، نصيبين، إيديل، ديريك، فيرانشهير، ماردين، ديار بكر، تشرميك، بنغول، درسيم، إلظاغ، إرظروم، قارص، أغري، وان، باشقلعة...". (صلاح الدين تشليك، نقل جبل أغري، تموز 2000، " Zambon Verlag "، فرانكفورت، ص 69، 70)

بعد سنة من هذا التطور، بدأت عمليات حزب العمال الكوردستاني المسلحة بمداهمات إروه وشمدينلي عام 1984. كان كاتب السطور أعلاه أحد متخذي قرار النضال المسلح. هذه الأسطر من الكتاب نفسه قيّمة ومهمة:

"أخيراً، في 22 تموز 1984 اتخذ القرار المنتظر بفارغ الصبر. اتخذ القرار خلال الاجتماع المنعقد بحضور عباس (ضوران قالقان)، فؤاد (علي حيدر قايطان)، فاطمة (كثيرة يلضرم)، أبو بكر (خالد أطاتش)، جمعة (جميل بييق)، سليم (صلاح الدين تشليك) على ضفة نهر لوان في منطقة لوان

على حدود كوردستان الجنوبية مع كوردستان الشمالية والشرقية. ما زال جميع الذين اتخذوا هذا القرار في ذلك الاجتماع أحياء". (تشليك، المصدر السابق، ص 73)

عندما بدأ حزب العمال الكوردستاني نضاله المسلح في 15 آب بمداهمات إروه وشمدينلي لم يفهم أحد في تركيا أن هذا أطول التمردات الكوردية، وأكثرها اتساعاً، وأعمقها، وأكثرها تعقيداً في تاريخ تركيا. إذا نظرنا إلى الخلف انطلاقاً مما وصلت إليه أبعاد التمرد المسلح، فأنا أعتقد أن الذين انتقدوا تورغوت أوزال، ووصفوه بالتراخي فعلوا هذا انطلاقاً من أسباب سياسية أكثر من موقف صحيح صادق.

منذ بدء النضال المسلح، ومع تصاعده، شخَّصته تركيا إرهاباً. واعتبر حزب العمال الكوردستاني "منظمة انفصالية إرهابية"، وأعضاؤه إرهابيين وقطاع طرق.

حمَل حزب العمال الكوردستاني السلاح بطموح "قومي كوردي شامل" لتحقيق "كوردستان المستقلة"، أي إن الهدف النهائي المعلن يجعله بهذه الصفات، واكتسب مشروعية لدى الرأي العام تحت تأثير الدعاية التي تتخذ من الحرب أداة لها.

حرب الدولة الدعائية والعقلية الإعلامية التي تستخدم هذه الصفات من دون التمحيص في دقائق الأمور جعلت كلمة كوردي مرادفة لكلمة انفصالي، وعبارة القضية الكوردية مرادفة لكلمة انفصالية، وألصقت صفات مثل إرهابيين، منظمة إرهابية انفصالية، قطاع طرق بحزب العمال الكوردستاني وأعضائه، وانطلاقاً من الضحايا الذين سقطوا في الصراع المسلح، وألصقت بعبد الله أوجلان عبارات: قاتل الأطفال، وكبير الإرهابيين، وكبير الانفصاليين؛ حيث لا يمكن محوها بسهولة.

لعلني ابتعدت عن حزب العمال الكوردستاني وأعضائه بسبب هذه الدعاية، والانطباع العام لدى الرأي العام. كنت كثيراً ما أذهب إلى لبنان، ولكن رحلاتي إلى هناك كانت تتعلق "بقضية الشرق الأوسط" وبشكل خاص "القضية الفلسطينية" وليس "القضية الكوردية". ولم أحاول لقاء عبد الله أوجلان المقيم بين دمشق والحلوة قرب الحدود، في نقطة قريبة من معسكر الحزب في البقاع على بعد ساعة أو ساعة ونصف الساعة عن بيروت.

في النصف الثاني من الثمانينيات، كسر محمد علي بيراند حصار الإهمال على أوجلان وحزب العمال الكوردستاني. بعده أجرى الكثير من

الصحفيين الأتراك لقاءات صحفية مع عبد الله أوجلان. لم يتأثر ابتعادي وعدم اهتمامي بهذه التطورات. لم يكن لعبد الله أوجلان وحزب العمال الكوردستاني مكان في رحلاتي المتكررة إلى بيروت.

عندما كنت أذهب إلى بيروت، كنت غالباً ما أنزل في بيت صديقي ميشال نوفل. في مطلع آذار من عام 1991، قابل ميشال نوفل مجموعة من أعضاء حزب العمال الكوردستاني في مكتب وكالة الأنباء الفرنسية، وقال لهم إنني مقيم عنده، ويمكنهم أن يلتقوني من أجل الإعداد لحوار مع عبد الله أوجلان، ودعاهم.

لم أُسرَّ من فرض أمر واقع كهذا عليّ. لم يكن حزب العمال الكوردستاني وأوجلان يشغلان حيزاً في ذهني. عندما لعبتُ دوراً بالتواصل بين أوزال وطالباني، كان من بين أهدافي حل القضية الكوردية خارج توازنات حزب العمال الكوردستاني. إلى جانب هذا، أنا مضطر للرضوخ للأمر الواقع الذي فرضه مضيفي. اعتقدت أنني أستطيع التملص من الأمر.

عندما عدت إلى بيت ميشال نوفل في اليوم التالي، وجدت رجلين وامرأة من حزب العمال الكوردستاني ينتظرونني. كانت تلك هي المرة الأولى التي ألتقي فيها أعضاء حزب العمال الكوردستاني وجهاً لوجه. بعد السلام والسؤال عن الأحوال خيّم الصمت. كان الكلام يخرج عن ألسنة أعضاء حزب العمال الكوردستاني بالقطارة. ولم نكن نعرف ما سنتكلم عنه.

عندما عرّجت على الدور الذي لعبه طالباني وبرزاني في حرب الخليج خلال المرحلة الأخيرة، استغربت ردة فعل أعضاء حزب العمال الكوردستاني الذين يُسحب الكلام من أفواههم بالكماشة بقولهم: "عملاء الإمبريالية، قادة إقطاعيون، تافهون يجب عدم الاهتمام بهم". لم أرغب بمتابعة نقاش لا جدوى منه. عدت لأفهم ما يعنيه مجيؤهم للقائي، وقلت: "إذا أراد أوجلان لقائي، فهذا يمكن أن يتم بطريقتين. إما أن نجري لقاء للنشر، أو لقاء لحديث عام. إذا اختير الخيار الثاني، فإننا سنتحدث في إطار أوسع. القرار له. ولكنني يجب أن أعود إلى تركيا يوم الأحد. لدينا يومان أو يومان ونصف اليوم. يجب أن تعطوني الجواب بسرعة، لأبرمج أموري على هذا الأساس".

اخترت لعب دور الذي يراد لقاؤه ووقته ضيق. لا بدّ أن يكون هذا الموقف نابعاً من وعي داخليّ بأنني مستشار رئيس الجمهورية التركية. رد عليّ عناصر حزب العمال الكوردستاني: "سننقل ما قلتموه إلى القيادة". لم أكن أعرف أن كلمة القيادة يُقصد بها شخص واحد هو عبد الله أوجلان.

ولأنني فهمت أن كلمة القيادة تعني هيئة، أو مكتباً سياسياً، فقد رددت ببراءة: "لا يحتاج الأمر إلى كل هذا. لسنا بحاجة إلى قرار قيادة. أخبروه، وأبلغوني بالجواب في أقرب وقت ممكن. برأيي، ليست ثمة حاجة لقرار هيئة من أجل لقاء ثنائي".

ولأن المتحدثين معي لم يفهموا معنى إصراري هذا، ألحوا بالقول: "سنبلغ القيادة". عندما قصصت هذه الذكرى على مراد قرة يلان في قنديل بعد عشرين سنة أثناء حديثنا عن بنية حزب العمال الكوردستاني، ضحكنا كثيراً.

بالنتيجة، لم يأتِ خبر من عبد الله أوجلان، وعدتُ إلى تركيا. في ما بعد، دُهشت عندما قرأت تصريح عبد الله أوجلان بأن "تورغوت أوزال أرسل وسطاء للقائه" ملمحاً إلى اللقاء الذي تم في بيروت. فأنا لم أطلب لقاءَه، ولم يكن لتورغوت أوزال علم بالأمر من قريب أو بعيد.

لقائي الوحيد بعبد الله أوجلان تم بعد سنتين، بسبب أحد المنعطفات الهامة في تاريخ حزب العمال الكوردستاني، وعلاقة تركيا بالقضية الكوردية. أثناء مغادرتي دمشق في أواخر شباط عام 1993، وصلتني "معلومة لها وقع القنبلة" من صديقي كاميران قرة داغي الذي كان يكتب في الحياة اللندنية حينئذ (أصبح سكرتيراً عاماً لرئيس الجمهورية جلال طالباني بين عامي 2005-2007) ولعب دوراً رئيساً معي بتأسيس العلاقة بين جلال طالباني ورئيس الجمهورية تورغوت أوزال.

وصلت معلومة عن طريق جلال طالباني بأن عبد الله أوجلان سيعلن في مؤتمر صحفي قريب هدنة. سيدعو أوجلان إلى مؤتمره الصحفي ثلاثة أشخاص هم: جنكيز تشاندار، ومحمد علي بيراند، وكاميران قرة داغي.

طلب طالباني نقل هذه المعلومة لتورغوت أوزال، ولكنه "لا يكفله". مع هذا، أبلغني أن عبد الله أوجلان لم يدخل تحت مسؤولية كهذه حتى ذلك اليوم، ولكن هناك احتمالاً كبيراً لحصول هدنة. وإذا تحقق الأمر فستكون الهدنة من طرف واحد، وأول هدنة منذ انطلاق النضال المسلح لحزب العمال الكوردستاني عام 1984، وستفتح صفحة جديدة على طريق حل القضية الكوردية.

نقلتُ هذه المعلومة لتورغوت أوزال بشكل عابر أثناء مغادرتي القصر الرئاسي؛ بعد أن أجريت لقاء معه. لاحظت أنه استغرب قليلاً من دون أن يُبدي أي انفعال، حتى إنه لم يسأل عن التفاصيل. واكتفى بالرد على إعلان أوجلان الهدنة بالقول: "ليعلنها، وسنرى".

كانت المعلومة سرية إلى درجة أن أحداً آخر لن يوصلها إلى أوزال، ولكنني كنت مضطراً للاستعداد من أجل حضور "التصريح التاريخي" من سهل البقاع. بحت بهذا "السر" لرئيس تحرير جريدة صباح ظفر مطلو. لأن نفقات سفري ستسددها الجريدة، وهذا يتطلب موافقة ظفر. فهو من يجب أن يعرف علامَ سيوافق؛ على الرغم من إخفائه عن الآخرين.

ولكن "ظفر" بدأ يضغط عليّ بعد فترة من حصوله على هذه المعلومة من أجل نشرها. كان همه التنافس الذي دخله مع جريدة حريت. فبسبب معرفة تورغوت أوزال بالموضوع، كان يخشى من تسريبه لصديقه إرطوغرول رئيس تحرير حريت. لم يستطع الصمود أكثر من عدة أيام، وفي 11 آذار 1993، قال لي: "سننشر هذه المعلومة. اتخذنا القرار. تعال واكتبه أنت إذا كنت لا تريد نشر أمور خاطئة ومحرّفة". كتبت خبر استعداد عبد الله أوجلان لإعلان هدنة، وفي اليوم التالي 12 آذار انفجر كعنوان رئيس في جريدة صباح.

أعطيت أهمية للخبر، وخشية من رؤية حريت الخبر واستخدامه لم تخرج الجريدة حتى الصباح، ولم يرد الخبر في طبعات المناطق البعيدة، بل جاء على الصفحة الأولى في طبعات المدن.

عندما انفجر خبر استعداد عبد الله أوجلان لإعلان هدنة، بدأت أخبار غريبة تتوارد. فجَّرت حريت خبراً آخر في اليوم التالي نتيجة شعورها بالتأخر عن صباح، وادعت أن جلال طالباني أبلغ رئيس الحكومة سليمان دميريل برسالة أن عبد الله أوجلان سيعلن هدنة، ولكن مدير مكتبه الخاص لم يهتم بالرسالة، فلم يبلغ رئيس الحكومة بها!

خبر استعداد عبد الله أوجلان لإعلان هدنة في صباح خرب العلاقة بيني وبين كاميران لفترة قصيرة. فقد غضب كاميران كثيراً، وكان يخشى من تراجع عبد الله أوجلان عن إعلان الهدنة. كان علي أن أستعد من أجل تحمل ذنب الدم الذي يمكن أن يسفك نتيجة حدوث هذا الأمر.

حاولت أن أشرح لكاميران خلفية الموضوع، وأن نشر الخبر غير نابع من "أنانية صحفية"، ولكن هذا لم يُجْدِ. لم يهدأ.

اتصل بعد يومين، كان قد ارتاح. فقد ذهب إلى بيت عبد الله أوجلان في دمشق، وفتح أوجلان أمامه الجرائد التركية، وكان مسروراً جداً، وقال: "الجميع يتحدث عني!". ولم يتراجع عن إعلان الهدنة، بل غير طريقة الإعلان، وقرر أن يعلنها في مؤتمر صحفي عام يعقده في بلدة بر إلياس البقاعية. وتقرّر أن يُعقد المؤتمر يوم الثلاثاء في 15 آذار.

لم تكن هناك طائرة تقلنا إلى بيروت مباشرة حيث نصل إلى بر إلياس في الوقت المناسب. انطلقت مساء الاثنين بطائرة الخطوط الجوية التركية المسافرة إلى كراتشي عبر دبي، ومن دبي تحركنا في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي إلى بيروت، ونزلنا في فندق البريستول الذي حجزنا فيه قبل أيام. بعد الظهر، التقانا عناصر حزب العمال الكوردستاني. وانطلقنا في طريق بر إلياس في عدة سيارات.

قبل انطلاقي في الطريق، اتصلت بجلال طالباني الموجود مع كاميران قرة داغي في دمشق، والذي سيأتي إلى مؤتمر بر إلياس الصحفي. طلبت منه أن يؤمِّن لي لقاء منفرداً مع عبد الله أوجلان بعد المؤتمر الصحفي. قال إنه يستطيع تأمين هذا. أي إن لقائي عبد الله أوجلان مساء 16 آذار بعد المؤتمر الصحفي لم يتم كما أذاعت أوساط حزب العمال الكوردستاني بمن فيهم أوجلان نفسه بأنه تم بموجب تعليمات تورغوت أوزال. الأمر كله تم بمبادة مني، وبمحاولة للاستفادة من الوضع.

في بهو واسع من بيت في بناء عادي يقع في زقاق فرعي من بلدة بر إلياس، كان هناك عدد كبير من الصحفيين. هناك التقيت كاميران قرة داغي. كنت واقفاً أمام باب الغرفة. سأعرف بعد سنوات طويلة، ومن خلال صوره في الصحف أن عضو حزب العمال الكوردستاني الذي كنت أبادله الحديث رضا آلطون أحد الكوادر القيادية المؤسسة للحزب. بعد انتظار قصير، دخل أوجلان وبجانبه طالباني. ارتدى بزة رسمية، ووضع ربطة عنق بناء على اقتراح كاميران قرة داغي. كان يريد أن يقدّم رسالة من خلال لباسه بأن عهد الكفاح المسلح قد انتهى.

اختفى أوجلان بعد المؤتمر الصحفي. أثناء اجتماعنا نحن الباقين في المطبخ لنأكل شيئاً ما، ظهر جلال طالباني فجأة بجانبي، وهمس بأذني أن اللقاء على انفراد الذي طلبته سيتحقق. بعد عدة دقائق، عندما أدخلت إلى غرفة أخرى واسعة قليلاً، رأيت عصمت عصمت القادم لحضور المؤتمر الصحفي باسم جريدة " Turkish Daily News " يتحرك باتجاه الغرفة نفسها. كان رئيس تحرير " Turkish Daily News " إلنور تشفيك مستشاراً لرئيس الحكومة سليمان دميريل، واللقاء الذي سيجريه عصمت بأوجلان بعد المؤتمر الصحفي سينقله لإلنور من أجل أن يوصله إلى دميريل.

كان عبد الله أوجلان واقفاً وسط الغرفة، وقال إنه يمكن أن يلتقي كلاً منا على انفراد إذا أردنا. فجأة، خطر ببالي أنه من الأفضل وجود "شاهد" على اللقاء، فقلت: "لا مشكلة في لقائنا معاً. بالنتيجة، سأنقل اللقاء

حرفياً إلى تورغوت أوزال، والسيد عصمت سينقله إلى السيد سليمان. ليس لدينا ما نخفيه. يمكننا أن نلتقي معاً. ولكنكم لا تلتقون تورغوت أوزال وسليمان ديميريل. أنا أؤكد لكم أنني سأنقل الحوار بصدق، ولكنكم لا تلتقون الدولة التركية، بل شخصين فقط".

استمر لقاؤنا مع عبد الله أوجلان أربعين دقيقة. لا أستطيع القول إن الدقائق الأربعين مرت في جو من الحديث الودي. يبدو أن أوجلان لم يعتد على الاستماع لمن أمامه، حتى إنني سأسمع من أكثر المعجبين به في ما بعد "أن هذا أكبر عيوبه". حتى إن هناك من سيسميه بلغة أكثر صراحة: "جنون العظمة".

خلال الدقائق الأربعين من حديث أوجلان المعتاد على مسامع الآخرين لفتت نظري نقطة أو نقطتان. الأولى: كان يستخدم كلمة تهجير كثيراً. فقد أبرز أن "الكثير من الأمور يمكن أن تحل في حال ترك سياسة التهجير". كان قلقاً من التهجير. يقصد بكلمة تهجير تهجير السكان الكورد من جنوب الشرق، وإفراغ القرى. وأكد كثيراً على خطورة التهجير.

شرح بتهكم أنه سيقاوم بشدة في حال طرق باب التهجير، وأن هذا سيكلف دميريل رئاسة الحكومة، لأن الجيش سيضع يده على السلطة. قال: "يقول السيد سليمان: عزلت ثلاث مرات، وجئت أربعاً. لا أتمنى أن يعزل مرة أخرى بانقلاب، ولكنه إذا طرق باب التهجير، فأنا أخشى أنه سيكون من نتائج هذا الأمر عزله مرة أخرى، وإيقاف الجيش للمسار الديمقراطي".

يتكلم من دون أن يلتقط أنفاسه، ويستلهم من آخر كلمة يلفظها، ويدخل إلى عبارة بعدها. قال: "إذا أردتم الحقيقة". ثم تابع (بما معناه): "أنا أستطيع التفاهم مع العسكر أكثر. لأن من يأتي إلى السلطة من طريق ديمقراطي لا يجلس معي إلى الطاولة. يدمغه العسكر بدمغة الخيانة. العسكر أول من سيمنعه. ولكنني أستطيع الجلوس إلى الطاولة مع العسكر. من يستطيع أن يقول شيئاً للعسكر؟ أنا لا أستطيع التغلب على الجيش التركي؛ فالجيش التركي قوي جداً. ولكنني أستطيع تحريك المليشيات بالتوازي مع الفدائيين. عدد المليشيات – أي الذين يعتمرون القبعات نهاراً، ويتأبطون السلاح ليلاً يصل إلى خمسين ألفاً. أدفّع الجيش فاتورة باهظة تجعله يجلس معي إلى الطاولة؛ حتى إن لم أستطع التغلب عليه".

يجب ألا ننسى أن هذا الحديث جرى في آذار 1993. شعرت أن عبد الله أوجلان تأثر من جلوس الفلسطينيين (منظمة التحرير الفلسطينية بشكل غير مباشر) والأردن وسورية مع إسرائيل إلى طاولة واحدة في مدريد، وحُفر

هذا في عقله. سنعلم في العام نفسه أن الفلسطينيين سيبدأون مباحثات مباشرة مع الإسرائيليين بعلم ياسر عرفات وإسحاق رابين وشمعون بيريز في أوسلو.

أثناء استماعي لعبد الله أوجلان حول احتمال جلوس حزب العمال الكوردستاني إلى المفاوضات مع الجيش، التقط ذهني أنه يجب عدم الاستهانة بفكره السياسي. ولكن فكره السياسي يدخل في مسار خطير على الرغم من عدم الاستهانة به. قاطعته، وبمحاولة لتغيير مجرى الحديث، سألته: "قبل قليل أعلنتم هدنة ستوارب باب مرحلة السلام. لا ضرورة لإبراز هذا الآن. المهم هو: هل يمكنكم فرض كلمتكم على قواتكم الموزعة في الجبال والمصممة على القتال؟ هل يمكنكم أن تنفذوا ما يقع على عاتقكم من الهدنة؟".

قال أوجلان بصراحة لم أتوقعها: "لن يكون هذا سهلاً. حتى إنه سيكون صعباً جداً. أعتقد أنني سأتمكن من تأمين الهدنة. يكفي أن تتوقف العمليات، وألا يُطرق باب التهجير، ونحن نعمل على تحقيق الهدنة".

خلال الحديث، أو الأصح منولوج عبد الله أوجلان، لاحظت أنه أبرز الخلاف بين تورغوت أوزال وسليمان دميريل، وشكوكه حول أن هذا الخلاف في ذروة الدولة يمكن أن يؤثر على استمرارية الهدنة. مقاطعتي الثانية لحديثه كانت في هذه النقطة. قلت: "لا تهتموا بهذه النقطة كثيراً. مهما كان الخلاف بين السيد تورغوت والسيد سليمان فالدولة التركية تتخذ الموقف المناسب عندما تكون القضية هي القضية الكوردية. لا تبنوا موقفاً على هذا الخلاف".

لا أستطيع تحديد تأثير تنبيهي هذا، ولكنه لم يعد يبرز هذا الموضوع. خارج هذا، حُفرت في عقلي كلمات أوجلان بأن لا يؤخذ حزب العمل الشعبي الذي يعتبر في تركيا امتداداً لحزب العمال الكوردستاني على محمل الجد. عندما لفظتُ اسم حزب العمل الشعبي أثناء حديثي، قال بنبرة تمزج بين الغضب وعدم المبالاة: "دعوكم من هؤلاء". وذكر اسم أحد البرلمانيين من حزب العمل الشعبي، ووصفه بأنه مخبول وقال عنهم: "لا أهمية لهؤلاء". ولم أعد أطرح اسم هذا الحزب والدور الذي أتصور بأن يلعبه في مرحلة الهدنة.

عشنا لحظات غريبة في بداية لقاء الأربعين دقيقة ونهايته. لم يرد مرافقوه المسلحون تركنا وحدنا، وتظاهروا بعدم سماعهم أمره: "اخرجوا!"، وألح عليهم قائلاً: "لا تقلقوا، لن يحدث شيء".

سألته في آخر الحديث: "يقال إنّ أول نشاط سياسي لكم كان مشاركتكم في مظاهرة أنا نظمتها، هل هذا صحيح؟". أكد هذا. كنت رئيس رابطة الطلاب في كلية العلوم السياسية عام 1969. إثر جنازة رئيس محكمة النقض من جامع مالتبة، قدت مع رئيس نادي الفكر الاشتراكي المشاركين بالجنازة في مظاهرة. واجهت الشرطة المظاهرة غير المرخصة، وحدث صدام. سمعت أن أوجلان قال: "رأيت مجموعة متظاهرين أثناء مروري من مالتبة. كان جنكيز تشاندار وأورال تشالشر على رأسها. كنت أعرفهما من بعيد. عندما رأيتهما شاركت بالمظاهرة". نقلت له هذا، وأكده.

علّقت قائلاً: "لا تحكوا هذا في كل مكان. فحينئذٍ سيحمّلونني مسؤولية كل ما فعلتموه". وضحكنا.

إعلان أوجلان الهدنة أحدث جواً من التفاؤل لدى الرأي العام ولدى كل منا. خلال ساعة من إعلان الهدنة، صار هناك جو مريح تمكّنا فيه من تبادل المزاح.

بعد أربعين دقيقة، فُتح الباب، ودخل الحراس القلقون على أمن قائدهم. ودخل خلفهم جلال طالباني وكاميران قرة داغي. تبادلنا الحديث في الداخل لمدة خمس دقائق، ثم ودعنا بعضنا بعضاً.

بعد عودتي إلى اسطنبول بيوم، تلقيت دعوة إلى حفل الإفطار الذي يقدمه رئيس الجمهورية تورغوت أوزال في القصر الرئاسي في اليوم التالي. ذهبت إلى أنقرة. أثناء الإفطار، أبلغني أحد العاملين في رئاسة الجمهورية بأن أصعد إلى الطابق الثاني مقر إقامة الرئيس لأنه يريد أن يلتقيني. فعلت ما طلبه مني. ولكن أوزال لم يستقبلني بأي شكل. فقد استقبل في المكان المفصول بواسطة حاجز شقيقه يوسف بوظقورت أوزال وأورهان غوفنَن مستشار هيئة تخطيط الدولة، وكان مشغولاً بالتعلم على الحاسوب الجديد الذي جلبته له زوجته حديثاً من تايوان.

أخيراً، جاء تورغوت أوزال إلى جانبي بعد مغادرة شقيقه وغوفنَن، وقال: "تعال لنتسحر معاً". كان قد حلّ وقت السحور، فجلسنا أمام الطاولة. لم يكن مهتماً بالموضوع، وكان مرتاحاً بشكل غريب. سأل بشكل مباشر: "إيه، احكِ لنرى، ما نوع هذا الرجل؟".

نتيجة الانتظار لساعات، وتعب أيام شعرت بأن شيئاً لم يبق في عقلي. لم أعرف من أين أبدأ، وماذا أشرح. قلت: "هل أقول لكم شيئاً؟ يمكن حل هذا الأمر بسهولة، ولكن التوازنات في تركيا لا تسمح بتحقيق ما قلته". وفور قولي هذا، تذكرت حوارنا حول بث تلفزيون الدولة باللغة

الكوردية قبل سنتين.

سأل: "كيف؟". أجبت: "حسب انطباعي، إن الرجل يريد أن يكون لاعباً سياسياً في تركيا. فقد بقي بيد النظام السوري ومخابراته إلى اليوم. ولكن همّه أن يكون لاعباً سياسياً في تركيا. شعرت أنه بهذه الهدنة يريد أن يفك روابطه تدريجياً من سورية، ويفتح الطريق أمام مرحلة تجعله لاعباً سياسياً. إذا أصدرتم عفواً مثلاً، وأعطيتموه فرصة من خلال انتخابات فرعية، فسيصبح نائباً خلال أسبوع، يمكنكم أن تروه وهو يشرب الشاي مع بقية نواب المنطقة في استراحة البرلمان".

انطباعي هذا الذي نقلته إلى تورغوت أوزال حول عبد الله أوجلان صحيح جزئياً، ولكنني سأدرك بعد سنين أنه يتضمن خطأ جسيماً.

قاطعني تورغوت أوزال، وبدأ يشرح لي خطة الحل التي يتصورها. لم يتجاوز لقاؤنا هذا الذي يعلق عليه كثيرون أهمية كبرى أكثر من خمس دقائق.

عندما خرجت من القصر، لم يكن هناك أحد في الشارع. لم يبق أحد عند الباب. غادر مراسلو التلفزيونات الذين انتظروا أمام الباب ساعات من أجل الحصول على جملتين. بعد ساعتين، وقبل ساعة ونصف الساعة من اجتماع هيئة الأمن القومي ذهبتُ إلى وزارة الخارجية المقابلة للقصر الرئاسي، ونقلت لوزير الخارجية حكمت تشتين والمستشار أوزدم صانبرك انطباعاتي الخاصة حول عبد الله أوجلان.

علمت أن عصمت عصمت قد نقل برفقة إلنور تشفيك آراء أوجلان لسليمان دميريل وخمسة وزراء في اليوم نفسه. في ما بعد، قال عصمت عصمت إنه شرح الأمر للسكرتير العام لهيئة الأمن القومي. بالغ عصمت بالأمر، وبدأ يتردد بين السكرتير العام لهيئة الأمن القومي وأوجلان. لم ألتقه أو أره منذ عام 1993. حوصر عصمت بين الجيش وحزب العمال الكوردستاني، ثم بقي خارج الدائرة مثل الكثيرين.

لم يمض وقت طويل حتى قطع التواصل غير المباشر مع عبد الله أوجلان. كانت لدي شكوك جدية من استمرارية الهدنة بعد موت أوزال في 17 نيسان 1993. كنت واعياً إلى أنه ليس ثمة أحد في الدولة التركية غير تورغوت أوزال يريد أن يفعل شيئاً من أجل القضية الكوردية، ويطوّر مشاريع من أجل الوصول إلى حلّ. غير هذا، ليست لدى أحد الجرأة التي لدى تورغوت أوزال. إضافة إلى أنه ثمة صوت في داخلي يقول لي إن الهدنة المعلقة بخيط رفيع لن تصمد طويلاً.

وبالفعل، قبل انقضاء أربعين تورغوت أوزال، ورد خبر قطع حزب العمال الكوردستاني طريق بنغول – إلظاغِ يوم 24 أيار 1993، وإنزال ثلاثة وثلاثين جندياً غير مسلح، ورشهم بالرصاص. لحظة سماعي هذا، قلت لنفسي: "انتهى هذا الأمر". لقد فُتح باب توقُّع تورغوت أوزال الذي أقلقه: "إذا لم تقدم مبادرة، ولم تعمق المواقف فسيعود الإرهاب مضاعفاً".

غدا تاريخ 24 أيار 1993 من أهم نقاط الانكسار في تاريخ تركيا والقضية الكوردية. فقد وصل الدم إلى الركب منذ ذلك التاريخ وحتى 15 شباط 1999؛ تاريخ القبض على عبد الله أوجلان في كينيا. مات وقتل الآلاف، وتفسخت الدولة بالجرائم مجهولة الفاعلين، والاغتيالات التي لم تفك ألغازها. وبدأت قضية ثأر لم يعد بالإمكان كبحها بينها وبين قسم مهم من الشعب الكوردي.

كنت أعرف أن موت تورغوت أوزال سيبعدني تماماً عن أي دور بدأت بلعبه في القضية الكوردية. مع هذا، فور سماعي خبر الهجوم الذي راح ضحيته ثلاثة وثلاثون جندياً في 24 أيار، اتصلت بدمشق. كان جلال طالباني وكاميران قرة داغي هناك. روى لي كاميران أنه كان في بيت أوجلان في دمشق عند سماعه الخبر، وأنه رأى استغراب أوجلان، وسأل جمعة (جميل بييق): "كيف حدث هذا؟". وأخبره جميل بييق أنه سيحقق بالأمر، وخرج من البيت.

بحسب ما رواه، إن أوجلان لا علم له بالهجوم على طريق بنغول إلظاغِ.

قلت: "لا أعتقد أن الهدنة ستصمد بعد هذا الهجوم. ولكن، لو خرج عبد الله أوجلان، وأدان الهجوم، فمن الممكن، وهذا مجرد احتمال، أن يظهر حظ جديد للهدنة". وأبلغني كاميران أنه سينقل هذا الكلام لجلال طالباني.

ولكن، بعد صمت يومين، اتهم عبد الله أوجلان تركيا بعدم الالتزام بشروط الهدنة، وتبنى هجوم حزب العمال الكوردستاني على طريق بنغول إلظاغِ.

إثر هذا، اتصلت من جديد بدمشق، وتحدثت إلى جلال طالباني وكاميران قرة داغي. لقد أوصل "الرسالة"، ولكن عبد الله أوجلان تبنى الأمر أمام طالباني بذريعة أنه إذا لم يتبنَّه فسيفقد تأثيره على فدائيي حزبه. هذا ما نقل إليّ.

بعد سنوات، وقبل عودتي إلى تركيا بسنة، أثناء حضوري اجتماعاً

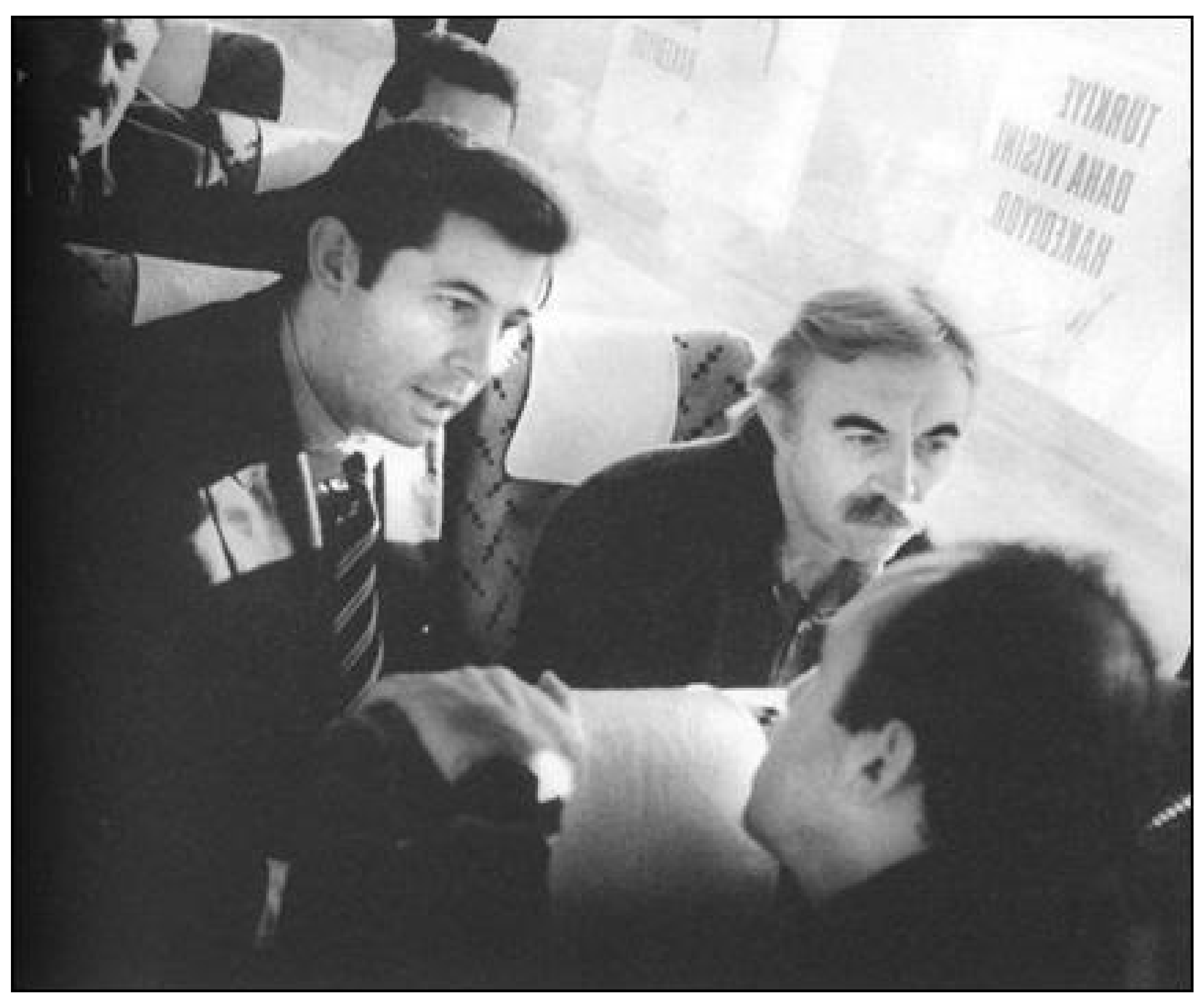
لاتحاد الروابط الكوردستانية (Komkar) أخبرني كمال بورقاي الذي التقيته هناك أن أوجلان لم يكن على علم بهجوم حزب العمال الكوردستاني على طريق بنغول إلظاغِ في 24 أيار 1993.

من شن ذلك الهجوم؟ الأصح، كان بقرار من؟

ثمة شريحة واسعة تمتد من جلال طالباني إلى كمال بورقاي تعتقد أن المخابرات السورية هي التي قامت بهذا العمل بسبب انزعاجها من الهدنة. البعض يزج المخابرات الإيرانية في الأمر. أثناء حديثي مع نظام الدين طاش (بوطان) وخليل أطاتش (أبو بكر) اللذين انشقا عن حزب العمال الكوردستاني عام 2004، وبدأا حياتهما في مدينة كوي سنجق في كوردستان العراق، وكانا قد قادا العمل العسكري لسنوات طويلة في تركيا، سألتهما هذا السؤال في أربيل، فاتّهما شمدين صاقِق وقوى حزب العمال الكوردستاني المحلية في ديار بكر بالعملية. أما الشخصيات الكوردية البارزة في تنظيمات المجتمع المدني في ديار بكر فقد اتهمت قيادة القوات المسلحة التركية في ملاطيا بالمسؤولية عن العملية. وادعت أن بعض العناصر في القوات المسلحة التركية مثل بعض عناصر حزب العمال الكوردستاني ليست لها مصلحة بالهدنة.

حصل ما حصل. التاريخ ليس ضبط أسرار. ما نعرفه حالياً أن عبد الله أوجلان قد تبنى العملية، وأن مدى العنف في القضية الكوردية سيتصاعد بشكل لم يُر له مثيل اعتباراً من 24 أيار 1993. وهكذا ستبدأ مرحلة إصابة القضية بالغرغرينا، ويسفك فيها دم غزير بعد 24 أيار 1993.

XXIII - البحث عن الحل، وحالات عدم الحل



إنه مُباهٍ في رهان الشهامة
حتى إنهم يكرهون المِنّة
أما هذه الكبرياء وهذا السمو
يمنع من تحمل حمل المِنّة
لهذا السبب ليس ثمة وحدة بينهم
فهم دائماً عنيدون ومختلفون.
أحمدي خاني (1650-1706) (همنا – ممو زين)

حافظت على اعتقادي بالحل السياسي للقضية الكوردية في المرحلة التي تلت تاريخ 24 أيار 1993. ولكن الذين يفكرون مثلي يرون أننا دخلنا مرحلة من الصراع الحاد يقل فيها تأثير أمثالنا.

في هذا الوضع، أي في المرحلة الزمنية التي اشتدت فيها حدة الحرب إثر وفاة تورغوت أوزال، عارضت الحل العسكري للقضية الكوردية. كنت على رأس الكتّاب المدافعين بحرارة عن حق الكورد بهويتهم. وتواصلت في

تلك الفترة مع الشعب الكوردي بشكل مباشر، وليس مع الكوادر السياسية الكوردية.

بعد فترة من وفاة تورغوت أوزال، في أواخر عام 1993، انضممت إلى مجموعة من رجال الأعمال والمثقفين الذين شكلوا في اسطنبول بذرة الحركة السياسية التي ستحمل في ما بعد اسم "حركة الديمقراطية الجديدة".

اجتمع الكوادر الذين شكلوا تلك البذرة، وكنت واحداً منهم في بيت ممدوح جِجي أوغلو رئيس غرفة صناعة اسطنبول حينذاك. ستبرز شخصية جم بوينر الذي كان رئيس رابطة الصناعيين ورجال الأعمال في تركيا كرئيس لهذه الحركة. حضر الاجتماع يومئذ أيضاً جان باكر مدير عام شركة هانكل التركية، وسيترأس " TESEV " بعد سنوات، والبروفيسور أصاف صاواش، وكمال درويش نائب رئيس البنك الدولي الذي زار اسطنبول لفترة قصيرة، وخلوق دينتشر الذي سيغدو بعد سنين نائب رئيس رابطة الصناعيين ورجال الأعمال في تركيا ومسؤول علاقتها الخارجية، وصديقي محمد ألطان رئيس فرع اسطنبول لاتحاد خريجي كلية العلوم السياسية.

مستوى المشاركين بالاجتماع، ومواقعهم، إضافة إلى طرحهم المؤيد "للتغيير"، ورؤاهم التي يمكن أن تُعد راديكالية منحتني أملاً بأن حركة الديمقراطية الجديدة عمل سياسي ذو معنى، ويَعِدُ بمستقبل.

شغلت حركة الديمقراطية الجديدة معظم وقتي؛ منذ أواخر عام 1993 وحتى الأشهر الأولى من عام 1995، وخاصة 21 كانون الأول 1994؛ تاريخ تحول الحركة إلى حزب. أنا من حدد تاريخ 21 كانون الأول للتأسيس؛ لأنه اليوم الذي يبدأ فيه الليل يقصر، والنهار يطول. وضع حجر الأساس لحركة سياسية جديدة وطموحة يثير الحماسة. فتحت حركة الديمقراطية الجديدة أشرعتها لرياح "التغيير" التي أطلقها تورغوت أوزال، وجذبت الكثير من المهتمين بالسياسة مباشرة أو لأول مرة في حياتهم، ومن أطراف البلد كافة.

كانت حركة الديمقراطية الجديدة تجربة غريبة لم يُر مثلها حتى ذلك اليوم، وتشكل أعضاؤها المؤسسون من رجال أعمال اسطنبوليين ومثقفين تنتمي جذورهم إلى اليسار في الغالب. فكّر دينش بِلغين بإصدار جريدة بعنوان "القرن الجديد/ Yeni Yüzyıl " تطبع الإعلام التركي بطابعها بعد أن جاء من إزمير إلى اسطنبول، وجعل جريدة صباح أكثر الجرائد توزيعاً، وتلفزيون " A " أكثر الشاشات متابعة.

جمعت حركة الديمقراطية الجديدة أنصار الحل السياسي للقضية الكوردية التي كانت تمر من مرحلة دموية، وأحدّهم لساناً وأكثرهم جرأة.

جم بوينر الذي حمل صفة الناطق الرسمي باسم "حركة الديمقراطية الجديدة" خطيب جيد. كان يقدم رؤى الحركة بالقضية الكوردية بلغة حادة في مختلف مناطق البلد وقنوات التلفزيون. هذه المقولات، ووجود أمثالي، وبروزهم إلى الواجهة؛ كلها جعلت حركة الديمقراطية الجديدة تحظى بالاحترام في مختلف أرجاء البلد، وفي الأوساط الكوردية أيضاً.

كنتُ "رئيسَ هيئة التنظيم" في المرحلة الأولى لتشكيل حركة الديمقراطية الجديدة. حاولت مراعاة الواقع الاجتماعي والتوازنات في جنوب شرق الأناضول في عمل الحركة. كانت مرحلة سيئة تركت فيها طانصو تشيلر رئيسة الحكومة حينئذ حل القضية الكوردية للعسكر تماماً، وتفاقم الصراع مع حزب العمال الكوردستاني إلى أن بلغ مرحلة عنف شديد الدموية، وتصاعدت وتيرة الجرائم مجهولة الفاعلين بانفلات شديد. كان من الضروري الانتباه إلى عدم الإفساح في المجال للربط بين حركة الديمقراطية الجديدة وحزب العمال الكوردستاني من خلال النشاط التنظيمي في المنطقة. في تلك الأيام، كان يُشك بكل كوردي في أنه عضو في حزب العمال الكوردستاني.

حضّرت "مقترحات حل" للقضية الكوردية وقدمتها لحركة الديمقراطية الجديدة لتبدي رأيها فيها. الجانب الغريب في الأمر أن الحركة وجم بوينر لم يستطيعا تحمل راديكاليتي في "مقترحات حل" القضية؛ على الرغم من خطابهما الراديكالي. تم التحفّظ على النص الذي قدمته بعنوان "مسودة رؤية حركة الديمقراطية الجديدة لحل القضية الكوردية ومقترحات الحل"، ولم يوزع داخلياً على الأعضاء. بدأتُ النص المؤلف من سبع صفحات على النحو التالي: "القضية الكوردية قضية تركيا الأولى. سيعيد الحل الديمقراطي لهذه القضية بناء الدولة من رأسها إلى قدمها، وسيريح الاقتصاد وبالتالي المالية العامة، وسيرفع مكانة البلد خارجياً، ويقوي أمنه الداخلي. ستمنح حركة الديمقراطية الجديدة فرصة للمصالحة الاجتماعية وتشكيل المجتمع الديمقراطي التعددي الذي تعتبره هدفاً أساسياً لها، وهذا ما سيزيح ظل العسكر عن النظام السياسي.

تضمن النص "مقترحات حل" خضعت لبعض التعديلات قبل التصويت عليها من أجل دخولها برنامج حركة الديمقراطية الجديدة بهدف تطبيقها في "حكومة هذه الحركة"، وهي على النحو التالي:

"1. إدراج مادة في الدستور التركي تقول: يتشكل شعب تركيا من شعوب مختلفة القوميات والثقافات، على رأسها الشعبان التركي والكوردي،

ويمكن لهذه الشعوب أن تطور ثقافاتها وهوياتها بحرية بضمان الدستور.

تعترف هذه المادة بالهوية الكوردية الخاصة ضمن نظام الدولة التركية، وبحمايتها، وتضمن اندماجها. وتمنح الدولة التركية شراكة حقيقية، غير أنها تلبي رغبة البكي والشركس واللاظ وغيرهم وتضمن هوياتهم الثقافية أيضاً.

2. إتاحة فرصة طرح سؤال حول الجذر القومي في التعداد السكاني؛ وهكذا يحفظ مواطنو الجمهورية التركية حقوقهم مع تسجيل انتمائهم القومي في القيود الرسمية. (أُبعد هذا الاقتراح نتيجة التنبيه إلى أنه لا ضرورة للجذر القومي، ويكفي تحديد اللغة الأم، وكان هذا مسموحاً في إحصاء 1965 وما قبله).

3. بحسب نتائج إحصاء السكان، تعتبر اللغة الكوردية لغة رسمية إلى جانب اللغة التركية بموجب حكم دستوري في المناطق التي يصل فيها تعداد المواطنين الكورد إلى أكثر من 50% من السكان.

وبموجب هذا الأمر، تكتب لوحات الطرق واللوحات الأخرى باللغتين في المناطق ذات هذه الخصوصية.

4. تنقية الدستور والقوانين المختلفة التي تخلط بين الإرهاب وحرية التعبير وبقية المواد التي تضيّق حرية التعبير؛ بما فيها قانون مكافحة الإرهاب.

5. تعديل الدستور وقانون الأحزاب؛ حيث يسمح بتأسيس أحزاب على أساس قومي.

وهذا سيلغي العائق الذي يحول دون مشاركة الكورد في الحياة السياسية المشروعة، ويهمّش الأحزاب المستندة إلى القوة مثل حزب العمال الكوردستاني، ويسمح بتأسيس أكثر من حزب بناء على تيار فكري أو رأي أو أيديولوجية على أساس قومي؛ مما يعطي المجموعة القومية إمكانية العمل السياسي على صعيد البلد ككل.

6. إلغاء حالة الطوارئ. إذ لا يمكن تحقيق التكامل في البلد بممارسات حقوقية مختلفة غير عادية. لهذا، لا بد من إلغاء حالة الطوارئ من أجل التحضير النفسي للمرحلة الانتقالية الديمقراطية.

7. إلغاء نظام الحراسة. يقسّم هذا النظام الشعب إلى قسمين بشكل خطير، ويساهم بتشكيل مجموعات عنف، واستمرارها...

8. إلغاء كل القوانين التي تحدّ من استخدام اللغة الكوردية وثقافتها. وتتحمل الدولة في هذا الإطار مسؤولية البث باللغة الكوردية في الإذاعة والتلفزيون. ولا يمكن للكورد أن يعتبروا دولة الجمهورية التركية دولتهم إلا

في حال القيام بهذا. وبعد تنفيذه، ستكون العوائق التي تمنع تأسيس إذاعة وتلفزيون كورديين قد أزيلت تلقائياً.

10. فرض معرفة الكوردية والتحدث بها على موظفي القطاع العام في المناطق الإدارية التي يبلغ عدد سكانها الكورد أكثر من نصف عدد السكان.

يتعلق هذا الحكم بمبدأ الإدارة المحلية. سيتحقق هذا تلقائياً إذا وصلت الحركة الديمقراطية الجديدة إلى الحكم، وتبنّت انتخاب المحافظين ومدراء الأمن في نظام رئاسي. وفي حال عدم تطبيق هذا الأسلوب وتوضيحه، يمكن للمادة العاشرة أعلاه أن تسد الحاجة...

11. يعتبر نيروز عيداً في الجمهورية التركية، و21 آذار يوم عطلة.

12. يبقى علم الجمهورية التركية، ويُعترف باستخدام الرموز الأخرى التي تعبّر عن القوميات المختلفة المشكلة لفسيفساء تركيا، والألوان الخضراء والحمراء والصفراء التي تُعتبر رمز الكورد بحرية شرط أن تكون إلى جانب علم تركيا. (يُذكر أن أعلام الاتحاد الأوروبي وكاتلونيا ومدينة برشلونة، إضافة إلى علم إسبانيا رفعت في أولمبيات برشلونة عام 1990)".

وتقترح المادتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة عدم استخدام القوات المسلحة في الأمن الداخلي، وعودة المهجرين إلى قراهم المفرغة مع دفع تعويضات لهم.

أما المادتان الأخيرتان من اقتراح الحل فهما على النحو الآتي:

"15. بعد تطبيق هذه المقترحات والإجراءات يدعى حزب العمال الكوردستاني إلى حل نفسه، وإلقاء سلاحه؛ باعتباره ساهم مساهمة كبرى بترسيخ جو العنف والإرهاب وسفك دم مواطني البلد. ويُعلن عفو عام يتيح لأعضاء هذا الحزب الصادرة بحقهم مذكرات توقيف المشاركة في الحياة السياسية عند تسليم أسلحتهم؛ بهدف إحلال السلام الاجتماعي. يمكن لأعضاء حزب العمال الكوردستاني الصادرة بحقهم أحكام قضائية وهم خارج البلد أن يستفيدوا من العفو العام، ولكنهم لن يدخلوا الحياة السياسية فوراً، بل ضمن جدول زمني يحدد وفق تعميم...

16. ولأن حركة الديمقراطية الجديدة تعتبر المواطنين الكورد جزءاً لا يتجزأ من جغرافية تركيا الفيزيائية والبشرية، فهي ترى أن كورد العراق وتركمانها ينتمون إلى جذر مشترك مع مواطنينا، والعمل على سعادتهم دين معنوي برقبتها.

لأسباب تاريخية وجغرافية واقتصادية وثقافية، إنّ لتركيا كلها تقريباً علاقات خاصة مع سكان شمال العراق والجزء المحاذي للحدود من الكورد

والتركمان، ويجب أن تكون العلاقات على هذا النحو. لهذا السبب، يجب إعلان حدود مفتوحة سياسياً، وباب مفتوح اقتصادياً أمام كورد شمال العراق وتركمانها".

مقترحات الحل هذه ليست نصاً نهائياً. فهي تُقدم لتكون أرضية للنقاش في حركة الديمقراطية الجديدة. وبالإضافة إلى عدم كونها نصاً نهائياً، فهي لم تحمل بعد صفة وثيقة من وثائق حركة الديمقراطية الجديدة. ولكن، لو طُبِّقت مقترحات الحل المطروحة في التسعينيات والتي تعتبر حتى بالنسبة إلى مطلع الألفية الثالثة راديكالية، لما بقيت قضية كوردية، ولغدت تاريخاً.

وإذا لم أعلن مسودة حركة الديمقراطية الجديدة هذه حرفياً على الرأي العام، فإن حديثي وكتابتي عن القضية الكوردية في أكثر المراحل دموية يعتبران راديكاليين، وخارج الخط العام، ومعارضين لموقف الدولة.

أريد لي أن أدفع ثمن موقفي من القضية الكوردية، والأهم من هذا ثمن دوري بالتقارب بين تورغوت أوزال وجلال طالباني، فافتُرِيَ عليّ أنني قبضت من حزب العمال الكوردستاني في مرحلة تدخل 28 شباط العسكري. وظهر في مطلع الألفية الثالثة أن ذلك الافتراء عملية نفسية أعدتها هيئة الأركان العامة باسم تشويه السمعة.

وتم تحضير الرأي العام قبل أيام عبر حركة نفسية منشؤها الأركان العامة، وتمثل قتلاً معنوياً، وإساءة سمعة استهدفتني بشكل خاص مع محمد علي بيراند. كان شمدين صاقق أحد قادة حزب العمال الكوردستاني الكبار قد انشق عن الحزب، ولجأ إلى شمال العراق. قبضت عليه القوات الخاصة التركية في عملية، وجلبته إلى تركيا، وسجنته في ديار بكر. بعد القبض عليه بأيام، سُرب إلى الصحافة أنه اعترف بالكثير من الأمور. ومن التسريبات المنسوبة إلى شمدين صاقق أن "حزب العمال الكوردستاني يدفع لبعض الصحفيين". إثر هذا الخبر، كتب أوقطاي إكشي في جريدة "حريت" بعنوان "لنعرف الخونة الذين بيننا". وخلال عدة أيام، أعلن أوغور دوندار مقدم أخبار المساء في تلفزيون " D " عن أسماء الصحفيين الذين يقبضون من حزب العمال الكوردستاني بحسب إفادة شمدين صاقق. وفي اليوم التالي، نُشر عنوان رئيس على صفحة كاملة في الجريدتين الأكثر توزيعاً "صباح" و"حريت". كان على رأس المستهدفين الثنائي جنكيز تشاندار ومحمد علي بيراند من كتّاب جريدة صباح.

قُطعت علاقة بيراند بالجريدة، وأوقفت زاويتي لفترة. وعندما عدت

للكتابة بعد فترة، حُذِّرت من تناول القضية الكوردية وانتقاد العسكر. وخضعت زاويتي للرقابة.

صرنا بطلَيْ أكبر فضيحة في تاريخ الصحافة التركية. ومنعتنا إدارة الجريدة من الدفاع عن نفسينا. لم تُنشر مواد بهذه الخصوص في الجرائد. كانت عملية تشويه سمعة تمارس ضدنا بكل معنى الكلمة. وقد وصف إرطوغرول أوزكوك رئيس تحرير جريدة حريت في تلك الفترة هذه القضية بأنها "أكبر قضية مخجلة في حياته"، وأعلن أنه سيبقى طوال عمره يشعر بالخجل من هذه القضية، واعتذر منا.

أحد الأبعاد الأكثر خطورة في القضية تمثّل في طرح هذا الكذب والافتراء - على الرغم من معرفتهم أنه كذب وافتراء - نتيجة ضغط العسكر والخوف منهم، ولم يمنحونا حق الدفاع عن نفسينا، أو يمنحوا زملاءنا حق الدفاع عنا.

بعد فترة قصيرة، فُضِح الكذب والافتراء. صرّح شمدين صاقق بواسطة محاميه أنه لم يقل شيئاً كهذا. فقد أُضيف إلى إفادة شمدين صاقق بعض ما يمكن تسميته افتراء، وسُرب إلى الصحافة. وعرفت هذا في محكمة أمن الدولة في اسطنبول عندما استدعيت إليها في أول حزيران 1998 للإدلاء بشهادتي من أجل إغلاق الملف. أقرأني مدعي عام محكمة أمن الدولة إفادة شمدين صاقق. لم يكن في الإفادة "الرسمية" و"الحقيقية" أية جملة مما نشرته الصحافة وهز الرأي العام.

لو أن كبار ضباط الجيش لم يضيفوا جمل الافتراء ضدنا التي حملت صفة "الفضيحة" الكبرى بكل معنى الكلمة على أنها من إفادة شمدين صاقق، ولم يعرف بأن هذا كله - أي "الاعتداء النفسي" الذي استهدفتنا به الأركان العامة، واسمه "تشويه سمعة" - هم الذين اتخذوا قراره في تلك المرحلة؛ لم يُعرَف إلا بعد سنتين.

تعرض أقن بيرضال رئيس جمعية حقوق الإنسان الذي استهدف "بتشويه السمعة" نفسه - بسبب علاقته بالقضية الكوردية - لعملية اغتيال على يد شبكة إجرامية تدعى "لواء الانتقام التركي". بقي حياً بشكل عجائبي؛ على الرغم من إخراج مشطي رصاص من جسمه.

يجب أن تسجل عملية تشويه السمعة باعتبارها واحدة من أقذر عمليات الدولة ضد مواطنيها. إنّ العملية التي لا يمكن أن تحدث في أي دولة حديثة، وفي حال حصولها يلقى منفذوها عقوبات كبرى، حدثت في تركيا على أعتاب القرن الحادي والعشرين.

تشويه السمعة عرّض حياتي ومهنتي للخطر. قضيت صيف عام 1998 بتقديم المحاضرات ضد التدخل العسكري في تركيا. واحدة منها كانت في " National Endowment for Democracy/NED " دعاني رئيس " NED " كارل جيرشمان إلى ندوة عالمية عن الديمقراطية تقام في نيودلهي.

سمعت بخبر اعتقال عبد الله أوجلان في نيودلهي.

كنا في المؤتمر الدولي للديمقراطية - السفير المتقاعد غوندوز أقطان المشارك باسم " TESEV " وأنا - نخوض نقاشاً حاراً حول القضية الكوردية. كان غوندوز النموذج الأكثر تطوراً في العرقية ضد الكورد. إنه يُنكر كون الكوردية لغة، ويرفض بشكل قطعي التعليم بالكوردية. ويعتمد بهذا على حجة لا يمكن الاستهانة بها؛ فقد كان يقول: "اللغة تولّد الأمة. وإذا فتح الطريق أمام الكوردية، فسيتطور تحول الكورد إلى أمة. لا يمكن أن تكون لي كدولة تركية مساهمة بهذا الأمر". أصدر أقطان كتاباً بالفرنسية بعنوان " La Turquie en Europe " عام 1988 حين كان مستشاراً لأوزال، وحمل توقيعه، ولديه مخزون ثقافي كبير. وأدهشتني أفكاره المتناقضة جداً مع أفكار تورغوت أوزال، وآراؤه التي تصل إلى درجة العرقية وصراحته بها.

أوصل غوندوز أقطان نقاشنا الحار بصراحة إلى تلميح خطير في اليوم التالي. فعندما التقينا من أجل الذهاب لتلبية دعوة سفير تركيا في نيودلهي لنا لتناول العشاء في بيته، قال لي بشكل ساخر: "هل علمت؟ قبض على آبو". ثم أضاف: "أنا واثق من أنك حزنت!".

أزعجتني هذه الكلمات لسببين؛ لأنها تحمل تلميحاً بشعاً من جهة، وبسبب مضمون الخبر الذي أفرح غوندوز أقطان من جهة أخرى.

سبب هذا بسيط: لم أساوِ بين القضية الكوردية وحزب العمال الكوردستاني في أي وقت. ولكن توقعي بأن الدولة التركية التي تعتبر أنّ القضية الكوردية هي حزب العمال الكوردستاني لن تحرك شعرة على صعيد حلها - أي الاعتراف بالكورد وحقوقهم - نتيجة القبض على عبد الله أوجلان، وهذا ما سيجر القضية إلى عقدة لا يمكن الخروج منها.

وهذا ما حصل... فبعد مرور شهر ونصف الشهر على عودتي من نيودلهي، ذهبت إلى واشنطن لأعمل في مركز ويلسن للدراسات ثم في معهد الولايات المتحدة للسلام " USIP ". بدأت أتابع دعوى عبد الله أوجلان والتطورات المتعلقة بها من بعيد.

لم تعجبني إفادة عبد الله أوجلان ودفاعه. فقد رسم شخصية القائد المستسلم والمطأطئ أمام الدولة التي تمرّد عليها. وتوصلتُ إلى نتيجة مفادها

أن حزب العمال الكوردستاني قد انتهى، وسيصبح خارج معادلات حل القضية الكوردية.

استمرت حالة عدم الحل في القضية الكوردية، ولكنني اعتقدت أن "قضية حزب العمال الكوردستاني وأوجلان" قد انتهت بالاستسلام والهزيمة. وصلتُ إلى حكم كهذا بسبب عدم وضعي القضية الكوردية في كفة واحدة مع أوجلان وحزب العمال الكوردستاني، وهذا ما لم يغيّر شيئاً من قناعاتي الأساسية بالقضية الكوردية. لم تتغير رؤاي بضرورة قبول تركيا بالشعب الكوردي، وبضرورة عدم اعتماد حل عسكري للقضية؛ فلا بد من حل سياسي.

بقيتُ لفترة طويلة أعتقد أن من سوء حظ الكثير من الفعاليات الكوردية اعتبارها عبد الله أوجلان قائداً. وعبّرت عن رأيي هذا بصراحة للشخصيات الكوردية التي تمارس العمل السياسي في القطاع القانوني.

كنا في مطلع عام 2004. لم يتصاعد بعد النضال المسلح الذي أوقفه عبد الله أوجلان بقرار منه. وتحركت مجموعة من رؤساء بلديات حزب المجتمع الديمقراطي برئاسة عثمان بايدمير - رئيس بلدية ديار بكر الكبرى - على صعيد تنظيمات المجتمع المدني في أنقرة واسطنبول من أجل مبادرة سلام. كانوا يقرعون أجراس الإنذار بأن الوضع في المنطقة يتجه إلى الخطر، ويمكن للتطورات المحتمل انفجارها أن تسد طريق تركيا نحو الاتحاد الأوروبي. في آخر اجتماع مغلق لهم في فندق أرمادا في اسطنبول، كنتُ أوّل من تكلم بعد كلمة عثمان بايدمير الطويلة، وبدأت بالقول: "سأقول لكم إنكم تتهربون من قول ما تفكرون به بصراحة. أنتم تعرفون أنني صديق للكورد. لهذا، أريدكم أن تصغوا إليّ بشكل خاص. إذا لم ترسموا خطاً واضحاً بينكم وبين عبد الله أوجلان فسيعتبر كل تحرك لكم تكتيكاً من جزيرة إمرلي في غرب الفرات".

خيّم صمت عميق على رؤساء البلديات الكوردية. بعد توقف قصير، ردّ سليمان دمير: "هناك تسعة وعشرون تمرداً كوردياً. هذا الرجل (أوجلان) هو قائد التمرد التاسع والعشرين؛ شئتم أم أبيتم". قاطعته قائلاً: "صحيح، ولكنه قائد سيئ. لا أقول إنه قائد سيئ لأنه تمرد؛ فالتمردات ظواهر تاريخية. ينتهي أمر قادة التمردات إذا ركعوا أمام الدولة التي يتمردون عليها. وعبد الله أوجلان ركع. لم يعد الجيش التركي والدولة التركية يحترمانه. يمكنهما كرهه، ولكنهما لا يحترمانه. نظام البيض في جنوب أفريقيا يكره نيلسون مانديلا، وهل سجنه لما يقارب الثلاثين عاماً للاشيء؟ ولكنه

كان يحترمه. هذا الوضع لا ينسحب على عبد الله أوجلان وتركيا. إذا لم ترسموا خطاً واضحاً بينكم وبين عبد الله أوجلان فلن يستمع إليكم أحد في غرب تركيا".

قاطعني رئيس بلدية فيرانشهير منادياً: "سيد جنكيز، إذا قلنا نصف ما قلته، فلا أحد منا يستطيع العودة إلى بلده".

تحدثنا جميعاً عن عبد الله أوجلان من دون فهم حقيقة نفوذه على الشعب الكوردي غربي الفرات.

فعلى الرغم من ذهابي المتكرر إلى جنوب شرق تركيا بين عامي 1999-2000 لم أفهم هذه الحقيقة، أو صعب عليّ تقبلها.

ذكرت حكمي السلبي على الوضع القيادي لعبد الله أوجلان آخر مرة في اجتماع كبير عقد في خريف 2007 في ديار بكر. تحدثتُ بصراحة تامة حول الشعب الكوردي، وأبرزت العلاقة المشروعة بين حزب العمال الكوردستاني وحزب المجتمع الديمقراطي بشكل غير مألوف. وفي نهاية الحديث، كبست على جرح الكورد ملحاً بقولي: "من الضروري أن يجد الكورد قائداً غير عبد الله أوجلان". أي إن ترك عبد الله أوجلان سيفتح الطريق أمام الحل.

بعد حديثي، التفّت حولي مجموعة من الشباب الكورد الذين عاتبوني قائلين: "كيف تتحدث بهذه الطريقة؟! عبد الله أوجلان إرادتنا". وذكروني بأنهم جمعوا عشرات آلاف التواقيع. إنهم شباب يحترمونني بسبب موقفي من القضية الكوردية، ولم يتخلوا عن هذا الاحترام. ولكنهم لا يمكن أن يتخلوا عن عبد الله أوجلان.

لا أعدُّ وحيداً بمقاومة فهم علاقة احترام قسم مهم من كورد تركيا لعبد الله أوجلان. وقد طرح القائدان الكورديان العراقيان جلال طالباني ومسعود برزاني في أكثر من مناسبة سؤالاً محملاً بالغضب الممزوج بالاستغراب مفاده: "ما الذي يجده كورد تركيا الأكثر تطوراً بين الكورد جميعاً في هذا الرجل؟". من المؤكد أن هذا السؤال يحمل شيئاً من البعد التنافسي بين القادة الكورد. وبعد اعتقال عبد الله أوجلان عام 1999، لم يستطيعا منع نفسيهما من طرح السؤال: "وهل يكون القائد بهذا الشكل؟".

سألني جلال طالباني مبرزاً عدم إمكانية قبول الصورة التي رسمها أوجلان في المحكمة باعتباره قائداً كوردياً: "لا أفهم سبب وقوف الشعب الكوردي في تركيا خلف هذا الرجل حتى الآن! هل لديك تفسير للأمر؟". كنا نتبادل الحديث في حديقة فندق هيلتون اسطنبول بعد لقاء تلفزيوني

أجراه معه محمد علي بيراند أثناء زيارته لتركيا قبل فترة قصيرة من انتخابه رئيساً لجمهورية العراق.

اجتمعت على الغداء مع مسعود برزاني في أول زيارة رسمية له لتركيا بصفته رئيس إقليم كوردستان، في فندق سويس في اسطنبول عام 2010. عرّج برزاني على محاكمة عبد الله أوجلان وإفادته ودفاعه، وقال: "وهل يمكن أن يكون القائد على هذا النحو؟! يجب أن يخجل الكورد من قائد كهذا". كان يجلس إلى مائدة الغداء مترجمه عبد السلام، وصديقه المقرب رئيس بلدية جزرة السابق النائب هاشم هاشمي.

بعد الطعام، روى لي هاشم هاشمي خاطرة غريبة. قال مسعود برزاني لهاشمي: "النُبل مهم. الدول المهمة في أوروبا أسسها نبلاء. لا يمكن أن تؤسس دولة بطريقة أخرى". ثم طرح سؤالاً مفاجئاً: "ما هو جذر أوجلان؟ من هو؟".

لعل جذر عبد الله أوجلان الذي يترفع عنه مسعود برزاني يفسر سبب خوض حزب العمال الكوردستاني التمرد الكوردي الأطول والأكثر صموداً في التاريخ القريب.

سمعتُ من شقيق عبد الله أوجلان الأصغر عثمان قائد حزب العمال الكوردستاني الذي يعتبر بمكانته قبل أن ينشق عن الحزب في بيته في كويسنجق حيث يعيش في كوردستان العراق في تشرين الثاني 2010 تفسيراً غريباً ولافتاً. قال عثمان أوجلان: "لو أن الدولة التركية حاولت أن تفهم أخي وتستوعبه بدلاً من هدر زمانها على تشويه سمعته بأنه قاتل الأطفال، وكبير الإرهابيين، لحُلّت القضية منذ زمن طويل. عبد الله أوجلان رجل مهم".

وإثر سؤالي: "كيف؟" أجابني بهذا الجواب الذي لم أتوقعه: "أولاً، هو رجل مفكر. وهو يقرأ كثيراً. أخرج الكورد في القرن العشرين سعيد نورسي وآبو. ليس ثمة اسم غير هذين الاسمين سار وراءهما الكورد بشكل واسع جداً. ثانياً، إنه ذكي جداً. فهو يفكر بعشر طرق في الوقت نفسه، ويجرب الطرق العشر معاً...".

إذا تركنا الصفات الشخصية لعبد الله أوجلان جانباً، فالحقيقة التي يجب ألا نتجاهلها هي أن صورته لدى كورد تركيا بعد عام 1999 قويت بشكل لا يُقارن مع صورته قبله.

رؤية هذه الحقيقة، وتقبلها، وفهم حزب العمال الكوردستاني باعتباره جزءاً من القضية الكوردية في تركيا، بل وجزءاً حاسماً منها سيفتح تدريجياً

الطريق أمام حلها.

ساد اعتقاد بأن إلقاء القبض على أوجلان عام 1999، وإيقاف حزب العمال الكوردستاني نضاله المسلح قدّما فرصة عظيمة. تطورات العقد الأول من الألفية الثالثة كذَّبت هذا الاعتقاد، وتحولت القضية الكوردية واسم عبد الله أوجلان وحزب العمال الكوردستاني بمفارقة كبيرة إلى كل لا يمكن تجزئته.

في مرحلة التحضير لتقريري: "النـزول من الجبل - كيف يترك حزب العمال الكوردستاني السلاح؟ تخليص القضية الكوردية من العنف" كنت أتحدث مع رئيس ديوان رئاسة إقليم كوردستان العراق د. فؤاد حسين في مقر مسعود برزاني في صلاح الدين (مسيف). استخدم الدكتور فؤاد لغة تختلف عن اللغة التي يستخدمها نوشيروان برزاني والقادة الكورد الآخرون أمام الرأي العام حول ما يجب أن تفعله تركيا.

أبرز القادة الكورد العراقيون جميعاً ضرورة الحوار مع عبد الله أوجلان وحزب العمال الكوردستاني من أجل حل القضية. وعندما يقال المخابرات التركية تحاور أوجلان وحزب العمال الكوردستاني، وهم يلعبون دوراً في هذا الحوار، كانوا يبدون ردة الفعل نفسها. إذ كانوا يقولون: "ذاك ليس حواراً. لقاءات المخابرات التركية تعني تناول القضية من زاوية أمنية. جوهر الموضوع سياسي. يؤسس رئيس الحكومة هيئة سياسية للحوار، ويمكن أن يكون مستشار المخابرات التركية ضمنها. ولكن يمكن لهيئة سياسية مؤثرة ومحترمة أن تحلّ هذا الأمر".

قال نوشيروان برزاني: "الطريق المختصر لإيجاد الحل هو اختيار الطريق المباشر؛ أي الحوار مع حزب العمال الكوردستاني. وأقصر طرق الحوار مع الحزب هو الحوار مع عبد الله أوجلان...".

ألا يمكن حل القضية الكوردية من دون التحاور مع عبد الله أوجلان وحزب العمال الكوردستاني؟

أجاب فؤاد حسين عن هذا السؤال من دون تردد: "لعل حل القضية الكوردية من دون آبو وحزب العمال الكوردستاني كان ممكناً قبل عشر سنوات. ولكنه لم يعد ممكناً الآن".

سأستغرق حتى النصف الثاني من العقد الأول للقرن الحادي والعشرين لأصل إلى النقطة نفسها. وسيصل حسن جمال أيضاً إلى تلك النقطة في الشريحة الزمنية نفسها تقريباً.

يُعرف أننا - حسن جمال وأنا - لدينا أقوى روابط مع كورد تركيا

على مستويات مختلفة، وأننا حافظنا على هذه الروابط بشكل مستمر. ومن الممكن رؤية النخبة الفكرية التركية تعيش معنا التحول نفسه في ما يتعلق بالقضية الكوردية. ولكن هذا في الوقت نفسه مؤشر على تعقد تناول القضية الكوردية عبر أوجلان وحزب العمال الكوردستاني.

رسخ اسم عبد الله أوجلان، كما رسخت أحرف اسم حزب العمال الكوردستاني " PKK " في متاهة القضية الكوردية "قضية تركيا الأولى"، ولا يبدو أن الخروج منها سهلاً.

أحرف " PKK " في لغة تركيا الرسمية تحمل تعريفاً بُسّط إلى أقصى الحدود: المنظمة الإرهابية أو المنظمة الانفصالية، أو بشكل أقوى بدمج التعريفين معاً: المنظمة الإرهابية الانفصالية.

تعريف حزب العمال الكوردستاني بهذا الشكل في لغة الدولة الرسمية اكتسب قوة في الساحة الدولية من خلال إدراجه في قائمتي الإرهاب الأمريكية والأوروبية. وقد أصبح من الصعب جداً محو صفة إرهابي عن حزب العمال الكوردستاني.

أما لدى مؤيديه، فيوصف وصفاً معاكساً لهذا: حركة التحرر الكوردية. وشكّل حزب العمال الكوردستاني العمود الفقري للحركة السياسية الكوردية؛ وهي الأحزاب السياسية المعاد تأسيسها بعد حظرها، والتي فازت بعدد كبير من بلديات جنوب شرق الأناضول، ولها تمثيل في البرلمان التركي.

أُدخِلت قضية حجم تمثيل حزب العمال الكوردستاني حيز النقاش كما جرى في الكثير من النماذج المشابهة في التاريخ. بتعبير آخر، بدأ التشكيك بمشروعيته من خلال الادعاء أنه لا يمثل الغالبية الساحقة من الكورد، ولا حتى فئة قليلة منهم.

هذه نقاط نقاش وادعاءات مهمة، ولكننا عندما نتناول القضية على صعيد النوع وليس العدد فسيظهر أمامنا حزب العمال الكوردستاني بصفته طرفاً مباشراً في القضية الكوردية، إلى جانب أنه قوة مسلحة لا جدال حولها.

تقسيم الجغرافية الكوردية بعد الحرب العالمية الأولى، وعيش النضال الكوردي السياسي والمسلح اختلافاتٍ في كل جزء من أجزائه الموزعة بين تركيا وإيران والعراق وسورية جلبا معهما ظهور الكثير من التنظيمات المنافسة لحزب العمال الكوردستاني داخل تركيا وخارجها. وهذا ما ينسحب على الشخصيات القيادية.

اكتسب مسعود تك، الأمين العام للحزب الاشتراكي الكوردستاني في تركيا

الذي حل محل كمال بورقاي تجربة كبيرة من خلال عيشه منذ عام 1980 في كوردستان العراق، وعمله ضمن صفوف الحزب الديمقراطي الكوردستاني الإيراني سنوات طويلة. وقد أفضى إليّ بنتيجة توصل إليها أثناء حديث لنا في أربيل: "لدينا قول مأثور كوردي يقول: لا يُطبخ رأسان في حلَّة واحدة. ولكن لدينا ثلاثة رؤوس. كاك (مسعود برزاني)، ومام (جلال طالباني)، وآبو".

إضافة إلى وجود ثلاثة رؤوس كوردية على الصعيد القومي، فإن إنهاء نظام صدام أظهر إدارة إقليم كوردستان - التي أنشأت مؤسسات دولة مستقلة - إضافة إلى الكثير من التنظيمات الكوردية. نتائج هذا الواقع دفعت حزب العمال الكوردستاني ليكون وحيداً ويبقى وحيداً في القطعة الجغرافية الكبرى وذات النفوس الأكثر عدداً. وصول أحد القائدين لرئاسة إقليم كوردستان والآخر إلى رئاسة جمهورية العراق أجبر عبد الله أوجلان وحزب العمال الكوردستاني على الوصول إلى قوة تستطيع مجابهة هذين المنافسين القويين.

إدارة إقليم كوردستان التي ظهرت إثر حرب العراق عام 2003 أدخلت علاقة الدولة التركية مع حزب العمال الكوردستاني، وعلاقة حزب العمال الكوردستاني مع المنظمات والشخصيات الكوردية الأخرى، وعلاقة حزب العمال الكوردستاني مع البنى الكوردية الأخرى في تركيا في حالة أكثر تعقيداً. وغدا لغز حزب العمال الكوردستاني أكثر تعقيداً في التوازنات الكوردية القائمة في تركيا.

على الرغم من هذا، دخلت تركيا بمحاولات الحل عبر حزب العمال الكوردستاني وعبد الله أوجلان في فترة رئاسة طيب أرضوغان للحكومة وفترة التواصل السري. وعندما لم يتم التوصل إلى النتائج المخطط لها، أُدخِلت حيز التداول القناعات والرؤى التي يتم تداولها منذ فترة طويلة؛ وخاصة بين الشخصيات الكوردية المنافسة لحزب العمال الكوردستاني في تركيا: أُبرِز الرأي القائل إن حزب العمال الكوردستاني ليس سوى منظمة مسلحة تلعب دور الستارة لقوى أخرى.

وتأتي هذه الادعاءات حول حزب العمال الكوردستاني بشكل لافت ومختصر على لسان يالتشن آقضوغان الذي يعتبر أحد أقرب المستشارين إلى طيب أرضوغان:

"تحول حزب العمال الكوردستاني الذي كان دمية بيد القوى الدولية إلى منظمة إرهابية دولية... الجناح المقترب من إسرائيل يخوض حرباً ضد إيران أحياناً، والجناح الآخر يقدم دعماً للأسد الذي لا تريد إيران سقوطه".

(يالتشن آقضوغان حسابات قنديل السورية، جريدة سطر)

امتدت ادعاءات لعب حزب العمال الكوردستاني دور "الستارة" من ربطه بالمخابرات السورية والإيرانية وحتى الإسرائيلية، إلى اعتباره امتداداً لهيئة الأركان العامة التركية. الأكثر من هذا، ارتفعت أصوات تبحث "بجينات" حزب العمال الكوردستاني، وادعت بصوت مرتفع أن المخابرات التركية شكلت هذا الحزب عام 1970.

عاد كمال بورقاي أحد أبرز القيادات الكوردية المعارضة لحزب العمال الكوردستاني إلى تركيا بعد غياب ثلاثين سنة في خريف عام 2011. وقبل مرور وقت طويل على عودته، بدأ يصرح بأن حزب العمال الكوردستاني منذ التأسيس كان من إنتاج الدولة التركية.

كان كمال بورقاي قد روى لي قناعاته هذه عندما التقيته في ألمانيا قبل عام من عرضها على الرأي العام التركي. وأبرز ضرورة ترك الحركة الكوردية السلاحَ، وخوضِ نضال سياسي، وادعى أن عبد الله أوجلان يمكن أن يترك السلاح؛ ولكن في حال طلبت الأركان العامة منه هذا. قال بورقاي: "وقع أوجلان بيد الدولة بعد أن قبض عليه عام 1999".

نقل بورقاي ملاحظات لافتة جداً حول أول هدنة أعلنها حزب العمال الكوردستاني عام 1993. التقى أوجلان في دمشق بعد تلك الهدنة مباشرة، ووقعا "بروتوكولاً" يبعث آمالاً كبرى على صعيد الحل السياسي للقضية الكوردية. وعندما قال بورقاي باعتباره أحد طرفي البروتوكول بين حزب العمال الكوردستاني والحزب الاشتراكي الكوردستاني: "انزعجت سورية من أول هدنة عام 1993. أما عبد الله أوجلان فقد كان راغباً حقيقة بالهدنة. كان أوجلان تحت تأثير سورية، ولكنه منفتحاً على المصالحة مع تركيا"، سررت كثيراً لأنه بعد عشرين سنة أكد انطباعاتي حول عبد الله أوجلان عندما التقيته في بر إلياس، ونقلتها إلى تورغوت أوزال.

أكد كمال بورقاي أن عبد الله أوجلان كان قريباً جداً من التفاهم مع الحكومة التركية، وقال: "تحوّل من طلب الاستقلال إلى الفيدرالية بالبروتوكول الذي وقعه معنا". مبرزاً أهمية البروتوكول. ما رواه لي مراد قرة يلان عام 2011 يؤكد هذا الأمر. أبرز مراد قرة يلان أهمية هدنة عام 1993، ووصف مؤتمر حزب العمال الكوردستاني عام 1995 بأنه "مؤتمر التغيير". تخلى حزب العمال الكوردستاني في ذلك المؤتمر عن مطلبه بالاستقلال، وحدد هدفه بحل القضية الكوردية المشترك "ضمن وحدة الأراضي التركية".

بعد قول بورقاي إن عبد الله أوجلان كان منفتحاً على "التصالح" مع تركيا، تابع قائلاً: "برزت رغبته بالتصالح بعد إلقاء القبض عليه. في عام 1999 تخلى عن مطالبه كلها وبرنامج حزب العمال الكوردستاني وحتى عن اسمه. ولكن القوى الدولية لم تسمح بعدم التسلح، فهي تريد استخدام حزب العمال الكوردستاني كأداة. أرادت استخدامه ضد الجنوب (كوردستان العراق). إن مشروع نقل قوى حزب العمال الكوردستاني خارج الحدود، نحو الجنوب تحديداً مشروع الدولة. أرادت الدولة (بمعنى الجيش) أن تستخدم حزب العمال الكوردستاني ضد الجنوب؛ لو لم تحتل الولايات المتحدة العراق. دفع الجيش آبو لإصدار قرار بترك خمسمائة عنصر من حزب العمال الكوردستاني في الداخل من أجل مهاجمة بعض المخافر عند الضرورة. كان عبد الله أوجلان بيد الأركان العامة من أجل استخدامه ضد حزب العدالة والتنمية والاتحاد الأوروبي...".

ويثق كمال بورقاي بأن خلفية العلاقة بين الدولة التركية وحزب العمال الكوردستاني تمتد إلى مرحلة تأسيس هذا الحزب.

أثناء حديثه عن تطور حزب العمال الكوردستاني، من اللافت قوله: "المخابرات التركية أسست حزب العمال الكوردستاني. في ما بعد، انتقل الحزب إلى سيطرة سورية. بعد ذلك دخل تحت هيمنة الأركان العامة". غير هذا، قدم تصريحات حول البنية الداخلية لحزب العمال الكوردستاني، وذكر اسم بعض قادته، ووصفهم بأن لهم علاقة مباشرة مع الأركان العامة.

ما رواه كمال بورقاي عن وجود علاقة مباشرة بين بعض الأسماء والأركان العامة، يتطابق بشكل مدهش مع ما رواه لي عثمان أوجلان ونظام الدين طاش وخليل أطاتش ممن شغلوا مراكز عليا في حزب العمال الكوردستاني عندما التقيتهم في أربيل وكويسنجق، وما سمعته من المسؤولين الكبار في المراكز الأمنية التركية أثناء تحضيري تقرير "النزول من الجبل" لصالح " TESEV ".

صارت لدي معلومات حول حزب العمال الكوردستاني والقضية الكوردية أكثر مما يعتقد الذين ينتقدونني نتيجة رؤيتي لهذا الحزب ويعارضونني. رؤيتي لحزب العمال الكوردستاني لم تنبع من عدم معرفتي بهذا الحزب وفهمه، بل على العكس تماماً؛ بسبب فهمي له أكثر مع الأيام، وفهمي له بشكل صحيح.

لم أتأثر كثيراً بالقول إن حزب العمال الكوردستاني تنظيم "ستاليني"، وليس تنظيماً ديمقراطياً؛ لأنني كنت في تنظيم ستاليني سري في فترة

الشباب، وأعرف ما يعنيه هذا من خلال التجربة. لهذا السبب، لا يمكن القول إن لدي معوّقاً فكرياً أو سوء فهم حول آلية عمل التنظيم الداخلي لحزب العمال الكوردستاني.

كما أنني قرأتُ مكتبة ضخمة حول حزب العمال الكوردستاني، وركّزت باهتمام خاص على مذكرات المسؤولين الكبار في الحزب، الذين اختلفوا مع عبد الله أوجلان لاحقاً وانشقوا عنه. عندما أقرأ ما كتبوه أو أستمع إليهم شخصياً أشعر وكأنني أقرأ أو أستمع إلى تجربتي الشخصية بين عامي 1969-1973.

ولكن هذا كله لم يُغير تقييمي لشخصية حزب العمال الكوردستاني الأساسية، وكونه خاض التمرّد الأوسع والأطول في تاريخ الجمهورية التركية، أو يؤثر عليه.

وهنا، لا بد من القول إن كلمة "تمرد" التي نعبّر فيها عن حزب العمال الكوردستاني تقابل بالإنكليزية " insurgency ". وتقابل كلمة "تمرد" بمعنى " revolt " أو " rebellion " باللغة التركية أيضاً. لم يكن حزب العمال الكوردستاني " Kurdish revolt " ولا " Kurdish rebellion " بالإنكليزية، وهو " Kurdish insurgency " بكل معنى الكلمة. وتعبر كل من " revolt " و" rebellion " عن تمردات أقصر وأقل شمولاً. ما يختلف في " insurgency " عن " revolt " أو " rebellion " هو أنه يتعرض لنزول وصعود، وحدوده ومدته غائمة، ويعرف حزب العمال الكوردستاني في تركيا بشكل أدق.

نتيجة رؤيتي لحزب العمال الكوردستاني، وتقييمي له على هذا النحو لم أصفه "إرهابياً" أو "منظمة إرهابية" في مقالاتي أو محاضراتي؛ على الرغم من بروز توقيعه على بعض العمليات الإرهابية. لقد رأيت بين عامي 1971-1973 من الداخل، وفي مختلف المنظمات الفلسطينية طرق المنظمات المقاومة عمليات إرهابية. ولكنني تعلّمت خلال وجودي في المقاومة الفلسطينية أن طرق سلاح "الإرهاب" وتنفيذ بعض العمليات "الإرهابية" فقط لا تجعل المنظمة إرهابية، وأعرف هذا.

وقد أفسحت في المجال من خلال تقريري "النزول من الجبل" لعلاقة منظمات التمرد "بالإرهاب"، وحتى لإمكانية وجود علاقة بين هذه المنظمات وتجارة المخدرات كما يُدَّعى حول حزب العمال الكوردستاني. ثمة مراجع وافرة لهذا الموضوع، وقدمت شواهد كافية من مصادر أكاديمية في تقرير " TESEV ".

لم يتغير تقييمي لحزب العمال الكوردستاني بكونه "تمرداً كوردياً" - وإن كانت للمخابرات التركية إصبع بتأسيسه - أو أنه دخل بعلاقات حميمة مع المخابرات السورية والإيرانية، وظهور علاقته بالمخابرات القبرصية واليونانية بعد إلقاء القبض عليه عام 1999، وحتى مخابرات بعض الدول الأوروبية الحليفة لتركيا؛ أو بوجود علاقات معقدة وغامضة بينه وبين الأركان العامة.

برأيي، إن تركيا - دولة وحكومة ورأياً عاماً - لو استطاعت اختيار "تغيير نموذجي" في موضوع حزب العمال الكوردستاني والقضية الكوردية باعتبار الحزب جزءاً منها، لكان الربع الأول من القرن الحادي والعشرين مختلفاً جداً.

كنت واثقاً من ذلك. لم يكن في حزب العمال الكوردستاني كتنظيم أي عنصر جذاب. ولكن هذا لم يحل دون فهم سبب كون كورد تركيا مؤيدين لهذا الحزب، وجذبه القوي للشباب بشكل خاص.

أي شخص يحاول معرفة الشعب الكوردي في تركيا عن قرب، ويحب هذا الشعب يعرف أن حزب العمال الكوردستاني "حالة نفسية" للكورد أكثر من كونه منظمة. حزب العمال الكوردستاني باعتباره "حالة نفسية كوردية" أهم بكثير من حزب العمال الكوردستاني باعتباره منظمة. وتلك "الحالة النفسية" هي التي تشكل القوة الدافعة للتمرد الكوردي.

XXIV - إما المساواة أو المساواة



"يبدو أن الأتراك سيدفعون غالياً ثمن افتقارهم للموهبة بتطبيق الدروس المؤلمة التي أخذوها من ولاياتهم العربية والروملية في كوردستان".

Arnold Toynbee & Kenneth Kirkwood, Turkey, Ernest Benn Ltd. London, 1926, p. 272

حزب العمال الكوردستاني "حالة نفسية" بالنسبة لجزء مهم من كورد تركيا. وهذه الخصوصية أهم من حزب العمال الكوردستاني كتنظيم. توصلت إلى هذا الإدراك في زمن مبكر جداً، وقد أفضيت به لرئيس الجمهورية تورغوت أوزال ذات مساء أثناء جولة في ديار بكر ووان عام 1992. قلت: "لن يكون التغلب على حزب العمال الكوردستاني كتنظيم صعباً جداً على الدولة. قوة هذا الحزب الحقيقية نابعة من دعم الشعب الكوردي له، ومن حالة هذا الشعب النفسية. يجب حل هذه المعضلة أولا. يجب تغيير

حالة الشعب النفسية. إذا تخلص الكورد من هذه الحالة النفسية، وبقي حزب العمال الكوردستاني تنظيماً فقط، فمن الممكن التغلب عليه". استمع تورغوت أوزال إلي بانتباه، ولم يعترض نهائياً على كلامي. وشعرت في ما بعد من خلال بعض أحاديثه وتصريحاته أنه لا يختلف معي بالرؤية.

في ذلك الوقت، كنت على قناعة بأن حزب العمال الكوردستاني نتيجة وليس سبباً، وليس هو ما أوجد القضية الكوردية، بل هو ثمرتها. وبالتأكيد، إن هذا ليس خطأً من ناحية الجوهر. كنت واثقاً بإمكانية تهميش حزب العمال الكوردستاني، وبالتالي التغلب عليه في حال خطت تركيا خطوات على صعيد الاعتراف بالهوية الكوردية، وأقدمت على إصلاحات. ولكن، يجب عدم الاستهانة بالوصول إلى نقطة لا يمكن العودة عنها في مطلع الألفية الثالثة.

الطرح غير الخاطئ في جوهره لم يعد يشكل فرصة حل بعد مرور العقد الأول من القرن الحادي والعشرين. فقد زالت إمكانية تهميش حزب العمال الكوردستاني وإنهائه عن طريق خطو الحكومة التركية بعض الخطوات على طريق حل القضية الكوردية.

على الرغم من خطو تركيا برئاسة طيب أرضوغان للحكومة وحزب العدالة والتنمية خطوات مهمة على طريق حل القضية الكوردية في العقد الأول من الألفينيات، إلاّ أنها لم تدخل إلى جوهر القضية، ويبدو أنها غير جاهزة للدخول بعد.

وإذا كانت خطوات كبيرة قد خُطيَت مقارنة مع الماضي، فإن التطورات الدولية والإقليمية تحصل بسرعة أكبر على صعيد مستقبل الكورد.

في الحقيقة، كان من الممكن تشخيص نتائج عدم دخول تركيا في جوهر القضية الكوردية، والمشاكل التي يمكن أن تنجم عن الأمر في العقد الأول من الألفينيات منذ بدايتها.

أثناء وجودي في مركز ويلسون في واشنطن عام 1999، عرض علي مورتون أبراموويتز سفير الولايات المتحدة الأسبق في أنقرة الذي يعمل في مركز دراسات يدعى " Century Foundation " كتابة أحد فصول كتاب حول العلاقات التركية الأمريكية يشرف على تحريره. يكتب كل فصل من فصول الكتاب كاتب. شارك في الكتاب غير مورتون أبراموويتز وأنا كل من فيليب روبنز، وهيث لوري، وألان ماكوفسكي، وزيا أونش، وجيمس ويلكنسون، ونشر في نيويورك بعنوان " Turkey's Transformation and American Policy /تحول تركيا والسياسة الأمريكية" في عام 2000. بعد 11 أيلول 2001 أعيد النظر في الكتاب، وأعيد نشره تحت عنوان " The

United States and Turkey-Allies in Need /الولايات المتحدة وتركيا – حليفان يحتاج أحدهما الآخر". كان كتّابُ الكتاب الثاني بالإضافة إلينا – مورتون أبرامويتز وأنا – هم فيليب روبنس، وهنري باركي، وجيمس ويلكنسون، وإرجان قومجو، ويالِم إرالب؛ وشارك عمر تشليك بناء على اقتراحي. دخلت الكتابَ مقالةُ عمر تشليك "تركيا ومستقبل الإسلام السياسي" التي كتبها بالتركية بعد ترجمتها إلى الإنكليزية. لم يكن حزب العدالة والتنمية موجوداً بعد في تلك الفترة، ولم يُعرف بعد أن عمر تشليك سيكون من أقرب الشخصيات إلى طيب أرضوغان.

فصول القضية الكوردية في الكتابين كتبها فيليب روبنس خبير الشؤون شرق أوسطية والتركية المعروف من جامعة أكسفورد. في الفصل المعنون " Turkey and the Kurds-Missing Another Opportunity? /تركيا والكورد – هل تُفوت فرصة أخرى؟" والذي أورِدُ منه أدناه مقتطفاً يطرح جوهر القضية، ويشير بملاحظة حادة إلى الوضع الذي سيظهر في أواسط العقد الأول من القرن الحادي والعشرين بسبب عدم التغلب على هذه القضية:

"على الرغم من عمر الجمهورية التركية القصير فقد كانت علاقتها صعبة مع سكانها الكورد. واجهت مشاريع الدولة التركية الكبرى كلها – بناء الدولة، وتشكيل أيديولوجية سياسية، وبناء مجتمع حديث، وتطوير الاقتصاد – التذبذب لدى غالبية الكورد والمقاومة. تعكس هذه القضية في أحد جوانبها هامشية المنطقة الكوردية، والسياسات التي تعطي الأولوية لمصالح العشيرة، وتبعية الأشخاص لعشائرهم والفكر المحافظ المنتشر في المجتمع، وتدني مستوى التعليم، وانخفاض حصة الفرد من الدخل القومي. أما الجانب الآخر، فهو تصور الدولة والشعب فكرتين متناقضتين تعتبران متماثلتين. مهما كانت الأسباب، فهناك حقيقة أن الدولة التركية فشلت بدمج سكانها الكورد فيها...

على ضوء عمق القضية وطول زمنها يجب ألا يتجاهل أحد صعوبة التقدم على طريق السلام. على الرغم من هذا، حدث تحولٌ حاد في المشهد السياسي عام 1999. لم تكن الظروف مؤاتية للسلام إلى هذه الدرجة منذ إعلان حزب العمال الكوردستاني هدنة من طرف واحد عام 1993، وجهود أوزال من أجل السلام. بطريقة ما، تم منح أمل للطرف الكوردي نتيجة عمليات الطرف التركي. وقد تحول قائد حزب العمال الكوردستاني عبد الله أوجلان من قائد يخوض نضالاً عسكرياً إلى مدافع عن المصالحة والتعاون نتيجة اعتقاله، وإعادته إلى بلده، ومحاكمته، وليكن هذا بسبب

جرأته أو خوفه. والأهم أن حزب العمال الكوردستاني أنهى النضال المسلح في 2 آب 1999، وأصدر أمراً بالانسحاب من الأرض التركية.

إن تغييراً كهذا في القضية التركية لا بد له أن يطرح سؤالاً حول مدى مناسبة البدء بالمفاوضات من أجل حل سلمي شامل ودائم. لا بد أن يتضمن هذا الجانب مركزي الأهمية ثلاثة أسئلة. الأول، هل يمكن قبول عبد الله أوجلان – وحزب العمال الكوردستاني – كشريك في حل المشكلة الكوردية؟ الثاني، ما الذي تتضمنه الحلول التي ستنتهي إليها مرحلة السلام ضمن السيناريوهات المستقبلية المحتملة؟ الثالث، ما هي كلفة السير في هذا الطريق؟

"... جوهر القضية التركية – الكوردية هو الاختلاف في النظرة بين الدولة والذين يعتبرون أنفسهم كورداً داخل أرض تركيا حول هويتهم وحقوقهم... وهناك الخلاف الأيديولوجي أيضاً. الكثير من الكورد يطالبون بحق التنظيم السياسي والثقافي باعتبارهم كورداً. بالمقابل، تصرّ الدولة التركية على أن يكون كل شيء بالهوية التركية. ولكن هذه ليست قضية آنية، بل إنها قضية تمتد جذورها على الأغلب إلى حركة تركيا الفتاة في أواخر القرن الماضي، ويتجاوز عمرها عمر الجمهورية. إضافة إلى التناقض بين مفهومي القومية وحق تقرير المصير، هناك الاصطدام بالبعدين الإقليمي والعالمي، وهناك أدلة قوية تدل على أن هذا الخلاف بالرؤية لن يُزال تلقائياً...". (Philip Robins, Turkey's Transformation and American Policy, A Century Foundation Book, 2000, p. 61, 62 and 65)

ما زال هذا التقييم المقدم عام 2000 محافظاً على صلاحيته رغم مرور السنين. الأهمّ من هذا أن ظاهرة جديدة جداً نتجت عن حرب العراق عام 2003 بحصول هذا البلد على بنية فيدرالية؛ مما أضاف عنصراً جديداً زاد من ثقل المشكلة الكوردية في تركيا في الوقت الذي لم تستطع فيه حل قضيتها. كانت الفيدرالية بنية سحرية لا يمكن التخلي عنها من أجل المحافظة على الكورد ضمن وحدة البلد. ولم تبق هذه الوصفة عند حدود توحيد ثلاث محافظات في شمال العراق تحت اسم "إقليم كوردستان" الذي يمنح الكورد استقلالاً فعلياً، فقد خُصِّصَ مقعد رئاسة الجمهورية (جلال طالباني)، مع وزارة الخارجية (هوشار زيباري) التي تمثل البلد خارجياً في الإدارة المركزية للكورد. وحصل مسعود برزاني على رئاسة إقليم كوردستان بالانتخابات. الوضع الذي حصل عليه الكورد في العراق جعلهم قوة فاعلة؛ ليس على الصعيد الإقليمي فحسب، بل على الصعيد الدولي أيضاً.

وأصبح من المستحيل على كورد تركيا الذين يشكلون أكثر من نصف الكورد جميعاً، أن يقبلوا مكاسب أقل من مكاسب أبناء قوميتهم في العراق الذين يتواصلون معهم جغرافياً، أو وضعاً أقل من الوضع الذي حققوه. ولكن مبادرات حل القضية الكوردية في تركيا لم تأخذ هذه الحالة بعين الاعتبار نهائياً.

للوضع القانوني الذي حصل عليه كورد العراق مع الحرب عام 2003 أهمية قصوى على صعيد حل القضية الكوردية في تركيا. وقد عبّرتُ عن هذه الأهمية قبل هذا بكثير من خلال مقالتين نشرتهما بشكل متتالٍ في جريدة صباح عام 1995. الفكرة المشتركة بين المقالتين هي:

للقضية الكوردية تعريفات مختلفة، وكل منها يحمل أمراً صائباً. أحدها قضية عدم حصول الكورد على "دولة" كما ذكرت سابقاً، وبناء دول قومية في الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الأولى (كما ذكرت سابقاً أيضاً). ظهرت لكل مجموعة قومية دولة؛ للعرب أكثر من دولة، وأكثر من اللازم. وأضيفت إلى هذا التنظيم الإقليمي إسرائيل باعتبارها دولة قومية يهودية. وقد حُرِمَ الشعب الكوردي الكبير الذي يسكن الشرق الأوسط من تأسيس دولة، وقُسِّم على عدة دول قومية. في هذه الحالة، لا يمكن أن تُحل القضية الكوردية قبل أن يؤسس الكورد دولتهم القومية أو يحظوا بوضع يشعرهم بأنهم جزء لا يتجزأ من تلك الدولة أو الدول. تحقيق الخيار الثاني غير ممكن إلا في حال خضوع الدولة التي يعيشون فيها إلى تغيير جذري يشعرهم بأنهم ليسوا بحاجة لتأسيس دولة أخرى بهويتهم.

في عام 2003 وبعده، تحقق في العراق الخيار الأول بنسبة كبيرة من خلال كون رئيس الجمهورية ووزير الخارجية كورديين، وتشكيل بنية مستقلة بنسبة كبيرة. أما الخيار الثاني الذي أقترحه، فهو نموذج تركيا عضو الاتحاد الأوروبي التي تطبق معايير الاتحاد كلها. في المرحلة الأولى من مطلع الألفينيات قطعت تركيا مسافة طويلة على هذا الطريق، ولكنها لم تبلغ النضج اللازم والكافي لبقاء الكورد طواعية ضمن بنيتها.

تأثير تركيا الفتاة والاتحاد والترقي على الدولة التركية؛ الممتد إلى مطلع القرن العشرين يمنع الأتراك من رؤية الكورد مواطنين في تركيا بكل معنى الكلمة.

وجدت "الجينات" المذكورة في نص يعود إلى عام 1911. أرسل إلي الدبلوماسي الشاب غورجان بالِق الذي عمل مديراً للمكتب الخاص بوزير الخارجية أحمد داوود أوغلو ويلفت النظر بجانبه الأكاديمي مقالةً غريبة

من الأرشيف عندما كان يعمل في لندن. المقالة المنشورة في عدد تموز/كانون الأول 1911 بعنوان " Turkey Still the Sick man of Europe /ما زالت تركيا رجل أوروبا المريض" وتحمل توقيع " Dr. E.J. Dillon " وتشير إلى جذر المرض البنيوي لذهنية الدولة التركية.

كتب د. يلون مقالته الطويلة بعد أن عاش فترة طويلة في اسطنبول أيام المشروطية عام 1908 التي توصف بأنها "ثورة"، وحُكْمِ الاتحاد والترقي البلد من خلف ستار، والتقى وجهاً لوجه العديد من إداريي البلد، وتوصل إلى نتيجة مفادها أن تركيا لن تستطيع أن تتغير. وبعد أن عدد أسباب عدم استطاعتها التغيُّر، توقع عدم تمكن الدولة العثمانية من الاستمرار طويلاً.

نشرت المقالة قبل حرب البلقان. بعد سنة من نشر المقالة، في 8 تشرين الأول 1912 اندلعت حرب البلقان، وبعد سبعة أشهر من اندلاعها فقدت الدولة العثمانية منطقة روملي التي تعد قلب البلد والدولة، لهذا ستغدو تاريخاً بعد فترة من الحرب العالمية الأولى 1914-1918 التي كانت قد أنهت عمرها.

يُسمّى المرض الذي تطرح المقالة بوضوح أنه أدى إلى انتهاء الدولة العثمانية وقد ورِثته الجمهورية بعنوان فرعي: "القومية العدوانية لتركيا الشابة"، وتلفت الانتباه الأسطر الواردة تحت هذا العنوان. يشير الكاتب إلى انزعاج المفكرين والسياسيين الأوروبيين القريبين من تركيا من "ممارسات النظام الجديد القومية الضيقة، ومحاولة تتريك المواطنين الروم العاملين في الإدارة؛ لأن هذا يشبه محاولة قطف التين من نبتة شوك الجمل، ومن السرعة الطائشة بتلك الممارسات"، ويقول إنه يمكن أن تكون "نصائح أصدقاء تركيا هؤلاء كافية".

أما بالنسبة إلى تلك النصائح: "لا تحاولوا تجريد مواطنيكم الذين يشكلون غالبية سكانكم من هويتهم القومية خلال سنة. طبقوا ذلك تدريجياً. إذا كان لديكم طموح بالتذويب القومي، فليكن. ولكن، لا تجعلوه من أهداف سياستكم الملحة. يمكن أن تترّكوا رومكم وعربكم وبلغاركم وألبانكم مع الزمن والتعامل بالحسنى، ويمكن أن تسمّوا هذه العملية "عَثمنة". ولكن، عليكم أن تعطوا الزمن فرصة، وأن تستخدموا أدوات مؤثرة. العنف لا يجلب إليكم الحب. لا يمكن أن تحققوا هدفكم بإصدار التعميمات. وفي هذه الأثناء، عليكم أن تتجنبوا استفزاز هذه الشعوب بالتهديد والحظر... ما تفعلونه الآن هو محاولة تحقيق المستحيل، وتعريض

هدفكم للفشل، ومحق دعوى جيدة، وتعريض مستقبل بلدكم إلى الخطر. لا تنسوا أن السياسة هي فن عمل الممكن".

تستمر المقالة بعد قسم "نصائح أصدقاء تركيا الجديدة" بهذه الأسطر:

"يبدو أن هناك سياسيين من الفئة الثالثة مهووسون بالمركزية التي تعتبر من أكبر أخطاء تركيا الفتية. يريد حكام البلد أن يفعلوا الكثير. ونتيجة لهذا، لا بد من وصولهم إلى درجة من الانفلات. وسيبقون قلقين حتى يجعلوا من لم ينحنِ راضخاً. لم يعد بإمكانهم إدارة أجزاء الدولة العثمانية كلها من اسطنبول، وحتى إذا استطاعوا فإنهم سيُسحقون تحت غباء محاولة سحب الإدارة الذاتية من القومية الأخرى. كانت المركزية مجرد شكل في عهد عبد الحميد. في الحقيقة، إن القوميات كانت تدير نفسها بنفسها. استفيدوا من الإدارة الذاتية... دعوا تلك الشعوب تدير نفسها حتى تتمكن من إيجاد الرجال والنقود والثقافة الكافية للتخلّص من الأعباء وللمحافظة على الخصائص القومية. ودعوها وهي في هذه الحال، أي دعوها تدير شؤونها بحرية طالما أنها تعمل على حماية الدولة؛ وبهذا تكونون قد فعلتم جيداً".

انطلاقاً من نصائح "أصدقاء تركيا" لمواجهة المخاطر التي ستؤدي إليها القومية المركزية لتركيا الفتاة (الاتحاديين)، تبرز أهمية الإدارة الذاتية والمحلية للمجموعات القومية في الدولة بالتلميح تارة والتصريح تارة أخرى. وبتعبير آخر، كان يُرى أن اللامركزية ضرورة حياتية من أجل استمرار الدولة. ولكن المقالة تبدي تشاؤماً من إمكانية عدم تطبيق الاتحاديين هذه النصائح، واستمرار الدولة.

توضَّح هذه الرؤية المثيرة للتفكير بتقييم يستمر إلى يومنا هذا تحت عنوان فرعي آخر: "لماذا لا يمكن أن توجد تركيا الفتية؟":

"لا يختلف رأيي بالثورة التركية وإمكانية عيش الدولة الحديثة القائمة مكان القديمة. ناقشت القادة القوميين والبطركيتين المسكونية والأرمنية بعد اطلاعي على القضية بالتفصيل من مصادرها ومن آراء كامل باشا وحقي باشا وشريف باشا والأمير صباح الدين. ما سمعته ورأيته هناك أثناء زياراتي اللاحقة المتكررة يؤكد رؤيتي منذ البداية بأن الثورة تحاول إجراء مصالحة بين متناقضين. إنها تحاول توحيد نعم ولا، وجمع الثلج والنار. لهذا السبب، إن فرصة نجاحها كفرصة إمكانية إفراغ مياه المحيط بالشوكة. يمكن للنظام أن يتجاوز العوائق والصعوبات التي تواجهه أو لا يتجاوزها، ولكن هذا لا يغير النتائج... بالنظر إلى المعطيات المتوفرة بين أيدينا، أرى أن تركيا الفتية

متناقضة بذاتها، وثمرة خيال لا يمكن أن يعيش. إن تخلت الهيئة (الاتحاد والترقي) عن لعب الطميمية ووافقت على الحكم المباشر ملتزمة بالدستور؛ أو تخلت عن خطتها بالمركزية الشديدة، وإن كبحت غضبها من القوميات وتخلت عن معاقبة الألبان على استخدامهم الأحرف اللاتينية، وإن أدارت ظهرها لألمانيا وسارت مع الفرنسيين والإنكليز فلن تتغير النتائج...

يواجه مشروع تركيا الفتاة بإسقاط الخليفة، والتخلي عن أحكام القرآن، وتحويل الإسلام إلى مجموعة سياسية، وتقديم حق المواطنة لكل مسلم متدين ولكل من يبثون كراهيته على أنه كافر في حال لم يجففوا جذوره صعوباتٍ كبيرة أيضاً. لأن الإسلام لم يكن مجموعة قومية في أي وقت. بل إنه مجموعة عقائدية، وهو دين أممي؛ مثله مثل المسيحية والبوذية، ويميز بين الأفراد حسب أديانهم وليس حسب قومياتهم، ولم يشكل وحدة سياسية قط. كانت تركيا السلاطين جميعاً حتى عهد عبد الحميد مجموعة دينية تدير بقية الأديان. نظرت إلى كلّ من الرومي والأرمني والبلغاري حسب عقيدته وليس حسب قوميته. ومن الواضح تماماً أن بنية دينية كهذه لن تتحول في لحظة إلى دولة سياسية. على الرغم من هذا، إنّ تركيا الفتاة تعتقد أن هذا ممكن، وتتحرك انطلاقاً من فرضية أنها تستطيع تحقيق هذا.

برأيي، القضية لا يمكن أن تُحل".

رؤوس الخيوط التي وضعها أرنولد تونبي عام 1926 بالنتيجة التي توصل إليها – ومفادها "يبدو أن الأتراك سيدفعون غالياً ثمن افتقارهم للموهبة بتطبيق الدروس التي تعلموها بالتجربة من الولايات العربية والروملية في كوردستان" – وردت في مقالة الدكتور ديلون لعام 1911 حول ألبانيا. تمرد ألبانيا المنفجر نتيجة عدم تلبية مطالبها الممكنة جمع صربيا وبلغاريا واليونان في تحالف يستند إلى روسيا التي تتحين الفرصة للانقضاض على الدولة العثمانية؛ مما أدى إلى نشوب حرب البلقان، ونتيجة لهذه الحرب فُقدت روملي.

كتب ديلون عام 1911 ما يلي:

"لا يمكن الدفاع عن طريقة تعامل تركيا الفتية في ألبانيا، ولا يمكن فهمها أيضاً. كان الألبان أكثر أصدقاء تركيا إخلاصاً في عهد عبد الحميد. وكان حراس السلطان الموثوقون من هذه القومية. ويعرف السلطان الماكر كيف يرضيهم. فتح خلفاؤه صفحة جديدة، وكان القمع دواءهم لكل داء. منعوا استخدام الأحرف اللاتينية في اللغة الألبانية، وأجبروا الألبان على

استخدام الأحرف التركية (الأحرف العربية التي تكتب بها التركية القديمة - المؤلف) التي لا تعبر عن أصواتها بشكل جيد. وفرضوا عليهم إجراءات جعلتهم يكرهون أنفسهم لتعليم التركية... انزعج الألبان من هذا التدخل بشؤونهم. بالنتيجة، توترت العلاقات بين تركيا وألبانيا، وأدّت الحرارة المتولدة من الاحتكاك إلى إشعال اللهب بعد فترة قصيرة. أُرسل تورغوت باشا مع قواته من أجل إخماد التمرد. الظلم الوحشي أكسبه صفة سترافقه مع الأجيال. فقد اعتبر كونهم ألباناً كافياً لقتلهم؛ من دون التمييز بين الصديق أو العدو. في هذه الأثناء، أرسلت الدولة السرية ممثلين لاستفزاز الألبان المسيحيين ضد الألبان المسلمين، وإيقاع الثأر بينهم. هذا استمرار طبيعي للسياسة القومية العدوانية. تعاضد الألبان في ما بينهم، لأنهم كانوا مصممين على حماية لغتهم وتقاليدهم القومية".

كانت للألبان مطالب باستخدام الأحرف اللاتينية في اللغة الألبانية، إضافة إلى مطالب إدارية غير التعليم باللغة الأم. فقد طالب الألبان بجمع ألبانيا اليوم مع كوسوفو ومقدونيا في بنية إدارة واحدة، وبهذا يُزال تقسيمهم. ولا ضرورة للقول إن العقلية الاتحادية رفضت هذا المطلب أيضاً.

يمكن أن يكون للإنكليز موقف مسبق من الأتراك أثناء انتقاد الاتحاديين، ولكن موقف تركيا العثمانية - بإدارة الاتحاديين - من مطالب الألبان الأقرب إلى اسطنبول في البلقان، تكرر في تركيا الجمهورية بإدارة الكماليين مع الكورد، ولهذا يمكن القول إن تشخيص ديلون عام 1991 وتقييم تونبي عام 1926 مصيبان إلى درجة كبيرة.

أسست تركيا الجمهورية التي جاءت بعد المرحلة الأخيرة من الدولة العثمانية التي يسميها ديلون "تركيا الفتية" دولتها على جغرافية أضيق بكثير مقارنة بالدولة العثمانية وارثة الذهنية نفسها. الدولة الجديدة التي تمرد أرمنها وأزيلوا، وخُفِض عدد رومها وأُبطِل تأثيرهم، ولم يبق فيها بلغار، حاولت تطبيق ذهنية "تركيا الفتية"، ولكن الكورد كشعب كبير على جغرافية واسعة من الدولة المتضائلة مساحتها برزوا أمامها كعائق.

بالفعل، لم تبق "تركيا الفتية" تلك، وجلبت معها نهاية الدولة العثمانية. أما تركيا الجمهورية، وبالعقلية التي ورثتها، جعلت القضية الكوردية قضية وجود.

وبقدر ما كان "اختلاف الرؤية الأساسية" لكورد تركيا "أيديولوجياً" فإن مطالب كورد تركيا بالنسبة إلى الدولة التركية قضية وجودية. ومن دون إعادة النظر في مبادئ تأسيس الجمهورية التركية من أولها إلى آخرها،

وتجديدها وفق حيويات القرن الحادي والعشرين، لا يمكن أن تُحل القضية الكوردية، ولا يمكن التغلب على نتائجها أو نتائجها المحتملة.

لهذا السبب، أُغلِق أمام المبادرة التي انطلقت عام 2009 تحت اسم "الانفتاح"، وكانت قد أججت آمالاً كبرى بأنه تم التوجه أخيراً نحو حل القضية الكوردية.

كنت من بين الصحفيين الذين تمّت دعوتهم لمرافقة رئيس الجمهورية عبد الله غول في زيارته إلى نيويورك لحضور الاجتماع السنوي للهيئة العامة للأمم المتحدة. وصلنا إلى نيويورك بعد استراحة قصيرة في ريكيافيك عاصمة أيسلندا. نزلنا في فندق بلازا التاريخي الواقع في مدخل الشارع الخامس للحديقة المركزية. جاء بهروز جلالي ممثل طالباني في أنقرة لسنوات طويلة إلى لوبي الفندق ليصطحبني إلى رئيس الجمهورية العراقية.

نزل طالباني في أحد فنادق حديقة باتيري على طرف نيويورك الجنوبي. بدا لنا أننا قادرون على لمس تمثال الحرية الشهير الذي يقطع البحر مترامي الأطراف لو مددنا أيدينا من نافذة الغرفة. كان هناك عدد من الوزراء المرافقين له. دخلنا في حوار حار حول الفترة الأخيرة من المرحلة العثمانية. بعد خروج الوزراء، وبقائنا على انفراد، دخل في الموضوع "المحرم" الذي يريد أن يطلعني عليه.

قال: "أنا دخلت في الموضوع ثانية. فأنا أتوسط في مباحثات الحل بين حزب العمال الكوردستاني وحكومتكم". وأضاف ملمحاً إلى الفترة التي لعبنا فيها دوراً في عهد طورغول أوزال: "أنا الآن أنفخ على اللبن بسبب ما حل بي في المرة الماضية. عندما انسدت الأمور، تعرّضت لإهانات كثيرة وكأنني أنا السبب كما تذكر. قيل إنني متلاعب ومتذبذب، والكثير غير ذلك... هذه المرة، أراقب مع رئيس الحكومة طيب أرضوغان كل خطوة تخطى. وأتحرك عندما أتلقى منه عبارة أنا على علم بهذا. أمشي بخطى واثقة. فأنا لا أستطيع تحمل الإهانات نفسها هذه المرّة".

مهما يكن، إن ذاك أيضاً كان رئيس جمهورية؛ وإن اختلف الوضع.

بحسب المعلومات التي أطلعني عليها جلال طالباني، فقد بدأ مع مسعود برزاني العمل مع مستشار المخابرات التركية إمره طانر بعلم طيب أرضوغان وتكليفه. توسط طالباني بمفاوضات بين الدولة التركية وقادة حزب العمال الكوردستاني في قنديل. وتجري لقاءات بين الطرفين في أوروبا.

طلب مني الإبقاء على سرية هذه "المعلومة"، فتدخلت قائلاً: "لا أعتقد أن هناك مشكلة في المباحثات بين الدولة التركية وحزب العمال

الكوردستاني. ليس هناك اسم مؤثر أكثر من عبد الله أوجلان في حزب العمال الكوردستاني؛ وهذا في إمرلي. ولا أعتقد أن المسؤولين الأتراك - وعلى رأسهم العسكر - لا يلتقونه. لا بد أن المشكلة تكمن في انقطاع المباحثات...".

على الرغم من هذا، أكد طالباني أن التطورات التي يتوسط فيها تعتبر مرحلة جديدة. وسألني عن رأيي بالمواضيع التي يمكن بحثها مع عبد الله غول في نيويورك بعد يومين. كانت تلك هي المرة الأولى التي سيلتقي بها رئيس الجمهورية التركية رئيس الجمهورية العراقية في مرحلة ما بعد صدام.

كان جلال طالباني يفكر بدعوة عبد الله غول إلى بغداد، وأخذه إلى كوردستان العراق وحتى إلى كركوك. والأكثر من هذا، كان يريد أن يقترح عليه زيارة النجف؛ المدينة الشيعية المقدسة حيث يقيم المرجع الشيعي آية الله العظمى علي سيستاني، لكي لا تبدو الزيارة محصورة بالعلاقات التركية الكوردية. ولكن نيته الأساسية كانت أخذ رئيس الجمهورية التركية إلى كوردستان العراق.

بعد ستة أشهر تقريباً، كنت أرافق عبد الله غول في الطائرة إلى طهران في 10 آذار 2009. في الطريق، كان رئيس الجمهورية يتحدث مع ثلاثة صحفيين أنا أحدهم كما يفعل عادة. كان هدف الزيارة إلى طهران هو منظمة التعاون الاقتصادي. ولكن الأوساط الدبلوماسية العالمية كان لديها فضول لمعرفة ما إذا كان عبد الله غول سيتوسط بين الولايات المتحدة وإيران في الملف النووي الإيراني. أثناء الحديث في الطائرة حول هذا الموضوع، انتقل إلى القضية الكوردية، وقال: "قريباً ستسمعون أموراً جيدة".

جملته هذه المؤلفة من أربع الكلمات خبّطت تركيا. أثناء العودة في اليوم التالي -11 آذار - رجوته أن يشرح لي هذه الجملة أكثر. أجابني: "لنترك الموضوع عند هذا الحد. يمكن أن تتأذى ما قلت إنها أمور جيدة...".

في تموز من ذلك العام (2009)، كنتُ في ناحية بهتشة سراي (موكوس) التابعة لمحافظة وان على سفح جبل يُقطع عن العالم الخارجي ثمانية أشهر من العام. عدت إلى وان مساء 29 تموز. كانت تدور في الوسط كلمات وزير الداخلية بشير أطالاي التي أطلقها في مؤتمر صحفي مهم. لم أفهم ما قاله تماماً، ولكن يبدو أنه في الاتجاه نفسه مع كلمات عبد الله غول: "ستحدث أمور جيدة في القضية الكوردية قريباً".

في صباح 30 تموز الباكر، وأثناء انطلاقي من وان إلى ضوغو بيازيد المجاورة لجبل أغري، ألقيت نظرة على الجرائد التي اشتريتها من مرادية.

صرح بشير أطالاي بأن ما قاله رئيس الحكومة عام 2005 في ديار بكر ما زال قائماً، وأن القضية الكوردية على جدول أعمال حزبه بشكل دائم، وتحدّث عن "انفتاح" في هذا الموضوع. وأبرز أن "هناك فرصة مهمة لحل القضية الكوردية. وإن لم يكن هناك تطابق بين الحكومة ومؤسسات الدولة، فهناك توافق".

غير هذا، قال بشير أطالاي: "سيُطبّق حلٌ خاص بتركيا نموذجياً في العالم". وصرّح بأن أصحاب الرأي في الموضوع سيجمعون قريباً جداً، وتُعقَد سلسلة اجتماعات معهم.

الكثير من الذين يعرفونني في ضوغو بيازيد سألوني عن رأيي بما قاله أطالاي قبل يوم. كان في ذهني ما قاله طالباني في نيويورك قبل عشرة أشهر، وما قاله عبد الله غول في الطريق إلى طهران قبل أربعة أشهر، ولكنني بعيدٌ عما يجري في كواليس أنقرة من أجل تحديد ما يمكن فعله حقيقة.

غادرت ضوغو بيازيد إلى وان مساء باتجاه الشرق بمحاذاة شاطئ البحيرة الغربي. وبينما كنت متجهاً نحو تطوان جاءني اتصال من أنقرة. كان بشير أطالاي يدعوني إلى اجتماع يتناول "الانفتاح" في الأول من آب.

أعرف بشير أطالاي منذ أن كان أستاذاً مساعداً في جامعة أتاتورك في أرضروم. وكنا معاً في الهيئة التركية المدعوة إلى احتفالات الذكرى الثالثة للثورة الإسلامية الإيرانية عام 1982.

عندما وصلت إلى أكاديمية الشرطة صباح الأول من آب، أُبلغت أن الوزير أطالاي ينتظرني في وزارة الداخلية. ذهبتُ إلى وزارة الداخلية، فقال لي أطالاي "إنه لا يرغب بأن يتحدث في اجتماع بعد الظهر، وهناك شيء يريد أن يبلغني به، لذلك طلبني لنلتقي على انفراد". تحدثنا حوالى الساعة. ولكنني لا أعتقد أنني قلت شيئاً خاصاً لأنه لم يبق لدي ما لم أقله في موضوع القضية الكوردية. قلت: "هناك ما أريد أن أنبهكم إليه بعد إذنكم. ذهبت إلى الكثير من المناطق في هذا الصيف، وعندما تلقيت دعوتكم كنت في نواحي وان. لقد أدخلتم الشعب الكوردي بحالة انتظار؛ مما يفرض عليكم المتابعة. لقد رفعتم ذراع السرعة، ولا يمكنكم رفع قدمكم عن دواسة الوقود. لا يمكنكم الضغط على الفرامل؛ لأن التوقعات الكبرى التي فتحتم لها ستكون نتائجها خطيرة جداً إذا خيبت الآمال".

قال لي: "رئيس الحكومة رجل سياسة مختلف جداً، وهو يعدّ حسابات سياسية، وغامر بالانفتاح، وعلى أمثالنا أن نشجعه".

أبلغته بأنني سأقدم له دعماً غير محدود في أي خطوة جريئة يخطوها على صعيد حل القضية الكوردية.

واجه القوميون اجتماع أكاديمية الشرطة بردة فعل حادة. أعلن رئيس حزب الحركة القومية دولت بهتشلي المشاركين بالاجتماع يومئذ "اثني عشرية سيئة". كان المشاركون في الاجتماع 15-16 شخصاً، ولا يمكن القول إنهم كانوا خياراً موفقاً. فهم مجموعة من كتاب الزاويا والأكاديميين وممثلي الصحف الكبرى في أنقرة من الذين لم يهتموا كثيراً بالقضية الكوردية، ولم يبذلوا جهداً في هذا الموضوع. لهذا السبب، لم يكن لدي شك بأن دولت بهتشلي يقصدني بقوله "اثني عشرية سيئة".

أكثر المشاركين تحدثوا أكثر من مرة. وأنا تحدثت مرتين. الجانب الأهم الذي أبرزته برأيي هو أنه "يجب تحديث التوافق الكوردي التركي التاريخي؛ وهذا بحاجة إلى عقد اجتماعي جديد". حتى إنني ضربتُ مثالاً ملموساً بطرح إمكانية تحديث المصالحة التي تم التوصل إليها مع إدريسي بتلسي.

شعرت بأن هدفي لم يفهم.

تشكلت سياسة تركيا في القضية الكوردية على أساس السياسة الموروثة من المرحلة العثمانية الأخيرة. لهذا السبب، يجب النظر إلى ما نُفِّذ منذ المرحلة العثمانية إلى اليوم من أجل فهم السياسة الحالية.

لم يكن الكورد المنظَّمون في بنية عشائرية مسيطرين في الدولة العثمانية بداية. واستمرت الإقطاعيات الكوردية مستقلة فترة طويلة شرط دفع الضرائب ودعم الدولة بالجنود. وقد اختار السلاطين العثمانيون الاتفاق مع الإقطاعيات والعشائر الكوردية في الجبال الشرقية التي يسمونها "كوردستان". واعتقدوا أن كوردستان بهذه الطريقة تكون مستقلة، وأنه يمكن استخدام الكورد السنة بغالبيتهم ضد الدولة الصفوية التي أعلنت أن الشيعية مذهب الدولة الرسمي. وشكل الإيقاع بين العشائر، وتقسيمها، وإعاقة توحدها السياسي أساساً للسياسة العثمانية نحو الكورد.

سياسة فرّق تسد التي تهدف إلى عدم توحيد الكورد جزء من تَرِكة آلت إلى الجمهورية التركية من العثمانيين.

على الرغم من هذا، إنّ سياسة العثمانيين المعتمدة على بسط النفوذ على كوردستان عبر المذهب السني، وتشكيل منطقة عازلة قوية في مواجهة إيران أجبرتهم على عَقْد المصالحة مع الإقطاعيين الكورد. تمت المصالحة في

القرن السادس عشر بواسطة إدريسي بتلسي الذي كان يعمل في القصر العثماني بإعلان خمسة وعشرين رئيس عشيرة ولاءهم للدولة. ومنحهم السلطان سليم (الجبار) حق صك النقود ورفع خطب الجمعة بأسمائهم وعدم تغيير حدود إقطاعياتهم مقابل عدم عصيان الدولة.

أفضل وثيقة تنير العلاقة العثمانية - الكوردية في القرن السادس عشر هي أمر السلطان العثماني سليمان القانوني الذي خَلَف السلطان "سليم"؛ الأمر المسمى "الحكم الشريف".

أثناء وجودي في حركة الديمقراطية الجديدة، وعملي على إيجاد موقف من القضية الكوردية عام 1994 وصلني تقرير يتضمن "الحكم الشريف" الصادر بمناسبة اتفاق إدريسي بتلسي مع زعماء الكورد. وهكذا، دخل "الحكم الشريف" إلى أرشيفي الشخصي.

نَصَ الأمر - أي الحكم الشريف - الموجود أصله في أرشيف قصر طوب قابِ في بعض مواضعه على ما يلي:

"... الذين يجابهون الرؤوس الحمر في عهد السلطان سليم الجبار، وقدموا خدمات مباركة مُثبتة، ويقدمون الآن خدماتهم للدولة مباشرة... مقابل مشاركة السادة الكورد بهزيمة الرؤوس الحمر، وتقديم خدمات خيّرة في هذا الأمر، وإعلانهم الولاء، وبأخذ طلبهم واسترحامهم بعين الاعتبار، تصدر براءات تصرّف بالولايات والقلاع التي في أرضهم، ويُحسن إليهم بتمليك ما لديهم من ولايات وقلاع ومدن وقرى ومزارع بمحاصيلها كلها؛ حيث تؤول إلى أبنائهم. ويجب ألا يدب بينهم أي خلاف أو صراع في هذا الموضوع، وألا يُتدخل في شؤونهم من الخارج. يُراعى هذا الأمر الجليل، ولا يُبدّل أو يحرّف أي جزء منه بأي شكل من الأشكال. عندما يموت السيد لا تلغى الولاية، وتبقى على حدودها، وتنقل إلى ابنه إذا كان وحيداً، ويتقاسم قلاعها وأراضيها الأبناء في حال تعددهم. وفي حال اختلافهم، يُنفذ ما يراه سادة كوردستان، وستبقى هذه الأماكن ملكاً لهم يتصرفون بها كما يشاءون إلى الأبد. لا تمنح الولاية لغريب أو لشخص من خارج الولاية إذا مات السيد من دون أن يترك وريثاً أو قريباً. يبحث سادة الكورد الأمر، ويكلفون من يرونه مناسباً من سادة المنطقة أو أبنائهم بها".

هذا الأمر نوع من الإدارة الذاتية الكوردية في ذلك العصر. عاش الكورد ثلاثة قرون من القرن السادس عشر إلى أواسط القرن التاسع عشر بنوع من الإدارة الذاتية. وعندما حُددت الامتيازات التي حصلوا عليها بموجب "حكم القانوني الشريف" أو ألغيت في عهد التنظيمات، بدأ تمرد

البدرخانيين الكوردي.

ونظراً إلى كون مشروع الجمهورية التركية بجوهره مشروعَ دولة قومية أُلغيت "اتفاقية" القرن السادس عشر نهائياً. نتيجة هذا، شهد تاريخ الجمهورية تمردات كوردية بمستويات مختلفة.

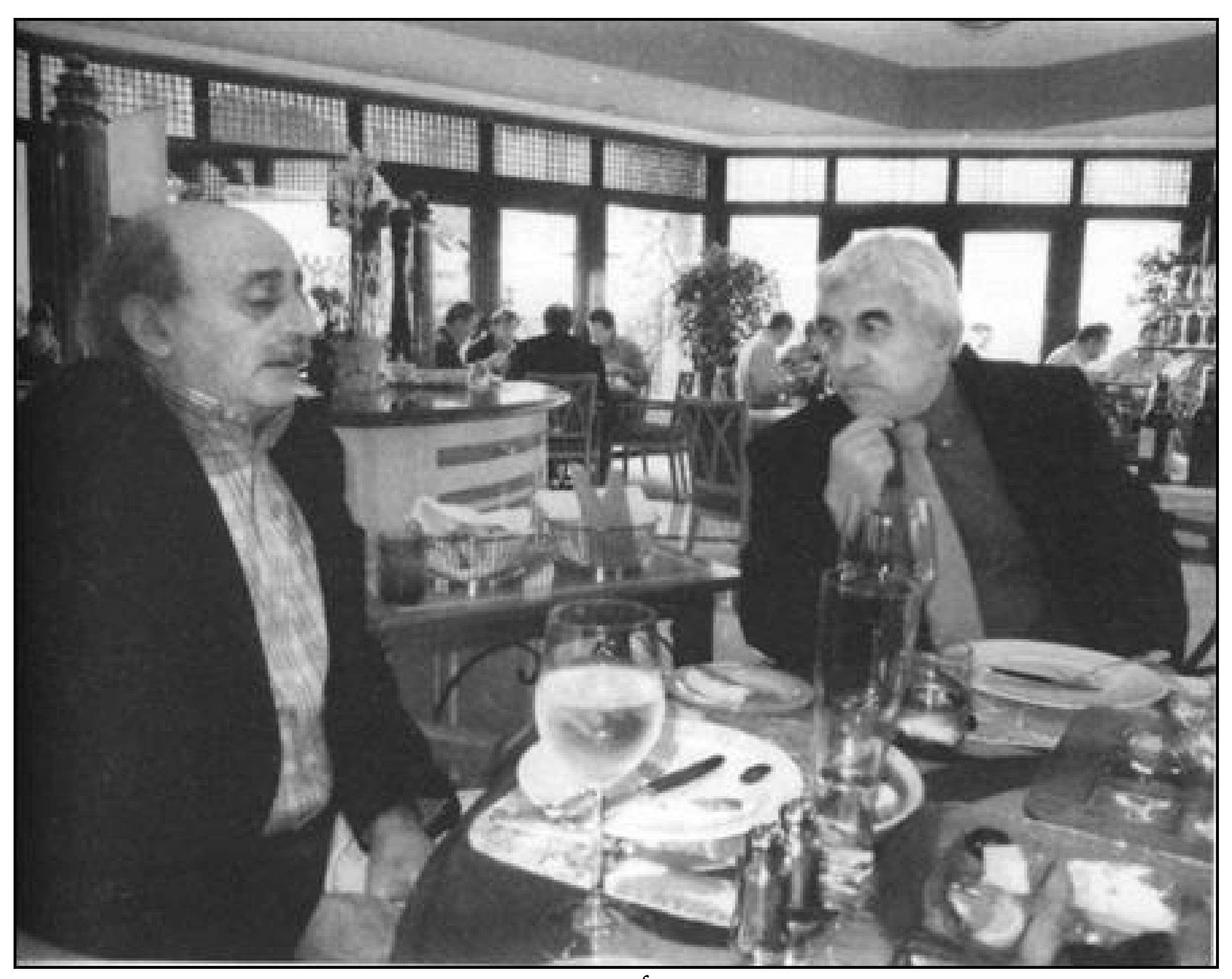
قطع الكورد طريقاً طويلاً على صعيد التحول القومي في الألفينيات، وهذا ما فرض "عقداً تركياً - كوردياً جديداً". هذا ما أردت شرحه في الاجتماع الأول "للانفتاح".

بالتأكيد، إن العقد الجديد يجب أن يحمل بعداً علمانياً وليس مذهبياً كما كان في القرن السادس عشر.

إذا لم ترغب تركيا بالصِغَر، ولم ترد مواجهة تقسيمٍ بشري وجغرافي، وإذا أرادت أن تكبر فلا بدّ أن تخضع لتحوّل بنيوي وجذري.

بتعبير آخر، يجب أن يتحدث مفهوم دولة الجمهورية التركية حيث تُبنى على أساس المساواة مع الكورد.

XXV - إلى أين يذهب الشرق الأوسط



ثمة مكان للجميع في الشرق الأوسط، ولكن ليس لطموحاتك.

كمال جنبلاط

مضت بضع دقائق على شروق الشمس، تسقط الأضواء الأولى لصباح 6 نيسان 2011 على دمشق. بدأت الحياة تدب للتو وأنا أسند وجهي إلى نافذة السيارة اليسرى على المقعد الخلفي، وأنظر إلى ظل جبل الشيخ (حرمون) الرائع في أفقي جنوب الغربي أثناء اتجاهي من المطار إلى المدينة، وأشد سحر صمت الصباح إلى عيني. يلف قلبي هدوء عظيم وشعور بالسعادة.

الجبال تثير انفعالي منذ عهدي بالحياة. قضيتُ أربع سنوات من طفولتي أثناء الدراسة المتوسطة في سفوح جبال أرجيس. ذرى أرجس الشبيهة بأسنان حادة مغطاة دائماً بالثلج رسخت في وعيي الداخلي كتمرد يشمخُ في سهول وسط الأناضول نحو السماء؛ مما جعل عشقي يتأجج كلما رأيت جبلاً.

عرفت جبل أغري في ضوغو بيازيد، ثم رأيته من ماكو في الجهة

الإيرانية، وفي ما بعد من إغضر، ثم من الجو أثناء الطيران إلى أذربيجان. غير ذلك، من ناهجيوان وأريفان أثناء طيراني بالمروحية في سماء أرمينيا. ونزلت على سفوحه. سُحرت بالنظر إليه من كل زاوية.

أشعر بمتعة خاصة برؤية "سبحان" من كل طرف من أطرافه، وكل جانب من جوانب بحيرة وان. كلما فتحت عينيّ على يوم جديد في "أدرميت - وان" تبحث عيناي عنه. وعندما أراه شامخاً أمام عينيّ لا أستطيع إبعادهما عنه.

جبال حقاري. تشراف المستند على إروه. وجودي فوق سيلوبي. وغبار غربي شرناق. جبال كوردستان المبهرة. الجبال...

وجبل الشيخ أيضاً. كانت تسيطر عليّ سعادة لا توصف عندما تتعلق عيناي بجبل الكتاب المقدس هذا؛ جبل الشيخ عندما كنت في الحركة الفلسطينية أيام الشباب، وعندما كنت في هضبة الجولان السورية، وفي الأيام التي قضيتها في القواعد الفلسطينية جنوب لبنان. تحوّل سعيي للاتجاه شمالاً إلى هضبة الجولان عندما تطأ قدماي الأرض المدعوة إسرائيل اليوم، وتأمّل جبل الشيخ من هناك إلى نوع من الطقوس.

جبل الشيخ بالنسبة إلي هو الشرق الأوسط ذاته.

أقلعتُ على متن طائرة صغيرة بصحبة وزير الخارجية أحمد داوود أوغلو قبل يوم من تركيا إلى البحرين. عندما انطلقنا في ساعة مبكرة، لم يكن أحد منا يعرف أننا سنذهب إلى دمشق في اليوم التالي. كنا سنعود إلى تركيا في الليلة نفسها. هذا ما كان مقرراً. ولكن، ما إن جلسنا على مقاعدنا ودارت عجلات الطائرة على مدرج مطار أنقرة، اقترب داوود أوغلو من موظفي الخارجية، وأصدر إليهم تعليماته قائلاً: "اتصلوا بسفيرنا في دمشق فوراً. إذا كان بشار في دمشق فسألتقيه غداً صباحاً. ليأخذوا موعداً. لنعد من البحرين هذه الليلة، ونبيت في دمشق".

بدل أن نبيت تلك الليلة في دمشق، طرنا بقرار مفاجئ إلى العاصمة القطرية الدوحة. فقد قرر داوود أوغلو لقاء ولي عهد أمير قطر والرجل الثاني في المعارضة الليبية أحمد جبريل الموجود في الدوحة.

اللهب الذي لف جسد البائع التونسي الجوال محمد بو عزيزي قبل عدة أشهر تحوّل إلى لهب الثورة العربية، ولفَّ شمال أفريقيا أولاً، ثم الشرق الأوسط. خلال فترة قصيرة، سقطت ديكتاتورية تونس، ثم تبعتها ديكتاتورية أم الدنيا مصر. الثورة العربية التي تجلت بالمظاهرات الجماهيرية الحاشدة في ميدان التحرير في القاهرة اعتباراً من 25 كانون الثاني 2011،

وانتهت بالتغيير في 7 شباط، ثم اشتعلت في ليبيا، وانتقلت إلى اليمن في قعر شبه الجزيرة العربية، وسَرَتْ إلى البحرين في الخليج، ها هي تطرق أبواب سورية.

مع مطلع الألفية والتطورات التي تلت حرب العراق غدت تركيا قوة في الساحة السياسية الإقليمية والدولية، وأظهرت حركة عظيمة في الجغرافية العثمانية السابقة. وصل أرضوغان إلى نجومية في المنطقة لم يبلغها أحد في العالم العربي منذ القائد المصري عبد الناصر الذي طبع الفترة ما بين مطلع الخمسينيات حتى عام 1970 بطابعه. وقد وقف إلى جانب الثورة التونسية والمصرية اللتين حققتا النصر.

اعتُبر داوود أوغلو بنّاء عودة تركيا إلى الشرق الأوسط بشكل يذكّر بالقرون العثمانية. ومع الثورة العربية، ازدادت حركته، وبدأ يمضي معظم وقته في جولات الشرق الأوسط. طيراننا إلى سورية بعد قطر من أجل الموضوعين البحريني والليبي يمثل نموذجاً لهذه الحركة. وكانت لتركيا أهمية خاصة من خلال كون سورية حجر الأساس في انفتاح تركيا على الشرق الأوسط.

كانت الثورة العربية قد طرقت أبواب سورية للتو. وعندما انطلقنا في وقت السحر إلى دمشق في 6 نيسان، لم يكن قد مضى شهر على الأحداث السورية. لم تكن أبعادها قد تجاوزت مظاهرة صغيرة في محيط الجامع الأموي؛ ثم انقلب الوضع بشكل لم يكن محسوباً في مدينة درعا على الحدود الأردنية.

كنت أشعر بالنتائج التي يمكن أن يؤدي إليها وصول حيوية الثورة العربية إلى دمشق من خلال تجربتي الممتدة أربعين عاماً في الشرق الأوسط.

قبل مرور أسبوعين على أحداث درعا، كنت برفقة أرضوغان في زيارته إلى العراق. بعد زيارة العاصمة بغداد، ولقاء المرجع الشيعي آية الله العظمى علي السيستاني في مدينة النجف، طرنا إلى أربيل مركز إدارة إقليم كوردستان. كانت تلك هي المرة الأولى التي تطأ فيها قدم رئيس حكومة تركيا أرض كوردستان العراق، وشهدت لحظة تاريخية أخرى على العلاقات التركية الكوردية.

أقيم افتتاح لافت لمطار أربيل الدولي الذي يمثل مستقبل كوردستان وقد أنشأته شركة تركية، ثم بدأت المباحثات بين طيب أرضوغان ومسعود برزاني في بيت الضيافة الحكومي الذي أنشأته أيضاً شركة تركية. ذهب

الوفدان الرسميان إلى العشاء بعد انتهاء المباحثات الرسمية. وعند الذهاب إلى العشاء، سحبني نوشيروان برزاني من ذراعي، وأجلسني إلى طاولة العشاء أيضاً.

بعد العشاء، بدأنا بترديد أغنيات شعبية على طنبور مستشار رئاسة الحكومة إبراهيم قالن شارك فيها طيب أرضوغان ومسعود برزاني؛ ومنها أغنية حول اليمين يتذكرها برزاني من أيام جبال كوردستان. غطّ قائد تركيا ومسؤولو كوردستان العراق في جوٍّ عاطفي وكأنهم مسؤولون في مناصب مختلفة لدولة واحدة. وانطلاقاً من شعوري بأنني أرى ثمار البذرة التي شاركت تورغوت أوزال بزراعتها قبل عشرين سنة، شاركت طيب أرضوغان ومسعود برزاني الجالسين متجاورين ومسترخيين على مسند الديوانة بأداء الأغنيات. لم نكن نستطيع مغادرة أربيل بأي شكل.

في منتصف الليل، كنا نتبادل الحديث في الطائرة مع طيب أرضوغان في طريق العودة إلى تركيا. وأثناء حديث رئيس الحكومة عن انطباعاته حول المعنى التاريخي لزيارة العراق وأربيل، تدخلتُ بالحديث: "لنتكلم قليلاً عن سورية. إذا لم توقف الأحداث في سورية، واشتعلت الحرائق فستكون تلك مشكلة بالنسبة إلى تركيا؛ وخاصة بالنسبة إليكم. تبدو سورية منصة انطلاق لتركيا إلى الشرق الأوسط. علاقتكم خاصة ببشار الأسد. ومن جهة أخرى، حظيتم بحب الشارع العربي. وقد تجاوزتم حدود تركيا بوضعكم الذي تسمونه بحسب تعبيركم: سند من لا سند له، وصوت من لا صوت له. والآن، خرج الشارع العربي حقيقة إلى الشارع. والجميع يلتفتون إليكم، ويبحثون عن صوتهم فيكم...".

بدا وجه طيب أرضوغان وكأنه تقطب، وتجمّدت نظراته. وقال للصحفيين الذين أمامه: "ارفعوا أوراقكم، وضعوا أقلامكم في جيوبكم لنتكلم براحة. ما سأقوله سيبقى هنا". ثم تابع قائلاً: "علاقتي ببشار الأسد ليست شخصية فقط، بل عائلية أيضاً. زوجتانا صديقتان مقرّبتان جداً. ولكنني قلت لبشار قبل ثلاثة أعوام: انظر يا بشار، أنا أحبّك. وأعرف أنك تحبني. غير هذا، أنا مدرك أن شعبك يحبك أيضاً. ولكنك إذا لم تقم بالإصلاحات فمن الممكن أن تنام مساء، لتستيقظ صباحاً ولا تجد ذلك الشعب الذي يحبك. ستفقد الشعب. تحركْ. في كل مرة، كنت أقول له هذا على مدى ثلاث سنوات. نعم، علاقتي الشخصية ببشار جيدة جداً، ولكنني رئيس حكومة تركيا. وإذا تناقضت مصالح تركيا مع صداقتي لبشار الأسد، فسأتصرف بحسب الأولى، وسأقف إلى جانب الشعب السوري. سورية تعني حلب أيضاً،

وحلب تعني هطاي، وسورية هي القامشلي أيضاً، ولا ضرورة للقول ما القامشلي".

كان ذلك جواباً لم أتوقعه. لذا، تدخلت متمتماً: "ماذا تعنون؟".

"أي إننا لا نستطيع السماح بموجة هجرة كما حدث عام 1991 عبر شمال العراق، لا نستطيع السماح بموجة هجرة تتكرر عبر سورية. لا نستطيع تأسيس خطوط دفاعنا داخل أراضينا...".

قطع طيب أرضوغان كلامه هنا، ولكنني دونت في ذهني وضوحه حول انطباعاته وحدسه لما سيحدث في سورية.

بعد أسبوع من هذا الحديث، كنت في طريقي إلى دمشق برفقة أحمد داوود أوغلو. كانت تركيا حينئذ تدعم حيوية التغيير في العالم العربي من جهة، وتخطو الخطوة الأولى في محاولة يائسة لإقناع النظام السوري بالإصلاح من جهة أخرى.

إلى جانب هذا، كانت تركيا تشعر بالتنافس مع إيران في كل سنتمتر من الشرق الأوسط، والصراع الصفوي - العثماني يتكرر بعد قرون في ظروف جديدة، وهي مضطرة للتصرف حيث لا تترك سورية لإيران.

بعد استراحة قصيرة في فندق شيراتون دمشق، ذهبنا إلى قصر تشرين حيث ينتظر بشار داوود أوغلو. في طريقنا إلى القصر، أشرت لمن معي إلى الشقة التي أقام فيها عبد الله أوجلان سنوات طويلة عندما مررنا بجوارها. عاش على بعد عشر أو خمس عشرة دقيقة عن القصر الرئاسي السوري. وقد استفاد بشكل خاص من صداقته القوية لجميل الأسد عم بشار.

التقى داوود أوغلو بشار الأسد على انفراد مدة ثلاث ساعات. وانتظرنا نحن - سفير تركيا السابق بدمشق خالد تشفيك، والسفير الحالي عمر أونهون (كنت ضيفه في دمشق قبل عام) وموظفو السفارة التركية السوريون وأنا - على الشرفة المجاورة للغرفة التي يلتقي فيها داوود أوغلو والأسد. كنّا ننظر إلى طريق دمشق بيروت وحيّ المزة المقابل لنا، ونتحدث حول الاتجاه الذي تسير إليه سورية.

بعد اللقاء، عرّفني أحمد داوود أوغلو على بشار الأسد. وعندما سألته عن أحواله بالعربية، رمقني بنظرة غريبة. لم يتقبل عقله دخول صحفي إلى جوار غرفة مكتب رئيس الجمهورية. لقد مُنِع الصحفيون الأجانب ليس من دخول القصر الرئاسي فقط، بل من دخول سورية.

بعد أن ودعنا عند باب القصر، اصطحبنا وليد المعلم ومستشارة بشار الخاصة بثينة شعبان إلى مطعم النارنج، وكنت قد تعرفت إليهما في زيارتي

الأخيرة إلى دمشق. يقع مطعم النارنج في دمشق القديمة التي تعود إلى عهد الرومان، قرب باب شرقي على الشارع المستقيم الذي يقطعها على المحور الشرقي - الغربي.

يقال إنّ دمشق أقدم عاصمة مأهولة في العالم. ويأتي الشارع المستقيم الذي سكنه القديس بولص ونشط فيه خلال فترة زمنية معينة على رأس أمكنة دمشق القديمة السحرية.

دخلت ذاكرتي تلك المائدة باعتبارها تتويجاً جميلاً لمغامرة طويلة في الشرق الأوسط على صعيد التاريخ الشخصي بدأتها من دمشق. كنت واثقاً أن بداية نهاية نظام دمشق قد بدأت، وقد كنا نحتفل بهذا في مطعم النارنج بأجمل طريقة؛ من دون أن يدرك مستضيفونا هذا.

تجعلني دمشق أحسّ بمشاعر متناقضة منذ عرفتها. عندما هربت في نهاية عام 1971 من ملاحقة النظام العسكري، وعبرت إلى سورية سراً عبر سهل حران كانت دمشق هدفي. وفيها انضممت إلى الحركة الفلسطينية، وكانت سورية منطقة عبور من الملاحقة إلى الحرية بالنسبة إلي. وعلى الرغم من بقائي فترة قصيرة في دمشق، فقد عرفت معنى النظام الأمني الذي لا يُطاق، ويهين الفرد بشكل دائم. عشت نوعاً من التخفي بتغيير الاسم. أعتقد أنني حُقنت بشعور الكره للأنظمة القومية العربية وكل أنواع الشموليات في دمشق. تعلمت في دمشق كره نظام البعث وصدام على الرغم من عدم عيشي هناك بشكل مباشر.

وفي الوقت نفسه، تعني دمشق بالنسبة إلي بشكل غريب "التحرر". أثناء مغادرتي بيروت بعد احتلال إسرائيل لها عام 1982، وسقوطي بيد الكتائب المسيحية، ولحظة أرادوا إطلاق النار عليّ غيَّر قائدهم رأيه، وأطلق سراحي، كانت دمشق بالنسبة إلي "حريتي"، وأول محطة لي بعد تلك الحادثة.

دمشق أيضاً أول مكان غصت فيه بالقضية الكوردية.

نشأ رابط غريب بيني وبين دمشق من خلال هذه العلاقة المتأرجحة. وعلى الرغم من استمرار "النظام الأمني" في دمشق، كنت أشعر بمتعة خاصة وسرية من وجودي فيها.

أثناء جلوسي إلى مائدة العشاء بعيداً بقدر ما أستطيع عن وليد المعلم في الجو التاريخي القديم لباب شرقي في مطعم النارنج في الزيارة الأخيرة لي إلى دمشق، كنتُ أدرك في داخلي أنها ستتخلص من "النظام الأمني" ولكن بعد تطورات يسفك فيها الكثير من الدم وتطول كثيراً، وكنت

أشعر براحة داخلية.

في طريق العودة إلى تركيا، روى لنا أحمد داوود أوغلو ما دار بينه وبين بشار الأسد على مدى أكثر من ثلاث ساعات بالتفصيل. روى له مطولاً مغامرة تركيا بالانتقال إلى النظام التعددي، وعرض تقديم تركيا كل أنواع الدعم من أجل الدخول في طريق كهذا، واقترح عليه كخطوة أولى توسيع تمثيل الحكومة. يتضمن هذا المقترح إدخال ثلاثة وزراء من الإخوان المسلمين يوافق عليهم بشار الأسد. توقف بشار عند قضية انتهاء سلطته مع قاعدة نظامه من الأقلية المذهبية النصيرية - العلوية في حال تطبيق نظام ديمقراطي يعتمد على الانتخابات، وهو يخشى انتقال السلطة إلى الغالبية المذهبية السنية. وردّ عليه داوود أوغلو أن الديمقراطية ترياق هذا الأمر، وهي التي تضمن حقوق الأقليات.

استمعت لداوود أوغلو، وقلت له: "سيدي الوزير، أنتم تحدثتم معه مدة ثلاث ساعات، وبعد خروجكم سيدخل شقيقه ماهر، ويقنعه بعكس ما قلتموه. في هذه الأثناء، سيأتي الإيرانيون، ويقولون له: لا ترد على الأتراك. هؤلاء سيجلبون آخرتك. أنت في نقطة وجودية بالنسبة لنظامك، افعل ما فعلناه نحن في إيران. اسحق المعارضة قبل أن تكبر. ونحن سنقدم لك كل الدعم. هناك حزب الله بجواركم. ويمكنكم الاستفادة من دعمه. طبيعة هذا النوع من الأنظمة لا تقبل الإصلاح. إذا تراخى برغي يتهاوى النظام كله".

في الحقيقة، إن داوود أوغلو في تحليله الأخير لم يكن متفائلاً في موضوع استماع بشار الأسد لنصائح تركيا بالإصلاح. ستتحول سورية تدريجياً إلى ساحة صراع غير معلن بين تركيا وإيران.

بعد شهر من هذا، في أواسط أيار، بعد إفطار طويل في أحد أجنحة قصر كوردستان الرئاسي في صلاح الدين مع نوشيروان برزاني، نهضت لكي أذهب إلى مطار أربيل وأعود إلى اسطنبول. قال نوشيروان: "مام جلال قادم. سلِّم عليه قبل أن تغادر". كان طالباني قد طلب لقاء مستعجلاً بمسعود ونوشيروان برزاني، وجاء من بغداد إلى صلاح الدين.

ركبتُ سيارة نوشيروان برزاني، وذهبنا إلى قصر ضيافة الحزب الديمقراطي الكوردستاني الذي شهد الكثير من اللحظات التاريخية. وقبل أن ندخل من الباب، نزل من السيارة الواقفة أمامنا جلال طالباني ومسعود برزاني معاً.

حياني مسعود برزاني، وأظهرت ملامحه سعادته باللقاء غير المتوقع. وطلب مني جلال طالباني أن نشرب الشاي قبل أن يدخل إلى الاجتماع، ثم

أعود إلى أربيل.

دخلنا جميعاً إلى ذلك البهو المألوف لنا. طالت مراسم احتساء الشاي كثيراً؛ فقد فتح القائدان الكورديان موضوع سورية. قدّم مسعود برزاني تحليلاً حول إمكانية اصطدام العرب والكورد السوريين في مرحلة اقتراب سقوط النظام. سمعت التحليل نفسه تقريباً قبل يوم من رئيس ديوان الرئاسة الدكتور فؤاد حسين.

وهكذا، عرفت موقف إدارة إقليم كوردستان الرسمي غير المعلن من التطورات السورية.

شارك جلال طالباني في الحديث بشكل مباشر؛ فقد قال: "النظام السوري نظام أقلية، ولكنه بجانب من جوانبه تحالف أقليات تخشى من سلطة إسلامية سنية. ليس ثمة ما يتردد النظام بفعله من أجل بقائه. سيستخدم القوة المفرطة. ويمكن أن يشد إلى جانبه المسيحيين والدروز والإسماعيليين؛ إضافة إلى العلويين. ويمكن أن يحيّد الكورد. لا يمكن تجاهل دعم شعبي من هذا النوع. سيظهر أنه يستطيع الصمود أكثر من التوقعات. وستتجه سورية تدريجياً نحو حرب أهلية...".

تدخلت بطرح سؤال: "بنية سورية وطبوغرافيتها غير مناسبتين لحرب أهلية. فكيف سيحدث هذا؟".

أجاب جلال طالباني: "بالكمائن والتفجيرات والسيارات المفخخة والاغتيالات التي تنفذها القوات الأمنية؛ أي بالإرهاب وتصعيد العنف يمكن أن تطول القضية كثيراً، وهذا ما أسميه حرباً أهلية". ثم حوّل جهة السؤال نحوي قائلاً: "ما سياسة إيران؟ ماذا تفعل؟ ما رأيك؟".

ضحكت، وأجبته قائلاً: "مام جلال، هل تحق لي الإجابة عن سؤال يتعلق بإيران بوجودك". لم يغب تعبير الجدية والتفكير عن وجه طالباني.

الواضح أن التطورات السورية ستحدد نتائج الثورة العربية ومستقبل الشرق الأوسط بكل معنى الكلمة. ويمكن التعبير عن الثورة العربية الآن بعنوان فرعي تحت عنوان الثورة السورية.

إذا تحدثت كتب التاريخ ذات يوم عن الثورة السورية، فلا بد أنها ستعتبر تاريخ 15 آذار تاريخ انطلاق هذه الثورة. بعد حوالى السنة، في 22 آذار 2012 التقيت مساء الزعيم الدرزي الشهير عالمياً وليد جنبلاط في اسطنبول، وقد تحدث عن مخاوفه حول مستقبل سورية والمنطقة. لم تتغير مخاوفه من أن النظام سيجرّ المنطقة كلها معه إلى الكارثة. ذكرني بما قاله أثناء لقاء لنا في بيته في بيروت في كانون الأول 2011، وما أرسله لي

بالبريد الإلكتروني في كانون الثاني 2012.

كان وليد جنبلاط في إحدى الفترات أحد أهداف النظام السوري. كان والده كمال جنبلاط رئيس الحزب الاشتراكي التقدمي، وأحد حلفاء ياسر عرفات في التحالف اليساري الإسلامي، ويعتبر قتل النظام السوري له عام 1977 أثناء الحرب الأهلية "سراً مفضوحاً".

وليد – أو كما يخاطب في لبنان، وأخاطبه من قبيل الممازحة الخفيفة وليد بيك – من أقراني. أنا أكبره بعدة أشهر فقط. أنا أتابع وليد جنبلاط منذ سنوات طويلة وعن قرب؛ مثلي مثل كل المهتمين بشؤون الشرق الأوسط. لم تخرج صورته من بالي قط وأنا أسير معه ممسكاً بيده فوق صخرة في ميناء بيروت ونحن نودع ياسر عرفات وهو يذرف الدموع.

لعبُه دوراً سياسياً ووقوفه على قدميه خمسة وثلاثين عاماً على أرض لبنان المتماوجة وبين فكي سورية وإسرائيل بعد أن أخذ مكان والده أعجوبة تقريباً. لعل سيره على خطى والده من جهة، وانعطافاته المفاجئة والمدهشة والصعبة من دون أن يخرج عن نهج والده من جهة أخرى هي المعادلة التي مكنته من المحافظة على الاستمرار بوجوده، وبقائه في الحياة.

تعرفت عليه في مطلع الألفينيات. ودخلت قصره في مدينة بيروت أو قصر العائلة وسط مزرعة في الشوف جنوب بيروت عدة مرات. ولأن والدة وليد حفيدة الأمير شكيب أرسلان الزعيم الدرزي العربي الشهير وأحد رجالات الاتحاد والترقي، فهو يرتبط بعلاقات عاطفية مع تركيا، ويحب اسطنبول. ونحن نلتقي في كل زيارة من زياراته المتكررة إلى اسطنبول.

يعتبر تغيير وليد جنبلاط تحالفاته المتكررة لضمان حياته الشخصية إلى حدٍّ ما مؤشراً على متغيرات الشرق الأوسط. ويساهم حدسه القوي ورؤيته الحادة مساهمة كبرى ببقائه منتصباً في جغرافية الشرق الأوسط المستحيلة. لهذا السبب أمازحه بالقول: "وليد بيك، أنت بالنسبة إلي مؤشر الشرق الأوسط. فأنا أستشعر جهة التطورات من موقفك". وفي الحقيقة، لا أنكر أن هذا الكلام فيه شيء من الصواب.

عندما أعلنته دمشق شخصاً غير مرغوب به، وأغلقت أبوابها في وجهه، وصارحني بأنه يريد التقرب من الحكومة التركية من أجل فتح أبواب دمشق ثانية، فسرتُ هذا ببدء تخفيض الولايات المتحدة ثقلها في المنطقة. وبالفعل، بعد فترة ترك وليد جنبلاط تحالف "14 آذار" الحاكم؛ وهذا ما أسقط حكومة سعد الحريري، وأشارت إبرة لبنان إلى فتح الطريق لتشكيل حكومة موالية لسورية. وقد فُتحت أبواب دمشق له. ذهب إلى دمشق

بعدئذ أول مرة عام 2010، ونزل في القصر الرئاسي ضيفاً على بشار الأسد، وخصصت له فيلا ينزل فيها كلما أراد الذهاب إلى دمشق.

بعد فترة من انفجار الأحداث في سورية بتاريخ 15 آذار 2011 وبدء وليد جنبلاط برفع صوته ضد النظام السوري تدريجياً، ودعوته الدروز للانضمام إلى المعارضة فسرت الأمر على أنه "بداية نهاية النظام السوري" وعبرت له عن قراءتي هذه.

كان يقدّم تصريحات حادة ضد النظام السوري لا يجرؤ عليها أي قائد لبناني. ومن غير الممكن ألا يكون وليد جنبلاط يعرف ويشعر بأنه يعرض حياته للخطر بهذه التصريحات.

يعرف وليد جنبلاط جيداً أن بشار الأسد يمكن أن يزهق روحه كما فعل والده حافظ الأسد بروح والده. يمكن قراءة هذا الأمر في أسطر كتاب نيكولاس بلاندفورد مراسل " Christian Science Monitor " في كتابه اللافت حول اغتيال الحريري:

"... كان رئيس الأركان السوري السابق حكمت الشهابي المرمي جانباً، والمقطوعة علاقته بالسلطة قد غادر بلده من أجل الذهاب إلى الولايات المتحدة الأمريكية التي يخطط للإقامة فيها. يتذكر وليد جنبلاط أنه (في آخر لقاء له بالشهابي) أثناء ذهابه إلى مطار بيروت قال له: انتبه إلى نفسك، انتبه إلى نفسك، انتبه إلى نفسك. قالها ثلاث مرات...

على الرغم من شهرته بانعطافاته السياسية، يبدو أنه دخل في المواجهة الخطيرة نفسها التي دخلها والده كمال قبل ثلاثين عاماً. انتهت تلك المواجهة الخطيرة بوابل من الرصاص وموت كمال جنبلاط...

هل فكّر بقدر والده في تلك الفترة المتوترة؟ أبدى جنبلاط تعابير الانفعال لأول مرة. فقد وقف، وبدأ يذرع الغرفة وهو ينظر إلى الأرض.

في النهاية، قال: "الظروف مختلفة. كنا وسط تلك الحرب الأهلية الفظيعة. في تلك المرحلة قررت أن أسامح. من الصعب النسيان، ولكن المسامحة ممكنة".

ذهب جنبلاط إلى دمشق معلناً ولاءه لحافظ الأسد بعد أربعينية والده عام 1977. حيّا رئيس الجمهورية السورية الشابَ بعبارة غامضة ومثيرة للتوتر: كم تشبه والدك! سيثبت جنبلاط منذ ذلك التاريخ أنه صديق سورية المخلص... وقد أخفى رؤاه الشخصية حول القيادة السورية لنفسه". (Nicholas Blanford, Killing Mr. Lebanon, I. B. Tauris, London-New York, 2006, p. 112, 113)

تغيّرت علاقة وليد جنبلاط بدمشق بعد مغادرة حافظ الأسد الساحة بموته عام 2000، وأخذ بشار الأسد مكانه. قبيل عملية الاغتيال الفظيعة التي أزهقت روح رفيق الحريري في 14 شباط 2005، كان ووليد جنبلاط هدفاً مباشراً للنظام السوري. يكتب بلانفورد قصة الاغتيال في كتابه على النحو الآتي:

"في مطلع شباط 2005 سحب الحريري جنبلاط جانباً، وقال له: "يمكن أن تكون أنت أو أنا خلال أسبوعين. إذا أراد السوريون إحداث فوضى فسيقتلونك أو يقتلونني". وأضاف وليد جنبلاط للكاتب: من الواضح أنه كان يفكر بشيء ما...". (المصدر السابق، ص 123)

لهذا السبب، أعتبر موقف وليد جنبلاط من التطورات السورية مقياساً.

قلت له إلى مائدة الطعام في بيته في بيروت في كانون الأول 2011: "وليد بيك، بما أنك رفعت الراية في وجه النظام السوري، وهدمت الجسور التي بذلت الكثير لبنائها، يجب أن تكون رؤيتك أن نهاية النظام قريبة. كم تضع عمراً له؟ متى سيذهب بشار؟".

أجاب جنبلاط وملامح التشاؤم على وجهه: "جن جنون الرجل. لن يتردد بحرق نفسه وحرق المنطقة كلها. لم أتخذ هذا الموقف لأنني أرى نهاية النظام قريبة. أنا أتكلم للتاريخ. لا أستطيع تجاهل الظلم. يجب أن أعارض الظلم...".

كلماته هذه باعتباره يعرف عائلة الأسد عن قرب تدعو إلى التفكير:

"تقف إيران خلف هذا النظام، وستدعمه إلى النهاية. وإذا نظرنا إلى عمليات بشار العسكرية، نستنتج أنه يحسب حساب تأسيس دولة علوية من الساحل والمنطقة الوسطى بين حلب ودمشق والانسحاب إلى هناك في حال عدم استطاعته حكم سورية. ثمة قاعدة بحرية لروسيا في طرطوس. وإذا استطاع ضم المنطقة الشرقية الشمالية من لبنان والمنطقة ذات الغالبية الشيعية في وادي البقاع إلى المنطقة العلوية فستنشأ منطقة متصلة تمتد إلى جنوب لبنان. وهكذا ستفرض إيران نفوذها عبر المنطقة العلوية، وستدخل إلى المنطقة الشيعية في لبنان لتتمدد حتى حدود إسرائيل في جنوب لبنان. هذا هو حسابه".

بعد حديث وليد جنبلاط عن الخارطة نقل الحديث إلى خطط الدول الغربية الرامية إلى تقسيم المنطقة إلى دويلات مذهبية بعد الحرب العالمية الأولى. وذكّر بفرض اتفاقية سيفر على تركيا. من المحتمل أن تنفذ خطة مشابهة في ظروف جديدة.

بعد فترة، أخبرني برسالة إلكترونية طويلة أن حمص نقطة مفتاحية من أجل تطبيق الخطة التي شرحها لي في بيروت. اكتسبت المدينة السورية الثالثة بمقاومتها الشرسة للنظام والتدمير والحصار الذي تعرضت له لقب "ستالنغراد سورية". يرى وليد جنبلاط أن حمص تحمل أهمية حياتية بالنسبة لخطة إيران – سورية. وقد شرح تصوره هذا لأحمد داوود أوغلو الذي يحب التفكير بحسب التصورات الجيوسياسية، والحديث على أساسها.

في 22 آذار 2012، كان وليد جنبلاط في اسطنبول. وكان ثمة ثلاثمائة شخصية معارضة سورية تعمل على التوحد تحت مظلة المجلس الوطني بدعم من تركيا وقطر في اسطنبول.

كان وليد جنبلاط في تلك الأمسية مع مجموعة من مسؤولي الحزب التقدمي الاشتراكي يتبادلون الحديث على شاطئ البوسفور. وأثناء الحديث، قال إن الدول الغربية الكبرى وعلى رأسها الولايات المتحدة تركت الشعب السوري يواجه مجازر الديكتاتورية وحيداً، وتخلت عن مهمتها بتسليحه، أو لم تقم باللازم على الأقل. نُقل الحديث إلى روسيا. واستشهد بالتاريخ معللاً سبب رغبة روسيا بتقسيم سورية؛ مقدماً مجموعة من التحليلات. وفي نهاية الحديث ذكّر مرة أخرى بسيفر بعد الحرب العالمية الأولى.

سألته: "وليد بيك، هل تعتقد أن هناك فكرة لتقسيم المنطقة بنوع من سايكس بيكو جديدة؟".

شرد، ثم قال: "هذا ممكن!".

- من؟ وأية قوى؟

- لا أعرف. لا أستطيع تحديدها. ولكن يمكن أن تكون هناك مراكز قوة كهذه في الغرب...

لعل تجربة فرنسا بتقسيم سورية عندما سقطت بيدها عام 1920 تجلت في ذهن وليد جنبلاط.

"لم تكن فرنسا في أوج قوتها، وظهر ضعف سياستها نحو الأقليات. كانت هذه سياسة فرّق تسد. قُسمت سورية الكبرى إلى أربعة أقسام سياسية: الجمهورية اللبنانية، الجمهورية السورية، الدولة العلوية (سميت في ما بعد حكومة اللاذقية) وحكومة جبل الدروز. كانت سلسلة جبال أنصارية والسهل الممتد إلى الساحل – مدينته الرئيسة هي اللاذقية – منطقة طبيعية للعلويين. يكتب المؤرخ ألبرت حوراني في كتابه " Syria and Lebanon: A Political Essay " إن عدد سكان هذه الدولة 370،000 تقريباً. وكان ستون بالمائة من هذه العدد علويين، وعشرون بالمائة منهم

سنة، والباقون يتوزعون بين إسماعيليين ومسيحيين بمختلف المذاهب. استمتع العلويون بهذه الإدارة الذاتية، وأرادوا إبعاد قوميي دمشق عنهم. يبرز حواراني هذا الأمر بشكل صائب على النحو الآتي: أبرزت فرنسا الوعي المشترك للأقليات. هذا لم توجده هي، بل منحته فرصة تنظيم نفسه إدارياً فقط. (فؤاد عجمي، " The Syrian Rebellion"، "Hoover Institution Press" ، 2012 ، ستانفورد، كاليفورنيا، ص 19، 20)

لأن تشكيل سورية جاء متزامناً مع تشكيل العراق، لهذا كان مصطنعاً بما لا يقل عنه، وكل منهما عاش خطر الزوال نتيجة توازنات ما بعد الحربين العالميتين، وتأوي سورية في داخلها احتمال التقسيم.

"عندما احتل غورو دمشق عام 1920، وضع سكرتيره دو كايكس أمام الجنرال خيارات. اقترح عليه إما التدخل لبناء الأمة السورية التي لم توجد بعد؛ بإغلاق التصدعات العميقة التي ما زالت تقسمها، أو المحافظة على ما يقدمه لنا هذا التقسيم وكل ما يقدمه لنا تحكيمنا، وتعميق التصدعات. وقال: لا بد من القول إن ما يجذب اهتمامي هو الخيار الثاني. وأيده غورو. في آب 1920، فصل غورو لبنان ليحظى بدعم المسيحيين الذين يشكلون نسبة مهمة، وقسّم سورية إلى دمشق وحلب، واعترف بالمذهبين العلوي والدرزي، وقسمها إلى أربع ولايات.

إذا أخذنا هذه الخطة بعين الاعتبار، فسندرك أن فرض الدولة السورية كان لتخريب البنية الطبيعية لبلاد الشام التي ورثتها فرنسا عام 1920. لم تتأسس الدولة السورية وفق رغبة سكانها. لقد فرضت فرنسا ما يعاكس رغبة الناس بتأسيس دولة عربية تضم الجغرافية السورية كلها؛ وحتى أن تكون جزءاً من العراق وشبه الجزيرة العربية إذا أمكن. من ناحية أخرى، إن الفرنسيين لم يعتبروا تأسيس الدولة السورية أساساً لترسيخ استعمارهم في المنطقة باستثناء لبنان. ولو وضعوا هدفاً كهذا منذ أول تواصل لهم مع بلاد الشام، فإن الواقع السائد في سورية كان سيجعلهم يتخلون عنه بعد فترة قصيرة. في الحقيقة، إنّ فرنسا بدأت بتقسيم المنطقة بعد سيطرتها على بلاد الشام مباشرة.

قُسِّمت المنطقة الداخلية لسورية إلى دولتي حلب ودمشق (وفق البنية الإدارية العثمانية)، ولم تتوحدا حتى عام 1924. الأهم من هذا أن الفرنسيين أسسوا دولاً من أجل البنى الدينية والمذهبية: شكلت دولة الدروز في جبلهم وعاصمتها السويداء، والدولة العلوية على طول الساحل وعاصمتها اللاذقية، ومنطقة حكم ذاتي في كل من الجزيرة وإسكندرون (كانت غالبية

سكانهما من الكورد والأتراك الذين أسكنوا هناك). واعتبر هذا مع تأسيس دولة لبنان محاولة لتقسيم سورية. كان هدف فرنسا هو ضمان نفوذها في المستقبل على هذه المنطقة التي سقطت بيدها. عندما أسس الفرنسيون الدولة السورية عام 1920 قيدوا تشكيل مؤسسات الدولة. وضمن التنافس المذهبي والمناطقي قووا الانقسام والصراع في المجتمع السوري؛ بما في ذلك تعميق الهوة بين الريف والمدينة، واستمروا بتقويته. شكّل إرث إدارة الانتداب الفرنسية عائقاً أمام النظام السوري بعد الاستقلال". (James Barr, A Line in the Sand-Britain, France and the Shaped The Middle East, Simon & Schuster, London, 2011, p. 129, 130)

لم يبق مشروع تقسيم الشرق الأوسط إلى دول صغيرة في حدود الدولة العثمانية للأراضي العربية والكوردية – وحتى الأراضي التركية بحسب اتفاقية سيفر – مشروعاً غربياً وضع موضع التنفيذ عام 1920. ففي عام 1980، عمل على "سيناريو إقليمي" إسرائيلي لتقسيم المنطقة إلى دويلات.

نشر دبلوماسي إسرائيلي يدعى أوديد إينون مقالة بعنوان "استراتيجية من أجل إسرائيل في الثمانينيات"، واختفى أثرها بعد أن أحدثت تلك المقالة المنشورة في مجلة "كيفونيم/توجهات" الناطقة باسم الحركة الصهيونية العالمية، في عدد شباط 1982 ردود فعل كبيرة.

يعود فضل "استراتيجية من أجل إسرائيل في الثمانينيات" إلى إسرائيل شاهاك صاحب الشهرة المحدودة. كان إسرائيل شاهاك (1933-2001) يهودياً بولونياً وبروفيسوراً بالكيمياء في الجامعة العبرية في القدس. عاش في طفولته تجربة في المقاومة الأسطورية ضد النازية في مقاطعة وارسو، وفي ما بعد في معسكر برغن – بلسن للاعتقال. وحظي باحترام أكبر بعد أن أصبح رئيس منظمة حقوق الإنسان الإسرائيلية. وقد كان معارضاً بشدة للسياسة الإسرائيلية. كتابه النقدي الشهير "التاريخ اليهودي والدين اليهودي – عبء ثلاثة آلاف عام/ Jewish History, Jewish Religion-The Weight of Three Thousand Years " أكسبه عدداً كبيراً من الأعداء في الأوساط اليهودية العالمية. ولكن التاريخ الشخصي لإسرائيل شاهاك أنقذه بسهولة من إلصاق صفة العداء للسامية به. أكسبته المقالة المعنونة "استراتيجية من أجل إسرائيل في الثمانينيات" المنشورة في حزيران 1982 شهرة معينة.

يرى إسرائيل شاهاك أن خطة أوديد إينون تستند إلى مقترحين أساسيين: لا بد لإسرائيل من أجل بقائها: 1) أن تكون قوة إمبريالية إقليمية، 2) أن تقسّم الدول العربية القائمة كلها، وبالتالي المنطقة إلى

دويلات، وتؤسس كل دولة بحسب انتمائها المذهبي أو القومي. بالنتيجة، إن الدول المبنية على أساس مذهبي أو قومي ستكون دمى بيد إسرائيل؛ والمفارقة أنها تكسبها مشروعية على الصعيد المعنوي.

أي إن أمل الصهيونية من أجل أن تعيش إسرائيل هو تقسيم الدول العربية في الشرق الأوسط إلى دويلات.

في حال إخراج مقالة أوديد إينون من الأرشيف، وقراءتها من المحتمل أن تثير الشعور بأن "استراتيجية من أجل إسرائيل في الثمانينيات" في الحقيقة تتعلق "بمشهد الدول العربية عام 2010". كتب الدبلوماسي الإسرائيلي الآتي:

"العالم العربي الإسلامي... كما نرى في لبنان وإيران غير العربية، وسورية حالياً يستطيع كبح الأقليات القومية والتيارات والأزمات الداخلية التي تحمل بذور تخريب الذات بشكل مدهش، ولهذا لا يشكل تهديداً حقيقياً لدولة إسرائيل على المدى الطويل. تشكل القوة العسكرية الموجودة بيد الدول العربية والإسلامية معنى على المدى القصير فقط. سيكون من المستحيل استمرار وجود الدول المحيطة بنا ببنيتها القائمة في حال عدم تعرضها إلى تغيير ثوري حقيقي. أسس الأجانب (فرنسا وإنكلترا في العشرينيات) العالم العربي الإسلامي بشكل مصطنع - كما تُجمَع أوراق اللعب - متجاهلين رغبات الناس هناك وطموحاتهم. قُسم إلى تسع عشرة دولة؛ كل واحدة منها تتشكل من مزيج متناقض من الأقليات القومية والدينية. لهذا السبب، إن كل دولة من الدول العربية الإسلامية تعيش إما حالة انهيار داخلي اجتماعي قومي مذهبي أو حرباً أهلية...".

يصف أوديد إينون مصر والمغرب بالنسبة إلى إسرائيل بالجبهة الغربية. وبعد أن يشرح حلمه بتقسيم مصر إلى دويلات ضعيفة إحداها قبطية، ينتقل إلى الجبهة الشرقية؛ أي الشرق الأوسط حيث بلاد الشام وأرض الرافدين:

"تقسيم سورية وفي ما بعد العراق ولبنان بحسب المناطق الدينية والقومية الخاصة بها... من أهم أهداف إسرائيل على المدى الطويل. ستقسم سورية بحسب بنيتها القومية والمذهبية؛ كما هو عليه الحال في لبنان. وهكذا، ستؤسس على الشريط الساحلي دولة شيعية علوية، وفي حلب دولة سنية، وفي دمشق ستكون هناك دولة سنية أخرى تعادي جارتها الشمالية، وسيؤسس الدروز دولتهم في حوران وشمال الأردن وصولاً إلى جولاننا. وهكذا، ستكون إسرائيل على المدى الطويل ضمانة السلام والأمن في المنطقة،

ولدينا الإمكانيات اليوم لفعل هذا.

العراق الغني بالبترول والممزق داخلياً من الأهداف الهامة لإسرائيل. إذ إنّ تفكيكه بالنسبة إلينا أهم من تفكيك سورية. فالعراق أقوى من سورية. تشكّل القوة العراقية أكبر تهديد لإسرائيل على المدى القصير. الحلّ حرب عراقية إيرانية تفتت العراق، وستكون سبباً بانهياره قبل أن ينظم ضدنا جبهة واسعة ويحاربنا. كل صراع بين الدول العربية مفيد لنا على المدى القصير، وسيقصر الطريق لتقسيم العراق وسورية إلى دول أصغر حجماً مثل لبنان. من الممكن تقسيم العراق مثل سورية إلى محافظات مذهبية وقومية؛ كما كانت في الفترة العثمانية. وهكذا ستظهر ثلاث دول (أو أكثر) مبدئياً حول ثلاث مدن: البصرة، بغداد، الموصل، وستنفصل المناطق الشيعية في الجنوب عن السنية والكوردية في الشمال. ومن الممكن للحرب الإيرانية العراقية الحالية أن تعمق هذا الاستقطاب".

بقدر ما تقترح إسرائيل تقسيم المنطقة إلى دويلات صغيرة على قاعدة قومية ومذهبية من أجل أمنها، بقدر ما تعمل على توسيع حدودها طارحة التوسعية الإسرائيلية منذ عام 1948. تنتشر بين بعض الأوساط؛ وخاصة الإسلامية، فكرة أن تركيا من بين أهداف إسرائيل التوسعية؛ مثلها مثل بقية الدول لأنها تعمل على تأسيس دولة يهودية من الفرات إلى النيل.

ويُشار إلى الشريطين الأزرقين في علم إسرائيل أنهما دليل على طرح رغبتها بتأسيس دولة يهودية بين النيل والفرات. يُطرَح أن الشريطين يمثلان الفرات والنيل. ولكن هذه أسطورة، ولا علاقة للشريطين بالنيل والفرات. استمد ذانك الشريطان من غطاء الرأس الذي يوضع عند ممارسة الدعاء اليهودي.

من ناحيتي، لم أوافق على رؤى تقسيم الشرق الأوسط إلى دويلات بموجب مشاريع غربية أو إسرائيلية، ولم يكن لدي قلق كهذا. كما أنني لم أعتقد أن الحدود المصطنعة التي رُسمت بعد الحرب العالمية الأولى ثم أضيفت إليها إسرائيل دائمة.

يمكن للحدود في الشرق الأوسط أن تتغير، ولكن هذا لا يمكن أن يتم على قاعدة مذهبية أو قومية. حتى إنّ الحرب الأهلية اللبنانية التي استمرت أربعة عشر عاماً، وعشت مراحلها كلها تقريباً لم تستطع تقسيم لبنان. ولم ينتج عن حرب العراق عام 2003 تقسيم للعراق وإعادة رسم لحدوده.

ولم أنجرف بتيار عقدة التقسيم التي خيمت على تركيا عندما بدأ

حزب العمال الكوردستاني حرباً "انفصالية" بهدف تحقيق "كوردستان المستقلة الموحدة". في مرحلة الحرب الباردة، كنتُ واثقاً من أن النظام الدولي لن يسمح بتغيير الحدود وتقسيم دولة عضو بالنظام الأمني الأطلسي. ولم أفكر بأن المنطقة ستقسم قومياً أو مذهبياً مع نشوب صراعات الهوية بعد الحرب الباردة.

وعلى الرغم من أن هذا الاحتمال يحافظ على واقعيته في كل منعطف تاريخي، لم أعتقد يوماً أنّ هذا التقسيم سيكون دائماً إن حدث. كل هذه الفرضيات لا بد أن تكون مؤقتة على صعيد التاريخ.

ترافق انتهاء الحرب الباردة مع العولمة. إذا كانت العولمة ستؤدي إلى زوال الدولة القومية، فلن تؤدي إعادة البناء إلى انكماش الدولة القومية على قاعدة تأسيس دول مذهبية وقومية أصغر. على العكس، إن اعتراف الدولة القومية بحقوق الهويات المذهبية والقومية سيعني وحدة أوسع.

وفق هذا، تصوّرت أن تركيا لن تصغر باعترافها بحقوق الكورد وقيامها بواجباتها المتعلقة بهذا الاعتراف، بل على العكس ستكبر. وكانت هذه النظرة دليلي في كل تحولاتي السياسية ومواقفي.

كبر تركيا يمكن أن يتحقق بإلغاء حدود ما بعد الحرب العالمية الأولى، وإنهاء عملية إنكار الهوية الكوردية وتقسيم الكورد بين ثلاث دول.

انطلاقاً من هذا، دافعت عن الفيدرالية في العراق، وتشكيل إدارة إقليم كوردستان والتوافق بين تركيا وكوردستان العراق. وبالشكل نفسه، تحمستُ للثورة العربية؛ على اعتبار أنها ستمحو الحدود التي رسمت في نهاية الحرب العالمية الأولى، وستُنهي الديكتاتوريات العربية وتحرر مجتمعاتها، وسيحصل الكورد في سورية على وضع جديد.

اعتبرتُ حل تركيا للقضية الكوردية قضية حياتية من أجل تحقيق هذا كله. وتخيلت الحدود العراقية السورية التركية مثل الحدود البلجيكية الهولندية اللوكسمبرغية.

أسعدني سير الحياة باتجاه تحقيق هذا الحلم؛ على الرغم من كون الطريق صاعداً ونازلاً ومتعرجاً.

مساء يوم الجمعة في 23 آذار عام 2012، كنت أنظر إلى سهول أرض الرافدين مترامية الأطراف من شرفة مدرسة زنجيرية الدينية التي تعود إلى عام 1385 تحت القلعة الحصينة الباقية من قبل الميلاد على ارتفاع أكثر من ألف متر عن سطح البحر في ماردين. كانت السهول خضراء، ولم تتحول إلى بحر أصفر لأن حر الصيف لم يحل بعد. وكان جمالها ساحراً

ولا يقل عن سحر بحر اسطنبول في اليوم الأول بعد النيروز والربيع.

مهما كان منظر أرض الرافدين هذا من ماردين مألوفاً لي باعتباره موقفاً إجبارياً خلال رحلاتي المتكررة إلى كوردستان العراق، فإنني أتأثر به.

لا يمكن تمييز الحدود مع سورية عندما ننظر من ماردين إلى سهول الرافدين الأعلى. لا تُميز حدود سورية إلا في الليل؛ عندما تزيّنها أنوار المصابيح المتلألئة. عمودا مقابلها تماماً، ووراء التلال على الخط المائل هناك الدرباسية. إذا تقدمت نحو السهول وعلى بعد أربعين أو خمس وأربعين دقيقة إلى اليسار تقع نصيبين. وعلى الطرف الثاني من سكة الحديد التي تمر من نصيبين تقع القامشلي؛ أكبر المدن الكوردية في سورية.

في الحقيقة، عندما ننظر من ماردين نرى في أفق نظرنا المنطقة السورية ذات الغالبية الكوردية من سهول أرض الرافدين. ينعطف دجلة هناك؛ حيث إنك لا تستطيع أن تدرك أين تركيا وأين سورية. وعلى مبعدة أيضاً هناك سيلوبي والخابور؛ أي كوردستان العراق. نقاط اتصال بين تركيا والعراق وسورية...

لم يرتبط سكان هذه الأرض نفسياً بمراكز الحياة التقليدية السورية في حلب ودمشق. وإذا كان هناك رابط، فهو لا يتجاوز كونه رابطاً إدارياً. فالحدود المصطنعة التي رسمها المنتصرون في الحرب العالمية الأولى فصلت بين الإخوة فصلاً مصطنعاً.

فجأة، تُمحى الحدود التركية السورية من سهول الرافدين الأعلى، والحدود التركية العراقية من ذرى الجبال التي لا يمكن تجاوزها.

الشرق الأوسط منطقة حدود لا ضرورة لها رسمتها قوى من خارج المنطقة.

صباح الأربعاء، في 28 آذار كنا - مستشار الخارجية السفير فريدون سينيرلي أوغلو وأنا - أمام جمال مبهر آخر. كنا نتحدث حول الشرق الأوسط من الطرف الآسيوي في اسطنبول ونحن نشاهد منظر شبه الجزيرة التاريخية التي تضم أيا صوفيا وجامع السلطان أحمد وقصر طوب قابِ، والجزر الشبيهة بحبات السبحة في أفقنا، وبحر مرمرة الأزرق الممتد هادئاً نحو الجنوب وكأنه نائم.

اجتمعت بفريدون سينيرلي أوغلو عدة مرات في العديد من عواصم الشرق الأوسط. وحتى إننا التقينا في رأس إحدى السنوات في إحدى تلك العواصم. استمعت منه كثيراً عن دوره بتشكيل سياسة تركيا الشرق أوسطية الجديدة في الألفينيات، ورؤيته للمنطقة.

كنا نتبادل الحديث يومئذ حول احتمال تقسيم العراق. وإلى جانب العراق، نستعرض توقعاتنا حول مستقبل سورية.

قلت فجأة: "فريدون، هل سيطرأ تغيير على الحدود بعد انهيار النظام السوري؟ ما رأيك؟".

- بعد انهيار النظام السوري لن تكون هناك ضرورة للحدود! ستدخل المنطقة في تكامل اقتصادي تفقد فيه الحدود أهميتها...

حسن، كيف سيكون وضع الكورد؟ هل سيقبل كورد سورية بوضع أدنى من وضع أشقائهم المجاورين لهم في العراق بعد انهيار النظام؟ ولماذا سيقبلون؟ من جهة أخرى، في حال حصول كورد سورية والعراق على وضع متشابه، فهل سيقبل كورد تركيا شمالهما بأقل من وضعهم على الرغم من أنهم يشكلون أكثر من نصف الكورد، وهم يتقدمون على أشقائهم على صعيد المؤسسات والتجربة السياسية؟

هل يمكن لتركيا أن تبقى كما هي من دون إجراء تغيير أساسي بوضع كوردها، وألا تتوافق مع المستجدات أثناء تعرض الشرق الأوسط لتغيير هائل؟

قبل مرور وقت طويل، بدأت تركيا كلها تطرح هذه الأسئلة إثر تسلم الكورد كوباني في 19 تموز 2012، ثم عفرين وعامودا وديريك من نظام البعث السوري، ودخول القامشلي أكبر المدن الكوردية مع الدرباسية حالة الانتظار.

ارتبكت أنقرة ثانية إثر حصول الكورد هناك على "إدارة ذاتية" أو "وضع جديد". ونشرت الصحف التركية عنواناً عريضاً: "كوردستان ثانية بجوار تركيا". عبارتا "كوردستان سورية" أو "كوردستان الغربية" زادتا من القلق المغذى لدى الرأي العام. وقبل مرور وقت طويل، أظهرت الدولة التركية ردة فعلها "المناهضة للكورد".

فقد قال رئيس الحكومة: "عندما ننظر إلى هناك، نجد وضعاً غريباً؛ خاصة في المنطقة الممتدة إلى عفرين، ومن القامشلي إلى تلك المنقطة... ومنطقة كوباني طبعاً حساسة...". وكأنه تذكر ما قاله قبل ستة عشر شهراً على طريق أربيل أنقرة؛ شرط ألا يُنشر.

في 11 تموز تم تحقيق مصالحة بين المجموعات الكوردية السورية بحضور مسعود برزاني، ووقعت اتفاقية من سبع مواد. قُرِّرَ فيها توحيد قوى "المجلس الوطني الكوردي" الذي يهيمن عليه برزاني، و"مجلس الشعب" الذي يهيمن عليه "حزب التغيير الديمقراطي/ PYD " والذي يعتبر فرع

سورية لحزب العمال الكوردستاني، ويقترح تأسيس "هيئة كوردية عليا" يتمثل فيها كل طرف بخمسة أعضاء.

إثر الهلع الذي أوجدته هذه التطورات، قال طيب أرضوغان: "لا يمكن اعتبار الهيكلة الجديدة (في شمال سورية) هيكلة كوردية. هذه هيكلة PYD ، و PKK ، وسيكون لها مكان في توازناتنا الحساسة. لن نبارك هذا التكوين".

وأضاف أحمد داوود أوغلو أن التكوين الكوردي يمكن أن يفتح المجال لانقسامات أكبر في الشرق الأوسط؛ بموقف يبدو أكثر تطوراً: "إذا حصل فرض أمر واقع كهذا، فإن العرب والتركمان على مبعدة قليلاً، والنصيريين والدروز سيؤسسون أمراً واقعاً مشابهاً، وستلبنن سورية".

وبهذا أعلنت تركيا أنها لن تسمح بتشكيل كوردي في سورية. "الخطوط الحمراء التركية" في زمن ما حول شمال العراق، ترسم اليوم لسورية.

وكأن تجربة العراق قد نُسيت. "الخطوط الحمراء" التي رسمت لشمال العراق محيت أيضاً...

أكّدتُ في تلك الأثناء مرات عديدة خطأ تناول القضية الكوردية، وبالتالي عدم إمكانية الاستمرار بسياسة تركيا تجاه العراق. ولهذا السبب تعرّضتُ لافتراءات واتهامات كبرى، ولكن تعامل تركيا مع الكورد دخل في مساره الذي يجب أن يكون عليه مع ضياع بضع سنين.

خطوط تركيا الحمراء أمام كورد سورية أيضاً لن تكون لها فاعلية، لأن تعامل تركيا مع كورد سورية ثمرة سياسة تركية مع الكورد، ولا يمكن الاستمرار بها.

يجب أن يكون الدستور على النحو الآتي: الأفضل للكورد هو الأفضل لتركيا.

التاريخ يسير بسرعة قصوى في الشرق الأوسط. ولكي تواكب تركيا سرعة التاريخ، يجب عليها إما أن تحل القضية الكوردية، أو تحل القضية الكوردية التركية...

السفر إلى ما لا نهاية

"إذا أردت ألا تُنسى؛ إما اكتب ما يقرأ، أو افعل ما يُكتب".

بنجامين فرانكلين

كتابة التاريخ طريقة للتخلص من عبء الماضي. كتابة التاريخ تنقذنا من التاريخ.

بنديتو كروس

تغير وجه التاريخ في الشرق الأوسط في مطلع 2011.

فالحيويّات التي ظهرت مع مطلع عام 2011 أدّت إلى انهيار أسماء اقترنت بأسماء بلدانها؛ وكأنها تدير هذه البلدان من الأزل إلى الأبد كانهيار أوراق اللعب المتسلسلة أمام الجماهير التي لا اسم لها.

حلت الشعوب البطلة والأفراد العاديون في القرن الحادي والعشرين محل الأبطال وصناع التاريخ في القرن العشرين. لم يكن ثمة قائد تغيير ثوري أو بطل يدير الحركات الشعبية الكبرى في مصر وسورية. يبدو أن القرن الحادي والعشرين سيقلب كل ما في القرن العشرين، وستتغير الأنظمة الباقية وقواعد اللعبة.

لهيب نار التغيير الكبرى التي أشعلتها شرارة تونس انتقلت إلى مصر في 25 كانون الثاني 2011، وانتبهتُ إلى أن صفحة جديدة وطويلة من صفحات التاريخ قد فُتحت، وستؤثر على المنطقة أولاً، والعالم ثانياً.

بعد مقالاتي الانفعالية والحماسية نتيجة إدراكي المبكر لهذا، تلقيت رسالة من ابن جلال طالباني قوباد ممثل إقليم كوردستان في واشنطن على بعد آلاف الكيلومترات في 28 كانون الثاني، أي بعد ثلاثة أيام من بدء اعتصام ساحة التحرير في القاهرة. قال لي قوباد: "يمكنك أن تخرج الرجل من الثورة، ولكنك لا تستطيع إخراج الثورية من الرجل" (الرجل في هذا المثال هو أنت).

نعم، شعرت بالحماسة لانتقال الثورة العربية من مصر إلى سورية قبل مرور زمن طويل، وبوقت أسرع مما توقعته. بالتأكيد، إنّ لارتباطي بالمنطقة وحبي لشعوبها، وقربي منها، وتمرد ضميري على الظلم الذي عاشته هذه الشعوب، إضافة إلى وصف قوباد طالباني ثوريتي التي لم أستطع إخراجها من داخلي دوراً بهذا الشعور.

ولكن هناك ما هو أبعد من كل هذا. فقد كنت أشعر بأن الثورة العربية ستفتح آفاقاً واسعة أمام تركيا؛ إضافة إلى الكورد والعرب.

النظام الذي نشأ بعد الحرب العالمية الأولى محا الكورد من الخريطة السياسية. وفي مرحلة ما بعد الحرب الباردة، وخاصة بعد التغييرات التي حصلت في العراق برز الكورد على الساحة التاريخية. يمكن للثورة العربية التي انطلقت عام 2011 أن تمهد الطريق لوحدة الكورد.

أما تركيا فيمكن أن تعود إلى مسرح التاريخ باعتبارها روما الشرقية الديمقراطية عبر العلاقة الفيدرالية أو الكونفدرالية التي ستؤسسها مع الكورد.

يمكن للصفحة التاريخية الجديدة أن تتغلب على الانقسام السائد في المنطقة منذ سايكس بيكو ومرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى، وتمحي الحدود القائمة، وتُحضر أرضية إعادة وحدة المنطقة. هذا ممكن وإن طال الزمن، ومر من مرحلة مؤلمة ودموية.

أو إن حلماً جدياً سيطر عليّ.

لعلني ألهث خلف هذا الحلم منذ عشرات السنين. يمكن التعبير عن هذا الحلم بالشكل الأكثر اختصاراً عبر عيش تركيا متصالحة وموحدة مع الكورد، وإلغاء الحدود المرسومة بعد الحرب العالمية الأولى بحكم الواقع، ودخولها إلى مسرح التاريخ كقوة سليمة لمجتمع ديمقراطي حديث.

في الحقيقة، إنني أسافر ملاحقاً هذا الحلم في الشرق الأوسط منذ عشرات السنين. إنه سفر من أجل شرق أوسط مستقبله كما كان قديماً متعدد الأديان والمذاهب والقوميات والثقافات، وغير مقّسم كما هو عليه الآن...

انقطع سفر صديقي الذي يصغرني بعشرين سنة أنتوني شديد إلى بلاد الشام والرافدين؛ أي الشرق الأوسط المحفوف بألف خطر وخطر بنوبة ربو على الحدود وهو يحاول الدخول سراً من سورية إلى تركيا في 16 شباط 2012.

قال أنتوني في أحد اللقاءات قبل موته بفترة قصيرة: "تاريخ الشرق الأوسط في القرن الأخير تاريخ خرائط. وهذه الخرائط رسمت على الأغلب بطموحات إمبريالية. ولكنها في الوقت نفسه خرائط ضيّقت حدود هوياتنا".

طرح أنتوني شديد كتابه "بيت حجري: بيت وعائلة وشرق أوسط ضائع/ House of stone: A Memoir of Home, Family and a Lost Middle East " الذي يتضمن سيرته الذاتية على القراء بعد وفاته بعشرة أيام. في كلماته الأخيرة التي أرسلها لناشره أشار إلى جذور عائلته في مرجعيون جنوب لبنان، وجذر والدتي الذي يعود إلى سيلانيك مبرزاً موضوع الحدود.

"رسم الحدود في القرن العشرين أدى إلى صدمات مختلفة الحجم في المنطقة. التطهير العرقي والديني في تركيا واليونان بعد الحرب العالمية الأولى أزال نسبة كبيرة من التنوع. أما فظاعة القومية والمجازر فقد أفقدت سيلانيك المشهورة بتعدديتها هذه الخصوصية. أعتقد أن مرجعيون هامش في أسفل صفحة سيلانيك. كنت أعتقد أن لا أحد في مرجعيون يتوق إلى إدارة العثمانيين؛ لأن المجازرَ ارتكبت في الفترة العثمانية، وفُرضت على المسيحيين واليهود ضرائب وتمييز بالتجارة. ولم تكن ثمة مساواة في تلك المرحلة. وعلى الرغم من هذا، صُدمت بأناس يتوقون بحنين إلى الزمان والمكان اللذين تمثلهما الدولة العثمانية. مهما يكن، إن تجار مرجعيون كانوا يصلون حتى العريش على شاطئ شبه جزيرة سيناء عبر فلسطين، ومن هناك كانوا ينزلون عبر النيل إلى السودان الذي يصعب الوصول إليه. كانت مرجعيون محطة بين حوران عنبر الحبوب جنوب سورية وعكا أكبر موانئ بلاد الشام. الحرب العالمية الأولى، والحدود التي رُسمت بعدها كانت موتاً لحالة مرجعيون السابقة وهويتها. وكانت أيديولوجيات تلك الفترة – القومية العربية، والقومية السورية، والشيوعية – تحلم بجغرافية أوسع. ولكن الحدود التي رسمت بالحروب مع إسرائيل عامي 1948 و1967 أفشلت هذه الأيديولوجيات. ومع خطوط الحدود على الخرائط ضاق معنى الفرد. تركت الأيديولوجية مكانها للهويات في الحرب الأهلية اللبنانية عام 1975، وبدأ المرجعيونيون يعرفون بأنفسهم بأنهم مسيحيون فقط، وحتى روم أرثوذكس...".

سأله ناشره: "أين هذا كله من الانتفاضات العربية؟".

وكان جواب أنتوني:

"... أحد أهم الجوانب التي لفتتني وسط هذا الصراخ من تونس إلى البحرين هو قوة تطوير طراز جديد للفكر المتعلق بالفرد والمواطنة. هذا يتطلب بجوهره قوة خيال... إنه خيال لا يتعلق ببيتنا (بمعنى وطننا) فقط، بل بموهبتنا على إدراك المجتمعات والهويات الأوسع...".

إثر هذا التوضيح، طرح عليه ناشره سؤالاً آخر: "أنت كثيراً ما تتحدث في كتابك عن بلاد الشام. ما هو هذا المفهوم؟ وأين يدخل في تعريف الهويات؟".

كان جواب صديقي ملخص ما بحثت عنه في سفري إلى بلاد الشام والرافدين، أي الشرق الأوسط على مدى ما يزيد عن أربعين عاماً، وحاولت الوصول إليه:

"أنا أعتبر بلاد الشام الحالة الأكثر قدماً والأكثر تسامحاً وحتى تفهّماً

من الشرق الأوسط اليوم. قبل كل شيء، كانت تلك تعني الحركة؛ أي نقيض الحدود التي تحدثت عنها سابقاً. كانت الفروق متقاطعة ومتداخلة. والدولة العثمانية على الرغم من أنها مرحلة مليئة بالدم والصراع والمجازر، فقد كانت ساحة تقاطع، ولعبت دوراً كنقطة التقاء للغات والثقافات والأديان والتقاليد. على الأقل، كانت بلاد الشام على صعيد الفكر منفتحة ومتنوعة...".

أنا أيضاً لم أكن متصالحاً قط مع الحدود التي قسّمت الشرق الأوسط باعتباره إرثاً للدولة العثمانية. دخلتُ سوريا من تركيا عابراً الحدود سراً من دون جواز سفر ذات ليلة حزيرانية حارّة عام 1971. وتنقلت بين سورية ولبنان مرات عدة من دون جواز سفر. وعندما كنت أنظر إلى المواقع الإسرائيلية من هضبة الجولان أو جنوب لبنان، كنت أعرف أن هناك فلسطين، وقد رُسمت حدودٌ باسم إسرائيل، وأن الفدائيين الذين يعبرون إلى هناك يضحون بأرواحهم لتحقيق حلم استعادة وطنهم المفقود.

أدركت بعد فترة من الزمن أن النضال الفلسطيني يعني بجانب من جوانبه نضالاً من أجل محو الحدود.

الحدود السورية التركية التي عبرتها من دون جواز سفر كانت سكة حديد أُنشئت لكي تربط بين الناس. سكة الحديد التي أُنشئت لهذا الهدف في المرحلة العثمانية تحولت إلى حدود لا يمكن تجاوزها تفصل بين الناس.

عبرت الحدود، وكان أدلاؤنا بعبور حقل الألغام رجال درك أتراكاً دفعنا لهم رشوة برفقة مهربين، ونزلنا في أحد بيوت قرية عربية على الطرف المقابل فور عبورنا لكي نرتاح. أول ما لفت نظري هو صورة جمال عبد الناصر في مضافة القروي العربي بزيه البدوي. كانت الألحان العربية تصدر من مذياعه، وكأن الحدود بجانب من جوانبها حقيقة. فجأة، انتقلنا من عالم إلى آخر.

بعد مغادرتي تركيا، وقضائي أسبوعين في دمشق، أُرسلت إلى معسكر قرب قرية معلولا يقع على بعد سفر ساعة شمال شرقي دمشق من أجل التدريب العسكري. معلولا قرية مسيحية تشبه قابادوقيا في تركيا، وخصوصيتها أنها ما زالت حتى الآن تتكلم لغة السيد المسيح.

بعد شهر ونصف الشهر في معلولا نُقلنا إلى الجولان. المعسكر الفلسطيني الذي نزلنا فيه كان محاطاً بقرى درزية. هناك التقيت الدروز لأول مرة.

بعد فترة انتقلنا إلى لبنان. في المخيم المحاط بقرى شيعية جنوب

لبنان، عرفت الفسيفساء المذهبية اللبنانية بالإضافة إلى اللاجئين الفلسطينيين الذين يعيشون الفاقة بعد تركهم بيوتهم منذ عام 1948. كان رأس الناقورة يظهر جنوب مدينة صور التاريخية التي تعود إلى عصر الفينيقيين على بعد ربع ساعة تقريباً. كانت تلك حدود إسرائيل التي لا يمكن عبورها حتى بجواز السفر، ويعيش وراءها يهود.

خلال الفترة التي عشتها في بيروت، رأيت المذاهب المسيحية والإسلامية كلها تعيش في مدينة واحدة، وتتوزع على لبنان كله مثل نقط جلد النمر في آن واحد.

في مخيم برج البراجنة – أكبر المخيمات الفلسطينية في لبنان، والقريب من مطار بيروت، والذي قضيت فيه سنة بشكل متواصل – أفضى لي شيخ فلسطيني بهمه على النحو الآتي: "في زمن العثمانيين كانت القدس لكم واسطنبول لي. لم تكن هناك حدود. الآن لا نستطيع العودة إلى فلسطين، ولا نستطيع الذهاب حتى إلى دمشق. الذهاب من دمشق إلى بغداد ليس سهلاً. الحدود في كل مكان. أيهما أفضل؟ تلك الأيام أم هذه؟".

كان ذاك في عام 1972. بعد ثلاث سنوات، أي في عام 1975 انفجرت الحرب الأهلية اللبنانية. بحسب مواقع الحرب الأهلية للبلد المقطوعة فلسطين من جنوبه بإسرائيل، والمحاط من شماله وشرقه بسورية رُسمت حدود عسكرية جديدة. كأن لبنان تقسم إلى قطع أصغر بسب الهويات التي يضمها.

مرت تلك الفترة، وبقيت الهويات، ولم يزل لبنان. بقي لبنان أيضاً، ولكنه لم يعد لبنان نفسه.

أعتبر أنني ركبت قطار الرافدين السريع الذي سافرت بواسطته عبر التاريخ من الماضي إلى الحاضر من محطة بيروت. عرفني الكورد السوريون إلى جلال طالباني القائد الكوردي العراقي الذي أصبح في ما بعد أول رئيس جمهورية عراقية منتخب في بيروت. وأنا عرّفت القائد الكوردي العراقي بعد سنوات طويلة إلى رئيس الجمهورية التركية. بدأت تركيا تتعلم أنها لن تستطيع تجاوز الحدود والانفتاح على الشرق الأوسط من دون كوردها، ومن دون مواجهة التاريخ.

لا يبدو ممكناً لدولة تأسست قبل قرن في منطقة الشرق الأوسط على أساس قومي أن تستمر بعقيدة التحرر. فإمّا أن تصغر أو تكبر، لا يمكن أن تبقى كما هي.

وإذا لم تكن تركيا دولة شرق أوسطية بشكل تام، فإن حدودها

رسمت مع حدود دول الشرق الأوسط في نهاية الحرب العالمية الأولى. رُسمت حدودها الغربية إثر هزيمتها في حرب البلقان عام 1912. لهذا السبب، يبدو أن تشكل تركيا الجغرافي والذهني الجديد سيكون حسب القالب الذي ستدخله تطورات الشرق الأوسط؛ وعلى رأسها القضية الكوردية.

لم نعش أعمارنا عاملين على تقسيم تركيا، بل على العكس من أجل أن نكبّرها. ما نفهمه من الكبر ليس تجاوز الحدود بالمعنى الجغرافي وضم أرض إلى أرضها. إنه كبر بالذهنية. تجاوز الحدود عبر هذا الطريق يمر من حل القضية الكوردية، وتشكيل تركيا وحدة مع الكورد المقسمين في المنطقة كلها.

الشرط الذي لا بد منه لحل تركيا قضيتها الكوردية يكمن في تحقيق المساواة الذهنية والإدارية بين الأتراك والكورد. تركيا التي تستطيع تجاوز الحدود ستتجاوز الحدود التي رسمها الغرب بعد الحرب العالمية الأولى، وستفقدها معناها.

بقدر ما عاش الشرق الأوسط كوحدة كاملة عبر التاريخ كانت آخرها في المرحلة العثمانية، فقد مر بمراحل تاريخية عديدة مجزّأة. هل يسير بعد عام 2011 نحو مزيد من التفكك، أم نحو التغلب على حالة التجزئة التي عاشها ما يقارب القرن؟

لا أعرف.

وكما لم أر هذا بعد، لا أعرف إذا كنت سأراه أم لا.

في هذه النقطة بالضبط، يخطر ببالي المثل الأمريكي القائل: "الرحلة نفسها أهم من نقطة الوصول/ Journey is more important then the destination ".

هذه هي مكافأة سفري في قطار الرافدين السريع التي قدمتها لي الحياة.

انتهى

---

[1] عبد الحميد درويش أحد مؤسسي الحزب الديمقراطي الكوردستاني في سورية عام 1975. وتفرّع من ذلك الحزب اثنا عشر حزباً. وكان عبد الحميد درويش عام 2012 قائد الحزب التقدمي الديمقراطي

الكوردي في سورية، ومسؤولاً عن العلاقات الخارجية في المجلس الوطني الكوردي الذي شكلته المعارضة السورية. أما عزيز داوود فقد كان قائد حزب المساواة الديمقراطي الكوردي السوري، وهو ممثل في المجلس الوطني الكوردي. (توفي في 11/4/2013... المترجم)

[2] منظمة مستقلة تأسست عام 1927 في أوساط المثقفين القوميين الكورد في بيروت. أول رئيس لها علي بدر الدين جلادت. وكان من بين المؤسسين كاميران بدرخان وأكرم وقدري جميل باشا. خويبون هي التي أشعلت شرارة تمرد جبل أغري. وقد أخمد التمرد عام 1930. ولجأ قائد التمرد إحسان نوري باشا إلى إيران.

[3] كان غازي كنعان (1942-2005) "رجل سورية القوي في لبنان"، ورئيس المخابرات بين عامي 1982-2002. أُعيد إلى دمشق عام 2002. اختلف مع بشار الأسد إثر مقتل رفيق الحريري وهو وزير للداخلية. ادعي أنه انتحر، ولكن هناك اعتقاداً سائداً بأن النظام السوري قد صفّاه.

[4] ما زالت المناطق المذكورة "مناطق خلاف" بين بغداد وإدارة الحكم الذاتي في كوردستان. ويطالب الكورد بضمها إلى منطقة الحكم الذاتي الكوردي لأنها تضم غالبية كوردية.

[5] في عام 2010، بعد سنوات من لقائي هذا، أخبرني مراد قرة يلان بأنه كان على علم بلقائي طالباني. كان قرة يلان في تلك الأثناء في هولندا. وقد اتصل به طالباني وأخبره أنه سيرسل رسالة إلى عبد الله أوجلان ويريد جوابها على وجه السرعة. اتصل قرة يلان بأوجلان الذي كان في دمشق، وأخبره بأن لديه رسالة يريد طالباني أن ينقلها إليه. وبسبب ضيق الوقت، طلب منه أوجلان أن يفتح الرسالة ويقرأها له عبر الهاتف. ولأن الرسالة مكتوبة بأحرف عربية أمّن مترجماً يقرأ له رسالة طالباني. يقول طالباني إنّ رئيس الجمهورية التركية تورغوت أوزال يدعوه للذهاب إلى تركيا، ويسأله عن رأيه بالأمر. أبلغ عبد الله أوجلان طالباني عبر قرة يلان أنه يجب أن يقابل دعوة تورغوت أوزال بإيجابية شرط ألا يستخدم الشعب الكوردي أداة للمساومة. لم أستغرب عندما نَقَل إلي مراد قرة يلان هذه المعلومة بعد عشرين سنة تقريباً، وضحكت. قلت لقرة يلان: "إنه العم جلال التقليدي، يحل الأمور بازدواجية كما يفعل دائماً...".

[6] سأعرف من محمد علي بيراند في ما بعد أنه هو الذي قام بهذا التواصل. بحسب ما شرحه لي بيراند، لم تكن لتورغوت أوزال علاقة باللقاء الذي أجراه مع طالباني أثناء إقامته في بروكسل وعمله هناك، وأن

الأمر تم نتيجة اهتمام بيراند بالقضية. وفي هذا الإطار، قابل محمد علي بيراند عبد الرحمن قاسملو زعيم الحزب الديمقراطي الكوردستاني الإيراني وجلال طالباني.

[7] (الفريسك أو الفريسكو: أحد أشكال الفن التي يتم من خلالها استخدام الجص لتجصيص سقف أو جدار ما بشكل فني).

[8] مثقف لبناني من أب فلسطيني وأم سورية. اغتيل عام 2005 بعملية يعتقد أن المخابرات السورية قد أعدتها. تُرجم له إلى التركية كتاب تأملات في شقاء العرب بعنوان يعني "شقاء العرب" ترجمة أوزغور غوكمنَ، وصدر عن دار إلتشم (تواصل) عام 2011.

[9] تحظر المادة 141 من قانون العقوبات التركي تأسيس جمعيات شيوعية أو جمعيات تهدف إلى التخريب وإقامة نظام ديكتاتوري أو عرقي وتوهن الشعور القومي أو تقضي عليه. والمادة 142 تعاقب من يقوم بالدعاية للجمعيات الواردة في المادة 141. وقد تم إلغاء هاتين المادتين من القانون ضمن سلسلة التحول الديمقراطي في العشر الأول من القرن الحادي والعشرين... المترجم.

[10] بفضل خبر منشور في نيويورك تايمز بتاريخ 22 أيلول 2012 اكتشفت أن ما شرحه لي أحمد داوود أوغلو على أنه "سياسة تركية" هو في الوقت نفسه سياسة الولايات المتحدة الأمريكية. يتحدث فيه الكاتب ميشيل غوردون عن أن الرئيس باراك أوباما تدخل شخصياً من أجل أن يرفع طالباني يده عن الرئاسة، وقد مارس ضغوطاً على مسعود برزاني في هذا الموضوع إضافة إلى طالباني. وحسب كلامه، إن أوباما اتصل بطالباني في 4 تشرين الثاني، وطلب منه التخلي عن منصب رئاسة الجمهورية لصالح القائمة السنية التي يقودها الشيعي العلماني إياد علاوي. وانطلاقاً من فكرة أن المالكي قد حظي بقوة زائدة من خلال السلطة فإن الإدارة الأمريكية دعمت وصول عادل عبد المهدي لرئاسة الحكومة. وعندما لم يتحقق هذا النوع من المداخلات، تدخل نائب الرئيس جو بايدن، واقترح معادلة جديدة تقضي ببقاء المالكي في رئاسة الوزراء، وتسلم إياد علاوي رئاسة الجمهورية، واكتفاء طالباني بوزارة الخارجية. وبعد رفض طالباني كل التدخلات الأمريكية بهذا المنحى التفت الولايات المتحدة على الزعيم الكوردي، وصارحت برزاني بنواياها، وطلبت منه إبعاد طالباني. وقد أرسل أوباما إلى برزاني رسالة يعبر فيها عن رغبته هذه. ولكن برزاني اشتكى من التضحية بالكورد في سبيل حل المشاكل بين العرب الشيعة والسنة، ورفض ضغوط أوباما ومقترحه.

ووصف برزاني الضغوط التي تعرض لها في الأسبوع الثاني من شهر تشرين الثاني لعام 2010: "أشد ضغوط تعرضت إليها في حياتي". وفي اللقاء الذي أجراه كريستيان أمانبور مراسل CNN الشهير مع وزير الخارجية العراقي هوشار زيباري في 26 أيلول 2012، أورد معلومات خبر نيويورك تايمز. المعلومات الواردة في نيويورك تايمز مقتبسة من كتاب يعده ميشيل غودون بالاشتراك مع الفريق المتقاعد برنارد إ. ترايئور بعنوان: " Story Inside The Obama Barack to Bush . W George from , Iraq for Struggle of /قصة خلفية الصراع من أجل العراق من جورج دبليو بوش إلى باراك أوباما".

[11] مذكرة الحكومة التي تطلب من البرلمان الموافقة على فتح تركيا أراضيها للقوات الأمريكية من أجل شن هجومها على العراق عام 2003، والتي رفضها البرلمان... (المترجم)

[12] كنا نسميه "العم هو" كما يسميه الفييتناميون. ووقفت دقيقة صمت أمام جثمانه المحنط في هانوي مثلما حُنِّطت جثمان لينين في موسكو وجثمان ماو في بيجين. وعرفت في فييتنام أن ترجمة العم هو بالفييتنامية "باه هو/ Ho Bac ".

[13] نشر مركز الدراسات الشهير في القدس "(JCPA) Jerusalem Center for Public Affairs " كتاباً من تأليف العقيد المتقاعد د. جاكوس نرياه الذي شغل منصب مستشار الشؤون الخارجية لرئيس الحكومة الإسرائيلية المقتول إسحاق رابين، ونائب رئيس "قسم التقييم للمخابرات العسكرية الإسرائيلية" في 30 آب 2012 بعنوان "مستقبل كوردستان بين تركيا وحرب العراق والانتفاضة السورية". يتحدث د. جاكوس نرياه في مدخل الكتاب عن التوزيع السكاني للكورد:

"الكورد هندو أوروبيون هاجروا إلى الشرق الأوسط مثلهم مثل الإيرانيين. سكن أغلبهم في المناطق الحدودية بين إيران والعراق وتركيا وسورية التي تسمى كوردستان. يشكل الكورد 7% من سكان إيران، و15-20% من سكان العراق، ومن المحتمل أنهم 9% من سكان سورية، و20% من سكان تركيا. يشكل الكورد ثاني أكبر الأقليات في هذه الدول ما عدا إيران. يعيش في تركيا 55% من كورد العالم تقريباً. أما كورد العراق وإيران فيشكلون في كل منهما 18% من كورد العالم، أما الذين في سورية فيشكلون أكثر من 5% بقليل.

من المتوقع أن عدد الكورد الذين يعيشون في جنوب شرق آسيا

من 26 إلى 34 مليوناً. وهناك مليون أو مليونا كوردي يعيشون في الشتات. يعتبر الكورد أكبر مجموعة قومية في الشرق الأوسط بعد العرب والفرس والأتراك".

ومن المعروف أن الكورد يعيشون في هذه المنطقة منذ القرن السادس أو السابع قبل الميلاد.

[14] جنكيز تشاندار، منشورات (TESEV)، حزيران، 2011.